العقائد السلفية

بأدلتها النقلية والعقلية

تأليف فضيلة الشيخ

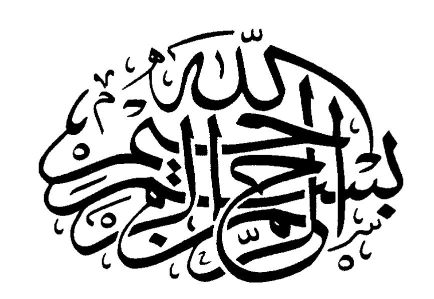
أحمد بن حجر آل بوطامي البنعلي

رئيس قضاة المحاكم الشرعية بدولة قطر

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط والسي دي
فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت : ٥٢٢٢٠٠٢

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩



العَقائِدُ السَّلَفِيَّةُ

بأدِلَّتِها النَّقلِيَّةِ والعَقلِيَّةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ


رقم الإيداع
٥٠٧١ / ٢٠٠٥
الترقيم الدولي
977-331-269-X

العقائد السلفية
بأدلتها النقلية والعقلية

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

تمهيد :

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وعلى آله وصحبه ومن اقتفى نهجه .

أما بعد :

فإن علم توحيد الإله بأقسامه الثلاثة ؛ أشرف العلوم وأجلّها ، إذ هو الدين الصحيح الذي لا يقبل الله دينًا سواه ، وهو المقصود بقول الله تعالى : ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** (٨٥) ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

ولفشو البدع والضلالات ، والديانات والمذاهب والنحل الباطلة ، واختلاط الحق بالباطل ، فقد أصبحت حاجة المسلمين إليه فوق كل حاجة ، والضرورة إليه فوق كل ضرورة ، إذ لا نجاح في الدنيا ، ولا سعادة في الآخرة إلا بالعقيدة الصحيحة ، وهي الموافقة للكتاب والسُنَّة .

هذا وكنت قد شرعت في شرح منظومتي المسماة « الدرر السنية في عقد أهل السُنَّة المرضية » في سنة ١٣٥٣هـ ، وأنا بالإحساء لطلب العلم وسميته [**العقائد السلفية بأدلتها النقلية والعقلية**] ، ولقلة المصادر وقتذاك لم أتمكن من مواصلة الكتابة .

وعندما كنت في رأس الخيمة واقتنيت بعض الكتب ، واصلت الكتابة في الشرح حتى جئت قطر ، وقد منَّ الله عليَّ بالكتب ، فاستأنفت الكتابة في فترات متقطعة حتى سنة ١٣٩٠هـ أكملت الجزء الأول وطبعته في بيروت ، ثم فترت عن الكتابة لانشغالي بالقضاء وبعض المؤلفات الأخرى .

وقبل سنتين أو ثلاث تقريبًا ، يسَّر الله عليَّ حتى أكملت الجزء الثاني في شهر ذي الحجة سنة ١٤١١هـ ، مع إضافات عديدة في الجزء الأول ، أسأل الله العظيم أن ينفع بها عباده المسلمين وأن يثيبني يوم الدين ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

وهذا ولا أبريء نفسي من الخطأ والقصور ، لأن العصمة للأنبياء والرسل عليهم

الصلاة والسلام ، وما أحسن من قال :

وإن تجد عيبًا فسد الخللا ــــ فجل من لا عيب فيه وعلا

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تأليف فضيلة الشيخ
أحمد بن حجر آل بوطامي البنعلي
رئيس قضاة المحكمة الشرعية بدولة قطر رحمه الله

الدوحة في
غرة جمادى الأولى ١٤١٢هـ
الموافق ٨ نوفمبر ١٩٩١م

مقدمة

قبل الدخول في شرح الدرر السنية في عقد أهل السُنَّة المرضية ، فإنه من الأجدر بي أن أقدم مقدمة في أحوال العقيدة السلفية وأطوارها حتى عصرنا ، ومزايا هذا الشرح بالنسبة لأكثر الكتب المؤلفة في هذا العلم .

فأقول وبالله التوفيق وبيده أزمة التحقيق :

غير خاف ما لعلم التوحيد من شرف عظيم ، وفضل شامخ ، ودرجة سامية على سائر العلوم ،وكيف لا يكون كذلك وهو علم أصول الدين، وزبدة رسالات المرسلين ، ومن أجله نصبت القبلة ، وشرعت سيوف الجهاد ، وعليه أُسست الملة ، ولذا كانت حاجة العباد إليه فوق كل حاجة ، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة ، لأنه لا حياة حقيقية ولا سعادة ولا نجاة إلا بمعرفة العبد ربه ومعبوده بألوهيته وأسمائه وصفاته .

إذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالة كلها ، من أولها إلى آخرها ، وقد كانت الصحابة ﷺ في عصر الرسول ﷺ يتلقون القرآن منه ، ويقرأونه ويتفقهونه ، وما أُشكل عليهم سألوا الرسول ﷺ عنه ، واطمأنوا إلى تفسيره وائتمروا بأوامره ، واسترشدوا بإرشاداته ، فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، ولم يتجاوزوا حدوده ، وآمنوا بما فيه من أسماء الله وصفاته ، كما آمنوا بما أخبر الرسول ﷺ عن الله وأسمائه وصفاته وعن الدار الآخرة ، وعما اشتملت عليه من بعث وحساب ، ونعيم وعذاب ، وأذعنوا لأوامره ﷺ وائتمروا بها ، وانتهوا عما نهاهم ، وهم في كل ذلك في غاية الخضوع والامتثال ونهاية الإيقان والإيمان ، مع كمال فهمهم للمبنى وللمعنى من القرآن والسُنَّة ، لم يفرقوا بين آيات الأوامر والنواهي ، وبين آيات توحيده تعالى ونعوته بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وزادهم الرسول ﷺ بما وصف لهم ربهم بالأوصاف التي وصف بها نفسه في كتابه العزيز ـ الذي نزل به على قلبه الروح الأمين ـ بما أوحي إليه من ربه ، فلكمال فهمهم عن معبودهم وجودة قريحتهم بما نعت به نفسه في كتابه المجيد ، وبما وصفه به رسوله ﷺ ، لم يسألوه عن أي الصفات كما كانوا يسألونه

عن أمر الصلاة والزكاة والحج ، وكما سألوه عن أحوال القيامة والجنة والنار ، لأن معاني صفاته تعالى ثابتة في أذهانهم ، وراسخة في قلوبهم ، من أجل أن القرآن نزل بلغتهم .

فما كانت هناك حاجة إلى السؤال والخوض في هذا الأمر ، ولا عهد أن حصل بينهم جدال ونقاش حول آية أو حديث أو صفة من الصفات ، ولو وجد شيء من ذلك لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه ﷺ في أحكام الحلال والحرام والترغيب والترهيب ، وذلك أن الفطرة - التي لم تفسدها البيئة المزيجة بالأهواء والضلالات والمجتمع الفاسد - مجبولة على الاعتراف بالله وبأسمائه وصفاته ، مع كونه فوق مخلوقاته ، ويعلم ما كان وما يكون ، وهو السميع البصير والعليم الخبير .

بل الرسول ﷺ سأل الجارية الخرساء : « **أين الله ؟** » ، فأجابت بما فطرت عليه من علوه على مخلوقاته ، وقالت : في السماء .

على هذا الصراط المستقيم والنهج القويم ، والجمع بين العقيدة الصحيحة والعمل الصالح والعلم النافع ، كان الزمن الذي فيه عاش الرسول ﷺ حتى فارق الدنيا ، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يقرب العبد إلى ربه في أمور دينه ، من أصوله وفروعه ، وأمور دنياه وأخراه ، إلا وقد أمرهم وأخبرهم حتى قال ﷺ : « **تركتكم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك** » .

حال العقيدة في عصر الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين

أما عصر الخلفاء :

فإن الصحابة رضوان الله عليهم قد ساروا على ما سار عليه الرسول ﷺ من الاهتمام بما أمر الله به ، وترك ما نهى عنه ، وجروا على الأمور الاعتقادية على ما كانوا عليه في حياة الرسول ﷺ ، ولم يتعرضوا لها بتأويل ، ولم يحصل بينهم اختلاف كما حصل في بعض الفروع العملية ، بل كانوا كلهم متفقين على إثبات ما جاء في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ الصحيحة ، من أوصاف الله سبحانه وتعالى بما يتفق وذاته المقدسة ، ثم جاء التابعون فسلكوا مسلك الصحابة رضي الله عنهم في أصول الدين وفروعه ، ولم يحدثوا بدعة ولا تأويلاً .

حتى في أواخر عصرهم وفي عصر مروان بن محمد الأموي أظهر الجعد بن درهم رأيه بالقول بخلق القرآن ، ونفي الصفات - وهو التعطيل - وأنه أول من حفظ عنه هذه المقالة في الإسلام ، وهو الذي ابتدع بدعة القول في القدر ، وتتلمذ عليه الجهم بن صفوان ، وأخذ عنه آراءه .

وجاء دور المعتزلة في أوائل الدولة العباسية في عصر المأمون ، فأخذوا هذه الآراء وتأثروا بعلم الفلسفة ، فزادوا ونقصوا ، واخترعوا لهم مذهبًا جديداً ، وأغروا بعض خلفاء العباسيين كالمأمون والمعتصم ، حتى دعوا الناس إلى القول بخلق القرآن ، وذاعت هذه المعتقدات الفاسدة وشاعت بين الأنام ، والسياسة تؤيدها من ورائها بالترغيب والترهيب ونصر السُنَّة ، إذ ذاك الإمام أحمد بن حنبل ووقف موقفًا حميداً ، سجل له التاريخ بقلم من النور ، وأيد الله به الدين - كما تأيد الدين أيام الردة بأبي بكر - بالرغم مما نال الإمام من سجن وتعذيب .

ثم جاء الإمام أبو الحسن الأشعري ، وكان تلميذاً لأبي علي الجبائي المعتزلي ، فهداه الله وترك مذهب الاعتزال ، وأتى بمذهب مزيج بين عقائد أهل السُنَّة وعقائد

المعتزلة ، وكافح المعتزلة ورد عليهم ، وفند شبههم ، وكلما اشتدت عنايته في البحث والدراسة ، وسبر منهج السلف الصالح تبين له خطأ ما كان عليه ، حتى أنه رجع إلى مذهب السلف تمامًا ، وألَّف كتاب الإبانة وكتاب مقالات الإسلاميين ، وهما مطبوعان ومتداولان بأيدي الناس في سائر أرجاء العالم ، فقد صرح في هذين الكتابين بأنه على مذهب السلف الصالح ، وعلى ما كان يعتقده الإمام أحمد بن حنبل ، وأثبت جميع الصفات الواردة لله تعالى في القرآن والسُنَّة الصحيحة ، ورد على الجهمية والمعتزلة ، ونصر السُّنَّة ، فرحمه الله رحمة واسعة .

ولكن أكثر الأشاعرة لم يتبعوا الإمام أبا الحسن في عقيدته الصافية النقية ، وأخذوا بالمبدأ الذي كان عليه الإمام أوائل تركه مذهب الاعتزال ، ولم ينظروا إلى رجوعه في الآخر إلى مذهب السلف الصالح ، وتمسكوا بمبدئهم وألَّفوا الكتب الكثيرة ، وقد انتشرت .

ودان بهذه العقائد أكثر الشافعية والمالكية وقليل من الحنابلة ، كما دانت الحنفية بمذهب أبي منصور الماتريدي ـ رحمه الله ـ .

وقد مضت القرون العديدة والمسلمون المنتسبون إلى أهل السُنَّة والجماعة لا يعرفون سوى هذين المذهبين ، وكانت المدارس في بغداد وفي القاهرة ، وفي الشام ، وفي اليمن، وفي الهند ،وفي المغرب ـ وبالاختصار في سائر أنحاء الدنيا ـ لا يدرسون إلا في كتب هذين المذهبين ، وهي مليئة بالتأويلات الفاسدة والأقاويل الضعيفة والاصطلاحات المنطقية الفلسفية، الأمر الذي أدى إلى أن يقف القارىء الذكي ذي الفطرة النيرة موقف الحيرة والاضطراب من هذه المذاهب والآراء والاصطلاحات المختلفة الأجنبية ، والعبارات المعقدة المنفرة ، مما لو أفنى عمره في قراءتها والبحث فيما حوته ـ لخرج منها بعد ذلك العناء الشديد والعمر الطويل الذي أمضاه في تلك البحوث في ثنايا تلك الكتب ـ وهو متزلزل العقيدة،ضعيف الإيمان والإيقان ، يتمنى أنه لم يخض في غمار تلك البحوث وفي بحر ذلك العلم الذي سموه علم التوحيد وعلم الكلام .

والحال أنه ليس فيه من التوحيد الخالص إلا النذر اليسير ، بل فيه الشكوك والحيرة

والتعطيل والاضطراب ، حتى قال بعضهم :

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

قلنا : قد مضت القرون والناس المنتسبون إلى السُنَّة لا يعرفون سوى مذهبي الأشعرية والماتريدية ، وكانوا يعتقدون أن ما سوى هذين المذهبين باطل ! ومؤدٍ إلى الهلاك أو النار ، وصاحبه إما مبتدع أو كافر .

وكان العارفون بمذهب السلف قليلين ، لا يمكنهم إظهار ما يعتقدونه ، اللهم إلا للخواص من أصحابهم أو يكتبونه في مؤلفاتهم .

حتى جاء شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الحراني - رحمه الله - في القرن الثامن الهجري ، ونشر مذهب السلف بعد تضلعه في العلوم العقلية والنقلية ، وتحمل الأذى من خصومه ، وقد حبس مراراً حتى توفاه الله وهو مسجون في قلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ .

ثم قام تلميذه العلامة ابن القيم - رحمه الله - ونشر الدعوة كشيخه ، ومن قيام الشيخ بهذا الأمر وكثرة تآليفه ، ونشره بين الناس مذهب السلف وتوحيد العبودية ، تأثر كثير من الناس ، وعرف الحق ، ودان به ، ولكن كانوا قليلين لا يستطيعون أن يجاهروا بذلك ، لأن أكثرية العلماء والملوك من ورائهم بضد هذا المذهب السلفي .

حتى جاء القرن الثاني عشر ، وظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - فقام بدعوته الإصلاحية ، ونشر توحيد الألوهية والربوبية وتوحيد الأسماء والصفات ، وألَّف الرسائل النافعة ، وهدى الله به أهل نجد وكثيراً من غيرهم ، وأيد الدعوة آل سعود الكرام ، وجرى ما جرى مما سجله التاريخ .

ومما سجله التاريخ أنهم كانوا يضطهدون كل عالم سلفي ، ومن كان يعلن عقيدته السلفية يلقبونه بالوهابي تارة وبالمجسم تارة أخرى ، وأحياناً يطلقون عليه لفظة كافر ومارق .

ومن تلك الخزايا والفضائح :

أن الشريف حسينًا قد سجن الشيخ أبا بكر بن خوقير ، لأنه كان يدين بمذهب السلف ، ولأن عنده كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الحافظ ابن القيم ، ولم يخرج من السجن إلا بعد دخول الملك عبد العزيز الحجاز .

وقصارى القول : كان أكثر العلماء فضلاً عن العوام بضد العقيدة السلفية وتوحيد العبودية ، يحقرون أمر ذي العقيدة الصحيحة ، وينفرون الناس عنها ، ويسمون المعتقد بها خارجيًا وهابيًا ، بل قد يؤذونه إذا أمكنهم .

حتى بزغت شمس الملك الراحل عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود - رحمه الله - ، ودانت له نجد والحجاز وعسير ، واشتهر أمره وذاع صيته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأمَّنَ الطرق ، وأقام الحدود ، ونشر العدل بين الناس .

طفق هذا العبقري يطبع الكتب النافعة ، وينشرها بين الناس ، ويدعو إلى مذهب السلف الصالح ، ورأى الناس علماء نجد وما هم عليه من التمسك بالسُنَّة والعقيدة الصحيحة ، فتيقن كثير من الناس أن ما سمعوه عنهم كان من الافتراءات والأكاذيب التي لا أصل لها ، وعرفوا خطأ ما كان عليه آباؤهم ومشايخهم ، كما عرفوا أخطاء تلك الكتب التي ألفت باسم أصول الدين ! وهي ليست من الدين في شيء .

هذا وقد كان أيام قراءتي بالإحساء ، يحصل بيني وبين زملائي - في بعض الأحيان - جدل ونقاش في موضوع العقائد ، وكنت متأثرًا بما علمني أستاذي الشيخ أحمد نور بن عبد الله - رحمه الله - حيث قرأت عليه في الكتاب الذي ألَّفه في الفرق الإسلامية ، وفي العقائد السلفية ، وكان الشيخ سلفيًا يزيف آراء المؤولة ، ويصرح بإثبات الصفات لله كما جاء به القرآن والسُّنَّة .

ومن أجل ذلك كنت أنتصر لعقيدة السلف ، وجرني ذلك إلى قراءة بعض الكتب السلفية ، ومن شدة التأثر وحرارة النقاش نظمت منظومة من بحر الرجز ، سميتها **[الدرر السُنية في عقد أهل السُنَّة المرضية]** ، وشرعت إذ ذاك في تعليق شرح عليها ولكن لقلة المصادر في ذلك اليوم لم أتمكن من مواصلة الكتابة ، حتى منَّ الله عليَّ

بشراء الكتب ، فكتبت هذا الشرح الذي سيراه القارىء بين الإيجاز المخل والتطويل الممل ، وأودعت فيه من النقول المفيدة والأبحاث القيمة الممتعة والبراهين الساطعة ، ما يستلذ به القارىء ، وتطمئن به نفسه ، وتقر به عينه ، ويخرج بعد القراءة - في أي بحث أراد - عارفًا معرفة حقيقية جازمة بذلك البحث ، مطمئناً به كل الإطمئنان ، ومؤمنًا به كمال الإيمان ، بعيداً عن كل شك وارتياب ، لأني أسسته على قواعد السُنَّة والكتاب .

ولقد ألَّف العلماء كتبًا لا تُعد ولا تُحصى ، بين مختصر ومطول في هذا الفن ، ولهم الفضل في السبق والعلم ، ولكن يمتاز هذا الشرح بمميزات كثيرة ، يعرفها القارىء إذا قارن بينه وبين الكثير من تلك الكتب التي ألَّفها العلماء الأعلام .

وإليك بعض تلك المزايا :

[١] ذكرت توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، زيادة على ما تحتوي المنظومة عليه من توحيد الأسماء والصفات ، وقصدي ألا يحتاج القارىء بعد ذلك إلى كتاب آخر فيما تمس الحاجة إليه، أما إذا أراد زيادة التوسع والاطلاع فذلك أمر راجع إليه .

[٢] أتيت بالأدلة النقلية في جميع المباحث ، وبالأدلة العقلية في أكثرها .

[٣] بيَّنت بعض الأخطاء التي نسبت إلى مذهب السلف الموجودة في كتب الخلف .

[٤] أوضحت بدع بعض الصفات التي أطلقت على الله،كالقول بمخالفته للحوادث .

[٥] عقدت فصلاً خاصًا للاستواء ، وأتيت فيه بآيات الكتاب وأحاديث النَّبي ﷺ وأقاويل الصحابة والتابعين ، وتابعيهم من الأئمة المعتبرين ، وأقاويل المفسرين والمحدثين واللغويين والصوفيين . كما أني دحضت شبههم العقلية والنقلية في الاستواء وغيره .

[٦] أتيت بالفروق بين الأنبياء والفلاسفة والمصلحين .

[٧] ذكرت الدلائل الدالة على صدق نبوة سيدنا محمد ﷺ ورسالته وحاجة العالم إذ ذاك إلى بعثته .

[٨] ذكرت شهادة الغربيين بنبوة سيدنا محمد ﷺ ورسالته .

[٩] ذكرت الوحي وأقسامه ، ورد الشبهات على الوحي .

[١٠] ذكرت معجزات الرسول ﷺ بنوع من البسط .

[١١] ذكرت الخلفاء ، كما ذكرت الأدلة على صحة خلافتهم ﭫ ورد شبهات المخالفين .

إلى غير ذلك مما يعز عليّ استقصاؤه، وبالمقارنة ـ كما قلت بينه وبين أكثر الكتب ـ تعرف خصائص هذا الكتاب .

وأسأل الله أن يجعله عملاً خالصًا نافعًا ، موجبًا للفوز بجنات النعيم ، وأن ينفع به الخواص والعوام ، ويغفر لي الذنوب والآثام ، ولا أبرىء نفسي من الخطأ والقصور ، والحمد لله أولاً وآخرًا ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

تأليف فضيلة الشيخ
أحمد بن حجر آل بوطامي البنعلي
رئيس قضاة المحكمة الشرعية بدولة قطر رحمه الله

٢٥ جمادى الأولى ١٣٩٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على الإنعام	بنعمة التوحيد والإسلام
ثم صلاة ربنا السلام	على النبي سيد الأنام
وآله وصحبه ذوي الهدى	والتابعين نهجهم في الاهتدا
وبعد : قد نظمت ذي العقيدة	أرجوزة وجيزة مفيدة
على الذي جرى عليه السلف[١]	مجانبًا لما عليه الخلف
سميتها بالدرر السنية	في عقد أهل السُّنَّة المرضية
أرجو بها أن تنفع الأناما	لكي أنال الأجر والإكراما



(١) المراد بمذهب السلف ما كان عليه الصحابة الكرام ﷺ ، وأعيان التابعين لهم بإحسان وأتباعهم ، وأئمة الدين ممن شهد له بالإمامة ، وعُرف عظم شأنه في الدين ، وتلقى الناس كلامهم خلفًا عن سلف ، كالأئمة الأربعة والسفيانين ، والليث بن سعد ، وابن المبارك ، والنخعي ، والبخاري ، ومسلم ، وسائر أصحاب السُنن ، دون من رمي ببدعة ، أو شهر بقلب غير مرضي مثال : الخوارج، والروافض ، والمرجئة ، والجبرية ، والجهمية ، والمعتزلة ، وسائر الفرق الضالة .

تعريف التوحيد وبيان مبادئ هذا العلم

الكلام على البسملة ، والحمدلة ، والصلاة والسلام على الرسول ، شهير ومعلوم لكل طالب علم .

وأما التوحيد : فهو لغة : العلم بأن الشيء واحد (١) .

وشرعًا : اعتقاد الوحدانية لله ذاتًا وصفة وفعلاً .

ويطلق بمعنى الفن المدون، ويعرف بأنه علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية، مكتسب من أدلته اليقينية ، يعني من الأدلة النقلية الصحيحة المفيدة للعلم (٢) ، ومن البراهين العقلية واستمداده من القرآن والحديث الصحيح والإجماع والنظر .

---

(١) **يقول ابن الأثير في « النهاية » في أسماء الله الواحد** : هو الفرد الذي لم يزل ولم يكن معه آخر .
قال الأزهري : الفرق بين الواحد والأحد : أن الأحد بني لنفي لا يذكر معه العدد ، تقول : ما جاءني أحد ، والواحد اسم بني لمفتتح العدد ، تقول جاءني واحد من الناس ، ولا تقول : جاءني أحد ، فالواحد منفرد بالذات في عدم المثل والنظير ، والأحد المنفرد بالمعنى ، وقيل : الواحد هو الذي لا يتجزأ ولا يثنى ولا يقبل الانقسام ولا نظير له ولا مثل ، ولا يجمع هذين الوصفين إلا الله تعالى . أ . هـ .

(٢) **المنقول قسمان : مواتر وآحاد :**
فالمتواتر : هوُ خبر عدد يمتنع معه لكثرتهم تواطؤهم على الكذب عن محسوس أو عن عدد كذلك ، إلى أن ينتهي إلى محسوس من مشاهدة أو سماع ، وهنا ينتهي إلى السماع عن الرسول ﷺ ، أو مشاهدة أفعاله .
واتفق العلماء على أن المتواتر يفيد العلم والعمل معًا ، وهو عندهم حجة لا نزاع فيها ، والتواتر من حيث هو قسمان : لفظي : كحديث : « **من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار** » ، رواه عن النَّبي ﷺ نيف وستون صحابيًا ، ومعنوي : وهو تغاير الألفاظ مع الإشتراك في معنى كلي ، كحديث الحوض ، وسخاء حاتم ، وشجاعة عليّ ، وعدل عمر .
وأما الآحاد : فهو ما عدا المتواتر ، فالجمهور أنه حجة يجب العمل بها وإن أفاد الظن، وذهب قوم : منهم الإمام أحمد ، والحارث بن أسد المحاسبي ، والحسين بن علي الكرابيسي ، وأبو سليمان ، وروي عن مالك : أنه قطعي موجب للعلم والعمل معًا .

ومسائله : القضايا النظرية الشرعية الاعتقادية ، ككون العلم صفة من صفاته تعالى .

وغايته : أن يصير الإيمان والتصديق بالأحكام الشرعية ، متقنًا محكمًا ، لا تزلزله شبهة من شبه المبطلين .

ومنفعته : سعادة الدنيا والآخرة .

وواضعه : هو الله ثم رسوله ﷺ وبالترتيب المدون : الأئمة كالإمام أحمد والإمام الأشعري وغيرهما .

قال العلامة السفاريني في لوامع الأنوار :
يعمل بخبر الآحاد في أصول الدين .
وحكى الإمام ابن عبد البر الإجماع على ذلك .
قال الإمام أحمد : لا نتعدى القرآن والحديث .
قال القاضي أبو يعلى : يعمل به في الديانات ، إذا تلقته الأُمة بالقبول .
قال العلامة ابن قاضي الجبل : مذهب الحنابلة أن أخبار الآحاد المتلقات بالقبول تصلح لإثبات أصول الديانات ، ذكره القاضي أبو يعلى في مقدمة المجرد، والشيخ تقي الدين في عقيدته . أ هـ .
ومن الأدلة على قبول خبر الآحاد في أصول الديانات وقيام الحجة به :
الأول : إن الرسول ﷺ قد كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الدخول في دين الإسلام ، وكان يرسل رسله لتعليم الناس دينهم ، ومعلوم أن إرساله الكتب وإرساله الرسل من قبيل خبر الآحاد .
الثاني : إن التفريق بين العقيدة والأحكام العملية وإيجاب الأخذ بحديث الآحاد في هذه دون تلك ، إنما بني على أساس أن العقيدة لا يقترن معها عمل والأحكام العملية لا يقترن معها عقيدة ، وكلا الأمرين باطل .
قال بعض المحققين : المطلوب في المسائل العملية أمران : العلم والعمل ، والمطلوب في العمليات : العلم والعمل أيضًا ، وهو حب القلب وبغضه ، حبه للحق الذي دلت عليه وتضمنته ، وبغضه للباطل الذي يخالفها ، فليس العمل مقصوراً على عمل الجوارح ، بل أعمال القلوب أصل لعمل الجوارح ، وأعمال الجوارح تبع ، فكل مسألة علمية فإنها يتبعها إيمان القلب وتصديقه وحبه وذلك عمل ، بل هو أصل العمل ، وهذا مما غفل عنه كثير من المتكلمين في مسائل الإيمان ، حيث ظنوا أنه مجرد التصديق دون الأعمال ، وهذا من أقبح الغلط وأعظمه ، فإن كثيراً من الكفار كانوا جازمين بصدق النبي ﷺ غير شاكّين فيه ، غير أنه لم يقترن بذلك التصديق عمل القلب من حب ما جاء به والرضا به ، وإرادته والموالاة له والمعاداة عليه ، فلا تهمل هذا الموضوع فإنه مهم جداً ، فبه تعرف حقيقة الإيمان ، فالمسائل العلمية عملية ، والمسائل العملية علمية ، فإن الشارع لم يكتف

من المكلفين في العمليات بمجرد العمل دون العلم ، ولا في العمليات بمجرد العلم دون العمل .

ومما يوضح لك أنه لابد من اقتران العقيدة في العمليات أيضًا : أنه لو افترض أن رجلاً يغتسل أو يتوضأ للنظافة ، أو يصلي تريضا ، أو يصوم تطبيبًا ، أو يحج سياحة ، لا يفعل ذلك معتقدًا أن الله تبارك وتعالى أوجبه عليه وتعبده به ، لما أفاده ذلك شيئًا ، كما لا يفيده معرفة القلب إذا لم تقترن بعمل القلب الذي هو التصديق - كما تقدم - .

فإذن كل حكم شرعي عملي يقترن به عقيدة لابد وأن ترجع إلى الإيمان بأمر غيبي لا يعلمه إلا الله تعالى، ولولا أنه أخبرنا في سُنَّة نبيه ﷺ ، لما وجب التصديق به والعمل به ، ولذلك لم يجز لأحد أن يحرم أو يحلل بدون حجة من كتاب أو سُنَّة ، قال الله تعالى في سورة النحل ﴿ **وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ** (١١٦) ﴾ [النحل : ١١٦] ، فأفادت هذه الآية الكريمة أن التحريم والتحليل بدون إذن منه كذب على الله تعالى وإفتراء عليه ، فإذا كنا متفقين على جواز التحليل والتحريم بحديث الآحاد، وأننا به ننجو من التقول على الله ، فكذلك يجوز إيجاب العقيدة بحديث الآحاد ولا فرق ، ومن ادعى الفرق فعليه البرهان من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ، ودون ذلك خرط القتاد .

الثالث : إن القائلين بهذه العقيدة الباطلة لو قيل لهم : إن العكس هو الصواب لما استطاعوا رده ، فإنه من الممكن أن يقال : لما كان كل من العقيدة والعمل يتضمن أحدهما الآخر ، فالعقيدة يقترن معها عمل ، والعمل يقترن معه عقيدة - على ما سبق بيانه آنفًا - ولكن بينهما فرقًا واضحًا من حيث أن الأول إنما هو متعلق بشخص المؤمن ولا ارتباط له بالمجتمع ، بخلاف العمل فإنه مرتبط بالمجتمع الذي يحيا فيه المؤمن ارتباطًا وثيقًا ، فبه تستحل الفروج المحرمة في الأصل ، وتستباح الأموال والنفوس ، فالأمور العملية من هذه الوجهة أخطر من الأمور الاعتقادية .

ولنضرب على ذلك مثلاً موضحًا : رجل يعتقد أن سؤال الملكين في القبر أو ضغطة القبر حق بناء على حديث آحاد ومات على ذلك ، وآخر يعتقد استباحة شرب قليل من النبيذ المسكر كثيره ، أو يستحل التحليل ويقول بإباحته بعض المذاهب لدليل بدا لهم طبعًا ولكنه ظني طبعًا ومات على هذا ، ولنفرض أن كلا من الرجلين كان مخطئًا ، فأيهما كان حاله أخطر على المجتمع ؟ ، فهل الذي كان واهمًا في اعتقاده ؟ ، أم الآخر الذي كان واهمًا في استباحة الفروج والشراب المحرمين ؟ .

ولذلك فلو قال قائل: إن الحرام والحلال لا يثبتان بخبر الآحاد ، بل لابد فيهما من آية قطعية الدلالة، أو حديث متواتر قطعي الدلالة أيضًا ، لم يجد المتكلمون وأتباعهم عن ذلك جوابًا .

أما نحن ،فلو كان لنا أن نحكم عقولنا في مثل هذا الأمر ، ونشرع لها ما لم يأذن به الله ، كما فعل المتكلمون حينما قالوا بهذا القول الباطل ، لقلنا بنقيضه تمامًا ، لأنه أقرب إلى المنطق السليم من قولهم ، ولكن حاشا أن نقول به أو بنقيضه ، إذ أن لكل شرعًا ، فلا نفرق بين ما سوى الله - تبارك وتعالى - ولا نسوي بين ما فرق ، بل نؤمن بكل ما جاء به رسول الله ﷺ وصح الخبر به عنه آحادًا أو

تواترًا ، اعتقادًا أو عملاً ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

الرابع : إن المسلمين لما أخبرهم العدل الواحد وهم بقباء في صلاة الصبح أن القبلة قد حوِّلت إلى الكعبة قبلوا خبره وتركوا الجهة التي كانوا عليها ، واستداروا إلى القبلة ، ولم ينكر عليهم رسول الله ﷺ ، بل شكروا على ذلك ، وكانوا على أمر مقطوع به من القبلة الأولى .

فلولا حصول العلم لهم بخبر الواحد ، لم يتركوا المقطوع به المعلول لخبر لا يفيد العلم ، وغاية ما يقال فيه ، إنه خبر اقترن به قرينة ، وكثير منهم يقول : لا يفيد العلم بقرينة ولا غيرها ، وهذا في غاية المكابرة ، ومعلوم أن قرينة تلقي الأمة له بالقبول وروايته قرنًا بعد قرن من غير نكير من أقوى القرائن وأظهرها ، فبأي قرينة فرضتها كانت أقوى منها .

الخامس : قوله تعالى : ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ﴾ [الإسراء : ٣٦] ، أي لا تتبعه ولا تعمل به ، ولم يزل المسلمون من عهد الصحابة يقفون أخبار الآحاد ويعملون بها ، ويثبتون لله تعالى بها الصفات ، فلو كانت لا تفيد علمًا لكان الصحابة والتابعون وتابعوهم وأئمة الإسلام كلهم قد قفوا ما ليس لهم به علم .

السادس : قوله تعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾ [المائدة : ٦٧] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ** ﴾ [النور : ٥٤] ، وقال النَّبي ﷺ : « **بلِّغوا عنِّي ولو آية** » ، وقال ﷺ لأصحابه في الجمع الأعظم يوم عرفة : « **أنتم مسؤولون عني ، فماذا أنتم قائلون ؟** » ، قالوا : نشهد أنك بلَّغت وأديت ونصحت .

ومعلوم أن البلاغ هو الذي تقوم به الحجة على المبلغ ، ويحصل به العلم ، ولو كان خبر الواحد لا يحصل به العلم لم يقع به التبليغ الذي تقوم به حجة الله على العباد ، فإن الحجة إنما تقوم بما يحصل به العلم ، وقد كان رسول الله ﷺ يرسل الواحد من أصحابه يبلغ عنه ، فتقوم الحجة على من بلَّغه .

وكذلك قامت حجته علينا بما بلَّغنا العدول الثقات من أقواله وأفعاله وسُنَّته ، ولو لم يفد العلم ، لم تقم علينا بذلك حجة ولا عن من بلَّغه واحد أو اثنان أو ثلاثة أو أربعة أو دون عدد التواتر ، وهذا من أبطل الباطل ، فيلزم من قال : **إن أخبار رسول الله ﷺ لا تفيد العلم أحد أمرين** :

- **إما أن يقول** : الرسول ﷺ لم يبلغ غير القرآن ، وما رواه عنه عدد التواتر ، وما سوى ذلك لم تقم به حجة ولا تبليغ .
- **وإما أن يقول** : إن الحجة والبلاغ حاصلان بما لا يوجب علمًا ولا يقتضي عملاً ، وإذا بطل هذان الأمران بطل القول بأن أخباره ﷺ التي رواها الثقات العدول الحفاظ وتلقتها الأمة بالقبول لا تفيد علمًا ، وهذا أمر ظاهر لا خفاء به .

السابع : قوله تعالى : ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل : ٤٣] ، فأمر من لم يعلم أن يسأل أهل الذِّكر وهم أولوا الكتاب والعلم ، ولولا أن أخبارهم تفيد العلم لم يأمر بسؤال

من لا يفيد خبره علمًا ، وهو سبحانه وتعالى لم يقل : سلوا عدد التواتر ، بل أمر بسؤال أهل الذِّكر مطلقًا ، فلو كان واحدًا لكان سؤاله وجوابه كافيًا .

الثامن : إن هؤلاء المنكرين لإفادة أخبار النبي ﷺ العلم ، يشهدون شهادة جازمة قاطعة على أئمتهم بمذاهبهم وأقوالهم أنهم قالوا، ولو قيل لهم: إنها لم تصح عنهم لأنكروا ذلك غاية الإنكار ، وتعجبوا من جهل قائله ، ومعلوم أن تلك المذاهب لم يروها عنهم إلا الواحد أو الاثنان والثلاثة ونحوهم ، لم يروها عنهم عدد التواتر ، وهذا معلوم يقينًا .

فكيف حصل لهم العلم الضروري أو المقارب للضروري بأن أئمتهم من قلدوهم دينهم أفتوا بكذا وذهبوا إلى كذا ، ولم يحصل لهم العلم بما أخبر به أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وسائر الصحابة ﷺ عن رسول الله ﷺ ، ولا بما رواه عنهم التابعون وشاع في الأمة وذاع ، وتعددت طرقه وتنوعت ، وكان حرصه عليه أعظم بكثير من حرص أولئك على متبوعيهم ، إن هذا لهو العجب العجاب .

وهذا وإن لم يكن نفسه دليلاً لكنه يلزمهم أحد أمرين :

- **إمـا أن يقولـوا** : أخبار رسول الله ﷺ وفتاواه وأقضيته تفيد العلم وهو المطلوب .
- **وإما أن يقولوا** : إنهم لا علم لهم بصحة شيء مما نقل عن أئمتهم ، وأن النقول عنهم لا تفيد علمًا .

وإما أن يكون ذلك مفيدًا للعلم بصحته عن أئمتهم دون المنقول عن رسول الله ﷺ ، فهذا من أبين الباطل .

التاسع : قوله تعالى : ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور : ٦٣] ، وهذا يعم كل مخالف بلغه أمره ﷺ إلى يوم القيامة ، ولو كان ما بلغه لم يفده علمًا لما كان متعرضًا بمخالفة ما لا يفيد علمًا للفتنة والعذاب الأليم ، فإن هذا إنما يكون بعد قيام الحجة القاطعة التي لا يبقى معها لمخالف أمره عذر .

العاشر : إن خبر العدل الواحد المتلقى بالقبول لو لم يفد العلم لم تجز الشهادة على الله ورسوله ﷺ بمضمونه ، ومن المعلوم المتيقن أن الأمة من عهد الصحابة إلى الآن لم تزل تشهد على الله وعلى رسوله ﷺ بمضمون هذه الأخبار جازمين بالشهادة في تصانيفهم وخطابهم ، فيقولون : شرع الله كذا وكذا على لسان رسوله ﷺ ، فلو لم يكونوا عالمين بصدق تلك الأخبار جازمين لها ، لكانوا قد شهدوا بغير علم ، وكانت شهادة زور وقولاً على الله ورسوله ﷺ بغير علم ، ولعمر الله هذه حقيقة قولهم وهم أولى بشهادة الزور من سادات الأمة وعلمائها . أ . هـ [من نقض كلام المفترين على الحنابلة السلفيين] « للمؤلف » .

وهناك أدلة أخرى كثيرة ذكرت في كتب عديدة تركناها للاختصار .

وبهذا تعرف ضعف قول الكثيرين : إن خبر الآحاد لا يفيد إلا الظن ، أن الظن لا يعمل به في العقائد .

أقسام التوحيد

ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام :

- توحيد الربوبية .
- توحيد الألوهية .
- توحيد الأسماء والصفات .

القسم الأول
توحيـــد الربوبيـــة

أما توحيد الربوبية :

فهو توحيده بأفعاله تعالى، مثل اعتقاد أن الله هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت .

وقد اتفقت كلمة أكثر الأمم - ومنهم مشركوا العرب - على الإقرار به ، وعدم الشركة فيه ، كما يخبرنا القرآن بذلك ، كقوله تعالى : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ** ﴿٩﴾ ﴾ [الزخرف : ٩]، وقوله تعالى : ﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ** ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس : ٣١] .

الأدلة النقلية على إثبات وجود الرب ، وهي في نفس الوقت أيضًا عقلية والرد على المنكرين :

اتفقت أكثرية البشر الساحقة على وجود الرب تبارك وتعالى ، وعلى أنه الخالق ، ولم ينكر الرب إلا الدهرية والشيوعية .

والفطر والعقول والكتب السماوية تنادي على هؤلاء الجهلاء الكافرين ، بأنهم خارجون عن الحق وعن زمرة العقلاء .

وإليك الأدلة النقلية :

[١] قول تعالى: ﴿ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)** ﴾ [الطور: ٣٥] .

[٢] قال تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأعراف : ١٨٥] .

[٣] قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [الزمر : ٦٢] .

إلى غير ذلك من الآيات التي لا تكاد تحصى، وهي تدعو الإنسان إلى أن ينظر ببصيرته وعقله ، وأن يفكر في مخلوقات الله العظيمة ، ليهديه عقله ونظره إلى أنها لم توجد صدفة ، وإلى أنها لابد لها من خالق خلقها .

الأدلة العقلية :

[١] تقرر في بداهة العقول ، أنه لا يوجد أثر بلا مؤثر ، وبلا فعل بلا فاعل ، ولا خلق بلا خالق .

ومما لا يقبل الخلاف أنك إذا رأيت بناءً لم تشك في أن له بانيًا ، وإذا رأيت ساعة تشير إلى الأوقات ، أيقنت أن لها صانعًا رتب أجزاءها ، وإذا كان من المسلم أن ساعة حقيرة ، بل إبرة لا توجد بلا صانع ، فكيف بهذا الكون العظيم الذي يبهر العقول ، ويحير الألباب ، قد وُجِدَ بلا مُوجد ، ونُظِمَ بلا مُنظم ؟!! .

وكان كل ما فيه من نجوم وغيوم ، وقفار وبحار ، وليل ونهار ، وظلمات وأنوار ، وأشجار وأزهار، وشموس وأقمار، إلى أنواع لا يحصيها العد، ولا يأتي عليها الحصر ، قد وجدت بلا موجد يخرجها من العدم، ويستحيل في العقل أنه يوجد الشيء نفسه ، كما يستحيل وجود أبسط شيء بلا موجد .

[٢] وجود هذا النظام الدقيق المتمثل في هذه السُنن الكونية في الخلق والتكوين والتنشئة والتطور لسائر الكائنات الحية في هذا الوجود ، فإن جميعها خاضع لهذه السُنن ، متقيد بها ، لا يستطيع الخروج عنها بحال من الأحوال .

فالإنسان مثلاً : يعلق نطفة في الرحم ، ثم تمر به أطوار عجيبة لا دخل لأحد غير الله فيها ، يخرج بعدها بشرًا سويًا ، هذا في خلقه وتكوينه ، وكذلك الحال في

تنشئته وتطويره ، فمن صبا وطفولة ، إلى شباب وفتوة ، إلى كهولة وشيخوخة .

وهذه السُنن العامة في الإنسان والحيوان ، هي نفسها في الأشجار والنباتات ، ومثلها الأفلاك العلوية والأجرام السماوية ، فإنها جميعها خاضعة لما ربطت به من سُنن ، لا تحيد عنها ولا تخرج عن سلكها ، ولو حدث أن انفرط سلكها أو خرجت مجموعة من الكواكب عن مداراتها لخرب العالم ، وانتهى شأن هذه الحياة .

وإليك بعض الأمثلة :(١)

﴿ أ ﴾ لو أن نسبة الهيدروچين والأوكسچين اختلفت في الماء عما عليه الآن ، لما كان الماء صالحًا للشرب ، ولقتل الناس العطش .

﴿ب﴾ لو كانت قشرة الأرض أسمك مما عليه الآن بمقدار بضع أقدام ، لامتص ثاني أكسيد الكربون والأوكسچين ، ولما أمكن وجود حياة .

﴿ جـ ﴾ ولولا قوانين الحرارة لما بردت الأرض ولما كانت صالحة للحياة .

﴿ د ﴾ ولولا الجبال لتناثرت الأرض ، ولما كانت لها مثل هذه القشرة الصالحة للحياة .

﴿ هـ ﴾ ولولا أن في الأرض أرزاقها لما استطاعت الحياة أن تبقى .

﴿ و ﴾ ولو كانت مياه البحار حلوة ، لتعفن الماء الموجود فيها ، وتعذرت بعد ذلك الحياة على الأرض .

﴿ ز ﴾ ولو كان الأوكسچين في الهواء بنسبة ٥٠٪ بدلاً من ٢١ ٪ فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عُرضة للاشتعال لأدنى شرارة ، وكان في ذلك هلاك الحياة ، ولو كانت نسبة الأوكسچين ١٠٪ لتعذر أن يكون التمدن الإنساني على ما هو عليه اليوم .

هذه الظواهر الكونية وغيرها لا يمكن بحال من أن تكون مصادفات ، بل لابد لها من مُدبر حكيم ، وخالق مُبدع ، وضع الأشياء في مواضعها ، وقدرها حق قدرها ، فجاءت على هذا النحو البديع ، والنظام المحكم .

فهل بعد هذه الأدلة القاطعة يظن عاقل منصف يتحرى الحق والحقيقة أن هذا

(١) بدء الكلام من « شبهات وردود » ، عبد الله علوان .

الكون بما فيه من نواميس ثابتة ، وأسرار عجيبة ، ونظم دقيقة محكمة ، وآيات باهرة مدهشة ، كان وليد مصادفة عمياء ؟! .

لا يقول بهذا إلا من سد على قلبه وعقله منافذ الهداية ونور الحق والإيمان ، وراح يتخبط في الحياة تخبط المهووس المجنون، لا يدري ماذا يفعل، ولا يدري ماذا يقول؟ .

قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** (١٧٩) ﴾ [الأعراف : ١٧٩] [١] . [٢] .

[٣] إيمان البلايين من البشر واعتقادهم بوجود الرب سبحانه وتعالى وعبادتهم له وطاعتهم إياه ، في حين أن العادة البشرية جارية بتصديق الواحد والإثنين ، فضلاً عن الجماعة والأمة ، والعدد الذي لا يحصى من الناس مع شاهد العقل والفطرة على صحة ما آمنوا به ، كما يحيل العقل تواطؤ هذه البلايين من البشر على الكذب ، وإخبارهم بما لم يعلموا ويتحققوا ، بل يحيل العقل كذب خطر تواطأ على الإخبار به عشرات من الناس ، فضلاً عن هذه الأمم العظيمة منذ خلق الله آدم إلى يومنا [٣] .

---

(١) المصدر السابق « شبهات وردود » .

(٢) وقد مر في ثنايا هذا الدليل أسماء علمية لبعض الغازات ، فأحببت أن أذكر عنها نبذة بسيطة لعلها توضح معنى هذه الأسماء العلمية التي ربما تخفى على بعض القراء ، **وإليك البيان** :

(أ) **النتروچين « الأزوت »** : هو عنصر كيميائي غازي ، عادم اللون والطعم الرائحة ، رمزه « ن » ، ويدخل في تركيب الهواء ، وهو أحد العناصر الضرورية لحياة الحيوانات والنباتات .

(ب) **الأوكسچين** : هو عنصر كيميائي غازي ، رمزه « أ » وهو أكثر العناصر انتشاراً في الطبيعة ، لا لون له ولا طعم ولا رائحة ، يتحد مع أكثر العناصر ، ولا سيما مع الهدروجين لتكوين الماء ، وهو غاز يعتبر أحد مقومات الماء والهواء وعماد الحياة الحيوانية والنباتية، وهو عامل التنفس والاحتراق .

(جـ) **الهيدروچين** : عنصر كيميائي رمزه « يد » وهو غاز شديد الاحتراق ، لا لون له ولا طعم ولارائحة ، يوجد في الماء متحداً مع الأكسجين وفي جميع المواد العضوية .

(د) **ثاني أكسيد الكربون** : غاز ناتج عن اتحاد الكربون بالأكسجين وهو موجود في الهواء ، وكذلك ذائب في الماء ، ورمزه (ك أ ٢) . أ – هـ من بهجة المعرفة « موسوعة علمية مصورة » .

(٣) الرقم الثالث من كتاب « منهاج المسلم » بزيادة .

الفطرة دليل وجود الله :

[٤] والكون وما فيه من نظام وإحكام ، وجمال وكمال ، وتناسق وإبداع ، ليس وحده الشاهد الوحيد على وجود قيوم السماوات والأرضين ، وإنما هناك شاهد آخر وهو الشعور المغروس في النفس الإنسانية بوجوده سبحانه ، وهو شعور فطري، فطر الله الناس عليه ، وهو المعبر عنه بالغريزة الدينية ، وهو المميز للإنسان عن الحيوان .

وقد يغفو هذا الشعور بسبب ما من الأسباب ، فلا يستيقظ إلا بمثير يبعث على يقظته من ألم ينزل به ، أو ضر يحيط به ، وإلى هذا تشير الآية الكريمة : ﴿ **وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ** ﴾[يونس : ١٢] [١] .

وما كان ينبغي أن يدور حول هذه الحقيقة أدنى ريب وخلف ، لأن ذلك مما يدركه الحيوان فضلاً عن الإنسان، فإنك إذا ضربت الحمار مثلاً التفت ليرى من ضربه، لأنه مركوز فطرته أن الأثر لا يكون بلا مؤثر .

ولكن منذ وجدت الخليقة وجد معها التخالف والتباين وتغير الآراء ، ولا عجب! فإن أناساً زعموا أنهم من العقلاء أو الحكماء ، دانوا بإنكار حقائق الأشياء الثابتة ، كالجبال والأرضين والمياه والأشجار ، بل وحتى نفوسهم وأبدانهم .

مثلاً يقولون : لا حقيقة لهذا الجبل ، يحتمل أن يكون ماء ونحن نراه جبلاً ، وهكذا قالوا في سائر الأشياء .

[٥] ظاهرة الإلهام والهداية :

نوضح هذه الظاهرة بالأمثلة التالية :

﴿ **أ** ﴾ خطر لعالم أمريكي أن يستفرخ البيض في جهاز خاص للتفريخ ، وذلك بوضع البيض في نفس الحرارة التي ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة له ، فلما جمع البيض ووضعه في الجهاز نصحه فلاح أن يقلب البيض في كل فترة ، إذ أنه رأى

---

(١) من « العقائد الإسلامية »

الدجاجة تفعل ذلك ، فسخر منه العالم وأفهمه أن الدجاجة إنما تقلب البيض لتعطي الجزء الأسفل من حرارة جسمها ، أما هو فقد أحاط البيض بجهاز يشع حرارة ثابتة لكل أجزاء البيضة .

واستمر العالم في عمله حتى جاء دور الفقس ، وفات ميعاده ، ولم تفقس بيضة واحدة ، وكرر التجربة بلا جدوى ، وأخيراً استمع إلى نصيحة الفلاح فصار يقلب البيض ، حتى إذا جاء ميعاد الفقس خرجت الفراريج .

وآخر تعليل علمي لهذه الظاهرة :

أن الفرخ حينما يخلق في البيضة ترسب المواد الغذائية في الجزء الأسفل من جسمه إذا بقي بدون تحريك فيؤدي إلى موته .

ولولا هذه الهداية التي أودعها الله في الدجاجة لما بقي نوع الدجاج في العالم .

﴿ ب ﴾ الزنبور يصيد حشرة الجندب النطاط ، وينخزه بإبرته في مكان مناسب ، بحيث يفقده وعيه مع بقائه حيًا كنوع من اللحم المحفوظ ، وبعد ذلك يعد حفرة في الأرض ، ثم تأتي أنثى الزنبور وتضع بيضًا في مكان مناسب من الحفرة ، ثم تغطيها وترحل بعد أن أمنت وسيلة القوت والحياة لأولادها الصغار .

ولولا هذه الهداية التي أودعها الله في الزنبور ، لما بقيت زنابير على وجه الأرض .

﴿ جـ ﴾ حيوان « الأكسيلوكوب » يعيش منفرداً في فصل الربيع ، ومتى باض مات ، فالأمهات لا ترى صغارها ولا تعيش لتساعدها في غذائها ودفاعها عن نفسها ، وهؤلاء الصغار لا تستطيع الحصول على الغذاء لمدة سنة كاملة ، لذلك ترى الأم تعمد إلى قطعة خشب فتحفر فيها حفرة مستطيلة ، ثم تجلب طلع الأزهار وبعض الأوراق ، وتحشو بها تلك الحفرة ، ثم تبيض بيضة ، ثم تأتي بنشارة خشب ، وتجعلها عجينة لتكون سقفًا لهذه الحفرة ، فإذا فقست البيضة وخرجت الدودة كفاها الطعام المدخر سنة كاملة .

ولولا هذه الهداية التي أودعها الله في هذا الحيوان ، لقضى على نسله نهائيًا .

والذي نخلص إليه بعدما تقدم ، أن ظاهرة الإلهام والهداية التي أودعها الله في

هذا الكون ، هي أكبر الظواهر التي تدل على خالق حكيم مبدع ، أحكم كل شيء ، وأتقن كل شيء [١] .

والبراهين العقلية على وجود الله سبحانه وتعالى وخالقيته للأكوان لا تُعد ولا تنحصر، بل كل ذرة من ذرات الكون تشهد بأن الله هو الخالق لهذه الكائنات كما قيل :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ولو فكر العاقل في نفسه من أي شيء خُلقَ ، خُلقَ من ماء مهين في قرار مكين إلى قدرٍ معلوم ، كما قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)** ﴾[المرسلات : ٢٠ - ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)** ﴾[المؤمنون:١٢-١٤].

فليتأمل العاقل أصله الذي خلقه الله تعالى من قطرة صغيرة لا تُرى بالعين ، حفظه الله في رحم أمه ، ومرت تلك النطفة الحقيرة القذرة بتلك الأطوار التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم ، وجاء الطب الحديث يشرح ذلك شرحًا دقيقًا بحيث يفهم المنصفون أن القرآن سابق لكل النظريات الحديثة ، ثم إذا خرج من بطن أمه يتطور من طور إلى طور حتى يخرج بشرًا سويًا ، عاقلاً كاملاً ، ويكون إما حاكمًا أو عالمًا أو طبيبًا ، وقل ما شئت في الأوصاف التي يكتسبها من علوم ومهارات ، أليس في ذلك دليل على قدرة الله تعالى عظمته ، وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١)** ﴾[الذاريات : ٢١] .

ومع هذه البراهين الساطعة والأدلة القاطعة ، هل يكون وجوده سبحانه وتعالى مورد شك أو جحد أو إنكار ؟ .

---

(١) « أ-هـ » الرقم الخامس من « شبهات وردود » ، عبد الله علوان .

وبالجملة : فالبراهين [١] ، على ربوبيته تفوق الحصر ، وهنا فروض ثلاثة يمكن أن نفرضها في تعليل الأصل الذي صدر عنه هذا الكون ، وليس ثمة فرض وراء هذه الفروض :

[١] أن يكون صدر هذا الكون من العدم .

[٢] أن تكون الصدفة وحدها هي التي نشأ عنها هذا الكون البديع .

[٣] أن يكون ثمة موجداً أوجد هذا الكون وأنشاه .

ولنمض في مناقشة كل فرض من هذه الفروض :

فالفرض الأول :

باطل من أساسه ، لأن المسببات مرتبطة بأسبابها ، والنتائج مرهونة بمقدماتها ، ولا يتصور العقل أن يوجد معلول بدون علة ، ولا مسبب بدون أن يسبق بسبب ، ولا نتيجة من غير أن يكون لها مقدمات .

فصدور الكون من العدم معناه وجود المعلول بدون علة ، والمسبب دون سببه ، والنتيجة دون مقدماتها ، أي أن الكون وجد من نفسه ، وصدر منقطعاً عن أسبابه ، وهذا محال عقلاً وواقعاً ، لأن وجود الأشياء من نفسها مع انقطاعها عن أسبابها ترجيح لجانب الوجود على جانب العدم بدون مرجح ، وترجيح جانب الوجود على جانب العدم بدون مرجح محال .

---

(١) **من أقواها** : هذا القرآن العظيم الذي أنزله الله تعالى على سيد العالمين ، المعجز ببلاغه وفصاحته ، وتناسقه وعلومه ، وفنونه ونظرياته العلمية ، وغير ذلك ، ذلك الكتاب الذي فاق كل الكتب السالفة ، والذي تحدى الله به فرسان البلاغة وفطاحل الفصاحة ، بل أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، وبرهنوا عن عجزهم ، وعن تفوقه في ميدان البلاغة ، كيف لا وقد أخبر الله عن عجز الإنس والجن عن معارضته ؟ ، فقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ [النساء : ٢٢]، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء : ٨٨] .
وقد مضى على تنزيله أربعة عشر قرنًا ، وتلاه المسلمون وغيرهم ، ولم يستطع أحد أن يعارضه بمثل سورة صغيرة ، ومن عارض كمسيلمة الكذاب، بَانَ سخفه وجهله، وأصبح أضحوكة بين العالمين .
وإذا عجز العرب فغيرهم من باب أولى أن يعجز عن معارضته .

إننا إذا قلنا : إن الكون وجد من نفسه منقطعًا عن سببه ، كان ذلك مساويًا لقولنا : إن العدم سبب الوجود ، وهذا في غاية البطلان ، لأن العدم لا يتصور أن يكون مصدرًا للوجود ، ففاقد الشيء لا يعطيه ، وهذا هو ما أشارت إليه الآية الكريمة : ﴿ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ** (٣٥) **أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ** (٣٦) ﴾ الطور : ٣٥ ، ٣٦] .

أي : هل وُجِدُوا من غير خالق ، أم خلقوا أنفسهم فلا يحتاجون لأحد يخلقهم ؟! ، كل هذا مستحيل .

والفرض الثاني :

هو أعظم تهافتًا من الفرض الأول ، فإن الصدفة لا يمكن أن ينبثق عنها هذا النظام ، ولا أن يصدر عنها هذا الإحكام ، فهل الصدفة هي التي خلقت الذكر والأنثى ، وألفت بينهما هذا التأليف الجميل ؟ .

وهل هي التي خلقت الأرض وما فيها من إنسان وحيوان ونبات وجماد ؟ ، وهل الصدفة هي التي أوجدت العناصر التي يتألف منها هذا الكون؟ ، وهي التي تنسقها تنسيقًا دقيقًا صالحًا للاستقرار والدوام إلى المدى الذي أراده الله ؟! .

إن الذرة ـ وهي أصغر الأشياء ـ يحار العقل والعلم في تركيبها المحكم ، وتناسقها العجيب ، وتآلف أجزائها بعضها مع بعض ، فهل هذا التركيب والتأليف والتناسق

= ولم تنقض فيه أدنى نظرية من تلك النظريات العلمية ، ولم يختلف فيه غيب واحد مما أخبر به من الأمور الغيبية ، ولم يجرؤ مؤرخ كائنًا من كان على أن ينقض قصة من القصص التي ذكرها ، فيكذبها ؟ .

أما كان هذا من أقوى البراهين على وجوده تعالى ؟ ، إذ الكلام لابد له من متكلم ، ولما كان كلامه كان خارجًا عن طوق البشر ، ولا شك أنه لو كان كلام بشر ، لأمكن أن يعارضه بعض الفصحاء ، إن لم نقل كلهم ؟ .

وإذا بطل أن يكون كلام بشر ، فهو كلام خالق البشر ، وكما أنه يدل على وجوده تعالى وعلمه وقدرته ، فإنه يدل من ناحية أخرى على صحة نبوة سيدنا محمد ﷺ ، الذي كان القرآن أكبر معجزة له ، ولا يستريب في هذا البرهان ولا يجادل فيه إلا من كان منسلخًا عن عقله ، متجردًا عن إنسانيته .

صدفة ؟! ، سبحانك هذا بهتانٌ عظيم ، وإذا بطل الفرض الأول والثاني لأنهما خارجان عن دائرة العقل والمنطق والعلم، لم يبق إلا . . . .

الفرض الثالث :

وهو أن لهذا الكون خالقًا ومدبرًا .

وهذا هو مقتضى العقل والمنطق السليم . . . أ.هـ .[1] .

وأما ما يقوله بعض الملاحدة : من أن لو كان للكون خالق لأدركناه بإحدى الحواس الخمسة ؟ .

فجوابه : ما كل ما لا يدرك يصح أن ينفى ، هذه الروح السارية فينا التي ما نأتي وما نذر من الأعمال من أثرها ، فهل تدرك بإحدى الحواس ؟ .

فإذا كانت لا تُدرك ـ بلا خوف ولا جدل ـ فهل يصح لأحد أن يقول : ليس للروح حقيقة ولا وجود لها ؟ .

وقل مثل ذلك في العقل والتفكير ، وذات الله تعالى أجلُّ وأكبر من أن تُدرك بالحواس أو بالعقول ، أو تحيط بها الأفكار ، قال تعالى : ﴿ **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** (١٠٣) ﴾[الأنعام : ١٠٣] .

ومن المتفق عليه عند جميع العقلاء ، أن العجز عن معرفة حقيقة الأشياء لا ينفي وجودها ، ولله در القائل بقوله :

تبصر حيث كان لك التبصر ... وفي ذات الإله دع التفكر
وإن ترد المهيمن حين تذكر ... تأمل في رياض الأرض وانظر
وإلى آثار ما صنع المليك

فأنوار المهيمن ساطعات ... وأفكار الخلائق حائرات
ولكن الأدلة واضحات ... أصول من لجين زاهرات
على أغصانها ذهب سميك

(١) بتلخيص وتصرف من « العقائد الإسلامية »

شموس في البرية مشرقات نجوم في الدياجي لامعات
بطول الدهر دومًا سابحات إذا ما لست أدري طائرات
يطير بها الجرم السميك

رياض مونقات منعشات ألوان لعينك مدهشات
وأغصان تسرك ناضرات على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك



القسم الثاني
توحيد الألوهية

توحيد الألوهية ، ويسمى توحيد العبادة ، وهو توحيد الله بأفعال العباد .

وأصل العبادة في اللغة : التذلل والخضوع ، وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات ، لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين ومتذللين لله تعالى .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة . أ.هـ .

وتلك الأقوال والأعمال التي قالها شيخ الإسلام تشمل جميع العبادات المطلوبة من العبد ، فرضاً كان أو نفلاً ، كالصلاة والصيام والطواف ، والنحر والنذر والحلف ، والاستعانة والاستغاثة ، والتوكل والرهبة والخشية ، إلى غير ذلك .

وفي هذا التوحيد وقعت الخصومة بين الرسل وأممهم ممن عهد نوح إلى عهد سيدنا محمد ﷺ ، وما خلق الله الخلق من الجن والإنس إلا لعبادته، وإفراده بالطاعة والقصد .

قال تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون** (٥٦) ﴾ [الذاريات :٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (١) **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** (٢) ﴾ .

[الملك : ١ ، ٢] .

ومن هاتين الآيتين : تعلم أيها القارىء ، أن ما تقوله الصوفية ومن تأثر بآرائهم، أن الله تعالى ما خلق الخلق والأكوان إلا لأجل سيدنا محمد ﷺ ، محتجين في هذا بحديث موضوع : لولاك ، لولاك ، ما خلقت الأفلاك ، هو قول باطل وزور وبهتان مبين .

وقد انتشرت هذه الفكرة الخاطئة عند بعض الفقهاء المقلدين للصوفية والمحبذين لهم والتابعين لهم ، **حتى قال البوصيري وهو من الصوفية :**

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

وقال أكثر من ذلك :

فإن من جودك الدنيا وضرتها　　　ومن علومك علم اللوح والقلم

ومعنى البيت الأول :

إن النَّبي ﷺ لم يكن محتاجًا لضرورات المعيشة الدنيوية ، لأن هذه الدنيا لم توجد إلا لأجله ، وقد أخطأ الشاعر في شطري هذا البيت ، فإن النَّبي ﷺ كان محتاجًا لضرورات المعيشة كسائر البشر ، ولم يخلق الله الدنيا لأجل محمد ﷺ ، بل خلق الدنيا والخلق لعبادته جل وعلا ، كما في الآيتين السالفتين .

وأخطأ أيضًا في البيت الثاني ، فالدنيا والأخرى من خلق الله جل جلاله ، وليست من وجود النَّبي ﷺ كما زعم هذا الشاعر .

وهذا عدوان على مقام الله ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ** ﴾ [آل عمران : ١٢٨] .

ويقول تعالى : ﴿ **قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢)** ﴾ [الجن : ٢١ ، ٢٢] .

وأما علم اللوح والقلم فذاك مما تفرد به الله ، ولا يعلم الرسول ﷺ إلا ما أوحى الله به إليه ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ** ﴾ [الجن : ٢٦ ، ٢٧] .

وقال تعالى : ﴿ **قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ** ﴾ .

[الأنعام : ٥٠] .

وقد غلا بعضهم غلوًا فاحشًا ، وزعم أن الله تعالى خلق محمدًا ﷺ قبل العالم نورًا ، **كما قال الحلواني في قصيدته :**

أنشاك نورًا ساطعًا قبل الورى　　　فردًا لفرد والبلية في العدم

ثم استمد جميع مخلوقاته من　　　نورك الساجي فيا عظم الكرم

ثم جاءت البريلوية ، وهي الطائفة التي أسسها أحمد رضا خان البريلوي ، وأتى

بمعتقدات غريبة في الرسول ﷺ ، بل هي كفريات سخيفة .

وقد ذكر الشيخ الأستاذ الفاضل محمد أنور كليم الباكستاني في كتابه « بين الديانة البريلوية ودين الله الإسلام » كثيراً من سخافات هذه الفرقة الضالة واعتقاداتهم المنافية لدين الإسلام ، حتى قال كما نقل عنه الشيخ أنور من كتاب البريلوي « صلة الصفا من نور المصطفى » ، إن النَّبي ﷺ كان نوراً مجرداً من حيث ذاته وشخصه ، ومما لا ريب فيه أن سيدنا محمداً المصطفى ﷺ قد خلق من نور الله عينه .

وقال : لقد خلق الله نبيه الأكرم من نفس نوره الذي هو عين ذات الله ، أي خلقه من ذاته نفسه وبدون واسطة ، وزعم هذا المفتري أن الرسول ﷺ قال : يا جابر ، إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره .

كما روي كذلك أنه عليه الصلاة والسلام قال : أول ما خلق الله نوري ، ومن نوري خلق كل شيء .

وهذا الحديثان مكذوبان : لا يشك في وضعهما إلا من يشك في وجود نفسه .

بل قال هذا الرجل أكثر من هذا وأكبر ، كما ذكر الشيخ أنور أنه قال : إن النَّبي ﷺ هو النائب المطلق لله ، فكل العالم قد أعطي في تصرف الرسول ﷺ ، فهؤلاء الضالون من الصوفية الباطلة لا المحقة والبريلوية ، لما زعموا أن الله تعالى خلق الدنيا وما في الكون لأجل الرسول ﷺ ، حاولوا بعد ذلك أن يخرجوه من نطاق البشرية ، وإنكار كونه من سلالة آدم عليه السلام ،فزعموا أن الله جل وعلا خلق محمداً ﷺ من نوره ، كما سبق بيانه ، وعند هؤلاء أن الرسول ﷺ لم يمت ، وأنه حاضر في كل مكان وزمان ، كما زعموا أن جميع الخلائق مخلوقة من جزء من نوره .

وهاك ما رووا في تأييد عقيدتهم حديثًا موضوعًا عن النَّبي ﷺ ، قال : يا جابر إن الله تعالى قد خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره ، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله ، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ، ولا جنة ولا نار ، ولا ملك ولا سماء ، ولا أرض ولا شمس ولا قمر ، ولا جن ولا إنس ، فلما أراد الله أن يخلق الخلق ، قسم ذلك النور أربعة أجزاء ، فخلق من الجزء الأول القلم ، ومن الثاني اللوح ،

ومن الثالث العرش ، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء ، فخلق من الأول حملة العرش، ومن الثاني الكرسي ، ومن الثالث باقي الملائكة ، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء ، فخلق من الأول السموات ، ومن الثاني الأرضين ، ومن الثالث الجنة والنار ، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء ، فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين ، ومن الثاني نور قلوبهم وهي المعرفة بالله ، ومن الثالث نور أنسهم ، وهو التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولم يذكر الجزء الرابع . أ . هـ .

وهذا الحديث الباطل ، تصوره يكفي في فساده ، ولا أدري أخفي على هؤلاء الحديث الصحيح المتواتر : « **من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار** » أم أتوا بذلك من جهلهم وضلالهم ، ولا يبعد أنهم تعمدوا هذا الافتراء لتضليل الناس وإغوائهم ، وإخراجهم من الحق إلى الباطل ، ومن النور إلى الظلام .

الأدلة النقلية على توحيد الألوهية :

قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)** ﴾ .

[البقرة : ٢١ ، ٢٢] .

أي : وحدوا ربكم وأفردوه بالعبادة ، لأنه هو الذي خلقكم من العدم ، وأسبغ عليكم جزيل النعم ، وخلق من قبلكم من الأمم ، وهو الذي مهد لكم الأرض ، وجعلها صالحة للإفتراش والعمل عليها .

وهو الذي كوَّن السماء بنظام متماسك كنظام البناء ، وهو الذي أنزل من السماء مطراً يسقي به الزرع ، ويغذي به النبات ، فالخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة ، عقلاً وفطرة ووجداناً .

﴿ **فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا** ﴾ أي : شركاء تخضعون لهم ، وتخصونهم بالعبادة وأنتم تعلمون بطلان ذلك ، لأنكم إذا سئلتم من رزقكم من السموات والأرض ، ومن يدبر الأمر ؟ ، تقولون : الله .

■ فَلِمَ إذًا تدعون غيره بهذه الوسائط وتستشفعون به ؟ .

■ ومن أين أتيتم بهذه الوسائط التي لا تضر ولا تنفع ؟ .

■ ومن أين جاءكم أن التقرب إلى الله يكون بغير ما شرعه الله حتي قلتم كما قال تعالى : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر : ٣] ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (١) ، [النحل : ٣٦] ، من معبود أو متبوع أو مطاع ؟ .

---

(١) الطاغوت : مشتق من الطغيان ، وهو مجاوزة الحد ، ويطلق على الشيطان والكهان ، وكل ما عُبد من دون الله .

وقد حده العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ جامعًا ، فقال : الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده ، من معبود أو متبوع أو مطاع ، فطاغوت كل قوم : مَنْ يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله . أ . هـ .

فإذا تأملت هذا التعريف ، عرفت أن حكم القانون من الطاغوت ، وأن الحاكم القانوني طاغوت ، لأنه يحكم بتشريع وضعي ، لا يستند إلى القرآن والسُّنَّة ولا إجماع الأمة ، وقد ذكر الله تعالى في عدة آي من القرآن أن الحكم لله ، وأن مرد النزاع إلى الله ، ثم إلى رسوله ﷺ .

■ قال تعالى : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ [يوسف : ٤٠] .

■ وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠] .

■ وقال تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ [النساء : ٦٥] .

■ وقال تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء : ٥٩] .

ومن المحال أن يحيل الله فصل النزاع إلى من ليس عنده ذلك الفصل ، فالشريعة المطهرة وإن لم تنص على كل جزئية من المسائل ، فقد أتت بقواعد مرنة يستطيع المجتهد أن يستنبط منها أحكام الحوادث المستجدة ، وعجبًا لمن يزعم بأنه مسلم ، ويُظهر حُب الله وحُب رسوله ﷺ ، ثم يترك التحاكم إلى الشريعة ، ويهرع إلى القانون الوضعي بحجة أن المحاكم الشرعية اختصاصها الأحوال الشخصية والميراث ، وأن القوانين الحديثة أنسب لأهل العصر .

■ وأين هؤلاء من قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) ﴾ . [المائدة : ٤٤] .

■ وقوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) ﴾ [المائدة : ٤٥] . =

وأخبر الله تعالى أنه بعث في كل طائفة من الناس رسولاً بهذه الكلمات ﴿ **أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ ، أي : اعبدوا الله وحده ، واتركوا عبادة ما سواه ، كما قال تعالى : ﴿ **فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا** ﴾ البقرة : ٢٥٦] .

فلم يزل سبحانه وتعالى يرسل للناس الرسل بذلك ، منذ حدث الشرك في بني آدم في وقت نوح عليه السلام الذي أرسله إليهم ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم برسوله محمد ﷺ ، الذي أرسله الله إلى الإنس والجن ، وانتشرت دعوته في المشارق والمغارب ، وكل الرسل جاؤوا بهذا التوحيد .

كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** (٢٥) ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله ، أي الذنب أعظم عند الله ؟ ، قال : « **أن تجعل لله ندًا وهو خلقك** » ، قلت : إن ذلك لعظيم ، قلت : ثم

= وقوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) ﴾ [المائدة : ٤٧] ، ومن الآيات المارة ؟ .

فأي إسلام وإيمان لم يمنح البشر ما هو اختصاص الربوبية والرسالة من حق التشريع والخضوع والإذعان التام لغير الله ورسوله ﷺ ؟ .

فإن قيل: قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ الآيات الثلاث نزلت في اليهود والنصارى .

فالجواب :

أولاً : أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ثانياً : أنه إذا حكم الله على أهل الكتابين بالكفر والفسق والظلم إذا لم يحكموا بالتوراة والإنجيل ، فنحن المسلمين - من باب أولى - إذا لم نحكم بالقرآن فسيحكم الله علينا بالكفر والفسق والظلم ، على أن الصحيح أن الآيات عامة تشمل أهل الكتاب وغيرهم .

وهل يكفر الحاكم القانوني أو المتحاكم إليه ؟ .

فالجواب :

يكفر إذا جحد أحقية حكم الله ورسوله ، أو اعتقد أن حكم غير الله ورسوله ﷺ أحكم أو أتم أو أشمل أو اعتقد أنه مثلها ؛ أو اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله ، أما إن اعتقد أن حكم الله هو الصواب وهو الأحسن ، ولكن حملته شهوته وهواه على التحاكم إلى غير ما أنزل الله أو الحكم به ، فلا يُكفَّر كُفر اعتقاد ، ولكنه كفر نعمة ، ومعصية عظمى ، وهو أكبر الكبائر .

أي ؟ ، قال : « **أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك** » ، قلت : ثم أي : قال : « **أن تزاني حليلة جارك** » .

والآيات والأحاديث في بيان استحقاق الله للعبادة وتحريم الشرك كثيرة ، بل القرآن كله في التوحيد ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

وأما الحُجج العقلية :

فأولاً : العقل يحكم بأن الخالق الرازق ، المحيي المميت ، الضار النافع ، هو الذي يستحق أن يُعبد ويُرجى ، ويُخشى ويُدعى ، لا من كان مخلوقًا ضعيفًا مفتقرًا معرضًا لحوادث الدهر ونوائب الزمان ، والتغير والموت والفناء ، ولو كان رسولاً أو ملكًا ، لأن غير الله لا يستحق أن يُعبد ، مهما علت درجته وسمت منزلته ، وبَعُدَ صيته .

ثانيًا : أن العبادات التي شرعها الله لعباده ، من حكمها أنها تمثل خضوع العبد وامتثاله لذي السلطة المطلقة ، والإرادة التامة ، والقوة القاهرة ، والعلم الشامل ، وهذه الصفات لا توجد إلا في الإله العظيم .

ومن حكمها : أنها بمثابة الشكر للمنعم ، لأن الله تعالى أوجده من العدم ، ورباه بصنوف النعم ، وميزه بالعقل ، والنطق ، والإرادة ، والعلم ، وكرمه على سائر المخلوقات وفضله تفضيلاً .

ومن المُسَلّم به أن المُحسن ينبغي أن يقابل بالإحسان ، وحيث أن العبد عاجز عن مكافأة خالقه شكره على قدر طاقته ، باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وهذه هي العبادة ، والمخلوق لم يفعل شيئًا من الخلق والرزق والإيجاد والإحياء والإماته حتى يستحق أن يُعبد .

قال تعالى : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُم (١) مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ**

---

(١) **أي : قُل لهم أيها الرسول** : أخبروني عن حال آلهتكم بعد التأمل في السموات والأرض وما بينهما ، والنظام القائم فيهما المنبيء عن الحكمة ودقة الصنع والإبداع في التكوين ، هل تعقلون لهم مدخلاً في خلق جزء من هذا العالم السفلي ، فيستحقون من أجله العبادة ؟ .
ولو كان لهم ذلك لظهر التفاوت في هذا النظام والمشاهد أنه على حال واحد ، أم هل تظنون أن لهم شركة في العالم العلوي ، شموسه وأقماره ونجومه ، وقصارى ذلك نفي استحقاق آلهتهم =

لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأحقاف : ٤] .

ثالثًا : أن العابد كما أنه يشكر مولاه بعبادته ، فهو في نفس الوقت يطيعه بالامتثال بما أمر ، والانتهاء عما نهى ، راجيًا رحمته وخائفًا من عذابه ، لأنه يعلم أنه لابد أن يحييه الله ويجازيه بأعماله ، وهل للمخلوق أن يجازي من لا يعبده بعقاب ، أو يثيبه إن عبده بنعم ؟ ، والحال أن العابد والمعبود كليهما تحت قبضة الله ، وكلاهما مكلفان ومعرضان للثواب والعقاب ، فبأي شيء استحق أن يُعبد ؟ .

رابعًا : لو كانت عبادة غير الله جائزة لما أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب ، وأمر بجهاد المشركين، وأباح دماءهم وأموالهم .

= للعبودية على أتم وجه ، فقد نفى أن لها دخلاً في خلق شيء من أجزاء العالم السفلي استقلالاً ، ونفي ثانيًا أن لها دخلاً على سبيل الشركة في خلق شيء من أجزاء العالم العلوي ، ونفي ذلك يستلزم نفي استحقاق المعبودية أيضًا .

وتخصيص الشركة في النظم الجليل بقوله: ﴿ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ ، مع أنه لا شركة فيها، ولا في الأرض أيضًا، لأن الغرض إلزامهم بما هو مسلَم لهم ، ظاهر لكل أحد ، والشركة في الحوادث السفلية ليست كذلك لتملكهم وإيجادهم بعضها على حسب الصورة الظاهرة ، وبعد أن عجزهم عن الإتيان بسند عقلي ، عجزهم وبكتهم عن الإتيان بسند نقلي .

قال تعالى : ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ ، أي إن كان ما تقولون حقًا ، فائتوني بكتاب من قبل هذا كالتوراة والإنجيل يشهد بصحة ما تدعون لآلهتكم ، أو ببقية بقيت عندكم من علم الأولين المفكرين في خلق السموات والأرض ترشد إلى استحقاق الأوثان للعبادة ، وتدل على صحة المسلك الذي سلكتموه.

والخلاصة :

أن الدليل إما وحي من الله ، أو بقية من كلام الأوائل ، وإما إرشاد من العقل ، فإن كان الأول : فأين الكتاب الذي يدل على أنهم شركاء ؟ ، وإن كان الثاني : فأين هو ؟ « أ . هـ . من المراغي » ، وإن كان الثالث : فإن العقل لا يسوغ عبادة من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ، بل العقل يوجب علينا عبادة من خلقنا ورزقنا وأحيانا ويميتنا ، عبادة من وسع علمه كل المخلوقات ، وبيده الضر والنفع والإسعاد والإشقاء ، وبيده الحياة والموت والذل والعز والفقر والغنى ، لا يستريب في مثل هذا من له مسكة من عقل .

والآيات التي جاءت للتنديد بعبَّاد الأصنام أو بعُبَّاد غير الله ، كلها تشير إلى أنه ينبغي الإنكار على حسب نور العقل كما ترى الآيات في سورة النمل: ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا ﴾ [النمل : ٦١] .

خامساً : إليك هذا الدليل العقلي الذي أتي به القرآن بصورة ضرب مثل ، فقال تعالى : ﴿ **ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** (٢٨) ﴾[الروم : ٢٨] .

أي : هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله ، حتى يساويه في التصرف في ذلك ، فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه ، كما يخاف غيره من الشركاء الأحرار ، فإذا لم ترضوا ذلك ، فلم عدلتم بي من خلقي من هو مملوك لي ؟! . فإن كان هذا الحكم باطلاً في فطركم وعقولكم ، مع أنه جائز عليكم مما في حقكم ، إذ ليس عبيدكم ملكًا لكم حقيقة ، وإنما هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، وأنتم وهم عبيد لي ، فكيف تستجيزون مثل هذا الحكم في حقي ، مع أنه من جعلتموهم لي شركاء ، عبيدي ، وملكي ، وخلقي ؟!! .

سادساً : هاك هذا البرهان العقلي الذي جاء به القرآن الكريم ضاربًا مثلاً لبطلان عبادة غيره ، هذا الدليل الذي يجتث شجرة الشرك من جذورها ، ويأتي على بنيانه من القواعد ، قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ** (٧٣) **مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** (٧٤) ﴾ .

[الحج : ٧٣ ، ٧٤] .

وجه الدليل : هو أن الآية توجه الخطاب إلى المشركين الذين ألَّهوا الأصنام والأوثان ، بأن الذين تعبدونهم بصرف العبادات لهم وتخضعون لهم ، لو اجتمعوا كلهم سواء كانوا من أهل السماء ، أو من أهل الأرض ، وتكاتفوا وتعاضدوا بأن يخلقوا ذبابًا ، أو يقدرون على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئًا ، لا يقدرون على ذلك ، وهم أقل مما هنالك ، فعلام تعبدونهم ؟ .

والحال أن المعبود أقل درجاته ، أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده ، ودفع ما يضره ، والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب ، الذي

هو أهون وأضعف الحيوانات ، ولو اجتمعوا كلهم لخلقه فكيف ما هو أكبر منه ؟ ، بل ولا يقدرون على استنقاذ ما يسلبهم من طيب ونحوه ، فلا أعجز من هذه الآلهة ، ولا أضعف منها ، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله ؟ .

قال الحافظ ابن القيم - رحمه الله تعالى - في كتابه « إعلام الموقعين » :

وهذا المثل من أبلغ ما أنزل الله لبطلان الشرك ، وتجهيل أهله وتقبيح عقولهم ، والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة . أ . هـ.

ولا فرق بين عبادة أولئك المشركين للأصنام والأوثان ، وهؤلاء القبوريين الذين يعبدون الأنبياء والصالحين [١] .

لأن كلمة ﴿ **تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [الأحقاف : ٤]، أو كلمة ﴿ **غَيْرِ اللَّهِ** ﴾ [النساء : ٨٢] تشمل كل ما عُبِدَ من دون الله ، من كوكب ، أو شمس ، أو شجر ، أو حجر ، أو نار ، أو نبي ، أو ولي .

إذ القصد إفراد الله بالعبادة ، وترك عبادة ما سواه كائنًا من كان وما كان ، وجاء القرآن صريحًا في النهي عن عبادة الأنبياء والمرسلين ، فقال تعالى مخاطبًا لعيسى بن مريم عليه السلام وموبخًا ومبكتًا للمسيحيين الذين ألّهوا المسيح وعبدوه : ﴿ **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي**

---

(١) عبادتهم للأنبياء والصالحين بخضوعهم وتذللهم أمام قبورهم ، والطواف حولها ، وبالنذور إليها ، وبطلب حوائجهم ، كشفاء مرضاهم ، أو إعطاهم ولداً ، أو ما شاكل ذلك .
فهذه الأمور هي من أنواع العبادة ، فمن صرفها لغير الله أصبح عابداً لغيره ومشركًا به حتى وإن قال بلسانه : أنا مسلم ولا أرضى بالشرك، وحتى وإن سماه توسلاً ووسيلة ، لأن هناك فرقًا بين التوسل وبين الاستغاثة وطلب الشفاء من المخلوق أو دفع الضر، فالتوسل أن يسأل الله بحق غيره،كأن يقول : أسألك بحق الرسول ، وأما سؤال المخلوق كأطلب من هذا الشيخ كذا وكذا ، أو أسألك أيها الرسول أن تعطيني كذا وكذا ، والنحر والنذر لغير الله، والطلب من النَّبي أو الولي مما لا يقدر عليه إلا الله ، فهذه الأمور شرك لا ريب فيه ، وأما التوسل المار ذكره فبدعة فقط ، فتنبه للفَرق بينهما .

وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد (١١٧) إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم (١١٨) ﴾ المائدة : ١١٦ – ١١٨] .

وقال تعالى : ﴿ **ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون (٨٠)** ﴾ [آل عمران : ٨٠] .

فالأنبياء وغيرهم من المخلوقين لا يستحقون ما يستحقه الله من خصائص ، فلا يُتوكل عليهم ، ولا يُستغاث بهم كما يُستغاث به ، ولا يقسم على الله بهم ، ولا يطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله ، كشفاء مريض أو رد غائب ، ولا يتوسل بذواتهم ، وإنما يتوسل بالإيمان بهم وبمحبتهم وموالاتهم ، وتعزيرهم وتوقيرهم ، ومعاداة من عاداهم ، وطاعتهم فيما أمروا ، وتصديقهم فيما أخبروا ، وتحليل ما أحلوه ، وتحريم ما حرموه .

إذا علمت ذلك فاعلم أنه كما وقعت الخصومة بين الرسل وأممهم من عهد نوح عليه السلام إلى عهد سيدنا محمد ﷺ ، فقد وقعت أيضًا بين المصلحين من هذه الأمة وبين القبوريين وأدعياء العلم ، ولم يكن لأولئك المشركين ولا لهؤلاء القبوريين والجاهلين حجة سوى تقليد الآباء والخضوع للعادات ، وكلا الصنفين يزعم أنه بتلك العبادات المصروفة للآلهة المزعومة ، وللقبور المقدسة ، والأشجار المؤلهة التقرب [١] إلى الله ، كما في قوله تعالى : ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ [الزمر : ٣] .

وكما في قوله تعالى : ﴿ **ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون (١٨)** ﴾ [يونس : ١٨] .

أفعال القبوريين الشنعاء وشركهم :

والقبوريون اليوم وقبله بقرون وقعوا فيما وقع فيه المشركون السالفون ، بصرفهم

---

(١) مفعول به ليزعم .

جل العبادات للقبور المقدسة لديهم ، كالنحر لها والطواف حولها ، والاستغاثة بها ، والتبرك بترابها ، وطلب الشفاء منها ، وشد الرحال إليها .

فكم شُدَّت لتلك القبور الرحال ، وصُرِفت من أجلها الأموال ، وعفَّرَ على أعتابها الخدود ، وسكبوا العبرات ، وكثرت منهم الاستغاثات ، وطلبوا الحاجات من الغائبين والأموات ، حتى آل الأمر في بعض الأمصار أن يقدم هؤلاء الجهلاء عرائض الشكوى وطلب الحاجات إلى أولئك المقبوريين الرفاة ، فترى هذا يكتب بعد التحية التي لا تصرف إلا لله يقول : أريد أيها الشيخ ولداً ، ويريد الآخر وظيفة ، وذاك يستغيث من ظالم ظلمه ، وتلك ولداً أو زوجًا . . . وهكذا دواليك .

ولا أدري ، أيعتقدون أن الله لا يعلم بحاجاتهم ، أو لا يجيب دعواتهم ؟! ، أو أنه وَكَّلَ هؤلاء الموتى بقضاء حوائج السائلين (١) ؟!! .

---

(١) وبالفعل قال الشعراني ـ رحمه الله ـ في الميزان : إن الله وكَّل ملائكته بقبور الأولياء تقضي حوائج السائلين ، وقال بعض الصوفية : قبر معروف الكرخي ترياق مجرب ، وقال بعضهم ما معناه : لا خير فيمن يحجب بينه وبين أصحابه شبر من التراب ، ومعناه أنه حي في قبره ، يسمع كلامهم ويُجيب نداءهم ، ويقضي حوائجهم ، بل صرح بعضهم أن بعد الموت يكون الإنسان أكمل من حال الحياة ولا سيما الأولياء ، أي يقدرون أن يتصرفوا أكمل مما كان في حياتهم ، وما أدري أي تصرف كان لهم في الحياة حتى يكون بعد الموت أكمل ؟ ، وبمثل هذه الكلمات ومئات من أمثالها نشرت الصوفية وبعض من انتسب إلى علم الفقه ـ ممن تأثر بآراء المتصوفة ـ نشروا الشرك بين العباد ، وأراد هؤلاء ـ والله أعلم ـ أن يجذبوا قلوب الناس إليهم ، وتكون لهم المنزلة عند الناس ، سواء كانوا أحياء أم أمواتًا ، فلهذا تراهم في حال الحياة تخضع لهم العامة ، وقد يركعون لهم ، وينذرون لهم، ويأتونهم بالأموال باسم النذور والصدقات ، وبعد موتهم تشيد لهم القباب ، ويُهرع الناس إليهم زرافات ووحدانًا ، ويطوفون بقبورهم ، ويستغيثون بهم في النوائب ، ويقولون جهراً من غير حياء ولا خجل : المدد يا سيد الرفاعي ، المدد يا حسين بن عليّ ، المدد يا عبد القادر الجيلاني ، إلى غير ذلك من الكلمات الشركية التي يخجل العاقل من النطق بها ، وكل هذه الأعمال الشركية الشنعاء يحسبها الجاهلون من صميم الدين ، والمبتعد عنها والمنكر لها خارج من زمرة المسلمين ومُبتدع من الوهابيين .

فإذا رأى الأجانب هذه الأعمال من تلك القباب وما حولها ، وتلك الاحتفالات والأعياد التي شرعوها بمناسبة ولادة الولي الفلاني ، وما في تلك الاحتفالات من اختلاط الرجال بالنساء ، والرقص والتصفيق ، واختلاط الشباب والمردان والنساء ، وما إلى ذلك من الحركات المخالفة ، والأعمال المبتدعة ، والأذكار الغير واردة ، والاستغاثات الشركية ، والنداءات لسكان القبور وما =

أما قَرَعَ سمعهم قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ [غافر : ٦٠] ، ولم يقل : ادعوا أوليائي أو أنبيائي ؟ .

أما سمعوا قوله تعالى : ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ** ﴾ [النمل : ٦٢] .

■ أما فهموا أن الله لم يرسل الرسل ـ وأفضلهم سيدنا محمد ﷺ إلا لمحو الوثنية وإقامة صرح التوحيد ؟ .

■ أما كان كل رسول يقرع أسماع قومه أول مرة ، قال تعالى : ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [هود : ٨٤] .

■ أما أبطل الله عباده المسيح وسفَّه أحلام عابديه [١] ؟ .

■ أما قال تعالى : ﴿ **وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠)** ﴾ [آل عمران : ٨٠] .

= شابه ذلك ، ويرون مع ذلك ويشاهدون كثيراً من أصحاب العمائم وذوي الفضيلة ممن اتسم بسمة العلم ـ وهو منه بريء ـ مع أولئك الجهلاء ، مع أولئك الراقصين والذاكرين بزعمهم ، ورأوهم مختلطين مع الشباب والنساء والمردان والرذلاء والسفهاء مستحسنين ذلك ومعترفين بما هنالك ، قالوا : إن كان هذا هو الدين الإسلامي الذي نسمع به فلا خير فيه ، لأن هذه الأعمال لا يقرها عقل صحيح ، ولا ينبغي أن يأتي به نبي مثل سيدنا محمد ﷺ ، الذي قال المسلمون عنه : إنه أتى بأحسن الأديان وأتمها وأكملها .

فهؤلاء وأمثالهم مع كونهم أضلوا كثيراً من الناس بدعوى حب الصالحين والأنبياء والمرسلين ، وبإخفائهم حب الرئاسة وجمعهم الحطام ، فقد أصبحوا حجبًا مانعة لدخول غير المسلمين في الدين بل وتنفيرهم عن هذا الدين الحنيف ، اللهم إلا أن يكون ذلك الأجنبي ممن درس حقيقة هذا الدين ـ وكثير منهم كذلك ـ وعرف الغث والسمين عرف أن ما عليه هؤلاء ﴿ **مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٣٩] ، اللهم إن ديننا الحنيف بريء من هؤلاء كبراءة الذئب من دم يوسف ، اللهم اهد عبادك إلى صراطك المستقيم .

(١) قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [المائدة : ١١٦] .

شبه بعض الجاهلين في تبرئة القبوريين من الشرك بدعوى أنهم ينطقون بالشهادتين ويأتون بشرائع الإسلام

وقول بعض الجاهلين : إن هؤلاء يقرون بالخالق ، ويعتقدون بشرائع الإسلام ، وبيوم الجزاء ، وغاية ما هنالك أنهم يتوسلون بهؤلاء الصالحين ، ولا يرضون بقلب الشرك ، بل ينفرون منه ، فكيف يمكن أن يُقال : إنهم مشركون ؟ .

فجواب تلك الشهادة : ـ وهي أنهم مشركون ـ أن نقول :

إن الكفر والشرك شُعب وأنواع ، كما أن الإيمان شُعب ، فإذا ما أتى بكثير من شُعب الإيمان وأتى معه بشيء من شُعب الشرك ، فيقال : إنه مُشرك .

مثلاً : لو صلى وصام ، واعتقد بالرسالة وبالقيامة ، واتصف بالزهد ومكارم الأخلاق ، لكنه اعتقد في كوكب بأن له تأثيراً ، أو أن بيده نفعًا أو ضراً ، أو اعتقد في ملك أو رسول ما لا يجوز اعتقاده إلا في الله فنسميه مشركًا ، وإن أتى بتلك الأعمال الصالحة ، وإلا فما معنى كتاب الردة ؟ ، ولا يلزم أن يحكم على أحد بكفر أو شرك إلا إذا أتى بجميع خصاله وأنواعه ، وتوسلهم لاعتقادهم بأنهم مذنبون وهؤلاء أقرب عند الله ، فيوسطونهم بينهم وبين الإله ، هذا هو شرك العرب بعينه .

أول من عرف بالشرك وسببه الغلو في الصالحين :

فقد قال المحدثون والمفسرون : إن أول من عرف بالشرك قوم نوح عليه السلام .

وقالو : إن ودًّا ، وسواعًا ، ويغوث ، ويعوق ، ونسرا ، كانوا قومًا صالحين بين آدم ونوح ، فنشأ قوم بعدهم يأخذون كأخذهم في العبادة ، فقال لهم إبليس : لو صورتم صورهم (١) ، فكنتم تنظرون إليهم ، فصوروهم ، ثم ماتوا فنشأ قوم بعدهم ، فقال لهم إبليس : إن الذين كانوا من قبلكم كانوا يعبدونهم ، ويستسقون بهم ، فعبدوهم .

وهناك روايات أخرى تصرح بهذا المعنى ، من أن الشرك ابتدأ من القبوريين

---

(١) وقال ابن القيم : قال غير واحد من السلف : لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم من دون الله .

المنصرفين بقلوبهم إلى الموتى من صلحائهم كما في فتح المجيد .

ونفرتهم من اسم الشرك مع تحليهم بوصفه لا تجدي ، لأن المشرك مشرك شاء أم أبى ، فلسنا مكلفين برضاهم ، وأما تشهدهم بالشهادتين فهو منتقض بأعمالهم المنافية لهما ، كالحدث بعد الوضوء ، وإقرارهم بالخالق لا يفيد ، لأن المشركين كانوا مقرين بالربوبية ولم يدخلهم في الإسلام .

وأما قول من يقول : إن مشركي العرب كانوا منكرين للبعث ؟ .

فالجواب : إن هذا الاعتقاد من جملة المكفرات ، والرسول ﷺ كفَّرهم وأباح دماءهم لأمور كثيرة ، أعظمها عبادتهم للأوثان ، ومنها إنكارهم للبعث .

ولا يقبل من الإنسان أن يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، بل الواجب عليه أن يذعن معتقداً بكل ما أتى به القرآن ، وجاء به الرسول ﷺ ويعمل بهما .

فمن آمن ببعض ولم يؤمن بالبعض الآخر فهو كافر ، كما قال الله تعالى مخبرًا عنهم : ﴿ **وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١)** ﴾ .

[النساء : ١٥٠ ، ١٥١] .

ولا ينفعه مجرد النطق بكلمة الشهادتين حتى يعمل بمقتضاها من البراءة مما يعبد من دون الله ، وصرف جميع العبادات ـ كائنة ما كانت ـ إلى الله .

فمن صرف شيئًا لغير الله،من حجر أو شجر أو حيّ أو ميت،معتقداً النفع أو الضر لديه ، أو أنه يقربه إلى الله ، فإنه قد أشرك مع الله غيره ، واعتقد ما لا يحل اعتقاده ، كاعتقاد المشركين في أوثانهم ، فضلاً عمن يقدم النذور بماله أو ولده أو يريق الدماء لميت أو حي ، أو يستنجد ويستغيث بغائب أو مقبور ، أو يطلب منه ما لا يطلب إلا من الله، من عافية مريض ، أو قدوم غائب ، أو نزول مطر ، أو إعطاء ولد ، أو أي مطلب من المطالب ، فإن هذا هو الشرك بعينه الذي كان عليه عباد الأصنام [١] .

---

(١) من « تطهير الاعتقاد » ، للصنعاني

استفهام عن تكفير الشخص المعين أو الطائفة المخصوصة :

ولكن هل يحكم على الشخص المعين أو الطائفة المخصوصة المتلوثة بتلك الخصال المنافية للتوحيد بالشرك والكفر؟، مع أنها مؤمنة بالله وبالرسول،وآتية بسائر الشرائع ؟.

الجواب :

يقال هذا العمل شرك أو كفر مثلاً ، كالسجود لولي أو الطواف بقبره أو النذر له.

ولكن الشخص المعين أو الطائفة المخصوصة لا نبادرها بالتكفير ، بل الواجب تبليغها بآيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ ، المبيِّنة للشرك والمحذرة عنه ، وأن ليس لصاحبه نصيب من الجنة ، وأن هذه الأعمال هي الشرك .

فإذا أصر الشخص المعين أو الطائفة المخصوصة ، وعاندت ولم تقبل ، فعند ذلك يحل عليها إطلاق الشرك أو عليه إن كان فرداً معينًا ، وليكن الشخص ذا تفرقة بين الشرك الأصغر والشرك الأكبر،فالرياء شرك أصغر، والسجود والنذر لغير الله شرك أكبر.

والقرآن مملوء من الدعوة إلى التوحيد والتنفير من الشرك وأهله ، والإخبار عما أحل بذويه ، وعما يثيب الموحدين ويجزيهم خير الجزاء ، بل القرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه .

وبيانه - أي القرآن - إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته ، وهو التوحيد العلمي الخبري ، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له ، وهو التوحيد الإرادي الطلبي ، وإما أمر ونهي ، وإلزام بطاعته ، فذلك من حقوق التوحيد ، وإما عن إكرامه لأهل التوحيد ، فهو جزاء توحيده ، وإما خبر عن أهل الشرك وما يعاقبهم به ، فهو جزاء من نبذ التوحيد. والرسالة المحمدية كسائر الرسالات مؤسسة على بناء التوحيد وهدم الشرك وحسم مادته .

الرجوع إلى الوثنية ومن أين تسربت :

ولكن سرعان ما كثر في الأكثرين الرجوع إلى الوثنية الجاهلية ، وتسرب إليهم ذلك من بعض الأمم المغلوبة الداخلة في الإسلام ، إما لعدم تمكن الإيمان في قلب بعضهم ، وإما نفاقًا وكيداً من البعض الآخر ، ومن بعض آراء الصوفية المنحرفة .

وبالجملة : فقد أخذت هذه الأمة مآخذ الأمم من قبلها شبرًا بشبر وذراعًا بذراع .

أخذ هذه الأمة مآخذ الأمم من قبلها وما ورد في ذلك :

قد وردت عدة أحاديث في أن هذه الأمة لابد أن تأخذ مآخذ الأمم السالفة :

منها ما في الصحيحين ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **لتتبعُن سُنن** (١) **من كان قبلكم ، حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه** » ، قالوا يا رسول الله : اليهود (٢) والنصارى ؟ ، قال : « **فمن ؟** » .

وفي حديث آخره : « .. **حتى كان لو فيهم من يأتي أُمّه علانية ، لكان في أمتي من يفعل ذلك** » .

وروى أبو داود بسنده إلى أبي قلابة ، عن أبي أسماء عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله** - أو قال : إن ربي - **زوى لي الأرض ، فأريت مشارق الأرض ومغاربها ، وإن مُلك أُمتي سيبلغ ما زوي** (٣) **لي منها ، وأُعطيت الكنزين الأحمر** (٤) **والأبيض ، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يُهلكها بسُنَّة عامة ، ولا يُسلط عليها عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم** (٥) **، وإن ربي قال لي : يا محمد ، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرد ، ولا أهلكهم بسُنَّة عامة ، ولا أُسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها** - أو قال بأقطارها - **حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ، وحتى يكون بعضهم**

---

(١) أي : طريق من كان قبلكم ، قال المهلب : الفتح أولى ، حذو القذة ، بنصب حذو على المصدر ، وبضم القاف ، واحدة القذو وهو ريش السهم ، أي لتتبعن طريقهم في كل ما فعلوه ، وتشبهوهم في ذلك كما تشبه القذة السهم الأخرى .

(٢) هو برفع اليهود خبر مبتدأ محذوف ، أي : أهم اليهود والنصارى الذين نتبع سُننهم ؟ ، ويجوز النصب بفعل محذوف تقديره « تعني » . وقوله « فمن » استفهام إنكار ، أي فمن غير أولئك ؟ .

(٣) قال التوربشتي : زويت الشيء : جمعته وقبضته ، وحاصله أنه طوى له الأرض ، وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة ينظرها .

(٤) **الأحمر** : هو كنز قيصر ، لأن الغالب عندهم كان الذهب ، **والأبيض** : هو كنز كسرى ، لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة ، ووجد ذلك في خلافة عمر رضي الله عنه .

(٥) معظمهم وجماعتهم .

يسبي بعضًا ، وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين ، وإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة ، ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى تُعبد قبائل من أمتي الأوثان ، -وورد- **حتى تُعبد فئام** [1] **من أمتي الأوثان** »[الحديث] .

فإن قيل : يلزم من قولكم تكفير الأكثرين من الأمة المحمدية ، حيث أنهم يعملون ما تقولون بأنه شرك ، مثل النذور للأولياء والنحر لهم ، والاستعانة بهم ؟ .

---

(١) الفئام بكسر الفاء : الجماعات الكثيرة .

منع الحكم بالشرك على المعين لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة سوى من بلغته النصوص وقامت عليه الحجة

الجواب :

أولاً : إن القول بالعموم مغاير للقول بالخصوص .

ثانياً : غلبة الجهل، وقلة العلم بالتوحيد والسُنَّة المطهرة ، ومعرفة الشرك وأقسامه وذرائعه في كثير من الأماكن والبلدان ، هو المانع للحكم بالشرك على المعين ، إلا من بلغته النصوص وقامت عليه الحجة ثم أصر معانداً ، فذاك يحكم عليه بالشرك .

وقد سبق لنا قريبًا من هذا المعنى ، وزدناه هنا بسطًا وتوضيحًا ، لأن كثيراً من المشاغبين وذوي الأغراض يشنعون على الدعاة المصلحين ، وينفرون الناس عن قبول دعوتهم ، بدعوى أنهم يكفرون المسلمين ويجعلونهم في صف المشركين ، مع أنهم من المؤمنين والمصلين الخاشعين .

تبرئة السُنّيين الموحدين من تكفير مسلم موحد :

والحال أنه لم يقل أحد من أهل السُنَّة - سلفًا وخلفًا - بتكفير مسلم موحد ، بل ينهون عن ذلك أشد النهي ، وإنما يقولون : إن عبادة المخلوق عادة جاهلية ، وشرك في الألوهية كما تقدم .

أول من قام بهذه الدعوة :

وأول من قام بهذه الدعوة الإصلاحية شيخ الإسلام [(١)] ، ابن تيمية الحراني في القرن الثامن بعد الرسول ﷺ والصحابة والتابعين وتابعي التابعين - رحمهم الله - ، وتلاه أُناس آخرون ، لكن أخف منه وطأة .

وفي القرن الثاني عشر قام بهذه الدعوة المباركة المجدد الكبير والمصلح الشهير

---

(١) ولد في سنة (٦٦١ هـ) ، وتوفي سنة (٧٢٨ هـ) .

الشيخ محمد (١) بن عبد الوهاب بن سليمان ، واجتهد في ذلك قولاً وفعلاً وتأليفاً وسيفاً ، وأيده آل سعود الكرام ، وعلى أساس دعوته قامت الدولة العربية السعودية ، وما زالت إلى يومنا هذا تؤيد الدعوة بشتى الوسائل والتعليم ، وقد انتشرت دعوته في سائر الأقطار ، وفي هذا العصر كثر المصلحون والداعون ، أيدهم الله بالقوة والثبات والنصر .

تقرير شبهة ودفعها :

شبهة لبعض المعارضين القائلين : إن كفر الأولين من حيث إنكار الربوبية :

أورد بعض المعارضين شبهة وتقريرها إن المشركين كان كفرهم من أجل إنكارهم للربوبية ، لا من حيث صرف العبادة لغير الله ، مستدلين بقوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ** ﴾[الفرقان : ٦٠] ، وبقوله تعالى : ﴿ **وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ** ﴾[الرعد : ٣٠] .

والجواب :

إن الآية الأولى : فيها استفهام عن الرحمن ، والاستفهام عن الشيء لا يكون جحداً له ، على أننا لو قلنا استفهام إنكاري ، فإنه إنكار للتسمية بالرحمن لا غير ، كما يوضحه كتابة صلح الحديبية (٢) .

والآية الثانية : فيها الكفر بالرحمن ، والكفر بالشيء لا يكون إنكاراً له ، تقول

---

(١) ولد سنة « ١١١٥ هـ » في بلدة العُيينة ، وتوفي سنة « ١٢٠٦ هـ » في الدرعية ، وألفت في تاريخه وبيان دعوته وعقيدته ، مؤلفاً وسطاً ، وسميته الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، عقيدته السلفية ، ودعوته الإصلاحية ، وثناء العلماء عليه ، طبع في مصر بمطبعة المدني سنة « ١٣٨٤هـ » ، ثم طُبع عدة طبعات في بلدان أخرى ، كما ألفت في سنة « ١٤٠٨هـ » كتاباً آخر بعنوان : الشيخ محمد بن عبد الوهاب المفترى عليه ، ودحض تلك المفتريات ، وطبع في قطر مرتين .

(٢) **وملخص القصة** : إن الرسول ﷺ ذهب في أواخر سنة ست من الهجرة قاصداً مكة المكرمة للعمرة ، فصده المشركين ، وجرت الرسل بينهم وبين النبي ﷺ حتى جاء آخرهم سهيل بن عمرو ، وبعد نقاش تم الاتفاق على الصلح بشروط منها : وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، فلما تم الصلح دعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب ، فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال : سُهيل : لا أعرف هذا ، اكتب باسمك اللهم ، فقال رسول الله ﷺ : اكتب باسمك اللهم ، =

لمن فعل فعلاً كفريًا : كفر فلان ، وهذا لا يدل على أنه منكر للرب ، على أنه معارض بالآيات المنبئة عن اعترافهم بالربوبية ،كقوله تعالى : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** (٢٥) ﴾ [لقمان : ٢٥] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ** (٩) ﴾ [الزخرف : ٩] ، ويزيده إيضاحًا : أن تسمية الشخص بالمشرك تدل على اعترافه بذلك .

من نسميه مشركًا ومن نسميه كافرًا ؟ :

فظاهر ما تقدم، أن من أنكر الرب نسميه كافرًا، لأن الكفر بمعنى الجحد والستر ، وكذا حكم من أنكر البعث أو نبيًا من الأنبياء ، أو كتابًا من الكتب السماوية ، أو أحل محرمًا ، أو حرم مباحًا مجمعًا عليهما .

والكفر أنواع :

كفر عناد ، ككفر أبي جهل، وكفر إباء ككفر إبليس، وكفر جحد ككفر فرعون .

ومن تقرب بعبادة لغير الله ، من نبي ، أو صالح ، أو ملك ، أو كوكب ، وما أشبه ذلك نسميه مشركًا (١) . لأن الشرك شيء واحد وهو جعل شريك مع الله ، أو عبده من دون الله ، لأنه مأخوذ من الشركة . ولا يقتضي الشرك - شرعًا - مساواة الشريك لله في جميع صفاته أو في صفة منها، بل يسمى المرء مشركًا عند الشارع بإثباته شريكًا لله ، ولو جعله دونه في القدرة والعلم مثلاً . أما حكايته عن المشركين قولهم : ﴿ **تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** (٩٧) **إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ** (٩٨) ﴾ الشعراء : ٩٧ ، ٩٨] ، فالتسوية فيه تسوية في الطاعة والانقياد ، أو في المحبة والوداد ، لا في الخلق والإيجاد .

= فكتب . فتأمل إن المشركين ما كانوا ينكرون الإله ولا الرب ، إنما كانوا ينكرون اسم الرحمن .

وقد قال المفسرون في تفسير قوله تعالى : ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** ﴾ [الإسراء : ١١٠] ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : سجد رسول الله ﷺ ذات ليلة فجعل يقول في سجوده يا رحمن ، فقال أبو جهل : إن محمداً ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلهين ، فأنزل الله هذه الآية ، ومعناه أنهما اسمان لله تعالى .

(١) أي : وكافرًا ، لأن كل شرك كُفر ، وبالعكس .

فهذه الآية كآية البقرة وهي قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ البقرة : ١٦٥] ، ومن أتى بما صيره مشركًا فمحكوم عليه بالشرك وإن تلفظ بالشهادتين، لأن الشرك ينافي الإسلام ، كما ينافي الحدث الوضوء .

الشرك شرك وإن قال صاحبه بأنه محبة للصالحين :

ولا ينفعه تسميته للشرك بمحبة الصالحين وتوقيرهم ، لأن العبرة بالحقائق لا بمجرد الأسماء . فبائع الخمر باسم العسل يعاقب ، ولا يرفع عنه العقاب بتلك التسمية المكذوبة ، بل يضاعف عليه العذاب لكذبه وتدليسه .

شبهة على تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام :

دحض الشبهة على تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسم :

أورد بعض المتعصبين : إن ذلك التقسيم لم يقل به النَّبي ﷺ ؟ .

الجواب :

أولاً : أن يُقال له : إن تُرد أن النَّبي ﷺ لم يقل به لا لفظًا ولا معني فباطل ، فإنه قال ﷺ : « **أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ...** » .

وهذا هو توحيد الألوهية ، والنبي ﷺ وأصحابه علَّموا الداخلين في الإسلام بأن لا يعبدوا إلا الله وهو ما نريده . وأكثر القوم كانوا معترفين بالربوبية ، فكانوا عارفين بمعاني الألفاظ ، لا يحتاجون إلى تفرقة .

فإذا قيل لهم : لا إله إلا الله ، ولا خالق ولا رازق إلا الله ، عرفوا ما تدل عليه الجملة الأولى والثانية ، وأنت حين توازن بين قوله تعالى إخبارًا عنهم : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ [الزخرف : ٨٧] ، وقوله تعالى : ﴿ **أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** ⑤ ﴾ [ص : ٥] ، يظهر لك ما قلناه بجلاء ووضوح .

على أنه لا يضرنا أن النَّبي ﷺ وصحبه لم يصطلحوا هذا الاصطلاح، لأننا نقول : تؤخذ الأشياء بمعانيها ، ولا يلزم أن يكون النَّبي ﷺ وصحابته ﷺ يمشون على هذا النهج المصطلح عليه .

وغاية قولنا : إن معنى الرب في اللغة غير معنى الإله :

يدل الأول : على الإحاطة والخلق والإيجاد والتربية .

والثـــانــي : على المعبود بحق أو باطل .

ونقول في الجواب ثانياً : إن لم يقسم النَّبي ﷺ التوحيد إلى ثلاثة أقسام ، فلم يحصره في قسم واحد - كما تزعم - ومعنى الألفاظ الواردة في القرآن والسُنَّة واللغة تساعدنا على ذلك ، وليس معك ما يناصرك على دعواك .

بيان الشرك وأنواعه
من كتاب [هداية المريد]

وبعد أن انتهيت من الكلام على توحيد العبودية ، رأيت من الجدير أن أذكر فصلاً في الشرك وأنواعه من كتاب هداية المريد إلى سبيل الحق والتوحيد للعلامة الشيخ أحمد بن محمد العبادي اليماني ، قال :

والكفر والإشراك بالإله ... من أعظم الذنوب والمناهي
ثم الخلود واجب في النار ... للمشركين الكل والكفار
فمن يقل غير الإله يوجد ... في الكون موجود بحق يُعبد
ومن لغير ربه طوعًا سجد ... من غير إكراه فذا شرك يعد
كمن نفي وجود مولانا علا ... أو قال بالتشبيه أو من عطلا
أو قال بالتجسيم أو من كيفا ... أو علمه بكل جزئي نفي
أو أثبت الإبن له والصاحبة ... أو قال في نفي الصفات الواجبة
أو أنكر المعلوم بالضرورة ... أو قال في إباحة الكبيرة
أو جحد القرآن والرسولا ... ومثل ذا ميكال أو جبريلا
ومن يقل غير الإله يملك ... ضرًا ونفعًا فهو أيضًا مشرك
ومن يناد ميتًا أو غائبًا ... ويرتجيه راغبًا أو راهبًا
في دفع ضرٍ أو حصول نفعٍ ... فذاك شرك عند أهل الشرع[1]
كمن ينادي مستغيثًا بأحد ... أو مستعينًا أو رجى منه الولد
إذ ذاك في العادة ليس يقدر ... عليه إلا الواحد المقتدر

---

(١) **لأن بعض الناس يقول** : إما عن اعتقاد خبيث أو إرغامًا للسُّنَّة وأهل التوحيد : إن الأولياء يضرون وينفعون من دون الله ، فنعوذ بالله من هذا القول الفظيع ، والله تعالي يقول لنبيه ﷺ : ﴿ **قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾** ﴾ [الجن : ٢٢] .

وكل ما استحال في العادات ... كطلب الإحيا من الأموات

فلم يجز لمسلم أن يفعله ... وأنكر الشرع على من فعله

وحلقه للرأس عند القبر ... مثل الطواف حوله والنحر (١)

ومن يك اعتكافه تعظيما ... للقبر أضحى مشركا ظلوما

أو موهما لسائر العوام ... جوازه في ملة الإسلام

ليستمد الرشد والهداية ... من صاحب المقام والولاية

لأن هذه كلها عبادة ... لا يمتري فيه ذوو الشهادة

ومن يكفِّر مسلمًا فقد كفر ... من غير برهان على الكفر ظهر

كمن ينادي مسلمًا يا كافر ... أو يا يهودي فكفر ظاهر (٢)

لأنه قد حول الإسلاما ... كفرًا وسمى نوره ظلامًا

أو قال لا أقبل حكم الشرع ... أو زعم شرع الكفر خير شرع

أو قال إن المرسلين خانوا ... أو كتموا أو غيَّروا أو مانوا

أو ليس هذا الشرع يكفي الخلقا ... أو ما ينافيه يراه حقًّا

فكل ذا كفر صريح معتبر ... فافهمه واهجر من تولى وكفر

---

(١) إن بعض العامة إذا التمس الولد منهم ، فإنه يذهب إلى بعض القبور وينذر لصاحبه - إن هو حظي بولد ذكر كان أو أنثى - بقربة لا يجوز التقرب بها إلا إلى الله تعالى ، فمن ذلك أنهم يقولون : يا شيخ فلان بفضلك ومقامك عند الله ، أنذر لك بربع رأس ابني أو ابنتي إن عاش وسلم من الآفات . فإذا بلغ الطفل السابعة من عمره ذهب به أبواه المشركان إلى ضريح المنذور له ، فحلقا رأسه ، وجعلا في شعره من أنواع الطيب شيئًا كثيرًا ودفناه إلى جانب القبر ، وذبحا هناك كبشًا يتحريان سلامته أكثر مما يتحريانها لذبحه في الأضحية والعقيقة ، وإذا كان الولد أثنى جعلا نصف دفعها حين زواجها لذلك الشيخ الصالح ، وينفقانه عليه في إقامة الحضرات ، وتسريج قبَّته وضريحه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

(٢) في الحديث الشريف : عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ :« **إذا قال الرجل لأخيه يا كافر ، فقد باء بها أحدهما** » [رواه أحمد والبخاري] .

والمعنى : أنه إذا كان القائل صادقًا وإلا فهو كافر ، كما يشهد له حديث «**من كَفَّر مسلمًا فهو كافر**»

القسم الثالث
توحيد الأسماء والصفات

وهو اعتقاد ثبوت ما وصف الله به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ ، كالعلم والقدرة والإرادة ونحوها ، ولم يقع في هذا خلاف في القرن الأول ، بل كانوا مطبقين على ذلك ، كما ستعرفه إن شاء الله تعالى من الأبحاث الآتية ، وإنما وقع النزاع في أوئل القرن الثاني .

أول من عرف عنه القول بنفي الأسماء والصفات :

وأول من عرف عنه القول بنفي الأسماء والصفات هو : الجهم ابن صفوان ، تابعًا للجعد بن درهم ، وفي أوائل المئة الثالثة فشت هذه المقالة ، وكان المتصدر لنشرها والدعوة إليها بشر المريسي - في عصر المأمون - وأحمد بن أبي دؤاد ، والقدرية من حيث رأيهم في القدر كانوا أسبق من الجهم ، لأنهم أخذوا مذهبهم من غيلان القدري ، ثم من معبد الجهني ، ولكن في نفي الصفات وإنكار الرؤية وافقوا جهمًا ، كما وافقه كثير من الشيعة والخوارج والأشعرية ، لكن في بعض الصفات لا في كلها ، وعُرِفَ هؤلاء باسم المتكلمين .

وقد جرت بينهم وبين الأثريين حملات كلامية ، ولكل منهما أحزاب وشيع يعادي بعضهم بعضًا ، ويسمه بالفسق والضلال أو الكفر والمروق ، وكثرت الردود من الجانبين .

حكم من أوَّل في الصفات :

والحق الذي لا ينبغي العدول عنه أن من كان مؤمنًا بالله والملائكة والكتب والنبيين واليوم الآخر ، ومقرًا بفرضية شرائع الإسلام الظاهرة كالصلاة والصيام والزكاة والحج ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومعتقدًا تحريم ما علم تحريمه من الدين بالضرورة كحرمة الزنا والربا وشرب الخمر ، ولكن مع هذا قد أوَّل في الصفات - بزعم التنزيه - كما فعلت الجهمية والقدرية ، أو أنكر القدر بالمعنى المعروف - وهو تقدير الله

للخير والشر ـ بعد الإقرار بأن الله عالم بما كان وما يكون ، أو أنكر الرؤية مؤولاً للآيات بزعمه تنزيه الله عن مماثلة المخلوق ، فهذا مع كونه مخطئًا وضالاً لا ينبغي تكفيره ، لأنه لم يكن معانداً لله ولا للرسول ﷺ ، إلا أن يكون داعية ، فقد تحرر من كلام أهل العلم .

« إن المقلد في نفي الصفات ، أو نفي الرؤية ، أو خلق القرآن ، فاسق ، والداعية كافر » .

واختار الموفق عدم كفره ، لقول الإمام أحمد للمعتصم : يا أمير المؤمنين .



فصل
ما يجب لله وفي ما يجوز، وما يستحيل

أول (١) واجب على الأنام ... معرفة الإله ذي الإنعام
من واجب وجائز وممتنع ... كذا لرسله الكرام فاتبع

[س] أول واجب على العبد معرفة الله شرعًا (٢) لا عقلاً - كما زعمت المعتزلة - وهي أسمى المعارف وأجلها ، وهي الأساس الذي تقوم عليه الحياة الروحية كلها ، ولا يستطيع المخلوق مهما بلغ من العلم الوقوف على كنه حقيقة الإله ، فأين الطريق الموصل لتلك المعرفة الواجبة ؟ .

الجواب : لنا طريقان نصل بهما للمعرفة بالله :

الأول : المعرفة عن طريق العقل بالتأمل والنظر والتفكير في هذه المخلوقات العظام والآيات الجسام ، كالسماء والأرض، والشمس والقمر، والكواكب والبحار والأشجار، وما إلى ذلك من المخلوقات المنادية على وجود ربنا وخالقنا ، لأن العاقل إذا نظر إلى هذه الموجودات ، هداه نظره وعقله إلى أنها لابد لها من خالق ، وقد سبق في شرح توحيد الربوبية بيان هذا المرام بأبسط مما في هذا المقام .

الثاني : نعرفه بأسمائه وصفاته الحسنى المذكورة في القرآن والسُنَّة ، لأن الأسماء والصفات هي الوسائل التي تعرف الله بها إلى خلقه ، وهي النوافذ التي يطل منها القلب على الله مباشرة ، وهي التي تحرك الوجدان ، وتفتح أمام الروح آفاقًا فسيحة ، تشاهد فيها أنوار الله وجلاله ، ولا سيما الأسماء الحسنى التي أمرنا أن ندعوه بها ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾ [الأعراف : ٨٠] .

روى البخاري ومسلم والترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

---

(١) **أقسام الحكم العقلي ثلاثة** : الوجوب ، والجواز ، والاستحالة ، فبدأ بالوجوب ، ثم الجواز ، ثم الاستحالة .

(٢) **وقال بعض الأشعرية** : إن وجوب معرفة الله بالعقل والشرع معًا .

« إن لله تسعة وتسعين اسمًا (١) من حفظها (٢) دخل الجنة ، وإن الله وتر يُحب الوتر »

وليس في وسع البشر - كما قلنا - معرفة كنه الحقيقة الإلهية ، لهذا لما سأل بعض المشركين النَّبي ﷺ عن حقيقة الإله : أمن حديد أم من نحاس أم من ذهب ؟ ، ظنًا منهم أنه من جنس آلهتهم الباطلة ، فأنزل الله على نبيه ﷺ جوابهم بقوله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)** ﴾ [الإخلاص : ١ ، ٢] فأجابهم بصفاته .

فإنه تعالى يقول : قل يا محمد : أدعوكم إلى عبادة إله موصوف بالأحدية والصمدية وعدم الكفء له .

ومعلوم أن القلب يؤلَّه من تلك صفاته .

فإن قال ملحد : هذا الرب الذي تدعون أنه خالق هذا الكون ، وأنه المعبود لم يره أحد ، ولا يدرك بإحدى الحواس الخمس ، فكيف يمكننا الإقرار بهذا الرب ؟.

---

(١) [١] هو الله الذي لا إله إلا هو . [٢] الرحمن . [٣] الرحيم . [٤] الملك . [٥] القدوس .
[٦] السلام . [٧] المؤمن . [٨] المهيمن . [٩] العزيز . [١٠] الجبار . [١١] المتكبر . [١٢] الخالق .
[١٣] الباري . [١٤] المصور . [١٥] الغفار . [١٦] القهار . [١٧] الوهاب . [١٨] الرزاق .
[١٩] الفتاح . [٢٠] العليم . [٢١] القابض . [٢٢] الباسط . [٢٣] الخافض . [٢٤] الرافع .
[٢٥] المُعز . [٢٦] المُذل . [٢٧] السميع . [٢٨] البصير . [٢٩] الحكم . [٣٠] العدل .
[٣١] اللطيف . [٣٢] الخبير . [٣٣] الحليم . [٣٤] العظيم . [٣٥] الغفور . [٣٦] الشكور .
[٣٧] العلي . [٣٨] الكبير . [٣٩] الحفيظ . [٤٠] المقيت . [٤١] الحسيب . [٤٢] الجليل .
[٤٣] الكريم . [٤٤] الرقيب . [٤٥] المُجيب . [٤٦] الواسع . [٤٧] الحكيم . [٤٨] الودود .
[٤٩] المجيد . [٥٠] الباعث . [٥١] الشهيد . [٥٢] الحق . [٥٣] الوكيل . [٥٤] القوي .
[٥٥] المتين . [٥٦] الولي . [٥٧] الحميد . [٥٨] المحصي . [٥٩] المبديء . [٦٠] المعيد .
[٦١] المحيي . [٦٢] المميت . [٦٣] الحي . [٦٤] القيوم . [٦٥] الواجد . [٦٦] الماجد .
[٦٧] الواحد . [٦٨] الصمد . [٦٩] القادر . [٧٠] المقتدر . [٧١] المقدم . [٧٢] المؤخر .
[٧٣] الأول . [٧٤] الآخر . [٧٥] الظاهر . [٧٦] الباطن . [٧٧] الوالي . [٧٨] المتعالي .
[٧٩] البَر . [٨٠] التواب . [٨١] المنتقم . [٨٢] العفو . [٨٣] الرؤوف . [٨٤] مالك الملك .
[٨٥] ذو الجلال والإكرام . [٨٦] المقسط . [٨٧] الجامع . [٨٨] الغني . [٨٩] المغني .
[٩٠] المانع . [٩١] الضار . [٩٢] النافع . [٩٣] النور . [٩٤] الهادي . [٩٥] البديع .
[٩٦] الباقي . [٩٧] الوارث . [٩٨] الرشيد . [٩٩] الصبور جل جلاله .

(٢) أي : وعاها واستحضر معناها ، واستشعر في نفسه آثارها .

الجواب :

أولاً : قد قلنا غير مرة : إن كل مخلوق لابد له من خالق ، وكل صنعة لابد لها من صانع ، فكيف بهذا الكون العظيم ؟ .

ثانياً : إن من المُسَلَّم به لدى العقلاء أنه لا يسوغ للشخص إنكار ما لا يدركه بحواسه ، فكل شخص لابد أن يقر أن أباه وطأ أمه ، وأنها ولدته ، فهل أحس بشيء من ذلك ؟ .

كما يعرف أنه وُلِدَ صغيراً، وربي بالتغذية والحضانة، فهل أحس بشيء من ذلك ؟.

ويعرف كثيراً من المدن ولم يرها ، ولم يدركها بحواسه ، فهل يمكنه الإنكار ؟ .

وهذا عالم الميكروبات قد كان خفياً ، واكتشف من عهد قريب ، فهل يمكن أن يقال : إنه لم يكن فيما سلف من الأزمان ؟ .

وبالجملة : فمنكر هذه الضروريات أحق باسم الجنون عن اسم العقل .

هل معرفته فطرية أم نظرية ؟ :

قد رجح كثير من السلف أن معرفته تعالى ممكنة بالفطرة ، أي : بلا استدلال ولا نظر ، بمعنى أنه لو ولد إنسان بعيداً عن الناس ، ولم تفسد فطرته بتعليم أبويه أو البيئة التي يعيش فيها ، لأمكن أن يعرف الله بفطرته الصافية بمساعدة عقله ونظره وتفكره فيما خلق الله .

وقال بعضهم : أول واجب النظر الموصل إلى المعرفة [1] .

وقال البعض : من فسدت فطرته بتقليد آبائه وقومه ونحو ذلك ، وجب عليه النظر الموصل للمعرفة ، ومن لا ، فلا .

---

(١) قال في شرح الطحاوية : الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله ، لا النظر والقصد إلى النظر ولا الشك ، كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم ، بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقيب بلوغه ، بل يُؤمر بالطهارة والصلاة إذا بلغ أو ميز عند من يرى ذلك . أ . هـ.
وهذا القول من الوجاهة بمكان لا يخفى ، والحديث الصحيح : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله** . . . » صريح في ذلك .

وحيث قلنا سابقاً : إن الأسماء والصفات هي التي تعرَّف الله بها إلى خلقه ، وكان هذا الفصل معقوداً لما يجب وما يجوز وما يستحيل، فإلى القارئ الآن بيان ذلك :

فالواجب : ما لا يصح تجرده ومفارقته كالعلم والقدرة .

والمراد بالجائز : ما استوت الكفتان ، خلق العالم وعدم خلقه .

والمراد بالممتنع : المستحيل ، وهو ما لا يصح اتصافه به كالجهل والعجز .



حصر الصفات في عدد معلوم من بدع القوم

فواجب محتم نعتقد | بأنه الرب العظيم الأحد
ليس له كفء ولا مثيل | معبودنا سبحانه الجليل
في الذات والصفات والأفعال | الملك القدوس ذو الجلال
متصف بأحسن الصفات | كما أتى في محكم الآيات
وفي الأحاديث عن المختار | تلك التي صحت لدى الأبرار
لا تحصر الصفات في عشرينا | بل آمنا بما أتى يقينا
فحصرها في عدد معلوم | من بدع القوم من المعلوم
إليك من صفات ذي الآلاء | مقدمًا العشرين بالإحصاء
وبعدها بعض صفات الباري | مما أتى في الآي والأخبار
وهي التي أوَّلها من قد خلف | فحاد عن نهج الصواب وانحرف

[ش] لما ذكرنا أول واجب على العبد ، وهو معرفة الله ، وبيّنا الطريقين الموصلين إلى معرفته تعالى ، شرعنا الآن في بيان الواجب من قسميه وهو : الجائز والمستحيل كما سبق تعريفهما .

فنقول :

إنه يجب على كل شخص أن يعتقد بربنا العظيم ، خالقنا من العدم ، ورازقنا بأصناف النعم ، الذي ليس له كفء ولا شريك ولا مثيل ، لا في الذات ، ولا في الصفات ، ولا في الأفعال ، وهو الملك في الدنيا والآخرة ، القدوس ذو العظمة والجلال المتصف بمحاسن الصفات ، التي جاءت بها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة ، وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان كثير منها .

فصفاته جل جلاله لا تُعد ولا تُحصى ، فعليك أن تؤمن بما جاء في القرآن من صفاته ، وبما جاء عن رسول الله ﷺ ، من غير تكييف ولا تمثيل ، ولا تشبيه ولا

تأويل ، ولا تحصر صفاته في عشرين صفة ـ كما تقول الأشاعرة ـ ، بل آمن أيها المسلم وأذعن بكل صفة ثابتة لله تعالى ، فحصرها في عشرين من بدع الخلف .

قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ :

آمنت بالله ، وبما جاء عن الله ، على مراد الله ، وآمنت برسول الله ﷺ ، وبما جاء عن رسول الله ﷺ على مراد رسول الله ﷺ . ا . هـ .

وهكذا قول سائر الأئمة لا يحصرون الصفات ، ولا يكيفونها ولا يمثلونها ، وليس للخلف دليل على حصر الصفات في عشرين ، بل القرآن والسُنَّة يردان ذلك الحصر المزعوم ، ولكن لما عربت الكتب اليونانية [١] الفلسفية ، واشتغل بها قوم من علماء المسلمين ، وتشبعوا بمبادئها ، ورسخت في أذهانهم قواعدها ، نظروا فوجدوا أن هناك آيات وأحاديث تنص على صفات الله سبحانه وتعالى ، وبحسب ما قرأوا وفهموا من تلك العلوم أن هذه الصفات لا تنبغي أن تكون لله ، ذلك الإله الذي تصوروه بحسب معلوماتهم الفلسفية ، فبقوا متحيرين بين الكفر بالله وبين الإيمان ، فقالوا : لابد من التوفيق بين القرآن وبين معلوماتهم العقلية .

وعند ذلك اختاروا منهج التأويل لآيات الصفات زاعمين تنزيهه عن مشابهة المخلوقات ، واتخذوا المجاز مطية لهم [٢] ، وأسسو قاعدة هي : إذا تعارض العقل والنقل ، قدم العقل على النقل .

وبهذه الأقاويل الساقطة والشبه الواهية ردوا آيات الصفات ، وقابلوها بالتأويلات الباطلة ، وأما الأحاديث ، فردوا أكثرها بحجة أنها آحاد لا تعارض القطعي .

---

(١) في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية ، لا سيما في زمن المأمون .

(٢) زاعمين أنهم بذلك قد وفقوا بين العقل ـ أي علومه التي أستقوها من منابع الفلسفة ومصادر اليونان ـ وبين النقل : وهو القرآن وبعض الأحاديث التي آمنوا بها ، وادعوا أن العقل يلجؤهم إلى التأويل ، لأنه لا يسوغ ظواهر تلك الآيات والأحاديث ، لأنها يفهم منها مماثلته للمخلوقات .

وغاب عنهم أن الشرائع لا تأتي بمحالات العقول ، بل تأتي بما تسلم به العقول أو تحير فيه ، وأن قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] ، يرد صدر الآية وهو : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ على من يمثل الله بخلقه ، ويثبت بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ الصفتين الواردتين في الآية ، وينفي قول المعطلة الذين زعموا أنهم قد وفقوا بين العقل والنقل .

بيـــان العشرين صفـــة
على رأي الأشاعرة

واحدة نفسية ، وخمس سلبية ، وسبع معاني ، وسبع معنوية ، وسنبينها - إن شاء الله تعالى - على طريقة أهل الكلام ، ونقفيها بالنقد وبيان الصحيح من غيره ، لكي يفهم القاريء إذا قرأ الكتب الموضوعة في هذا الفن اصطلاحاتهم ، وما يعنون بهذه الصفات ، ولا مشاحة في مجرد الاصطلاح ولا ضرر في ذلك .

له الوجـــود [١] وهي النفـســيـــة ... وخـمـسـة قـد زعـمـوا سلبـيـة [٢]
أولهـــا البـــقـــاء ثم القـــدم ... مـــخـــالف لحـــادث فلتـــعلمـــوا
قـــيـــامـــه بالنفس وحـــدانيـــة ... فـــربنا صـــفـــاته عليـــة
إليك نقــد قــولهم فــيــمــا يلي ... بــوأك الله رفـــــيـــع المنزل
قـــدمـــه وقـــولهم قـــديم ... مـــا قـــالـه نبـــينا الكريم
لـكـن هـو الأول في القــــرآن ... وسُنَّة المخــتــار من عـــدنان
مـــخـــالف لحـــادث مـــبـتـــدع ... ليـس كـــمـــثله هو المتـبـع
قـــيـــامـــه بالنفس مـــا قـــد وردا ... عن ربنا أو النَّبي أحـــمــــدا
لكن هو القـــيـــوم في الكتـــاب ... فـــاسلك هديت منهج الصـــواب

الصفة النفسية والصفات السلبية [٣] **:**

[ش] : معنى النفسية : كونها منسوبة إلى نفس الشيء وذاته ، فهي من حيث أنها صفة مغايرة للذات ، ومن حيث الحقيقة متحدة ، أي : هي نفس الذات .

---

(١) أي : يجب له الوجود الذاتي ، بحيث يستحيل في العقل عدمه .

(٢) وسميت هذه الصفات الخمس بالصفات السلبية لاعتبار السلب في مفهومها ، فالمعتبر في مخالفته للحوادث - على حد تعبيرهم واصطلاحهم - سلب مشابهته تعالى لمخلوقه في الحدوث وغيره ، وفي البقاء سلب الآخرية لوجوده ، أي عدم ذلك ، وهكذا الكلام في البقية .

(٣) صفات الله تنقسم إلى قسمين : ثبوتية وسلبية :
فالثبوتية : ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه ، أو على لسان رسوله ﷺ ، وكلها صفات كمال ، =

والبقاء : هو امتناع لحوق العدم ، إذ لو جاز عليه العدم لاستحال عليه القدم .

لا نقص فيها بوجه من الوجوه ، كالحياة ، والعلم ، والقدرة ، والاستواء على العرش ، والنزول إلى السماء الدنيا ، والوجه ، واليدين ، ونحو ذلك ، فيجب إثباتها لله تعالى حقيقة على الوجه اللائق به بدليل السمع والعقل .

أما السمع : فمنه قوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا (١٣٦)** ﴾ .
[النساء : ١٣٦] .

فالإيمان بالله يتضمن الإيمان بصفاته ، والإيمان بالكتاب الذي نزل على رسوله ﷺ يتضمن الإيمان بكل ما جاء فيه من صفات الله ، وكون محمد ﷺ رسوله يتضمن الإيمان بكل ما أخبر به عن مرسله وهو الله عز وجل .

وأما العقل : فلأن الله أخبر بها عن نفسه ، وهو أعلم بها من غيره ، وأصدق قيلا ، وأحسن حديثًا من غيره ، فوجب إثباتها له كما أخبر بها من غير تردد ، وقد سبقت الأدلة العقلية في الشرح فلا حاجة إلى الإعادة .

والصفات السلبية : ما نفاه الله عن نفسه في كتابه ، أو على لسان رسوله ﷺ ، وكلها صفات نقص في حقه ، كالموت ، والنوم ، والجهل ، والعجز ، والتعب ، فيجب نفيها عن الله مع إثبات ضدها على الوجه الأكمل ، لأن النفي المحض الذي لا يتضمن صفة ثبوتية لا يأتي القرآن والحديث به ، لأن النفي ليس بكمال إلا أن يتضمن ما يدل على الكمال ، وذلك لأن النفي عدم ، والعدم ليس بشيء ، فضلاً عن أن يكون كمالاً ، ولأن النفي قد يكون لعدم قابلية المحل له كما لو قلت مشيرًا لجماد :هذا لا يظلم، وقد يكون للعجز كما لو أشرت إلى جبان فيكون نقصًا وليس بكمال .

ومثال النفي المتضمن لإثبات ضده قوله تعالى : ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ** ﴾ [الفرقان : ٥٨] فنفي الموت عنه يتضمن كمال حياته، وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ** ﴾ [فاطر : ٤٤] ، فنفي العجز عنه يتضمن كمال علمه وقدرته ، لهذا قال بعده : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا** ﴾ [فاطر : ٤٤] . وقد سبق في الشرح الأدلة العقلية على الصفات السلبية .

والصفات الثبوتية تنقسم إلى قسمين : ذاتية وفعليه :

فالذاتية : هي التي لم يزل ولا يزال متصفًا بها ، كالعلم ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والعزة ، والحكمة ، والعلو ، والعظمة ، ومنها : الصفات الخبرية كالوجه ، واليدين ، والعينين .

والفعلية : هي التي تتعلق بمشيئته ، إن شاء فعلها ، وإن شاء لم يفعلها ، كالاستواء على العرش ، والنزول إلى السماء الدنيا .

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين كالكلام ، فإنه باعتبار أصله صفة ذاتية ، لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلمًا ، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية ، لأن الكلام يتعلق بمشيئته ، يتكلم متى شاء بما شاء كما في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)** ﴾ [يس :٨٢] ،

قال اللقاني :

وكل ما جاز عليه العدم　　　عليه قطعًا يستحيل القدم [(١)]

وكل صفة تعلقت بمشيئته تعالى ، فإنها تابعة لحكمته ، وقد تكون الحكمة معلومة لنا ، وقد نعجز عن إدراكها ، لكننا نعلم علم اليقين أنه سبحانه لا يشاء شيئًا إلا وهو موافق للحكمة ، كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** (٣٠) ﴾ [الإنسان : ٣٠] .

(١) وهنا قال الشيخ البيجوري ـ رحمه الله ـ تحت قوله : « وكل ما جاز عليه العدم » ، أي وكل شيء جاز عليه العدم ، أي الفناء عليه قطعًا يستحيل القدم ، أي ما جاز عليه العدم يمتنع عليه القدم جزمًا من غير تردد .

وقد أشار المصنف ـ يعني اللقاني ـ إلى قياس تركيبه هكذا :العالم من عرشه لفرشه جائز عليه العدم، وكل ما جاز عليه العدم استحال عليه القدم ، فينتج هذا المقياس : إن العالم من عرشه إلى فرشه استحال عليه القدم ،فثبت حدوثه ، وإذا ثبت حدوثه ، فلابد له من محدث وهو المطلوب ، لأن أصل الكلام في النظر الموصل لمعرفة الله ، فطوى المصنف الصغرى ـ يقصد بقوله الصغرى ـ : العالم من عرشه لفرشه جائز عليه العدم ، وذكر الكبرى بقوله : وكل ما جاز عليه العدم . . . إلخ .

والحاصل : أنك تثبت أولاً حدوث الأعراض بمشاهدة تغيرها من عدم إلى وجود وعكسه ، فنقول : الأعراض شوهد تغيرها من عدم إلى وجود وعكسه ، وكل ما هو كذلك فهو حادث ينتج أن الأعراض حادثة ، ثم نثبت حدوث الأجرام ، واستحالة القدم عليها بملازمتها للأعراض الحادثة ، فنقول : الأجرام ملازمة للأعراض الحادثة ، وكل ما كان كذلك فهو حادث ، ويستحيل عليها القدم ، فينتج أن الأجرام حادثة ، ويستحيل عليها القدم . أ . هـ .

هذا الكلام الطويل العريض ـ المبني على قواعد المناطقة ـ يقصد به إثبات الخالق ، وأنه الموجد للأكوان كلها ، وأن العالم حادث ، وقد سبقت الأدلة بما أغنى عن هذا القايس المنطقي ، لكن لا بأس بذلك أن يخاطب من لا يفهم إلا بمثل هذه الأقيسة ، ولكن العجيب الغريب في قول الشيخ البيجوري بعد هذا الكلام : واعلم أن لهم هنا مطالب سبعة نظمها بعضهم في قوله :

زيد ما قام ما انتقل ماكمنا　　　ما أنفك لا عدم قديم لاحنا

فشرح هذا البيت بما يلي :

فقوله : زيد رد لقول الفلاسفة : لا نسلم ثبوت زائد عن الأجرام حتى يصح الاستدلال على حدوث الأجرام ، ودليل ثبوت الزائد الذي هو العرض المشاهدة .

وقوله : ما قام بحذف ألف ما للوزن رد لقولهم : لا نسلم عدم العرض بجواز أنه يقوم بنفسه إذا لم يتصف بالجرم ، ودليل أنه لا يقوم بنفسه أنه لا يعقل صفة من غير موصوف ، فلا تعقل حركة من غير محرك . . . إلخ ، ما ذكره في شرح البيت . وختم شرح هذا البيت بقوله : وهذه المطالب السبعة لا يعرفها إلا الراسخون في العلم ، ويقصد ـ والله أعلم ـ علم الفلسفة والمنطق .

قال السنوسي : وبها ينجو المكلف من أبواب جهنم السبعة . أ . هـ .

والقدم : أي لا أول لوجوده ، وإلا لكان من غيره ، فيفتقر إلى موجد ، فيلزم التسلسل ، وهو محال .

ومعناه عند المتكلمين : أن الله تعالى مخالف لغيره من المخلوقين في صفاته وأفعاله ، بمعنى أن ليس له شبيه ولا نظير في الصفات والأفعال .

ومعنى قيامه بالنفس : أنه لا يفتقر إلى ذات يقوم بها ، كصفات المعاني والمعنوية ، فإنها مفتقرة إلى ذات تقوم بها ، والدليل السمعي على ذلك قوله تعالى :

= قف أيها القارىء وتأمل كيف ينطق الشيخ السنوسي بهذا ، ويسجل هذا الكلام المخالف للقرآن والسُّنَّة ؟ وكيف يورد الشيخ البيجوري هذه العبارة الغير معقولة ، ولا يعقب عليها باستدراك أو ملاحظة ؟.

وهل نجاة المكلف موقوفة على أن يعرف هذه المطالب الفلسفية السبعة ؟ ، أم أن النجاة تكون بالإيمان وبالأعمال الصالحة الموافقة للكتاب والسُّنَّة ، وبترك الشرك والذنوب والموبقات ؟ ، وما أدري كيف يصدر هذا الكلام من علماء أجلاء ، ويكتبونه في كتبهم التوحيدية ، تلك الكتب التي يزعمون بها أنهم أقاموا الأدلة على توحيد الله والصفات الواجبة له والجائزة والمستحيلة ؟ ، والآيات القرآنية أكثر من أن تُحصى في بيان السعيد والشقي، ومن يدخل الجنة ، ومن يدخل النار ، وعلى سبيل المثال لا على سبيل الحصر، اقرأ قول الله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) ﴾ [السجدة : ١٨ - ٢٠] .

وهنا قد يعترض مدافع عن الشيخين السنوسي والبيجوري بما معناه :

إن الأعمال الصالحة لا تفيد إلا بالإيمان ، وأصل الإيمان معرفة الله ، وهذه الأدلة للاستدلال على أن الله تعالى هو الخالق ، وأن العالم حادث بما فيه ، فمن هنا تبرز أهمية هذه المطالب السبعة ، ويسلم الشيخان من الاعتراض ؟ .

والجواب :

إن البراهين النقلية والعقلية على إثبات وجود الله سبحانه تعالى وخالقيته وحدوث العالم أكثر من أن تحصر ، وألفت فيها الكتب العديدة ، وقد ذكرت سابقًا بعض الأدلة الكافية ، فلا حاجة إلى هذه المطالب .

فإن قالوا : إن هذه من الأدلة التي يسلم بها الخصم المنكر لوجود الله وخالقيته ، فنقول : لا بأس ، ولكن كون أن النجاة من النار متوقف على هذه المطالب السبعة غير مُسلَّم به ، وهو محل النقد والاعتراض ، وبالله التوفيق .

﴿ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

والبرهان العقلي أن يقال : لو لم يكن قائمًا بنفسه ، لكان قائمًا بغيره ، فيكون صفة ، ولو كان صفة لم يكن متصفًا بالصفات ، وقد ثبت أنه متصف بها ، فينتج ما قلنا ، أي : قيامه بالنفس .

ومعنى الوحدانية : أنه لا نظير له في الذات والصفات والأفعال ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

وقد أطلق المتكلمون عليه سبحانه وتعالى صفة القدم (١)، ومخالفته للحوادث ، وقيامه بالنفس ، وهذه الثلاثة بهذه الألفاظ مبتدعة ، حيث أنها لم ترد في الكتاب ولا في السُّنَّة (٢) .

---

(١) **قال في شرح الطحاوية :** وقد أدخل المتكلمون في أسماء الله القديم ، وليس هو من أسماء الله الحسنى ، فإن القديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن هو المتقدم على غيره ، فيقال : هذا قديم للعتيق ، وهذا حديث للجديد ، ولم يستعمل هذا الاسم إلا في المتقدم على غيره ، لا فيما لم يسبقه عدم ، كما قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ [يس : ٣٩] ، والعرجون القديم يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني ، فإذا وجد الحديث قيل للأول قديم ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف : ١١] ، أي متقدم في الزمان .

إلى أن قال : وجاء الشرع باسم الأول ، وهو أحسن من القديم ، لأنه يشعر بأن ما بعده آيل إليه وتابع له بخلاف القديم ، والله له الأسماء الحسنى . أ . هـ .

نعم باب الأخبار أوسع من باب الأسماء والصفات ، فمن باب الأخبار يجوز أن يقال : إنه قديم وموجود وباق ، ولكن عدها في أسمائه تعالى لا يجوز لعدم ورودها .

(٢) أما القدم فقد بيِّنت في الشرح وفي التعليق أنه لم يرد ، وإن كان معناه لا أول لوجوده ، ولكن الأولى أن يقال : هو الأول والآخر ، وأما مخالفته للحوادث وإن كان قصدهم عدم مشابهته للمخلوقات في صفاته وأفعاله ، لكن الذي وصف الله به نفسه أنه كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] ، وفرق بين العبارتين ، لأن عبارة المتكلمين مخالف لغيره ، والقرآن فيه أن أحداً من المخلوقين لا يماثله ولا يكافئه ، فلم يكن اللفظان مترادفين حتى يلزم من صحة إطلاق أحدهما صحة إطلاق الآخر .

وهناك فرق آخر : فإن الظاهر من المخالفة للحوادث أن ما ثبت للمخلوقين من الصفات كالقدرة والعلم والسمع والبصر لا يصح أن يثبت للخالق وليس ذلك مراداً ، فقد ثبت للخالق سبحانه صفات كثيرة ، وثبت للمخلوق ما يناسبه من تلك الصفات ، فللخالق قدرة لا يقف في سبيلها شيء ، وللمخلوق استطاعة محدودة ، وللخالق علم شامل محيط ، ولم يؤت المخلوق من العلم إلا

والقول المختار لدى السلف والخلف أن أسماء الله وصفاته توقيفية .

قال اللقاني - رحمه الله - :

واختير أن أسماءه توقيفيه ... كذا الصفات فاحفظ السمعية

وقال السفاريني - رحمه الله - في الدرة المضيئة :

لكنها في الحق توقيفية ... لنا بذا أدلة وفية

فالأولى إطلاق الصفة الواردة ، فأما القدم وإن كان معناه عندهم أن لا أول لوجوده ، ولكن الوارد في القرآن والحديث هو الأول والآخر .

ومخالفته للحوادث لم يرد في القرآن المجيد ولا في سُنَّة النَّبي ﷺ ، والذي وصف الله به نفسه كما قال تعالى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ . [الشورى : ١١] .

وهناك فرق بين اللفظ القرآني واللفظ الكلامي ، وبيانه أن الظاهر من المخالفة للحوادث ، أن ما ثبت للمخلوق من الصفات كالقدرة والعلم مثلاً ، لا يصح أن يثبت للخالق ، وليس ذلك مراداً .

فقد ثبت للخالق صفات كثيرة ، وثبت للمخلوق ما يناسبه من تلك الصفات ، فللخالق قدرة لا يقف في سبيلها شيء ، وللمخلوق قدرة محدودة ، وللخالق علم شامل محيط ، ولم يؤت المخلوق من العلم إلا قليلاً .

ومن ذلك تعلم أن قول بعض المتكلمين :

« كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك » ، قول غير صحيح باعتبار ظاهره الذي

قليلاً وهكذا ، ومن ذلك تعلم أن قول بعض المتكلمين : « كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك » غير صحيح باعتبار ظاهره الذي يفهم منه ، كيف ويخطر ببالنا كمالات لله تعالى ؟ ، فالمخلوق وإن ثبت له صفات مشتركة في لفظها مع صفات الرب ، لكن صفاته دون صفاته ، وقد فهم الراغب في قوله تعالى : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ أن المثل يطلق على الصفة ، ومعناه ليس كصفته صفة ، تنبيهاً على أنه وإن وصف بكثير مما يُوصف به البشر ، فليست تلك الصفات له على حسب ما يستعمل في البشر ، وقوله تعالى : ﴿ **لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ** ﴾ [النحل : ٦٠] ، أي لهم الصفات الذميمة ، وله الصفات العلى أ . هـ . « الشرح الجديد لجوهرة التوحيد » للعلامة محمد أحمد العدوي .

يفهم منه ، كيف ويخطر ببالنا كمالات الله ؟!.

فالمخلوق وإن ثبت له صفات مشتركة في لفظها مع صفات الرب ، لكن صفاته دون صفاته ، وقيامه بالنفس بالتفسير الذي فسروه - وسبق ذكره - صحيح المعنى ، ولكن لم يرد إطلاقه عليه لا في كتاب ولا في سُنَّة - كما سبق .

والوارد في الكتاب هو ﴿ **الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . ، ومعنى القيوم القائم الحافظ لكل شيء ، والمعطي له ما به قوامه ، وذلك هو المعنى المذكور في قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** ﴾ [الرعد : ٣٣] .

وقد نبهت في النظم على كون هذه الثلاثة غير واردة بقولي : إليك نقد قولهم فيما يلي . . . إلخ .



صفات المعاني

والعلم والكلام سمع وبصر إرادة ثم الحياة واقتدر
بقدرة تعرف بالمعاني وكله عندهم قسمان

[ش] هذه صفات المعاني [(١)] ، **واليك بيانها وهي سبعة :**

[١] العلم : وهو صفة أزلية متعلقة بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات على وجه الإحاطة من غير سبق خفاء .

والدليل النقلي على ذلك :

قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا** (٩٨) ﴾ [طه : ٩٨] .

وقوله تعالى : ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** (١٩) ﴾ [غافر : ١٩] .

وقوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** (١٢) ﴾ [الطلاق : ١٢] .

والآيات كثيرة في إثبات صفة العلم له تعالى .

والبرهان العقلي هو أن نقول : إيجاده الأشياء يبرهن لنا على اتصافه بالعلم وبيانه أن خلقه الأشياء لابد من إرادة ، والمريد لابد أن يتصور المراد تصوراً تاماً ثم يبرزه إلى عالم الوجود ، كما أن من المسلمات تسليماً لا يقبل الجدل أن في مخلوقاته

---

(١) إضافة الصفات إلى المعاني بيانية ، أي : صفات هي المعاني ، والمعاني : جمع معنى ، وهو لغةً: ما قابل الذات ، واصطلاحاً : كل صفة قائمة بموصوف موجبة له حكماً،ككونه قادراً ، وكونه مريداً ، فإنهما لازمان للقدرة والإرادة ، وهكذا غيرهما .
واعلم أن صفات المعاني -لقيامها بالذات- تسمى الصفات الذاتية ، وهو ما يوصف الله بها ، ولا يوصف بضدها ، وهي صفات أزلية -كما سبق في الشرح- ويقابلها الصفات الفعلية ، وهي ما يجوز أن يوصف الله بها وبضدها كالإحياء والإماتة ، انتهى من شرح الشيخ أحمد نور -رحمه الله- على منظومته في الفرق الإسلامية .

من هو عالم ، ويستحيل أن يكون واهب العلم فاقده ، وعليه يلزم نقصان الخالق وكمال المخلوق ، وهو باطل .

[٢] الكلام : وهو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى .

قال أهل الحديث والسُّنَّة : إن الله لم يزل متكلمًا إذا شاء ، ومتى شاء وكيف شاء. وفي هذا المقام نزاع طويل ، وسيأتي الكلام عنه في بحث الكلام .

[٣] السمع : وهو صفة أزلية قائمة بذاته .

[٤] البصر : صفة أزلية قائمة بذاته ، تتعلق بالمبصرات من الذوات والأعراض ، كما أن الأولى تتعلق بالمسموعات من الأصوات ، والدليل عليهما نقلاً قوله تعالى : ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾ [النساء : ١٣٤] ، وقوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى : ١١] .

والبرهان العقلي : هو أن كل عاقل يفهم أن فقد هاتين من المخلوق نقص له ، ووجودهما كمال له ، وكل كمال في المخلوق فالله أولى به ، وواهب الشيء لا يكون فاقداً له .

ألا ترى الخليل عليه السلام كما أخبر الله عنه يوبِّخ أباه بقوله تعالى : ﴿ **يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا** ﴾ [مريم : ٤٢] .

وقال تعالى تبكيتًا لعُبَّاد الأصنام : ﴿ **هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣)** ﴾ [الشعراء : ٧٢ ، ٧٣] ، فترى أن في الآيات توبيخًا لقوم يعبدون أصنامًا خلت عن هذه الكمالات ، وتجردت عن هذه الخصائص ، وتسفيهًا لأحلامهم ، فدل ذلك أن المودع في الفطر أن من شأن الإله أن يكون سميعًا يجيب من دعاه ، بصيرًا يرى من يعبده ، ولا يسمح عاقل لنفسه أن يعبد إلهًا أصم ، أو يخضع لإله أعمى ، فوجوب هاتين الصفتين لله تعالى عقلي ، تقضي به الفطر وتشهد به الكائنات .

[٥] الإرادة : وهي صفة قائمة به تعالى ، تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه ، كالإيجاد والعدم .

فخرج بالممكن الواجب [١] والمستحيل ، فلا تتعلق الإرادة بهما كالقدرة ، لأنها إن تعلقت بإيجاد الواجب أو بإعدام المستحيل لزم تحصيل الحاصل ، وإن تعلقت بإعدام الواجب أو بإيجاد المستحيل لزم قلب الحقائق ، فلا يكون الواجب واجبًا ولا المستحيل مستحيلاً .

والدليل على إثبات صفة الإرادة : قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾** ﴾[يس : ٨٢] .

والبرهان العقلي : هو أن العقل حاكم أن الضدين بالنسبة إلى القدرة سواء ، فلابد من مخصص وإلا لزم ترجيح أحدهما بلا مرجح وهذا باطل ، والإرادة قسمان : إرادة قدرة كونية ، وهي الشاملة لجميع الموجودات ، وترادفها المشيئة ، وهي المرادة من قوله تعالى : ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

وقوله تعالى عن نوح عليه السلام ﴿ **وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ** ﴾[هود : ٢٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ** ﴾[البقرة : ٢٥٣] .

وأما الإرادة الدينية الشرعية : وهي التي تراد منها المحبة والرضا ، فكقوله تعالى : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾[البقرة : ١٨٥] .

وقوله تعالى : ﴿ **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[المائدة : ٦] .

وبين الإرادتين عموم وخصوص مطلق ، يجتمعان في حق المخلص المطيع ، وتنفرد الإرادة الكونية القدرية في حق العاصي .

[٦] الحياة : هي صفة أزلية ذاتية ثبوتية ، وتقتضي صحة العلم والقدرة ، لاستحالة قيامهما بغير الحي ، وفي المخلوق صفة يلزمها قبول الحس والحركة والإرادة .

---

(١) أقسام الحكم العقلي ثلاثة : الوجوب ، والجواز ، والاستحالة ، فالقدرة والإرادة تتعلقان بالممكن الذي هو الجائز فقط كما لا يخفى .

والدليل النقلــــي : قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . وقوله تعالى : ﴿ **وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ** ﴾ [طه : ١١١] .

والبرهان العقلي : هو أن من كان معترفًا بالإرادة والعلم والقدرة ، يلزمه الاعتراف بالحياة ، لأن تلك الثلاثة لا تقوم إلا بمن كان حيًا ، وإلا يلزم أن نقول باتصاف الميت بالقدرة والعلم ، وهذا باطل . على أن حياته جلّ وعلا مما اتفق عليه العقلاء .

[٧] القدرة : هي صفة أزلية ، تؤثر في المقدورات عند تعلقها بها ، فإنه جل شأنه قادر على جميع الممكنات .

والدليل النقلــــي : قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [المائدة : ١٢٠] ، وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا** ﴾ [فاطر : ٤٤] .

والبرهان العقلي : لو لم يكن قادرًا لم يمكنه إيجاد العالم من العدم إلى الوجود ، فوجود العالم يدل على قدرته تعالى ، وكل فاعل لابد أن يكون قادرًا ، وإلا لم يستحق تلك التسمية (١) .

---

(١) والجدير بي أن أذكر شبهة سخيفة ، طالما رددها الملحدون والمنكرون للإله الخالق العظيم ، والمشككون وصغار الطلاب الذين لم يتحصنوا بالتوحيد ، ولم يرسخ الإيمان في قلوبهم رسوخًا من شأنه أن يرفضوا مثل هذه الشبهة الضالة وهي من خلق الله ؟ .

والرد على هذه الشبهة يكون من وجوه :

[١] هذا السائل عمن خلق الله يناقض نفسه بنفسه ، من حيث يعلم أو لا يعلم ، فكيف يقر على أنه خالق ، ثم يسأل عمن خلقه ؟ ، فهل يقبل العقل أن يكون الله خالقًا ومخلوقًا في آن واحد ؟ ، وهل يمكن أن يتصف الله بالمخلوقية بعد أن أقررنا أنه خالق ؟ ، ألم يعلم هذا السائل أن المخلوقات من صفات الحوادث فكيف نصفه بهذه الصفة ، وننسب إليه ما لا يليق به ؟ ، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا .

[٢] لو فرضنا أن الله سبحانه قد خلقه خالق ، وأن الخالق قد خلقه خالق ، سينتهي بنا الأمر حتمًا إلى الدور والتسلسل ، أما الدور فباطل لما يترتب عليه من التناقض والتهافت .

مثال ذلك أن تقول : إن زيدًا أوجد عمروا ، وعمرو أوجد زيدًا ، فزيد توقف وجوده على عمرو ، وعمرو توقف وجوده على زيد ، وبهذا المفهوم يكون عمرو سابقًا لأنه موجد ، ويكون مسبوقًا لأنه موجد ، والشيء الواحد لا يكون سابقًا ومسبوقًا في آن واحد للتناقض الصريح والشيء المستحيل ، إذن فالدور مستحيل ، ومنه قول الشاعر :

مسألة الدور جرت … بيني وبين من أحب
لولا مشيبي ما جفا … لولا جفاه لم أشب

وأما التسلسل فبطلانه أشد، لأنه يقتضي ألا يكون هناك خالق لتوقف وجود الخالق على الذي قبله، والذي قبله على الذي قبله إلى ما لا نهاية، فيلزم من هذا التسلسل اللانهائي أن لا خالق لهذا الكون، وهذا مستحيل للظواهر الكونية التي تدل على وجود الله كما مر عليك، فثبت بطلان التسلسل لثبوت وجود الله سبحانه .

ومما يوضح لك بطلان التسلسل هذا المثال :

تعلمت علم النحو من أستاذك ، وأستاذك تعلمه من أستاذه ، وهكذا إلى أن يصل التسلسل إلى واضع علم النحو ، وهو أبو الأسود الدؤلي ، فلو افترضنا أن السلسلة لتعليم النحو لم تنته إلى ما لا نهاية ، فالعقل يحكم أن علم النحو لم يضعه واضع ، وإذا كان لم يضعه واضع ، فمعنى ذلك أن هذا العلم غير موجود ، ولما كان موجودًا ، إذًا لابد من واضع قد وضعه .

وهنا جواب آخر - يتعلق بمبحث الإرادة والقدرة - وهو أن شياطين الإنس والجن يقفون من المؤمن موقف التضليل والتشكيك ، لما يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا ، ولما يثيرونه من شبهات وأضاليل،فمن هذه الشبهات التي يثيرونها :هل يستطيع الله سبحانه أن يخلق إلهًا مثله؟! .

تصورًا منهم بأن المسؤول عن هذا إذا أجاب : بنعم ، احتجوا بذلك أنه ليس لهم أن يكفِّروا من أشرك مع الله غيره ، وإن أجاب : بلا ، فقد أسندوا إلى الله العجز ، وذلك دليل على أنه ليس بإله ، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا .

وقبل أن نرد على مزاعم هؤلاء المشككين نوضح الحقائق التالية :

من الأمور المُسَلَّم بها - عقلاً وشرعًا - أن الله سبحانه متصف بصفتي الإرادة والقدرة ، وأن هاتين الصفتين تتعلقان بالممكنات فقط، أما الواجب والمستحيل فلا شأن لهاتين الصفتين بهما .

- **ونقصد أنهما** : متعلقتان بالممكنات ، أي أن الإرادة والقدرة متعلقتان بكل ما هو ممكن عقلاً وثابت شرعًا ، كخلق الكون والحياة والإنسان ، وكل ما يتصل بالكائنات حيها وجامدها ، علويها وسفليها ، إنسها وجنها . .
- **ونقصد أنهما** : غير متعلقتين بالواجب والمستحيل ، أي أن الإرادة والقدرة غير متعلقتين بكل ما هو واجب على الله عقلاً وشرعًا ، كوجوده ، وقدمه ، وبقائه ، ووحدانيته سبحانه ، وغير متعلقتين أيضًا بكل ما هو مستحيل على الله عقلاً وشرعًا كوجود إله آخر معه ، ومشابهته تعالى للحوادث .

ولنضرب على ذلك مثلاً : الله سبحانه متصف بالوحدانية ، ووحدانيته واجبة له عقلاً وشرعًا ، فحينما يأتي إنسان ويقول : هل يقدر ربك أن يخلق إلهًا مثله ؟ ، فنقول له : هذا تناقض ، كيف تكون الوحدانية واجبة عليه ، وقد ثبتت بالأدلة العقلية له والشرعية ، ثم يطرح سؤاله المتهافت المتناقض ؟ . إذًا ما معنى أنه قد أوجد إلهًا مثله واجب الوجود ، والإله الواجب الوجود يستحيل أن يكون مسبوقًا بعدم ، ويستحيل أن يكون عاجزًا ، ويستحيل أن يخلقه غيره ، ويستحيل أن يطرأ عليه الحدوث ؟ .

فالذي نخلص إليه بعدما تقدم : أن القدرة والإرادة تعلقهما بالممكنات فقط، أما ما كان واجبًا له سبحانه ، وما كان مستحيلاً في حقه تعالى ، فلا شأن لهاتين الصفتين بهما .

وهذا التساؤل يعود في حقيقته - كما يقول الدكتور البوطي - إلى حمق من نوع عجيب ، فمن المعلوم أن الذي يقول : هل يستطيع الله سبحانه أن يخلق إلهًا مثله ؟ ، ينبغي أن يتصور معنى سؤاله ، ولكي يتصور معناه ينبغي أن يكون له معنى ، بأن يتعلق تساؤله في الخلق والإيجاد بقسم الممكنات فقط .

فأما إذا لم يكن للسؤال معنى ، فلا يمكن أن يكون له صورة في ذهن السائل ، وإذا كان كذلك ، فإن السؤال لا يسمى حينئذ سؤالاً إلا من حيث الصورة والأسلوب ، وأما من حيث الموضوع والمضمون فهو هذيان ، والهذيان لا جواب عليه ، لا عجزًا عن الإجابة ، ولكن لأن الإجابة لا تكون إلا على سؤال ، والسؤال لم يولد في الحقيقة بعد .

إن الذي يقول لك : هل تتكرم بأن تكون في هذه اللحظة غائبًا عني ، مشاهدًا أمامي ؟! ، فهو في الحقيقة لا يقدم لك أي سؤال أو رجاء يطلب الإجابة عنه ، لأنه هو نفسه لا يعلم ما يريد بالضبط ، وليس في ذهنه أي صورة لهذا الذي يريد ، إن الذي يستوقفك ليقول لك : هل يستطيع الله أن يخلق إلهًا مثله أو شخصًا آخر من هذا القبيل ، ليس بأقل هذيانًا ممن يقول : هل تتكرم بأن تكون في هذه اللحظة غائبًا عني مشاهدًا أمامي ؟ ، إنه لهذيان والسخف عين السخف .

أجل ، إن مثل هذا السؤال قد يكون له معنى متخيل وهمي عندما يصدر السؤال من طفل صغير عندما يكون في مرحلة السن السؤول ، وعندئذ فلابد من الحكمة والتطلف والإقناع المناسب ، لابد لك من أن تضع أمامه صورة الإجابة ، وإن لم تكن في الحقيقة جوابًا ، كما وضع أمامك صورة السؤال ، وإن لم يكن في الحقيقة سؤالاً ، كأن تقول له : الله قادر يا بني على أن يخلق كل شيء ، ولكن شريك الله تعالى ليس شيئًا لأنه محال ، والمحال لا يسمى شيئًا .

ومن المعلوم أن الذين يثيرون مثل هذه التساؤلات هم من أصحاب المذاهب المادية الملحدة والعقائد الضالة الزائفة ، هدفهم من هذه الاستثارات وإلقاء الشبه زعزعة الإيمان بالله في قلوب الزمرة المؤمنة من الشباب .

فعلى الجيل المؤمن أن يحذر أولئك المهووسين الملحدين ، الذين يجهدون ليلاً ونهارًا لزرع التشكيك والتضليل في المجتمعات الإسلامية ولكن القلب الموصول بالله ، والنفس الموقنة المطمئنة بإبداعه وعظمته سبحانه ، لا يمكن أن تتأثر بتضليل الملحدين ، ولا بتشكيك الضالين ، وسوف يبقى الإيمان قويًا في نفوس المؤمنين إلى قيام الساعة . فمن اعتراه شيء من هذا أو تحسس بشبهة في نفسه أثارها ملحد ، فليتذكر أنه مخلوق لله ، وأن الله سبحانه وتعالى منزه عن صفات المخلوقين ، ليستعذ بالله ، وليقل : آمنت بالله ، فتذهب عنه هذه الخواطر والأفكار، فإذا هو مبصر، قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) ﴾ [الأعراف : ٢٠١ ، ٢٠٢] .أ . هـ . من « شبهات وردود للشيخ عبد الله علوان » .

فصل
حدوث العالم

غير الإله وصفات الباري	وغير ما الأسماء بلا إنكار
مخلوقة لربنا من العدم	نكفِّر الذي يقول بالقدم
يخلق ما يشاء باختيار	إلهنا من غير ما اضطرار
لكن ربنا تعالى وعلا	لم يخلقن سدى ومهلاً وبلا
أمرٍ وحكمة وفي النص أتى	دليل ما قلنا لذاك يا فتى

[ش] نقول : غير الإله وصفاته الذاتية والخبرية وأسمائه مخلوق لربنا مسبوق بالعدم ، إذ لا يشك عاقل أن كل مُحدَثٍ لابد له من مُحْدِث ، وكل صنعة لابد لها من صانع ، وهل يصدق عقل أن هناك أثراً بلا مؤثر ، أو نظاماً بلا منظم ، أو حكمة بلا حكيم ، إن هذا لدى العقل السليم يساوي قولنا :الكل أصغر من الجزء والواحد ربع الإثنين . ولم ينكر وجود الخالق إلا شرذمة لا يقام لها وزن من الطبيعيين ، والشيوعيون كالطبيعيين في اعتقادهم .

ولم يقل بقدم العالم إلا بعض الفلاسفة كأرسطو ، وأما أساطين الفلاسفة المتقدمون فقد كانوا مقرين بحدوث صورة الفلك ، وقدم شيء من العالم بمعنى ـ أنه لم تبرزه القدرة من العدم إلى الوجود ، بل كان موجوداً فيما لم يزل ـ كفر [١] ، بداهة العقل تحكم أنه لا يصلح أن يكون شيئًا سوى الله غير مخلوق .

وإذا ثبت كونه مخلوقًا كان حادثًا بلا شك ، وما الحدوث إلا الوجود بعد العدم ، والقرآن طافح بذكر تفرده بالخلق ، وأنه الخالق لما سواه كقوله تعالى : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ۝٢ ﴾ [الفاتحة : ٢] ، وقوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ . [الزمر : ٦٢] .

---

(١) قدم شيء : مبتدأ ، وكفر : خبر .

وفي آية أخرى قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)** ﴾ .

[البقرة : ٢١ ، ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ [العنكبوت : ٦١] .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠)** ﴾ [آل عمران : ١٩٠] .

وقال تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)** ﴾ الصافات : ٩٦] ، إلى غير ذلك مما لا يُعد ولا يُحصى .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النَّبي ﷺ أنه قال : « **إن الله قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء ، أي مقادير الخلائق التي خلقها في ستة أيام إلى أن يدخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم** » .

كما جاء في السُنن عن النَّبي ﷺ أنه قال : « **أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب ، قال : وما أكتب ؟ ، قال : ما هو كائن إلى يوم القيامة** » .

فقد بيَّن أن القلم كتب كل شيء كائن ، وهذا كما تراه واضحًا ومصرحًا بحدوث كل صغير وكبير ، وجليل وحقير ، لجريان القلم بذلك ، وأن القلم أول مخلوق في هذا العالم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

أول من عرف عنه القول بقدم العالم أرسطو ، وكان ضالاً مشركًا وله في الإلهيات كلام كله خطأ ، قد تعقبه في الرد عليه طوائف المسلمين من الجهمية والمعتزلة والقدرية والرافضة ، وفلاسفة الإسلام أنكروه عليه .

وفي صحيح البخاري من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال : « **كان الله ولم يكن شيء قبله** » ، وفي لفظ غيره : « **كان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض** » ، وفي لفظ : « **ثم خلق السموات والأرض** » ا . هـ .

وقوله في النظم :

يخلق ما يشاء باختيار إلهنا من غير ما اضطرار

فقد أشار فيه إلى أنه يخلق مخلوقاته باختيار ، لا لحاجة بمعنى المصلحة والمنفعة .

والاضطرار بمعنى الإلجاء والإلزام والإكراه ، فلا حاجة باعثة له على خلقه للخلق ، ولا مكره له عليه ، بل خلق المخلوقات وأمر بالمأمورات لحكمة محمودة ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

لكن ربنا تعالى وعلا لم يخلقن سدى ومهلا وبلا

أي : لا يخلق الخلق بلا أمر ولا نهي ، هذا معنى قوله سدى ، كما لا يخلق بلا حكمة .

قال تعالى : ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)** ﴾ .

[المؤمنون : ١١٥] .

وقال تعالى : ﴿ **أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦)** ﴾ [القيامة : ٣٦] .

ومن الواضح عند المنصفين من ذوي الطبع السليم ، أن الله لا يفعل ولا يأمر ولا ينهى إلا لحكمة ، كيف لا وهو الحكيم الخبير ؟ ، فما خلق شيئًا ولا قضاه ولا شرعه إلا لحكمة بالغة ، وإن تقاصرت عنها عقول البشر .

وما قلناه فهو قول أكثر الناس من المسلمين وغيرهم ، وقول طوائف من أصحاب أبي حنيفة والشافعي ومالك ، وطوائف من المعتزلة والكرامية والمرجئة وأكثر أهل الحديث والتصوف وأهل التفسير .

وقال طائفة من أتباع المذاهب ونفاة القياس والأشعرية :

إن الخلق واقع لمحض المشيئة ، وصرف الإرادة لا لعلة ولا لحكمة .

وقد احتج الفريق الأول المثبت للحكمة والعلة بعدة آيات :

- قال تعالى : ﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ [المائدة : ٣٢] .
- وقال تعالى : ﴿ **كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ** ﴾ [الحشر : ٧] .
- وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)** ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .
- وبقوله تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١)** ﴾ .

[الجاثية : ٢١] .

فدل على أن هذا قبيح ينزه الله عنه .

أما النافون فقد قالوا : العلة إن كانت قديمة وجب قدم المعلول وهو محال ، وإن كانت حادثة فتفتقر إلى علة أخرى ، ويلزم التسلسل .

والجواب :

لا يلزم من قدم العلة قدم معلولها ، كالإرادة فإنها قديمة ومتعلقها حادث .

تقسيم صفات المعاني إلى قسمين

فـــأول فـــذو تـعـلـق ظـهـــر	والثـاني لاهو الحـيـاة المعـتـبـر
وقـــدرة إرادة تـعـلـقًـــا	بـكـل ممـكـن بـدا لا مـطـلـقًـــا
والـعـلـم والـكـلام بـالإطـلاق	تعلقًـا من غـيـر مـا شـقـاق
بـكل مـوجـود فـسـمـع وبصـر	تعلقًـا من غـيـر شك قـد ظهـر

[ش] هذه الصفات السبع المار ذكرها وتعريفها تنقسم إلى قسمين :

الأول : إلى ما يتعلق بشيء ، وإلى ما لا يتعلق بشيء .

والقسم الآخر : الذي لا يتعلق بشيء هو الحياة .

والقسم الأول المعني بقوله : فذو تعلق ظهر ، إليك بيانه :

فالقدرة [١] والإرادة تتعلقان بكل شيء جائز الوقوع،لا بالواجب ولا بالمستحيل.

والعلم والكلام يتعلقان بكل واحد من الواجب والجائز والمستحيل ، والسمع والبصر يتعلقان بكل موجود، واجبًا كان ، أو جائزًا عينًا كان أو معنى كليًا أو جزئيًا .

جـمـيـع مـشـتـقـاتـهـا فلتـثـبـتـا	إلا الذي عن ربنـا لـم يثـبـتـا
حي سـمـيـع قـادر بـصـيـر	وعـالـم سـبـحـانه خـبـيـر
وسـم هـذه أخـــا الـعـــلا	بمعـنـويـة بـلا امـتـراء
أمـا مـريـد مـتـكـلـم فـمـا	في الشـرع قـد أتى فكن مـسلّمًـا

[ش] قد قامت الأدلة النقلية والعقلية على اتصاف الله بالحياة والعلم والقدرة والإرادة ، إلى آخر صفات المعاني ، واشتق أهل الكلام من كل صفة اسمًا ، فاشتقوا من الحياة : الحي، ومن القدرة : القدير، ومن العلم : العليم ، ومن الكلام : المتكلم ، ومن السمع : السميع ، ومن الإرادة : المريد ، وأثبتوها لله تعالى وسموها بالصفات

---

(١) اعلم أن القدرة والإرادة والعلم تسمى عندهم بصفات التأثير ، لأن لها تأثيرًا في إيجاد الممكنات وإعدامها ، فالقدرة تتعلق بها علي وجه الإيجاد أو الإعدام لها ، والإرادة على وجه التخصيص لأحدطرفيها ـ كما سبق في الشرح ـ ، والعلم يتعلق بها على وجه الإحاطة على ما هي عليه .

المعنوية [١] ، وهذا معنى قولنا : ثبوت مشتقاتها فلتثبتا . . . إلخ .

ولكن جاءت النصوص باسم العليم والقدير والسميع والبصير والحي ، ولم تأت باسم المتكلم والمريد ، فإن هذين الاسمين لم يردا في القرآن ولا في الأسماء الحسنى ، ومعناها حق ، ولكن الأسماء الحسنى هي التي يدعى بها ، وهي التي جاءت في الكتاب والسُنَّة ، وهي التي تقتضي المدح والثناء بنفسها .

وأما الكلام : فجنسه ينقسم إلى محمود ومذموم ، كالصدق والكذب ، وكذلك الإرادة : منها الممدوح والمذموم ، فلو سمينا الله بذلك ، لكان معناه الثناء على الله بما يصلح أن يكون ثناء وما لا يصلح ، ومن أجل ذلك نبهنا في النظم بقولنا : أما مريد متكلم فما إلخ .

والمختار عند السلف والخلف : أن أسماء الله وصفاته توقيفية كما مضى .



(١) وسميت بالمعنوية ، لأنها منسوبة إلى صفات المعاني ومشتقة منها ، فإن الاتصاف بها فرع الاتصاف بالسبع الأول ، لان اتصاف محل من المحال بكونه عالمًا أو قادرًا أو حيًّا مثلاً ، لا يصح إلا إذا قام به العلم أو القدرة أو الحياة ، وقس على هذا .

فصل

شبهة الجهمية في إنكار الصفات والجواب عن ذلك

قد أنكرت الجهمية الأسماء والصفات جميعها ، بدعوى أنها من صفات المحدثات وخصائص المخلوقات ، وقالت : إن ظاهرها يفيد التشبيه بالمخلوق ، أي أن ما يفهم من نصوصها يماثل ما يفهم من صفات المخلوق ، فظاهر معناها التمثيل وهو مستحيل ، فيجب التأويل .

وقلدت المعتزلة والأشعرية الجهمية فيما أنكرته وأولته ، ولكن لا في كل ما أنكرت الجهمية ، واحتجت بنفس هذه الحجة الواهية .

والجواب : إن الظاهر المفهوم لو كان المراد به خصائص صفات المخلوقين حتى يشبه المولى بخلقه ، لما خالف أحد في رده ونفيه ، إلا أن هذا ليس مراداً بالاتفاق للقطع بأنه تعالى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى : ١١] ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ولا في أفعاله .

وليس كما زعموا ، وإنما ظاهرها ما يليق بالخالق جل وعلا ، وليس في العقل ولا في السمع ما ينفي هذا ، والصفة تتبع موصوفها [١] .

فكما أن ذاته المقدسة ليست كذوات المخلوقين ، فكذلك صفاته ليست كصفات المخلوقين ، فالقول في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، وقل في سائر الصفات التي ستمر بك ما قلنا ها هنا ، سواء مع المنكرين لكل الصفات أو البعض .

---

(١) **تنبيه** : ذكر الإمام المحقق ابن القيم في البدائع : أن الصفة متى قامت بموصوفها لزمها أمور أربعة : أمران لفظيان ، وأمران معنويان .

فاللفظيان : ثبوتي وسلبي، فالثبوتي: أن يشتق للموصوف منها اسم، والسلبي: أن يمتنع الاشتقاق لغيره .

والمعنويان : ثبوتي وسلبي، فالثبوتي: أن يعود حكمها إلى الموصوف ، ويخبر بها عنه ، والسلبي: أن لا يعود حكمها إلى غيره ، ولا يكون خبراً عنه ، وهذه قاعدة عظيمة في معرفة الأسماء والصفات ، كالكلام والعلم ونحوهما .

شبهة المعتزلة في تعدد الصفات والجواب عن ذلك :

والمعتزلة قد أقرت بالصفات المعنوية ، وأنكرت صفات المعاني زاعمة - زيادة على ما زعمه جهم - أن ثبوت هذه الصفات مع كونها قديمة ، يلزم تعدد القدماء ، وهو كفر بإجماع الأمة ، وقد كفرت النصاري بالقول بالتثليث ، فكيف بأكثر ؟ .

والجواب :

أولاً : لا يجوز لمسلم أن ينكر ثبوت ما صح ثبوته نقلاً وعقلاً ، ويأتي بمثل هذه التشكيكات التي تشم منها رائحة الإلحاد .

ونقول ثانياً : الممتنع تعدد القدماء ، إذا كانت ذواتًا مستقلة ، لا تعدد صفات لذات واحدة .

وما أحسن ما قال شيخنا الشيخ عبد الله الحنفي - رحمه الله تعالى - في منظومته في علم الكلام ، قال - رحمه الله تعالى - :

والشبهة التي علينا تورد ... من أنه قد يلزم التعدد
مدفوعة بقولنا يمتنع ... تعدد الذوات يا من يسمع

ومن الوضوح بمكان أنه لا يعقل موجود بدون صفات ، لكن قد يفرض الذهن ، لأنه يفرض أشياء مستحيلة الوقوع ، وينبغي أن يعلم أن هناك فرقًا بين التقدير الذهني والوجود الخارجي .

وليس كل ما يفرضه الذهن يكون له وجود في الخارج ، فهل يعقل إله موجود لا علم له ولا إرادة ، ولا سمع ولا بصر ، ولا قدرة ولا كلام ، ولا محبة ولا غضب ، ولا رضى ولا رحمة ، ولا كره ولا بغض ، ولا داخل العالم ولا خارجه ، ولا فوق ولا تحت ، ولا يمين ولا يسار ، فهل هذا إلا معدوم ولا وجود له في الحقيقة ؟ .

لا يقول بهذا من يتصف بالحجى ، ويعرف ما يقول .

الصفات الخبرية

وزيد الاستواء للرحمن … والعين والنزول واليدان
والوجه والرحمة مع رضاء … إتيانه للفصل والقضاء
ونحوها من كل ما قد وردا … عن ربنا أو النَّبي أحمدا
نثبته من غير ما تأويل … وغير تمثيل ولا تعطيل

[ش] بعد أن أتم الكلام على صفات المعاني والمعنوية ، شرع مبينًا ما ورد من الصفات الخبرية - على حد تعبيرهم - وهي معدودة من قسم الصفات الثبوتية .

وهي صفات كثيرة منها :

صفة الاستواء ، وسيأتي الكلام عنها ، ومنها العين لله تعالى .

نثبت هذه الصفة له من غير تمثيل ولا تكييف ، قال تعالى : ﴿ **وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي** ﴾ [طه : ٣٩] ، وقال تعالى : ﴿ **تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا** ﴾ [القمر : ١٤] .

والعقل حاكم بكونها صفة كمال ، ونفيها نقص ، وكل كمال في المخلوق ، فالله أولى به

والدليل على أن نفي العين نقص ما يلي :

[١] حديث ابن عمر ﭭ ، كما في مسلم ، أن الرسول ﷺ ذكر الدجال بين ظهراني الناس ، فقال : « **إن الله ليس بأعور ، إلا أن المسيح الدجال أعور العين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية** » هذا لفظ مسلم .

[٢] ولفظ صحيح البخاري من حديث ابن عمر ﭭ ، فقال : ذُكِرَ الدجال عند النَّبي ﷺ فقال : « **إن الله لا يخفى عليكم ، إن الله ليس بأعور** - وأشار بيده إلى عينه - **وأن المسيح الدجال أعور العين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية** » .

أخرجه البخاري في كتاب التوحيد من صحيحه ، في باب قوله : ﴿ **وَلِتُصْنَعَ**

عَلَىٰ عَيْنِي ﴾

قال البيهقي والقرطبي وغيرهما : في هذا نفي نقص العور، وإثبات العين له صفة،وعرفنا بقوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ أنها ليست بحدقة .

وقد قال الأشعري في كتابه « الإبانة » :

وإن له عينين بلا كيف ، وإن لله علمًا ونثبت لله السمع والبصر ، ولا ننفي ذلك ، كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج . أ . هـ .

وتأويل المعطلة لهذه الصفات بالرؤيا أو بالحفظ والرعاية ، نفي وتعطيل ، وأما إفرادها في بعض النصوص وجمعها في البعض الآخر كقوله تعالى : ﴿ **وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** ﴾[الطور : ٤٨] ، وقوله تعالى: ﴿ **وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي** ﴾[طه : ٣٩] ، فلا حجة لهم فيه على نفيها ، فإن لغة العرب تتسع لذلك ، فقد يعبر عن الاثنين بلفظ الجمع ، ويقوم فيها الواحد مقام الإثنين .

صفة النزول والأجوبة عن تأويل الخلف :

ومن تلك الصفات : صفة النزول : نثبت لله تعالى صفة النزول لما ورد فيما يلي من أحاديث :

[١] حديث : « **ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا** » .

[٢] ولحديث الإمام أحمد ومسلم ، عن أبي سعيد، وأبي هريرة ، عن النَّبي ﷺ : « **إن الله يمهل ، حتى إذا كان ثُلث الليل الأخير ، نزل إلى السماء الدنيا فينادي : هل من مُستغفر ؟ ، هل من تائب ؟ ، هل من سائل ؟ ، هل من داع ؟، حتى ينفجر الفجر** » .

قال في « لوامع الأنوار » ، نقلاً عن شيخ الإسلام [١] ، في « شرح الأصفهانية »

(١) من الجهل الفاضح والتجاهل والعصبية العمياء ، ما نسبه كثير ممن ادعى العلم ، أن شيخ الإسلام ابن تيمية كان يقرر حديث النزول في المسجد الأموي ، وأنه قال : « ينزل ربنا كنزولي هذا » ، ونزل من على منبر الجامع درجة ، يريدون بذلك أنه مشبه مجسم ، وأخذ يروي المتأخر عن السلف هذه الأكذوبة التي منشؤها ابن بطوطة في رحلته ، فيا سبحان الله ما أعظم جهل هؤلاء !! أما يقرأون مؤلفات شيخ الإسلام ، ليروا كيف يرد على هؤلاء المشبهة والمجسمة ، كما يرد على الجهمية =

عن الإمام عبد الله بن المبارك : إنه سأله سائل عن النزول ليلة النصف من شعبان ،فقال : يا ضعيف العقل ، ليلة النصف من شعبان وحدها ؟؟ ينزل في كل ليلة .

فقال الرجل : كيف ينزل ؟ ، أليس يخلو ذلك المكان ؟ .

فقال عبد الله بن المبارك : ينزل كيف شاء . أ . هـ .

وقد أجاب بعض العلماء لما سئل عن النزول قائلاً :

النزول معقول ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فقد قال هؤلاء العلماء في النزول ، كما قال مالك في الاستواء . وهكذا القول في سائر الصفات .

وأوَّل الخلف نزوله بنزول رحمته ، فقال : معنى ينزل ربنا : أي أمره أو تنزل رحمته .

والجواب :

هل تقول الرحمة : من يستغفرني فأغفر له ؟ !! ، ومعلوم أن الرحمة تنزل كل

= والمعتزلة وغيرهم ، بل ألَّف شيخ الإسلام شرحًا لحديث النزول ليس فيه أدنى رائحة من التشبيه والتجسيم، بل يقرر في شرحه - في عدة مواضع - تنزيه الله عن التمثيل ، والشرح مطبوع عدة مرات، متداول بين الناس ، فمن يشك فيما أقول فليقرأه ولو مرة واحدة ، بل ليقرأ صفحات منه ليعلم كذب أولئك القوم ومبلغ تعصبهم ، فما أدرى ما قيمة العالم إذا كان كاذبًا مفتريًا ؟! ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [النحل : ١٠٥] .

وأما تمسكهم بما قاله ابن بطوطة :

فالجواب : يحتمل أن الشيخ ابن تيمية - رحمه الله - قال : ينزل ربنا لا كنزولي هذا ، فلم يسمع ابن بطوطة كلمة « لا » ، أو سمعها وكتبها ، لكن حرفها النساخ ، هذا إذا سلمنا أن ابن بطوطة رأى شيخ الإسلام .

ولكن قال المحقق الشيخ بهجت البيطار في كتابه « حياة شيخ الإسلام » :

إن ابن بطوطة لم يسمع من ابن تيمية ، ولم يجتمع به ، إذ كان وصوله إلى دمشق يوم الخميس التاسع من رمضان ، عام ست وعشرين وسبعمائة هجرية ، وكان سجن شيخ الإسلام في قلعة دمشق أوائل شهر شعبان من ذلك العام إلى أن توفاه الله ليلة الإثنين لعشرين خلون من ذي القعدة عام ثمان وعشرين وسبعمائة هجرية ، فكيف رآه ابن بطوطة يعظ على منبر الجامع وسمعه ؟! ولم يكن يعظ الناس على منبر الجامع - كما زعم ابن بطوطة - وإنما كان يجلس على كرسي يعظ الناس ، على أن ابن بطوطة لم يكتب رحلته بقلمه وإنما أملاه على ابن جزي الكلبي ، فيجوز أن يكون ذلك من تحريف النساخ أو وسوسة بعض الخصوم . أ. هـ بتلخيص .

وقت ، وليس لها وقت محدود ، ويلزم على قولهم أن الرحمة والأمر هما اللذان يدعوان العباد إلى الإجابة والاستغفار بكلامهما دون الله ، وهذا محال عند السفهاء ، فكيف عند الفقهاء ؟ .

وما بال أمره ورحمته ينزلان من عنده بالليل ، ثم يمكثان إلى طلوع الفجر ، ثم يرتفعان ، لأن رفاعة يقول في حديثه : حتى ينفجر الفجر .

وقال شيخ الإسلام - رحمه الله - في شرح حديث النزول :

وإن تأول ذلك بنزول رحمته أو غير ذلك ، فيقال : الرحمة التي نثبتها إما أن تكون عينًا قائمةً بنفسها ، وإما أن تكون صفة قائمة على غيرها ، فإن كانت عينًا وقد نزلت إلى سماء الدنيا لم يمكن أن نقول : من يدعوني فأستجيب له ، وإن كانت صفة من الصفات فهي لا تقوم بنفسها ، بل لابد لها من محل ، ثم لا يمكن الصفة أن تقول هذا الكلام ، ولا محلها ، ثم إذا نزلت الرحمة إلى سماء الدنيا ، ولم تنزل إلينا ، فأي منفعة لنا في ذلك ؟ .

وإن أريد صفات وأعراض مثل ما يحصل في قلوب العابدين في وقت السحر من الرقة والتضرع وحلاوة العبادة ونحو ذلك ، فهذا حاصل في الأرض ليس منتهاه سماء الدنيا . أ . هـ .

واحتج بعض الخلف برواية النسائي : « **إن الله عز وجل يمهل حتى يمضي شطر الليل الأول ، ثم يأمر مناديًا ينادي فيقول : هل من داعٍ يُستجاب له ؟ ، هل من مستغفرٍ يغفر له ؟ ، هل من سائلٍ يُعطى ؟** » .

والجواب :

أنه لا منافاة بين الحديث وبين سائر الأحاديث التي تسند النزول إلى الرب وتثبت له قول : « **من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له ؟** » لأننا نقول : قد يأمر مناديًا ينادي : هل من داعٍ يُستجاب له ؟ ، ثم يقول هو سبحانه وتعالى : « **من يسألني فأعطيه ؟ ، من يستغفرني فأغفر له ؟** » وليس فيه نفي النزول ، وعلى هذا تتفق الروايات كلها عن رسول الله ﷺ ولا نصدق بعضها

ونكذب ما هو أصح منه .

على أن الشيخ أبا بطين ذكر عن أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن منده أن حديث : « **ثم يأمر مناديًا** » موضوع ، ولكن حيث صححه بعضهم فقد ذكرنا وجه التوفيق بينه وبين سائر الروايات .

والحاصل أن حديث النزول حديث صحيح ، فقد رواه نحو من ثمانية وعشرين صحابيًا عن النَّبي ﷺ ، واشتملت عليه كتب الإسلام ، كالبخاري ومسلم ، ومسند الإمام أحمد ، وموطأ مالك ، ورواه علماء الحجاز وعلماء العراق ، وأطبق على اعتقاد نزوله بلا كيف جميع علماء الأمصار ، كالإمام أبي حنيفة ، والشافعي ، ومالك ، والسفيانين ، والثوري ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وسائر المحدثين والفقهاء ، ولم يخالف في ذلك إلا أهل التعطيل والتأويل ، هدانا الله وإياهم سواء السبيل .

تنبيه :

تأويلهم بنزول أمره أو رحمته يبطل مذهبهم ، لأن نزول الأمر أو نزول الرحمة يقتضي أن يكون هو فوق العالم ، وهم لا يقولون بذلك .

ولهذا قال بعض النفاة لبعض المثبتين : ينزل أمره ورحمته ، فقال له المثبت : فممن ينزل ؟ ، ما عندك فوق شيء ، فلا ينزل منه لا أمره ولا رحمته ولا غير ذلك ، فبهت النافي وكان كبيرًا فيهم .

صفة اليدين :

ومن تلك الصفات : اليدان ، فقد أجمع السلف الصالح على إثبات هذه الصفة ، وجاء بها الكتاب المجيد في عدة آيات ، كقوله تعالى : ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ** ﴾ [المائدة : ٦٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾ [ص : ٧٥] .

وفي الحديث الصحيح : « **إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها** » .

كما وصف نفسه باليمين في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** (٦٧) ﴾ [الزمر : ٦٧] .

وفي الحديث الصحيح : « **المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين** » .

وأوَّلت الجهمية والمعتزلة والأشعرية ، أن اليد بمعنى القدرة أو النعمة مجازا (١) ، لأن العرب تقول : له عندي يد يجزيه الله بها ، أي : له عليَّ فضل ونعمة .

الأجوبة عن تأويل الخلف لليدين :

والجواب من وجوه :

أولها : إن الأصل الحقيقة ، فدعوى المجاز مخالفة للأصل .

ثانيها : إن ذلك خلاف الظاهر ، فقد اتفق الأصل والظاهر على بطلان هذه الدعوى .

ثالثها : ما هو الدليل الصارف عن الحقيقة ، إذ مدعيها معه الأصل والظاهر ؟ .

رابعها : إنه قد ورد عن عبد الله بن عمرو : « إن الله لم يخلق بيده إلا ثلاثًا : خلق آدم بيده ، وغرس جنة عدن بيده ، وكتب التوراة بيده » .

---

(١) في فتح الباري شرح صحيح البخاري ، باب قول الله : ﴿ **لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾ .
قال ابن بطال في هذه الآية : إثبات يدين لله تعالى ، وهما صفتان من صفات ذاته ، وليستا بجارحتين خلافًا للمشبهة من المثبته وللجهمية من المعطلة ، ويكفي في الرد على من زعم أنهما بمعنى القدرة ، أنهم أجمعوا على أن له قدرة واحدة في قول المثبتة ، ولا قدرة له في قول النفاة ، لأنهم يقولون أنه قادر بذاته ، ثم ذكر تفضيل آدم على إبليس بكونه خلقه بيده بما ذكرناه .
ثم قال : ولا جائز أن يراد باليدين النعمتان لاستحالة خلق المخلوق بمخلوق ، لأن النعم مخلوقة ، ولا يلزم من كونهما صفتي ذات أن يكونا جارحتين .
ونقل عن ابن التين وابن فورك بما هو صريح في ذلك ، وذكر مزاعم أهل التأويل ، أن لليد عدة معان في اللغة ما بين حقيقة ومجاز ، منها : الجارحة ، والقوة ، والنعمة ، والذل ، إلى غير ذلك من المعاني . أ . هـ .
ولكن كل تلك المعاني معها من سياق اللفظ أو قرينة المقام ما يبين المرام ، ولا يقدح فيما أوردنا من مذهب السلف ، فلا حجة لمؤول ومعطل .

وفي محاجة آدم لموسى عليه السلام ، قال موسى : أنت الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته وعلمك كل شيء » .

فهل يصح في عقل أو نقل أن يقال : لم يخلق بنعمته أو بقدرته إلا ثلاثًا !! .

خامسها : إن الله قال لإبليس : ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾ .
[ص : ٧٥] .

فقد قال ذلك في معرض تفضيل آدم وتخصيصه ، فما فضل آدم على غيره إذا كانت اليد بمعنى القدرة ؟ .

سادسها : إنه لا يصح استعمال المجاز بلفظ التثنية ، فلا يستعمل إلا مفردًا أو مجموعًا ، كقولك : له عندي يد ، أو أياد .

وأما إذا جاء بلفظ التثنية ، فلا يعرف استعماله قط إلا في اليد الحقيقية ، وليس من المعهود أن يطلق الله على نفسه معنى القدرة والنعمة بلفظ التثنية ، بل بلفظ الإفراد الشامل لجميع الحقيقة كقوله تعالى :﴿ **أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ [البقرة:١٦٥] ، وقد يجمع النعم ومفردها نعمة كقوله تعالى : ﴿ **وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾ [لقمان : ٢٠] .

سابعها : إن يد النعمة والقدرة لا يتجاوز بها لفظ اليد ، فلا يتصرف فيها بما يتصرف في اليد الحقيقية ، فلا يقال : فيها كف ، ولا إصبع ، ولا إصبعان ، ولا يمين، وقد وردت الأحاديث باتصافه بالكف والإصبع واليمين ، كما في الحديث الذي رواه مسلم: « **ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أن يقيمه ، وإن شاء أن يزيغه** » .

وحديث : « **ما تصدق أحد بصدقة من طيب** ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ **إلا أخذها الرحمن بيمينه ، وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من جبل** » .

ثامنها : إن اقتران لفظ الطي والقبض والإمساك باليد يصير المجموع حقيقة ، بخلاف اليد المجازية ، فإنها إذا أريدت لم يقترن بها ما يدل على اليد حقيقة ، بل ما يدل على المجاز كقوله : له عندي يد ، وأنا تحت يدهم .

وأما إذا قيل : قبض بيده وأمسك بيده، أو قبض بإحدى يديه كذا ، وبالأخرى كذا ، أو جلس عن يمينه، أو كتب كذا وعمله بيمينه، أو بيديه، فهذا لا يكون إلا حقيقة .

قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

وإنما أتى هؤلاء من جهة أنهم رأوا اليد تطلق على النعمة والقدرة في بعض المواضع ، فظنوا أن كل تركيب وسياق صالح لذلك ، فوهموا وأوهموا ، فهب أن هذا يصلح في قوله : لولا يد لك لم أجزك بها .

أفيصلح في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٨] .

وفي قول عبد الله بن عمرو المار ذكره :

إن الله لم يباشر أو لم يخلق بيده إلا ثلاثاً . . . إلخ [١] .

ومما ينبغي التنبيه عليه أن لفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع : مفردًا ، ومثنى ، ومجموعًا .

- **فالمفرد :** كقوله تعالى : ﴿ **بِيَدِهِ الْمُلْكُ** ﴾ [الملك : ١] .
- **والمثنى :** كقوله تعالى : ﴿ **خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾ [ص : ٧٥] .
- **والمجموع :** كقوله تعالى : ﴿ **عَمِلَتْ أَيْدِينَا** ﴾ [يس : ٧١] .

فحيث ذكر اليد مثناة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد ، وعدي الفعل بالباء إليهما ، وحيث ذكرها مجموعة أضاف العمل إليها ، ولم يعد الفعل بالباء ، فهذه ثلاثة فروق [٢] ، فلا يحتمل ﴿ **خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾ من المجاز ما يحتمل ﴿ **عَمِلَتْ أَيْدِينَا** ﴾.

فإن كل أحد يفهم من قوله : ﴿ **عَمِلَتْ أَيْدِينَا** ﴾ ما يفهمه من قوله : عملنا وخلقنا ، كما يفهمه من قوله : ﴿ **فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ** ﴾ [الشورى : ٣٠] .

---

(١) من الصواعق المرسلة ، ابن القيم ، بتصرف .

(٢) **الأولى** : إضافة الفعل إلى نفسه ، يعني تاء المتكلم الواقع فاعلاً في قوله : ﴿ خَلَقْتُ ﴾ .

الثانية : تعدية الفعل إلى اليد مفردة أو مثناة ، فالمفرد في مثل حديث « وكتب لك التوراة بيده » ، والمثنى في مثل ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ .

الثالثة : تكون الإضافة بضمير الإفراد، وهي ياء المتكلم في ﴿ بِيَدَيَّ ﴾ ، وهاء المضاف إليه في قوله : « كتب لك التوراة بيده » ، وفي لفظ : « وقد خط لك الألواح بيده » .

وأما قوله : ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ فلو كان المراد مجرد الفعل ، لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى ، فكيف وقد خلت عليها الباء ؟ ، وسر الفرق أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد ، والمراد الإضافة إليه كقوله : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [الحج : ١٠] ، وأما إذا أضيفت إليه الفعل ، ثم عدي بالباء إلى يده مفردة أو مثناة ، فهو مما باشرته يده . أ . هـ [١] .

وقد بسط العلامة ابن القيم - في الصواعق المرسلة - بما لا مزيد بعده في هذه الصفة وفي غيرها ، ودحض جميع شبه المعطلة ، وزلزل أقدامهم ، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة .

صفة الوجه :

ومن تلك الصفات صفة الوجه ، لقوله تعالى : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحمن : ٢٧] ، وقوله تعالى : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] ، أثبتها السلف الأبرار من غير تكييف وهو مذهب الأئمة الأربعة ، وبه قال الحنفية والحنابلة ، وكثير من الشافعية وغيرهم ، لأن مذهب أولئك الأبرار إجراء الصفات على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها ، محتجين بأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود ، لا إثبات تكييف ، فكذلك إثبات الصفات .

وقالت المؤولة : إن الوجه عبارة عن الذات .

وقال بعضهم : إن الوجه صلة ، ومعنى القولين واحد .

وقال بعضهم : الوجه بمعنى الثواب ، وذلك بطريق المجاز .

الأجوبة عن تأويل الخلف للوجه [٢] :

والجواب من وجوه :

أولها : إن المجاز لا يمتنع نفيه ، فعلى هذا لا يمتنع أن يقال : ليس لله وجه ، ولا

---

(١) من الصواعق المرسلة (جـ ١) .

(٢) فإن قيل : إن قوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥] ، قد فسره العلماء بمعنى : فثم قبلة الله ، ولم يفسروه بأنه صفة لله كما تدعون أيها السلفيون ؟ .

حقيقة لوجهه،وهذا تكذيب صريح بما أخبر الله به عن نفسه، وأخبر عنه رسوله ﷺ .

فالجواب من وجوه :

الأول : إن تفسير وجه الله بقبلة الله ، وإن قاله بعض السلف كمجاهد وتبعه الشافعي ، فإنما قالوه في موضع واحد لا غير،وهو قوله تعالى : ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ [البقرة : ١١٥] ، فهب أن هذا كذلك في هذا الموضع ، فهل يصح أن يقال ذلك في غيره في المواضع التي ذكر الله تعالى فيها الوجه؟ ، فما يفيدكم هذا في قوله تعالى : ﴿ **فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾ ؟ ، إنه كقوله في سائر الآيات التي ذكر فيها الوجه ، فإنه قد اطرد مجيئه في القرآن والسُّنَّة مضافًا إلى الرب تعالى على طريقة واحدة ، ومعنى واحد ، فليس فيه معنيان مختلفان في جميع المواضع غير الموضع الذي في سورة البقرة ، وهو قوله تعالى : ﴿ **فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾ ، وهذا لا يتعين حمله على القبلة والجهة ، ولا يمتنع أن يراد به وجه الرب حقيقة ، فحمله على نظائره أولى ، يوضحه :

الوجه الثاني : إنه لا يعرف إطلاق وجه على القبلة لغة ولا شرعًا ولا عرفًا ، بل القبلة لها اسم يخصها ، والوجه له اسم يخصه ، فلا يدخل أحدهما على الآخر ، ولا يستعار اسمه له ، نعم القبلة تسمى وجهة كما قال تعالى : ﴿ **وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا** ﴾ [البقرة : ١٤٨] ، وقد تسمى جهة وأصلها وجهة ، لكن أعلت بحذف فإنها كزنة وعدة ، وإنما سميت قبلة ووجهة ، لأن الرجل يقابلها ويواجهها بوجهه ، وأما تسميتها وجهًا فلا عهد به ، فكيف إذا أضيف إلى الله ، مع أنه لا يعرف تسمية القبلة وجهة الله في شيء من الكلام ، مع أنها تسمى وجهة ، فكيف يطلق عليها وجه الله ولا يعرف تسميتها وجهًا ، فإن قيل : هذا عند اشتباه القبلة على المصلي ، وعند صلاته النافلة في السفر ؟ .

فالجواب :

أولاً : اللفظ لا يشعر بذلك ، بل هو عام مطلق في الحضر والسفر ، وحال العلم والاشتباه ، والقدرة والعجز ، فالآية لا تعرض فيها للقبلة ولا لحكم الاستقبال ، بل سياقها لمعنى آخر هو بيان عظمة الرب ، وأنه محيط بالعالم العلوي والسفلي ، فذكر في أول الآية بإحاطة ملكه بقوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ** ﴾ . [ص ١٨٩ - الصواعق المرسلة] .

ثانيا : ثم ذكر عظمته سبحانه ، وأنه أكبر وأعظم من كل شيء ، فأينما ولى العبد وجهه فثم وجه الله ، ثم ختم باسمين دالين على السعة والإحاطة ، فقال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ .

ثالثًا : إن تفسير القرآن بعضه ببعض أولى التفاسير ما وجد إليه السبيل ، ولهذا كان يعتمده الصحابة والتابعون والأئمة بعدهم ، والله تعالى ذكر في القرآن القبلة باسم القبلة والجهة ، وذكر وجهه الكريم باسم الوجه المضاف إليه ، فتفسيره في هذه الآية بنظائره هو المتعين .

رابعًا : إن الآية الكريمة لو احتملت كل واحد من الأمرين ، لكان الأولى بها إرادة وجهه الكريم ذي الجلال والإكرام ، لأن المصلي مقصوده التوجه إلى ربه ، فكان من المناسب أن يذكر أنه إلى أي الجهات صليت ، فأنت متوجه إلى ربك ، وليس من المناسب في اختلاف الجهات ما يمنع التوجه إلى ربك، فجاءت الآية وافية بالمقصود فقال تعالى : ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾ فأخبر أن الجميع ملكه وقد خلقه . أ . هـ . باختصار من « الصواعق المرسلة » .

ثانيها : إن ذلك يستلزم كون حياته وبصره وقدرته وسائر صفاته مجاز لا حقيقة لها.

ثالثها : إنه لما أضاف الوجه إلى الذات ، وأضاف النعت إلى الوجه ، فقال تعالى : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن : ٢٧] ، دل على أن ذكر الوجه ليس بصلة ، لأن قوله تعالى : ﴿ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ نعت للوجه ، وأن الوجه صفة للذات ، فتأمل رفع قوله تعالى ﴿ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ عند ذكر الوجه ، وجره في قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن : ٧٨] [١] ، عندما لم يذكر الوجه .

رابعها : إنه لا يعرف في لغة من لغات الأمم وجه الشيء بمعنى ذاته ونفسه .

وغاية ما شبه المعطل وجه الرب أن قال : هو كقوله : وجه الحائط ووجه الثوب ، ووجه النهار .

الجواب : عن تشبيه المعطل وجه الرب بما سبق هو قولنا : ليس الوجه في ذلك بمعنى الذات ، بل هذا يبطل قوله ، فإن وجه الحائط أحد جانبيه ، وهو مقابل لدبره ، ومثل هذا وجه الكعبة ودبرها ، فهو وجه حقيقة ، ولكن بحسب المضاف إليه .

فلما كان المضاف إليه بناء كان وجهه من جنسه ، وكذلك وجه الثوب أحد جانبيه وهو من جنسه ، ووجه النهار أوله ولا يقال لجميع النهار ، لأن الوجه في اللغة مستقبل كل شيء ، لأنه أول ما يواجه منه .

وأما تأويلهم بالثواب :

فجوابه :

[١] إن حمل الوجه على الثواب من أبطل الباطل ، فإن اللغة لا تحتمل ذلك ، ولا يعرف أن الجزاء يسمى وجهاً .

---

(١) إعراب الآية هكذا : تبارك فعل ماض مبني على الفتح ، واسم : فاعل لتبارك ، اسم : مضاف ، رب : مضاف إليه ، رب مضاف ، والكاف : ضمير مبني على الفتح في محل جر مضاف إليه ، ذي الجلال ، نعت للرب المجرور بالإضافة مجرور بالياء ، لأنه من الأسماء الخمسة .
فلو كان معنى يبقى وجه ربك أي ذات ربك ، لم يكن ذو الجلال مرفوعًا ، بل يكون مجرورًا لكونه نعتًا لربك .

[٢] إن الثواب مخلوق ، فقد صح عن النَّبي ﷺ أنه استعاذ بوجه الله فقال : « **أعوذ بوجهك الكريم أن تضلني ، لا إله إلا أنت الحي الذي لا يموت ، الجن والإنس يموتون** » ، ولا يظن برسول الله ﷺ أن يستعيذ بمخلوق .

[٣] إن النَّبي ﷺ كان يدعو في دعائه : « **أسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك** » ، ولم يكن يسأل لذة النظر إلى الثواب ، ولا يعرف تسمية ذلك وجهًا ولا شرعًا ولا عرفًا .

[٤] إن الوجه حيث ورد ، إنما ورد مضافًا إلى الذات في جميع موارده .

وأما المضاف إلى الرب نوعان :

الأول : أعيان قائمة بنفسها ، كبيت الله وناقة الله ، وروح الله ، وعبد الله ، فهذه الإضافات إضافة تشريف وتخصيص وهي إضافة مملوك إلى مالكه .

الثاني : صفات لا تقوم بنفسها كعلم الله ، وحياته ، وقدرته ، فهذه إذا وردت مضافة إليه ، فهي إضافة إلى الموصوف بها .

إذا عرف ذلك ، فوجهه الكريم وسمعه وبصره إذا أضيف إليه ، وجب أن تكون إضافته إضافة وصف لا إضافة خلق ، وهذه الإضافة تنفي أن يكون الوجه مخلوقًا، وأن يكون حشواً في الكلام ، وفي سُنن أبي داود عنه ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال : « **أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم** » .

فتأمل كيف قرن في الاستعاذة بين استعاذته بالذات ؛ وبين استعاذته بالوجه الكريم [١] ، وهذا صريح في إبطال من قال : إنه الذات بنفسها ، وقول من قال : إنه مخلوق ، وهناك وجوه أخرى تركناها خوف الإطالة ذكرها العلامة ابن القيم في « الصواعق المرسلة » .

صفة الرحمة :

ومن تلك الصفات الرحمة، لقوله تعالى : ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ وقوله

---

(١) فلو كان الوجه صلة بمعنى زائدة ، لما كان معنى لأن يقرن بين الرب والوجه ، واكتفى ﷺ بقوله : « **أعوذ بالله العظيم** » ، ولم يذكر وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم .

تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، وقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] .

وفي الحديث : « **إن رحمتي سبقت غضبي** » أثبتها السلف على ما تليق بالله .

وتقول المؤولة : إن الرحمة رقة في القلب ، يستحيل على الله اتصافه بها ، وغايتها التفضل والإحسان ، فنحن نفسر الرحمة بالإحسان إلى المخلوق والإنعام عليه .

الأجوبة عن تأويل أهل الكلام لصفة الرحمة :

[١] إنه لا يستحيل على الله ما وصف به نفسه ، وتأويلكم هذا من باب المجاز [١]، والمجاز يصح نفيه ، فهل يجوز أن ينفي عن الله الرحمة ؟ ، فمن جوز هذا فقد خالف صريح القرآن ، وصريح الأديان .

[٢] وأما أنها رقة في القلب أو خور في الطبيعة ، فهذا بالنسبة للمخلوق ، لا بالنسبة إلى الله ، لأن لله صفات تخصه ، وللمخلوق صفات تخصه ، ولا يجوز أن يقاس الخالق بالمخلوق ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

---

(١) العجيب من هؤلاء المعطلة أنهم يعتقدون صفة الرحمة للمخلوق حقيقة وفي الخالق مجازا ، فعلى حد قولهم ، فإنه أولاً : يلزم أن يكون المخلوق أكمل من الخالق ، وثانيًا : المجاز يصح نفيه ، وإذا يجوز أن يقال : لا يتصف الله بالرحمة ، والحال أن القرآن مملوء بوصفه تعالى بالرحمة ، وكذلك الأحاديث ، كقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٧] ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس : ١٠٧] إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصر ، وفي الحديث : « **الراحمون يرحمهم الرحمن** » .
وأما قوله : إن الرحمة ضعف وخور في الطبيعة .

فالجواب :

إن الضعف والخور مذموم من الآدميين ، والرحمة ممدوحة ، وقد قال الله : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾ [البلد : ١٧] ، وفي الحديث الصحيح : « **لا تنزع الرحمة إلا من شقي** » .
ولما كانت الرحمة تقارن في حق كثير من الناس بالضعف والخور ،كما في رحمة النساء ونحو ذلك ، ظن الغالط أنها كذلك مطلقًا حتى في حق الرب العظيم ، مع أننا لو قدرنا أنها في حق المخلوقين مستلزمة لذلك ، لم يجب أن تكون في حق الله مستلزمة بذلك .
كما أن العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام فينا يستلزم من النقص والحاجة ما يجب تنزيه الله عنه ، فكما أن ذاته المقدسة لا يماثلها ذات غيره ، فكذلك صفاته لا تماثلها صفات غيره ، وسيأتي كلام أبسط في الفصل المعقود لرد شبهاتهم .

ومنهم من تأول الرحمة بإرادة الإحسان :

فجوابه :

إن الرحمة لا تنفك عن إرادة الإحسان ، فهي مستلزمة للإحسان أو إرادته استلزام الخاص للعام ، فكما يستحيل وجود الخاص بدون العام ، فكذلك الرحمة بدون الإحسان أو إرادته يستحيل وجودها ، فإن كل إثبات الإرادة لا يستلزم تشبيهًا ولا تجسيمًا بزعمهم ، فكذلك إثبات الرحمة ، لأن الإرادة هي ميل النفس لجلب ما ينفعها ودفع ما يضرها .

فإن قالوا : إرادته على ما تليق به ، قلنا : ورحمته على ما تليق به .

وسيأتي زيادة بيان ببطلان جميع شبههم للصفات بأسرها - إن شاء الله تعالى - .

صفة الرضا :

ومن الصفات التي جاء بها القرآن والسُّنَّة ، وأثبتها السلف صفة الرضا لله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ **رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾[البيِّنة : ٨] .

وقال تعالى : ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** ﴾.

[الفتح : ١٨] .

صفة الغضب :

كما ورد اتصافه بالغضب في قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ** ﴾[النساء : ٩٣].

قال الخلف : إن الرضا إرادة الإحسان، والغضب غليان دم القلب لإرادة الانتقام ، وعليه يؤولون الرضا بإرادة الإحسان والغضب بإرادة الانتقام ، ولا يصفون الله بالرضا ولا بالغضب ، وهذا كما ترى نفي لهاتين الصفتين .

الجواب عن تأويل صفة الغضب والرضا :

ويقال لمن تأول الغضب والرضا لم تأولت ذلك ؟ ، فلابد أن يقول : إن الغضب غليان دم القلب ، والرضا الميل والشهوة ، وذلك لا يليق بالله .

فيقال له : غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب ، وكذلك الإرادة والمشيئة فينا هي ميل الحي إلى الشيء ، أو إلى ما يلائمه أو يناسبه ، فالمعنى الذي صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه ، فإن جاز هذا جاز ذاك .

وبالجملة : فصفات الله على ما تليق به ، وصفات المخلوق على ما تليق به .

صفة المجيء للفصل والقضاء :

ومن تلك الصفات إتيانه للفصل والقضاء بين العباد يوم القيامة ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ** [١] **إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ** (٢١٠) ﴾ [البقرة : ٢١٠] .

وقوله تعالى : ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ** ﴾ ، أي : لقبض أرواحهم ﴿ **أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ** ﴾ ، أي : يوم القيامة لفصل القضاء ، ﴿ **أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ** ﴾ [الأنعام : ١٥٨] وهو طلوع الشمس من مغربها .

قال العلامة محمد بن جرير حيث ذكر إتيان الملائكة :

وهو محتمل إتيانهم لقبض الأرواح ، ويحتمل أن يكون نزولهم لعذاب الكفار وإهلاكهم ، وأما إتيان الرب - وهو يوم القيامة - للفصل والقضاء .

وقال الله تعالى في آية أخرى : ﴿ **كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا** (٢١) **وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا** (٢٢) ﴾ [الفجر : ٢١ ، ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً** (٢٥) ﴾ . [الفرقان : ٢٥] .

تنزل الملائكة إلى الأرض فيحيطون بالخلائق في مقام الحشر ، ثم يجيء الرب لفصل القضاء بين عباده ، فقد أفادت الآيات إثبات المجيء والنزول والإتيان لله كما يليق بجلاله وعظمته ، وهذه من صفاته سبحانه الفعلية . أ . هـ .

وأوَّل الخلف مجيئه بمجيء أمره ونزوله بنزول أمره أو بعض ملائكته ، ونحو ذلك

---

(١) جمع ظلة ، والظلة ما أظلك وسترك ، والغمام : السحاب الأبيض الرقيق .

من التأويلات الفاسدة وقد أبطلها العلامة ابن القيم بوجوه عديدة ، منها : إن قولهم في هذه الآيات بمجاز الحذف والتقدير جاء أمر ربك ، أو ملائكة ربك ، مردود بأنه إضمار ما لا يدل عليه اللفظ بمطابقة ، ولا تضمن ، ولا التزام ، وادعاء حذف بلا دليل يرفع الوثوق من الخطاب ، وقد أبطل المجاز مطلقًا من حيث هو من خمسين وجهًا .

عدم حصر الصفات وإثبات صفة الأصابع والفرح :

ونحـــوها من كل مـــا قـــد وردا   عن ربنا أو النَّبي أحـــمـــدا
نثبـــتـــه من غـــيـــر مـــا تأويل   وغـــيـــر تمثل ولا تعطيل

[ش] : أي أننا لا نحصر صفات الباري جل جلاله في عدد معين ، بل نثبت كل صفة جاء بها القرآن ، أو صح بها الحديث إثباتًا بلا تمثيل ، وتنزيهًا بلا تعطيل ، فمذهب السلف حق بين باطلين ، بين باطل التمثيل وباطل التعطيل .

ومن تلك الصفات التي أثبتها السلف صفة الأصابع ، لما جاء في الحديث : « **إن قلوب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن** ... » .

وإثبات صفة الفرح للحديث الصحيح : « **لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل قَالَ** [1] **بأرض فلاة دوية مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فنزل عنها فنام وراحلته عند رأسه ، فاستيقظ وقد ذهبت ، فذهب في طلبها فلم يقدر عليها حتى أدركه الموت من العطش ، فقال : والله لأرجعن لأموتن حيث كان رحلي ، فرجع فنام فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه فقال : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ـ أخطأ من شدة الفرح** ... » .

وصفة الفرح حقيقية لله عز وجل على ما يليق به ، وهي من صفات الفعل التابعة لمشيئته وقدرته ، وفرحه لا يشبه فرح المخلوق ، فالله منزه عن مشابهة المخلوق .

وأما تفسير الفرح بلازمه وهو الرضا ، وتفسير الرضا بإرادة الثواب ، فكل ذلك نفي وتعطيل لفرحه ورضاه ، أوجبه سوء ظن هؤلاء المعطلة بربهم ، حيث توهموا أن هذه المعاني تكون فيه تعالى كما هي في المخلوق .

---

(١) نام القيلولة تحت شجرة .

ومن الصفات التي أثبتها السلف وصحت بها الأحاديث :

صفة الضحك ، كما في الحديث المتفق عليه : « **يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر ، كلاهما يدخل الجنة** » .

فيثبت أهل السُّنَّة والجماعة الضحك على المعنى الذي يليق به ، والذي لا يشبه ضحك المخلوقين عندما يستخفهم الفرح أو يستفزهم الطرب ، بل هو معنى يحدث في ذاته عند وجود مقتضيه ، وإنما يحدث بمشيئته وحكمته .

وأما تأويل ضحكه بالرضا أو القبول فهو نفي لما أثبته رسول الله ﷺ لربه عز وجل ، فلا يُلتفت إليه [1] .

وصفاته كثيرة ، وما ذكرناه قطرة من بحر ، وبالله التوفيق .

---

(١) أ . هـ من « الثمار الشهية » بتلخيص .

بيـــــان
أن هذه العقيدة عقيدة الصحابة والتابعين
والأئمة المعتبرين المحققين

وهذه عـقـيـدة الأعـلام أقـسـم بالكريم ذي الإنعـام
من الصـحابة الكرام البـررة وتابعيهم الثقات الخيرة
وتابع الأتبـاع مثل الشافعي ومالك وأحمد والنخعي
وزيد كالقاضي وكالسفيان ونجل قيم كذا الحراني
وهكذا المعروف بالجيلاني والأشعري الحبر ذو العرفان
كذا البخاري ومسلم التقي وابن المبارك التقي والنقي
وزدهم أهل حديث المصطفى العالمين العاملين الحنفا
وهذا كل فقيه وورع لهدي خير الرسل كان متبع

[ش] : أقول ما أثبته في هذه العقيدة من الاعتقاد بكل ما جاء في القرآن وصَح في السُّنَّة ، من صفات الله من غير تمثيل ولا تأويل ، ولا تشبيه ولا تعطيل، هو عقيدة السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، وتابعي التابعين ، وأتباعهم كالأئمة الأربعة ، ومثل الإمام سفيان الثوري ، وسفيان بن عيينة ، والإمام أبي الحسن الأشعري ، والإمام البخاري ، والإمام مسلم ، وسائر أهل الحديث ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، والعلامة الحافظ ابن القيم .

وبالجملة : فأهل القرون المفضلة ، ومن نهج نهجهم من أهل الحديث والفقه والتصوف الصحيح ، على هذا الاعتقاد الصحيح السليم .

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ :

لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ ، لا يتجاوز القرآن والحديث .

وقال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ :

الاستواء معلوم ، والكيف مجهول، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة [(١)] .

وقال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ :

آمنت بالله ، وبما جاء عن الله ، على مراد الله ، وآمنت برسول الله ، وبما جاء عن رسول الله . أ . هـ .

---

(١) **فائدة** : ظواهر نصوص الصفات معلومة لنا باعتبار ، ومجهولة لنا باعتبار آخر ، فباعتبار المعنى هي معلومة ، وباعتبار الكيفية التي هي عليها مجهولة ، وقد دل على ذلك السمع والعقل .

أما السمع : فمنه قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩) ﴾ [ص : ٢٩] ، وقوله جل ذكره : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . [النحل : ٤٤] .

والتدبر لا يكون إلا فيما يمكن الوصول إلى فهمه ، ليتذكر الإنسان بما فهمه منه ، وكون القرآن عربيًا ليعقله من يفهم العربية ، يدل على أن معناه معلوم ، وإلا لما كان فرق بين أن يكون باللغة العربية أو غيرها ، وبيان النبي ﷺ القرآن للناس شامل لبيان لفظه وبيان معناه .

وأما العقل : فلأن من المحال أن ينزل الله تعالى كتابًا أو يتكلم رسوله ﷺ بكلام ، ويقصد بهذا الكتاب وهذا الكلام أن يكون هداية للخلق ، ويبقى في أعظم الأمور وأشدها ضرورة مجهول المعنى بمنزلة الحروف الهجائية التي لا يفهم منها شيء ، لأن ذلك من السفه الذي تأباه حكمة الله تعالى ، وقد قال الله تعالى عن كتابه : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) ﴾ [هود : ١] ، هذه دلالة السمع والعقل على علمنا بمعاني نصوص الصفات ، وأما دلالتهما على جهلنا لها باعتبار الكيفية ، فمعنى الكيفية : أن يعتقد المثبت أن كيفية صفات الله تعالى كذا وكذا ، وهذا اعتقاد باطل بدليل السمع والعقل .

أما السمع : فمنه قوله تعالى : ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) ﴾ [الإسراء :٣٦] .

ومن المعلوم أنه لا علم لنا بكيفية صفات ربنا ، لأنه تعالى أخبرنا عنها ولم يخبرنا عن كيفيتها ، فيكون تكييفنا قفوًا لما ليس لنا به علم ، وقولاً بما لا يمكننا الإحاطة به .

وأما العقل : فلأن الشيء لا تعرف كيفية صفاته إلا بعد العلم بكيفية ذاته ، أو العلم بنظيره المساوي له ، أو بالخبر الصادق عنه ، وكل هذه الطرق منتفية في كيفية صفات الله عز وجل ، فوجب بطلان تكييفها .

وأيضًا فإننا نقول : أي كيفية تقدرها لصفات الله تعالى ؟ ، إن أي كيفية تقدرها في ذهنك ، فالله أعظم وأجل من ذلك ، وأي كيفية تقدرها لصفات الله تعالى ، فإنك ستكون كاذبًا فيها ، لأنه لا علم لك بذلك ، وحينئذ يجب الكف عن التكييف تقديرًا بالجنان ، أو تقريرًا باللسان ، أو تحريرًا بالبنان . أ.هـ من « القواعد المثلى » للشيخ محمد صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ .

وقد رجع الإمام الأشعري إلى عقيدة أهل السُنَّة والجماعة ، وألَّف كتابة الإبانة ، وأثبت الصفات الواردة ، ورد على الجهمية والمعتزلة ، وسننقل عنه إن شاء الله تعالى فيما يأتي من كتابه الإبانة ما يقطع عرق كل مشاغب .

وإن يقل معاند يلزمكا ... بقولك التشبيه فافهم ذالكا

فقل له معارضًا فقد ظهر ... من قولكم وجوده لا يعتبر

إن قال ما قد قيل في الوجود ... فقل له بقولك المحمود

فهكذا صفاته نقول ... كما تقول أنت يا جهول

إبطال أكبر شبهة توردها المؤولة على إثبات هذه الصفات :

[ش] : هذا شروع في إبطال أكبر شبهة توردها المؤولة :

وتقريرها : إن في إثبات هذه الصفات المذكورة لله من الاستواء والوجه واليدين ، وما إلى ذلك تشبيه الباري بالمخلوق ، وهو منفي بقوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى : ١١] ، وكما هو مستلزم للتجسيم ، والجسمية من شأن الحادث ، وتعالى الله عن الحدوث ، لهذا صرنا إلى التأويل دفعًا لتلك المفاسد اللازمة ، وتنزيهًا لله تعالى عن التشبيه والتجسيم .

الجواب من وجوه :

الأول : نقول للمعطل : هل تقر بوجود الله تعالى أم لا ؟ ، فإن قال : لا ، فهو كافر بالربوبية ، فيجب علينا حينئذ إقامة الأدلة على ربوبيته تعالى ، وقد سبق كثير منها ، وإن أقر بوجود الله فيقال له : هل وجوده كوَجودنا ؟ ، فمن اليقين أن يقول : لا كوجودنا ، بل له وجود يخصه ، فنقول له : فكذلك صفاته ليست كصفاتنا ، لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، فكما أن ذاته ليست كذوات غيره ، فكذلك صفاته ليست كصفات غيره .

وليعلم المعطل أن اشتراك شيئين في مطلق اسم ، لا يوجب اتحادهما في الحقيقة ، فإن قيل : إن العرش موجود ، والذباب موجود ، فهل يفهم عاقل : أن وجود العرش كوجود الذباب ؟ .

وكذلك إذا قيل : إن الله موجود ، والمخلوق موجود ، لا نفهم من هذا أن وجوده تعالى كوجود المخلوق .

وإذا قلنا : لله علم ، وللمخلوق علم ، لم يكن علمه تعالى كعلم المخلوق ، وهكذا القول في سائر الصفات .

وإن أقر بالوجود ، وزعم أن وجوده لا يستلزم التشبيه ، لأنه واجب عقلاً ونقلاً ، وأنكر بقية الصفات أو أوَّلها لاستلزامها ما ذكر ، بحجة أن العقل يحيلها لاستلزامها الحدوث .

فيجاب : ليس الأمر كما زعمت لأننا نقول : الموجود إما أن يكون جسمًا أو عرضًا ، والله موجود ، فيلزم أن يكون أحدهما فإن اعترفت بأحدهما ، فذلك المحذور بعينه ، وإن استطعت أن تقول : إنه تعالى ليس جسمًا ولا عرضًا ولا مماثلاً لغيره ، فقل : كذلك صفاته الثابتة في القرآن والسُنَّة ليست كصفات غيره ، ومجرد قولك : يلزم هذا ، ولا يلزم هذا ، لا يقبل إلا بدليل مُسلَّم به .

الثاني : إن لازم المذهب ليس بمذهب .

الثالث : إن العقل لا يستطيع أن يقبل أن هناك موجودًا مجردًا من جميع الصفات .

الرابع : قولكم : لو كان له علم ، وقدرة ، ووجه ، ويد ، لكان جسمًا مركبًا .

نقول : لو كان ليس له علم ، ولا قدرة ، ولا علو ، ولا وجه ... إلخ ، لكان معدومًا ، إذ لا يعهد إله مجرد عن هذه الصفات كلها ، بل ليس في البشر من يكون مجردًا من هذه الصفات .

وبالله قل لي : بماذا كان إلهًا وربًا ، إن لم يكن متصفًا بهذه الصفات ؟ ، ولعل القائلين بهذا كان قصدهم إنكار الربوبية فروجوه على حساب التنزيه .

الخامس : نقول ما هدم الإسلام وزعزعه وسلط عليه أعداءه حتى أضعفوه بعد أن كان قويًا ، إلا من باب التأويل الممقوت [١] .

---

(١) التأويل الممقوت في العقائد ، والقول بالبدعة الحسنة في الفروع، هما معولا هدم الشريعة ، الأول : يهدم الأصول ، والثاني : يهدم الفروع .

إذ كل مبطل وكائد للإسلام ما دام يرى باب التأويل مفتوحًا أمامه ، يمكنه الولوج فيه ليضربه الضربة القاتلة ، فهذه فرق الباطنية كالبابية ، والإسماعيلية ، والقرامطة والنصيرية ، ما ضلوا وكفروا وأصبحوا دعاة إلى الضلال والكفر والإلحاد ، إلا بالتأويلات الفاسدة ، فإنهم قد أوَّلوا التكاليف الشرعية ، كالوضوء : بمعنى موالاة الإمام ، والصلاة : هو الرسول ، والزكاة : بتزكية النفس ، كما أوَّلوا نصوص الجنة والنار : براحة الأبدان في الدنيا وعذابها .

ولا يخفى أن أصل دعوة هؤلاء مبنية على إبطال الشرائع ، وخصوصًا هذه الشريعة ، لأنهم لما رأوا قوة الإسلام وشوكته ، احتالوا بهذه التأويلات لكي تعود بإبطال الشرائع .

والمقصود : أن فتح باب التأويل يوجب هدم الشريعة ، إذ ما دمت تسوغ التأويل في باب أسماء الله وصفاته ، لا يمكنك أن تنكر على مبطل ، لأنك إن أنكرت على قرمطي في تأويله لنصوص التكاليف ونصوص المعاد، يجيبك : إني أوَّلتها كما أوَّلت أنت في الصفات ، ولا يعقل نفي تأويلي وقبول تأويلك ، وإذا أنكرت على المرجئة ، وبينت لهم نصوص الوعيد ؛ أجابوك : بتأويل النصوص ، وأن المقصود منها التخويف فقط ، وأنت قائل بالأقاويل التي أعظم من هذه ، وإن أنكرت على من سبَّ الصحابة ﷺ وكفرهم وأوردت لهم النصوص الدالة على فضلهم ، قالوا لك : إنها مؤولة .

فإذا قلت : تأويلكم غير مقبول ، قالوا لك : كيف يقبل منك التأويل الذي يرجع إلى الخالق ، ولا يقبل منا ما يرجع إلى المخلوق ؟ .

الحاصل : أنه لا يمكن للمؤول أن ينكر على مبطل أو يناظره إلا ويناضله بسلاح ذلك المناضل حتى ينتصر عليه ، وهل فتح هذا الباب إلا هدم أساس الدين ؟ .

السادس : إن القرآن قد أنزله الله لهداية البشر وإخراجهم من ظلمات الوثنية والإلحاد والشرك ؛ إلى نور الإيمان والتوحيد والإسلام ، والتقديس لله وتنزيهه عن ما لا يليق بجلاله ، وأمر الله نبيه بالتبليغ ، فقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ** ﴾ [المائدة : ٦٧] ، ووصف القرآن بأن فيه البيان لكل شيء فقال

تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] ، فهل بين الرسول ﷺ هذه التأويلات التي زعموها ؟ .

وقد اهتدى بالقرآن العظيم والنبي ﷺ ملايين من البشر ، وصاروا ـ بعد تلك الوثنية والكفريات ـ من المؤمنين المنزهين لله تعالى ، فلو كان ظاهر تلك الآيات دالة على التمثيل والتجسيم لما كانوا منقولين من الوثنية والكفر، إذ هذا هو الوثنية بعينها، ولا كان هناك معنى لهداية البشر ، ولا فائدة في القرآن والرسول ﷺ .

ولا يخفى أن في هذا طعنًا في القرآن والرسول ﷺ ، إذ قد أتيا بما يدل على التجسيم والتشبيه ، كما يلزم الطعن في المسلمين السابقين والعلماء الراسخين والعوام الموحدين ، لأنهم اعتقدوا ما دلت عليه الآيات والأحاديث .

فإن قالوا : لا نقول بموجب ذلك ، بل نبرأ إلى الله مما هنالك ، بل قصدنا تنزيه الله وبعده عن النقائص .

قلنا : لا بأس ، ولكن النَّبي ﷺ أحق منكم بالتنزيه ، والمسلم لا يكون مسلمًا إلا بإقراره بالله وتوحيده وتنزيهه عن الكفؤ والمثيل ، ولكن لا ينزه الله عما وصف به نفسه ، وأنتم قد نزهتموه عن الصفات التي وصف بها نفسه ، فلو كان ما تقولون حقًا لنزهه الرسول ﷺ ، ثم أصحابه رضوان الله تعالى عليهم ، بمثل ما نزهتموه به ، ولكن لم يثبت شيء من ذلك .

ولو كان ما تقولون حقًا لبيَّنه النَّبي ﷺ للأمة ، وهو مأمور بالبيان والتبليغ ، فيلزم من قولكم : إنه لم يبين ما هو واجب البيان ، وهذا طعن في الرسول ﷺ ، وقد ذكر الله تعالى ـ في الآية آنفة الذكر ـ أنه تبيان لكل شيء ، فأين بيان الله عز وجل لهذه التأويلات ؟ ، وأين بيان الرسول ﷺ ؟!! .

وكيف يبيِّن الرسول ﷺ للأمة كل ما يحتاجون إليه ، حتى آداب قضاء الحاجة ، ولا يبيِّن لهم ما يعتقدونه في ربهم ومعبودهم !! .

وإذا كان ظاهر النصوص يدل على التشبيه والتجسيم ، ومن المعلوم أن التجسيم والتشبيه ضلال ، والضلال نقيض الهدى ، فأين قول الله تعالى في وصف كتابه

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] ، وقوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء : ٨٢] ، وكيف يقول تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ٣]، وهل يأمر الله باتباع الضلال ؟ .

ونسبة التجسيم إلى القائل وهو الله والرسول ﷺ أولى منا ؛ لأننا راوون لكل ما قاله الله ورسوله ﷺ ، ومعتقدون ما أخبر الله به ورسوله ﷺ ، ولم يقل الله ورسوله : لا تعتقدوا ظواهر هذه الآيات ، لأنها تدل على التجسيم والتمثيل ، واستدلالكم بـ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] .

جوابنا : إن هذه الآية حجة عليكم ، لأن صدرها ينفي المثلية ، ويرد على الممثلة والمشبهة ، وعجزها يثبت كونه سميعًا بصيرًا ، وفيه رد على المعطلة .

ولم يقل أحد من السلف : إن صفاته كصفات غيره حتى تلزموهم بالتمثيل والتجسيم ، بل ينزهون الله أعظم من تنزيهكم ، ويثبتون له أوصافه السَّنِّية كما جاء في القرآن والسُّنَّة النبوية ، ويقرنونها بعدم التكييف والتمثيل .

منكر هذه الصفات الجانح إلى التأويل لا يستطيع التفرقة بين ما يسوغ تأويله وما لا يسوغ :

السابع : إنكاركم لهذه الصفات وركونكم إلى التأويل لا يجدي شيئًا ، لأنكم لا تستطيعون التفرقة بين ما يسوغ تأويله وما لا يسوغ ، كما يلزمكم في المعنى الذي جعلتموه تأويلاً نظير ما فررتم منه .

وإليكم البيان :

لا ريب أن الله وصف نفسه بصفات ، كالسمع ، والبصر ، والعلم ، والقدرة ، والإرادة ، والاستواء ، والوجه ، واليد .

وسمى نفسه بأسماء : كالعليم ، والسميع ، والبصير ، والقدير ، وأخبر عن نفسه بأفعال ، كخبره أنه يحب ، ويكره ، ويرضى ، ويغضب ، وينزل إلى السماء ، إلى غير ذلك من الصفات والأسماء والأفعال .

فيقال للمؤول : هل تؤول هذه كلها على خلاف ظاهرها ؟ ، أم تفسر الجميع

على ظاهره وحقيقته ، مثبتًا للحقائق ، نافيًا للمماثلة ؟ ، أم تثبت البعض وتؤول البعض ، على سبيل التفرقة التي ستعجز عنها ؟ .

فإن اخترت الأول (١) ، كان ذلك عنادًا وكفرًا صريحًا وجحدًا للربوبية .

وبيان ذلك :

إنه لا يعقل إله مجرد عن الأسماء والصفات ، كما لا يوجد إنسان مجرد عن ذلك ، كأن تقول : هنا إنسان لا طويل ولا قصير ، ولا متحرك ولا ساكن ، ولا جاهل ولا عالم ، ولا في الشرق ولا في الغرب ، ولا في الشمال ولا في الجنوب ، ولا فوق ولا تحت ، وهكذا دواليك ، فهل هذا إلا سفسطة وجنون ؟ .

والظاهر أن الواضع لهذا المذهب الباطل كان قصده الجحد المحض ، فأخذ يسبكه في قوالب التنزيه ، ويبرزه بهذه المناهج ، تارة بزعم التأويل ، وأخرى بزعم المجاز ، حتى غلا بعضهم وزعم أن أفعال الله مجازية حتى خلقه السموات والأرض ، وأخذ أهل هذا المذهب الحذاق - الذين جاءوا من بعد الواضع - يلطفونه بإقرار البعض وإنكار البعض ، ومآل هذا القول نبذ الكتاب والسُّنَّة ، وتفضيل طريقة المتفلسفين - الوارثين علومهم عن الفلاسفة - والصابئة الضالين عن منهج القرآن والسُّنَّة ومنهج الصحابة والتابعين والأئمة المهتدين .

وإن اخترت الثاني (٢) ، فلا كلام ، وهو المطلوب .

وإن اخترت الثالث (٣) : **فيقال لك :**

ما الفرق بين ما أثبته وبين ما نفيته من السمع والعقل ؟ ، وما الذي سوغ لك تأويل بعض الصفات دون بعضها ؟ ، فدلالة النصوص على اتصافه تعالى بالعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والقدرة ، والإرادة ، كدلالتها على اتصافه بالوجه ، واليدين ، والحب ، والبغض ، والرحمة ، والمحبة ، والقدرة ، فلم أثبت تلك ونفيت هذه ؟ ، وأوَّلت المحبة والرحمة بالإرادة ، واليد بالقدرة ؟ . فإن إقرارك ببعض الصفات

(١) تأويل الجميع .
(٢) إثبات حقائق الصفات مع نفي المماثلة .
(٣) إقرار البعض وتأويل البعض .

دون البعض يلزمك نظير ما فررت منه ، كما ستراها الآن .

فإن قلت : إثبات الإرادة والمشيئة لا يستلزم تشبيهًا ولا تجسيمًا ، وإثبات حقائق هذه الصفات يستلزم ذلك ، لأنها لا تعقل إلا في الأجسام ، حيث أن الرحمة رقة تعتري طبيعة الحيوان ، والمحبة ميل النفس لجلب ما ينفعها ، والغضب غليان دم القلب ، واليد للجارحة .

قلنا : وكذلك الإرادة هي ميل النفس لجلب ما ينفعها ، ودفع ما يضرها ، وكذلك جميع الصفات من العلم والسمع والبصر ، والحياة ، والقدرة ، هي أعراض قائمة في الأجسام في الشاهد ، لأن العلم انطباع صورة المعلوم في نفس العالم ، والقدرة صفة تؤثر في المقدورات ، وهكذا بقية الصفات .

فكيف لزم التشبيه فيما قلنا ، ولم يلزم فيما قلتم ؟ .

وهنا لا محيص من الإقرار أو الإنكار ، فيما تؤولونه من الصفات يلزمكم فيه نظير ما فررتم منها كما رأيتم ، فررتم من اليد ، وقلتم بالقدرة ، وما هي إلا عرض في الشاهد المحسوس ، والله منزه عن ذلك .

فإن قلتم : ليس كقدرتنا ، قلنا : ويده ليست كيدنا ، فررتم من اتصافه بالغضب ، والرحمة ، والمحبة ، بزعمكم هي أعراض بشرية ، وأوَّلتم بالإرادة ، وقد رأيتم مآل الإرادة ، ومآل هذه الصفات .

فإن قال المعطل : أقر بالخالق للعالم ، ولا أصفه بصفة يتصف بها المخلوق ، وحيث جاء الوصف أولته .

فالجواب :

هذه الأسماء الحسنى والصفات التي وصف بها نفسه ، هل تدل على معان ثابتة هي حق في نفسها ، فإن العليم معناه من اتصف بالعلم ، والسميع من اتصف بالسمع ، وهكذا البقية ، ولا يعقل عليم بلا علم ، ولا سميع بلا سمع ، أم لا تدل على ما قلنا ؟ .

فإن اخترت الثاني : كان ذلك غاية التعطيل ، ومآل هذا القول جحد الربوبية ، فمن

أقر بصفات المعاني كالأشعرية أو المعنوية كالمعتزلة ، يلزمه فيما أقر نظير ما أوَّل ، وإن أنكر الأسماء كلها ، والصفات بأسرها ، وأثبت إلهًا مجردًا من الصفات ، قلنا : هذا إقرار باطل، ولا يفيده شيئًا ، وملحد متستر إذ لا يعقل خالق أو مخلوق مجردًا من الصفات .

وإن اخترت الأول : وهو أنها تدل على معان ثابتة ، وأوَّلت البعض ، طالبناك بالفرق المسوغ ، فإن لجأت إلى العقل فقد بيَّنا لك بطلان ذلك الالتجاء ، وإن حكمت الإجماع وقلت : ما أثبته دل عليه الإجماع ، لأنه لا يستلزم التشبيه ، وما أثبتم لا يدل عليه الإجماع ، لأنه يستلزم ذلك ، قلنا : وهذا فاسد حيث يدل بمضمونه أن الإجماع أثبت ما يدل على التشبيه والتجسيم ، لأنهم مُسَلِّمون أن هذه الصفات التي أقروا بها ، وإن دلت على ذلك فدلالة الإجماع ، وحينئذ يقال : إن كان الإجماع يدل على ما ظاهره التشبيه ، وهو حجة في نفسه ، فقد بطل نفيكم لذلك ، لأنه انعقد إجماع الصحابة والتابعين على ما قلنا .

فإن قالوا : ما لم يدل على البعض والجارحة نقول به كالعلم والسمع ، وما دل على ذلك كالوجه واليدين والقدم فلا نقول به .

قلنا : بماذا تجيبون المعتزلة والجهمية ؟ ، فإنهم يقولون لكم : لو كان له صفة وجودية كالسمع والبصر لكان محلاً للأعراض ، ولزم التركيب والتجسيم ، كما تقولون لنا : لو كان له وجه ويد ونحو ذلك ، للزم التركيب والتجسيم ، فما كان جوابكم لهم ، فهو جوابنا لكم .

فإن قلتم : نحن نثبت هذه الصفات على وجه لا تكون أعراضًا ، فلا يستلزم تركيبًا ولا تجسيمًا ، قلنا : ونحن نثبت تلك الصفات على ذلك المنهج .

فإن قلتم : ما أثبتموه لا يعقل منه إلا الأجزاء والأبعاض .

قلنا : وتلك الصفات التي أثبتموها لا يعقل منها إلا الأعراض .

فإن قلتم : العرض[1] ، لا يبقى زمانين ، وصفات الرب دائمة باقية ،

---

(١) في اصطلاح المناطقة : الجوهر ما قام بنفسه ، وهو الذي تعبر عنه اللغة العربية بالجسم ، والعرض : ما قام بغيره ، كالسواد والبياض في الجسم ، وكذا الصفات كالعلم والقدرة والكرم ، وقولهم : « العرض لا يبقى زمانين » ، قد أثبت العلم الحديث في هذا العصر بطلان هذه النظرية .

فليست أعراضًا .

قلنا : وكذلك الأبعاض هي ما جاز مفارقتها وانفصالها ، وذلك في حق الرب محال ، فليست أبعاضًا ولا جوارح ، فمفارقة الصفات الإلهية للموصوف بها مستحيل مطلقًا في النوعين [١] ، والمخلوق يجوز أن تفارقه أعراضه وأبعاضه .

فإن قلتم : إن كان الوجه عين اليد وعين الأصبع ، فهو محال ، وإلا لزم التمييز والتركيب .

قلنا : إن كان السمع هو عين البصر وهما نفس العلم وهو نفس الحياة والقدرة ، فهو محال ، وإن تميز لزم التركيب ، فما كان جوابكم ، فهو جوابنا .

وزعمهم : إنما أوّلوا خوفًا من التشبيه .

فجوابنا لهم : إن التشبيه له أدوات مخصوصة [٢] ، كالكاف ، وكأن ، ومثل ، كأن تقول : يد كيد ، وقدرة مثل قدرة ، وكأن عينه مثل عينه ، أما مجرد الإثبات فلا يلزم التشبيه ، فكيف إذا أردفت بما ينفي التمثيل ؟! ، فهل بعد هذا النفي يبقى ريب لمرتاب ؟ .

فإن قالوا : نفيكم للتمثيل لا يفيد مع إثباتكم للحقائق ، والأمور بحقائقها لا بظواهر الألفاظ .

---

(١) النوعان : الأول : ما دل على البعض والجارحة ، والثاني : ما لم يدل على ذلك .

(٢) في علم البلاغة أدوات التشبيه هي ألفاظ تدل على معنى المشابهة كالكاف ، وكأن ، ومثل ، وشبه ، وغيرها مما يؤدي معنى التشبيه كالمضاهاة والمحاكاة ، والمشابهة ، والمماثلة ، إذا علمت هذا فاعلم أنه ليس في إثبات الصفات وقرنها بما ينفي التمثيل تشبيه ، لفقد أدوات التشبيه ، والتصريح بما ينفي المثلية .

إن قال قائل : إن التشبيه المؤكد هو ما حذفت منه أداته ، كقول الشاعر :

أنت نجم في رفعة وضياء ... تجتليك العيون شرقًا وغربًا

والتشبيه البليغ ما حذفت فيه أداة التشبيه ووجه الشبه ، كقول الشاعر :

فاقضوا مآربكم عجالاً إنما ... أعماركم سفر من الأسفار

فالجواب :

إن التشبيه يعرف من القصد ومن سياق الكلام والقرائن ، وإن لم يكن أدواته ، وهنا السياق وعقيدة التوحيد الخالص يدلان على نفيه ، فكيف إذا أردف بما ينفي التشبيه تصريحًا ؟ .

قلنا في الجواب :

أولاً : نحن وإن أثبتنا الحقائق ، لكنها إثبات بغير تكييف فمن أين جاء التمثيل إذًا ؟ .

وثانيًا : إقراركم للبعض من الصفات ، وإنكار البعض منها ، تحت ستار التأويل لا يفيد ، لأن التأويل في الحقيقة إنكار لذلك المعنى المخصوص ، لأنكم صرفتموه إلى غيره ، فبقي المعنى المخصوص معطلاً عما هو له .

والخلاصة :

أنهم لا يستقيم لهم الأمر إلا بإتباع السلف الصالح ، وإلا فلا يزالون متناقضين مضطربين ، ويلزمهم في تأويل ما فروا منه نظير ما فروا إليه .

فصل
أزلية الصفات

صفة الأفعال :

وكل ما أتى من الصفات ... قديمة لله ذي الهبات
وصفة الأفعال (١) للسلام ... قديمة بالنوع كالإنعام

[ش] : بعد أن تكلمنا على رد شبهة المؤولة ، بينا أن صفاته الذاتية والخبرية أزلية كذاته المقدسة ، فالكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات .

وأما صفات الأفعال كالخلق والإنعام ، والنزول والمجيء والإتيان ، فقال الخلف بحدوثها ، وقالت الماتريدية بقدمها ، والصحيح الذي عليه المحققون أنها قديمة النوع حادثة الآحاد .

وقد تأثر كثيرون من أهل السُّنَّة في أفعال الله الاختيارية بكلام المعتزلة : « إن ما حل به الحادث فهو حادث ، فإذا كان الله أزليًا لا أول له ، وهذه الحوادث تحدث شيئًا بعد شيء ، فيكون محلاً للحوادث ، وهو منزه عن ذلك » .

ولم يعلموا أن هذا ليس من كلام السلف وأئمتها ، وقد أراد المعتزلة بنفي حلول الحوادث أن لا يتكلم بقدرته ومشيئته ، ولا ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا ، ولا يأتي يوم القيامة ، ولا يقوم به فعل البتة ، ولا يريد شيئًا بعد أن لم يكن مريدًا له .

فلا يقول : كن حقيقة، ولا استوى على عرشه بعد أن لم يكن مستويًا ، وقالوا : هذه كلها حوادث ، وهو منزه عن حلول الحوادث ، والحق أن القول بقدم النوع وحدوث الآحاد هو القول الوسط في هذا الباب بين القولين الأولين .

أسماء الله توقيفية :

أسماء ربي الملك المعبود ... موقوفة أيضًا على الورود

---

(١) قد سبق في التعاليق وهي التي تتعلق بمشيئته : إن شاء فعلها ، وإن شاء لم يفعلها ، كالخلق والإنعام والاستواء والنزول ، ونحو ذلك مما جاء في الشرح .

[ش] : أي أن أسماء الرب تبارك وتعالى لا تطلق عليه إلا ما ورد الشرع به ، ولا يطلقون ما ورد المنع به ، واختلفوا حيث لا إذن ولا منع ، فجوزه بعضهم إذا أشعر المدح ، وجوزته المعتزلة مطلقًا ، ومال إليه بعض الأشاعرة ، والحق أنها توقيفية كما سبق .

ثم اعلم أن المراد بأسمائه تعالى ما دل على مجرد ذاته كالله ، أو باعتبار الصفة كالعالم والقادر .

قال المحقق ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

أسماء الله هي أسماء ونعوت ، فإنها دالة على صفات الكمال ، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية ، فالرحمن اسم له ، ووصف له ، ووصفه لا ينافي اسميته ، فمن حيث هو صفة جرى تابعًا على اسم الله ، كقوله تعالى : ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ ، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع مثل قوله تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)** ﴾ [الرحمن : ١ ، ٢] ، والحق أن الاسم غير المسمى .

تنبيه : إحصاء أسمائه الحسنى والعلم بها أصل العلم بكل معلوم، فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقًا له أو أمرًا، والعلم إما علم بما كونه أو علم بما شرعه .

ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى ، ولهذا كلها حسن لا تخرج عن مصالح العباد والرحمة بهم ، فأمره كله مصلحة ورحمة ، وفعله عدل لا يخرج عن الحكمة .

ووقع اختلاف في معنى إحصاء أسمائه الحسنى، فقيل: إحصاء ألفاظها وعددها، وقيل : فهم معانيها ومدلولها ، وقيل : دعاؤه بها .

المستحيل والجائز :

ضد الوجوب مستحيل قد بدا   وغير ذين جائز فلترشدا
كخلقه العالم إرزاق الغنى   وخلقه الشرور أيضًا استبنا

[ش] بعد أن أنهينا الكلام عن الصفات الواجبة لله تعالى ، بيَّنا هنا في هذين البيتين المستحيل والجائز .

ومعنى المستحيل : ما لا يتصور في العقل ثبوته ، فضد العلم الجهل ، وضد السمع والبصر الصم والعمى ، وضد البقاء الفناء ، وضد الحياة الموت ، وهكذا القول في سائر الصفات .

وبالجملة : فكل ما نافى صفات الكمال الثابتة لله فهو منزه عنه مستحيل عليه ، فإن ثبوت أحد الضدين يستلزم نفي الآخر ، فإذا علم أنه موجود واجب الوجود بنفسه ، وأنه أزلي ، علم امتناع العدم والحدوث (١) ، وأنه غني عما سواه ، وهذا هو الفرق بين ما نثبت له وبين ما ننفي عنه .

وأما الجائز : فهو ما يصح عدمه ووجوده كخلقه العالم ، فإن شاء أوجده ، وإن شاء تركه ، وإرزاقه الغنى لشخص ، وفقره لآخر ، وكل ما لم يكن واجبًا ولا مستحيلاً فهو جائز .

وذلك بأنه الفعَّال لما يريد ، قال تعالى : ﴿ **وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦)** ﴾ [البروج : ١٤ - ١٦] .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤)** ﴾ [الحج : ٢٣] .



(١) وكل ما جاز عليه العدم عليه قطعًا يستحيل القدم

فصل
في الاستواء

اعلم أخا الذكاء والعرفان … إثبات الاستواء للرحمن
قال به جميع أهل العلم … من كان ذي ديانة وفهم
التابعين سُنَّة العدنان … أهل الحديث عسكر القرآن
مخالف للسلف العدول … فقوله انبذ ليس بالمقبول
سبحانه وبحمده قد استوى … كما أتى ليس له العرش حوى
واسمع إذًا مقال ذي العصيان … مخالف الإله والمنان
كقوله في حق ذي الآلاء … في صفة استوى بالاستيلاء
وجاء الاستواء في الكتاب … في سبع آيات بلا ارتياب
واقرأ لما عن النَّبي وردا … في ذا المرام واتبعن أحمدا
وما أتى عن صحبه والتابعين … لنهجهم والعلماء العاملين

[ش] : أفردت في الكلام عن الاستواء ، وما اكتفيت بعده في الصفات التي قد مضت ، مع صفة الوجه واليدين وما إلى ذلك من الصفات الخبرية ، لأن كلام العلماء قد كثر في هذا الباب ، حتى أفرد بعض أهل العلم هذه الصفة بتأليف مستقل لكثرة مشاغبات المتكلمين من الجهمية والمعتزلة والخوارج وبعض الأشاعرة ، حيث أنه أصبح الاستواء لله ميدانيًا للمناظرة والجدل ، والتفسيق والتضليل .

فأقول وبالله التوفيق ، وبيده أزمة التحقيق :

الكلام في هذا الباب على خمسة أقسام :

[١] معنى الاستواء في لغة العرب .

[٢] إيراد الأدلة على ثبوت الاستواء من الكتاب والسُّنَّة وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة المهتدين .

[٣] إيراد البراهين العقلية .

[٤] إبطال الشبهة النقلية .

[٥] إبطال الشبه العقلية .

إليك بيان الأول : فنقول :

إن لفظ الاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله بلغتهم ، وأنزل بها كلامه ، نوعان : مطلق ومقيد .

فالمطلق : ما لم يوصل معناه بحرف ، كقوله : ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ** ﴾ [القصص : ١٤] ، وهذا معناه كمل وتم ، يقال : استوى النبات واستوى الطعام .

وأما المقيد: فثلاثة أنواع :

أحدهما : مقيد بإلى ، كقوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ** ﴾ ، واستوى فلان إلى السطح والغرفة ، وقد ذكر الله هذا المعدى بإلى في موضعين في كتابه :

الأول : في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ**﴾[البقرة : ٢٩] .

والثاني : في سورة فصلت قوله تعالى : ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ**﴾ [فصلت : ١١] .

فالاستواء في الآيتين بمعنى العلو والارتفاع .

قال أبو العالية الرياحي : استوى إلى السماء ، أي ارتفع ، نقله عنه البخاري في صحيحه ، ورواه محمد بن جرير في تفسيره عن الربيع بن أنس .

وثانيهما : مقيد بعلى (١) ، كقوله تعالى : ﴿**لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ** ﴾ [الزخرف : ١٣] ، وقوله : ﴿ **وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ** ﴾[هود : ٤٤] ، وقوله تعالى : ﴿ **فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ**﴾[الفتح : ٢٩] .

---

(١) إذا تعدى الاستواء بالحرف ، فإن معناه في غاية الظهور، فليس فيه إجمال يحتاج معه إلى تفصيل ، ولا هو من الألفاظ المشتركة التي تحتمل أكثر من معنى ، ولا هو منقول من حقيقته إلى مجازه ، بل إذا تعدى بعلى الموضوعة للاستعلاء كان نصًا في العلو لا يحتمل معنى آخر .

وهذا أيضًا معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة ، ولا ينافي العلو والارتفاع ما فسره بعضهم باستقر في قوله تعالى :﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ ، أي استقرت ، لأنها مع كونها مستقرة عليه ، هي عالية ومرتفعة عليه .

كما لا ينافي تفسير بعضهم لقوله تعالى :﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ بمعنى قصد أو صعد ، لأنه إذا تعدى بإلى أفاد القصد مع العلو وضعًا ، يقال : استوى إلى كذا بمعنى قصد إليه مستعليًا عليه .

وثالثهما : المقرون بواو مع التي تعدي الفعل إلى المفعول معه ، نحو : استوى الماء والخشبة ، بمعنى ساواها .

وهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم ، ليس فيها معنى استولى البتة ، ولا نقله أحد من أئمة اللغة الذين يعتمد قولهم ، وإنما قاله متأخروا النحاة وبعض المتأخرين ممن كتب في اللغة ، ممن تأثر بآراء المعتزلة والجهمية .

وسنأتي إن شاء الله تعالى في رد الشبه النقلية ببطلان تفسير الاستواء بالاستيلاء .

والحاصل أن عبارات السلف في تفسير الاستواء لم تخرج في معانيها عن الألفاظ التي ذكرناها في النظم ، وهي استقر وعلا ، وارتفع وصعد ، وقد اختار أبو عبيدة صاحب الإمام أحمد بن حنبل في تفسير الاستواء المعنى الرابع وهو « صعد » .

والمعاني الثلاثة غير العلو ليس فيها ما ينافي العلو ، إلا أن لفظة استوى في اللغة إذا عدي بعلى لا يمكن أن يفهم منها إلا العلو والارتفاع ، وأما إذا كان غير معد بعلى فقد يأتي لمعان آخر ، مثل صعد واستقر وبمعنى علا .

وقد ذكر العلامة ابن جرير ـ بعد كلام على لفظة استوى ـ فقال :

وأولى المعاني بقول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ علا عليهن وارتفع ، ثم رجح تفسير الاستواء بالعلو ، وأبدى عجبه ممن أنكر هذا المعنى المفهوم من كلام العرب وتأوله بتأويل مستنكر .

ونقل تفسير الاستواء بمعنى العلو والارتفاع عن الربيع بن أنس [١] .

---

(١) أ . هـ من « تفسير ابن جرير » الجزء الأول ، (ص ٤٢٨) ، طبعة دار المعارف ، بمصر .

الأدلة من القرآن :

قد جاء الاستواء في الكتاب ... في سبع آيات بلا ارتياب

ذكر الله الاستواء في سبع مواضع من القرآن هي :

[١] قال تعالى : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

[٢] وقال سبحانه : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ [يونس : ٣] .

[٣] وقال سبحانه : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ [الرعد : ٢] .

[٤] وقال سبحانه : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** (٥) ﴾ [طه : ٥] .

[٥] وقال سبحانه : ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ [الفرقان : ٥٩] .

[٦] وقال سبحانه : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ [السجدة : ٤] .

[٧] وقال سبحانه : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ [الحديد : ٤] .

بعض الأحاديث الواردة في الاستواء :

واقرأ لما عن النبي وردا ... في ذا المرام واتبعن أحمدا

وردت أحاديث كثيرة مصرحة بفوقيته :

[١] أحاديث المعراج وهي متواترة ، وقد ثبت ثبوتًا لا يرقى إليه شك ولا ريب ، أنه ﷺ أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم نصب له المعراج ، فرقي إلى سماء الدنيا ، ثم إلى السماء الثانية ، حتى تجاوز السماء السابعة إلى مستوى سمع فيه صرير الأقلام ، وخاطبه الرب ، وفرض عليه خمسين صلاة ، فلم يزل يراجع ربه بإشارة من موسى عليه السلام طالبًا منه التخفيف حتى جعلها خمسًا (١) .

(١) إن في أحاديث المعراج وصعود النبي ﷺ إلى ربه تبارك وتعالى وخطابه له وقع الخلاف ، هل رآه ببصره أو ببصيرته لدليل ساطع وبرهان قاطع على علو الله على عرشه ، فلو كان في كل مكان ـ كما =

[٢] وفي الصحيحين قال : قال رسول الله ﷺ : « **لما خلق الله الخلق ، كتب في كتاب وهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي تغلب غضبي** » .
وفي لفظ : « **وهو مكتوب عنده فوق العرش** » .

[٣] وفي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبي ﷺ قال : « **والذي نفسي بيده ، ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطًا حتى يرضى عنها** » .

[٤] وفي الصحيحين عن الأعرج ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وفي صلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ربهم ـ وهو أعلم ـ كيف تركتم عبادي ؟ ، فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون** » .

[٥] وفي جامع الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أن رسول الله ﷺ : « **الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء** » . قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

[٦] وفي صحيح البخاري ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كانت زينب تفتخر على أزواج النَّبي ﷺ وتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سموات » .

[٧] وأخرج مسلم وأبو داود والنسائي وغير واحد من الأئمة ، عن عطاء بن يسار ، عن معاوية بن الحكم السليمي قال : كانت لي غنم بين أحد والجوانية فيها جارية لي ، فاطلعتها ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب منها بشاة ـ وأنا رجل من بني آدم ـ فأسفت ، فصككتها ، فأتيت النَّبي ﷺ فذكرت ذلك له فعظم ذلك عليّ ، فقال : يا رسول الله أفلا أعتقها ؟ ، قال : « **ادعها** » فدعوتها ، **وقال**

يقول الجهمي والمعتزلي ، لما كان من معنى لعروج المصطفى ﷺ إذ يكون تحصيل حاصل ، ثم إنه سبحانه وتعالى يكرر استواءه على عرشه في سبع آيات من القرآن ، يخص العرش بذلك ، فلو لم يكن له معنى زائدًا على قهره للكون واحتوائه له لما كرر ذلك الاستواء .

لها : «**أين الله ؟**» [١] ، قالت : في السماء ، قال : « **من أنا ؟** » ، قالت : أنت رسول الله ، قال : « **اعتقها فإنها مؤمنة** » .وهذا الحديث من الأحاديث المتواترة كما قال الذهبي في العلو .

[٨] حديث أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « **ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ؟ ، يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً** » [متفق عليه] .

[٩] أخرج البخاري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب** - ولا يصعد إلى الله إلا طيب - **فإنها يتقبلها بيمينه ، ويربيها لصاحبها حتى تكون مثل الجبل** » .

[١٠] وأخرج النسائي ، عن سعد بن أبي وقاص ، أن النَّبي ﷺ قال لسعد بن معاذ رضي الله عنه : « **لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات** » ، أي : في

---

(١) يقول سيد المرسلين ورسول رب العالمين للجارية : أين الله ؟ ، ويجاهر الجهمي ومن نحا نحوه بأنه لا يجوز أن يقال : أين الله ؟ ، كما لا يجوز أن يقال : متى كان ؟ ، وكيف هو ؟! ، فانظر كيف أتوا بقول باطل بين حقين ، فالباطل قولهم بعدم جواز قول : أين الله ، والحقان قول : متى ، وكيف ، فلا أدري أهؤلاء أعلم بالله من رسوله ، أم ترهات الفلسفة أعمت أبصارهم وبصائرهم ، وأضلتهم عن سواء السبيل ، وجعلتهم يتجرؤون بكل وقاحة بلا خجل ولا حياء ؟! .

ولا شك أن هذه جرأة عظيمة وزلة كبيرة ، إذ مضمونها أنهم أعلم من الله ورسوله ﷺ ، وأنه يجوز لهم أن يشرعوا الأحكام بالجواز والوجوب وغيرهما .

ومن المعلوم أن المشرع هو الله ، ثم رسوله ﷺ فهؤلاء جهلوا رسوله ﷺ ، ونصبوا أنفسهم في مقام التشريع الذي هو من حق الربوبية ، فقل لي بربك : هل يجتمع الإيمان بالله وبرسوله ﷺ مع الرد على رسوله وتجهيله ﷺ ؟ .

ويقولون : إن هذا لا يجوز ، مع أن الرسول ﷺ هو السائل وهو المُجاب ، وقد صرح بأن الجارية مؤمنة ، ومع ذلك ينفون هذا كله ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ [البقرة : ٢٥٠] ، ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران : ٨] .

وليس العجب من الجهمي والمعتزلي ، وإنما العجب كل العجب ممن ينتسب إلى السُّنَّة ، ويؤلف كتبًا في التفاسير والأحاديث ، ثم يجهر بهذا القول المخالف لجميع الشرائع السماوية ولسائر الآيات القرآنية ولجميع السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة المهتدين .

فإذا كان هذا شأنه ، فمتى صحت نسبته إلى السُّنَّة ؟! ، وكم لهؤلاء من أقوال صريحة في خلاف ما عليه سلفنا الصالح ، هدانا الله وإياهم إلى سواء السبيل .

بني قريظة .

وورد في حديث مرسل عن محمد بن كعب بن مالك أن سعد بن معاذ رضي الله عنه لما حكم في بني قريظة قال له رسول الله ﷺ : « **لقد حكمت حكمًا ، حكم الله به من فوق سبعة أرقعة** » . إلى غير ذلك من الأحاديث التي لو ذهبنا في تعداد إيرادها لطال بنا الكلام ، ولكن نحيل القارئ ، إلى كتاب اجتماع الجيوش الإسلامية للعلامة ابن القيم ، وإلى كتاب العلو للحافظ الذهبي .

وبالجملة :

فالنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه ، وكونه فوق عباده ، تقرب من عشرين نوعًا .

فهاك بعض هذه النصوص :

[١] التصريح بالفوقية مقرونًا بأداة ﴿ مِّن ﴾ المعينة للفوقية بالذات ، في قوله تعالى : ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ** ﴾ [النحل : ٥٠] .

[٢] ذكرها مجردة عن الأداة ، كقوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ** ﴾ . [الأنعام : ١٨ – ٨٨] .

[٣] التصريح بالعروج ، نحو قوله تعالى : ﴿ **تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ** ﴾ . [المعارج : ٤] .

[٤] التصريح بالصعود إليه ، كقوله تعالى : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ** ﴾ . [فاطر : ١٠] .

[٥] التصريح برفعه بعض المخلوقات كقوله تعالى : ﴿ **بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ** ﴾ . [النساء : ١٥٨] .

[٦] التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو ذاتًا وقدرًا وشرفًا ، كقوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** ﴾ [سبأ : ٢٣]

[٧] التصريح بتنزل الكتاب منه ، كقوله تعالى : ﴿ **تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** (٢) ﴾ [غافر : ٢] ، وقوله : ﴿ **تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** (٢) ﴾ . [فصلت : ٢] .

[٨] التصريح بأنه تعالى في السماء ، كقوله تعالى : ﴿ **أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ** ﴾ [الملك : ١٦] ، وهذا عند المفسرين من أهل السُّنَّة على أحد وجهين : إما أن يكون « في » بمعنى « على » وأما أن يراد بالسماء العلو ، لا يختلفون في ذلك ، ولا يجوز الحمل على غيره .

[٩] التصريح بالاستواء مقرونًا بأداة « على » مختصًا بالعرش الذي هو أعلى المخلوقات .

[١٠] التصريح برفع الأيدي إلى الله ، كقوله ﷺ : « **إن الله يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً** » .

[١١] الإشارة إليه حسًا إلى العلو ، كما أشار إليه من هو أعلم بربه لما كان بالمجمع الأعظم حيث قال لهم : « **أنتم مسؤولون عني ، فماذا أنتم قائلون ؟** »، قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فرفع إصبعه الكريم إلى السماء ، رافعًا لها إلى من هو فوق كل شيء قائلاً : « **اللهم اشهد** » .

[١٢] التصريح بلفظ أين ، كقول أعلم الخلق به وأنصحهم لأمته وأفصحهم بيانًا عن المعنى الصحيح ، بلفظ لا يوهم باطلاً بوجه ما « أين الله » في غير موضع .

[١٣] شهادته ﷺ لمن قال : إن ربه في السماء بالإيمان (١) .

فهذه ثلاثة عشر نوعًا من الأدلة التي تثبت فوقيته (٢) ، واستواءه جل جلاله ، وتركنا بقيتها خوف الإطالة .

---

(١) أ ـ هـ ملخصًا من شرح الطحاوية (ص ٢١٧ ، ٢١٨) .

(٢) قد أولت المعطلة فوق في نحو قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ** ﴾ ، بأنه خير من عباده ، وأفضل منهم ، وأنه خير من العرش ، وأفضل منه ، كما يقال الأمير فوق الوزير ، والدينار فوق الدرهم .

فالجواب أن يقال :

هذا التأويل مما تنفر منه العقول السليمة ، فإن قول القائل ابتداءً : « الله خير من عباده ، وخير من عرشه » ، من جنس قوله : الشمس أضوأ من السراج ، والسماء أعلى من شقة الدار ، ورسول الله =

أقوال الصحابة

رضي الله عنهم

وما أتى عن صحبه والتابعين   لنهجهم والعلماء العاملين

[١] قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

قال البخاري في تاريخه : قال محمد بن فضيل ، عن فضيل ، عن غزوان ، عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لما قبض رسول الله ﷺ دخل أبو بكر رضي الله عنه فأكب عليه ، وقبَّل جبهته ، وقال : بأبي أنت وأمي طبت حيًا وميتًا ، وقال : « من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله في السماء حي لا يموت » .

[٢] قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

لقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه خولة بنت ثعلبة فاستوقفته ، فوقف لها ، ودنا منها وأصغى إليها حتى قضت حاجتها ، فلما ليم على ذلك الوقوف ، لكونه حبس رجالاً من قريش لأجل العجوز ، قال للائم : : ويلك تدري من هذه ؟ ، قال : لا ، قال : هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات .

[٣] وهذا عبد الله بن رواحه رضي الله عنه يقول :

شهدت بأن وعد الله حق   وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف   وفوق العرش رب العالمينا

= أفضل من اليهود ، والسماء فوق الأرض ، وليس ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح ، بل هو من أرذل الكلام وأسمجه وأهجنه ، فكيف يليق هذا بكلام الله الذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله ؟ ، بل في ذلك تنقيص كما قيل في المثل السائر :

ألم تر أن السيف ينقص قدره   إذا قيل أن السيف أمضى من العصا

ولو قال قائل : الجوهر فوق قشر البصل وقشر السمك لضحك منه العقلاء للتفاوت الذي بينهما ، فإن التفاوت الذي بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم ، بخلاف ما إذا كان يقتضي ذلك بأن كان احتجاجًا على مبطل ، كما في قول يوسف الصدّيق عليه السلام : ﴿ **أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ [يوسف : ٣٩] . أ . هـ . من شرح الطحاوية (ص ٢٢٠) .

[٤] وهذا حسان بن ثابت رضي الله عنه يقول :

شـهـدت بإذن الله أن مـحـمـداً رسـول الذي فـوق السـمـوات من عَلٍ

[٥] وأما قول الصحابة كلهم :

فهو ما روي عن عدي بن العمرية قال : خرجت مهاجراً إلى النَّبي ﷺ ، فذكر قصة طويلة وقال فيها : فإذا هو ومن معه يسجدون على وجوههم ويزعمون أن إلههم في السماء ، فأسلمت وتبعته .

[٦] قول ابن عباس رضي الله عنهما : (١)

وفي مسند الحسن بن سفيان ، وكتاب عثمان بن سعيد الدارمي ، من حديث عبد الله بن أبي مليكة ، أنه حدثه ذكوان قال : استأذن ابن عباس رضي الله عنهما على عائشة رضي الله عنها وهي تموت ، فقال : « كنت أحب نساء النَّبي ﷺ إليه ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحب إلا طيبًا ، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سموات ، جاء بها الروح الأمين ، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله يذكر فيها إلا وهو يتلى فيها آناء الليل وآناء النهار » .



---

(١) ذكرنا قول ابن عباس بعد أقوال الصحابة كلهم من باب ذكر الخاص بعد العام ، وفي القرآن الكريم : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨) ﴾ [البقرة : ٩٧ ، ٩٨] ، لأنه حبر الأمة وترجمان القرآن ، ومنزلته العلمية بين الصحابة غير خافية .

أقوال بعض التابعين
رحمهم الله تعالى

[١] قول مسروق :

قال الذهبي : قال : الثقة ، عن علي بن الأرقم ، عن مسروق : أنه كان إذا حدَّث عن عائشة رضي الله عنها قال : « **حدَّثتني الصديقة بنت الصديق ، حبيبة حبيب الله ، المبرأة من فوق سبع سموات** » [إسناده صحيح] .

[٢] قول قتادة :

قال الدارمي : أخبرنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا أبو هلال ، حدثنا قتادة قال : « قالت بنو إسرائيل : يارب أنت في السماء ، ونحن في الأرض ، فكيف لنا أن نعرف رضاك وغضبك ، قال : إذا رضيت استعملت عليكم خياركم ، وإذا غضبت استعملت عليكم شراركم » .

قال الحافظ الذهبي : هذا ثابت عن قتادة أحد الحفاظ الكبار .

[٣] قول سليمان التيمي :

قال ابن أبي خيثمة : حدثنا هارون بن معروف قال : حدثنا ابن ضمرة ، عن صدقة التيمي، عن سليمان التيمي قال: « لو سئلت : أين الله ؟، لقلت : في السماء» .

[٤] قول مقاتل :

ذكر البيهقي - في الأسماء والصفات - عن مقاتل : « بلغنا والله أعلم في قوله عز وجل : ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ** ﴾ [الحديد : ٣] .

الأول قبل كل شيء ، والآخر بعد كل شيء ، والظاهر فوق كل شيء ، والباطن فليس دونه شيء .

وإنما يعني القرب بعلمه وقدرته وهو فوق عرشه ، وهو بكل شيء عليم ، فيعلم نجواهم، ويسمع كلامهم، ثم ينبئهم يوم القيامة بكل شيء وهو فوق عرشه وعلمه معهم .

[٥] قول التابعين جملة :

روى البيهقي بإسناد صحيح إلى الأوزاعي قال : « كنا والتابعين متوافرون نقول : إن الله جل ذكره فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السُّنَّة من صفاته » .

وانظر إلى مقال حبر الأمة ... تفسيره استوى وكن ذا ثقة
وانظر إلى أصحابه الكرام ... مجاهد مقاتل العظام
لهم تفاسير للاستواء ... قد تبعوا للعرب العرباء
وهي استقر وعلا وارتفعا ... فلتفهمن أقوالهم ولتتبعا
ثم الصعود وهو قول رابع ... إلى أبي عبيدة يا تابع

قد تقدم تفاسير أولئك الأئمة الكرام للاستواء ، ولا حاجة إلى الإعادة .

بعض أقوال
تابعي التابعين والأئمة المعتبرين
رحمهم الله تعالى

واسمع إلى الإمام مالك الأبر … مقاله في الاستوا عنه اشتهر
قال بأن الاستواء معقول … لكنما الكيف به مجهول
وقال الإيمان به قد وجبا … والسؤال عنه بدعة فاجتنبا
قال الإمام الشافعي الأعظم … فيما حكاه البيهقي الأفخم
بأن ربنا قضى الخلافة … فوق السماء فانبذن خلافه
قضاؤه وصف له يا متبع … لم ينفصل عن الإله فاتبع
هذا وربي واضح البرهان … فلتسمعن مقالة النعمان
من قال لا أدري بأن العرش في … سمائنا العليا أو الأرض اعرف
فكافر لأنه قد أنكرا … لكون ربي في السماء فاعتبرا
ومثله لا أعرف الله في السما … أم هذه الغبرا فكفره سما
قال الإمام أحمد بن حنبل … ذو العلم والتقى وذو الفضل الجلي
إن استواءه كما قد أخبرا … ولا كما في القلب يا ذا خطرا

[١] قول الإمام مالك رحمه الله :

[ش] : عن ابن وهب قال : كنت عند مالك فدخل رجل فقال : يا أبا عبد الله ﴿ **الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ⑤ ﴾ [طه : ٥] كيف استوى ؟ .

فأطرق مالك وأخذته الرحضاء ، ثم رفع رأسه فقال :﴿ **الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ⑤ ﴾ ، كما وصف نفسه ولا يقال : كيف ؟ ، وكيف عنه مرفوع ، وأنت صاحب بدعة ، أخرجوه . وروى يحيى ابن يحيى التميمي ، وجعفر بن عبد الله ، وطائفة قالوا : جاء رجل إلى مالك فقال : يا أبا عبد الله﴿ **الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ**

اسْتَوَىٰ ﴾ كيف استوى ؟ ، قال : فما رأيت مالكًا وجد من شيء كموجدته من مقالته ، وعلاه الرحضاء - يعني العرق - وأطرق القوم ، فسرِّي عن مالك وقال : الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وإني أخاف أن تكون ضالاً ، وأمر به فأخرج .

[٢] قول الإمام الشافعي - رحمه الله -:

قال الإمام ابن الإمام عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي :

حدثنا أبو شعيب وأبو ثور عن الشافعي - رحمه الله - قال : القول في السُّنَّة التي أنا عليها ، ورأيت أصحابنا عليها ،أهل الحديث الذين رأيتهم ، وأخذت عنهم ، مثل سفيان ومالك وغيرهما ، الإقرار بشهادة : أن لا إله إلا الله ، وأن محمد رسول الله، وأن الله تعالى على عرشه في سمائه ، يقرب من خلقه كيف شاء ، وأن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء .

وصح عن الشافعي أنه قال : خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه حق قضاها الله في سمائه ، وجمع عليها قلوب عباده ، ومعلوم أن المقضي في الأرض ، والقضاء فعله سبحانه وتعالى المتضمن لمشيئته وقدرته .

[٣] قوم الإمام أبي حنيفة - رحمه الله -:

قال - رحمه الله - : من قال : لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض فقد كفر ، لأن الله يقول :﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ ، وعرشه فوق سبع سموات ، قلت [١] : فإن قال : إنه على العرش ، لكن يقول : لا أدري العرش في السماء أم في الأرض ، قال : هو كافر ، لأنه أنكر أن يكون في السماء ، وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل [٢] .

---

(١) أي قال : أبو مطيع البلخي لأبي حنيفة .

(٢) وقال الإمام أبو حنيفة في الفقه الأكبر: وله يد، ووجه ، ونفس ، كما ذكر الله في القرآن من الوجه، واليد ، والنفس ، والعين ، فهو له صفات بلا كيف ، ولا يقال : إن يده قدرته أو نعمته ، وإن وجهه ذاته ، وعينه بصره ، واستواؤه على العرش استيلاؤه ، لأن فيه إبطال الصفة ، وهو قول أهل القدر والاعتزال ، ولكن يده صفة بلا كيف ، وغضبه ورضاه صفات من صفاته بلا كيف .

[٤] قول الإمام أحمد - رحمه الله -:

روي عن الإمام أحمد أنه قال : استوى كما أخبر ، لا كما يخطر على قلب البشر قال الميموني : سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل عمن قال : الله ليس على العرش ، فقال : كلامهم كله يدور على الكفر .

وقال الإمام في كتابه « الرد على الجهمية » ، الذي رواه عنه الخلال من طريق ابنه عبد الله قال :

باب بيان ما أنكرت الجهمية أن يكون الله تعالى على العرش :

قال تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ ، قلنا لهم : ما أنكرتم أن يكون الله تعالى على العرش ، وقد قال تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ ، فقالوا : هو تحت الأرض السابعة ، كما هو على العرش ، وفي السموات والأرض ، وفي كل مكان ، وتلا ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ .

قال أحمد : فقلنا : قد عرف المسلمون أماكن ليس فيها من عظمة الرب شيء ، أجسامكم ، وأجوافكم ، والحشوش ، والأماكن القذرة ، ليست فيها من عظمة الرب شيء .

وقد أخبرنا الله سبحانه أنه في السماء ، فقال تعالى : ﴿ **أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ** ﴾ [الملك : ١٦ ، ١٧] ، وقال تعالى : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ** ﴾ [فاطر : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ** ﴾ [آل عمران : ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ **بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ** ﴾ [النساء : ١٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ** ﴾ [النحل : ٥٠] .

[٥] قول ربيعة بن عبد الرحمن شيخ الإمام مالك :

عن ابن عيينة قال : سئل ربيعة عن قوله تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ ، قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق [١] .

---

(١) يروى مثل هذا القول عن أم سلمة رضي الله عنها .

[٦] قول عبد الله المبارك - رحمه الله -:

روى الدارمي ، والحاكم ، والبيهقي ، وغيرهم بأصح إسناد إلى عليّ بن الحسن بن شقيق قال : سمعت عبد الله بن المبارك يقول :

نعرف ربنا بأنه فوق سبع سموات على العرش استوى ، بائن من خلقه ، ولا نقول كما قالت الجهمية .

وفي لفظ آخر: قلت : كيف نعرف ربنا ؟ ، قال : في السماء السابعة على عرشه ، ولا نقول كما قالت الجهمية (١) .

---

(١) من كتاب « الجيوش الإسلامية » .

أقوال كبار أصحاب الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى

أولاً : أصحاب الإمام أبي حنيفة - رحمه الله -:

[١] محمد بن الحسن ـ رحمه الله ـ :

نقل أبو القاسم هبة الله اللالكائي ، والشيخ موفق الدين المقدسي ، وغيرهما بالإسناد ، عن عبد الله بن أبي حنيفة الدبوسي قال : سمعت محمد بن الحسن يقول : اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عز وجل ، من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه ، فمن فسر شيئًا من ذلك فقد خرج مما كان عليه النَّبي ﷺ ، وفارق الجماعة ، لأنه وصفه بصفة لا شيء .

[٢] الطحاوي ـ رحمه الله ـ :

قال ـ رحمه الله ـ في عقيدته ـ بعد الحمدلة والصلاة على الرسول ﷺ : هذا ذكر بيان اعتقاد أهل السُنَّة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة النعمان بن ثابت وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم ، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني ، وما يعتقدون في أصول الدين ، ويدينون به رب العالمين ، نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله : إن الله تعالى تبارك اسمه وجلّ ثناؤه واحد لا شريك له ، ولا شيء مثله يعجزه ولا إله غيره ، قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء ـ إلى أن قال : ـ والرؤية لأهل الجنة حق بغير إحاطة ولا كيفية ، وكل ما في ذلك من الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال ، ومعناه على ما أراد ، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ، ولا يثبت قدم الإسلام إلا علي ظهر التسليم والاستسلام ، ومن لم يتوق النفي والتشبيه زلّ ولم يصب التنزيه ـ ثم ساق كلامًا طويلاً ـ وقال بعد ذلك : والعرش والكرسي حق كما بين في كتابه ، وهو جل جلاله مستغن عن العرش وما دونه ، محيط بكل شيء وفوقه ، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه . أ . هـ .

[٣] قول ملا علي القاري - رحمه الله - :

قال في كتابه « ضوء المعالي شرح بدء الأمالي » تحت قول الناظم :

ورب العــرش فــوق العــرش لكن بلا وصف التــمكن واتصــال[١]

قال الشارح : رب العرش ، أي : خالقه ومالكه ، والإضافة للتشريف ، كرب البيت ورب جبريل ، وهو أعظم المخلوقات ، ومحيط بالموجودات ، وقد قال سبحانه : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] ، ومذهب الخلف جواز تأويل الاستواء بالاستيلاء [٢] ، ومختار السلف عدم التأويل ، بل اعتقاد التنزيل مع وصف التنزيه له سبحانه عما يوجب التشبيه ، وتفويض الأمر إلى الله [٣] ، وعلمه في المراد به ، كما قال الإمام مالك : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ،

---

(١) نفي عدم التمكن والاتصال لم يرد عن السلف الصالح ، وإنما الوارد عن ابن المبارك وأضرابه من علماء السلف : استوى على عرشه ، بائن من خلقه ، ولا ينبغي أن يزاد عما ورد ، وإن كان القائل يقصد معنى صحيحًا .

(٢) **قال الشارح في شرح الفقه الأكبر :** إن السلف سلموا، والخلف أوَّلوا، وتوسط ابن دقيق العيد فقال : « نقبل التأويل إذا كان المعنى الذي أول به قريبًا ومفهومًا من تخاطب العرب ، ونتوقف فيه إذا كان بعيدًا » .

وجرى ابن الهمام على التوسط بين أن تدعو الحاجة إلى التأويل بخلل في فهم وبين ألا تدعو الحاجة لذلك المرام ، بحسب اختلاف المقام . أ . هـ .

أقول : لا ينطبق قول ابن دقيق العيد على تأويل الاستواء بالاستيلاء ، لأن المفهوم من تخاطب العرب أنه بمعنى العلو والارتفاع أو الصعود والاستقرار ، وليس الاستيلاء مما أرادت به العرب ، لأن معناه فاسد كما سبق ، وبيت « قد استوى بشر على العراق » ، مولد محدث لا يحتج به ، وقد أبطل فطاحل العلماء تفسير الاستواء بالاستيلاء ، وأما ما قاله ابن الهمام في التوسط ، بين أن تدعو الحاجة ... إلخ ، فأي حاجة إلى التأويل هنا ؟ ، وأي محذور في علو الله على خلقه مع نفي المماثلة والتشبيه؟؟ ، بل المحذور والضلال في نفي العلو ، فتبين ولا تغتر بعباراتهم المزخرفة التي يتبع فيها الآخر الأول من غير وعي وتدبر .

(٣) هذا فرق بين التفويض وإثبات الاستواء ، فعبارة الإمام مالك قال : الكيف مجهول ، ولم يقل : الاستواء مفوض علمه ، بل الاستواء معروف في لغة العرب بمعنى العلو والارتفاع ، والكيفية هي المجهولة ، وتعبير الشيخ علي القاري غير دقيق ، فتنبه لأن الكثيرين ممن يريدون نقل مذهب السلف أو يريدون أن يقولوا : إننا على مذهب السلف في العقيدة ، يظنون أن تفويض معنى الصفات هو مذهب السلف ، وليس الأمر كذلك ، بل نؤمن بمعنى الصفات كالاستواء والوجه ، ونثبته ونفوض الكيفية لأن الكيفية هي المجهولة ، لأنه كما لا يعلم كنه ذاته جل وعلا ، فكذلك لا يعلم كنه صفاته جل وعلا ، وسيأتي بيان تفصيل في باب مستقل في بيان أخطاء المتكلمين .

والإيمان به واجب .

واختاره إمامنا الأعظم ، وكذا كل ما ورد من الآيات والأحاديث المتشابهات من ذكر اليد والعين والوجه ونحوها من الصفات ، ومنه لفظ فوق في قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ** ﴾ [الأنعام : ١٨ – ٨٨] ، وفي قوله تعالى : ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ** ﴾ [النحل : ٥٠] ، فلا يؤولونه بالعظمة والرفعة كما قال به الخلف . أ . هـ .

ثانياً : أصحاب الإمام مالك ـ رحمه الله ـ :

[١] قول أبي زيد القيرواني ـ رحمه الله ـ :

مؤلف الرسالة في مذهب الإمام مالك : وقول شارحه أبي بكر ابن محمد بن وهب المالكي ، قال رحمه الله :

أما قوله : ـ أي الماتن ـ إنه فوق عرشه المجيد بذاته ، فإن معنى فوق وعلا عند جميع العرب واحد ، وفي كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ تصديق ذلك ، ثم ساق الآيات في إثبات العلو وحديث الجارية إلى أن قال : وقد تأتي « في » في لغة العرب ، بمعنى فوق ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا** ﴾ [الملك : ١٥] يريد فوقها وعليها .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ **وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ** ﴾ [طه : ٧١] ، يريد عليها ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ **أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ** ﴾ .

[تبارك : ١٦] .

قال أهل التأويل العالمون بلغة العرب : يريد فوقها وهو قول مالك مما فهمه عن جماعة ممن أدرك من التابعين مما فهموه عن الصحابة ﷺ مما فهموه عن النَّبي ﷺ إن الله في السماء ، بمعنى فوقها وعليها .

فلذلك قال الشيخ أبو محمد :

إنه فوق عرشه المجيد بذاته ، ثم بين أن علوه على عرشه إنما هو بذاته ، لأنه بائن عن جميع خلقه بلا كيف ، وهو في كل مكان من الأماكن المخلوقة بعلمه لا بذاته ، إذ لا تحويه الأماكن لأنه أعظم منها ـ إلى أن قال ـ : وقوله : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ**

استَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] فإن معناه عند أهل السُّنَّة على غير الاستيلاء والقهر والغلبة والملك الذي ظنته المعتزلة ومن قال بقولهم : إنه بمعنى الاستيلاء ، وبعضهم يقول : إنه على المجاز دون الحقيقة ، ويبين سوء تأويلهم في استوائه على عرشه على غير ما تأولوه من الاستيلاء وغيره ما قد علمه أهل العقول أنه لم يزل مستوليًا على جميع مخلوقاته بعد اختراعه لها ، وكان العرش وغيره في ذلك سواء .

فلا معنى لتأويلهم بإفراد العرش بالاستواء ، الذي هو في تأويلهم الفاسد استيلاء وقهر وغلبة ، ثم قال ما معناه : إفراد ذكره بالاستواء على عرشه بعد خلقه سمواته وأرضه ، وتخصيصه بصفة الاستواء يبين سوء تأويلهم وقبح سبيلهم . أ . هـ .

[٢] قول القاضي عبد الوهاب : إمام المالكية بالعراق من كبار أهل السُّنَّة :

صرح بأن الله سبحانه استوى على عرشه بذاته ، نقله شيخ الإسلام عنه في غير موضع من كتبه ، ونقله عنه القرطبي في شرح الأسماء الحسنى .

[٣] قول الإمام الحافظ أبي عمر بن عبد البر :

قال في كتاب التمهيد في شرح الحديث الثامن لابن شهاب :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ : « **ينزل ربنا في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر** » .

هذا الحديث ثابت من جهة النقل ، صحيح الإسناد ، لا يختلف أهل الحديث في صحته ، وفيه دليل على أن الله في السماء على العرش ، من فوق سبع سموات ، كما قالت الجماعة ، وهو حجة على المعتزلة والجهمية في قولهم : « إن الله في كل مكان ، وليس على العرش » .

ثم ساق آيات كثيرة في الاستواء وفي العلو ، ورد على من قال : إنه بمعنى استولى ، بأنه مخالف للغة العربية ، وساق حججًا كثيرة من اللغة ومن النقل ، ورد شبههم في مثل قوله : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ** ﴾ .
[الزخرف : ٨٤] .

وقد أطال الحافظ ابن القيم في النقل عنه .

[٤] قول ابن رشد المالكي المغربي قاضي القضاة في عصره :

قال : القول في الجهة ، « وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يثبتونها لله تعالى ، حتى نفتها المعتزلة ثم تبعهم على نفيها متأخرو الأشعرية » .

وظواهر الشرع كلها تقتضي إثبات الجهة ، إلى أن قال : إلى غير ذلك من الآيات التي إن سلط التأويل عليها ، عاد كله مؤولاً ، وإن قيل فيها : إنها من المتشابهات ، عاد الشرع كله متشابهًا ، لأن الشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء ، وأن منه تنزل الملائكة بالوحي إلى النَّبيين ، وأن من السماء نزلت الكتب ، وإليها كان المعراج بالنبي ﷺ وجميع الحكماء قد اتفقوا أن الله والملائكة في السماء ، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك . أ . هـ .

وقد ابتدعت المعطلة كلمات أدخلوها في باب تنزيه الله تعالى عن مماثلة المخلوقين، فقالوا بنفي الجسمية ، ونفي الجهة والتحيز ونحو ذلك من الألفاظ المبتدعة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في التدمرية :

وما تنازع فيه المتأخرون نفيًا وإثباتًا فليس على أحد ، بل ولا له أن يوافق أحدًا على إثبات لفظه أو نفيه ، حتى يعرف مراده ، فإن أراد حقًا قُبِلَ ، وإن أراد باطلاً رد ، وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقًا ، ولم يرد جميع معناه ، بل يوقف اللفظ ويفسر المعنى .

قوله : فلفظ الجهة قد يراد به شيء موجود غير الله فيكون مخلوقًا ، كما إذا أريد بالجهة نفس العرش أو نفس السموات ، وقد يراد به ما ليس بموجود غير الله تعالى ، كما إذا أريد بالجهة ما فوق العالم ، ومعلوم أنه ليس في النص إثبات لفظ الجهة ولا نفيه ، كما فيه إثبات العلو والاستواء والفوقية والعروج إليه ونحو ذلك ، وقد علم أن ما ثم موجود إلا الخالق والمخلوق ، والخالق مباين للمخلوق ـ سبحانه وتعالى ـ ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته .

[ش] : يقول المؤلف :

لفظ الجهة قد يراد به أمر وجودي مخلوق ، كما إذا أريد به الأجرام السماوية أو

العرش ، وقد يراد به أمر عدمي ، كما إذا أريد به ما فوق العالم ، ولفظ الجهة لم يرد في الكتاب ، ولا قاله الرسول ﷺ ، ولا تكلم به سلف الأمة ، وإنما الذي ورد وصف الله بالعلو على خلقه ، واستوائه على عرشه ، وأنه تعرج إليه الملائكة والروح ، وقد علم أن ما في الوجود إلا الخالق والمخلوق .

قوله : فيقال لمن نفى : أتريد بالجهة أنها شيء موجود مخلوق ؟ ، فالله ليس داخلاً في المخلوقات ، أم تريد بالجهة ما وراء العالم ؟ ، فلا ريب أن الله فوق العالم مباين للمخلوقات .

وكذلك يقال لمن قال : « الله في جهة » ، أتريد بذلك أن الله فوق العالم ؟ ، أو تريد أن الله داخل في شيء من المخلوقات ؟ ، فإن أردت الأول فهو حق ، وإن أردت الثاني فهو باطل .

وكذلك لفظ التحيز : إن أراد به أن الله تحوزه المخلوقات ، فالله أعظم وأكبر ، بل قد وسع كرسيه السموات والأرض ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** ﴾ [الزمر : ٦٧] .

وقد ثبت في الصحاح عن النَّبي ﷺ أنه قال : « **يقبض الله الأرض ويطوي السموات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟** » .

وفي حديث آخر : « **وإنه ليدحوها كما يدحو الصبيان بالكرة** » .

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما : « **ما السموات السبع ، والأرضون السبع ومن فيهن ، في يد الرحمن ، إلا كخردلة في يد أحدكم** » .

وإن أراد به أنه منحاز عن المخلوقات ، أي مباين لها ، منفصل عنها ، ليس حالاً فيها ، فهو سبحانه كما قال أئمة السُنَّة : فوق سمواته على عرشه ، بائن من خلقه . أ .هـ [١] .

ومما سلف يتجلى لنا أن قول ابن رشد بإثبات الجهة ، يريد بالجهة ما فوق العالم ، وأن الله على عرشه ،لا يريد شيئًا موجودًا غير الله فيكون مخلوقًا ، تعالى الله عن ذلك.

(١) من « التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية » للشيخ فالح بن مهدي آل مهدي (ص١١٤–١١٥) .

فتأويل المعطلة في لفظ الجهة ، وأنها تدل على الجسمية ،حتى قال بعضهم لما قدم بغداد ما معناه : كنت أقول في الجهة حتى قدمت بغداد فأسلمت إسلامًا جديداً ، يعني أنه لما نفى عن الله علوه على خلقه ومباينته لمخلوقاته ، سمى هذا النفي وهذا التعطيل لصفة علو الله تعالى على خلقه إسلامًا جديداً ـ أعوذ بالله من غضبه ـ .

ومن هذه الأقوال الباطلة التي تسبك بسبك التوحيد المحض ، الذي هو في الحقيقة تعطيل محض لصفة العلو سبحانه وتعالى ، يأخذك العجب أن يقول مثل هذا القول رجل عالم ، أما قرأ الآيات والأحاديث الدالة على العلو ؟ .

ولو فرضنا أن الآيات التي بها الاستواء والعلو قد تفسر بالمجاز الذي لجأوا إليه ، أما كان من الواجب على النَّبي ﷺ أن يبيِّن تفسيرها لئلا تشتبه على الناس معانيها فيقعون في التجسيم والتمثيل ؟ ، تعالى الله عن ذلك .

لم يفسر النَّبي ﷺ تلك الآيات كما أراد المعطلة ، بل زادها تأكيداً وإثباتًا في أحاديث عدة ، كما في حديث الجارية الخرساء ، قال لها : « **أين الله ؟** » ، قالت : في السماء ، قال : « **اعتقها فإنها مؤمنة** » .

وقوله ﷺ : « **ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ؟** » ، إلى غير ذلك من الأحاديث ، أسأل الله لي الهداية ولجميع المسلمين .

ومن أقوال [1] المعطلة المبتدعة نفي الجسمية ، فإنه مما حصل النزاع في إثباته لله ونفيه عنه ، وبيان كيفية استفسار النافي له أو المثبت أن يقال له : ما مرادك بالجسم ؟ .

فإن قال : أردت بالجسم معناه في لغة العرب ؛ وهو البدن الكثيف الذي لا يسمى في اللغة جسم سواه،فهذا المعنى منفي عن الله سبحانه وتعالى عقلاً وسمعًا .

وإن قال : أردت به المركب من المادة والصورة ، أو المركب من الجواهر الفردة ، فهذا منفي عن الله قطعًا ، والصواب نفيه من الممكنات أيضًا ، فليس الجسم المخلوق مركبًا من هذه ولا من هذه .

---

(١) بدء الكلام من « التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية » .

وإن قال : أردت بالجسم ما يوصف بالصفات ، وتمكن رؤيته بالإبصار ، ويتكلم بكلام ، ويسمع ، ويبصر ، ويرضى ، ويغضب ، فهذه المعاني ثابتة لله تعالى ، وهو موصوف بها ، فلا ننفيها عنه لتسمية النفاة للموصوف به جسماً .

وإن قال : أردت بالجسم ما يشار إليه إشارة حسية ، فقد أشار أعرف الخلق بالله تعالى بأصبعه رافعًا لها إلى السماء بمشهد الجمع الأعظم ، مستقبل القبلة في حجة الوداع .

وإن قال : أدرت بالجسم ما يقال له : أين ؟ ، فقد سأل أعلم الخلق به بأين منبهًا على علوه على عرشه .

وإن قال : أردت بالجسم ما يلحقه من والي ، فقد نزل جبريل عليه السلام من عنده تعالى ، وعرج برسول الله ﷺ ، وإليه يصعد الكلم الطيب ، وعبده عيسى بن مريم رُفِعَ إليه . أ . هـ . [١] .

ثالثًا : أصحاب الإمام الشافعي - رحمه الله - :

[١] قول الإمام المزني ـ رحمه الله ـ :

قال في رسالته : « في السُّنَّة » التي رواها أبو طاهر السلفي عنه بإسناده :

بسم الله الرحمن الرحيم

عصمنا الله وإياكم بالتقوى ووفقنا وإياكم لموافقة الهدى ، ثم ذكر أنه سأله سائل أن يوضح له من السُّنَّة ، ما يصلح به التمسك ، ويدرأ به عنه الشبه فقال :

الحمد لله أحق ما بدأ ، وأولى من شكر ، وعليه أثني ، الواحد الصمد ، ليس له صاحبة ولا ولد ، جل عن المثيل ، ولا شبيه له ولا عديل ، السميع البصير ، العليم الخبير ، المنيع الرفيع ، عال على عرشه ، وهو دان بعلمه من خلقه ، أحاط علمه بالأمور ، ونفذ في خلقه سابق المقدور .

وذهب في كلامه يصف كثيراً من عقائد أهل السُّنَّة والجماعة إلى أن قال :

« جلت صفاته عن شبه المخلوقين ، وقصرت عنه نظر الواصفين ، قريب بالإجابة

---

(١) المصدر السابق .

عند السؤال ، بعيد بالبعد الذي لا ينال ، عال على عرشه ، بائن من خلقه ، موجود ليس بمعدوم ولا مفقود » . أ . هـ (١) .

[٢] قول الإمام ابن خزيمة ـ رحمه الله ـ :

قال : نحن نؤمن بخبر الله جل وعلا ، أن خالقنا مستوٍ على عرشه ، لا نبدل كلام الله ، ولا نقول قولاً غير الذي قيل لنا ، كما قالت المعطلة الجهمية : إن استولى على عرشه لا استوي ، فبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم ، كفعل اليهود لما أمروا أن يقولوا : حطة ، فقالوا : حنطة ، مخالفين ، لأمر الله جل وعلا ، كذلك الجهمية .

وقال ـ بعد أن سرد الأخبار الدالة على معراج الرسول ﷺ إلى السماء السابعة ـ :

وفي الأخبار دلالة واضحة أن النَّبي ﷺ عُرِجَ به من الدنيا إلى السماء السابعة ، وأن الله تعالى فرض عليه الصلوات على ما جاء في الأخبار كلها ، فتلك الأخبار دالة على أن الخالق البارئ فوق سبع سموات ، لا على ما زعمت المعطّلة أن معبودهم في منازلهم وكنفهم على ما هو على عرشه قد استوى . أ . هـ (٢) .

[٣] قول الإمام البيهقي ـ رحمه لله ـ :

قال : باب « القول في الاستواء » ، قال الله تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ [طه : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ [الفرقان : ٥٩] ، وقال تعالى : ﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ** ﴾ [الأنعام : ١٨ – ٨٨] . ، وقال تعالى : ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ** ﴾ [النحل : ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ** ﴾ [فاطر : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ **أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ** ﴾ [الملك : ١٦] ، وأراد من فوق السماء .

كما قال تعالى : ﴿ **فِي جُذُوعِ النَّخْلِ** ﴾ [طه : ٧١] ، وقال تعالى : ﴿ **فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ** ﴾ [التوبة : ٢] ، أي : على الأرض ، وكل ما علا فهو سماء ، والعرش أعلا السموات .

---

(١) ملخصاً من كتاب « اجتماع الجيوش الإسلامية » .
(٢) من كتاب « ترجمة صاحب التوحيد » ، وإثبات صفات الرب (ص ٦٨ – ٧٩] .

فمعنى الآية : أأمنتم من على العرش ، كما صرح به في سائر الآيات ، وفيما كتبناه من الآيات دلالة على إبطال قول من زعم من الجهمية بأن الله بذاته في كل مكان ، وقوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ** ﴾ [الحديد : ٤] إنما أراد بعلمه لا بذاته أ . هـ . (١) .

[٤] قول الحافظ ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ :

أطنب في شرحه فتح الباري في تفسير آية الاستواء، ونقل عن إسماعيل الهروي، وابن الأعرابي ، وأبي عبيد، والفراء ، ومحمد ابن الحسن ، وسفيان الثوري ، وشعبة ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وأبي عوانة ، وغيرهم من علماء السلف ، وسائر الأئمة الأربعة ، وإسحاق بن راهوية ، وابن المبارك ، بأنهم متفقون على إجراء ظواهر آيات الصفات وأحاديثها وتفويض معنى الكيفية .

كما نقل عن ابن عبد البر ، وإمام الحرمين ، وغيرهما من أئمة أهل السُنَّة ، اختيار مذهب السلف ، والإنكفاف عن التأويل .

نقل الحافظ عن ابن بطال ، الناقل عن أولئك الأجلاء ، نقل مصدق وموافق ومعتقد بذلك ، وقد نقل عن ابن بطال رد قول الجهمية والمعتزلة في تفسير الآية مؤكداً مذهب السلف ، وكفى بالحافظ العسقلاني علمًا ، وفضلاً ، وحفظًا ، وهو من أعلام المحدثين والشافعية .

رابعًا : أصحاب الإمام أحمد- رحمه الله - :

أما علماء الحنابلة من زمن الإمام أحمد إلى يومنا هذا ، فهم الذي حملوا لواء هذا المعتقد الصحيح تبعًا لإمامهم ، ونشروه بين المسلمين ، ووقعت بينهم وبين أرباب المذاهب الأخرى مناظرات سجلها التاريخ ، وكلهم على هذا المعتقد ، سوى أفراد قليلين قد نسبوا إلى تأويل بعض آيات الصفات ، ولكن الكثرة الكاثرة منهم قد تقيدوا بالكتاب والسُنَّة وبمعتقد الصحابة والتابعين وتابعيهم والأئمة المهتدين ، الذين أحيا الله بهم أهل الشريعة الغراء ، وأمات بهم أهل البدع والأهواء .

---

(١) من كتاب « العلو » للذهبي ، نقلاً عنه في كتابه « المعتقد » .

ونحن أغنياء عن النقل عنهم لشهرتهم في هذا العلم الشريف ، ولكن لا بأس أن نذكر بعضاً على سبيل المثال ، لأن كثيرين من أهل البدع والضلال يزعمون أن الحنابلة النجديين ليسوا على معتقد الحنابلة السالفين ، لكونهم اجتهدوا في نشر توحيد الألوهية ، ونشر توحيد الأسماء والصفات ، ما لم يجتهد ويبذل وسعه أكثر أتباع المذاهب الأخرى .

فإلى القارىء الكريم كلام بعض كبار علماء الحنابلة ممن كانوا في القرون السالفة قبل أن يولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله وأجزل له الأجر والثواب ـ لتكون على بينة من الأمر ، وتعرف حقيقة الحال ، ولا تغتر بما يروجه بعض المتجاهلين أو الجهال (١) .

---

(١) عقيدة إن الله فوق العرش ، وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا ، إلى غير ذلك من الصفات عقيدة الوهابية ، وإن ذلك يستلزم التجسيم والتشبيه ، وإن الأئمة المعتبرين لم يقولوا بهذا فاعلم : إننا قد سقنا من النقول من الآيات والأحاديث ، وعن الصحابة والتابعين وتابعيهم من الأئمة المهتدين ، وأتباع المذاهب المعتبرين ، ما يرد هذا القول الساقط ويبطله ، وأنقل لك بالنص زيادة من كلام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ـ أجزل الله له الثواب ـ الذي قام بالدعوة السلفية ، والرجوع إلى الكتاب والسُّنَّة ، وترك التأويل في الأسماء والصفات ، وترك عبادة الأموات والأشجار في توحيد العبودية ، لتعلم أن عقيدته كعقيدة الأئمة المعتبرين ، الأئمة الأربعة ونظرائهم من أعلام المسلمين ـ رحمه الله عليهم أجمعين ـ .

قال رحمه الله في رسالته في الأسماء والصفات :

بعد البسملة والحمدلة : الذي نعتقد وندين لله به ، وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين ، والتابعين لهم بإحسان من الأئمة الأربعة وأصحابهم ﷺ ، وهو الإيمان بآيات الصفات وأحاديثها ، والإقرار بها وإمرارها كما جاءت من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** (١١٥) ﴾ [النساء : ١١٥] ، وقدر الله لأصحاب نبيه ومن تبعهم بإحسان الإيمان ، فعلم قطعاً أنهم المرادون بالآية الكريمة ، وقال الله : ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ** ﴾ [التوبة : ١٠٠] ، وقال الله تعالى : ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** ﴾ [الفتح : ١٨] ، فثبت بالكتاب أن من اتبع سبيلهم فهو على الحق ، ومن خالفهم فهو على الباطل ، فمن سبيلهم في الاعتقاد : الإيمان بصفات الله وأسمائه التي وصف بها نفسه ، وسمى بها نفسه ، في كتابه وتنزيله ، أو على لسان رسوله ﷺ ، من غير زيادة عليها ولا نقصان منها ولا تجاوز لها ، ولا تفسير ولا تأويل بما يخالف ظاهرها ، ولا تشبه بصفات المخلوقين ، بل أقروها كما جاءت ، وردوا علمها إلى قائلها ، =

[١] الإمام موفق الدين عبد الله بن محمد بن قدامة [(١)] :

قال بعد البسملة والحمدلة : له الأسماء الحسنى والصفات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، أحاط بكل شيء علمًا ، وقهر كل مخلوق عزة وحكمًا ، ووسع كل شيء رحمة وعلمًا ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علمًا ، موصوف بما وصف به نفسه في كتابه العظيم ، وعلى لسان نبيه الكريم ، وكل ما جاء في القرآن ، أو صح عن المصطفى عليه الصلاة والسلام من صفات الرحمن ، وجب الإيمان به وتلقيه بالتسليم والقبول ، وترك التعرض له بالرد والتأويل والتشبيه والتمثيل ، وما أُشكل من ذلك

= ومعناها إلى المتكلم بها وأخذ ذلك الآخر عن الأول ، ووصى بعضهم بعضًا بحسن الاتباع ، وحذرونا من اتباع طريق أهل البدع والاختلاف ، الذين قال الله فيهم ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام : ١٥٩] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** (١٠٥) ﴾ [آل عمران : ١٠٥] .

والدليل على أن مذهبهم ما ذكرنا : أنهم نقلوا إلينا القرآن العظيم وأخبار رسول الله ﷺ نقل مصدق لها ، مؤمن بها ، قابل لها ، غير مرتاب فيها ، ولا شاك في صدق قائلها ، ولم يؤولوا ما يتعلق بالصفات منها ، ولم يشبهوه بصفات المخلوقين ، إذ لو فعلوا شيئًا من ذلك لنقل عنهم ، بل زجروا من سأل عن المتشابه ، وبالغوا في كفه تارة بالقول العنيف وتارة بالضرب ، ولما سئل مالك عن الاستواء أجاب بمقالته المشهورة ، وأمر بإخراج الرجل ، وهذا الجواب من مالك في الاستواء شاف كاف في جميع الصفات ، مثل النزول والمجيء ، واليد والوجه وغيرها ، فيقال في النزول : النزول معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وهذا يُقال في سائر الصفات ، إذ هي بمثابة الاستواء الوارد به الكتاب والسُّنَّة .

فمذهب السلف - رحمة الله عليهم - إثبات الصفات وإجراؤها على ظاهرها ، ونفي الكيفية عنها ، لأن الكلام في الصفات فرع من الكلام في الذات ، كما أن إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية ولا تشبيه ، فكذلك الصفات ، وعلى هذا مضى السلف كلهم ، ولو ذهبنا نذكر ما اطلعنا عليه من كلام السلف في ذلك لطال الكلام جدًا .

فمن كان قصده الحق وإظهار الصواب اكتفى بما قدمناه ، ومن كان قصده الجدال والقيل والقال ، لم يزده التطويل إلا الخروج عن سواء السبيل ، والله الموفق . أ . هـ . من ترجمة الشيخ للمؤلف (ص ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠) .

فهل يبقى بعد هذا قول لقائل : إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - كان مبتدعًا في عقيدته - برأه الله - هدانا الله وإياهم إلى سواء السبيل .

(١) من رسالته « لمعة الاعتقاد » ، وقد توفي في سنة ٦٢٠هـ .

وجب إثباته لفظًا ، وترك التعرض لمعناه ، ونرد علمه إلى قائله ، ونجعل عهدته على ناقله ، اتباعًا لطريق الراسخين في العلم ، الذين أثنى الله عليهم في كتابه المبين بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾[آل عمران : ٧] .

وقال تعالى في ذم مبتغي التأويل لمتشابه تنزيله : ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران : ٧] .

فجعل ابتغاء التأويل علامة على الزيغ ،وقرنه بابتغاء الفتنة والذم،ثم حجبهم عما أملوه ، وقطع أطماعهم عما قصدوه ، بقوله سبحانه : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ .

قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ في قول النَّبي ﷺ : « **إن الله ينزل إلى سماء الدنيا** ، **وإن الله يرى في القيامة** » . وما أشبه .

هذه الأحاديث نؤمن بها ، ونصدق بها ، لا كيف ولا معنى ، ولا نرد شيئًا منها ، ونعلم أن ما جاء به الرسول حق ، ولا نرد على رسول الله ﷺ ، ولا نصف الله بأكثر مما وصف به نفسه بلا حد ولا غاية ، فقال تعالى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾[الشورى : ١١] ، ونقول كما قال تبارك وتعالى ، ونصفه بما وصف به نفسه لا نتعدى ذلك ، ولا يبلغه وصف الواصفين ، نؤمن بالقرآن كله ، محكمه ومتشابه ، ولا نزيل عنه صفة من صفاته لشناعة شنعت ، ولا نتعدى القرآن والحديث ، ولا نعلم كيف كنه ذلك إلا بتصديق الرسول ﷺ وتثبيت القرآن .

[٢] قول القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء البغدادي :

قال في كتاب « إبطال التأويل » :

لا يجوز رد هذه الأخبار ولا التشاغل بتأويلها ، والواجب حملها على ظاهرها ، وأنها صفات لله عز وجل ، ولا تشبه بسائر صفات الموصوفين بها من الخلق ، ويدل على إبطال التأويل أن الصحابة ﷺ ومن بعدهم حملوها على ظاهرها ، ولم يتعرضوا لتأويلها ولا صرفها عن ظاهرها ، فلو كان التأويل سائغًا لكانوا إليه أسبق ، لما فيه من

إزالة التشبيه ، يعني على زعم من قال : إن ظاهرها تشبيه .

ثم قال : ـ بعد أن ذكر حديث الجارية ـ : الكلام في هذا الخبر في فصلين :

أحدهما : جواز السؤال عن الله سبحانه بأين هو ؟ .

والثاني : جواز الإخبار عنه بأنه في السماء ، وقد أخبرنا تعالى أنه في السماء فقال : ﴿ **أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ** ﴾ وهو على العرش . أ . هـ .

[٣] قول شيخ الإسلام وقدوة الأنام ، العالم الرباني : تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني :

فقد سئل ـ رحمه الله تعالى ـ : ما قول السادة الفقهاء أئمة الدين في آيات الصفات كقوله تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ [طه : ٥] ، وقوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ [الفرقان : ٥٩] ، ، وقوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ** ﴾ [فصلت : ١١] ، إلى غير ذلك من الآيات .

وأحاديث الصفات ، كقوله ﷺ : « **إن قلوب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن** » ، وقوله ﷺ : « **يضع الجبار قدمه في النار** . . . » إلى غير ذلك .

فأجاب رحمه الله :

الحمد لله رب العالمين ، قولنا فيها ما قال الله ورسوله ، والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، وما قاله أئمة الهدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، وهذا هو الواجب على جميع الخلق في هذا الباب وغيره .

فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً بالهدى ودين الحق ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، وشهد له بأنه بعثه داعيًا إليه بإذنه وسراجًا منيرًا ، وأمره أن يقول : ﴿ **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

ثم ذكر وأطنب بما يشفي مرضى العقول والقلوب بالمنقول والمعقول، إلى أن قال : « فصل » : ثم القول الشامل في جميع هذا الباب ، أن يوصف الله بما وصف به نفسه

أو وصفه به رسوله ، وبما وصفه به السابقون الأولون ، لا يتجاوز القرآن والحديث .

فمذهب السلف بين التعطيل وبين التمثيل،فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه ، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه ، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، فلا يعطلون أسماءه الحسنى وصفاته العليا ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته .

والقول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط ، من أن الله مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله ويختص به ، كما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه سميع بصير ، ونحو ذلك .

ولا يجوز أن يثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التي لعلم المخلوقين وقدرتهم ، فكذلك هو سبحانه فوق العرش ، ولا يثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق وملزوماتها . أ . هـ [١] .

---

(١) ملخصًا من فتاوى الحموية ، وقد أطنب المؤلف ـ رحمه الله ـ وذكر أقوال أئمة السلف ، وأرباب المذاهب ، وأهل اللغة ، وألَّف رسائل كثيرة في هذا الباب ، كما أن لشيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ عقيدة مختصرة تسمى بالواسطية ، وقد وقعت عليها مناظرات بينه وبين علماء عصره في مجلسين أو ثلاث فلم يستطيعوا أن ينقضوا عقيدة مما حررها ، واستدل عليها بالآيات والأحاديث وأقوال السلف ، وأخيرًا خرج من المناظرة منتصراً والحمد لله .

وها أنذا أذكر لك نبذة من تلك العقيدة السُّنِّية التي يصرح فيها بأن الله ليس له شبيه ولا مثيل ولا ند ولا كفء ، وتبين كذب من نسب إلى الشيخ التشبيه والتمثيل ﴿ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾** ﴾ [الإسراء : ٤٣] ، وبرأ الله الشيخ مما نُسب إليه ، وهذه فرية عظيمة سيحاسبهم الله عليها ، إن لم يكونوا قد تابوا في حياتهم عن هذا البهتان العظيم .

قال الشيخ ـ رحمه الله ـ بعد البسملة والحمدلة :

أما بعد : فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السُّنَّة والجماعة ، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره ، ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه من غير تحريف في كتابه ، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل يؤمنون بأن الله سبحانه ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى : ١١] ، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ، ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ، لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفء له ، ولا ند له ، ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى ، فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثًا من خلقه ، ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا =

[٤] قول الحافظ ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

قد ألَّف كتابه الشهير « اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية » في إثبات الاستواء والعلو لله سبحانه وتعالى ، وقد أتى بالعجب العجاب ، وفند شبه أهل البدع والإرتياب ، وذكر من الآيات والأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم ، وأقوال علماء الحديث واللغة والصوفية والمتكلمين ، ما لا مزيد بعده لمستزيد ، وقد نقلنا كثيراً منه فيما سلف ، ولا حاجة إلى الاستزادة منه .

[٥] قول الشيخ مرعي الحنبلي ـ رحمه الله ـ :

في كتابه « أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات » (١) :

قال : وأما العلم بأنه تعالى استوى على العرش بعد خلقه السموات والأرض في ستة أيام ، فهذا سمعي علم بالوحي على الأنبياء ، فأخبروا عليهم الصلاة والسلام أممهم بذلك .

ثم نقل عن الشيخ عبد القادر من كتاب « الغنية في الفقه » قوله :

وهو تعالى بجهة العلو ، مستوٍ على العرش ، محتوٍ على الملك ، محيط علمه بالأشياء ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ [فاطر : ١٠] . أ . هـ .

= يعلمون ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾** ﴾ [الصافات : ١٨٠ – ١٨٢] ، فسبَّح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل ، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب ، وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات ، فلا عدول لأهل السُّنَّة والجماعة عما جاء به المرسلون ، فإنه الصراط المستقيم صراط الذي أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وقد دخل في هذه الجملة ما وصف الله به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن ، حيث يقول تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾** ﴾ [الإخلاص] .

ثم ذكر الشيخ الصفات : كالعلم والسمع والبصر والقدرة والحياء والحب والبغض واليد والنزول والوجه والاستواء والكلام وسائر الصفات ، والإيمان باليوم الآخر وبالقدر وبالحشر والنشر والشفاعة وغيرها مما يجب على المؤمن اتباعه ، مستدلاً على كل ذلك بآية أو بآيات من القرآن الكريم وبالأحاديث الصحيحة ، مما لم يدع مجالاً لمبتدع وملحد ، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً .

(١) نقلاً عن كتاب « لوامع الأنوار البهية » .

[٦] قول الشيخ محمد بن أحمد السفاريني في منظومته :

سبحانه قد استوى كما ورد   من غير كيف قد تعالى أن يحد

قال في شرحه :

قد استوى على عرشه من فوق سبع سمواته ، استواء يليق بذاته ، كما ورد في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والنصوص السلفية مما لا يحصى ، ويتعذر أن يستقصى ، وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسُنَّة رسوله ﷺ من أولها إلى آخرها ، ثم عامة الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ثم كلام سائر أئمة الدين ، ممن تلوى على كلامهم الخناصر ، ولا ينازع فيه إلا كل معاند ومكابر ، بأن الله مستوٍ على عرشه ، وبائن من خلقه .

ثم أسهب وأطنب ، وأجاد وأفاد مما ذكرنا أكثره . أ . هـ [١] .

(١) من كتاب « لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية » (جـ ١ ، ص ١٩٠) .

أقوال أهل الحديث
رحمهم الله

وراجع الصحيح للبخاري	لتعرف استواءه يا قاري
وهكذا قول الإمام مسلم	ذي الفضل والعلا وذي التقدم
قال الإمام الترمذي بجامع	عن بعض أهل العلم كن متابعي
الله فوق العرش علمه معًا	جميع خلقه فكن متبعًا

[ش] : [١] قول الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ :

قال في كتاب التوحيد من صحيحه : باب قول الله : ﴿ **وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ** ﴾ [هود : ٧] ، ﴿ **وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** ﴾ [التوبة : ١٢٩] .

قال أبو العالية : استوى إلى السماء : ارتفع ، فسوّاهن ، فخلقهن .

وقال مجاهد : استوى : علا على العرش .

ثم ساق البخاري حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها ـ وقد تقدم ـ وذكر تراجم أبواب هذا الكتاب ـ الذي هو كتاب التوحيد ـ ردًا على أقوال الجهمية التي خالفوا بها الأمة .

ثم ساق أحاديث مستدلاً بها على إثبات صفة العلم ، وإثبات صفة القدرة ، وأحاديث في إثبات اليدين ، وأحاديث في إثبات صفة الفوقية ، وهكذا تراجم هذا الكتاب بين آيات تثبت الصفات وأحاديث ، فليراجع القاريء إذا شاء ، وحيث تقدم النقل عن الحافظ ابن حجر العسقلاني وابن بطال ، فلا حاجة إلى الإعادة .

[٢] قول الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ :

يعرف قوله في السُّنَّة من سياق الأحاديث التي ذكرها ولم يتأولها ، كحديث الجارية الخرساء ، وأحاديث النزول ، وأحاديث الرؤية ، وحديث : « **المقسطون على**

منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين » ، وحديث : « **ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ؟** » ، وغيرها من أحاديث الصفات ، محتجًا بها غير مؤول لها ، ولو لم يكن معتقداً لمضمونها لفعل بها ما فعل المتأولون حين ذكرها .

[٣] قول الإمام أبي عيسى الترمذي ـ رحمه الله ـ :

قال ـ رحمه الله ـ في جامعه لما ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه : لو أدلى أحدكم بحبل لهبط على الله » [١] .

قال : معناه لهبط على علم الله، وقال: وعلم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان ، وهو على العرش كما وصف نفسه في كتابه .

[٤] قول الإمام ابن خزيمة ـ رحمه الله ـ :

نجل خزيمة التقي والورع	ومن لهدي الصالحين متبع
فلتقرأنَّ حكمه فيما سمع	بقتل كل منكر فلتتبع
علو ربنا العظيم الباري	من بعد ما استتيب لا تمار
وإنهم يلقون بعد القتل	فوق المزابل افهمن نقلي

[ش] : أفتى الإمام ابن خزيمة ـ رحمه الله ـ بأن من أنكر أن الله فوق عرشه يجب أن يُستتاب ، فإن تاب وإلا قُتِلَ مرتداً .

وقد شفى هذا الإمام الجليل بفتواه صدور قومٍ مؤمنين ، وأرسلها سيفًا مصلتًا على رقاب الزنادقة والمنحلين ، وقد حكى ذلك عنه في كتبه الحاكم أبو عبد الله النيسابوري صاحب المستدرك ، بما لا يدع مجالاً لشك ولا إنكار .

[٥] قول شيخ الإسلام ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

قال ابن القيم في نونيته ذاكراً عن إسحاق بن راهويه ، وابن المبارك ، وابن خزيمة ، وابن عبد البر قال : بعد أن ذكر جماعة من الأئمة :

وكذلك إسحاق الإمام فإنه	قد قال ما فيه هدى الحيران

(١) قد رواه الترمذي وغيره من حديث الحسن عن أبي هريرة وهو منقطع ، فإن الحسن لم يسمع من أبي هريرة ، وتأويله لو ثبت : لهبط على علم الله ، وسيأتي الكلام عليه في رد الشبهات النقلية .

وابن المبارك قال قولاً شافيًا ... إنكاره علم على البهتان
قالوا له ما ذاك نعرف ربنا ... حقًا به لنكون ذا إيمان
فأجاب نعرفه بوصف علوه ... فوق السماء مباين الأكوان
وبأنه سبحانه حقًا على ... العرش الرفيع فجل ذو السلطان
وهو الذي قد شجع ابن خزيمة إذ ... قد سل سيف الحق والعرفان
وقضى بقتل المنكرين علوه ... بعد استتابتهم من الكفران
وبأنهم يلقون بعد القتل فوق ... مزابل الميتان والأنتان
فشفى الإمام العالم الحبر الذي ... يدعى إمام أئمة الأزمان
ولقد حكاه الحاكم العدل الرضي ... في كتبه عنه بلا نكران
وحكى ابن عبد البر في تمهيده ... وكتاب الاستذكار غير جبان
إجماع أهل العلم أن الله فوق ... العرش بالإيضاح والبرهان
وأتى هناك بما شفى أهل الهدى ... لكنه مرض على العميان

فأقوال هؤلاء الأئمة الكرام واضحة وغنية عن التفسير والبيان ، وقد قدمنا ما أفتى به ابن خزيمة ، كما تقدم النقل عن ابن عبد البر عند النقل عن أصحاب الإمام مالك .

ولو ذهبنا نعد الأئمة وأصحابهم ، وعلماء الحديث وغيرهم ، لتطلب منا أجزاءً كثيرة ، وقصدنا الاختصار .

أقوال أئمة أهل الكلام

واقـرأ أخي مـقـال ذي العـرفـان الأشـعـري تـابـع العـدنـان

مـن مـوجـز إبانـة مـقـالـه وتـابـعـًا أقـوالـه مـقـالـه

أتي بتقـريـر استوى كمثل ما أتى عن الأسـلاف فيما عُلما

[ش] : وها أنذا أنقل لك كلام الإمام الأشعري ، لتعرف الفرق الشاسع بين معتقد الإمام في صفات الرب سبحانه وتعالى ، ومعتقد الكثيرين من المنتسبين إليه .

[١] الإمام أبو الحسن الأشعري :

قال في كتابه « الإبانة » وهو من الكتب المطبوعة وقد اقتنيته وقرأته ، بعد أن ذكر خطبة طويلة ، بيَّن فيها بعض الأسماء والصفات ، ومخالفة المعتزلة للوحيين كالجهمية والحرورية ، ورجع يمدح أحمد بن حنبل ويثني عليه ، وأنه على معتقده ، وترحم عليه وعلى جميع أئمة المسلمين .

قال : وجملة قولنا : إننا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وما جاء من عند الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا نرد من ذلك شيئًا ،وأن الله واحد أحد ،فرد صمد لا إله غيره ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، والساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وأن الله مستوٍ على عرشه ، كما قال تعالى :﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ [طه : ٥] ، وأن له وجهًا كما قال تعالى :﴿ **وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)** ﴾ [الرحمن: ٢٧] ، وأن له يدين بلا كيف ، كما قال تعالى :﴿ **خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾ [ص : ٧٥] .

ثم ذهب يورد عقائد أهل السُّنَّة والجماعة إلى أن وصل إلى باب : « الكلام في إثبات رؤية الله » ، وأطنب إلى أن قال : « باب ذكر الاستواء على العرش » : إن قال قائل : ما تقولون في الاستواء ؟ .

قيل له : نقول : إن الله مستوٍ على العرش كما قال تعالى :﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ [طه : ٥]، وقد قال الله تعالى :﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ** ﴾ [فاطر: ١٠] ،

وقال تعالى :﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء : ١٥٨] .

ثم ذكر بعض الآيات الواردة في العلو حتى ترجم بقوله :

[**سؤال**] : وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية : إن قول الله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ ، أنه استولى وقهر وملك ، وأن الله في كل مكان ، وجحدوا أن يكون الله على عرشه كما قال أهل الحق ، وذهبوا في الاستواء للقدرة ، ولو كان هذا كما ذكروه ، كان لا فرق بين العرش والأرض ، وأخذ يفند هذا الزعم ويورد من الآيات والأحاديث ما يؤكد أن الله مستوٍ على عرشه دون الأشياء كلها . أ. هـ [١] .

وقال في الجزء الأول من « مقالات الإسلاميين » تحت عنوان : « هذه حكاية جملة قول أصحاب الحديث وأهل السُّنَّة » :

جملة ما عليه أهل الحديث والسُّنَّة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وما جاء من عند الله،وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ، ثم ذكر ما ذكر في الإبانة أ . هـ[٢] .

فهذه عقيدة الإمام أبي الحسن الأشعري ـ رحمه الله تعالى ـ قارن بينها وبين عقيدة المنتسبين إليه ، حيث أنهم سلكوا في هذه الصفات مسلك أهل الاعتزال ، فأولوا الاستواء بالاستيلاء ، والنزول بنزول الرحمة ، واليد بالقدرة أو النعمة ، وما إلى ذلك من المعتقدات التي هي عين ما ذهبت إليه الجهمية والمعتزلة .

فإن قال قائل : إن للإمام الأشعري كتبًا منها : كتاب « اللمع » ، وفيه تأويل هذه الصفات كما ذهب إليه الخلف ، فلعل كتابه « الإبانة ومقالات الإسلاميين » كانا قبل ذلك، ثم ألَّف « اللمع » وكان هو الآخر من مؤلفاته، فنحن أخذنا بمؤلفه الأخير ، وقلدناه على ذلك ، ومن المعلوم أن القول الآخر ينسخ القول المتقدم .

الجواب :

أولاً : إن الإمام أبا الحسن الأشعري - رحمه الله تعالى - كانت له ثلاث أدوار :

الدور الأول : ابتداء نشأته وقراءته وطلبه للعلم ، كان معتزليًا محضًا ، لأنه طلب

---

(١) من « الإبانة » طبعة المنيرية (ص ٩ ، ٣٣ ، ٣٤) .
(٢) من « مقالات الإسلاميين » (ص ٢٣ » الجزء الأول .

علم الكلام على أبي علي الجبائي ، وكان أبو علي رأس المعتزلة وإمامهم ، فلما توغل أبو الحسن في علم الكلام ، تبين له فساده وترك مذهب الاعتزال ، ورجع إلى مذهب أهل السُّنَّة .

الدور الثاني : أقبل على كتب أهل السُّنَّة ، ثم كتب بعض المؤلفات ، أثبت فيها كثيرًا مما نفته الجهمية والمعتزلة من الصفات، وأوَّل بعض الصفات ، وكتابه « اللمع » كتبه في هذا الدور .

الدور الثالث : الرجوع إلى مذهب السلف الصالح ، فلما تضلع من عقائد أهل السُّنَّة والجماعة، ووقف على الأحاديث ، الواردة في الصفات ، وما ورد عن الصحابة والتابعين والأئمة المهتدين ، وبلغ درجة عالية في هذا العلم النفيس لا تضاهى، وأصبح إمامًا لأهل السُّنَّة والجماعة - بعد الإمام أحمد - ناصبًا نفسه لرد أهل البدع والضلال ، كتب في هذا الدور الأخير ، كتبه «الإبانة ، والموجز ، ومقالات الإسلاميين » .

ثانيًا : إن هذا المعتقد الصحيح هو اللائق بإمامته وجلالة قدره، لأنه قال رحمه الله تعالى في كتابه « الإبانة » :

« باب في إبانة قول أهل الحق والسُّنَّة »، فإن قال لنا قائل : قد أنكرتم قول المعتزلة، والقدرية ، والجهمية ، والحرورية ، والرافضة ، والمرجئة ، فعرفونا قولكم الذي به تقولون ، وديانتكم التي بها تدينون ؟ .

قيل له : قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب ربنا عز وجل ، وبسُّنَّة نبينا ﷺ ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل - نضَّر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته - قائلون ، ولمن خالفه مجانبون . أ . هـ .

ثم ذكر بقية المعتقد كما نقلنا عنه آنفًا .

ولا يظن بهذا الإمام الجليل أن يرجع عن كتاب الله وسُّنَّة نبيه ﷺ ، وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة المهتدين ، إلا مبتدع ضال أو جاهل سيء الظن ، صان الله

الإمام عن ذلك الاعتقاد ، ومن نسبه إلى ذلك فقد تنقصه، وأخرجه من دائرة الاتباع ، ونسبه إلى مخالفة السُّنَّة والاتباع .

فإن قال قائل : بأي دليل ترجحون قولكم : إن كتاب « الإبانة » متأخر عن كتابه « اللمع » وأمثاله ؟ .

فالجواب :

أولاً : هو ما قدمناه من أنه اللائق بإمامته وجلالة قدره .

ثانياً : إن الذين كتبوا عنه من المؤرخين ذكروا عنه هذا المعتقد الصحيح ، ومن أجل أولئك الذين كتبوا عنه الإمام ابن عساكر ، فإنه انتصر له انتصاراً باهراً ، ورد على من نسبه إلى الاعتزال ، فقال في كتابه « تبيان كذب المفتري » : « باب ما وصف من مجانبته لأهل البدع وجهاده » .

فقد نقل في هذا الباب عن القاضي أبي المعالي بن عبد الملك ما معناه بإيجاز ، أن الإمام أبا الحسن الأشعري كان وسطًا بين المعتزلة والجهمية والرافضة والمشبهة والمجسمة، فذكر صفات كثيرة توسط فيها بين أهل البدع والضلال ، إلى أن قال: وقالت المعتزلة : النزول نزول بعض آياته وملائكته ، والاستواء بمعنى الاستيلاء .

وقالت المشبهة والحشوية : النزول نزول ذاته بحركة وانتقال من مكان إلى مكان ، والاستواء جلوس على العرش وحلول فيه .

فسلك ﷺ طريقة بينهما ، فقال : النزول صفة من صفاته ، والاستواء صفة من صفاته ، وفعل فعله في العرش يسمى الاستواء ، ثم ذهب يبين طريقته الوسطى بين تيارات المعتقدات الضالة ، إلى أن قال : فإذا كان أبو الحسن ﷺ كما ذكر عنه من حُسن الاعتقاد ، مستصوب المذهب عند أهل المعرفة بالعلم والانتقال ، يوافقه في أكثر ما يذهب إليه أكابر العباد ، ولا يقدح في معتقده غير أهل الجهل والعناد .

فلابد أن نحكي عنه معتقده على وجهه بالأمانة ، ونجتنب أن نزيد فيه ، أو ننقص منه تركًا للخيانة ، ليعلم حقيقة حاله في صحة عقيدته في أصول الديانة ، فاسمع ما ذكره في أول كتابه الذي سماه « بالإبانة » وهنا ذكر ابن عساكر خطبة

الإبانة ، ومشى فيها نحواً من عشرة صحائف ، ذكر فيها ما ذكره الإمام من العقائد الصحيحة الموافقة للكتاب وللسُّنَّة ، ومنها استواؤه على عرشه ، وعلوه على خلقه .

فلو كان الإمام استقرت عقيدته على التأويل في آخر الأوامر ، لذكره ابن عساكر وغيره من المؤرخين .

وهذا تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية الكبرى قال : أبو الحسن الأشعري كبير أهل السُّنَّة بعد الإمام أحمد بن حنبل ، وعقيدته وعقيدة الإمام أحمد واحدة لا شك في ذلك ولا ارتياب ، وبه صرح الأشعري في تصانيفه ، وذكره غير ما مرة ، من أن عقيدتي عقيدة الإمام المبجل أحمد بن حنبل ، هذه عبارة الشيخ أبي الحسن في غير موضع من كلامه . أ . هـ .

وعليه فقد وضح الصبح لذي عينين ، وبان نور الحق ، من أن الإمام أبا الحسن كان على مذهب السلف الكرام ، وأن أكثر المنتسبين إليه لا تصح نسبتهم ولا توافق عقيدتهم عقيدة ذلك الإمام .

كما بان بطلان ما تعلقوا به وهو قولهم : إن الذي أخذناه واعتقدنا به هو ما رأينا في بعض كتبه ،كما بان كذب من زعم أن كتاب «الإبانة» مدسوس على الإمام !!، قاتل الله التعصب والعناد ، ما يفعل بأهله ،كيف يتفوه عاقل بهذا الكلام ؟ ، وهو يرى أن العلماء الأعلام يثنون على الإمام الأشعري ، بأنه ناصر السُّنَّة وعلى مذهب السلف ، وأنه الذاب عن الدين ، والراد على أهل الجهل والسرف ، ولا زالوا ينسبون إليه الإبانة ومقالات الإسلاميين ، وينقلون منهما في تأييد هذا المعتقد الصحيح السليم .

[٢] الإمام الباقلاني :

ومن أئمة الأشاعرة الكبار الذين نَحَوْ نَحْوَ مذهب السلف الإمام الباقلاني ، قال في كتابه « التمهيد » باب « هل الله في مكان » :

فإن قالوا : فهل تقولون : إنه في كل مكان؟ ، قيل : معاذ الله ، بل هو مستوٍ على العرش، كما أخبر في كتابه ، فقال تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ [طه : ٥]، وقال تعالى : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ [فاطر : ١٠] ،

وقال تعالى :﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ ﴾ [الملك : ١٦] .

ولو كان في كل مكان ، لكان في جوف الإنسان وفمه وفي الحشوش والمواضع التي يرغب عن ذكرها ، تعالى الله عن ذلك ، ولوجب أن يزيد بزيادة الأماكن إذا خلق منها ما لم يكن خلقه ، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كان .

ولصح أن يرغب إليه نحو الأرض ، وإلى ما وراء ظهورنا عن أيماننا وشمائلنا ، وهذا ما قد أجمع المسلمون على خلافه وتخطئه قائله . أ . هـ .

[٣] ومنهم إمام الحرمين الجويني :

الذي كان من أشد المناصرين لمذهب الخلف ، وقد ألَّف ـ رحمه الله ـ كتابه « الإرشاد » ، وأجلب بخيله ورجله في تأييد المؤولين ، ولكنه قد أدركته العناية الربانية ، وحالفه التوفيق في النهاية .

فقال عنه الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ :

قال الإمام عالم الشرق أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني الشافعي في كتاب « الرسالة النظامية » :

اختلف مسلك العلماء في هذه الظواهر ، فرأى بعضهم تأويلها ، والتزم ذلك في آي الكتاب وما يصح من السُنن ، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل ، وإجراء الظواهر على مواردها ، وتفويض معانيها إلى الرب عز وجل .

والذي نرتضيه دينًا ، وندين الله به عقيدة ، اتباع سلف الأمة ، والدليل القاطع السمعي في ذلك ، وأن إجماع الأمة حجة متبعة ، ولو كان تأويل هذه الظواهر مسوغًا أو محتومًا ، لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة ، وإذا انصرم عصر الصحابة والتابعين عن الإضراب عن التأويل ، كان ذلك هو الوجه المتبع ، فلتجر آية الاستواء ، وآية المجيء ، وقوله تعالى :﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : ٧٥] على ذلك . أ . هـ [١] .

---

(١) من كتاب « العلو » (ص ١٥٥) .

[٤] فخر الدين الرازي :

فخر الدين الرازي ، وما أدراك ما فخر الدين ؟ ، يعد من أركان الأشاعرة وأساطينهم الكبار ، وقد بالغ في انتصاره لمذهب الخلف مبالغة لا مثيل لها ، فشحن تفسيره « مفاتيح الغيب » بتلك التأويلات ، وإيراد الشبه الفلسفية ، والعجز عن حلها ، وركب مركبًا صعبًا ، وأفنى عمره في هذه المباحث التي لا طائل تحتها ، ولا يجني صاحبها سوى القيل والقال والدمار والوبال .

وأخيرًا قال في آخر كتابه وهو كتاب « أقسام الذات » الذي صنفه في آخر عمره ، وهو كتاب مفيد ذكر فيه أقسام اللذات وبين أنها ثلاثة أقسام :

[١] **الحسية :** كالأكل والشرب .

[٢] **الخيالية الوهمية :** كلذة الرياسة .

[٣] **اللذة العقلية :** كلذة العلوم والمعارف .

وتكلم عن كل واحدة من هذه الأقسام - إلى أن قال - وأما اللذة العقلية فلا سبيل للوصول إليها والتعلق بها ، فلهذا السبب تقول : يا ليتنا بقينا على العدم الأول ، وليتنا ما شهدنا هذا العالم ، وليت النفس لم تتعلق بهذا البدن ، وبهذا المعنى قال :

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

واعلم أن بعد التوغل في هذه المضايق ، والتعمق في الاستكشاف عن أسرار هذه الحقائق ، رأيت الأصوب والأصلح في هذا الباب ، طريقة القرآن العظيم ، وهو ترك التعمق ، ثم المبالغة في التعظيم ، من غير خوض في التفاصيل ، فاقرأ في التنزيه :

قوله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ** ﴾ [محمد : ٣٨] .

وقوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى : ١١] .

وقوله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)** ﴾ [الإخلاص : ١ ، ٢].

وفي الإثبات قوله تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ﴾ [طه : ٥] .

وقوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : ٥٠] .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : ١٠] .

وفي تنزيهه عما لا ينبغي قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٧٩] ، وعلى هذا القانون فقس ، وختم الكتاب . أ . هـ [١] .

وسيأتي النقل إن شاء الله عن كثير من المفسرين ، ومنهم عدد وفير من الأشاعرة .

---

(١) من « اجتماع الجيوش الإسلامية » (ص ١٤٩) .

أقوال أئمة اللغة

[١] قد تقدم النقل عن أبي عبيدة في أول بحث الاستواء وإليك الآن .

[٢] قول أبي العباس ثعلب :

روى الدارقطني عن إسحاق الكلابي ، قال : سمعت أبا العباس ثعلبًا يقول : استوى على العرش : علا ، واستوى الوجه : اتصل ، واستوى القمر ، امتلأ ، واستوى زيد وعمرو : تشابها ، واستوى إلى السماء : أقبل ، هذا الذي نعرفه من كلام العرب .

[٣] قول أبي عبد الله محمد بن الأعرابي:

قال ابن عرفة في كتاب « الرد على الجهمية » : حدثنا داود ابن عليّ قال : كنا عند ابن الأعرابي ، فأتاه رجل فقال : ما معنى قوله تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ [طه : ٥] .

قال : هو على عرشه كما أخبر .

فقال : يا أبا عبد الله ، إنما معناه استولى .

فقال له : اسكت ، لا يقال : استولى على الشيء إلا أن يكون له مضاد ، وإذا غلب أحدهما قيل : استولى ، كما قال النابغة :

إلا لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجواد إذا استولى على الأمد

قال محمد بن النضر :

سمعت ابن الأعرابي صاحب اللغة يقول : أرادني ابن أبي دؤاد أن أطلب له في بعض لغات العرب ومعانيها ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ استوى بمعنى : استولى ، فقلت له : والله ما يكون هذا ولا وجدته .

[٤] قول الخليل بن أحمد شيخ سيبويه :

ذكر أبو عمر بن عبد البر في « التمهيد » : قال الخليل بن أحمد : استوى إلى السماء : ارتفع إلى السماء .

[٥] قول الأخفش :

قال الأزهري في كتاب « التهذيب » في قوله تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ : قال الأخفش : استوى : أي علا ، يقال : استويت فوق الدابة ، وعلى ظهر البيت : أي علوته .



قول بعض أئمة الصوفية

[١] قول الشيخ عبد القادر الجيلاني :

قال ـ رحمه الله ـ في كتابه « تحفة المتقين » ـ بعد كلام ـ :

والله بذاته على العرش ، وعلمه محيط بكل مكان ، والوقوف عند أهل الحق على قوله تعالى : ﴿ **إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ ، في قوله جل وعلا : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ .
[آل عمران : ٧] (١) .

[٢] قول أبي نعيم في حلية الأولياء :

قال في عقيدته : إن الله سميعٌ بصير ، عليمٌ خبير ، يتكلم ويرضى ويسخط ، إلى أن قال : إن الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تأويل ولا تشبيه .

[٣] قول الفضيل بن عياض :

ذكر البخاري في كتاب « خلق الأفعال » ، فقال :

قال الفضيل ابن عياش : إذا قال لك الجهمي ، فاذكر قول يحيى بن معاذ الرازي ، قال : الله تعالى على العرش ، بائن من الخلق ، قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً .

ولا يشك في هذه المقالة إلا جهمي ، ردئ ، ضليل وهالك مرتاب ، يقول بمزج الله بخلقه ، ويخلط الذات بالأقذار والأنتان (٢) .

---

(١) أي : والراسخون مبتدأ ، وجملة ﴿ **يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ** ﴾ [آل عمران : ٧] خبره وبعضهم يجعل والراسخون معطوف على قول إلا الله ، وعلى هذا : فالمعنى أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل الآيات المتشابهة ، والتأويل هنا بمعنى تفسير الآيات ، لا بمعنى كنه الحقيقة ، كما سبق النقل عن شيخ الإسلام .

(٢) وذلك لأن الجهمية يقولون : إن الله تعالى في كل مكان ، وهكذا يقول أكثر متأخري الأشاعرة ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

أقوال بعض المفسرين

[١] العلامة ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ :

سبق أن نقلنا تفسيره للاستواء في أول بحث الاستواء فراجعه .

[٢] العلامة ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

قال في تفسير هذه الآية : وأما قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ [الفرقان : ٥٩] ، فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ، ليس هذا موضع بسطها، وإننا نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح ، مالك والأوزاعي والثوري والليث ابن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهوية ، وغيرهم من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل .

والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله،فإن الله لا يشبه شيء من خلقه ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى : ١١] .

بل الأمر كما قال الأئمة منهم : نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري ، قال : من شبَّه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ، ونفى عن الله تعالى النقائص ، فقد سلك سبيل الهدى .

[٣] العلامة البغوي ـ رحمه الله ـ :

قال في قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ ، قال الكلبي ومقاتل: استقر ، وقال أبو عبيدة : صعد ، وأوَّلت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء .

فأما أهل السُنَّة يقولون : الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف ، يجب على الرجل الإيمان به ، ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل ، وسأل رجل مالك بن أنس ، وذكر قول مالك المشهور . أ . هـ .

[٤] العلامة القرطبي ـ رحمه الله ـ في تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » (جـ٧) :

قال القرطبي ـ بعد أن ذكر كلام المتكلمين ـ في تفسيره قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ :

وقد كان السلف الأول رضي الله عنهم لا يقولون بنفي الجهة ، ولا ينطقون بذلك ، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى ، كما نطق كتابه وأخبرت رسله ، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة ، وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته ، وإنما جهلوا كيفية الاستواء ، فإنه لا تُعلم حقيقته .

قال مالك ـ رحمه الله ـ : الاستواء معلوم ـ يعني في اللغة ـ ، والكيف مجهول ، والسؤال عن هذا بدعة .

وكذا قالت أم سلمة رضي الله عنها : وهذا القدر كاف ومن أراد زيادة عليه فليقف عليه في موضعه من كتب العلماء . أ . هـ .

[٥] الحافظ السيوطي ـ رحمه الله ـ : في تفسيره « الدر المنثور » [جـ٣] :

قال : أخرج ابن مردويه واللالكائي في السُّنَّة ، عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ، قالت : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإقرار به إيمان ، والجحود به كفر .

وأخرج اللالكائي عن ابن عُيينة قال : سُئل ربيعة عن قوله تعالى : ﴿ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ كيف استوى ؟ ، قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق .

وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات من طريق عبد الله بن صالح بن مسلم ، قال : سئل ربيعة ، فذكره ثم ذكر عن مالك مقالته في تفسير الاستواء . أ . هـ .

[٦] العلامة عليّ بن محمد بن إبراهيم المعروف بالخازن ـ رحمه الله ـ :

ذكر في تفسير هذه الآية : مذهبي السلف والخلف ، ومال إلى مذهب السلف .

ومما قاله : أما الاستواء ، فالمتقدمون من أصحابنا كانوا لا يفسرون ولا يتكلمون فيه ، كنحو مذهبهم في أمثال ذلك - ثم ذكر قول مالك المشهور - ثم ذكر عن البيهقي عن ابن عُيينة : كل ما وصف الله به نفسه ، فتفسيره تلاوته والسكوت عنه .

وعلى هذه الطريقة يدل مذهب الشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وبسفيان الثوري ، والأوزاعي ، والليث بن سعد ، وابن المبارك ، والحسن بن فضل البجلي ، وذهب إليه من المتأخرين أبو سليمان الخطابي والبيهقي .

ثم نقل بعد كلام طويل عن أبي الحسن الأشعري ما يؤيد ذلك .

كما نقل عن ابن الأعرابي ، وردّ على القائلين استوى بمعنى استولى . أ . هـ .

وهكذا ذكر من جاء بعدهم من المفسرين ، كالآلوسي ، والسيد رشيد رضا ، والقاسمي ، وغيرهم .



فصل

البراهين العقلية على علو الله

البراهين العقلية على علو الله كثيرة ، منها :

[١] أن يقال : ذاته سبحانه إما أن تكون قابلة العلو على العالم أو لا تكون قابلة ، فإن كانت قابلة وجب وجود المقبول ، لأنه صفة كمال ، ولأنها إذا قبلته ولم تتصف به لاتتصف بضده وهو نقص ، تعالى الله عنه ، وإن لم تكن قابلة للعلو ، لزم أن يكون قابل العلو أكمل منها ، لأن ما يقبل أن يكون عاليًا ـ وإن لم يكن عاليًا ـ أكمل ممن لا يقبل العلو ، وما قبله وكان عاليًا أكمل ممن قبل ولم يكن عاليًا .

فالمراتب ثلاثة : أدناها ما لا يقبل العلو ، وأعلاها : ما قبله واتصف به .

والذي يوضح ذلك : إن ما لا يقبل أن يكون فوق غيره ، ولا عاليًا عليه ، إما أن يكون عرضًا من الأعراض لا يقوم بنفسه ، ولا يقبل أن يكون عاليًا على غيره ، وإما أن يكون أمرًا عدميًا لا يقبل ذلك ، وإما إثبات ذات قائمة بنفسها ، متصفة بالسمع والبصر ، والعلم والقدرة ، والحياة والإرادة والفعل ، ومع ذلك لا تقبل أن تكون عالية على غيرها ، فهذا لا يتصور وجوده .

[٢] ومنها : إن الله لما خلق العالم، فإما أن يكون خلقه في ذاته، أو خارجٌ عن ذاته .

والأول : وهو أن يكون خلقه في ذاته باطل لأمرين :

﴿ أ ﴾ اتفاق المسلمين والكافرين أنه لم يخلقه في ذاته .

﴿ ب ﴾ إنه يلزم أن يكون محلاً للخسائس والقاذورات ، لا يقول بذلك أحد ، لا من الوثنيين ولا من الموحدين ، وتعالى الله عن ذلك .

والثاني : وهو كونه خلقه خارجًا عن ذاته :

فينبغي أن يكون منفصلاً عنه ، فتعينت المباينة ، لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغير منفصل عنه غير معقول ، فإذا تعينت المباينة ، لزم أن يكون في العلو ، لأنه أشرف الجهات .

[٣] إن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه يقتضي نفي وجوده بالكلية ، لأنه غير معقول أن يكون موجوداً لا داخل العالم ولا خارجه ، وكونه داخل العالم باطل بالاتفاق - كما قدمنا - فيتعين أن يكون خارج العالم فلزمت المباينة .

[٤] العلم البديهي قاطع أن كل موجودين إما أن يكون أحدهما ساريًا في الآخر قائمًا به كالصفات ، وإما أن يكون قائمًا بنفسه بائنًا من الآخر ، ولا ريب أن الله تعالى قائم بنفسه ، بل من أخص صفاته كونه بائنًا من مخلوقاته .

وإذا كان بائنًا ، لزم أن يكون عاليًا على المخلوقات ، وما اعترض به على هذا الدليل بإنكار بداهيته ، حيث أنكره كثير من العقلاء ، فلو كان بديهيًا لما كان مختلفًا فيه ، بل هو قضية وهمية خيالية ، فيجاب :

إن العقل إن قبل قولكم ، فهو لقولنا أقبل ، وإن رد العقل قولنا ، فهو لقولكم أعظم ردًا ، فإن دعوى الضرورة مشتركة ، وذلك أننا نقول : نعلم بالضرورة بطلان قولكم ، وأنتم تقولون كذلك .

فإذا قلتم : تلك الضرورة التي تحكم ببطلان قولنا ، هي من حكم الوهم لا من حكم العقل ، قابلناكم بنظير قولكم .

فإن قلتم : أكثر العقلاء يقولون بقولنا ، قلنا : ليس الأمر كذلك ، بل أكثر العقلاء يصرحون بعلو الله على خلقه .

والذين ينكرون علو الله على عرشه ويقولون : ليس فوق العرش رب ، وليس مباينًا للعالم ، ولا حالاً فيه ، طائفة من النظار الذين تأثروا بآراء الفلاسفة ، وتتلمذوا عليهم كالمعتزلة ، ومعلوم عند كل أهل العلم مقام الفلاسفة وكفرياتهم ، حتى أنهم أنكروا علم الله بالجزئيات ، وأنكروا حدوث العالم ، وأنكروا حشر الأجساد ، وقوم هذه بضاعتهم ونهاية معلوماتهم ، فلا غرابة أن ينكروا علوه على خلقه ومباينته .

وقد قدمنا غير مرة أنه قد انقضى عصر الرسول ﷺ والصحابة والتابعين ، ولم ينكر واحد منهم صفة من صفاته تعالى ، لا علوه ولا غيره ، وأول من عرف عنه ذلك في الإسلام الجهم بن صفوان .

فالأقوال في هذه المسألة أربعة ، أو القسمة العقلية رباعية :

الأول : إما أن يقال : إنه تعالى في كل مكان .

الثاني : أو ليس في مكان .

الثالث : أو في جهة غير العلو .

الرابع : أو في جهة العلو .

والأقسام الثلاثة باطلة إلا الأخير .

أما الأول : فبطلانه بما يلي :

﴿ أ ﴾ المؤول مُسَلِّم أنه ليس كذلك ،فلا خلاف بيننا وبينه أنه ليس في كل مكان .

﴿ ب ﴾ لأن هذا خلاف إجماع العلماء المهتدين ، وإجماع الرعيل الأول ، بل خلاف إجماع المسلمين قاطبة ، لم يقله إلا الجهم بن صفوان وأتباعه .

﴿ جـ ﴾ لو كان الأمر كذلك ، لكان ممزوجًا بالخليقة ، حالاً فيها ، حالّة فيه ، وأي عاقل يرضى لربه ذلك ؟ .

وأما القسم الثاني : وهو أن يكون لا في مكان ، أي لا فوق ، ولا تحت ، ولا خلف . . . إلخ ، فينقضه وجوه عدة :

﴿ أ ﴾ هذا مردود بالضرورة من غير تفكير ومن غير مقدمات واستنتاج ، فالعقول على اختلافها لا تقوى أن تؤمن بوجود مثل ذلك ، ولا تستطيع أن تدرك أن هناك موجودًا قائمًا بنفسه له كل صفة كمال ، وليس في جهة من الجهات المفروضة والمتوهمة .

﴿ ب ﴾ من الأحكام الثابتة عند العقلاء أن الأمرين المتناقضين لا يجتمعان ولا يرتفعان ، فلا يكون الشيء الواحد لا متصلاً ولا منفصلاً ، ولا قريبًا ولا بعيداً ، ولا موجوداً ولا معدومًا ، ولا متحركًا ولا ساكنًا .

﴿ جـ ﴾ لو صح ذلك لصح أن يقال : إن الله لا موجود ولا معدوم، ولا حي ولا ميت، ولا عالم ولا جاهل ، ولا خالق ولا ليس بخالق ، ولا قديم ولا حادث ، فراراً مما فروا منه ، ولا يوجد دليل عقلي أو نقلي يؤيده ، إذ قد جوزوا ارتفاع

النقيضين ، وإذا جاز ارتفاع النقيضين ، جاز ارتفاع غيرهما ، والقول المؤدي إلى أن الله ليس موجودًا ، ولا معدومًا ، ولا حيًّا ، ولا ميتًا ... إلخ ، قول في غاية السفه والبطلان .

وأما القسم الثالث : وهو أن يكون في جهة غير العلو :

فجوابه من وجوه :

﴿ أ ﴾ هو خلاف إجماع المسلمين ، فما قال مسلم : إن الله كذلك .

﴿ ب ﴾ هو ضد الأخبار السماوية ، فهي كما يقولون : تخبر أنه مستوٍ على العرش .

﴿ جـ ﴾ بالبداهة العلو أشرف الجهات ، وبالبداهة أن الله أعظم الشرف وأتمها ، فإذا أمكن أن يكون في جهة ، فلن تكون غير العلو ، وإذا علمت بطلان الأقسام الثلاثة ، علمت أنه لم يصح إلا القسم الرابع ، وهو ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ [طه : ٥] ، وفوق ثبوت علو الله بالبراهين العقلية ، والأدلة النقلية ، فإنه ثابت بالفطر السليمة .

حيث أن الخلق بطباعهم وفطرهم يرفعون أيديهم عند الدعاء ، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله [١] ، وهذا معلوم بالحس والوجدان والمشاهدة ،

---

(١) وقول المؤولة : إنمايرفع المسلمون أيديهم نحو السماء عند الدعاء لكونها قِبلة الدعاء ، كما أن الكعبة قِبلة الصلاة ، ألا ترى أننا نضع الجبهة على الأرض ، مع أنه ليس في جهة الأرض :

فالجواب :

أولاً : كون السماء قِبلة الدعاء ،لم يقله أحد من سلف الأمة ، ولا أنزل الله به من سلطان ، وهذا من الأمور الشرعية الدينية ، فلا يجوز أن يخفى على جميع سلف الأمة وعلمائها .

ثانيًا : إن قِبلة الدعاء هي قبلة الصلاة ، فإنه يستحب للداعي أن يستقبل القِبلة ، وكان النَّبي ﷺ يستقبل القِبلة في دعائه في مواطن كثيرة .

ثالثًا : إن القِبلة هي ما يستقبلها العابد بوجهه ، كما تستقبل الكعبة في الصلاة والدعاء والذِّكر والذبح ، والاستقبال خلاف الاستدبار ، فالاستقبال بالوجه ، والاستدبار بالدبر .

فأما ما حذاه الإنسان برأسه أو يديه أو جنبه ، فهذا لا يسمى قبلة ، لا حقيقة ولا مجازًا ، فلو كانت السماء قِبلة الدعاء ، لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه إليها ، وهذا لم يشرع .

وأما قولهم في رد العلو بوضع الجبهة على الأرض حين السجود ، فما أفسده من رد ونقص ، فإن واضع الجبهة إنما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل له ، لا أن يميل إليه إذ هو تحته ، فإن هذا لا يخطر في قلب ساجد .

أ . هـ . ملخصًا من « شرح الطحاوية » .

حتى أنك لتسمع من العالم والجاهل ، والصغير والكبير ، والمؤمن والكافر ، يقول لك في معرض كلام أو غضب : أما تخاف من الله الذي فوقنا ؟ ، أو يقول : أما تستحي من ربنا وهو فوقنا ؟ ، فوالله ثم والله ، إن هؤلاء الذين ينكرون بألسنتهم علوه ما ليس في قلوبهم ولا فطرتهم وفي غير وقت الجدال تسمع منهم بأن الله تعالى فوق عرشه ، ولكنهم عند الجدال والنقاش وتأييد مذاهبهم الفاسدة يصرون على هذا النفي ، ويخالفون الحس والوجدان ، ويعارضون السُّنَّة والقرآن .

الشبه النقلية وردها

للمؤولة شبه يوردونها زاعمين أنها تسوغ لهم التأويل ، وها أنذا أحررها لك مقرونة بالجواب السديد .

الشبهة الأولى والجواب عنها :

قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ** ﴾ [الزخرف : ٨٤] ، قالوا : هذا دليل قطاع لا يقبل الجدل بأنه تعالى في السماء وفي الأرض ، فدل على نفي الاستواء ، وكذا قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ** ﴾ [الأنعام : ٣]، وأصرح من هذا قوله تعالى : ﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾ [البقرة : ١١٥] .

قالوا : فهذه الآيات تحتم عليكم بأن الله في كل مكان .

الجواب :

أولاً : إما أن تدل الأخبار التي ذكرتم على أنه في كل مكان أم لا تدل ، فإن لم تدل بطلت الشبهة رأسًا ، وإن دلت فإما أن يأتي بها عقلي أو نقلي يدل على فساد ظاهرها أم لا .

إن كان الأول : فهذا البرهان هو الذي صرفنا عن الإيمان بأنه في كل مكان .

وإن كان الثاني : قلنا : وجب عليكم أن تؤمنوا بمقتضى ذلك بأنه في كل مكان ، وإن لم تفعلوا كنتم مخطئين .

وأنتم لا تؤمنون بمقتضى ذلك ، لأن كثيراً من الأمكنة لا يمكنكم بأن تقولوا هو فيها كالمزابل ونحوها ، وعلى ما قلتم يجب عليكم الإيمان بذلك المقتضى ، فأنتم مخطئون وغالطون لا محالة ، ولم تؤمنوا بمقتضى براهينكم الدالة بزعمكم على أنه في كل مكان لما ذكرنا ، كما لم تؤمنوا بعلوه تبارك وتعالى .

وعلى فرض خطئنا فنحن غلطنا في مسألة واحدة ، وهو كونه في العلو لا غيره

من سائر الجهات ، وأنتم في مسألتين كما بينا ، الأولى : كون الله في كل مكان ، والثانية : عدم الإيمان بمقتضى ذلك .

ثانياً : قام الإجماع بيننا على أنه ليس في كل الأماكن ، وإن الأخبار في ذلك مؤولة ، فاتبعنا الإجماع ، واختلفنا في أخبار علوه ، ولم نجد ما يسوغ لنا التأويل ، فقلنا بمقتضى نصوص العلو .

ثالثاً : ما أوردتم معارض بأخبار علوه ، فتحتم الترجيح ، فوجدنا الأقوى الأحق ، أن لا نؤول أخبار العلو لعدة أسباب :

[١] كثرتها وظهورها وموافقتها للإجماع والعقل ، ورفعة الرب تعالى ، على أن معنى قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ** ﴾ [الزخرف : ٨٤] ، أي معبود في السماء وفي الأرض ، وهذه تفاسير القرآن بين أيدينا ، كابن جرير وابن كثير ، والبغوي وغيرهم ، وهذا واضح كما تقول : السلطان مطاع في كل مكان ، والعالم محبوب في كل مكان ، فهل يدل على أن ذاته في كل مكان ؟ .

[٢] وقوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ** ﴾ [الأنعام : ٣] ، لا يدل على أن الله مستقر في السماء والأرض ، لأن الجار والمجرور معمول لقوله : ﴿ **يَعْلَمُ** ﴾ ، ويكون المعنى أنه يعلم سركم وجهركم في كل مكان ، لا أنه في كل مكان والقرآن نزل بلغة العرب ، والعربي لا يفهم من هذه الآيات إلا ما قلنا ، كما لا يفهم من قوله تعالى : ﴿ **إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ** ﴾ [طه : ٤٦] ، وقوله تعالى : ﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ** ﴾ [المجادلة : ٧] إلا معية العلم (١)

---

(١) إن علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل في القرآن قالوا في تأويل هذه الآية : هو على العرش، وعلمه في كل مكان .

ومما يؤيد أن المعية هنا معية العلم ، افتتاح الآية بقوله : ﴿ **أَلَمْ تَرَ** - أي : ألم تعلم - **أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** ﴾ [المجادلة : ٧] ، يعني أنه عالم بجميع المعلومات ، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، ثم أكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ** ﴾ ، وختمها بقوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [المجادلة : ٧] .

وليس هذا من التأويل الذي ننهى عنه ، كما تزعم المعطلة ، لأنه مأخوذ من تفسير الصحابة ، وهم أخذوه من النبي ﷺ ، ولم يقولوا من تلقاء أنفسهم ، نحن ننازعكم فيما لم يأت عن الرسول ﷺ ولا عن الصحابة ولا عن التابعين تأويل له ، لا فيما ثبت عن أولئك .

كمعية النصر والتأييد في مثل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** (١٢٨) ﴾ [النحل : ١٢٨] .

ولم ينزل القرآن بلغة الأعاجم ، كهؤلاء الذين أخذوا يفسرون القرآن على حسب أفهامهم وأهوائهم ، وأخذوا يضعون قواعد واصطلاحات من عندياتهم ، ويحملون الآيات والأحاديث عليها ، وهذا عكس القضية ، حتى فهمت طائفة منهم أن القرآن يدل على التشبيه والتجسيم، وأخرى فهمت الحلول والاتحاد، وأخرى رفع التكاليف ، وفرقة رفضت الأحاديث ، هدانا الله وإياهم سواء السبيل .

[٣] أما قوله تعالى : ﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾ [البقرة : ١١٥] ، فبعضهم قال : قبلة الله ، والأرجح أن الآية تدل بأنه تعالى محيط بالخليقة ، ولا تدل على الاستقرار .

ونقرب لأذهانكم بأن لو قلنا : أينما تلتفتوا تبصروا السماء أمامكم ، فمثل هذا لا يدل على أن السماء في كل مكان ، وإنما يدل على الإحاطة بالرائي ، وهذا لا يختلف فيه اثنان .

وقد أشفى العليل العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ في « الصواعق المرسلة » ، فإن أردت الزيادة فعليك به .

الشبهة الثانية والجواب عنها :

حديث الإدلاء الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه ، ونصه عن قتادة ، حدثنا الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه ، إذ أتى عليهم سحاب فقال نبي الله ﷺ : هل تدرون ما هذا ؟، فقالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا العنان ، هذه روايا الأرض، يسوقه الله تبارك وتعالى إلى قومٍ لا يشكرونه ولا يدعونه ، قال : هل تدرون ما فوقكم ؟ ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها الرقيع ، سقف محفوظ ، وموج مكفوف ، ثم قال : هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : بينكم وبينها مسيرة خمسمائة سنة ، ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك ؟ ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن فوق ذلك سماءين ما بينهما مسيرة

خمسمائة سنة ، حتى عدد سبع سموات ، كل سماءين كما بين السماء والأرض ، ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك ؟ ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن فوق ذلك العرش، وبينه وبين السماء بُعد ما بين السماءين،ثم قال:هل تدرون ما الذي تحتكم؟ ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها الأرض ، ثم قال : هل تدرون ما الذي تحت ذلك ؟ ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن تحتها الأرض الأخرى ، بينهما مسيرة خمسمائة سنة ،حتى عدّد سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة ، ثم قال :والذي نفس محمد بيده، لو أنكم دليتم رجلاً بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله ، ثم قرأ : ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** (٣) ﴾ [الحديد : ٣] .

وتقرير شبهتهم أن يقال : ينص الحديث ـ مصدراً بالقسم ـ بأنكم لو دليتم رجلاً بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله ، وهذا دليل واضح على نفي علو الله على العرش ، إذ لو كان على العرش ، لما قال : لو أنكم دليتم رجلاً بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله ، والهبوط ضد الصعود .

والجواب :

أولاً : إنّ الترمذي الذي أخرج هذا الحديث في سُننه ، حكم عليه بالغرابة ، حيث قال : « حديث غريب » .

ثانياً : لم يثبت سماع الحسن عن أبي هريرة ﷺ ، وعليه فالحديث منقطع لا يحتج به ، ومن قواعد المؤولة أنه لا يحتج بأحاديث الآحاد في العقائد ولو كان صحيحاً ، فكيف بحديث غريب منقطع ؟ .

ثالثاً : لو صح الحديث لكان معناه على تقدير مفروض أي: لو وقع الإدلاء لوقع عليه، لكن لا يمكن أن يدلي أحد على الله شيئًا ، لأنه عال بالذات .

والمقصود بيان إحاطة [١] الخالق سبحانه بعلمه الشامل لمخلوقاته ، ولهذا قرأ

---

(١) حينما صعد رائد الفضاء إلى السماء بعيداً شاهد الكرة الأرضية تسبح في الفضاء ، بمعنى تحيط بها السماء من كل جهاتها ، من أعلاها ومن أسفلها ، فالله بائن عنها ، محيط بها من جميع جوانبها ، لأنها جزء صغير من مخلوقاته .

في تمام الحديث قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴿٣﴾ ﴾ [الحديد : ٣] .

الشبهة الثالثة والجواب عنها :

احتجوا على تأويل الاستواء بمعنى الاستيلاء بقول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

وهذه الشبهة من أكبر شبهاتهم حيث قالوا : إن القرآن عربي ، وينبغي تأويل الموهم - بزعمهم - للجسمية أو للجهة بحسب اللغة العربية ، وهذا الشاعر العربي قال : قد استوى بشر ، أي : استولى .

والجواب من عدة وجوه عديدة :

أولاً : إن هذا البيت مصنوع مُختلق ، ليس من شعر العرب الذين يُحتج بقولهم .

ثانياً : إن معنى الاستواء مشهور لدى أهل العلم ، كما ثبت عن ربيعة شيخ الإمام مالك ، وعن الإمام مالك ، حيث قال كل واحد منهما : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، لأنه لو لم يكن معنى الاستواء في الآية معلومًا لم يحتج أن يقول : والكيف مجهول .

ثالثًا : تفسير استوى باستولى ، لم يفسر به أحد من الصحابة ولا من التابعين ولا من الأئمة المهتدين ، بل هو من تفسير الجهمية والمعتزلة الذين ليس لهم قدم صدق في العالمين .

رابعًا : إن الاستيلاء يشعر معنى المقاومة والمغالبة ، فمن كان مستوليًا على العرش قبله حتى يكون غلبه واستولى عليه ؟! ، وتعالى الله عن إفك المعطلة .

خامساً : إن الاستيلاء عام على سائر المخلوقات ، فلو كان معنى الاستواء الاستيلاء لجاز أن يقول : استوى على الماء وعلى الهواء وعلى الأرض ، وهذا لا يشك في بطلانه من له مسكة من عقل ، ولا يختلف فيه اثنان .

سادساً : إن كان الاستيلاء كاستيلاء بشر على العراق ، فهذا هو التشبيه بعينه ، وهم يزعمون أنهم بهذا التأويل قد نجوا من التشبيه ، وإن كان استيلاء الله على ما

يليق به ، واستيلاء بشر على ما يليق به ، فهلا أبقوا اللفظ القرآني ، وقالوا : استواء يليق به ؟ .

سابعًا : لو صح هذا البيت ، وصح أنه غير محرف ، لم يكن فيه حجة ، بل هو حجة عليهم ، وهو دال على حقيقة الاستواء ، فإن بشرًا هذا كان أخا عبد الملك بن مروان ، وكان أميرًا على العراق ، فاستوى على سريرها كما هو عادة الملك ونوابها ، أن يجلسوا فوق سرير الملك مستوين عليه ، وهذا هو المطابق لمعنى هذه اللفظة في اللغة ، كقوله تعالى : ﴿ **لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ** ﴾[الزخرف : ١٣] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ** ﴾[هود : ٤٤] ، وقوله تعالى : ﴿ **فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ** ﴾[الفتح : ٢٩] .

وفي الصحيح أن النَّبي ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر كبَّر ملبيًّا .

وقال عليّ رضي الله عنه : أتى رسول الله ﷺ بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله في الغرز قال : « **بسم الله** » ، فلما استوى على ظهرها قال : « **الحمد لله** » .

فهل تجد في هذه المواضع موضعًا واحدًا أنه بمعنى الاستيلاء والقهر؟! .

ثامنًا : لو كان المراد بالبيت استيلاء بالقهر والملك ، لكان المستوي على العراق عبد الملك بن مروان لا أخوه بشر ، فإن بشرًا لم يكن ينازع أخاه الملك ، ولم يكن ملكًا مثله ، وإنما كان نائبًا له عليها ، وواليًا من جهته ، فالمستولي عليها هو عبد الملك لا بشر ، بخلاف الاستواء الحقيقي وهو الاستقرار فيها والجلوس على سريرها ، فإن نواب الملوك تفعل هذا بإذن الملوك .

تاسعًا : لا يُقال لمن استولى على بلدة ولم يدخلها ولم يستقر فيها ، بل بينه وبينها بعد كبير ، أنه قد استوى عليها ، فلا يقال : استوى أبو بكر على الشام ، ولا استوى عمر على مصر والعراق ، ولا قال أحد قط : استوى رسول الله ﷺ على اليمن مع أنه استولى عليها ، واستولى خلفاؤه على هذه البلاد .

ولم يزل الشعراء يمدحون الملوك والخلفاء بالفتوحات ، ويتوسعون في نظمهم واستعاراتهم ، فلم يسمع عن قديم منهم جاهلي ولا إسلامي ولا محدث أنه مدح

أحداً قط أنه استوى على البلد الفلاني الذي فتحه واستولى عليه ، فهذه دواوينهم وأشعارهم موجودة .

عاشراً : إما أن يحيل العقل حمل الاستواء على حقيقته ، أو لا يحليه ، فإن أحاله العقل ، ولم يتكلم أحد من الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام المهتدين في تفسيره بخلاف ما يحيله العقل ، بل تفاسيرهم كلها مما يحيله العقل ، لزم القدح في علم الأمة ، ونسبتها إلى أعظم الجهل ، لسكوتهم عن بيان الحق وتكلمهم بالباطل ، وهذا شر من قول الرافضة ، وإن لم يحله العقل وجب حمله على حقيقته لأنها الأصل ، والعقل لا يمنع منها .

وقد ذكر العلامة ابن القيم اثنين وأربعين وجهًا في بطلان تفسيرهم الاستواء بالاستيلاء في كتابه « الصواعق المرسلة » ، فرحمه الله وجزاه عن الإسلام خيراً [١] .



(١) من الوجه الخامس إلى العاشر من « الصواعق المرسلة » .

فصل
الشبهات العقلية

يوردون خيالات من نسج أفكارهم الملطخة بأقذار الفلاسفة ويسمونها عقليات ، وإنما هي أوهام وجهليات ، إذ العقول لا تخالف الشرائع ، ووظيفتها أن تسلم ذلك بعد إدراكها ، أو تحير فيه إن لم تدرك .

الشبهة الأولى والجواب عنها :

قالوا : لو كان فوق العرش لكان جسمًا ، والتجسيم باطل ، فكونه فوق العرش باطل إذًا .

هذه شبهتهم التي يذكرونها ويعتمدون عليها ، كأنها برهان إلهي أو تنزيل سماوي !! ، وما هي إلا سخافة من السخافات ، وما أدري ما المناسبة بين الفوقية وبين التجسيم ، وهي كما ترى - بحسب زعمهم - قائمة على دعويين :

الأولى : إن كل ما هو في جهة فهو جسم .

الثانية : وباطل أن يكون الله جسمًا .

والجواب : أما الدعوى الأولى فباطلة بما يلي :

أولاً : إن الأعراض والمعاني في جهات بالمشاهدة والضرورة وهي ليست بأجسام ، لأنها قسيمة الأجسام .

ثانيًا : إن المخالفين يسلمون لله صفات كثيرة ، كالعلم والحياة ، والقدرة ، والخلق ، والإرادة ، والوجود ، ونظائر ذلك .

ومع هذا لا يقولون : إن الله جسم ، بل يصرحون بأنه غير جسم ، ويكفرون من قال ذلك ، فإذا كانت هذه الصفات لله لا تقتضي ، بأن يكون جسمًا - كما يدعون - لم تكن صفة العلو والاستواء على العرش قاضية بذلك ، وهذا إلزام لا مفر منه .

ثالثًا : هذه الحجة ليست واردة على الله من حيث هو مستوٍ على العرش ، ومن حيث هو في السماء ، بل هي واردة عليه من حيث هو موجود ولا شك ، كأن يقال :

الله موجود ، والموجود إما أن يكون جسمًا قائمًا بنفسه ، أو عرضًا قائمًا بغيره ، ولا ثالث لهذين الأمرين ، إذ الموجودات كلها كذلك ، والله موجود ، فإما أن يكون جسمًا ، وإما أن يكون عرضًا ، وباطل أن يكون عرضًا ، فلم يبق إلا أن يكون جسمًا ، فهو جسم إذًا سواء قيل : إنه في السماء أم ليس في السماء ولا في غيرها . فلا ضرر إذًا من القول بأنه في السماء ، أو بأنه مستوٍ على العرش ، لأنه لا يلزم هذا معنى فاسد من حيث الصفة .

وحينئذ يقال : إن أمكن أن يكون ثَمَّ موجود ليس جسمًا ، أمكن أن يكون ثَمَّ موجود في السماء ، أو نقول : فوق العرش وليس جسمًا بالضرورة .

وأما الدعوى الثانية : وهي قولهم : والله باطل أن يكون جسمًا .

فنقول في الجواب :

نحن لا نقول بالجسمية ، ومعاذ الله ، ونقدس الله عن ذلك ، ولكن نقر النصوص كما جاءت من غير تحريف ولا تأويل ولا تمثيل،ولكنهم يظلمون النصوص بهذه المزاعم التي ينسبونها إليها ، ولم يذكروا على صحة ما يدعون برهانًا مقبولاً يمكن أن ينفي ما وردت به النصوص ، ولو قيل لهم : ما دليلكم على نفي الجسمية ؟ ، ولماذا تنكرون الإيمان بهذه النصوص إن كانت تدل على التجسيم ، وما يقضي به الحق حق ؟ .

لقالوا : لا يصح الإيمان بنص يدل على الجسم ، لأنه يدل على الحدوث ، وهو غير حادث ، ولأجل هذا أوَّلنا النصوص إن استطعنا ودفعناها إن لم نستطع .

ثم لو سئلوا مرة أخرى : ما دليلكم على أن الجسمية تقتضي الحدوث ؟ ، لقالوا : الأجسام كلها حادثة ، فلو كان جسمًا لكان حادثًا ، ولم يعلموا أن هذا القول كقول القائل : لو كان موجودًا لكان جسمًا أو عرضًا ، لأن الموجودات كلها إما أجسام وإما أعراض .

وكقول القائل : لو كان موصوفًا لجاز أن يفقد صفاته أو بعضها قياسًا على الشاهد ، مثل أن يقال : لو كان حيًا لجاز موته ، لأن كل حتي يجوز أن يموت ، ولو كان بصيرًا لجاز أن يعود أعمى ، إلى غير ذلك من الأقيسة الفاسدة التي مآلها نبذ النصوص وتحريفها .

الشبهة الثانية والجواب عنها :

قالوا : لو كان الله مستويًا على العرش ، لكان محمولاً له ، وتعالى الله عن أن يحمله شيء ، أو أن يكون في حاجة إلى ما يحمله .

والجواب :

لا يلزم من استوائه على العرش احتياجه إليه ، بل الله غني عن كل شيء ، وكل شيء فقير إليه ، وتعالى الله أن يحمله حامل ، أو يفتقر إلى قوة حامل .

ولكن استواءه فعل من أفعاله ، وصفة من صفاته ، وشأن من شئونه ، لحكمة من حكمه العالية ، لا عن احتياج وافتقار ، كما خلق العالم ولم يكن مفتقرًا إلى الخلق ، وكما أمر ونهى وشرع الشرائع ولم يكن محتاجًا ، ولو لزم من الاستواء الاحتياج ، للزم الاحتياج في جميع أفعاله الاختيارية وأوامره ونواهيه .

ومما يزيدك بيانًا : إن هذه المخلوقات قائم بعضها فوق بعض ، ولم يقض بأن تكون كلها متحاملة ، ولم يلزم أن يكون الأعلى محمولاً للأسفل ، والأسفل حاملاً للأعلى، فهذه السموات وهذه الأجرام العلوية قائمة فوقنا وفوق الأرض ، ولم تكن الأرض حاملة لها ، ولم نكن نحن حامليها .

وهذا السحاب ناهض فوقنا وفوق الأرض ولسنا حامليه، وهكذا يقال في الهواء وغيره ، وليس الأعلى محمولاً ، بل الأسفل والأعلى قائمان بقدرة الله تعالى وبأمره ، وهما في الافتقار سواء .

وجرت سُنَّة الله تعالى أن الأعلى غني عن الأسفل كالسماء والأرض ، فإذا كانت المخلوقات كذلك ، فالله أعلى وأولى بألا يكون في علوه محتاجًا ولا محمولاً لشيء من هذا العالم المخلوق والقائم بإذنه وأمره جل وعلا .

الشبهة الثالثة والجواب عنها :

قالوا : لو كان فوق العرش لكان لا يخلو من ثلاث حالات :

الأولى : إما أن يكون أكبر من العرش .

الثانية : وإما أصغر .

الثالثة : وإما مساويًا له .

وكلها باطلة ، فالقول بفوقيته على العرش باطل إذًا !! .

وبيانه : بأنه إذا قلنا : إنه أصغر أو مساوٍ، فلا ريب ولا نزاع في بطلانه ، وإذا قلنا : إنه أكبر [١] ، فيلزم أن يكون من أمرين : من القدر المساوي ومن القدر الزائد ، وهو منزه عن التركيب ، لأن المركب على وزن مفعول مخلوق حادث ، ولابد له من فاعل ، وهذا محال .

والجواب :

هذه الشبهة بقطع النظر عن صحتها أو بطلانها ، ليست واردة من جهة استوائه وعلوه ، وإنما واردة من حيث وجوده تعالى ، فإن الله موجود ، والعرش موجود ، أو نقول : الله موجود ، والمخلوق موجود ، أو نقول : الله موجود ، والعالم موجود ، فخذ ما شئت من هذه الثلاثة .

وافرض : إما أن يكون متساويين ، وإما أن يكون أحدهما أصغر ، وإما أن يكون أحدهما أكبر ، وواضح بطلان التساوي وكونه تعالى أصغر ، فلم يبق إلا أن يكون أكبر .

فإذا قلنا : أكبر ، فمحذور التركيب كما قالوا حاصل ، ولا فرار من الأقسام الثلاثة ، فيلزم إما أن ننكر وجود الله ، أو وجود العرش ، أو وجود العالم ، أو وجود المخلوق ، وكل هذا باطل إنكاره ، فثبت أن تلك المقومات التي بنوا عليها تلك الكلمات باطلة ، ونتيجتها وهي نفي الفوقية باطلة مثلها ، لأنها مبنية على شفا جُرُفٍ هارٍ من الخيالات والأوهام .

---

(١) ولماذا لا يقال : إنه تعالى أكبر من العرش ؟ ، بل أكبر من جميع المخلوقات ، بل لماذا لا يجب هذا القول ، ولماذا لا يجب أن يكون كذلك ، كما يقول المسلمون في صلواتهم وفي كل حالاتهم : الله أكبر ، أي : أكبر من كل كبير ، ومن كل شيء في الأرض وفي السماء ؟! .
كما يقولون: الله أعلم وأعظم وأمثال ذلك ، مما لا يختلف المسلمون في جوازه ووروده في الشرائع جميعًا، ومتى اختلف المؤمنون في أن الله أكبر وأعلم وأعظم من جميع الكبراء والعظماء ؟ ، ومتى كان مثل هذا القول واعتقاده باطلاً ، أو مختلفًا فيه ، أو مشكوكًا في جوازه ؟ فالله أكبر من العرش ، ومما تحت العرش ، ومن كل شيء في الأرض وفي السماء .

والحاصل : أن إثبات الاستواء صرح به الكتاب والسُنَّة المتواترة ، وأقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم ، والفقهاء والمحدثين والصوفية المحققين والشعراء واللغويين ، كما دلت عليه العقول الراجحة ، والفطر السلمية ، وفيما أوردنا من الأدلة ورد الشبهات كفاية ومقنع لمن يريد الحق والإنصاف ، متجنبًا تقليد المشايخ والآباء ، والجمود على ما ورثه وشب وشاب عليه ، ولعلك لا تجد مثل هذا البسط في هذه المسألة في غير هذا الكتاب ، فنسأل الله لنا ولجميع المؤولين الهداية والتوفيق والاعتصام بعقيدة السلف الكرام ، والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب .

فصل
في بحث الكلام والرؤية

أولاً : صفة الكلام :

ثم كـــــــلام ربنا المنان ... ليس بمحـــــدث بلا نكران
منه بدا ثم إليـــــه يرجع ... هذا اعتقادي الصحيح فاسمعوا
منزل من ربنا الرحـــــمن ... يبطل قول الجهمي الشيطان
قد حكموا بكفر من يقول ... بأنه مخلوق ذا منقول
عن أحـــمد بن حنبل المعظم ... ثم أبي ثور الكبير الأفخم
كذا عن المعظم السفيان ... ثم الفضيل يا أخا الإحسان
وغيرهم من الأئمة الهدى ... فلتقتدي مجانبًا أهل الردى

[ش] : هذه المسألة تعرف لديهم بمسألة كلام الله ، وقد ضل في هذه المسألة طوائف عديدة ، وحبس الإمام أحمد من أجل أنه امتنع أن يقول : إنه مخلوق ، كما أوذي غيره بسببها من المأمون بن هارون الرشيد ، الذي تمذهب بمذهب المعتزلة ، وأيد مذهبهم بالقوة ، ثم تابعه المعتصم من بعده .

وقد كان السلف متفقين على أن كلام الله غير مخلوق ، وإنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ، ومتى شاء ، وكيف شاء ، وإن الكلام صفة له قائمة بذاته ، وهو يتكلم بصوت يسمع ، وإن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديمًا ، وعلى هذا مضي السلف وأهل الحديث وسائر الأئمة المهتدين .

والدليل على أنه موصوف بالكلام من النقل : قوله الله تعالى في كتابه المجيد : ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ** ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، وقال الله تعالى : ﴿ **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** ﴾ [النساء : ١٦٤] ، وقال الله تعالى : ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ** ﴾ [التوبة : ٦] ،

وقال الله مخاطباً موسى عليه السلام : ﴿ **إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٤٤] ، وقال الله تعالى : ﴿ **مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ** ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، وقال الله تعالى : ﴿ **وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٧٥] ، وقال الله تعالى : ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ** ﴾ [الفتح : ١٥] ، وقال الله تعالى : ﴿ **وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ** ﴾ [الكهف : ٢٧] .

وفي الحديث الشريف : « **ما من عبد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان** » .

البرهان العقلي :

أن يقال : إن التكلم من أوصاف الكمال ، وضده من أوصاف النقص ، وكل كمال فالله أولى أن يوصف به ، فإذا ثبت أن الكلام صفة كمال في المخلوق ، فالخالق أولى به ، ومعطي الكمال أحق بالكمال ، فلو نفينا عنه الكلام لكان غيره أكمل منه وكفى بذلك قبحاً .

والدليل على أنه من أوصاف الكمال : أن الله وبَّخ عُبَّاد العجل ، وأبان قلة أفهامهم ، كما بين بطلان ألوهية العجل من حيث أنه لا يتكلم ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، فقال الله تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً** ﴾ [الأعراف : ١٤٨] ، وقال الله تعالى : ﴿ **أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا (٨٩)** ﴾ [طه : ٨٩] ، وقال الله تعالى في وصف المنافقين : ﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (١٨)** ﴾ [البقرة : ١٨] .

وذهبت المعتزلة ومن نحا نحوهم من أهل البدع والضلال أن كلام الله مخلوق خلقه منفصلاً عنه في بعض الأجسام ، ولهم شبه فيما زعموا .

الشبهة الأولى والجواب عنها :

أما شبهتهم من حيث النقل فقد قالوا : قال الله تعالى : ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢)﴾ [الزمر : ٦٢] ، فالقرآن شيء ، فيكون داخلاً في عموم ﴿ كُلِّ ﴾ فيكون مخلوقًا .

فالجواب من وجوه :

[١] إن هذا الاستدلال لعجيب جداً من هؤلاء !! ، وبيان ذلك أنهم لا يعترفون ولا يعتقدون أن أفعال العباد مخلوقة لله ،فإن كان العموم مراداً من قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ فلماذا أخرجوا أفعال العباد ؟! .

مع العلم أننا نقول : كلام الله صفة من صفاته ، به تكون الأشياء المخلوقة ، إذ بأمره تكون المخلوقات ، قال الله تعالى : ﴿**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف : ٥٤] .

ففرق بين الخلق والأمر، فلو كان الأمر مخلوقًا للزم أن يكون مخلوقًا بأمر آخر، والآخر بآخر ، إلى ما لا نهاية له ، وهذا يلزم منه التسلسل كما لا يخفى .

[٢] **ولو قال قائل :** إن علمه شيء ، وقدرته شيء ، وهكذا بقية الصفات ، فعلى استدلال المعتزلة يمكن أن تدخل هذه الصفات في عموم قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ ، فتكون مخلوقة ، ولزم أن يكون القائل بذلك مصيبًا عند هؤلاء ، وما كان جوابهم له فهو جوابنا لهم .

[٣] لو صح ما تقول المعتزلة ، لكان ما أحدثه في الجمادات وما خلقه في الحيوانات ، فهو كلامه ، بل يلزم أن يكون متكلمًا بكل كلام خلقه في غيره ، زوراً كان أو كذبًا أو كفراً ، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وعلى هذا المعتقد الفاسد قال بعض الصوفية الاتحاديين :

وكل كلام في الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه

وتصور هذا الكلام كافٍ في بطلانه وفساده ، كما يلزمهم أن يوصف الله بالصفات التي خلقها في غيره ، من الألوان والروائح والطعوم والقصر والطول ، وفساد ذلك لا يخفى .

[٤] عموم ﴿ كُلّ ﴾ في كل موضع بحسبه ، ويعرف ذلك بالقرائن ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٢٥] ، ومساكنهم شيء ، ولا تدخل في عموم كل شيء ، لأن المراد تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة ، وما يستحق التدمير .

وكذلك قوله تعالى حكاية عن بلقيس : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل : ٢٣] ، فالمراد من كل شيء يحتاج إليه الملوك ، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام ، وهو أنواع ، والتخصيص عند أهل الأصول ، فالتخصيص قصر العام على بعض أفراده .

وإذا عرفت ما ذكره لك ، فاعلم أن المراد من قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر : ٦٢] ، أي :خالق كل موجود سوى الله، فدخل في هذا العموم أفعال العباد ، ولم يدخل في العموم الخالق وصفاته، وصفاته ليست غيره، والكلام صفة من صفاته .

وقولهم : إن الله خلق الكلام منفصلاً عنه في بعض الأجسام ؟ .

فيقال في جوابهم : إن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل ، فإذا قام الكلام بمحل كان هو المتكلم به .

كما أن العلم والقدرة إذا قاما بمحل كان العالم القادر ، ولو كان كذلك ، لكان الكلام كلام ذلك الجسم الذي خلقه فيه ، فكانت الشجرة هي القائلة ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [القصص : ٣٠] ، وتصور هذا كاف في بطلانه .

مناظرة بين سُنِّي ومعتزلي :

وإلى القارىء من مناظرة بين سُنِّي ومعتزلي بحضرة المأمون ما يلي :

قال السُنِّي : يا أيها المتكلم ، ما حجتك أن القرآن مخلوق؟ ، وانظر أحدَّ سهم من كنانتك فارمني به ، ولا تحتج إلى معاودتي لغيرك .

قال المعتزلي : تقول يا أيها السُّنِّي : القرآن شيء أم غير شيء ؟ ، فإن قلت شيء فقد أقررت أنه مخلوق ، إذ كانت الأشياء كلها مخلوقة بنص التنزيل ، وإن قلت : إنه ليس بشيء فقد كفرت ، لأنك تزعم أن حجة الله على خلقه ليس بشيء .

قال السُّنِّي : فقلت للمعتزلي : ما رأيت أعجب من هذا ؟ ، أتسألني وتجيب عن نفسك ، فإن تسألني لأجيبك ، فاسمع الجواب : سألت عن القرآن ، هو شيء أم غير شيء ؟ ، فإن كنت تريد أنه شيء إثباتًا للوجود ونفيًا للعدم ، فنعم هو شيء ، وإن كنت تريد أن الشيء اسم له ، وأنه كالأشياء فلا .

فقال المعتزلي : ما أدري ما تقول ولا أفهمه ولا أعقله ولا أسمع ، ولابد من جواب يعقل ويفهم أنه شيء أم غير شيء ؟ .

قال : فقلت للمعتزلي : صدقت أنك لا تفهم ولا تعقل ولا تسمع ما أقول ، ولقد وصفت نفسك بأقبح الصفات ، واخترت لها أذم الاختيارات ، ولقد ذم الله عز وجل قومًا في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ قالوا مثل مقالتك ، وكانوا بمثل ما وصفت به نفسك ، قال الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣)** ﴾ [الأنفال : ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ **أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٤٠)** ﴾ [الزخرف : ٤٠] .

قال السُّنِّي للمعتزلي : إن الله أجرى كلامه على ما أجراه على نفسه ، إذ كان كلامه من ذاته ومن صفاته ، فلم يتسم بالشيء ،ولم يجعل الشيء اسمًا من أسمائه ، ولكنه دل على نفسه أنه شيء ، وأنه أكبر الأشياء إثباتًا للوجود ، ونفيًا للعدم ، وتكذيبًا للزنادقة ، ومن تقدمهم ممن جحد معرفته ، وأنكر ربوبيته من سائر الأمم ، فقال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ** ﴾ [الأنعام : ١٩] ، فدل على نفسه أنه شيء لا كالأشياء ، وأنزل في ذلك خبرًا خاصًا مفردًا لعلمه السابق، أنه سيوجد من يلحد في أسمائه وصفاته ،ويشبهون على خلقه، ويدخلون كلامه في الأشياء المخلوقة ، فقال عز وجل : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى : ١١] ، فأخرج نفسه وكلامه وصفاته من الأشياء المخلوقة بهذا الخبر تكذيبًا لمن ألحد في كتابه ، وافترى عليه ، وشبَّهه بخلقه ، فقال تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ**

﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) ﴾ [الأعراف : ١٨٠] ، ثم عدد أسمائه في كتابه ، ولم يتسم بالشيء ، ولم يجعل الشيء اسمًا من أسمائه .

ثم ذكر - جل ذكره - كلامه كما ذكر نفسه ، ودل عليه مثل ما دل على نفسه ، ليعلم الخلق أنه من ذاته ، وأنه صفة من صفاته ، فقال عز وجل : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام : ٩١] ، فذم الله من نفى أن يكون كلامه الذي أنزل على رسوله ﷺ شيئًا .

قال المعتزلي : قد أصلت بيني وبينك كتاب الله ، وزعمت أنك لا تقبل إلا بنص التنزيل ، فأين نص التنزيل أن كلام الله هو قوله ، وهو أمره ، وأن كلامه هو الحق ؟ .

قال السُّنِّي : قلت : نعم عليَّ أن آتي بنص التنزيل على ما قلت ، قلت : قال الله عز وجل ، وقد ذكر كلامه في القرآن : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦] ، وإنما يسمعه من قارئه ، وإنما عني القرآن لا خلاف بين أهل العلم واللغة في ذلك ، وقال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [الفتح : ١٥] ، وقال الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة : ٩١] ، ، فقد أخبر عن القرآن أنه الحق ، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦) ﴾ [الأنعام ٦٦] ، فأخبر عن القرآن أنه الحق .

فهذه أخبار الله كلها أن القرآن هو الحق ، ثم ذكر تعالى أن القرآن قوله ، وأن قوله هو الحق ، وأن الحق قوله ، فسماه الحق ، ثم ذكر أن الحق كلامه ، وأن كلامه الحق، فقال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) ﴾ [يونس : ٣٣]، وقال تعالى : ﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) ﴾ [يونس : ٨٢] ، فأخبر الله عن الحق أنه كلامه ، وأن كلامه هو الحق .

ثم ذكر الله عز وجل أن القرآن أمره وهو كلامه ، فقال تعالى : ﴿ **حم ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ④ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا** ﴾ [الدخان : ١ـ٥] ، يعني القرآن ، فأخبر الله أن القرآن أمره ، وأن أمره القرآن ، وقال عز وجل : ﴿ **ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ** ﴾ [الطلاق : ٥] ، يعني القران ، فهذا خبر الله أن القرآن أمره ، وأن أمره القرآن، وأن هذه أسماء شتى لشيء واحد، وهو الشيء الذي به خلق الأشياء ،وهو غير الأشياء،وخارج عن الأشياء، وغيره داخل في الأشياء ، ولا هو كالأشياء ، وبه تكون الأشياء ، وهو كلامه ، وهو قوله، وهو أمره ، وهو الحق ، وهذا نص التنزيل بلا تأويل ولا تفسير. أ . هـ[1].[2] .

تعقيب على المناظرة :

هذا الكلام منقول من الحيدة ، وهي المناظرة التي وقعت بين عبد العزيز بن يحيى ابن مسلم الكناني ، وبين بشر المريسي بحضرة المأمون ، وسواء صحت نسبتها إلى عبد العزيز أم لم تصح، فإن الحجج التي أوردها عبد العزيز قوية، تقطع شغب المعتزلة.

إلا أنه في المناظرة قال عبد العزيز : معنى « جعل » الذي بمعنى « خلق » ، جعله الله من القول المفصل ، يستغني السامع إذا أخبر به أن توصل له بكلمة توضح معناه ، وهذا هو ما عبَّر به شارح الطحاوية بأنه يتعدى إلى مفعول واحد ، وأما الذي بمعنى

---

(١) بتصرف وتلخيص من « الحيدة والاعتدال » .

(٢) **مسألة خلق القرآن** : إن القول بخلق القرآن فكرة يهودية ، أراد بها أصحابها الطعن في ذات الله وأسمائه وصفاته ، لأن أول قائل بها يهودي زنديق ، وذلك لأن القرآن الكريم كلام الله ، وكلامه صفة من صفاته ، والله بأسمائه وصفاته واحد أحد ، فرد صمد ، لم يلد ولم يُولد ، ولم يكن له كفوًا أحد ، وقد نزلت سورة الإخلاص جوابًا لسؤال المشركين واليهود الموجه لرسول الله ﷺ بأن يصف لهم ربهم .
فالقول بأن القرآن مخلوق طعن في صفاته تعالى وأنها مخلوقة ، وهذا القول كُفر ، ومن هنا حكم العلماء على أن من أُزيلت عنه الشبهة ، وأقيمت عليه الحجة في هذه المسألة ، وبقي معاندًا فإنه كافر .
وأما أن هذه الفكرة يهودية ، فقد قال ابن الأثير في الكامل وفي سنة ٢٤٠هـ توفي القاضي أبو عبد الله أحمد بن داود في المحرم بعد ابنه الوليد بعشرين يومًا وكان داعية إلى القول بخلق القرآن وغيره من مذاهب المعتزلة ، وأخذ ذلك عن بشر المريسي، وأخذه بشر من الجهم بن صفوان ، وأخذه الجهم من الجعد بن درهم ، وأخذه الجعد من أبان ، وأخذه أبان من طالوت ابن أخت لُبيد بن الأعصم وختنه ، وكان لُبيد يقول بخلق التوراة ، وأول من صنف في ذلك طالوت ، وكان زنديقًا فأفشى الزندقة .

« صيَّر » وهو الذي يريد مفعولين ، وعبَّر عنه الكناني بأنه من القول الموصل الذي لا يدري المخاطب به حتى تصل الكلمة بكلمة بعدها،فعندئذ يفهم ما أراد بها وإلا فلا ، كقوله تعالى : ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ** ﴾[ص : ٢٦] ، فلو قال : إنا جعلناك . . . ولم يصلها بـ خليفة في الأرض ، لم يعقل داود ما خاطبه الله عز وجل به ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ **وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا** ﴾[البقرة : ٢٢٤] ، إذ لا يقول عاقل أن هنا ﴿ **وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ** ﴾ بمعنى لا تخلقوا الله ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ **وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ** ﴾[الإسراء : ٢٩] ، بمعنى لا تصير ، لا بمعنى لا تخلق .

توضيح كلام الكناني :

إن ما كان بمعنى خلق يريد مفعولاً واحدًا تتم الفائدة به كقوله تعالى : ﴿ **وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ** ﴾[الأنعام :١] ، لأن القارئ إذا وقف على الظلمات لاستفاد ، ولا ينتظر شيئًا آخر .

وأما ما ليس بمعنى خلق فلا تتم الفائدة إلا بذكر المفعولين ، كقول الله تعالى : ﴿ **وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ** ﴾ [البقرة : ٢٢٤] ، لأن القارئ لو قال : ﴿ **وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ** ﴾ ووقف ، لانتظر السامع إلى ما تتم به الفائدة وهو قوله تعالى : ﴿ **عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ** ﴾ . وكذا قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا** ﴾[الزخرف : ٣] ، فلو وقف على « الهاء » في ﴿ **جَعَلْنَاهُ** ﴾ لما حصلت الفائدة حتى تقول قرآنًا .

الشبهة الثانية والجواب عليها :

هي أنهم احتجوا بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠)** ﴾[الحاقة : ٤٠] ، فالرسول هنا هو محمد ﷺ .

وقال تعالى في آية أخرى : ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١)** ﴾ [التكوير: ١٩ – ٢١] ، فالرسول هنا جبريل عليه السلام ، فهذا يدل أن الرسول الملكي أو الرسول البشري أحدثه .

فالجواب من وجوه :

[١] أضيف إلى الرسولين لأجل التبليغ ، لأن الرسول الملكي يبلِّغ عن الله الرسول البشري ، والرسول البشري يبلغ القوم عن الله، فهذا لم يقل : إنه لقول ملك أو نبي ، فالإضافة إلى كل منهما تبين أن الإضافة للتبليغ ، إذ لو أحدثه أحدهما امتنع أن يحدثه الآخر ، وقوله : رسول أمين دليل على أنه لا يزيد في الكلام الذي أُرسل بتبليغه ، ولا ينقص منه ، بل هو أمين على ما أُرسل به يبلغه عن مرسله .

[٢] ومما يزيد هذا تأكيداً وإيضاحًا ، أن الله قد كَفَّرَ من جعله قول البشر ، ومحمد ﷺ بشر ، فمن جعله قول محمد ﷺ - بمعنى أنه أنشأه ﷺ - فقد كَفَرَ ، ولا فرق في الكفران بين أن يضيفه إلى بشر أو ملك .

والدليل على ما نقول أن الإضافة في الآيتين للتبليغ فقط :

هو أن الكلام كلام من قاله مبتدئًا لا من قاله مبلغًا ، فإذا سمعت قارئ يقرأ ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)** ﴾ [الإخلاص : ١ ، ٢] فستقول : هذا كلام الله ، ولو سمعت : « **إنما الأعمال بالنيَّات ، وإنما لكل امرىء ما نوى** » ، لقت : هذا كلام رسول الله ﷺ ، ولو سمعت : « بانت سعاد فقلبي اليوم متبول » ، لقلت : هذا كلام كعب بن زهير .

يوضح هذا أن من يسمع من غيره نظمًا أو نثرًا ، يستفهمه بقوله : هذا كلامك ، أو كلام غيرك .

الشبهة الثالثة والجواب عليها :

ومن شبههم : احتجاجهم بقوله تعالى : ﴿ **مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢)** ﴾ [الأنبياء : ٢] .

فالجواب : إن المعنى محدث في النزول .

الشبهة الرابعة والجواب عنها :

وهي استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا** ﴾ [الزخرف : ٣] .

ما أفسده من استدلال ، فإن « جعل » إذ كان بمعنى « خلق » يتعدى إلى مفعول واحد ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾[الأنعام : ١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾[الأنبياء : ٣٠ ، ٣١] ، وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى « خلق » .

قال تعالى : ﴿ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ [النحل : ٩١] .

وقال تعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ ﴾[البقرة :٢٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) ﴾[الحجر : ٩١] .

وقال تعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾[الإسراء : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾[الإسراء : ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ﴾[الزخرف : ١٩]، ونظائره كثيرة ، فكذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾[الزخرف : ٣][١] .

فهل يقال في قوله تعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ ﴾ أي خلقتم الله ، وكذا سائر الآيات ؟ .

والآية التي استدلوا بها : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ تعدي إلى مفعولين ، فلا يمكن أن يقال : « إن خلقناه قرآنًا عربيًا » ، لأن ما تعدى إلى مفعولين ، لا يكون بمعنى خلق كما مر ، بل بمعنى صيَّر .

---

(١) والكلام من « الحيدة » نقلاً من « شرح العقيدة الطحاوية » لابن أبي العز الحنفي المتوفي (٧٢٢ هـ ، ص١٨٢) .

مذهب الأشاعرة

ذهب الأشاعرة إلى أن كلامه صفة أزلية قائمة بذاته ، ليست بحرف ولا صوت ، ولا تتعلق بمشيئته وقدرته ، وهذا هو الكلام النفسي ، وإطلاق الكلام على النفسي حقيقي ، وعلى اللفظي مجاز ، وصرحوا أن الكلام اللفظي مخلوق وحادث ، ولكن لا يقال إلا في مقام التعليم .

قال في الجوهرة :

ونزه القرآن أي كلامه عن الحدوث واحذر انتقامه

وكل نص للحدوث دلا احمل على اللفظ الذي قد دلا

قال الباجوري في تحفة المريد تحت البيت الأول ما نصه :

مذهب أهل السنّة « يعني الأشاعرة » : أن القرآن بمعنى الكلام النفسي ليس بمخلوق ، وأما القرآن بمعنى اللفظ الذي نقرؤه فهو مخلوق ، لكن يمتنع أن يقال : القرآن مخلوق ويراد به اللفظ الذي نقرؤه إلا في مقام التعليم ، لأنه ربما أوهم أن القرآن بمعنى كلامه تعالى مخلوق . أ . هـ .

ومن الأشاعرة من قال : إن الألفاظ التي نقرؤها تدل على الكلام القديم .

ومنهم من زعم : أن المُنزل المعنى ، وعبَّر عنه جبريل بألفاظ من عنده !! .

وقيل : عبَّر عنه النَّبي ﷺ بألفاظ من عنده !! .

واستدل الأشاعرة لمذهبهم بأن الكلام صفة أزلية ، وأنه هو الكلام النفسي بقول الأخطل النصراني حيث قال :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

والجواب من وجوه :

[١] إنه موضوع ومنسوب إلى الأخطل .

[٢] قيل : إنما قال :

إن البيان لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وهذا أقرب إلى الصحة ، وعلى تقدير ثبوت ما زعموا إلى الأخطل فلا يجوز الاستدلال به ، فإن النصارى قد ضلوا في معنى الكلام ، وزعموا أن عيسى عليه السلام نفس كلمة الله ، ولم يقولوا : كان بكلمة الله .

وهل يصح الاستدلال بقول نصراني قد ضل في معنى الكلام على معنى الكلام ، ويترك ما يعلم من معنى الكلام في لغة العرب ؟ .

[٣] إن معناه غير صحيح، إذ لازمه أن الأخرس يسمى متكلمًا لقيام الكلام بقلبه، وإن لم ينطق به ويسمع منه .

[٤] إن النبي ﷺ قال : « **إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس** » .

واتفق العلماء على تحريم الكلام في الصلاة عمداً لغير مصلحتها ، وأنها تبطل بذلك ، مع العلم أنهم متفقون أن ما يقوم بالقلب من تصديق وكلام في الأمور الدنيوية لا تبطل الصلاة بذلك ، ولو كان كلامًا لبطلت .

[٥] **ورد في الصحيحين : «إن الله تعالى تجاوز عن أمتي عما حدثت به أنفسها ، ما لم تتكلم به أو تعمل به »** .

وفرق بين حديث النفس وبين الكلام ، ولو كان حديث النفس كلامًا لما كان هناك فرق .

[٦] **ولا يخفى أن قولهم :** « إن الكلام صفة أزلية قائمة بذاته ، ولا تتعلق بمشيئته وقدرته » ، يلزم أن يكون الله يتكلم بغير اختيار وإرادة ، وهذا من القبح بمكان لا يخفى ، وزادت الأشعرية على ذلك القول الباطل ، أن الكلام معنى واحد هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار ، إن عبَّر عنه بالعربية كان قرآنًا ، وبالعبرانية كان توراة . . . إلخ .

والجواب :

إن من المعلوم بالضرورة بالعقل والدين ، أن التوراة إذا عربناها لم يكن معناها معنى القران ، والقرآن إذا ترجمناه إلى العبرانية لم يكن توراة ، ومعنى آية الكرسي ليس معنى ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ** ① ﴾[الكافرون : ١] ، ومعنى : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ**

أَحَدٌ ① ﴾[الإخلاص : ١] ، ليس معنى : ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ①** ﴾ [المسد : ١] ، ومعنى : ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ** ﴾[البقرة : ٤٣] ، ليس معنى ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ** ﴾[البقرة : ١٨٣] ، وإن الكل يسمى كلام الله ، كما نسمي زيداً إنسانًا ، وعَمْرًا إنسانًا ، وليس عين زيد عين عَمْرو .

شبهات الأشاعرة على قولهم : إن كلامه ليس بحرف و لا صوت :

أولاً : إن الحروف والأصوات لابد لها من مخارج وأدوات .

ثانيًا : إن الصوت يستحيل بقاؤه ، كما يستحيل بقاء الحركة ، وما امتنع بقاؤه امتنع قدم عينه .

ثالثًا : يلزم من الصوت والحرف التعاقب ، أي : أن يأتي حرف بعد حرف .

والقديم لا يكون مسبوقًا بغيره ، فلو كانت الميم في بسم الله قديمة مع كونها مسبوقة ، لكان القديم مسبوقًا بغيره ، وهذا ممتنع ، فيلزم أن يكون القديم هو المعنى القائم بالذات العلية .

من أجل ذلك قالوا : لا يجوز تعدده ، ويلزم أن يكون معنى واحد هو الأمر والنهي .... إلخ كما سبق ، وسبق نقضه .

والجواب على هذه الشبهة أن يقال :

الأول : إن المؤمن العاقل لتأخذه الدهشة والاستغراب من هؤلاء الذين أفنوا أعمارهم في دراسة العلوم ، ولا سيما في علم الكلام الذي سموه « علم التوحيد » وهو خال عنه ، ومع ذلك فاتهم الفرق بين الخالق والمخلوق ، وذلك لاستيلاء الأقيسة الكلامية على أدمغتهم حتى أذهلتهم عن المغايرة بين الخالق والمخلوق ، إذ ما زعموه من المخارج والأدوات وتعاقب الحروف وما إلى ذلك مما نمقوه من الشبه الواهية - التي هي أوهى من بيت العنكبوت - إنما تصح في المخلوق الذي يتكلم بفم ولسان ، ولا يكون كلامه إلا بتعاقب الحروف ، لا الخالق جل وعلا القائل ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾[الشورى : ١١] ، هذا هو الوجه الأول من رد الشبه .

الثاني : أن يقال لهم : أما تعلمون أن الله قال في كتابه : ﴿ **الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس : ٦٥] ، فهل الأيدي والأرجل التي ستتكلم يوم القيامة ، وتشهد على الإنسان بما عمل ، لها فم ولسان ومخرج ؟! ، أم أنها تنطق بقدرة الله من غير أن يلزم أن يكون لها ذلك ؟ .

الثالث : الحجر الذي سلم على النَّبي ﷺ ، والذراع الذي سمَّته اليهودية للنبي ﷺ ، ونطق بأنه مسموم ، فهل كان لهما لسان ومخرج ؟! .

الرابع : قد شاهد الناس في هذا العصر « الفوتوغراف - الحاكي - والمسجل » ، يتكلمان وليس فيهما مخارج وأدوات ، فإن قيل : إن الكلام مسجل فيهما وينطقان بحسب ما سجل ، قلنا : نعم ، وكيف ينطقان بكلام فصيح بغير أن يكون لهما لسان وحلق وفم ؟! .

الخامس : قولهم : إن الصوت يستحيل بقاؤه ، فلم يقيموا على هذا دليلاً لا نقليًا ولا عقليًا يصح عليه الاعتماد، وكل ما هنا لك فلسفة من تفلسف المعتزلة والجهمية . وقد ثبت في هذا العصر أن الأصوات باقية في الجو ، وأنهم يحاولون جذبها، وها هو المذياع يذيع في أوروبا أو أمريكا ، ويسمعه العالم في أرجاء المعمورة، فلو كان بمجرد خروجه من الفم ينفى ، لما أمكن جذبه وسماعه بالنسبة للنائين بمئات الألوف من الأميال .

والخلاصة :

إن هذا قول باطل عقلاً ونقلاً ومشاهدةً وذوقًا ، وأنهم بزعمهم فروا من التشبيه ، ولكنهم وقعوا فيه بهذا القياس الفلسفي المبني على غير أساس ، وأي قياس أفسد من قياس الخالق على المخلوق .

والحق أن الله يتكلم بحرف وصوت ، لأننا أجمعنا على أن موسى سمع كلام الله منه ، لا من شجرة ولا من حجر ولا من غيره ، وإذ ثبت أن موسى سمع من الله ، لم يجز أن يكون الذي سمعه إلا بصوت وحرف ، فإنه لو كان معنى في النفس لم يكن ذلك تكليمًا لموسى ، إذ المعنى شيء لا يسمع .

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في شرح البخاري :

ومن نفى الصوت يلزمه أن الله لم يسمع أحداً من ملائكته ولا رسله كلامه ، بل ألهمهم إياه إلهاماً ، وحاصل الاحتجاج بالنفي الرجوع إلى القياس على أصوات المخلوقين ، لأنها التي عهدت بأن تكون ذات مخارج ولا يخفى ما فيه ، إذ الصوت قد يكون من غير مخارج ، كما أن الرؤية قد تكون من غير اتصال أشعة كما سبق وأن سلمنا ، لكن تمنع القياس المذكور ، وصفات الخالق لا تقاس على صفات المخلوق .أ.هـ.

ومن الأحاديث في إثبات الصوت ما روى جابر بن عبد الله قال : خرجت إلى الشام إلى عبد الله بن أنيس الأنصاري ، فقال عبد الله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **يحشر الله العباد** ، أو قال : الناس - وأومأ بيده إلى الشام - **حفاة عُراة غرلاً بهُما** ، قال : قلت : ما بهُما ؟ ، **قال : ليس معهم شيء فيناديهم بصوت فيسمعه من بعد كما يسمعه من قرب ، أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى اللطمة ، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللطمة** ، قلنا : كيف ؟ ، وإنما نأت الله حفاة عراة غرلا ؟ ، قال : بالحسنات والسيئات » .

أخرج أصله البخاري في صحيحه مستشهداً به إلى قوله : « **أنا الملك ، أنا الديان** » ، وقد وافق السلف من متأخري الأشاعرة صاحب المواقف في كون كلامه بحرف وصوت .

وقولنا في النظم : « منه بدأ ثم إليه يرجع » ، أي : أنه المتكلم به ، لا أنه خلقه في غيره كما قال الله تعالى : ﴿ **تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** ① ﴾ [الزمر : ١] ، وقال تعالى : ﴿ **تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ** ② ﴾ [فصلت : ٢] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾ .

[السجدة : ١٣] .

ومعنى ﴿ **وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ** ﴾ [هود : ١٢٣] : ما ورد في عدة آثار من أنه يرفع من الصدور والمصاحف ، فلا يبقى في الصدور منه آية ولا في المصاحف .

وقولنا في النظم : قد حكموا بكفر من يقول ... » إلخ ، معناه واضح ، وممن حكم بكفره الإمام أحمد بن حنبل .

قال عبد الله بن الإمام أحمد في كتابه « السُّنَّة » :

سمعت أبي يقول : من قال : القرآن مخلوق فهو عندنا كافر ، لأن القرآن من علم الله ، وفيه أسماء الله .

سمعت أبي يقول : إذا قال الرجل : العلم مخلوق فهو كافر ، لأنه يزعم أنه لم يكن لله علم حتى خلقه .

ثم روى عبد الله عن ابن المبارك ، أنه سمع سفيان الثوري يقول : من زعم أن قول الله : ﴿ **أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾[القصص : ٣٠] ، مخلوق فهو كافر زنديق حلال الدم .

ثم روى عن ابن المبارك ، وعن سفيان بن عُيينة ، وعن وكيع ابن الجراح ، وعن يزيد بن هارون ، وعن نظرائهم ، ما يوافق ذلك .

كما ذكر السفاريني ناقلاً عن محمد بن عبد الملك الكرخي الشافعي عن كتابه « الفصول في الأصول » يروى عن أبي حامد الأسفراييني يقول : مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الأمصار أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر ، والقرآن حمله جبريل مسموعًا من الله ، والنَّبي سمعه من جبريل ، والصحابة سمعوه من النَّبي ﷺ ، وهذا الذي نتلوه نحن بألسنتنا وما بين الدفتين وما في صدورنا مسموعًا ومكتوبًا ومحفوظًا ومقروءًا ، وكل حرف منه كالباء والتاء كلام الله غير مخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر ، عليه لعائن الله والملائكة والناس أجمعين .

ثانيًا : رؤية الله :

ورؤية الإله ذي الإحسان ثابتة بالنص في القرآن
كذا الأحاديث عن المختار ثابتة حقًا فلا تمار

[ش] : رؤية الله من المسائل الكبار التي كثر فيها الجدل والنزاع بين المثبتين والنافين، أثبتها أهل السُّنَّة سلفًا وخلفًا اتباعًا للأنبياء والمرسلين ، وفي القرآن آيات

مشيرة إلى رؤيته تبارك وتعالى ، وآية مصرحة تصريحًا واضحًا لا غبار عليه .

كما جاءت الأحاديث والآثار عن النَّبي والصحابة والأخبار تصرح برؤيته تبارك وتعالى ، ومنها ما يفسر تلك الآيات .

وقد أجمع على الرؤية الصحابة والتابعون والأئمة المهتدين من أهل الفقه والحديث ممن لهم قدم صدق في العالمين ، ونفاها أهل الضلال من الجهمية والمعتزلة والروافض ونحوها من الضُّلال .

وإلى القارئ أدلة الفريقين ورد شبه النافين باختصار :

الأدلة النقلية :

[١] قال الله تعالى : ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ** ﴾ [يونس : ٢٦] ، الحسنى : هي الجنة ، والزيادة : هي النظر إلى وجهه الكريم .

[٢] وقال الله تعالى : ﴿ **كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥)** ﴾ .

[المطففين : ١٥] .

فسر الإمام الشافعي ووافقه العلماء الأجلاء مستنبطًا من الآيات والأحاديث ، أن من حل عليه غضب الله وسخطه ، يحجب عن رؤيته تبارك وتعالى ، لأن الآية مسوقة في تبيان من غضب الله عليه وحل سخطه به ، فتدل على أنه تعالى يراه المقربون الذين هم عن ربهم لا يحجبون .

[٣] الآية الصريحة في هذا المرام قوله تعالى : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)** ﴾ [القيامة : ٢٢] .

هذه الآية نص صريح لا يقبل التأويل في رؤيته تبارك وتعالى ، ومن سلط عليها التأويل فهو خارج عن سواء السبيل ، ولا يريد مبطل وملحد أن يهدم أي بنيان أسسه الإسلام إلا ودخل من باب التأويل ، فقوم أوَّلوا الصفات ، وآخرون أوَّلوا نصوص الجنة والنار والمعاد ، وطائفة أوَّلت التكاليف الشرعية كالصلاة والصيام .

وهل قُتِلَ عثمان وعليٌّ والحسين إلا بالتأويل الفاسد ؟! .

وهل تفرقت الأمة الإسلامية شيعًا وأحزابًا يسب بعضها بعضًا إلا بالتآويل الباطلة ؟!! .

ومما يبين أن الآية ناصَّةً على الرؤية البصرية ، أنها أسندت النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية ، وعدته بأداة « إلى » الصريحة في نظر العين ، ولا هناك قرينة توجب صرف المراد عن الحقيقة ، والركون إلى المجاز بدلاً عن الحقيقة لابد له من قرينة صارفة ، وإلا فالأصل في الألفاظ الحقائق .

وقولهم : التشبيه هو الذي يقضي علينا أن نؤول .

نقول : قد بيَّنا غير مرة أن التشبيه الذي يزعمونه لا يقول به أحد من أهل السُّنَّة ، فذاته ليست كذوات المخلوقين ، وصفاته ليست كصفات المحدثين ، ورؤيتنا له جل وعلا غير مكيفة ولا مشبهة ، وبهذا بطل ما زعموا .

فإن قيل : إن النظر قد يأتي بمعنى التوقف والانتظار ، كقوله تعالى : ﴿ **انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ** ﴾ [الحديد : ١٣] .

وبمعنى التفكر والاعتبار كقوله تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [الأعراف : ١٨٥] .

قلنا : إنه إذا ذكر النظر مع الوجه ، لم يكن معناه نظر الانتظار ، لأن الانتظار معه تنغيص وتكدير ، وأهل الجنة لهم العيش السليم ، والنعيم المقيم .

ويزيده إيضاحًا أن المعدى « بإلي » لا يجوز عند العرب بمعنى الانتظار ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩)** ﴾ [يس : ٤٩] ، ولم يقل « إلى » لأن معناها لا ينتظرون [١] .

وهكذا عن بلقيس ، قال تعالى : ﴿ **وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥)** ﴾ [النمل : ٣٥] .

وأما الاعتبار والتفكر ، فهذا يكون في دار الدنيا لا في دار الآخرة .

---

(١) قال امرؤ القيس :

خليلي مرا بي على أم جندب ... نقض لبنات الفؤاد المعذب

فإنكما إن تنظراني ساعة ... من الدهر ينفعني لدى أم جندب

الأدلة الحديثية :

الأحاديث كثيرة ، ومنها :

[١] في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن ناسًا قالوا يارسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة؟ ، فقال رسول الله ﷺ : «**هل تضامون في رؤية القمر ليلة البدر؟**» ، قالوا: لا يا رسول الله ، قال: «**هل تضامون في رؤية الشمس ليس دونها حجاب ؟** »، قالوا : لا ، قال : « **فإنكم ترونه كذلك** » .

[٢] وفي الصحيحين وغيرهما ، عن جرير بن عبد الله البجلي قال : كنا جلوسًا مع النَّبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشر فقال : « **إنكم سترون ربكم عيانًا كما ترون هذا ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل الغروب فافعلوا** » ، ثم قرأ : ﴿ **وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ** ﴾ [ق : ٣٩] .

قال العلماء : التشبيه في الحديث في قوله : « **كما ترون هذا** » للرؤية ، وهو فعل الرائي لا المرئي ، والمعنى : ترون ربكم رؤية ينزاح معها الشك ، وتنتفي معها الريبة ، كرؤيتكم القمر لا ترتابون ولا تمترون .

[٣] وأخرج مسلم والترمذي، وابن ماجه ،عن صهيب رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال : « **إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله : تريدون شيئًا أزيدكم** » ، فيقولون : ألم تبيِّض وجوهنا ؟ ، ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار ؟ ، قال : « **فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم** » ، ثم تلا هذه الآية ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ** ﴾ [يونس : ٢٦] .

والمعنى : يرفع الموانع عن الإدراك عن أبصارهم حتى يروه على ما هو عليه من نعوت العظمة والجلال .

وبالجملة فقد كثرت الأحاديث ، وبلغت مبلغ التواتر المعنوي عند أئمة الحديث، فقد رووا عن الصديق ، وأنس ، وجابر ، وجرير ، وحذيفة ، وصهيب ، وابن عباس ، وابن عمر ، وابن مسعود ، وأبي سعيد ، وأبي موسى الأشعري وغيرهم .

وقد أطنب في ذلك العلامة ابن القيم في « حادي الأرواح » بما يشفي ويكفي ، وبعد هذه الروايات الصحيحة والآيات الصريحة لا يمكن التأويل إلا ممن ضعف إيمانه أو قل عقله .

البرهان العقلي على الرؤية :

أن يقال : الرؤية في حد ذاتها أمر ممكن غير مستحيل ، فإذا كانت الرؤية ممكنة فلا محذور من إثباتها .

والدليل على إمكانها عقلاً : أن الله علقها على أمر ممكن وهو استقرار الجبل ، حيث قال تعالى : ﴿ **لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي** ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، وسيأتي زيادة بيان في رد شبه المعتزلة .

شبه المعتزلة :

زعمت المعتزلة ومن نحا نحوهم بأن معنى قوله تعالى : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)** ﴾ [القيامة :٢٢] ، أي : إلى نعيم ربها ، أو رحمة ربها ، أو منتظرة أمر ربها ، ونحو هذا التأويل كعادتها في الصفات .

وقالت : رؤيته تعالى يحيله العقل ، ويستلزم التشبيه ، وبأن يكون في جهة ومقابلة للرائي ونحو ذلك من الهذيان .

وعزت قولها بقوله تعالى : ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)** ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ، وبقوله تعالى : ﴿ **لَن تَرَانِي** ﴾ مخاطبًا موسى عليه السلام حين قال لله : ﴿ **أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ** ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

فإذا منع موسى من الرؤية فغيره أولى وأجدر ، وطعنوا في الأحاديث بأنها آحاد لا تعارض القطعي وهو القرآن القائل : ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ** ﴾ .

والجواب من وجوه :

[١] إن التأويل الذي ذكروه معناه : إن قوله تعالى : ﴿ **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ ، مبني على حذف مضاف التقدير إلى رحمة ربها أو إلى نعيم ربها ، ولو أطلق العنان لكل مؤول لأمكن أن يتلاعب بالعقائد وبجميع الأحكام الشرعية تحت ستار التأويل

والبناء على حذف المضاف والقول بالمجاز ونحو ذلك ، ولكن لا مناص عن الحقيقة ، ولا داعي إلى الحذف والمجاز هنا ، لا سيما وقد جاءت الأحاديث تثبت رؤيته سبحانه وتعالى .

[٢] وأيضًا من أنزل عليه القرآن هو الذي رووا عنه تلك الأحاديث الصحيحة والحسنة ، المفسرة لتلك الآيات الناصَّةُ والمشيرة إلى الرؤية ، وقد أبطل التأويل مطلقًا العلامة ابن القيم في الصواعق المرسلة بما لا مزيد بعده .

[٣] قولهم : الرؤية يحيلها العقل ، مردود بأن المخالفين لكم ، المثبتين للرؤية ، هم أكثر العقلاء ، وأوفر عددًا منكم ، وقد بينا أن العقل الصحيح لا يخالف القرآن والسُّنَّة الصحيحة ، ولا يتعارضان أبدًا ، وما ظهر من تعارض في الظاهر ، فإنه لعدم صحة في النقل ، أو عدم كمال في العقل .

[٤] إن العقل إذا ترك ونفسه ، لم يحكم باستحالة رؤيته إلا إذا صرفه برهان ، وقولهم يستلزم التشبيه ، بأن يكون في جهة ومقابلة للرائي ، قول ينادي على قائله أنه لم يعرف الله حق معرفته ، لم يعرفه إلا كما يعرف أبناء جنسه من المخلوقين ، وإلا لو عرف الله كما ينبغي لقال يُرى ، ولا يلزم بأن يكون تعرف الكيفية ، كما لا يلزم أن يكون في مقابلة الرائي واتصال أشعة منه إليه ، وهل هذا إلا قياس الخالق بالمخلوق ؟ ، تعالى الله عن ذلك .

واستدلالهم بالآية الشريفة ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ** ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ، ليس مقبولاً ، بل خطأ مردود عليهم ، والآية تدل على عكس ما ذهبوا إليه - كما سيأتي - ذلك أن الله تعالى ذكرها في سياق التمدح ، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية ، وأما العدم المحض فليس بكمال ، فلا يمدح به ، وإنما يمدح الرب بالنفي إذا تضمن أمرًا وجوديًا ، كمدحه بنفي السِنَة والنوم المتضمن لكمال القيومية ، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة ، ونفي اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة ، ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته .

ولهذا لم يُمدَحْ بعدم محض لم يتضمن أمرًا ثبوتيًا ، فإن المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم ، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه ، وهنا نفى

الإدراك المتضمن لكمال عظمته ، أي أنه لكمال عظمته يرى ولا يدرك ، ففي الآية ثبوت الرؤية ونفي الإحاطة بالشيء ، وهو قدر زائد على الرؤية ، كما قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا** ﴾ [الشعراء : ٦١ ، ٦٢] ، فلم ينف موسى الرؤية ، وإنما نفى الإدراك .

والحاصل أنه يرى ولا يدرك ، كما يعلم ولا يُحاط به علمًا ، وإذا أردت مثالاً يقرب إلى ذهنك ما نقول : فهذه الشمس المشرقة نراها ولا نتمكن من إدراكها .

وأيضًا نقول : إن الآية من قبيل سلب العموم ، أي لا تدركه كل الأبصار ، بمعنى لا تراه ، بل بعضها .

وإن سلمنا أنها من عموم السلب ، والإدراك هو الرؤية - كما زعموا - لا كما قلنا من أنها الإحاطة ، فنقول : لا دلالة بها على عموم الأوقات والأحوال ، حتى يصح نفيها في الدنيا وفي الآخرة ، وقد سبق أن كونه يرى ولا يدرك أبلغ في المدح من رؤيته مطلقًا .

وأما الجواب عن الآية الثانية : وهي : ﴿ **لَن تَرَانِي** ﴾ [الأعراف : ١٤٣] **فهي أيضًا حجة لنا على ثبوت الرؤية من وجوه :**

[١] إنه لا يظن بموسى عليه السلام [١] - وهو أعلم الناس بربه في وقته - أن يجهل هذه

---

(١) وقد اعترض المؤولة على قول أهل السُّنَّة : إن الله علق الرؤية على أمر ممكن وهو استقرار الجبل ، وسؤال موسى ربه ، ولا شك أن موسى أعلم بالله من أن يسال ما لا يجوز .

قالوا في اعتراضهم : إنا لا نسلم أن المعلق عليه ممكن ، لأن استقرار الجبل حال تحركه محال ، وأن موسى فسؤاله كان لأجل قومه حيث قالوا : ﴿ **لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً** ﴾ [البقرة : ٥٥] ، فسأله ليعلموا امتناعها كما علمه هو .

وأجاب سعد الدين التفتازاني : إن كلا من ذلك - أي من الاعتراضين - خلاف الظاهر ، ولا ضرورة في ارتكابه ، على أن القوم إن كانوا مؤمنين كفاهم قول موسي عليه السلام أن الرؤية ممتنعة ، وإن كانوا كفارًا لم يصدقوه في حكم الله بالامتناع ، والاستقرار حال التحرك ممكن بأن يقع السكون بدل الحركة ، وإنما المحال اجتماع الحركة والسكون . أ . هـ .

والحاصل : أن رؤية الله للمؤمنين في الدار الآخرة ثابتة بالكتاب والسُّنَّة والإجماع والعقل ، وقد حرر كل ذلك في الشرح ، ونعني بالإجماع أن الأمة من عهد الرسول ﷺ إلى أن ظهر المبتدعة من الجهمية والمعتزلة ، كانوا متفقين على رؤية الله في الدار الآخرة ، كما كانوا متفقين على إثبات الأسماء والصفات لله تعالى من غير تمثيل ولا تعطيل .

المسألة ، ويسأل ما لا يجوز .

قال الإمام الأشعري في جوابه للمعتزلة :

فإن قال قائل : لِمَ لا تقولون : إن قوله تعالى : ﴿**إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [القيامة : ٢٢] ، إنما أراد إلى ثواب ربها ناظرة ؟! .

قيل له : ثواب الله غيره ، والله سبحانه وتعالى قال : ﴿**إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ ولم يقل إلى غيره ناظرة ، والقرآن العزيز على ظاهره ، وليس لنا أن نزيله عن ظاهره إلا بحجة ، وإلا فهو على ظاهره .

ألا ترى أن الله عز وجل لما قال : « صلوا لي واعبدوني » ، لم يجز أن يقول قائل إنه أراد غيره ، ويزيل الكلام عن ظاهره ، فلذلك لما قال تعالى : ﴿**إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ لم يجز لنا أن نزيل القرآن عن ظاهره بغير حجة .

ثم نقول للمعتزلة :

إن جاز لكم أن تزعموا أن قول الله تعالى ﴿**إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ ، إنما أراد به أنها إلى غيره ناظرة ، فلِمَ لا يجوز لغيركم أن يقول : إن قول الله سبحانه : ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾ [الأنعام : ١٠٣] ، أراد بها لا تدرك غيره ، ولم يرد أنها لا تدركه ، وهذا مما لا يقدرون على الفرق فيه .

ودليل آخر :

ومما يدل على أن الله تعالى يرى بالأبصار ، قول موسى عليه السلام : ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، ولا يجوز أن يكون موسى عليه السلام ـ وقد ألبسه الله جلباب النبيين ، وعصمه بما عصم به المرسلين ـ قد سأل ربه ما يستحيل عليه ، فإذا لم يجز ذلك على موسى عليه السلام ، علمنا أنه لم يسأل ربه مستحيلاً ، وأن الرؤية جائزة على ربنا تعالى .

ولو كانت الرؤية مستحيلة على ربنا تعالى ـ كما زعمت المعتزلة ـ ولم يعلم ذلك موسى عليه السلام وعلموا هم ، لكانوا ـ على قولهم ـ أعلم بالله من موسى عليه السلام ، وهذا مما لا يدعيه مسلم . أ . هـ .

[٢] إن الله لم ينكر عليه سؤاله ، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر سؤاله وقال : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[هود : ٤٦] .

[٣] إنه قال : ﴿ لَن تَرَانِي ﴾[الأعراف : ١٤٣] ، ولم يقل : إني لا أُرى ، أو لست بمرئي ، والفرق بين الجوابين ظاهر ، ألا ترى أن من كان في كمه حجر ، فظنه رجل طعامًا ، فقال : أطعمنيه ، فالجواب الصحيح أنه لا يؤكل ، وإذا كان مأكولاً يجوز أن يقول : إنك لن تأكله مع صحة الأكل .

[٤] إن الله تعالى علق الرؤية باستقرار الجبل ، وهو أمر ممكن ، والمعلق على الممكن ممكن ، وعدم رؤية موسى ليست لكونها مستحيلة ، بل لأن قوى البشرية لا تحتمل في هذه الدنيا مشاهدة الملائكة والجن ، فضلاً عن الإله العظيم ، لأنها غير مهيأة لذلك ، ويعتريها ما يغيرها ويضعفها ،وتنتقل من طور إلى طور حتى تتلاشى وتبيد .

وأما في الآخرة : فإنها ستكون مهيأة ومركبة بتركيب أبدي سالم من الآفات والاضمحلال والفناء ، ولهذا تقوى هناك على مشاهدة ملايين من الملائكة والجن والنيران والزبانية ، فلا عجب إذا قدرت أن ترى ربها ، ولكل دار حكم يخصها .

وموسى عليه السلام سأل الرؤية في دار الدنيا ، وفي ذلك الوقت بعينه لقوله تعالى : ﴿ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ ، ولم يقل هل تُرى ، أو هل أراك حتى يرد ما قالوا .

والرب أجابه بأنه إذا كان الجبل الذي هو أقوى منك وأعظم صلابة لا يستقر ، فكيف أنت يا موسى ؟ ، ولهذا لما تجلى للجبل ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾، أي مستويًا بالأرض ، ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾[الأعراف : ١٤٣].

وإذا تجلى الله للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب ، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسله وأوليائه في دار كرامته ؟ .

وقول الزمخشري : إن ﴿ لَن ﴾ تفيد التأبيد ، وإن ذلك يدل على أن نفي الرؤية في الآخرة ، فاسد ، بل إنها للتأكيد ، ولذلك تقيدت بأبداً ، وإن سلم أنها للتأبيد ، فإنه لن يكون في الدنيا لقوله تعالى : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة : ٩٥] ، مع أنهم يتمنون الموت في الآخرة للخلاص من العذاب .

والخلاصة :

أن رؤية الله تبارك وتعالى جائزة عقلاً ، إذ لا يترتب على وقوع الرؤية محال ، ولأن كليم الله موسى عليه السلام طلب الرؤية من الله فقال : ﴿ **رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ** ﴾ ، ولا يصح أن يكون نبي الله جاهلاً يطلب ما لا يجوز وقوعه ، وثابت وقوعها نقلاً في الدار الآخرة بتلك الآيات التي أوردناها فيما سلف ، والأحاديث والبراهين العقلية ، هذا بالنسبة للآخرة .

أما بالنسبة للدنيا ، فقد أجمع أهل العلم من السُّنَّة وغيرهم أنها لم تقع لمخلوق ، إلا أنهم اختلفوا في الرسول محمد ﷺ ليلة المعراج ، عن ابن عباس وجماعة من أتباعه أنها وقعت له .

وعن عائشة الصدِّيقة وجماعة من الصحابة منهم : ابن مسعود ، وأبو هريرة وغيرهم إنكارها .

وقد سُئلت عائشة عن آيتي التكوير والنجم ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣)** ﴾ [التكوير : ٢٣] ، ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣)** ﴾ [النجم : ١٣] ، فقالت : إنما هو جبريل رآه على صورته التي خلق عليها مرتين .

وفي الصحيحين عن مسروق قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : يا أماه هل رأى محمد ﷺ ربه ؟ ، فقالت : لقد قف شعري مما قلت ، أين أنت من ثلاث ، من حدثكن فقد كذب ؟، من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت قوله تعالى : ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)** ﴾ [الأنعام:١٠٣] ، وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ** ﴾ .

[الشورى : ٥١] [(١)] .

ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ، ثم قرأت قوله تعالى : ﴿ **وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا** ﴾ [لقمان : ٣٤] .

---

(١) قرأت عائشة رضي الله عنها قوله تعالى : ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ** ﴾ [الأنعام : ١٠٣] بعد أن نفت رؤية النبي ﷺ للرب ، تقصد به في الدنيا لا في الآخرة .

ومن حدثك أنه قد كتم فقد كذب ، ثم قرأت قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾ [المائدة : ٦٧] ، ولكنه رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين .

ويدل لما ذهبت إليه عائشة رضي الله عنها حديث مسلم : « **لن يرى أحدكم ربه حتى يموت** » .

وأنكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن محمداً ﷺ رأى ربه ـ يعني بعيني رأسه ـ ، وقال : من زعم هذا عنه فقد وهم .

ولذا قال صاحب الفتح :

إن ما نقل عن ابن عباس من إثبات الرؤية ، بعضه مقيد برؤية الفؤاد ، وبعضه مطلق ، وينبغي حمل المطلق على المقيد ، فلا خلاف بين ابن عباس في إثبات الرؤية وبين عائشة رضي الله عنها في إنكار رؤية العين .

وقد أنشد الزمخشري في الكشاف يهجو أهل السُّنَّة :

لجماعة سموا هواهم سُنَّة ... وجماعة حمر لعمري مؤكفة
قد شبهوه بخلقه فتخوفوا ... شنع الورى فتستروا بالبلكفة

ورد عليه السيد البليدي بقوله :

هل نحن من أهل الهوى أو أنتم ... ومن الذي منا حمير مؤكفة
اعكس تصب فالوصف فيكم ظاهر ... كالشمس فارجع عن مقال الزخرفة
يكفيك في ردي عليك بأننا ... نحتج بالآيات لا بالفلسفة
وينبغي رؤيته فأنت حرمتها ... إن لم تقل بكلام أهل المعرفة
فنراه في الأخرى بلا كيفية ... وكذلك من غير ارتسام للصفة

وقال بعضهم في الرد عليه :

شبهت جهلا صدر أمة أحمد ... وذوي البصائر بالحمير المؤكفة
وجب الخسار عليك فانظر منصفا ... في آية الأعراف فهي المنصفة
أترى الكليم أتى بجهل ما أتى ... وأتى شيوخك ما أتوا عن معرفة

إن الوجـــوه إليـــه ناظرة بذا جاء الكتاب فقلتم هذا سفه
نطق الكتاب وأنت تنطق بالهوى فهوى الهوى بك في المهاوي المتلفة
وجماعة كفروا برؤية ربهم حقًا ووعد الله ما لن يخلفه
وتلقبوا عدلية قلنا أجل عدلوا بربهمو فحسبهمو سفه
وتلقبوا الناجين كلا إنهم إن لم يكونوا في لظى فعلى شفه

تأمل أيها القارىء كلام الزمخشري في أهل السُّنَّة والجماعة ، الذين هم صفوة المسلمين وخيار المؤمنين من الصحابة والتابعين ، وتابعي التابعين وسائر الأئمة المهتدين ، كيف يصفهم هذا المبتدع الضال بالحمير ؟ ، عامله الله بعدله .

وإني لأعجب من كثير ممن ينتسب إلى العلم ، كيف يثني على تفسيره الكشاف ؟ ، وهو مملوء من النزغات الإعتزالية والعقائد الرديئة .

فإن قيل : إن كشاف الزمخشري طيب ونافع من ناحية النحو والبلاغة ، قلنا : هناك تفاسير أخرى كالبيضاوي والبحر المحيط وكتب إعراب القرآن تغني عنه .

ولا بأس للعالم أن يقتني الكشاف ليقف على ضلالاته ، وقد يستفيد من بعض كلامه ، ولكن الكلام هنا فيمن يحبذه الناس ، ويثني عليه ، ويترحم عليه ، إذ لا ينبغي للسُّنِّي الخالص أن يثني على المبتدع ويجهر بمدحه وتحبيذ كتبه .

فصل

في بيان بعض الأخطاء الموجودة في كتب الخلف وينسبونها إلى مذهب السلف وبعض أخطاء جعلوها من المسلمات وليست كذلك

فقولهم إن طريقة الخلف ... أعلم أحكم فهذا عين السرف
وإنهم قالوا بأن السلفا ... أسلم والرحمن (١) ذاعين الجفا
والسلف الصالح والله الأجل ... أعلم أحكم بلا ريب حصل
قد نسبوا الجهل إلى الصحابة ... وتابعيهم ذوي الإصابة
وتابع للتابعين الفضلا ... كذا الأئمة الكرام النبلا
بقولهم هذا فجانب يا فتى ... ما لم يكن عن سلف قد ثبتا
« فكل خير (١) في اتباع من سلف ... وكل شر في ابتداع من خلف
فتابع الصالح ممن سلفا ... وجانب البدعة ممن خلفا »
قد نسبوا للسلف الثقات ... تفويضهم للبعض من صفات
كصفة الوجه وكاليدين ... لله ربي خالق الكونين
ولم يصح زعمهم لكنما ... قد فوضوا كنه الصفات فاعلما
والفرق بين القولتين شاسع ... يفهمه القاري كذلك السامع

[ش] : [١] قال شيخ الإسلام : ولا يجوز أن يكون الخالفون أعلم من السالفين ، كما قد يقول بعض الأغبياء - ممن لا يعرف قدر السلف ، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها - من أن طريقة السلف أسلم ، وطريقة الخلف أعلم وأحكم .

فإن هؤلاء المبتدعين الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة ، ومن حذا حذوهم على طريقة السلف ، إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد

(١) الواو : حرف قسم وجر، والرحمن : مقسم به ،وكذا قوله في البيت الثاني : « والسلف الصالح والله الأجل » .
(٢) هذا البيت والذي يليه هما من الجوهرة ، فليعلم .

الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك ، بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ ﴾ [البقرة : ٧٨] .

وإن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات .

وقد كذبوا على طريقة السلف ، وضلوا في تصويب طريقة الخلف ، وسبب ذلك اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص بالشبهات الفاسدة ، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر ، وكان مع ذلك لابد للنصوص من معنى ، بقوا مترددين بالإيمان باللفظ وتفويض المعنى ، وهي التي يسمونها طريقة السلف ، وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع من التكلف وهي التي يسمونها طريقة الخلف .

فصار هذا الباطل مركبًا من فساد العقل ، والكفر بالسمع ، فإن النفي إنما اعتمدوا فيه على أمور عقلية ظنوها بينات ، وهي شبهات ، والسمع حرفوا فيه الكلم عن مواضعه .

فلما انبنى أمرهم على هاتين المقدمتين ، كانت النتيجة استجهال السابقين الأولين واستبلاههم ، واعتقاد أنهم كانوا قومًا أميين لم يتبحروا في حقائق العلم بالله ، ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلهي ، وأن الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله .

والإشارة بالخلف إلى ضرب من المتكلمين الذين كثر في باب الدين اضطرابهم وغلظ عن معرفة الله حجابهم .أ . هـ .

[٢] قد اشتهر في الكتب الكلامية أن عقيدة السلف هي تفويض معنى الصفات إليه تعالى ، وهو التأويل الإجمالي .

وإن الخلف يؤولون تأويلاً تفصيليًا لكل صفة من الصفات التي لابد لها من التأويل على زعمهم ، ونسبة التفويض إلى السلف نسبة خاطئة ضالة .

بل السلف الصالح يقولون في الصفات ـ كالاستواء والوجه واليدين ـ نثبت ما ورد في القرآن والسُّنَّة الصحيحة ، ونعرف معناها اللغوي ، ولكن نفوض حقيقتها اللائقة به تعالى إليه .

وهذا ما أشار إليه في النظم بقوله : « وفوضوا كنه الصفات فاعلما » .

وقد مر في كلام شيخ الإسلام : « إنهم بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى ، وهي التي يسمونها طريقة السلف » ، وهذا عين ما قلناه .

قال في الفتاوى الحموية: وأما المنحرفون عن طريقة السلف فهم ثلاث طوائف : أهل التخييل ، وأهل التأويل ، وأهل التجهيل .

فأهل التخييل : هم المتفلسفة ، ومن سلك سبيلهم من متكلم ومتصوف ومتفقه فإنهم يقولون : إن ما ذكر الرسول ﷺ من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر ، إنما هو تخييل للحقائق لينتفع به الجمهور ، لا أنه بين الحق ، ولا هدى به الخلق ، ولا أوضح به الحقائق .

وأما أهل التأويل فيقولون :

إن النصوص الواردة في الصفات ، لم يقصد بها الرسول ﷺ أن يعتقد الناس الباطل ، ولكن قصد بها معاني ، ولم يبين لهم تلك المعاني ولادلهم عليها ، ولكن أراد أن ينظروا فيعرفوا الحق بعقولهم ، ثم يجتهدوا في صرف تلك النصوص عن مدلولها .

وأما الصنف الثالث وهو أهل التجهيل :

فهم كثير من المنتسبين إلى السُّنَّة وأتباع السلف ، ويقولون : إن الرسول ﷺ لم يعرف معاني ما أنزل الله إليه من آيات الصفات ، كما لم يعرف جبريل ، ولا السابقون الأولون .

وكذلك قولهم في أحادث الصفات :

إن معناها لا يعلمه إلا الله ، مع أن الرسول تكلم به ابتداء ، فعلى قولهم تكلم بكلام لا يعرف معناه ، وهؤلاء يظنون إنما اتبعوا قوله تعالى : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ ، فقد وقف أكثر السلف على قوله تعالى : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران : ٧] ، وهو وقف صحيح ، لكن لم يفرقوا بين معنى الكلام وتفسيره وبين

التأويل الذي انفرد الله بعلمه، وظنوا أن التأويل المذكور في كلام الله هو التأويل المذكور في كلام المتأخرين، وغلطوا في ذلك ، **فإن لفظ التأويل يراد به ثلاث معان :**

المعنى الأول : في اصطلاح كثير من المتأخرين ، هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن بذلك ، فلا يكون معنى اللفظ الموافق لدلالة ظاهره تأويلاً - على اصطلاح هؤلاء - وظنوا أن مراد الله بلفظ التأويل ذلك .

والمعنى الثاني : إن التأويل هو تفسير الكلام ، سواء وافق ظاهره أو لم يوافق ، وهذا معنى التأويل في اصطلاح جمهور المفسرين وغيرهم ، وهذا التأويل يعلمه الراسخون في العلم، وهو موافق لوقف من وقف من السلف على قوله تعالى : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** ﴾ [آل عمران : ٧] ، كما نقل عن ابن عباس ومجاهد .

المعنى الثالث : إن التأويل هو الحقيقة التي يؤول الكلام إليها وإن وافق ظاهره ، فتأويل ما أخبر الله به في الجنة - من الأكل والشرب والنكاح وقيام الساعة وغير ذلك - هو الحقائق الموجودة أنفسها ، لا ما يتصور من معانيها في الأذهان ، ويعبر عنه باللسان ، وهذا هو التأويل في لغة القرآن، كما قال الله عن يوسف أنه قال : ﴿ **يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا** ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، وقال تعالى : ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** ﴾ [الأعراف : ٥٣] ، وهذا التأويل هو الذي لا يعلمه إلا الله .

فتأويل الصفات هو الحقيقة التي انفرد الله بعلمها ، وهو الكيف المجهول الذي قال فيه السلف كمالك وغيره : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول .

فالاستواء معلوم ، يعلم معناه ويفسر ويترجم بلغة أخرى ، وهو من التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم .

وأما كيفية ذلك الاستواء ، فهو الذي لا يعلمه إلا الله [١] ، أ . هـ .

---

(١) من الحموية ملخصًا .

فصل

وقـولهم بأن ذي الصـفـات تـعـد من تشـابـه الآيات
لا يفـهـم المعنى سـوى الإلـه ذا خطأ من غـيـر ما اشـتـبـاه
بل إنهـا مـعـقـولة المعاني في لغـة العـرب بلا نكـران
لكن بالنسـبـة للحـمـيـد الكيف مـجـهـول بلا ترديد
ووافق أهل العلم ما قد قالا مـالكنا الإمـام عَ لمقالَ

[ش] : زعم بعض أهل العلم أن آيات الصفات وأحاديثها - ويعنون بها الصفات الخبرية كالاستواء والوجه والنزول واليدين - أنها معدودة من المتشابه الذي لا يعلم معناه إلا الله ، مستدلين بقوله تعالى : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ ، إلى هنا تنتهي الآية ويبتديء بقوله : ﴿ **وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** ﴾ . [آل عمران : ٧] .

وزعم هؤلاء جواز اشتمال القرآن على ما لا يعلم معناه ، وعلى ما تعبدنا الله بتلاوة حروفه بلا فهم !! .

بل زعم بعضهم أن النَّبي ﷺ ما كان يعلم معنى هذه الآيات !! وبطلان هذا أوضح من الشمس في رائعة النهار ، فإن جاز على زعمهم أن لا يعلم معاني تلك الآيات النازلة عليه ، مثل قوله تعالى : ﴿ **وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧)** ﴾ [الرحمن : ٢٧] ، وقوله تعالى : ﴿ **الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ [طه : ٥] ، وقوله تعالى : ﴿ **بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ** ﴾ [المائدة : ٦٤] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢)** ﴾ [الفجر : ٢٢] ، إلى غير ذلك من الآيات .

فهل لا يعلم معنى قول نفسه ؟!! عندما قال ﷺ : « **ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا** » .

وقوله ﷺ : « **إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن** » .

والأحاديث الواردة في الصفات الخبرية عن النَّبي ﷺ كثيرة ، فهل يعقل أن

يتكلم متكلم بكلام لا يفهم معناه ؟! ، ولا سيما إمام المرسلين ، الذي أرسله الله للناس للتبليغ والبيان .

لا يقول هذا من في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، أو مسكة من عقل أو وجدان ، وقد مضى كلام شيخ الإسلام - نقلاً عن الحموية - في بيان التأويل وأقسامه ، ما يبطل ويفند مزاعم هؤلاء الذين لم يحترموا عقول الناس وأفهامهم ، بل ولم يحترموا سيد العالمين وأصحابه المتقين بهذا الإفك المبين ، زاعمين أنهم بهذا ينجون من ضلال التأويل والتجسيم .

ونزيدك إيضاحًا وبيانًا على بطلان زعمهم بما ثبت عن مجاهد قال : عرضت المصحف على ابن عباس مرات من أوله إلى آخره أقف عند كل آية وأسأله عنها .

فهذا ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن ، وهو أحد من كان يقول : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ يجيب مجاهداً عن كل آية في القرآن ، يوضح ذلك أن الصحابة والتابعين لم يمتنع أحد منهم عن تفسير آية من كتاب الله ، ولم يقل : هذه من المتشابه الذي لا يعلم معناه .

ولا قال أحد قط من سلف الأمة ولا من الأئمة المتبوعين : إن في القرآن آيات لا نعلم معناها ، ولا يفهمها رسول الله ﷺ ، ولا أهل العلم والإيمان جميعهم ، وإنما قد ينفون علم بعض ذلك عن بعض الناس ، وهذا لا ريب فيه ، بل من الغلط الواضح إدخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك في المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله ، أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذي استأثر الله بعلم تأويله ، كما قلت في النظم : « ذا خطأ من غير ما اشتباه » .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - :

كما يقول كل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم ، فإنهم وإن أصابوا في كثير مما يقولون ، ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم ، **فالكلام على هذا من وجهين :**

الأول : من قال إن هذا من المتشابه الذي لا يفهم معناه ؟ .

والثاني : ما الدليل على ذلك ؟ .

قال : فإني لا أعلم من أحد من سلف الأمة ، ولا من الأئمة، لا أحمد بن حنبل، ولا غيره ، أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في هذه الآية، ونفى أن يعلم أحد معناه ، ولا جعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يفهم ، ، ولا قالوا : إن الله ينزل كلامًا لا يفهم أحد معناه ، وإنما قالوا : كلمات لها معان صحيحة .

قالوا في أحاديث الصفات :

تمر كما جاءت ، ونهوا عن تأويلات الجهمية التي مضمونها تعطيل النصوص على ما دلت عليه ، وردوها وأبطلوها .

ونصوص أحمد والأئمة قبله بينة في أنهم كانوا يبطلون تأويلات الجهمية ، ويقرون النصوص على ما دلت عليه من معناه ، وأحمد قد قال في غير أحاديث الصفات : تمر كما جاءت في أحاديث الوعد والوعيد والفضائل ، ومقصوده بذلك أن الحديث لا يحرف كلمه عن مواضعه، كما يفعله من يحرفه ، ويسمي تحريفه تأويلاً بالعرف المتأخر ، فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل .

وكذلك نص أحمد في كتاب « الرد على الزنادقة والجهمية » ، بأنهم تمسكوا بمتشابه القرآن ، وتكلم أحمد على ذلك المتشابه ، وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية ، وجرى في ذلك على سُنن الأئمة قبله .

فهذا اتفاق من الأئمة على أنهم يعلمون معنى هذا المتشابه ، وأنه لا يسكت عن بيانه وتفسيره ، بل يُبين ويُفسر (١) . أ . هـ .

ومن الأخطاء الموجودة في كتبهم ما قالوا : إننا نحن والسلف متفقون على أن ظاهر النصوص غير مراد ، ولذلك أوَّلنا تفصيلاً ، وأوَّل السلف إجمالاً ، والكل يقصد التنزيه ، فحصل الاتفاق بين الجميع . هذا معنى كلامهم .

ووجه الخطأ أن يقال لهذا القائل : لفظ الظاهر فيه إجمال واشتراك ، فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين ، أو ما هو من خصائصهم ، فلا ريب أن هذا غير مراد ، ولكن السلف والأئمة لم يكونوا يسمون هذا ظاهرًا ، ولا

(١) من « الإكليل » .

يرضون أن يكون ظاهر القرآن والحديث كفرًا وباطلاً ، والله أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذي وصف به نفسه ، لا يظهر منه إلا ما هو كفر وضلال ، ومن نسب ذلك إلى القرآن فقد أعظم الفرية على الله ، وخلع ربقة الإسلام من عنقه ، ولا ينفعه انتسابه إلى الإسلام .

وإن كان القائل يعتقد أن ظاهر النصوص المتنازع في معناها من جنس ظاهر النصوص المتفق على معناها ، والظاهر هو المراد في الجميع ، فإن الله لما أخبر أنه بكل شيء عليم ، وأنه على كل شيء قدير ، واتفق أهل السُّنَّة وأئمة المسلمين على أن هذا على ظاهره ، وأن ظاهر ذلك مراد .

كان من المعلوم أنهم لم يريدوا بهذا الظاهر أن يكون علمه كعلمنا وقدرته كقدرتنا ، وكذلك لما اتفقوا على أنه حي حقيقة ، عالم حقيقة ، قادر حقيقة ، لم يكن مرادهم أنه مثل المخلوق الذي هو حي عليم قدير .

وكذلك إذ قالوا في قوله تعالى : ﴿ **يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** ﴾ [المائدة : ٥٤] ، وقوله : تعالى : ﴿ **رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾ [المائدة : ١١٩] ، وقوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ [الفرقان : ٥٩] ، وقوله تعالى : ﴿ **يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** ﴾ [الفتح : ١٠] ، إنه على ظاهره ، لم يقتض ذلك أن يكون ظاهره استواءه كاستواء المخلوق ، ولا حبًا كحبه ، ولا رضًا كرضاه ، ولا يداً كيده ، **وهنا لابد من أمرين لا محيص عنهما :**

الأول : إما أن يقول المؤول : إن ظاهر الصفات تماثل صفات المخلوقين ، فحينئذ لزمه أن لا يكون شيء من ظاهر ذلك مراداً ، لا العلم ، ولا القدرة ، ولا الإرادة ، ولا الاستواء ، ولا غيرها .

الثاني : وإما أن يعتقد أن ظاهر هذه الصفات على ما يليق بالخالق، ويختص به ، وحينئذ لم يكن له نفي هذا الظاهر ونفي أن يكون مراداً إلا بدليل يدل على النفي ، وليس في العقل ولا في السمع ما ينفي هذا إلا من جنس ما ينفي به سائر الصفات ، فيكون الكلام في الجميع واحداً .

فإذا كانت ذاته المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين ، فصفاته كذاته ليست مثل صفات المخلوقين ، فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، ونسبة صفة المخلوق إليه ، كنسبة صفة الخالق إليه ، وليس المنسوب كالمنسوب ، ولا المنسوب إليه كالمنسوب إليه ، كما قال ﷺ : « **ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر** » ، فشبه الرؤية بالرؤية ، ولم يشبه المرئي بالمرئي .

ومما يبين غلطهم ويوضح ما سلف ، أن كثيرًا من الناس يتوهم في بعض الصفات أو كثير منها أو أكثرها أو كلها أنها تماثل صفات المخلوقين ، ثم يريد أن ينفي ذلك الذي فهمه ، **فيقع في أربعة أنواع من المحاذير :**

الأول : مثل ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين ، وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل .

الثاني : إذا جعل ذلك هو مفهومها وعطله ، بقيت النصوص معطلة عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله .

الثالث : إنه ينفي تلك الصفات عن الله بغير علم ، فيكون معطلاً لما يستحقه الرب .

الرابع : إنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات ، من صفات الأموات والجمادات أو صفات المعدومات [١] .

والخلاصة :

أنه شبَّه أولاً ، ثم عطل ثانيًا ، فجمع بين القبحين ، ووقع في الضلالين .

وهدى الله أهل السُّنَّة إلى الجمع بين إيمانهم بالصفات - كإيمانهم بالذات - وتنزيه الله عن مماثلة المخلوقات .

فالمشبه يعبد صنمًا ، والمعطل يعبد عدمًا ، والموحد يعبد إله الأرض والسماء ، **ورحم الله ابن القيم حيث قال :**

من شبَّه الله العظيم بخلقه ... فهو النسيب لمشرك نصراني
أو عطل الرحمن من أوصافه ... فهو الكفور وليس ذا إيمان

---

(١) من « التدمرية » بتلخيص وزيادة إيضاح في بعض المواقع .

ومن الأخطاء الفاحشة المشتهرة في كتبهم التي جعلوها من المسلمات التي لا تقبل المناقشة ، وردوا من أجلها كثيراً من أحاديث العقائد الصحيحة ، قولهم :

إذا تعارض الدليل النقلي مع الدليل العقلي ، قدم الدليل العقلي على النقلي ، لأن العقل أصل للنقل ، ويجب تأويل الدليل السمعي لأجل موافقته للدليل العقلي .

والحق ما قال شيخ الإسلام : إن كلا من الدليلين إما قطعي ، وإما غير قطعي ، فالقطعيان ، لا يمكن أن يتعارضا [1] حتى نرجح أحدهما على الآخر .

---

(١) سواء أكانا عقليين أو سمعيين ، أو أحدهما عقليًا والآخر سمعيًا ، وهذا متفق عليه بين العقلاء ، لأن الدليل القطعي هو الذي يجب ثبوت مدلوله ، ولا يمكن أن تكون دلالته باطلة ، وحينئذ فلو تعارض دليلان قطعيان ، وأحدهما يناقض مدلول الثاني ، لزم الجمع بين النقيضين وهو محال ، بل ما يرد من التعارض بين الأدلة التي يحسبونها قطعية ، فلابد أن يكون أحدهما غير قطعي ، أو أن لا يكون مدلولهما متناقضين .

أما قولهم : إن العقل هو الأصل في معرفتنا بالسميع ، وإذا قدمنا النقل كان ذلك طعنًا في أصله ـ الذي هو العقل ـ فهذا غير مسلم ، لأنهم إن أرادوا بالعقل الغريزة التي فينا ، فتلك ليست علمًا يتصور أن يعارض النقل، وهي شرط في كل علم عقلي أو سمعي كالحياة، وما كان شرطًا في الشيء امتنع أن يكون منافيًا له .

وإن أرادوا بالعقل المعرفة الحاصلة بالعقل ؟ .

فجوابنا لهم : إن من المعلوم أنه ليس كل ما يعرف بالعقل يكون أصلاً للسمع ودليلاً على صحته ، فإن المعارف العقلية أكثر من أن تحصر ، والعلم بصحة السمع غايته أن يتوقف على ما به يعلم صدق الرسول ﷺ ، وليس كل العلوم العقلية يعلم بها صدق الرسول ﷺ ، بل ذلك يعلم بما يعلم به أن الله أرسله ، مثل إثبات الخالق ، وتصديقه للرسول بالآيات وأمثال ذلك .

وإذا كان كذلك لم يكن جميع المعقولات أصلاً للنقل ، لا بمعنى توقف العلم بالسمع عليها ، ولا بمعنى الدلالة على صحته .

أما قولهم : « إن العقل أصل للنقل » ، فإما أن يراد أنه أصل لثبوته في نفس الأمر ، أو أصل في علمنا بصحته .

والأول : لا يقوله عاقل ، فإن ما هو ثابت في نفس الأمر بالسمع أو بغيره هو ثابت ، سواء علمنا بالعقل أو بغير العقل ثبوته ، أو لم نعلم ثبوته لا بعقل ولا بغيره ، إذ عدم العلم ليس علمًا بالعدم ، وعدم علمنا بالحقائق لا ينفي ثبوتها في أنفسها ، فما أخبر به الصادق المصدوق هو ثابت في نفس الأمر ، سواء علمنا صدقه أو لم نعلم .

ومن أرسله الله إلى الناس هو رسوله ، سواء علم الناس أنه رسول أو لم يعلموا ، وما أخبر به فهو حق ، وإن لم يصدقه الناس ، فثبوت الرسالة في نفسها ، وثبوت صدق الرسول ، وثبوت ما أخبر به في نفس الأمر ، ليس موقوفًا على وجودنا ، فضلاً عن أن يكون موقوفًا على عقولنا أو على الأدلة التي نعلمها بعقولنا .

وأما الثاني : فجوابه قد مر ، فتبين بذلك أن العقل أصلاً لثبوت الشرع في نفسه ، ولا معطيًا له صفة لم تكن له ، وليس أصلاً في معرفتنا بالسمع ، ودليلاً لنا على صحته . أ . هـ . من « تفسير المنار » ملخصًا من « موافقة صحيح المعقول لصريح المنقول » .

وإذا تعارض ظني في كل منهما مع قطعي ، وجب ترجيح القطعي مطلقًا .

وإذا تعارض ظني مع ظني من كل منهما ، رجحنا المنقول على المعقول ، لأن ما ندركه بغلبة الظن من كلام الله ورسوله أولى بالاتباع مما ندركه بغلبة الظن من نظرياتنا العقلية التي يكثر فيها الخطأ جداً . أ . هـ .

قلت سابقًا : إنهم - وأعني المتكلمين - قد ردوا كثيرًا من أحاديث العقائد الصحيحة بناء على هذه النظرية الفاسدة ، كما أولوا الآيات القرآنية التي تصف الله سبحانه وتعالى بالأوصاف العليا .

فمن ردّهم للأحاديث : ردّ المعتزلة وطعنهم في أحاديث رؤية ربنا ، وهي ثابتة في الصحاح ، وبالغة مبلغ التواتر المعنوي ، وأحاديث عذاب القبر ، وسؤال المنكرين ، والصراط ، والشفاعة ، وأحاديث الصفات كحديث : « **إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار** » ، وحديث : « **ينزل ربنا كل ليلة** » .

وأما آيات الصفات فحيث لم يستطيعوا ردّها ، فقد أوَّلوها كما أوَّلوا في مثل قول الله تعالى : ﴿ **وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ** ﴾ [الرحمن : ٢٧] ، وقوله تعالى : ﴿ **يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** ﴾ [الفتح : ١٠] .

والأشعرية وإن سلمت ببعض الأحاديث كأحاديث الرؤية،وأحاديث عذاب القبر، والصراط ، والميزان ، لكنها أوَّلت كثيرًا من الآيات والأحاديث كما سلف البيان في بحث الصفات ، وذلك كله بناء منهم على هذا الأساس الواهمي ، وعززوا ذلك بأن المجاز في لغة العرب معروف ومشهور ، وتحمل آيات الصفات على المجاز .

وقد رد العلامة ابن القيم دعوى المجاز في كتابه « الصواعق المرسلة » .

فإذا جاءتهم آية قرآنية لا يمكنهم تكذيبها ، جنحوا إلى تأويلها ، وأما الأحاديث فتارة يردونها بدعوى أنها تعارض العقل وأنها آحاد ، وأحاديث الآحاد لا تفيد إلا الظن ، والعقل يفيد القطع !! .

وقد سبق الجواب فيما سلف عن قولهم : إن أحاديث الآحاد لا تفيد إلا الظن ، وإن صحت الأحاديث - بالنسبة للأشعرية - ولم يمكنهم تكذيبها ردّوها وأوَّلوها !! .

فيالله العجب من هؤلاء القوم ـ مع فضلهم وعلمهم ـ كيف يلعب بهم الشيطان، وتغريهم آراء الفلاسفة وتلامذتهم المعتزلة تحت ستار التنزيه لله، وعدم مشابهته للمخلوقات؟ فعلى زعمهم يكونون منزهين الله أشد تنزيهاً من الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين، لأن أولئك قابلوها بالتسليم والانقياد، ولم يؤولوها ، ولم يردوا ما ثبت منها !.

ومما لا محيص لهم ولا مفر منه أن يُجيبوا بما يلي :

فإما أن يقولوا : إن التأويل لآيات الصفات وأحاديثها واجب ، والواجب إذاً حكم شرعي ، فيتحتم عليهم أن يسندوا تأويلهم إلى الله وإلى رسوله المشرع .

وإما أن يقولوا : لا يجب التأويل ، فيقال لهم : إذاً اسلكوا مسلك السلف الصالح ، ودعوا أنفسكم من التكلف ، ودعوا الناس وعقائدهم الصحيحة ، ولا تفسدوها عليهم بهذه التأويلات الجائرة والظنون الباطلة والآراء الفلسفية الزائفة .

وإن قالوا : إننا تسلحنا بسلاح التأويل لكي ندفع شبه المجسمة والمشبهة .

فالجواب : إن قوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ .

[الشورى : ١١] .

وقوله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)** ﴾ [الإخلاص] ، كاف في إبطال شبهتهم .

كما يقال لهم : إن الأديان السماوية والكتب الإلهية ، وما كان يبينه الرسول ﷺ لأصحابه من أوصاف الله ونعوته ، وما كان عليه المسلمون الأولون قبل ظهور البدع والضلال من جهمية ومعتزلة ومشبهة ، كل ذلك يرد عليهم ويزهق باطلهم ويهدم أساسهم ، إذ من المعلوم بداهة وفطرة وعقلاً ، أنه لا ينبغي للإله أن يماثل أحداً من مخلوقاته ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

على أن المشبهة والمجسمة قد انقرضوا من الدنيا ، ولم تبق لهم باقية [١] .

---

(١) **وأما المعتزلة** : فمن حيث أنهم لم يكونوا لهم مذهبًا فقهيًا ، قد يظن البعض أن ليس لهم وجود ، وليس الأمر كذلك ، بل الأمر كذلك ، بل آراء الخوارج وكثير من آراء الشيعة وكثير من آراء الأشعرية هي نفسها آراء المعتزلة .

فصل

الإيمان بالرسل وبالأنبياء والكتب والملائكة والبعث والقضاء والقدر

إيمانـنـا بـرسـلـه والأنبـيـا وكـتـبـه وبالملاك الأصـفـيـا
وبعـثـنا وبالقـضـاء والقـدر محـتم فـاترك سـبـيل من كـفـر
فـالكتب الصـحـيـحـة المنزلة أربعـة لـرسـلـه المفـضـلة
أضف إليـهـا صـحف الخليل خـذ البـيـان ومع التـفـصـيل
تـوراة مـوسى بعـده الزبور إنجـيل عـيـسى ذلك المزبور
على نبـيـنا الكريم أنزلا (١) هذا الكتـاب المعـجـز المفـصلا
وقد حوى ما قد حوته السالفة وفـاقـهـا حـقًا دع المخـالفـة
قـد نسخ القـرآن تلك الكتـبـا لا تعـملن بهـا وكن مـجـتنبًا
وليس بعـده كـتـاب ينزل ومن يقل فكافـر مـجـادل
أمـا الملاك فـعـبـاد مُكرمـون ويفـعلون مـا به قـد يُؤمـرون
وأنهم قـد خُلِقُوا من نور وليـسـوا بالإناث والذكـور
ومن يقل بأنهم ذكـور فـسـقـه أو أنوثة كـفـور
أفـضلهم رسـول وحي ربنا للأنبـيـاء والمرسلين الأمنا
يليـه مـيكائيل وإسـرافـيل وبعـدهم في الفـضل عـزرائيل (٢)
ومنهم الراكـع للرحـمـن ومنهم السـاجـد للديان
وبعـضـهم حـامل عـرش الخـالق ومنهم الحـافظ للخـلائق
وبعـضـهم يكتب للأعـمـال في القـبـر يأتي البـعض للسـؤال
والبـعض قـد وكل بالأمطار وبعـضـهم لرزقنا المدرار

---

(١) الفاعل لأنزل معلوم ؛ وهو الله .

(٢) يقصد به ملك الموت ، وإطلاق عزرائيل على ملك الموت لم يرد به نص صحيح ، وإنما هو مأخوذ من الإسرائيليات ، وأتيت بهذا الاسم لضرورة النظم ، والاسم الشرعي الوارد هو : ملك الموت .

إيماننا برسله والأنبيا ... إلخ :

[ش] بعد أن تكلمنا عن الإيمان بالله ، وما يجب له من الصفات وما يجوز وما يستحيل ، شرعنا في الكلام على بقية أركان الإيمان الستة الثابتة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

أما الآيات : فقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ** ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وقوله تعالى : ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)** ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

وأما القضاء والقدر : فقد دلت عليه آيات كقوله تعالى : ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)** ﴾ [القمر : ٤٩] .

وقوله تعالى : ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)** ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

أما الأحاديث : فإنه قد ورد في الأحاديث الصحيحة بهذه الأركان الستة ، منها حديث جبريل عليه السلام المشهور الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : « **يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ،وتصوم رمضان ،وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً ، قال : صدقت** » ،فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : « **فأخبرني عن الإيمان ؟ ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان ؟ ، قال : أن**

تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الساعة ؟ ، قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، قال : أخبرني عن أماراتها ؟ ، قال : أن تلد الأَمَة ربتها ،وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان» ، ثم انطلق فلبثنا مليًا ، ثم قال : « **يا عمر ، أتدري من السائل؟** » ، قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : « **فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم** » . [رواه مسلم] .

فقد تضمن هذا الحديث الشريف الدين كله ، وقسمه ثلاث مرات :

المرتبة العليا : الإحسان .

المرتبة الوسطى : الإيمان .

المرتبة الأدنى : الإسلام .

وسنعقد إن شاء الله تعالى فصلاً خاصًا للكلام عن الإيمان والإسلام ، وقصدنا الآن بيان الأركان الستة :

أولها : الإيمان بالله ، فقد سلف الكلام عليه .

ثانيها : الإيمان بالملائكة .

ثالثها : الإيمان بالكتب .

رابعها : الإيمان بالرسل .

خامسها : الإيمان باليوم الآخر .

سادسها : الإيمان بالقضاء والقدر .

والكلام هنا عن الإيمان بالملائكة والكتب :

وأما الإيمان بالرسل ، وبالبعث ، والقضاء والقدر ، فسنفرد لكل واحد فصلاً خاصًا ، كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى .

وإليك البيان مقدمًا الكلام عن الملائكة ، لأن الله قدمهم في بعض الآيات وقدمهم الرسول ﷺ في حديث جبريل ، ولأن منهم السفراء بين الله وأنبيائه ، فالإيمان بالوحي مرتب على الإيمان بالملائكة [1] .

---

(١) **الملاك** : هو الملك ، وجمعه ملائكة ، وحذفت همزة ملاك لكثرة الاستعمال ، وأصل وزنه مفعل ، فقيل : ملك ، وقد تحذف الهاء من الجميع فيقال : ملائك ، وأصل ملاك بتقديم الهمزة من الألوكة وهي الرسالة ، ثم قدمت اللام على الهمزة في الجمع ، فقيل : ملائكة أو ملائك .

الإيمان بالملائكة من أركان الإيمان الستة ، مما لا يتم إيمان المرء إلا بالإيمان بهم ، وقد أجمعت الكتب السماوية ، والأديان الإلهية ، وعقلاء جميع الأمم على الإيمان بما وراء الطبيعة ، وهو الإيمان بالغيب ، كالإيمان بالجن ، والإيمان بالملائكة .

ولا ينكر الإيمان بالغيب ويقول : لا أؤمن إلا بما يقع تحت إحدى حواسي إلا مُلحد كافر بالله ، ومخالف لجميع الشرائع السماوية .

وبالبديهة أن ليس كل ما لا يدركه الحواس يكون لا وجود له ، فكم أشياء وجدت في هذا العصر بواسطة العلم ، ولم تكن معروفة في العصور الغابرة ، أفكان هذا دليلاً على أن هذه الأشياء لم تكن موجودة ؟!! ، أم الدليل قائم على أنها لم تزل موجودة ؟! ، ولكن لم يكن للبشر علم فيما مضى حتى يدركها ؟ ، من ذلك : الكهرباء ، والميكروبات ، والفيروسات ، وما يسمى بالطفيليات ، إلى غير ذلك من الأشياء التي توصل إليها العلم ، وعلم أنها لم تزل موجودة .

فأي غرابة في الإيمان بالله وبالملائكة ؟ ، إذ كان ما قلنا مُسَلَّم به ، لا يختلف فيه اثنان ، هذا مع التنزل مع من لا يؤمن بالشرائع السماوية ، وإلا فالشرائع كلها مطبقة - كما قلنا - على وجود الملائكة ، لأن الوحي الذي نزل على الأنبياء والرسل الماضين ، إنما كان بواسطة جبريل الأمين عليه السلام .

فالملائكة أو الملأ الأعلى عالم غيبي غير محسوس ، وليس لهم وجود جسماني يدرك بالحواس ، وهو من عوالم ما وراء الطبيعة أو غير المنظورة التي لا يعلم حقيقتها إلا الله ، وهم مجبولون على الطاعة ومنزهون عن المعاصي ، قال تعالى : ﴿ **عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴿٦﴾ ﴾[التحريم : ٦] .

كما أشار إليه في النظم : « ويفعلون ما به قد يؤمرون » .

وقد خلقهم الله من نور ، كما خلق آدم من طين ، وكما خلق الجان من نار .

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **خُلقت الملائكة من نور ، وخُلِقَ الجان من مارج من نار ، وخُلِقَ آدم مما وصف لكم** » .

وخلقهم متقدم على خلق الإنسان ، وقد أخبر الله تعالى بأنه سيخلفه ، ويجعله

خليفة في الأرض ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠)** ﴾ [البقرة : ٣٠] .

والملائكة ليسوا كالبشر ، فهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتصفون بالذكورة والأنوثة ، وإنما هم عالم آخر قائم بنفسه ، ومستقل بذاته ، لا يتصفون بشيء مما يتصف به البشر من الحالات المادية ، ووصفهم بالذكورة فسق وفجور ، وبالأنوثة كفر ، ولهذا قال في النظم :

ومن يقل : إنهم ذكور فسّقه ،أي احكم بفسقه، أو أنوثه، أي وصفهم بالأنوثة ، فاحكم بأنه كفور بالله العظيم .

مسكنهم السموات ، يموتون عند نفخ الصور ، وسيأتي الكلام في باب السمعيات .

وقد أعطاهم الله قدرة التشكل بالصور البشرية ، كما جاء جبريل إلى مريم متمثلاً بصورة بشر ، كما قال تعالى :﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧)** ﴾ [مريم : ١٦ ، ١٧] .

ودخلت جماعة منهم على سيدنا إبراهيم عليه السلام في صورة الآدميين ، يحملون إليه البشرى ، وظنهم ضيوفًا فقدم إليهم الطعام ، قال تعالى :﴿ **وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩)** ﴾ . [هود : ٦٩] .

وقد مضى حديث جبريل أنه جاء في صورة رجل يسأل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام ، وقد كان يتمثل بصورة دحية الكلبي .

وهم متفاوتون في الفضل ، فأفضلهم جبريل عليه السلام كما قلت في النظم ، وأفضلهم رسول وحي ربنا ، ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم ملك الموت ، ولهم أعمال يقومون بها بأمر الله ، فمنهم من وظيفته النزول بالوحي إلى الأنبياء والرسل ، وهو

جبريل عليه السلام ، كما قال تعالى :﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤)** ﴾ [الشعراء : ١٩٣ - ١٩٤] .

ومنهم من يحمل العرش ، كما قال تعالى :﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** ﴾ [غافر : ٧] .

ومنهم الموكلون بحفظ بني آدم ، ومنهم الموكلون بقبض الأرواح ،كملك الموت ، ومنهم الملكان اللذان يكتبان أعمال العباد ، ومنهم الملكان اللذان يسألان الميت في قبره ، عن ربه ، وعن نبيه ، وعن دينه ، كمنكر ونكير ، ومنهم الموكل بالأمطار وبالأرزاق كميكائيل ، ومنهم الموكل بتعذيب أهل النار ، كما قال تعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)** ﴾ [التحريم : ٦] .

ومنهم خازن النار كمالك ، ومنهم خازن الجنة كرضوان ، ومنهم الراكع أبداً ، ومنهم الساجد أبداً ، ومنهم الحافُّون بالعرش ، ومنهم الملك الموكل بنفخ الصور كإسرافيل ، وما خفي من أعمالهم أكثر مما علمنا ، والله أعلم .

قال : « فالكتب الصحيحة المنزلة أربعة لرسله المفضلة ... إلخ » .

الركن الثالث من الإيمان :

أن يؤمن العبد بجميع الكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله ، والصحيح أنها أربعة كتب ، سوى صحف إبراهيم الخليل ، وقيل : إنها مئة وأربعة ، ولكن ليس هناك دليل يمكن الاعتماد عليه .

وأما الأربعة فكما في النظم :

الأول : التوراة : التي أنزلها الله تعالى على موسى ، قال تعالى :﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ** ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وقال الله تعالى :﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ**

قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام : ٩١] .

والثاني : الإنجيل : الذي أنزله الله تعالى على عيسى بن مريم ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) ﴾ .

[المائدة : ٤٦] .

والثالث : الزبور : الذي أنزله الله تعالى على داود ، قال الله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء : ٥٥] .

ومن الكتب المنزلة : صحف إبراهيم وموسى ، قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾ .

[الأعلى : ١٤ - ١٩] .

وآخر الكتب السماوية نزولاً : هو القرآن الكريم ، المعجز بأسلوبه وبلفظه ومعانيه لجميع البشر والجن ، قال تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران : ٢ ، ٤] .

ومما يجب الإيمان به : أن تعتقد أن القرآن قد نسخ جميع الكتب المنزلة ، ولا ينزل الله بعده كتابًا ، كما ليس بعد محمد ﷺ رسول أبدًا ، وإن تعاليم القرآن صالحة لكل زمان ومكان ، ولكل أمة وجيل ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وذلك أنه قد حوى خلاصة التعاليم الإلهية التي تضمنتها الكتب السالفة ، وأنه مؤيد للحق الذي جاءت به تلك الكتب من عبادة الله وحده ، والإيمان برسله ، والتصديق بيوم

الجزاء ، ووجوب إقامة الحق ، والتخلق بمكارم الأخلاق .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ (١) وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨] ، أي أن الله تعالى أنزل القرآن الكريم على النبي ﷺ مقترنًا بالحق في كل ما جاء به ، ومصدقًا لما تقدمه من الكتب الإلهية التي أنزلها الله على الأنبياء السابقين ، ورقيبًا عليها ، يقرر ما فيها من حق ، ويبين ما دخل عليها من تحريف وتصحيف .

ثم يأمر نبيه ﷺ أن يحكم بين الناس - مسلمين وكتابيين - بما أنزل في القرآن ، متجنبًا أهواءهم ، وأنه سبحانه وتعالى جعل لكل أمة شريعة وطريقة في الأحكام العملية تناسب استعدادها ، أما أصول العقائد والعبادات وما لا يختلف باختلاف الزمان والمكان فإنها واحدة في الأديان كلها .

قال الله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] .

وتعاليم القرآن هي كلمة الله الأخيرة لهداية البشر ، أراد الله لها أن تبقى على مدى الدهر ، وتخلد على الزمن ، فصانها من أن تمتد إليها يد بالتحريف أو التصحيف أو التغيير أو التبديل ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾ [فصلت : ٤١، ٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر : ٩] .

أما التوراة فقد دخلها التحريف ، بل التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام لا وجود لها الآن أبدًا ، لأن بختنصر لما استولى على اليهود ، وخرب القدس ، وسباهم ، حرق التوراة ، والتوراة التي بيد اليهود الآن قد كتبها عدة كُتَّاب ، وفي أزمان مختلفة .

ومن أدلة التحريف الحسية :

أن التوراة المتداولة لدى النصارى تخالف التوراة المتداولة لدى اليهود ، وقد أخبر الله في القرآن عن تحريفهم للتوراة ، فقال تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ

كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ [البقرة : ٧٥] ، وقال تعالى : ﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ** ﴾ [النساء : ٤٦] ، فالذي عندهم من التوراة الصحيحة هو بعضها .

ومن الأدلة على تحريفها وصحة نقد القرآن للتوراة : أن جاء في التوراة التي بيد اليهود من وصف الله بما لا يليق ،كوصفه بالحزن والتأسف!، ونعت الأنبياء بما يمس شرفهم وكرامتهم !! ، وجاء فيها عن إبراهيم أنه كذاب !! ، وأن لوطًا زنى بابنته !! ، وهارون دعا الإسرائيليين إلى عبادة العجل !! ، وداود زنى بزوجة أوريا ! ، وسليمان عبد الأصنام إرضاءً لزوجته !! .

فهل ثمة دليل على التحريف أقوى من هذه الأمور ؟! ، وعقلاء اليهود ومصلحوهم يعترفون بهذه الحقيقة ، وأن التوراة قد حُرفت ، والإنجيل قد لحقه ما لحق التوراة من التحريف .

قال الله تعالى : ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾[المائدة : ١٤ ، ١٥] .

ومن الأدلة على التحريف في الأناجيل المتداولة بأيدي النصارى الآن - وهي أربعة - أنها اختيرت من نحو سبعين إنجيلاً ،وقد كُتبت بعد سيدنا المسيح بعدة سنين ، وفيها عن سيرة سيدنا المسيح عليه السلام .

وهذا أوضح دليل على أنه لم يكن من الله ، بل مؤلفوا الأناجيل معرفون كلوقا ومرقص ، وفي كل إنجيل تجد ما يخالف ما في الإنجيل الآخر .

والسبب في التبديل والتحريف يرجع إلى :

أولاً : إن الله تعالى لم يرد لهذين الكتابين صيانتهما وحفظهما من التغيير والتبديل ، لأنهما كانا لأزمان مؤقتة ، فأنهى حكم التوراة بنزول الإنجيل ، وأنهى حكم الإنجيل بنزول القرآن .

ثانياً : إنهما لم ييسرا للحفظ في الصدور ، كما يسر القرآن ، فلم يحفظ إلا قليل من خواص موسى وأصحابه التوراة كلها ، ولا أصحاب عيسى الإنجيل كله ، كما حفظ كثير من أصحاب الرسول ﷺ القرآن كله .

ثالثاً : إن التوراة قد أحرقت ، ولم تكن محفوظة في الصدور ، بل ولا في السطور في مكان لم تمتد إليه يد البابليين ، الذين استولوا على القدس ، وقتلوا من بني إسرائيل وسبوا كثيراً ، وبعد أن استرجع بنو إسرائيل مجدهم وعزهم ، كتبوها من لسان عزيز وغيره .

وكذلك الإنجيل لما أرادوا صلب المسيح ، ورفعه الله تعالى ، ونجاه من أعدائه ، تفرقت أصحابه ، فلم يكن أحد منهم حافظاً للإنجيل ، وكانوا مضطهدين ومشردين ، ويقال : إنه بعد مئات من السنين كتبوا هذه الأناجيل ، ولهذا لم ينقل هذان الكتابان بالسند المتصل إلى سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام ، وبالنقل المتواتر عنهما ، أضف إلى تلك الأسباب المارة ، السبب الذي ذكره الله ناعياً عليهم وموبخاً لهم ، وهو التحريف عن قصد لأجل إخفاء الحق ، وإرضاء الشهوات ، وحب الرياسة ، كتحريفهم نعوت النبي ﷺ التي يعرفونها كما يعرفون أبناءهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴿١٤٦﴾ ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

وأما القرآن الكريم فهو يخالف ذينك الكتابين في كل ما سلف :

أولاً : إن الله تعالى أخبر في القرآن الكريم أنه نزله وأنه حافظه - أي من التغيير والتبديل - كما قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر : ٩] ، وكما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ **لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت : ٤٢] .

فقد أفادت الآيتان أن الله ضمن حفظ القرآن وصيانته من أن تمتد إليه يد التغيير والتبديل ، وهذا مشاهد محسوس ملموس ، لا يمكن أن يختلف فيه اثنان ، والدليل على ذلك : أنه منتشر في سائر أرجاء الأرض بين المسلمين والكافرين ، ومطبوع في

جميع أنحاء العالم ، ومترجم بعدة لغات ، ومع كل ذلك فلا يتجاسر أحد أن يغير كلمة منه أو حرفًا ،ولو فرضنا أن أحداً سولت له نفسه،وأبدل كلمة بكلمة أو غيرها ، فسرعان ما ينتبه العالم الإسلامي ويعلنون نكيرهم ، ويفهم عالمهم وجاهلهم الكلمة المغيرة ، ولابد أن يمحى ذلك التغيير ، وترد الكلمة كما كانت ، ويظهر الله قبح ذلك الفاعل ، ويكشف عورته ، ويخزيه ، وتحل عليه النقمة واللعنة .

ثانيًا : إن هذا القرآن العظيم قد قرأه الرسول ﷺ على ألوف من أصحابه ، وحفظه كله كثير من الصحابة ، وقد حُفِظَ وصِيْنَ وجُمِعَ من بعد الرسول ﷺ بعد أن كان مفرقًا بإجماع الصحابة واتفاق منهم ، فلم يحصل فيه تغيير ولا تبديل أبداً .

ثالثًا : نقل بالسند المتصل إلى الرسول ﷺ ، وبالنقل المتواتر المفيد للعلم القطعي ، بحيث لا يرقى إليه أدنى شك أو ريب ، أنه الكتاب الذي أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ من غير زيادة ولا نقصان .

رابعًا : إنه قد يسره الله تعالى للحفظ ، فحفظه بعض الصحابة كما قلنا كله ، ولا زال في الأمة المحمدية من علمائها ومن غيرهم من يحفظه ، بل يوجد الحفاظ للقرآن العظيم كله بكثرة في كثير من الأمصار والقرى ، وبهذه المزايا فاق الكتب السالفة ، ولا زال مصونًا حتى تقوم الساعة .

فمن أراد السعادة الأبدية الدنيوية والأخروية ، والوصول إلى الحقيقة التي تسلك به السبيل المستقيم ، ويكون بها سعيداً في دنياه ، وموصلة إلى جنات النعيم ، فعليه بهذا القرآن الكريم ، فلا يجد أمامه غيره مما فيه بغيته ، والوصول إلى الحقيقة الصحيحة والطريقة المستقيمة ، وهو الكتاب الذي حفظت أصوله ، وسلمت تعاليمه ، وتلقته الأمة عن الرسول الكريم ﷺ عن جبريل الأمين عليه السلام ، عن رب العالمين عز وجل ، الأمر الذي لم يتوفر لكتاب مثله ، وإنه الجامع لأسمى المباديء، وأقوم المناهج ، وخير النظم ، الحافل بكل ما يحتاج إليه البشر من حيث العقائد والعبادات والآداب والمعاملات والنظم ، قال الله تعالى : ﴿ **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [المائدة : ١٦] .

فصل

النبوة والرسالة

وحـاجـة العـبـاد للرسـول لكي ينير منهج الوصول
لربنا الحمد من عقيدة صحيحة وشرعة حميدة
أشد من حاجتهم للأكل ولم تجب رسالة بالعقل
لكنما الرب الكريم أرسلا إلى الأنام رسلا تفضلا
مبشرين المؤمنين الأتقيا ومنذرين الكافرين الأشقيا
بجنة دار النعيم والهنا وبالجحيم والعذاب والعنا
كيلا يكون للعباد حجة بعد بيان واضح المحجة

[ش] : الركن الرابع من أركان الإيمان : الإيمان بالرسل ، وهو الأصل الثاني من الأصول الثلاثة .

وتعريف النبي(١) كما قال العلماء : إنسان ذكر (٢) ، حر (٣) ، أُوحي إليه بشرع ، ولم يؤمر بتبليغه .

والرسول : إنسان ذكر ، حر ، أُوحي إليه بشرع ، وأمر (٤) بتبليغه .

(١) إما أن يكون مأخوذًا من النبوة ، وهي الشيء المرتفع ، لأن النبي مرفوع الرتبة ، أو من النبأ ، وهو الخبر ، وحينئذ يصح أن يكون هو فعيلاً بمعنى فاعل ، أي هو مخبر عن الله ، أو بمعنى المفعول ، بمعني أنه مخبر - بفتح الباء - من الله .

(٢) أي : أن يتصف بالذكورية لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم ﴾ [يوسف : ١٠٩ - النحل : ٤٣ - الأنبياء : ٧] ، فاثبت الرسالة للرجال الموحى إليهم ، وأشعر بنفي ذلك عن غيرهم ، وقد وجد خلاف ضعيف في نبوة مريم ، وآسيا ، وهاجر ، وأم موسى .
والحق اعتبار الذكورية ، لأن الرسالة تقتضي الإشهار بالدعوة ، والأنوثة تقتضي التستر .

(٣) أي : لا يكون النَّبي رقيقًا ، لأن الرق وصف نقص لا يليق بمقام النبوة ، والنَّبي يكون داعيًا للناس ، والرقيق لا يتيسر له ذلك ، قال في بدء الأمالي :

وما كانت نبيًا قط أنثى ولا عبد وشخص ذو افتعال

(٤) هكذا فرقوا بين النَّبي والرسول ونازع بعضهم في هذه التفرقة وهذا التعريف بأنه لا يستقيم مع قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ =

حاجة البشر إلى إرسال الرسل :

اعلم أن حاجة العباد إلى إرسال الرسل ، لأجل أن يرشدوا الخلق إلى معرفة الله وعبادته ، والقيام بشرعه ، وتعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم ، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم أشد (١) ، من حاجتهم إلى الغذاء والهواء ، وأمس من حاجة المريض إلى الطبيب .

مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ [الحج :٥٢] لأن قوله تعالى : ﴿ **أَرْسَلْنَا** ﴾ يتعلق بقوله تعالى : ﴿ **وَلَا نَبِيٍّ** ﴾كما تعلق به ﴿ **مِن رَّسُولٍ** ﴾، فكأنه قال : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ، وما أرسلنا من قبلك من نَّبي » .

وحيث تعلق به إرسال ، صار مأموراً بالتبليغ ، على أن العقل لا يستسيغ أن يوحي الله إلى نبي بشرع ، ثم لا يأمره بتبليغه ، لأن الشرع أمانة وعلم ، وأداء العلم واجب ، وكتمان العلم نقص ورذيلة .

أقول : يرد على الأولين القائلين بأن النَّبي أُوحي إليه بشرع ، ولم يُؤمر بالتبليغ ، ثم منعهم نبوة الأنثى ، وعللوا المنع بأن الرسالة تقتضي الاشتهار بالدعوة ، فإذا كانت لم تؤمر بالتبليغ ، فأين الاشتهار بالدعوة ؟ ، لأن النَّبي لا يُؤمر بالتبليغ ، واقرأ بدء الأمالي حيث يقول : وما كانت نبيًا قط أنثى ... ولم يقل وما كانت رسولاً قط أنثى .

ويقولون : اختلفوا في نبوة مريم وآسيا وأم موسى وهاجر .

ولم يقولوا : اختلفوا في رسالتهن ، إلا أن يقولوا بترادف النَّبي والرسول ، فحينئذ لا يرد ما ذكرنا .

ويرى بعض العلماء : أن الرسول من أُوحي إليه بشرع ، وأُنزل إليه كتاب ، كإبراهيم وداود وموسى وعيسى محمد عليهم الصلاة والسلام .

والنَّبي الذي ليس بروسل هو من أوحي إليه بشرع ، ولم ينزل إليه كتاب ، كإسماعيل ، وشعيب ، ويونس ، ولوط ، وزكريا .

ويرد على هذا : إن الله تعالى وصف بعض الأنبياء الذين لم ينزل عليهم كتب بالرسالة ، فقال تعالى في إسماعيل: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾** ﴾[مريم : ٥٤] ، وقال تعالى عن يونس : ﴿ **وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾** ﴾[الصافات : ١٣٩] .

ودعوة شعيب ولوط لقومهما قد ذكرها القرآن في عدة سور ، فقال تعالى في هود : ﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾** ﴾[هود :٨٤] ، ولعل أحسن تعريف للنَّبي والرسول هو ما قاله بعضهم إن الرسول من الأنبياء هو من بعثه الله بشرع جديد يدعو الناس إليه .

أما النَّبي الذي ليس برسول : فهو من بُعث لتقرير شرع سابق ، كأنبياء بني إسرائيل ، الذين كانوا بين موسى وعيسى ـ عليهم السلام ـ أو القول بترادف النَّبي والرسول على أن معناهما واحد .

(١)خبر إن ـ في قولنا ـ : إن حاجة العباد .

فإن آخر ما يعذب بعدم الطبيب ، أو بعدم الأكل والشرب والهواء موت الأبدان ، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتًا لا ترجى الحياة معه ، وشقي شقاء لا سعادة معها .

فلا فلاح إلا باتباع الرسول ، فإن الله خص بالفلاح أتباعه المؤمنين به وأنصاره ، كما قال الله تعالى : ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (١٥٧) ﴾[الأعراف : ١٥٧] .

كما أن الرسالة أيضًا روح العالم ونوره وحياته ، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور ؟ .

والدنيا مظلمة ملعونة كلها إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة

وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ، وتناله حياتها ، وروحها ، فهو في ظلمة ، بل هو من الأموات ، قال الله تعالى : ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾(١) .

[الأنعام : ١٢٢] .

وإنما كانت حاجة العباد ماسة إلى إرسال الرسل ، لأن الله جلت قدرته ، وعلت كلمته ، خلق الخلق ، وطبعهم على أخلاق حسنة ، تساعدهم على انتظام حالهم ، وأخلاق تخالفها ، لأجل أن يتسابقوا بها في عمارة هذا الكون الذي قدر وجودهم فيه إلى أجل معلوم .

لكن لما كان تحديد الرغبة في السبق ، يوجب وقوف كل راغب عند حده ، ويأسه من مجاوزته ، وبذلك تتعطل حركة المسابقة ، لم تعدل الأخلاق في أصل الفطرة ، فصارت تلك الأخلاق السيئة في معرض الطغيان ، والوصول إلى حد يصبح به ضرها أكبر من نفعها ، والعقل لا يهتدي لكثير من الأمور ، لا سيما تفاصيل العبادات ، وأحوال الآخرة ، والمشي على منهج العدالة التامة مع المخلوقين .

لا يمكن كل هذا أن يستقل به العقل ، والله لا يؤاخذ الناس إلا بعد إقامة الحجة

---

(١) ملخصًا من « لوامع الأنوار » (جـ ٢) .

عليهم ، كما قال الله تعالى مبينًا وظيفة الرسل ، وحكمة إرسالهم ، وإقامة الحجة على العباد بهم : ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥)** ﴾ [النساء : ١٦٤] .

لذلك اقتضت رحمة الله بعباده أن يُرسل لهم أُناسًا منهم ، طبعهم على الأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة ، ومنحهم ما لم يمنحه أحداً من عباده ، واختصهم بفضل لم يظفر به غيرهم ، واختارهم على علم ليكونوا ضياء وهدى ورحمة للعالمين ، وأطلعهم على مكارم الأخلاق وأسرارها ، وكيفية علاجها ، ودرجةُ الاعتدال منها ، ليهدوهم ويرشدوهم إلى ما فيه صلاحهم ، وتقويم أخلاقهم ، وتهذيب نفوسهم ، ويبينوا لهم الخير ليتبعوه ، والشر ليجتنبوه .

من رحمة الله أن جعل الواسطة بينه وبين خلقه بشراً يمكن التخاطب معهم ولم يكونوا ملائكة :

من كمال لطفه بهم ورحمته لهم ، أن جعل الرسل بشرًا من جنسهم ، ليمكن أن ينتفع بعضهم ببعض في المخاطبات والتفاهم ، ولم يجعلهم ملائكة لعدم إمكان رؤيتهم ومخالطتهم ومخاطبتهم ، فلا تحصل الفائدة المقصودة من إرسالهم حينئذ كما قال الله تعالى : ﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)** ﴾ [الأنعام : ٩] ، لأن البشر خُلقوا على هيئة واستعداد لا يتمكنون بها رؤية الملائكة والجن ، وعلى تقدير إرسال الملك ، لابد أن يتشكل بشكل رجل يمكنهم مخاطبته ، والانتفاع بالأخذ عنه ، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر ، كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة الرسول البشري ، كقوله تعالى : ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥)** ﴾ [الإسراء : ٩٥] .

إذًا فمن رحمته ـ كما قلنا سابقًا ـ أن يُرسل لكل صنف من الخلائق رسلاً منهم ،

ليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال ، كما قال الله تعالى : ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)** ﴾ [آل عمران : ١٦٤] ، ولذا امتن الله على عباده بإرسال الرسول الذي هو من جنسهم .

وبالجملة : فحاجة البشر إلى الرسل مما لا تخفى عن كل ذي عقل .

رد شبهة على حاجة العباد إلى الرسل :

وهنا شبهة لبعض الضالين على حاجة العباد إلى الرسل وتقريرها :

أن يقال : لقد جاء في التاريخ أن أُممًا متحضرة - دلت عليها آثارها - وضعت تشريعًا لشعوبها ، وسنَّت لهم آدابًا يقفون عندها ، لأن الإنسان مدني بالطبع ، فيمكن للبشر إذًا أن يستغنوا بذلك عن النبوات .

والجواب :

أن نقول : إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يجيئوا بالقوانين والآداب فقط ، ولكنهم جاءوا بعبادة الله وحده ، وبأحكام هذه العبادة وبتعريف الناس بخالقهم وفاطرهم ، وبالتشريعات للبشر ، ومهما ارتقى العقل البشري ، فإنه لا يستطيع أن يخرق الحجب ، ويعرف تفصيل عالم الغيب الذي جاءت به الرسل ، ومنها أخبار يوم القيامة ، وهذا من أعظم المقاصد من بعث الرسل ، **وهي ثلاثة أمور :**

[١] توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ،وما يجب من عبادته وحده ، وهذه ذروة سنامها .

[٢] ما يجب اعتقاده من البعث بعد الموت ، والجزاء على الإيمان والأعمال .

[٣] التشريع الذي ينزل الله بواسطة رسله للناس ، والحدود التي يحدها مما لا مجال فيه للآراء والأهواء .

فأنى تستقل العقول بهذا ؟ ، وكيف تصل إليه بغير الوحي ؟ :

ثم إن القوانين تحمل عليها سطوة الحكام ، أما التشريع الإلهي فيحمل عليه الإيمان ، وحب الله وامتثال أمره ، وعلم العبد أن الله مطلع عليه ، وعالم بما يبدي وما يكتم ، فهنا الإذعان وجداني ، وهناك قسري ، يفرضه الإكراه ، فإذا غابت عنه عين

الحاكم ، تركه غير مبال به ، وأيضاً فإن القادرين على التشريع في التاريخ قلائل جداً - بالنسبة لغيرهم - لانتشار الأمية وكثرة الجاهلين ، كما كانت القوانين أغلالاً في رقاب الناس ، إذ اتخذهم الحكام يومئذ خولاً ، فما زادت القوانين الناس إلا ذلاً وصغاراً وأغلالاً وأصفاداً » (١) .(٢) .

قوله في النظم : « ولم تجب رسالة بالعقل » (٣) .

أي : مع كون إرسال الرسل لا يجب عليه عقلاً ، لكنه تفضل على عباده ولطف بهم ، فأرسل الرسل وسائط بينه وبين عباده ، لكي يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، ويعرّفوهم طريق السعادة ، ويبينوا لهم طريق الشقاوة ، ويبشروا المؤمنين بجنة عرضها

---

(١) أ . هـ . من « رسالة النبوة إصلاح تقتضيه رحمة الله » ، لسعدي ياسين .

(٢) أقول : مهما بلغ البشر من العلم والحكمة والإنصاف ، فإن تشريعاتهم لابد وأن يعتريها النقص ، ذلك أن القوانين التي يسنها كبار رجال القانون وفلاسفة الحقوق ، ولابد وأن يتأثروا بالبيئة التي نشأوا فيها ، وبالقوانين البشرية الأخرى التي وضعها غيرهم ، ومهما حاولوا أن يلبسوها ثوب العدالة والإنصاف فلا يستطيعون ، لأن البشر بذاته ناقص عن الكمال ، بل الكمال لله وحده ، فالتشريع البشري والقانون الوضعي قابل للزيادة والنقص والتغيير والتبديل ، يضع اليوم بعض المواد ويغيره في يوم آخر ، ثم لا يعرف ماذا يحدث في المستقبل ، فيحتاج في كل فترة أن يغير بعض المواد إن لم يكن كلها ، بخلاف التشريع الإلهي الذي هو أعلم بعباده وبمصالحهم ، وبما ينفعهم ويسعدهم ويضرهم في أبدانهم وأعراضهم وأموالهم ودينهم ، قال الله تعالى :﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء : ٨٢] .
ومن هنا يتبين أنه لا يجوز لمسلم أن يرتكن للقانون الوضعي والتشريع البشري ، كما لا يجوز أن يعتقد مساواة الشريعة الإلهية بالقوانين الوضعية ، فإن اعتقاد هذا كفر لا ريب فيه ، فضلاً أن يعتقد أن القوانين الوضعية أنسب وأصلح من الأحكام القرآنية في هذا العصر .

(٣) رد بذلك على المعتزلة ،لأنهم أوجبوا على الله بعث الرسل عقلاً ، قال بعضهم : إن أرادوا أنه واجب بمقتضى الحكمة، وأن الله هو الذي أوجب على نفسه فمسلم.وإن أرادوا أن أحداً أوجب عليه،فلا .
وأبعد الطوائف عن الصواب فرقة من المجوس زعمت أن إرسال الرسل عبث لأن العقل يغني عنه !! .
وفاتهم أن العقول تختلف ، والعقلاء يناقض بعضهم بعضاً ، فمن يكون الحكم بين العقول عند اختلافها ؟ .
ولا أدل على ذلك : إن العقلاء في مسألة الرسالة نفسها مختلفون ، فريق يوجبها على الله إيجاب العلة ، وفريق يحيلها لأنها عبث يغني العقل عنها .
وإذاً فلا غنى للناس عن عقل عام معصوم عن الخطأ ، وذلك العقل العام هو الوحي السماوي ، أو هو الرسالة ، قال تعالى :﴿ **رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** ﴾ [النساء : ١٦٥] . أ . هـ . « الشرح الجديد لجوهرة التوحيد » .

السموات والأرض ، وينذروا الكافرين والفاسقين بعذاب النار والجحيم .

وإنما أرسل الله الرسل إلى العباد ، لتقوم الحجة عليهم بالبينات ، وينقطع عنهم سائر التعللات ، كما أشار في النظم إلى ذلك بقوله :

كيلا يكون للعباد حجة بعد بيان واضح المحجة

قال الله تعالى :﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤) ﴾ [طه : ١٣٤] .

وقال تعالى :﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : ١٥] .

وقال تعالى ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : ١٦٥] .

فلولا إعذاره تعالى إليهم على ألسنة الرسل ، وإقامة الحجة عليهم ببعثه أهل خبرته من ذوي النبوة والفضل، لتوهموا أن لهم حجة سائغة ومعذرة بالغة لوجوه :

[١]**أن يقولوا :** إنما خلقنا الله لعبادته ، وما بين لنا العبادة التي يريدها ، ماهي ؟ ، ولا كم ؟ ، ولا كيف هي ؟ .

[٢]**أن يقولوا :** قد ركبنا ربنا في هياكل وأجسام تقبل السهو والغفلة ، وسلط علينا الشيطان والشهوة والهوى ، فكان ينبغي أن يؤيدنا بما إذا سهونا نبهنا ، وإذا مال بنا الهوى ردنا ، وإذا وسوس إلينا الشيطان منعنا بما يرشدنا إليه من الأذكار وغيرها .

[٣]**أن يقولوا :** هب أننا نعلم بعقولنا حسن الإيمان وقبح الكفر والعصيان ، لكن لم يصل إدراك عقولنا إلى أن من فعل القبيح عذب ، مع أننا نحس أن لنا في معاطاة القبيح لذة ، وليس على الباري فيه مضرة ، ولم نعلم أن من آمن وعمل صالحًا استحق الثواب ، مع إدراكنا بعقولنا عدم العود بمنفعة له تعالى .

فلا جرم تقاضتنا الشهوات، وأقدمنا على ما فيه لنا اللذات ، فإرسال الرسل لمعاضدة العقل أمر جائز في حقه وواجب وقوعًا وسمعًا . أ . هـ[١] .

---

(١) من « لوامع الأنوار البهية » للسفاريني .

فصل
في بيان ما يجب للرسل
وما يجوز عليهم وما يستحيل

فواجب لرسله الكرام ... الصدق والتبليغ للأقوام
فطانة والرابع الأمانة ... ويستحيل الكذب والخيانة
كذلك الكتمان والبلادة ... نالوا العلا والمجد والسعادة

[ش] : لما كان الرسل مبعوثين إلى قوم مختلفي الأخلاق والعقول ، فيهم الذكي الأخاذ ، والجاهل الأحمق ، والمعاند الألد ، حصن الله رسله بما ينصرهم على هؤلاء جميعًا ، ليندفع أهل العقول إلى تصديقهم وتعظيمهم ، إذا رأوا فيهم مزايا خلقية لا تتحقق لسواهم ، مواهب جليلة لا تكون إلا لأمثالهم المختارين لقيادة الناس ، ويخضعهم لهم ما يبدو عليهم من نبل الخلق ، وكرم الطبع ، وسمو الإدراك ، وبعد عما يشين .

ومن أجل ذلك حصن الله رسله بخلال الفضل ، ووهب لهم من حميد الخلق ما يدفع كل ريبة ، وأوجب لهم صفات لا تتخلف عنهم ، فمن تلك الصفات ما صرح به في النظم .

الصفات الأربعة للأنبياء والرسل :

[١] الصدق :

ومعناه مطابقة الخبر للواقع ، ولو بحسب اعتقادهم ، كما في قوله ﷺ في قصة ذي اليدين « كل ذلك لم يكن » .

وهذه الصفة واجبة لهم شرعًا وعقلاً ، وإلا كانوا رسل إثم ودعاة سوء ، وحاشا أن يكونوا كذلك ، وقد أيدهم الله بباهر المعجزات ، فلو كانوا متهمين في رسالتهم ، أو كاذبين في دعواهم ، ما ظفروا من الله بأن يؤيدهم بالمعجزة المنزلة منزلة قوله : « **صدق عبدي في كل ما يبلغ عني** » .

ومحال وغير مناسب تأييد الكاذب ، كيف وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾** ﴾ .
[الحاقة : ٤٤] .

وهل يأمر الله بتصديق الكاذبين الدجاجلة المضلين ، وقد أمرنا الله بامتثال أوامر الرسل كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ .
[الحشر : ٧] .

[٢] التبليغ :

كلفوا بتبليغ ما أُمروا به من الله ، وإلا لم تكن ثمة فائدة من اختيارهم لتأدية الرسالة ، فلو كانوا كاتمين ، لكنا مأمورين بالكتمان ، وكتمان العلم النافع لمن اضطر إليه من الحرمة بمكان لا يخفى ، بل يكون ملعونًا فاعله ، كما قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾** ﴾ [البقرة : ١٥٩] ،وحاشاهم ، وكيف يتصور !! والله تعالى يقول لحبيبه ﷺ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ** ﴾ [المائدة : ٦٧] ، وقد شهد الله تعالى لنبيه ﷺ بكمال التبليغ ، فقال تعالى : ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] [1] .

[٣] الفطانة :

بأن يكونوا أذكياء ، يدركون ما يحيط بهم من الأمور ، ويتصرفون فيها تصرف

---

(١) كما شهد تعالى لإخوانه من المرسلين السابقين بتبليغهم لأقوامهم ، كما تراه في سورة الأعراف وهود وغيرهما ، فقد أخبر عن نوح عليه السلام في عدة سور أنه بلغ قومه رسالة ربه ، ودعاهم إلى توحيده وعبادته ، قال الله في سورة هود عليه السلام : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾** ﴾ [هود : ٢٥] .
وقال تعالى عن هود عليه السلام : ﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾** ﴾ [هود : ٥٠] .
وقال تعالى عن صالح عليه السلام : ﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ .
[هود : ٦١] . والقرآن مملوء من بيان تبليغ المرسلين إلى أممهم ، كإبراهيم وموسى وهارون مما لا يخفى على قارئ القرآن .

العاقل الحكيم ، والفطانة فيهم تتطلب أن يكونوا ذوي قدرة على البيان والإقناع ، ليزيلوا الضلالة ، ويرفعوا الشكوك ، ويقرعوا العناد .

والدليل : عقلاً لوجوب هذه الصفة : أنه لابد من معارضة المعاندين ، والمقابلة بالتكذيب ، إما عناداً وكبراً ، أو حسداً وتقليداً ، فلابد إذاً أن يكونوا متصفين بهذه الصفة ليقيموا الحجج الباهرة والبراهين القاطعة على من ناوأهم من خصومهم بالمعارضة ، أو وقفوا موقف المتحدي ، فيكسروا بذلك سورة عنادهم ، ويلجئوهم إلى التصديق بهم .

وإلا لما آمن بهم أحد ، لعدم قدرتهم على إقامة الحجة على خصومهم بإثبات دعواهم ، فتبطل الحكمة من إرسالهم ، والدليل سمعًا قوله تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ** ﴾[الأنعام : ٨٣] ، والإشارة عائدة إلى ما احتج به إبراهيم على قومه من قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا** ﴾[الأنعام : ٧٥] ، إلى قوله تعالى : ﴿ **وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾[الأنعام : ٨٢] .

وما ثبت لرسول من الصفات ثبت لغيره .

[٤] الأمانة :

أي اتصافهم بحفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهي عنه ، وهي صفة تتسع لكثير من الفضائل ككتمان السر ، والمحافظة على حقوق الناس ، وإتقان العمل ، وصدق الرواية ، وأداء الواجب ، وغير ذلك مما هو لازم لمقام الرسالة .

والدليل على وجوبها : أنهم مرسلون ، يرشدون الأنام إلى الأعمال الحسنة ، والأفعال المستحسنة ، وتهذيب نفوسهم ، وترك ما اعتادوا عليه من الأفعال المنكرة ، والاعتقادات الفاسدة، والأوهام الباطلة، فلابد إذاً أن يكون في أعلى درجات الكمال، وأسمى مدارج الجمال ، منزهين عما لا يليق بمنصب رسالتهم من الوقوع في المعاصي والاتصاف بسفاسف الأمور ، ووجود كل منفر للخلق عن الإقبال إليهم ، وإن لم يكونوا كذلك ! ونحن مأمورون بالاقتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم ، لكانوا مضلين لا مرشدين ، فتبطل الحكمة من إرسالهم ! .

والدليل سمعًا قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ** ﴾[النساء : ٦٤ ، ٦٥] .

فقد أرشدت الآيتان إلى ثلاثة أشياء :

[١] وجوب طاعة الرسل في كل ما جاءوا به عن الله ، ولا يكونون كذلك إلا حيث كانوا معصومين من الوقوع في كل منكر أو فعل قبيح ، لأنه تعالى لا يأمر بمحرم ولا مكروه .

[٢] إرشاد العصاة المذنبين أن يأتوا الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده ، ويسألوه أن يستغفر لهم ، فإن فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم .

[٣] عصمة الرسول من الظلم والجور فيما يحكم به ، والوعيد لمن لم يقف عند حكمه ، وعدم الإيمان لمن لم يرض بقضائه ، وأصرح من هذا قوله تعالى : ﴿ **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٥٤)** ﴾[النور : ٥٤] .

وغير خاف أن ترتيب الهداية على طاعته ، لا يكون إلا حيث كان هذا الرسول جامعًا لكل خير ، منزهًا عن كل نقص ، وأسوة في أقواله ، وقدوة في أفعاله ، وإلا كانت طاعته ضلالة ، لا سعادة ولا هداية .

تصفح القرآن الكريم في تنزيه الرسل الكرام عن النقائص ، وما وصفهم به من الصفات الكاملة ، والأخلاق الفاضلة ، مثل قوله جل شأنه في سيدنا محمد ﷺ : ﴿ **وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ** ﴾[التكوير : ٢٤]، ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)** ﴾ .

[القلم : ٤] .

وقوله تعالى في إبراهيم : ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥)** ﴾[هود : ٧٥]، وقوله تعالى : ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١)** ﴾[مريم : ٤١] .

وقوله تعالى في إسماعيل : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤)** ﴾ .

[مريم : ٥٤] .

وقوله تعالى في إدريس : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾ [مريم : ٥٦] .

وقوله تعالى في أيوب : ﴿ نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص ٤٤] .

وقوله تعالى في إبراهيم وإسحاق ويعقوب : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ص : ٤٥] .

إلى غير ذلك مما يفوق الحصر .

عصمة الأنبياء والرسل : وفيها نزاع طويل ! .

والخلاصة : أن المسلمين مجمعون على عصمتهم في باب التبليغ عن الله ، بحيث لا يجوز أن يستقر فيه شيء من الخطأ ، وأجمعوا أنهم معصومون عن الكفر قبل الوحي وبعده .

والحق الذين ندين الله به أنهم معصومون أيضًا من الكبائر ، قبل البعثة وبعدها ، وأما الصغائر فقد يلمون بها ، إما بطريق التأويل ، أو النسيان أو الخطأ [١] ، ولكن لا يقرون عليها ، بل ينبهون عليها فينتهوا ، أو يلهمون بالاستغفار فيزاد في درجاتهم .

ودليل وقوع الصغائر ما حكي من بعض الأنبياء والمرسلين ، كآدم ، ويونس ، وداود ، وذهبت طائفة إلى منع الوقوع مطلقًا من الصغائر والكبائر ! ، منهم : القاضي عياض ، والسبكي ، وكثير من المتكلمين ، والشيعة الإمامية .

وأجابوا عما استند إليه الأولون بأجوبة ، منها :

[١] إنها لم تكن معصية حقيقية ، وإنما هي بالنسبة لعلو منصبهم عدت سيئة .

[٢] وفي بعضهم بأنها كانت قبل الرسالة ، إلى غير ذلك .

وما استند إليه المانعون من أن تجويز ذلك ، مما يخل بمقام الرسالة ، وأنه غض لمنصبهم، ومس لشرفهم ، وتنفير عن الاقتداء بهم ، وعدم الوثوق بأقوالهم وأفعالهم ،

---

(١) قال السعد : وأما الصغائر فيجوز عمدًا عند الجمهور خلافًا للجبائي وأتباعه ، ويجوز سهوًا بالاتفاق ، إلا ما يدل على الخسة كسرقة لقمة ، والتطفيف بحبة . أ . هـ .
والحق مع الجبائي في منعه وقوع الصغائر منهم عمدًا ، لأن منصبهم لا يناسب وقوع الذنب عمدًا ، إلا أن يكون سهوًا أو بتأويل ، قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

وقد أُمرنا بالتأسي بهم ، فإن ذلك مردود بأنهم لا يقرون على الخطأ كسائر الناس ، بل يلهمون بالإنابة فوراً ، ويزاد في رتبهم ، وعند ذلك أي محذور يبقى ؟ ، وقد قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

فكأن المانعين لم يفقهوا لهذا ، وهو أن الله يحبهم على ذلك وقد حكموا بسد هذا الباب ، وما فقهوا ما قال الله تعالى : ﴿ **فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ** ﴾ .

[الفرقان : ٧٠] .

وقل لي بربك : من كانت عنده حسنات فقط ، ومن كانت عنده حسنات ، وبدلت سيئاته حسنات ، أي الشخصين أعلى مقاماً وأرفع درجة ، وأسمى رتبة ؟ .

وقولهم : « وقد أمرنا بالتأسي بهم » هو أن يكون حجة عليهم أقرب من عكسه ، لأنهم بتوبتهم واستغفارهم ، يجب علينا التأسي بهم إذا وقعنا في الذنوب ، وهذا تشريع للأمة كي يقتدوا بهم .

كما أن فيه من الحكم : تخفيف غلواء الذين يؤلهون الأنبياء والمرسلين ، فقد ابتلاهم بما يوجب عليهم الرجوع معترفين وسائلين العفو والغفران ، فكيف يصح لمخلوق أن يُؤلههم ويعبدهم ؟! ، فإن الإله لا يطلب الاستغفار والتوبة ، ولا يُبتلى بالمصائب !! فعلى عقولهم العفاء والدمار .

فصل

في خصوص عصمة نبينا محمد ﷺ

لا يخفى أني ذكرت عصمة الأنبياء عليهم السلام جميعًا بالإجمال ، وحيث أن نبينا محمداً ﷺ هو أفضل الرسل وخاتم الأنبياء ، فقد حيكت حوله شبهات اقتنصها المغرضون من بعض الآيات القرآنية ، وقد قيض الله في هذه العصور الأخيرة شياطين من الإنس ، يلبسون لباس العلم ، ويحللون شبهاتهم بتحليل يقبله الجاهل الذي لا رصيد عنده من العلم في التوحيد ومقام الرسل ، ولا سيما رسولنا العظيم ﷺ ، وقد ينخدع بشبهاتهم الزائفة التي ليس لها أساس من الصحة .

فمن أجل هذا عقدت فصلاً خاصًا في عصمة الرسول الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، ودفع الشبهات التي يوردها هؤلاء الجهلة .

فإليك البيان :

الكلام عن عصمة نبينا محمد ﷺ :

الشبهة الأولى والجواب عنها :

يظن بعض الناس أن ظاهر بعض الآيات القرآنية ، يخل بمقام عصمة سيدنا ونبينا محمد ﷺ ، كقوله تعالى :﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)** ﴾ [الحج : ٥٢] .

قال المولعون بالغرائب والعجائب والذين لم يكلفوا أنفسهم بالبحث والتحقيق فيما ينقلونه في كتبهم ، كبعض المفسرين وبعض الذين كتبوا في الأحاديث إن الرسول ﷺ جلس يومًا في نادٍ من نوادي قريش ، وتمنى في نفسه أن لا ينزل عليه من الله ما ينفر قريشًا عنه لكمال حرصه على إسلامهم ، فقرأ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١)** ﴾ [النجم : ١] ، حتى وصل إلى قول الله تعالى :﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠)** ﴾ [النجم : ١٩ ، ٢٠] ، فألقى الشيطان على لسانه ما كان

يحدث نفسه : « تلك الغرانيق العلي وإن شفاعتهن لترتجى » .

فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ، ومضى رسول الله ﷺ في قراءته ، فقرأ السورة كلها وسجد في آخرها ، فسجد المسلمون وجميع من في المسجد من المشركين ، فتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا ، وقالوا : قد ذكر محمد ﷺ آلهتنا بأحسن الذكر ، فلما أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ ، وقال له : ماذا صنعت ؟ ، تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله فحزن رسول الله ﷺ حزنًا شديدًا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** (٥٢) ﴾ . [الحج : ٥٢] .

ومن المعلوم أن نسبة هذا الكلام إلى الرسول ﷺ فيها أن الشيطان تسلط عليه في قراءته ، حينما ألقى على لسانه تلك الكلمات ، واستيلاء الشيطان ينافي عصمة الأنبياء ، ويرفع الوثوق بتبليغه للعباد .

والجواب عن هذه الشبهة : التي هي إلقاء الشيطان على لسانه ﷺ : « تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى » ، أنها مدح لآلهة المشركين ولا يليق بالرسول ﷺ مثل هذا ؟ .

أن نقول : الشيطان لا يستطيع أن يتسلط على الأتقياء الصالحين المخلصين في أعمالهم لرب العالمين ، بنص قول الله تعالى إخبارًا عن الشيطان ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** (٨٢) **إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** (٨٣) ﴾[ص : ٨٣] ، وقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ** (٤٢) ﴾[الحجر : ٤٢] ، فكيف بالرسول محمد ﷺ الكريم العظيم ؟ .

إن الرسول ﷺ أجل وأعظم من أن يغويه الشيطان أو يتسلط عليه ، لأن عصمة الأنبياء ثابتة عقلاً ونقلاً ،ومجمع عليها عما يخل بمقامهم العظيم ومنصبهم الشريف .

وإنما هذه القصة التي رويت ففيها للعلماء قولان :

أحدهما : أن ليس لها أصل بتاتًا ، وما روي من الأحاديث كلها من قبيل

الموضوع والضعيف ، لا يثبت لها سند متصل ، فلذا لم يخرجها أحد من أهل الصحاح ، ولا رواه ثقة بسند متصل .

فإن قيل : كيف يستقيم جوابك هذا ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** (٥٢) ﴾ [الحج : ٥٢] .

فالجواب وهو القول الثاني : إن النبي عليه الصلاة والسلام لم يتلفظ تلك الكلمات عمداً ولا سهواً ولا خطأ ولا نسياناً ، وإنما ترصد الشيطان عندما كان يقرأ ﷺ : ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ** (١) ﴾[النجم : ١]،في بعض سكتاته،فألقى تلك الكلمات محاكيًا نغمة الرسول ﷺ بحيث ظن من دنا منه أنها من قوله ﷺ وأشاعها .

ويؤيده ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما من تفسير ﴿ **تَمَنَّى** ﴾ في الآية بـ« بتلا » و« قرأ » .

والشاهد على ذلك من كلام العرب في شأن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه :

تمنى كتاب الله أول ليلة ... تمنى داود الزبور على رسل

واستحسن هذا القول أكثر المحققين ، كابن العربي ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، والفخر الرازي ، وجمال الدين القاسمي ، والإمام محمد عبده ، وابن حزم الظاهري وغيرهم .

ويؤيد ذلك أن في سياق الآيات ما يبين أن ليس لما قالوه أصل ، لأن الله تعالى يقول بعد ذلك : ﴿ **إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ** (٢٣) ﴾ [النجم : ٢٣] .

فهذه الآية الكريمة فيها زراية على المشركين ،وعيَّب آلهتهم ، وإنهم على ضلال ، يعتمدون على الظنون وما هوت نفوسهم، فكيف تتفق معاني هذه الآيات مع قولهم: إنه ﷺ قال : « تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى » ، فهذا مدح وذاك ذم ، وهذا تناقض ، والقرآن منزه من ذلك وهذا هو الجواب عما يقال : كيف لا يكون

للقصة أصل وهذه الآية تقول : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً ﴾ [الحج : ٥٣] ، وقد ذكرت سابقًا أن الإلقاء كان من الشيطان لا من الرسول ﷺ ، والآية الكريمة تنسب الإلقاء للشيطان .

وقد أطنب المحققون في تفنيد هذه الشبهة ، والفخر الرازي ، وجمال الدين القاسمي ، والشيخ ناصر الدين الألباني [١] .

الشبهة الثانية والجواب عنها :

قول الله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) ﴾ [عبس : ١ ، ٢] .

والجواب :

مع التسليم أن الخطاب مع النبي ﷺ لكن لا نسلم كونه ذنبًا .

بيانه : إن الله تعالى وصف نبيه ﷺ بحُسن الخُلُق ، فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم : ٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، وقال تعالى :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، فلما ظهر منه في بعض الأوقات النادرة خلافه ، عاتبه عليه ، وعرَّفه أن ذلك غير لائق ، فيكون ذلك من باب ترك الأولى .

ثم السبب في ذلك كما جاء في الخبر : أن النبي ﷺ كان يتكلم مع بعض أشراف قريش ويستميلهم إلى الإسلام ، رجاء أن يعز بهم الإسلام ، وقد كان من الحرص على إسلامهم بحيث قال الله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف : ٦] ، فحضره هذا الأعمى ولم يعرف كيفية الحال، فسأل مسألة في خلال مكالمة النبي ﷺ ذلك الرجل ، فاشتد عليه ذلك إذ كان ذلك قطعًا للكلام ، وإفسادًا لما كان يحاوله من إسلام ذلك الرجل ، فأعرض عنه ، فنهاه الله تعالى عن ذلك، وأمره بالإقبال على كل من أتاه من شريف ووضيع وغني وفقير ، بأن لا يخص بدعوته شريفًا دون دني ، إذ الواجب عليه هو التبليغ إلى

(١) فقد ألَّف الألباني رسالة مستقلة في ذلك سماها نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق ، أورد للقصة عشرة طرق ، وبيَّن أنها ضعيفة ، وبعضها مرسل ، والمرسل لا تقوم به حجة ، وحقق الموضوع بطريقة أهل الحديث ، وبطريق المعقول ، وهي رسالة نفيسة حرية بالمراجعة في هذا الموضوع .

الكل ، وليس عليه من امتناع من امتنع عن قبول دعوته تبعة ولا عهدة [١] .

الشبهة الثالثة والجواب عنها :

ومما يوهم ظاهره ما يخل بعصمة النبي ﷺ قوله تعالى : ﴿ **وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ** ⑦ ﴾ [الضحى : ٧] .

ذكر المفسرون أقوالاً عديدة والصواب منها - إن شاء الله تعالى - قولان :

الأول : ووجدك ضالاً عما أنت عليه اليوم ، فهداك إلى توحيده وثبوته .

الثاني : وجدك ضالاً عن معالم النبوة وأحكام الشريعة فهداك إليها .

ويؤيد هذين القولين قول الله تعالى في سورة هود ﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** ㊾ ﴾ .
[هود : ٤٩] .

وقال تعالى في سورة يوسف : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ** ③ ﴾ [يوسف : ٣] .

الشبهة الرابعة والجواب عنها :

قال الله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ㊲ ﴾ [الأنفال : ٦٨] .

ففي هذه الآية الكريمة ما يظن بعض الجاهلين أن النبي ﷺ قد ارتكب ذنبًا لأنه خالف إرادة الله في أسرى المشركين ، ولهذا أنزل الله هذا العتاب الشديد في قول الله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ** ﴾ [الأنفال : ٦٧] .

والجواب :

ليس الأمر كما يظن الجاهلون والمغرضون ، غاية ما في الأمر أن النبي ﷺ استشار أصحابه في أسارى بدر ، كما روى الترمذي ، والحاكم ، والبيهقي ، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : لما كان يوم بدر جييء بالأسارى ، قال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله :

---

(١) عصمة الأنبياء ، فخر الدين الرازي ابن الخطيب .

قومك وأهلك فاستبقهم ، لعل الله أن يتوب عليهم .

وفي رواية أحمد ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : أبو بكر : يا رسول الله ، هم بنو العم والعشيرة ،أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فتكون قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : «**ما ترى يا ابن الخطاب ؟** »، فقال : لا والله يا رسول الله ، لا أرى الذي رآه أبو بكر ، ولكنني أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه ، فتمكنني من فلان ـ قريب عمر ـ فأضرب عنقه، فتمكن فلانًا من فلان قرابته، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها ، فاختار النبي ﷺ رأي أبي بكر رضي الله عنه فقبل الفداء من الأسرى ، وكان اجتهاداً منه عليه الصلاة والسلام خلاف الأفضل والأحسن ، لأن مصلحة الإسلام كانت تقتضي إذ ذاك أن لا يقبل منهم فداء ، بل يريق منهم الدماء لتضعف شوكة الكفر ، وتهن عزيمة المشركين ، ويكون العز والنصر لعباد الله المؤمنين ، لا سيما وأن هذه المعركة هي أول حرب تقع بين المؤمنين والمشركين .

الشبهة الخامسة والجواب عنها :

قال الله تعالى :﴿ **عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ** (٤٣) ﴾ [التوبة : ٤٣] .

ظن بعض الجاهلين أن قول الله تعالى :﴿ **عَفَا اللَّهُ عَنكَ** ﴾ كناية عن خطأ صدر منه أو ذنب ، لأن العفو لابد أن يسبقه تقصير أو ذنب ، وكأن معنى الآية : أخطأت في تصرفك ، لأنك أذنت للمنافقين بعدم الخروج إلى الجهاد .

والجواب :

إن هذا الظن الباعث لإثارة هذه الشبهة حول الرسول ﷺ ، ينبيء عن جهل صاحبه وإساءة أدبه لمقام الرسول العظيم ﷺ ، لأن الآية ليس فيها ما يدل على وقوع الذنب منه عليه الصلاة والسلام ، بل فيها رفعة مقامه، وعلو منصبه ، وإجلال الله له ، حيث بدأ الله تعالى بكلمة العفو الدالة على كمال اللطف ، قبل أن يعاتبه الله تعالى بقوله :﴿ **لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ** ﴾ ، فالآية لا تشير للعتاب ، فضلاً عن وقوع الذنب .

وقد أساء الأدب الزمخشريُ في تفسيره عن عفو الله تعالى عن رسوله ﷺ ، لأنه قال : تحت قوله تعالى : ﴿ **عَفَا اللَّهُ عَنكَ** ﴾ كناية عن الجناية ، لأن العفو رادف لها ، ومعناه أخطأت ، وبئس ما فعلت . أ . هـ .

وكان يجب أن يتعلم الناس من هذه الآية أعلى الأدب معه ﷺ إذ أخبره ربه ومؤدبه عز وجل بالعفو قبل الذنب ، وهو منتهى التكريم واللطف .

وقد كان الإذن للمنافقين اجتهاداً منه ﷺ فيما لا نص فيه من الوحي ، وهو جائز وواقع من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ، وليسوا معصومين عن وقوع الخطأ في الاجتهاد ، ولكن لا يقرهم الله على ذلك ، بل يبين لهم الصواب ، وإنما العصمة المتفق عليها خاصة بتبليغ الوحي ببيانه والعمل به .

الشبهة السادسة والجواب عنها :

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾ [الفتح : ١ ، ٢] .

وجه الشبهة : إن الغفران لا يكون إلا من الذنب ، وأنتم تقولون : إن الأنبياء معصومون من الذنوب ، فما هو الجواب ؟ .

والجواب :

أولاً : إن الفتح في الآية هو صلح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وأمن الناس ، واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان ، ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام ، فلهذا سماه فتحًا .

ثانيًا : إن الذنب المذكور في الآية ، المراد منه ترك الأفضل والأولى .

قال أبو السعود في تفسيره قوله تعالى : ﴿ **مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾ في جميع ما فرط منك من ترك الأولى ، وتسميته ذنبًا بالنسبة إلى منصبه الجليل ﷺ .

جاء في التفسير الواضح :

والمراد بما تقدم من الذنب وما تأخر هو ما فرط من النبي ﷺ ـ وهو المعصوم من معصية ربه ـ من خلاف الأولى بالنسبة لمقامه ، فهو من قبيل « حسنات الأبرار سيئات

المقربين » .

وقيل : المراد ما هو ذنب في نظره العالي ، وإن لم يكن في الواقع كذلك ، ولعل الإضافة في قوله تعالى : ﴿ ذَنْبِكَ ﴾ تشير إلى هذا المعنى . أ . هـ .

الشبهة السابعة والجواب عنها :

قال الله تعالى : ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ** ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

وهنا يحلو لبعض ضعفاء الإيمان من المنتسبين إلى الإسلام ومن المستشرقين ، أن ينسبوا إلى النبي ﷺ ما يتنافى مع مقامه العظيم ، وذلك أنهم زعموا أنه رأى زينب زوج زيد بن حارثة ، فأحبها ، ثم كتم هذا الحب ، لأنه حين رآها ووقع منها في قلبه شيء ، فقال : سبحان مقلب القلوب ، فسمعت زينب رضي الله عنها التسبيحة ، فنقلتها إلى زيد ، فوقع في قلبه أن يطلقها حتى يتزوجها رسول الله ﷺ ، وزعموا أن العتاب في الآية الكريمة كان لكتمان حب الرسول ﷺ لزينب رضي الله عنها ؟ .

والجواب :

إن الله تعالى أعلَم نبيه ﷺ أن زينب رضي الله عنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فكان يقع بين زيد وزينب رضي الله عنها ما يقع بين الأزواج ، واستحكمت النفرة بينهما ، فلما أتى زيد رضي الله عنه إلى النبي ﷺ يشكوها إليه ، وقال له : اتق الله وأمسك عليك زوجك ، عاتبه الله وقال له : أخبرتك أني مزوجكها ،وتخفي في نفسك ما الله مُبديه .

فالذي أخفاه رسول الله ﷺ ليس هو الحب كما زعم المفترون ، وإنما أخفى ما أُوحى الله إليه من أمر الزواج لحكمة عظيمة ، وهي إبطال حكم التبني ، وقد خشى الرسول ﷺ من كلام المنافقين أن محمداً ﷺ تزوج بامرأة ابنه من التبني ، حيث كان زيد رضي الله عنه يدعى زيد بن محمد .

والحق هو أن هذا الزواج كان امتحانًا في أوله لزينب وأخيها ، حيث أُكرها على قبول زيد ، لأن زيداً كان عبداً حسب الظاهر ـ وإن كان مسروقًا ثم بيع ـ ، وزينب

قرشية ، وبنت عمة الرسول ﷺ ، فكيف تأخذ مولى من الموالي ؟ .

وفي النهاية كان امتحانًا قاسيًا للنبي ﷺ ، حيث يؤمر به ، ويعلم نهايته ، وزينب تحت مولاه زيد .

والحكمة كما نطق القرآن هي تحطيم مبدأ كان معمولاً به ومشهورًا عند العرب ، وهو تحريم زواج امرأة الابن من التبني كتحريمها إذا كان الابن من النسب،لقوله تعالى : ﴿ **لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا** ﴾ . [الأحزاب : ٣٧] .

فالذي كان يكتمه النبي ﷺ في نفسه تأذيه من هذا الزواج ، وتراخيه في إنفاذ أمر الله به ، وخوفه من لغط الناس ، وبخاصة المنافقين عندما يجدون نظام التبني قد انهار بعدما ألفوه ، ولهذا فقد عوتب عليه الصلاة والسلام .

وأقول : إن الآية صريحة في هذا الشأن ، فقد ذكرت الآية الكريمة أن الله سيظهر ما أخفاه الرسول ﷺ : ﴿ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ** ﴾[الأحزاب : ٣٧] ، فماذا أظهر الله تعالى ؟ ، هل أظهر حب الرسول ﷺ لزينب رضي الله عنها ؟ ، كلا ، إنما الذي أظهره هو إرادة الرسول ﷺ الزواج بها ، لأن الله قد أوحى إليه بأنها ستكون زوجه ، ولهذا صرح الباري جل وعلا بهذا الشيء وأخفاه الرسول ﷺ ، فقال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا** ﴾[الأحزاب : ٣٧] [1] .

ومما سلف تتجلى لنا الحكمة في زواج النبي ﷺ من أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها ، وذلك لهدم نظام التبني، وتنظيم الجماعة المسلمة على أساس التصور الإسلامي .

وقد شاء الله أن ينتدب لإبطال هذا التقليد من الناحية العملية رسوله ﷺ ، وقد كانت العرب تحرم مطلقة الابن بالتبني حرمة مطلقة الابن من النسب ، وما كانت تطيق أن تحل مطلقات الأدعياء عملا، إلا أن توجد سابقة تقرر هذه القاعدة الجديدة ، فانتدب الله تعالى رسوله ﷺ ليحمل هذا العبء فيما يحمل من أعباء الرسالة ، لأنه

---

(١)ملخصاً من « النبوة والأنبياء » بزيادة في بعض الموضوعات .

ما كان سواه قادراً على احتمال هذا العبء الجسيم ، ومواجهة المجتمع بمثل هذه الخارقة لمألوفه العميق .

وتجد أن التعقيب على الحادث كان تعقيبًا طويلاً لربط النفوس بالله ، ولبيان علاقة المسلمين بالله وعلاقاتهم بنبينهم ووظيفته ﷺ بينهم ، كل ذلك لتيسير الأمر على النفوس ، وتطييب القلوب ، لتقبُّل أمر الله في هذا التنظيم بالرضى والتسليم .

ولقد سبق الحديث عن الحادث تقريرًا لقاعدة أن الأمر لله ورسوله ، وأنه ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، مما يوحي كذلك بصعوبة هذا الأمر الشاق المخالف لمألوف العرب وتقاليدهم العنيفة .

قال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦)** ﴾ .

[الأحزاب : ٣٦] .

روي أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش رضي الله عنها حينما أراد النبي ﷺ أن يحطم الفوارق الطبقية الموروثة في الجماعة المسلمة ، فيرد الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، وكان الموالي [١] - وهم الرقيق المحرر - طبقة أدنى من طبقة السادة ، ومن هؤلاء كان زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ الذي تبناه ، فأراد رسول الله ﷺ أن يحقق المساواة الكاملة بتزويجه من شريفة من بني هاشم ، قريبته ﷺ زينب بنت جحش ، ليسقط تلك الفوارق الطبقية بنفسه في أسرته ، وكانت هذه الفوارق من العمق والعنف ، بحيث لا يحطمها إلا فعل واقعي من رسول الله ﷺ ، تتخذ منه الجماعة المسلمة أسوة ، وتسير البشرية كلها على هداه في هذا الطريق [٢] . وبالفعل قد بطل نظام التبني وحل محله أزواج المتبنين .

وهكذا تبطل مزاعم المفترين أمام الحجج الدامغة والبراهين الساطعة التي تدل على عصمة سيد الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ تسليمًا كثيرًا .

---

(١)قد تطلق هذه الكلمة على غير هذه الطبقة ، فقد تكون قبيلة موالى قبيلة ، أي تنصرها وتتكافل معها في الديات والتعويضات ، على غير معنى الرق والعتق .

(٢)أ ـ هـ . من « ظلال القرآن » (جـ ٦ – ٥٨٩) بتصرف وتلخيص .

الشبهة الثامنة والجواب عنها :

من شبهات المستشرقين وافتراءاتهم حول الرسول الأمين ﷺ أن قالوا ما معناه :

إن الرسول العربي ﷺ لو كان رسولاً حقًا لما تزوج هذا العدد من النساء، فالرسول من شأنه عدم الالتفات للدنيا ، وعدم الانسياق وراء الشهوات ، ونحن نرى أن هذا الرسول ـ كما يدعي ـ تزوج بعدة زوجات ، ومات عن تسع منهن ، فكيف يليق بمن يدعي النبوة ، أن يتصف بهذه الصفة الشهوانية البهيمية ؟ .

كما قد زعموا أن دين الإسلام دين يبيح لمعتنقيه الانسياق وراء الشهوات ، والتمتع بالنساء ، حتى أباح للرجل منهم أربع زوجات ، فلهذا كان دين المسيح أفضل وأحسن ، لأنه يقصر الرجل على امرأة واحدة ، فالوحدة يستطيع أن يعدل بها ، بخلاف الأربعة فلا يستطيع العدل بينهن ؟ .

وهناك فرق كبير بين عيسى ومحمد ، فرق بين من يغالب هواه ويجاهد نفسه ، كعيسى بن مريم ، وبين من يسير مع هواه ، ويجري وراء شهواته ، كمحمد بن عبد الله ﴿ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا** ﴾[الكهف : ٥] .

والجواب :

حقًا إنهم لحاقدون وكاذبون ، فما كان محمد ﷺ رجلاً شهوانيًا ، إنما كان رسولاً نبيًا إنسانيًا ، تزوج كما يتزوج البشر ، ليكون قدوة لهم في سلوك الطريق السوي ، وليس هو إلهًا ولا ابن إله ـ كما يعتقد النصارى في عيسى عليه السلام ـ إنما هو بشر مثلهم ، فضَّلَه الله عليهم بالوحي والرسالة : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** ﴾[الكهف : ١١٠] .

ولم يكن ﷺ بدع من الرسل حتى يخالف سُنَّتهم ، أو ينقض طريقتهم ، فقد حكى القرآن الكريم عن الرسل الكرام ، يقول الله عز وجل : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً** ﴾[الرعد : ٣٨] .

فعلام إذًا يثيرون هذه الزوابع الهوجاء في حق خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام؟، ولكن كما يقول القائل :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج : ٤٦] .

وهنا قضيتان : الأولى : تعدد زوجات الرسول ﷺ ، والثانية : تعدد الزوجات في الإسلام بصفة عامة .

القضية الأولى : تعدد زوجات الرسول ﷺ :

ونبدأ الكلام عن تعدد زوجات الرسول ﷺ ، فنقول : لم يخف على أحد ممن قرأ التواريخ والسير أن النبي ﷺ نشأ نشأة كريمة مخالفة لنشأة غيره من فتيان قريش ، نشأ على الصدق والإخلاص والعفاف والجود والكرم ، وبُغض الأصنام والأمانة والشرف والحياء والوقار والحلم والعقل الراجح والسيرة العطرة ، حتى اشتهر بينهم بهذه الصفات وسمُّوه الأمين .

وقد ارتضته قريش عند وضع الحجر الأسود حكمًا بينهم ، بعد أن كادت الحرب تنشب بينهم فيمن يضعه ؟ ، فأمر ﷺ كل قبيلة أن تأخذ بطرف من رداء - جعل فيه الحجر الأسود - ثم أمرهم برفعه ، حتى إذا حاذى مكان الحجر أخذه بيده الشريفة ووضعه في محله المعروف الآن ، وإلى غير ذلك من الصفات التي اتصف بها ﷺ ، والتي لم يخالف فيها اثنان .

ومن صفاته البارزة ﷺ : بُعده عن الخنا والشهوات ، مع أنه نشأ في مجتمع جاهلي يمارس فيه الموبقات ، ومنها عدم المبالاة بالزنا ، ولم [١] ينفرد رسول الله ﷺ بالتعدد ، بل كان شائعًا في جميع الأمم الماضية ، وهاك بيان ذلك : فقد كان تحت سليمان [٢] ألف امرأة ، وداود ٦٩ ، وجدعون ٢٣ ، وإبراهيم ١٣ ، ومحمد ١٠ ،

---

(١) بدء الكلام من « تعدد نساء الأنبياء ومكانة المرأة » ، اللواء أحمد بن عبد الوهاب .

(٢) الثابت في الحديث أن لسليمان مئة زوجة ، وفي رواية أربعين ، وفي الحديث الشريف : « **لأطوفن هذه الليلة على مئة امرأة ، تأتي كل واحدة بولد ، يكون فارسا يجاهد في سبيل الله** » ، ذكره المفسرون تحت قول الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ** ﴾ [ص : ٣٤] . ولعل من ذكر أن لسليمان ألف امرأة قد حسب الإماء ، وعلى أي قول اعتمدنا سواء من رواية الألف أو المئة أو الأربعين ، فإن التعدد حاصل .

ويعقوب ٤ ، وموسى ٢ . أ . هـ .

وليس في عدم زواج عيسى عليه السلام فضيلة ومنقبة لأمور :

الأول : إن يحيى بن زكريا لم يتزوج أيضًا .

الثاني : إن من يتزوج ويقوم بنفقة الزوجة والعائلة ، ويصل بذلك الأرحام والأقارب والأصحاب ، أفضل ممن يقتصر على نفقة نفسه .

الثالث : النكاح من أسمى أهدافه تكثير النسل لتكثر الأمة ، وكثرة الأمة قوة تحسب لها الدول الحساب .

ثم إنه مما ينبغي أن يعلم - أنه كما سبق القول - أن التعدد كان شائعًا في الأمم ، ومن جملتهم أمة العرب ، حتى إن غيلان الثقفي أسلم وتحته عشرة نسوة ، فأمره ﷺ أن يمسك أربعًا ويفارق سائرهن .

ولكن مما ينبغي التنبيه عليه أن التحديد بأربع في القرآن ، لم يحصل إلا في السنة الثامنة من الهجرة ، لأن سورة النساء مدنية ، وهي التي فيها التحديد فقال تعالى : ﴿ **فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** ﴾ [النساء : ٣] .

وسورة النساء نزلت بعد سورة الممتحنة ، ومعروف أن صدر سورة الممتحنة نزل عندما عزم رسول الله ﷺ فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة ، وعندما نزلت آية التحديد كان الرسول ﷺ جامعًا بين الزوجات ، إلا أن آخرها زواجًا كانت السيدة ميمونة بنت الحارث التي تزوجها في السنة السابعة من الهجرة .

وهنا نقف ونتأمل ماذا يفعل رسول الله ﷺ في العدد الزائد عن أربعة نسوة ، هل يطلق ما زاد عن الأربعة ، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم أم ماذا يكون الأمر ؟ .

وينبغي أن يوضع في الاعتبار ما يلي :

أولاً : إن زوجات النبي ﷺ كنَّ أمهات المؤمنين كما قال الله تعالى : ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ** ﴾ [الأحزاب : ٦] .

ثانيًا : إنه حرم على المؤمنين أن يتزوجوا أي واحدة من نساء النبي ﷺ بعده ،

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

إذًا لو طلق النبي ﷺ واحدة من أزواجه فلن تحل لأحد من المؤمنين، إذ هي أمه ، وسيكون مصيرها التشريد والضياع ، وهل هذا يليق بأمهات المؤمنين وأزواج سيد الأنبياء وخير المرسلين ؟ .

إذًا فليس له إلا أن يمسك عليهن لمصلحتهن ومصلحة الدعوة ، كما قال تعالى : ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ . [الأحزاب : ٥٣] .

ولذا فإن طلق رسول الله ﷺ واحدة منهن أو ماتت ، فليس له بعد التسع نسوة اللائي بقين في عصمته حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى نسوة ، بخلاف سائر المؤمنين ، فإن المسلم لو طلق واحدة من الأربعة طلاقًا بائنًا ، أو ماتت إحداهن ، فيجوز له أن يتزوج بدلاً منها .

وبعد هذه المقدمة ، أشرع بعون الله العظيم في بيان أسباب تعدد أزواجه ﷺ والحكمة في ذلك :

إن من يتأمل في تعدد زوجات الرسول ﷺ يرى أنه لِحِكَم بالغة ، كالحكمة التعليمية والتشريعية والاجتماعية .

ومن المعلوم أن النساء نصف المجتمع ، وأنهنَّ شقائق الرجال ، وأن التشريعات الواردة عن الله تعالى ، وعن رسوله ﷺ - من الأحكام الفقهية والأخلاقية وغيرها - يستوي فيها الرجال والنساء ، باستثناء بعض الأحكام الخاصة بالنساء .

ومن المعلوم أن النساء مستورات مكرمات ، محفوظات ، مصونات ، لا يبرزن ولا يختلطن مع الرجال ، وأنهن في حاجة إلى من يعلمهن أحكام دينهن ، وقد يغلبهن الحياء أن يخاطبن الرجال في الاستفسار عن أشياء تخصهن - وإن كان ذلك جائزًا لحاجة التعليم - ولكن القيام بهذه المهمة للنساء أتم وأكمل .

ولذا كانت زوجات الرسول ﷺ معلمات لنساء الأمة فيما خفي عليهن من

التشريعات الواجبة والمحرمة وغيرها ، بل وحتى كثير من الرجال يسألون أم المؤمنين عائشة ﵂ عن بعض ما أُشكِل عليهم ، وهذه من الأمور الثابتة مما لا يحوم حوله أدنى شك وارتياب .

ثم إنه من المعلوم أن السُّنَّة المطهرة ليست قاصرة على قول النبي ﷺ فحسب ، بل هي تشمل قوله وفعله وتقريره ، وكل هذا من التشريع الذي يجب على الأمة اتباعه ، فمن ينقل لنا أخباره وأفعاله ﷺ في بيته غير هؤلاء النسوة اللائي أكرمهن الله تعالى ؟ ، فكن أمهات المؤمنين وزوجات لرسوله الكريم في الدنيا والآخرة .

لا شك أن لزوجاته الطاهرات ﵅ أكبر الفضل في نقل جميع أخباره وأحواله وأطواره وأفعاله المنزلية ﷺ ، وغير ذلك مما يتعلق بمصلحة الدعوة وتبليغ الإسلام .

وقد توخى ﷺ في بعض أزواجه توثيق الرابطة بين الإسلام وبعض القبائل ، واستطاع عن طريق ذلك أن يصل إلى قلوب زعماء الشرك ، وأن يصاهرهم فيصهر ما في قلوبهم من حقد على الإسلام ، كما حدث عندما تزوج جويرية بنت الحارث من بني المصطلق التي كان من آثارها إسلام جميع قبيلتها ، وكزواجه ﷺ من أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ، وصفية بنت حُيي بن أخطب .

وتوخى في بعضها الآخر تكريم أرامل الشهداء الذين ماتوا في الحبشة ، أو استشهدوا من أجل الدعوة في سبيل الله ، وتُرِكُوا أرامل لا يقدرون على تحمل أثقال الحياة ، مثل هند أم سلمة المخزومية ، وزينب بنت خزيمة ، وسودة بنت زمعة .

وكان في بعضها الآخر زواجًا تشريعيًا كزواجه ﷺ من زينب بنت جحش ، لهدم قاعدة التبني عند العرب ، والتي كانت تحرم على الرجل أن يتزوج امرأة ابنه المتبنى ، ولذلك كان وقع ذلك الزواج شديداً على نفس النبي ﷺ ، لأنه سوف يطيل الألسنة ، ويفتح أفواه المنافقين بالقيل والقال .

ولمثل هذه الأمور التي كانت تجول في نفس النبي ﷺ نزل القرآن الكريم يعاتبه : ﴿ **وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ** ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، وفي الخطاب :

زوجناكها بيان أن ذلك التزويج من الله ، وليس للنَّبي دخل فيه .

ومنها توثيق أواصر الترابط بينه وبين صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وتكريمهما بشرف مصاهرته عليه الصلاة والسلام لجهادهما الصادق ، وإخلاصهما العميق في سبيل الدعوة ، وذلك ظاهر في زواجه ﷺ بعائشه بنت الصديق أبي بكر وحفصة بنت عمر رضي الله عنهم أجمعين (١) .

ولقد أصبح من هؤلاء الزوجات الطاهرات معلمات ومحدثات نقلن هديه ﷺ ، واشتهرن بقوة الحفظ والنبوغ والذكاء .

وبعد هذه المقدمة أبدأ في بيان تعدد زوجاته ﷺ ، والحكمة في ذلك تفصيلاً ، وأبدأ بالسيدة خديجة رضي الله عنها .

الأولى : السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رضي الله عنها :

كانت قريش تعتني بالتجارة شتاءً إلى اليمن ، وصيفًا إلى الشام ، حتى مَنَّ الله عليهم بهاتين الرحلتين ﴿ **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)** ﴾[قريش] .

وكانت خديجة بنت خويلد الأسدية ذات ثروة كبيرة ، ولما سمعت بأوصاف هذا الرسول الكريم ﷺ « قبل النبوة » طلبت منه أن يأخذ منها مالاً يتجر به ، وأرسلت معه غلامها ميسرة ، فذهبا إلى الشام ورجعا، ورأى ميسرة من صفات محمد ﷺ ما لم يره في شباب قريش ، فأعجبه خُلقه الكريم وصفاته السنية ، وأخبر خديجة بما رأى ، فأحبته من أجل تلك الصفات العظيمة الباهرة ، وكانت ثيبًا بعد زوجين ، وبلغت أربعين سنة ، والنَّبي ﷺ في عنفوان شبابه وكماله وحسنه وجماله وفتوته .

وقيل : كلمته كفاحًا ، وقيل أرسلت إليه امرأة تخطبه لنفسها ، فأجاب أنه سيكلم عمه ، ولما أخبر عمه أبا طالب وافق على ذلك ، كما وافق عم خديجة ، وتم الزواج ، وأصدقها عشرين بكرة وقيل : اثنتي عشرة ، وعاش معها خمسًا وعشرين سنة ، لم يتزوج عليها قط ، ولم تراوده نفسه ، مع العلم أنه لو أراد أي بنت من بنات

(١) سيأتي الكلام بالتفصيل عن أزواجه ﷺ الطاهرات ، والحكمة من زواجهن لرد الشبهات .

أشراف قريش وأعلاها ، لما رفضه أحد ، بل الكل كان يتشرف ويتمنى لو صاهره محمد ﷺ ، ومع ذلك لم يلتفت ، ولم يحدث نفسه ، وقضى زهرة شبابه مع خديجة بنت خويلد رضي الله عنها إلى أن توفيت عن عمر يناهز خمسة وستين سنة ، وعمره إذ ذاك خمسون سنة .

فأين الرجل الشهواني كما يقول المفترون ؟ ، أخزاهم الله ـ أنه ﷺ لو كان ـ برَّأه الله ـ كما يقول الأفَّاكون منساقًا وراء الشهوات ، والملذات ، لما اكتفى بواحدة يقضي معها خمسة وعشرين سنة في هذه السن التي هي قوة الشباب وقمة الرجولة ونهاية الفتوة والفحولة ، مع رغبة البنات الأبكار وأوليائهم فيه ، لكنه كما قيل :

لي حيلة فيمن ينم ... وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقول ... فحيلتي فيه قليلة

فهؤلاء لا يفترون من اختلاق الأكاذيب على الرسول ﷺ وعلى دين الإسلام ، لما يكنون في قلوبهم من الحقد الدفين على نبي الإسلام ﷺ والدين الإسلامي .

وقد [1] حظيت خديجة رضي الله عنها لدى الرسول ﷺ بالحب الكامل ، والمعاشرة الحسنة ، حتى أنه ﷺ بعد موتها ولحبه الشديد لها كان يكرم صديقاتها ، ومن يعز عليها من الرجال والنساء .

فقد زارت النبي ﷺ عجوز في بيت عائشة رضي الله عنها فأكرم مثواها ، وبسط لها رداءه فأجلسها عليه ، فلما انصرفت سألته عائشه عنها لتعلم سبب إكرامه لها ، فأخبرها ﷺ أنها كانت تزور خديجة رضي الله عنها .

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا ذبح الشاة ، قال : أرسلوا إلى أصدقاء خديجة ، فذكرت له يومًا فقال : إني لأحب حبيبها .

صلى الله عليك وسلم يا سيد الأوفياء والأصفياء ، ما أشد وفاءك وأعظم نفسك ، وشريعتك الغرَّاء .

لقد احترمت المرأة بعد احتقار ، وعظمتها بعد استصغار ، وعلمتنا الوفاء معها ،

---

(١)بدء لكلام من « زوجات النَّبي الطاهرات » للشيخ الصواف .

والإخلاص لها حية وميتة ، وأبلغتها المنزلة التي لم تحلم الإنسانية يومًا من الأيام أن ستبلغ فيها المرأة هذا المبلغ العظيم من التقدير والاحترام .

ورضى الله عن خديجة وأرضاها ، فقد كانت جديرة بهذا الوفاء والاحترام ، حَرية بأن تنال مثل هذه المنزلة ، وتخلد في جنة النعيم ، ومن أولى بهذا المقام العظيم من الطاهرة أم الطاهرة خديجة الكبرى ، أم المؤمنين وعزيزة سيد المرسلين ﷺ ، رضي الله عنها وأرضاها ، وجعل الجنة مأواها . أ . هـ[١] .

الثانية : سودة بنت زمعة من بني عامر بن لؤي من قريش رضي الله عنها :

بعد أن توفيت السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها وتركت بناتًا أربع وابنين ، والصحابة يرقبون آثار الحزن على نبيهم الكريم ﷺ ، فيشفقون عليه ﷺ من تلك الوحدة ، ويودون لو تزوج ، لعل في الزواج ما يؤنس وحشته بعد أم المؤمنين الراحلة .

وكانت خولة بنت حكيم السلمية هي التي سعت إليه ﷺ ذات مساء متلطفة مترفقة تقول : يا رسول الله ، كأني أراك قد دخلتك وحشة لفقد خديجة ؟ ، فأجاب ﷺ : كانت أم العيال ، وربة البيت ، فقالت : هل لك في سودة بنت زمعة بن قيس ابن عبد شمس القرشية العامرية ، وأمها الشموس بنت قيس بن زيد بن عدي بن النجار ، وكان قد توفي عنها زوجها السكران بن عمرو من بني عامر ابن لؤي .

آمنت[٢] برسالة محمد عليه الصلاة والسلام في وقت مبكر ، فهي من أسبق النساء في الدخول في الإسلام ، فتحملت الاضطهاد من أهلها لكي ترجع عن هذا الدين الجديد وتؤمن بدين أبنائها ، ولكنها أبت وتحملت من أنواع الاضطهاد فتزوجها السكران بن عمرو الأنصاري ، وكان من أنصار الرسول ﷺ ، قويًا في عقيدته وإيمانه، مخلصًا في حبه لرسول الله ﷺ، فهاجر مع زوجته إلى الحبشة مرتين .

ولما عادت من الهجرة توفي زوجها في مكة ، وخافت إذا رجعت إلى أهلها أن يقتلوها أو يعذبوها ، وهم غلاظ الأكباد ، أعداء لله ولرسوله ﷺ ، وسمع رسول الله

---

(١) من « زوجات النَّبي للطاهرات » للشيخ الصواف .

(٢) بدء الكلام من « لماذا الهجوم على تعدد الزوجات » ، للشيخ / أحمد بن عبد العزيز الحصين ، بتصرف وزيادة في بعض المواضع .

ﷺ عنها وعلم بحالها وشدة استمساكها بإسلامها ، وكانت خولة قد كلمته في خطبتها فأجاب بنعم ، فذهبت إلى سودة فخطبتها فوافقت بكل ارتياح وقالت : اذهبي إلى أبي ، فذهبت إلى أبيها ، وقالت : أرسلني محمد بن عبد الله كي أخطب سودة ، فقال كفء كريم ، اذهبي إلى سودة ، قالت له : سودة موافقة ، فقال لها : ائتيني بمحمد ، فأخبرته ﷺ وجاءه وتم الزواج .

ولو كان كما يقولون : إن تعدد أزواجه لمأرب الشهوة وحب الجنس ، لما تزوجها ﷺ وهي في حالة الكبر ، حتى أنها بلغت من العمر حين تزوجها الرسول عليه الصلاة والسلام الخامسة والخمسين رضي الله عنها .

وبهذا الزواج المبارك أسلم من قوم سودة بنت زمعة كثير ، ودخلوا في دين الله أفواجًا ، وهذا كله بسبب زواج الرسول ﷺ بسودة رضي الله عنها .

تقول رضي الله عنها : بعد أن تنازلت عن نوبتها في المبيت لعائشة رضي الله عنها : ما بي على الأزواج من شيء ، ولا أريد ما تريد النساء ، ولكني أحب أن يبعثني الله يوم القيامة في أزواجك .

توفيت أم المؤمنين سودة بنت زمعة بعدما مكثت عند رسول الله ﷺ خمس سنين في المدينة المنورة ، سنة ثلاث وعشرين في خلافة عمر رضي الله عنه [١] .

فظهر من تزوجه ﷺ بسودة ، أنه قصد مكافأتها على ما تحملت من أجل إسلامها من الأذى وترك الوطن والهجرة إلى الحبشة ، وفارقت قومها وأبناءها حبًا وتضحية في الدين الإسلامي ، كما فقدت زوجها وهو العائل الوحيد لها .

فلو لم يكن قصده ﷺ مكافأتها ، لكان في وسعه أن يتزوج بكرًا غيرها ، ولكن ظهرت الحكمة في ذلك بهذه المكافأة ، ثم كان ذلك خيرًا وبركة على قومها ، فقد أسلم من أجل ذلك عدد كثير ، قال الله العظيم : ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ .
[الأنعام : ١٢٤] .

---

(١) انتهاء الكلام من « لماذا الهجوم على تعدد الزوجات » ، للشيخ / أحمد بن عبد العزيز الحصين ، بتصرف .

الثالثة : عائشة بنت أبي بكر الصديق ﵄ :

هي عائشة بنت الصديق ﵄ ، فقد كان أبوها من أوائل الذين أسلموا ، وقد ألقى الله حب أبي بكر في قلب الرسول ﷺ ، فأحبه الرسول ﷺ حُبًا جمًّا .

بعث الرسول ﷺ عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل ، فجاء وقد ظهر « أي النصر » في هذه الغزوة فقال : يا رسول الله ،أي الناس أحب إليك؟ ، قال : «**عائشة**» ، قال : لست أسألك عن النساء قال ﷺ : « **أبوها أبو بكر** » [١] .

وفي رواية أخرى : سأله عمرو بن العاص، يا رسول الله: من أحب الناس إليك ؟ ، قال : « **عائشة** » ، ومن الرجال ؟ ، قال : « **أبوها** » .

وكان النبي ﷺ يقول : « **رحم الله أبا بكر ، زوّجني ابنته ، وحملني إلى دار الهجرة ، وأعتق بلالاً من ماله** » [٢] .

فقد عقد عليها رسول الله ﷺ في السنة العاشرة من بعثته ، ودخل بها بالمدينة في السنة الثانية من الهجرة وهي بنت تسع سنين ، وكانت بكرًا ، ولم يتزوج بكرًا غيرها .

كانت ﵄ أفقه النساء على الإطلاق ، وهي أذكى أمهات المؤمنين ﵅ ، وأحفظهن لحديث رسول الله ﷺ .

يقول الذهبي : أم عبد الله ـ أي عائشة ﵄ ـ حبيبة رسول الله ﷺ ، بنت خليفة رسول الله ﷺ من أكبر فقهاء الصحابة .

ويقول الزهري المُحدِّث الشهير : لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أمهات المؤمنين وعلم جميع النساء ، لكان علم عائشة أفضل .

ويقول عطاء بن أبي رباح : كانت عائشة أفقه الناس ، وأعلم الناس ، وأحسن الناس رأيًا في العامة .

ويقول أبو موسى الأشعري ﵁ : « ما أُشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه .
(٢) أخرجه الخمسة .

فسألنا عنه عائشة رضي الله عنها إلا وجدنا عندها منه علمًا » [رواه البخاري] .

قال مسروق بن الأجدع التابعي : رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض .

قال هشام بن عروة عن أبيه : ما رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة ، وورد عنها رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « **يا عائشة : هذا جبريل يقرأ عليك السلام** » ، قلت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ، قالت : « **ترى ما لا أرى** » [متفق عليه] .

يقول عليه الصلاة والسلام لأم سلمة رضي الله عنها : « **يا أم سلمة : لا تؤذيني في عائشة ، والله ما نزل عليَّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها** » (١) .

عن أنس بن خالد يقول النبي ﷺ : « **حسبك من نساء المؤمنين ، مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية امرأة فرعون ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام** » (٢) .

وهي التي نزلت براءتها من سبع سموات من التهمة بالإفك من قبل المنافقين ، وكانت زاهدة في الدنيا وزخرفها .

يقول عروة : ما كانت عائشة تستجد ثوبًا حتى ترقع ثوبها وتكنسه ، جاءها يومًا من معاوية ثمانون ألفًا ، فما أمسى عندها درهم ، قالت لها جاريتها : فهلا اشتريت لنا منه لحمًا بدرهم ؟ ، قالت : لو ذكرتيني لفعلت .

وتوفيت سنة ثمان وخمسين هجرية ، رضي الله عنها وعن أبيها . أ . هـ(٣) .

ولما نزلت آية التخيير بدأ بعائشة رضي الله عنها فقال لها : « **إني ذاكر لك أمرًا ، فلا تعجلي حتى تستأمري أبويك** » ، قالت : وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه ، فقرأ عليها : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾** ﴾ [الأحزاب : ٢٨] ، فقالت : « أوفي هذا

(١) الترغيب والترهيب (٤ / ١٦٦) .
(٢) انظر : « أسد الغابة » لابن الأثير .
(٣) من : « أسد الغابة » .

أستأمر أبوي ؟!! ، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة » .

ولقد كانت مصاهرة رسول الله ﷺ للصديق أبي بكر رضي الله عنه أعظم منَّة ومكافأة له في هذه الحياة الدنيا ، كما كان خير وسيلة لنشر سُنَّته المطهرة ، وفضائل الزوجية ، وأحكام شريعته ، ولا سيما ما يتعلق منها بالنساء . أ . هـ[1] .

الرابعة : السيدة حفصة بنت عمر رضي الله عنهما :

لم يخف مقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه في نصر رسول الله ﷺ ونصر الإسلام ، وكان ﷺ يدعو عند اشتداد أذى المشركين : «**اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين ، عمرو بن هشام المعروف بأبي جهل ، أو عمر بن الخطاب** » ، فهدى الله تعالى عمر ابن الخطاب وأسلم لما أراد الله له الخير والسعادة .

وكان المسلمون مستخفين في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، وكان قد أسلم قبله حمزة بن عبد المطلب ، فأشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالخروج من دار الأرقم جهاراً ، فمشي عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع الصحابة الخارجين في رأس الصف ، وحمزة في الرأس الثاني ، ودخلوا المسجد وصلوا جهاراً ، وأصابت قريش كآبة لإسلام عمر ، لذلك سماه ﷺ الفاروق ، لأن الله فرَّق به بين الحق والباطل .

وقد قال رسول الله ﷺ في حقه : « **قد كان قبلكم في الأمم محدثون** ـ أي مُلهمون ـ **فإن يكن في أُمَّتي أحد فعمر بن الخطاب** » .

وكانت حفصة بنت عمر رضي الله عنهما زوجًا لخنيس بن حذافة بن قيس بن عدي السالمي القرشي ، وكان من مهاجري الحبشة ، وقد شهد أُحداً ، ثم مات بعدها في دار الهجرة شهيداً ، فترك من ورائه أرملته حفصة بنت عمر رضي الله عنهما ، وكانت قد بلغت إذ ذاك الثامنة عشر من عمرها ، وكان عمر رضي الله عنه يتألم لتأيم ابنته وهي شابة ، فكلم أبا بكر بأن يزوِّجه بها ، فسكت أبو بكر عنها ولم يجب بشيء ،ثم ذهب إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه عارضاً حفصة عليه للزواج بعد أن ماتت زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ ، وكان جواب عثمان رضي الله عنه أن استمهله أياماً جاءه بعدها وقال : ما أريد أن أتزوج اليوم ،

---

(١) من « شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ » ، لمحمد عليّ الصابوني .

فانطلق عمر ﷺ إلى رسول الله ﷺ يشكو صاحبيه وأخبره بموقفيهما ، فابتسم رسول الله ﷺ قائلاً : « **يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة** » ، يعني بنته ﷺ ، وتم زواج رسول الله ﷺ بحفصة ﷺ .

فزواجه ﷺ بحفصة ﷺ مكافأة لعمر بن الخطاب ﷺ لمكانته الرفيعه عند رسول الله ﷺ ، الذي نصر رسول الله ﷺ والإسلام بنفسه وبماله ، ومواقفه ﷺ غير خافية على أحد ممن قرأ سيرة الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ .

كما أن حفصة ﷺ ترملت بعد زواجها وهي في مقتبل العمر ، ولا شك أن دخلها الحزن العميق والألم الشديد على فراق زوجها ، فأراد رسول الله ﷺ أن يواسيها ويخفف من ألمها وحزنها ، فليس في هذا الزواج ما يشم منه رائحة حب النساء والشهوات كما يقول المغرضون . أ . هـ[1] .

وبعد أن تم زواج رسول الله ﷺ بحفصة ﷺ لقي أبو بكر عمر ﷺ فقال : لعلك وجدت عليّ حين عرضت عليّ حفصة ، فلم أرجع إليك شيئًا ؟ ، قال : نعم ، قال : إنه لم يمنعني أن أرجع إليك ، إلا أني علمت أن النبي ﷺ ذكرها ، فلم أكن لأفشي سره ، ولو تركها لقبلتها .

هذه هي الشهامة الحقة ، بل هذه هي الرجولة الصادقة تظهر في فعل الفاروق عمر ﷺ ، فهو يريد أن يصون عرضه ، فلا يرى في نفسه غضاضة أن يعرض ابنته على الكفء الصالح ، لأن الزواج خير وسيلة للمجتمع الفاضل ، فأين نحن اليوم من جهل المسلمين بأحكام الإسلام وجماله الناصع ؟ ، يتركون بناتهم عوانس حتى يأتي الخاطب ذو المال الكثير والثراء الوفير ؟! . أ . هـ[2] .

الخامسة : السيدة زينب بنت خزيمة ﷺ :

بعد تزوجه ﷺ بحفصة بنت عمر بن الخطاب ، تزوج بالسيدة زينب بنت خزيمة - ﷺ أجمعين - .

---

(١) من « شبهات وأباطيل » .

(٢) انتهاء الكلام من « شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ » لمحمد عليّ الصابوني .

وهي المؤمنة البارة ، الصالحة التقية ، المجاهدة في سبيل الله ، الصابرة في البأساء والضراء، وكان زوجها من أبطال « بدر » الأفذاذ ، الذين حفظ لنا التاريخ عظمة استبسالهم وجهادهم وتضحيتهم في سبيل الله ، حتى جاد بنفسه وهو أقصى غاية الجود ، فمات شهيداً سعيداً ، وهو البطل المقدام عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وقد صمد للأعداء وكافح كفاح المؤمنين الصابرين، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

روي أنه بدأت المبارزة في وقعة بدر بين عليّ بن أبي طالب ﵁ والوليد بن عتبة المشرك ، وبين حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ ، وشيبة بن ربيعة عم الوليد ، فقتل بطل الإسلام عليّ بن أبي طالب مبارزه الوليد المشرك، وقتل حمزة شهيد الإسلام والمجاهد الأول مبارزه شيبة بن عتبة ، واختلف عبيدة بن الحارث ومبارزه عتبة بن ربيعة أخي شيبة بضربتين كلاهما أثبت صاحبه فرماه ، فكر الإمامان عليّ وحمزة بأسيافهما على عتبة فقتلاه ، واحتملا عبيدة الجريح إلى النبي ﷺ فوضع خده على ركبة رسول الله ﷺ ، ثم رفع بصره ليودع حبيبه الأكبر محمد المصطفى ﷺ بنظراته الأخيرة ، ولم يخطر بباله حينذاك ﵁أن يسأل عن أهله وعشيرته، ولا عن جرحه وألمه ، ولا عن أي شيء آخر في الدنيا وهو يودعها الوداع الأخير ، ولكنه سأل حبيبه بقوله : ألست شهيداً يا رسول الله ؟ ، فأجابه النبي الأعظم ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى بتلك البشرى السعيدة التي اصطحبها معه إلى جنة الفردوس : أشهد أنك شهيد .

وهذه المرأة زينب بنت خزيمة كانت زوجة لهذا البطل الشهيد ، وكانت حين استشهد زوجها تقوم بواجبها الإسلامي تجاه أخوتها في الله من المجاهدين ، ولم يلهها استشهاد زوجها عن القيام بواجبها ، والاستمرار في عملها ، والمضي في جهادها ، حتى كتب الله النصر للمسلمين في تلك الموقعة الكبرى .

ولما علم المصطفى عليه الصلاة السلام بحالها واستبسالها وصبرها وثباتها ، وأنه لم يعد هناك من يعولها ويذود عنها ويحميها ، أراد الرسول ﷺ أن يجزيها على إسلامها وجهادها وصبرها ومصابها خيراً ، فخطبها لنفسه ، وأواها إليه ، وجبر خاطرها ، بعد أن انقطع عنها الناصر والمعين وكافأ زوجها وهو في قبره .

وكانت قد بلغت الستين من عمرها حينما تزوجها النبي ﷺ ، ولم تعمر رضي الله عنها سوى عامين عند النبي الكريم ﷺ ، ثم توفاها الله إليه راضية مرضية .

فما رأي الخراصين بهذا الزواج الشريف وغايته النبيلة ، وهل يجدون فيه شيئًا مما يأفك الأفّاكين ؟ ، أيجدون فيه أثرًا للهوى والشهوة ، أم هو النبل والعفاف والعظمة والرحمة ، والفضل والإحسان من رسول الإنسانية الأكبر الذي جاء رحمة للعالمين ونورًا للناس أجمعين ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)** ﴾ .
[الأنبياء : ١٠٧] .

فليتق الله المستشرقون المغرضون ، وليؤدوا أمانة العلم ولا يخونوها في سبيل غايات خبيثة ، استشرقوا ودرسوا العلوم الإسلامية خاصة للدس والكيد والنيل من سيد الإنسانية ﷺ ، ولقد طاشت سهامهم وخابت آمالهم وأحلامهم ، فرسول الرحمة أجلّ من أن يناله شيء مما يقول المرجفون ، إن يقولون إلا كذبًا وظنًا ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . أ . هـ[١] .

السادسة : السيد أم سلمة هند بنت أمية المخزومية رضي الله عنها :

تزوج الرسول الكريم ﷺ بأم سلمة وهي أرملة عبد الله بن عبد الأسد ، وكان زوجها من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وهاجر إلى الحبشة ، وكانت زوجته معه خرجت فرارًا بدينها ، وولدت له سلمة في أثناء ذلك ، واستشهد زوجها في غزوة أُحد ، فبقيت هي وأيتامها الأربعة بلا كفيل ولا معيل ، فلم ير عليه الصلاة والسلام عزاء ولا كافلاً لها ولأولادها غير أن يتزوج بها ، ولما خطبها لنفسه ، اعتذرت إليه ﷺ وقالت : إني مسنة ، وإني أم أيتام ، وإني شديدة الغيرة .

فأجابها عليه الصلاة والسلام ، وأرسل لها يقول : أما الأيتام فأضمهم إليَّ ، وأدعو الله أن يُذهب عن قلبك الغيرة ، ولم يعبأ بالسن ، فتزوجها عليه الصلاة والسلام بعد موافقتها ، وقام على تربية أيتامها ، ووسعهم قلبه الكبير ، حتى أصبحوا لا يشعرون بفقد الأب ، إذ عوضهم أبا أرحم من أبيهم صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) من « زوجات النَّبي الطاهرات وحكمة تعددهن » ، للشيخ / محمد محمود الصواف .

وقد اجتمع لأم المؤمنين النسب الشريف ، والبيت الكريم ، والسبق إلى الإسلام ، على أن لها فضيلة أخرى هي جودة الرأي ، ويكفينا دليلاً على ذلك استشارة النبي ﷺ لها في أهم ما حزنه وأهمَّه من أمر المسلمين ، وما أشارت به عليه في صلح الحديبية ، فقد تأثر المسلمون بالغ التأثر من ذلك الصلح مع المشركين ، وذلك على ترك الحرب عشر سنين بالشروط التي قدموها ، ورأوا في ذلك هضمًا لحقوقهم ، مع أنهم كانوا في أوج عظمتهم ، وكان من أثر هذا الاستياء أنهم تباطؤوا عن تنفيذ أمر رسول الله ﷺ حين أمرهم بالحلق أو التقصير لأجل العودة إلى المدينة المنورة ، فلم يمتثل أمره أحد ، فدخل رسول الله ﷺ على زوجه أم سلمة وقال لها : هلك الناس ، أمرتهم فلم يمتثلوا ، فهونت عليه الأمر ، وأشارت عليه بأن يخرج إليهم ويحلق رأسه أمامهم ، وجزمت بأنهم لا يترددون حينذاك عن الاقتداء به ﷺ ، لأنهم يعلمون أنه صار أمرًا مبرمًا لا مرد له ، وكذلك كان فما إن خرج الرسول ﷺ وأمر الحلاق بحلق رأسه حتى تسابقوا إلى الاقتداء به ﷺ ، فحلقوا وتحللوا ، وكان ذلك بإشارة أم المؤمنين سلمة رضي الله عنها وأرضها (١) .

السابعة : أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب زعيم قريش والعدو اللدود للنبي ﷺ وللمسلمين - رضي الله عنها - :

هذه المرأة المؤمنة التي عادت قومها في الجاهلية والإسلام ، وكانت عند عبيد الله ابن جحش ، فأسلما وهاجرا إلى الحبشة الهجرة الثانية ، وهناك تنصر زوجها ، وثبتت هي على الإسلام .

فهل تترك امرأة مؤمنة تضيع بين أبيها الذي يعادي النبي ﷺ وبين زوجها الذي ارتد عن الإسلام ؟ ، لذلك ضمها النبي ﷺ إلى كفالته بالزواج ، فرفع قدرها ، وعزز مكانتها ، ووكل نجاشي الحبشة في تزويجها منه ، وقد كان لهذا الزواج أثره البالغ في تقليب قلب أبي سفيان ، حيث رأى ابنته يؤويها رسول الله ﷺ ويحميها من الذل والمهانة ، فقال : نعم الفحل محمد ، ثم تحولت عداوته للإسلام ونبيه فيما بعد إلى مودة ، ودخل هو وقومه في دين الله أفواجًا ، ولم تكن أم حبيبة ذات شباب ولا جمال

(١) من « شبهات وأباطيل للصابوني » .

ولا مال .

فكان المقصود من هذا الزواج تأليف قلوب بعض زعماء المشركين بمصاهرتهم ، مع إكرام المرأة وحمايتها من الفتنة (١) .

الثامنة : السيدة / جويرية رضي الله عنها :

واسمها برة بنت الحارث سيد بني المصطلق (٢) ، وكان المسلمون قد أسروا منهم مئتي بيت من النساء والذراري ، وكان من بين السبي جويرية أم المؤمنين رضي الله عنها ، وكان من بين السبي جويرية أم المؤمنين رضي الله عنها ، فأعتقها النبي ﷺ وتزوج بها في أواسط السنة السادسة من الهجرة إكرامًا لها أن تُذل ذُل السبايا .

وقال الصحابة : أصهار رسول الله ﷺ لا ينبغي أسرهم ، وأعتقوهم ، فأسلموا جميعًا ، وحسن إسلامهم،وصاروا عونًا للإسلام والمسلمين بعد أن كانوا حربًا عليهم ، وكان لذلك أحسن الأثر في سائر العرب ، ثم خيَّرها أبوها بين العودة إليه والبقاء عند رسول الله ﷺ ، فاختارات الله ورسوله والدار الآخرة .

وهنا قد تجلت الحكمة العالية من هذا الزواج المبارك الذي أعتق به مائتا بيت من ذل العبودية في الدنيا ومن عذاب النار في الآخرة ، وقد شهدت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وهي ضرة جويرية بهذه الحقيقة فقالت ما معناه : ما كانت امرأة أبرك على قومها من جويرية بنت الحارث ، لقد عتق بها مائتا بيت من بيوت العرب .

والفضل في عتق بني المصطلق وجويرية من ذُل الدنيا وعذاب الآخرة هو زواجه ﷺ بجويرية رضي الله عنها ، فكان المقصود من هذا الزواج هو تحرير الرقاب من رق الدنيا وعذاب الآخرة أ . هـ .

التاسعة : أم المؤمنين صفية بنت حُيي بن أخطب رضي الله عنها :

تزوج النبي ﷺ بصفية بنت حيي أرملة كنانة بن أبي الحقيق ، وكانت قد أُسِرت

---

(١) من « البحوث والدراسات المقدمة للمؤتمر الثالث للسُّنَّة النبوية » .

(٢) كانت رضي الله عنها أرملة مسافع بن صفوان المصطلقي ، وكان زوجها من ألد أعداء الإسلام وأكثرهم خصومة لرسول الله ﷺ ، وقتل يوم المريسيع « اسم ماء لقبيلة خزاعة » وتركها فوقعت أسيرة بيد المسلمين ، والنقل من زوجات النَّبي الطاهرات .

بعد قتل زوجها في غزوة خيبر ، ووقعت في سهم بعض المسلمين ، فقال أهل الرأي والمشورة : هذه سيدة بني قريظة لا تصلح إلا لرسول الله ﷺ ، **فعرضوا الأمر على الرسول الكريم ﷺ فدعاها وخيَّرها بين أمرين :**

﴿ **أ** ﴾ إما أن يعتقها عليه الصلاة والسلام فتكون زوجة له .

﴿ **ب** ﴾ وإما أن يطلق سراحها فتلحق بأهلها .

فاختارت رضي الله عنها أن يعتقها وتكون زوجة له ، وذلك لما رأته من جلالة قدره وعظمته وحُسن معاملته ، وقد أسلمت وأسلم بإسلامها عدد من الناس .

روي أن صفية رضي الله عنها لما دخلت على النبي ﷺ قال لها : لم يزل أبوك من أشد اليهود لي عداوة حتى قتله الله ، فقالت : يا رسول الله : إن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴾ [الأنعام : ١٦٤] ، فقال لها الرسول الكريم ﷺ : « **اختاري ، فإن اخترت الإسلام ، أمسكتك لنفسي ، وإن اخترت اليهودية ، فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك** » ، فقالت : يا رسول الله لقد هويت الإسلام ، وصدقت بك قبل أن تدعوني إلى رحلك ، وما لي في اليهودية أرب ، وما لي فيها والد ولا أخ ، وخيرتني الكفر والإسلام ، فالله ورسوله أحب إليَّ من العتق وأن أرجع إلى قومي ، فأمسكها رسول الله ﷺ لنفسه . أ . هـ[1] .

فكان المقصود من هذا الزواج أسباب سياسية ، مع جبر خاطر المرأة ورفع قدرها عن مذلة السبي .

العاشرة : أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها :

في أواخر السنة السابعة للهجرة تزوج النبي الكريم ﷺ بالسيدة ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية ، وكان اسمها برة ، فسماها ﷺ ميمونة ، والذي عرضها عليه ﷺ هو عمه العباس بن عبد المطلب الذي كان متزوجًا بأختها ، وكانت قد جعلت أمرها إليه بعد وفاة زوجها « أبي رهم ابن عبد العزى » ، وجرى هذا الزواج المبارك بمكة المكرمة في إبان عمرة القضاء .

---

(١) من « زوجات النَّبي الطاهرات » .

وكانت أم المؤمنين ميمونة ﵂ آخر امرأة تزوجها الرسول ﷺ،وكانت زاهدة عابدة وقد قالت فيها أم المؤمنين عائشة ﵂: أما إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم.

وفي غزوة تبوك كانت ميمونة في صفوف المجاهدين ، تسعف الجرحى ، وتواسي المرضى ، وتجاهد في سبيل الله حق الجهاد . أ . هـ[(١)] .

قال العلامة السيد محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ :

ورد أن عم النبي ﷺ العباس رغبه فيها ، وهي أخت زوجه لبابة الكبرى أم الفضل ، وهو الذي عقد له عليها بإذنها ، ولولا أن العباس رأى في ذلك مصلحة عظيمة لما عني به كل هذه العناية ، وفعلاً كانت المصلحة في هذا النكاح المبارك ، فقد تقرب النبي ﷺ إلى الهلاليين قومها ، فأكبروا فيه ﷺ هذه المروءة والحمية والنجدة ، ثم أقبلوا يدخلون في دين الله أفواجًا ، وآزروا الرسول ﷺ ونصروه وساروا معه ﷺ حيثما سار .

فكان المقصود من هذا الزواج تأليفًا لقومها ، وإنقاذًا لها من الذُّل والمهانة ، حيث لم تكن ذات جمال ولا مال ، وتزوجها ﷺ بعد أن بلغت من الكبر عتيًا أ . هـ[(٢)] .

الحادية عشرة : أم المؤمنين زينب بنت جحش ﵂ :

لم نذكر في هذا الموضع أم المؤمنين زينب بنت جحش ﵂ ، زوج النبي ﷺ وبنت عمته ، حيث قد سبق الكلام عنها بالتفصيل عند ذكر الشبهة السابعة .

الثانية عشرة : السيدة مارية القبطية ﵂ :

جاءت هدية من المقوقس عظيم مصر ، مع رسول رسول الله ﷺ « حاطب بن أبي بلتعة » جاءت ومعها أختها « سيرين » وعبد خصي ، وألف مثقال ذهبًا وعشرون ثوبًا لينًا من نسج مصر ، بلغ الركب المدينة المنورة ، وفي نفس الشقيقتين ألم للفراق والغربة ، فأخذ النبي ﷺ مارية من الهدية ، ووهب أختها لشاعره حسان بن ثابت .

كان لهذا الزواج صلة رحم مع مصر[(٣)] : « **الله الله في أهل الذمة** » ، ويقول

---

(١) من « زوجات النَّبي الطاهرات » .

(٢) من « بحوث المؤتمر الثالث للسُّنَّة النَّبوية » بتلخيص وتصرف وزيادة .

(٣) راجع « نساء النَّبي » (ص ١٩٢ إلى ص ٢٠٥) .

ﷺ : « **استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً** » .

طلب الحسن بن علي من معاوية رضي الله عنهم في مفاوضات الصلح بينهما : أن يرفع الخراج عن أهل قرية « حفن » - مسقط رأس مارية رضي الله عنها - ففيها خؤولة إبراهيم « ابن رسول الله ﷺ » .

لما جاء عبادة بن الصامت رضي الله عنه إلى مصر بعد فتحها بحث عن قرية « حفن » وسأل عن موضع بيت « مارية » فبنى به مسجداً .



تنبيهات مهمة

[١] إن النبي ﷺ تزوج إحدى عشرة سيدة بعد خديجة ، منهن ست من قريش ، وخمس من سائر العرب ، وواحدة قبطية ، فكان النبي ﷺ يرى أن يجمع نساء من قبائل العرب المختلفة ليكون ذلك من باب التأليف لعشائرهن ، لقد صاهر النبي ﷺ أكبر القبائل من قريش وأقوى البطون من سائر العرب ، ثم كانت ظروف معينة أوضحناها بحينها لزواجه من بعضهن كما في جويرية وزينب وصفية .

[٢] تألف القلوب بالمصاهرة لم يتبعه النبي ﷺ لنفسه فقط ـ مع أن لشخصه بالذات بين القبائل مكانة خاصة عند المصاهرة [١] ـ بل اتبعه الصحابة بأمر من رسول الله ﷺ .

ورد في الطبري الجزء الثالث الصفحة ٨٣ : إن الرسول ﷺ حين بعث عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل قال له : إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم ، مما يدل على أن ذلك سياسة من الرسول يقيدهم بها ، فلا يفكرون بنقض عهد ، وكيف ينقضون عهداً وبينهم وبين الفاتح مصاهرة وخؤولة [٢] .

[٣] لقد أحال المستشرقون جوانب الإسلام المنيرة ظلاماً ، ولكنه سيبقى مخيماً في رؤوسهم ورؤوس من يشايعهم :

﴿ أ ﴾ لقد أحالوا صدق النبي ﷺ في سلوكه وفي حياته وفي رسالته وفي عموم دعوته إلى كذب .

﴿ ب ﴾ وأحالوا رحمة النبي ﷺ ، ورقة قلبه ، وكثرة شفقته إلى قسوة ، بل جعلوها قسوة بالغة .

---

(١) لم يتزوج النَّبي ﷺ بعد أن استقر له الأمر ودخلت القبائل في دين الله أفواجًا ، ولم تعد هناك حاجة لتأليف القلوب .

(٢) راجع الهامش (ص ١٨٤) من كتاب « تاريخ الإسلام » (جـ ١) .

﴿ جـ ﴾ وأحالوا زهده عليه السلام ـ عبداً نبيًا ـ وتواضعه إلى شهوة جامحة إلى الحكم والسلطان .

[٤] اتهموا رسول الله ﷺ بالميل إلى النساء بشهوة جامحة ، واتخذوا من تعدد زوجاته دليلاً حسبوه يكسبهم القضية ، وهو دليل واهٍ في ميزان الحكم السليم والرأي القويم ، وقالوا : إنه أباح لنفسه من التعدد والزيادة على أربع في عصمة يده ما حرمه على المسلمين ، وهذا فيه من المغالطة وإغفال التاريخ ما يسقط معه القول ، فإن الآيات الخاصة بالزواج من أربع ، والتي تؤثر الواحدة خوف عدم العدل ، قد نزلت في أواخر السنة الثامنة من الهجرة ، بعد أن كان النبي عليه السلام قد بنى بنسائه جميعاً ، وقد كان العدد قبل ذلك غير محدد بأربع زوجات ، وإذاً فلا مجال للاتهام بتحليل الزيادة على أربع لنفسه وتحريمها على بقية المسلمين ممن يشرع لهم ، ويضع عنهم أحدهم [١] .

[٥] لم يكن النبي ﷺ في عصره « قبل مئات السنين » الوحيد الذي تزوج نساء كثيرات ، إنه العصر وظروفه .

[٦] وإذا اطلعنا على تراجم رجال ذاك العصر لرأينا هذا الزواج متعارفًا عليه ، ولم يكن فيه غضاضة ، فلماذا رأى المستشرقون والمغرضون النبي ﷺ وحده ، ولم يروا العصر كله؟ ، لماذا لم يطلعوا على الظروف المرافقة وينظروا بعين العصر ذاك وبروح مجردة ليروا أن النبي ﷺ : « **جُعلَتْ قرة عينه بالصلاة** » لا بالنساء ، النبي ﷺ له ساعة مع ربه لا يدانيه فيها ملك أو رسول مرسل ، وليست أسعد ساعاته مع النساء ، ولكنه الهوى الذي أعمى المستشرقين .

[٧] **قال « توماس كارليل » في هذا المقام :** ما كان محمد أخا شهوات ، برغم ما اتهم به ظلمًا وعدوانًا ، وشد ما نجور ونخطيء إذ حسبناه رجلاً شهويًا ، لا هم له إلا قضاء مآربه من الملاذ ، كلا ! ، فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أية كانت . . . » [٢] . [٣] .

---

(١) راجع كتاب « الإسلام بين الجحود والإنصاف » (ص ١٣٦ إلى ص ١٣٩) .
(٢) الأبطال ، (ص ٨٣) ، نشر دار الكتاب العربي .
(٣) أ . هـ . من « الإسلام في قفص الإتهام » للأستاذ / شوقي أبو خليل ، بتصرف وتلخيص في بعض المواضع .

ومما سبق ذكره ظهر جليًا لكل ذي عقل وإنصاف ، أن تعدد زوجات الرسول ﷺ كان لحكم ومصالح متعددة كما مر البيان .

ثم إن للرسول ﷺ خصوصيات خصه الله بها :

- **منها :** تعدد الزوجات .
- **ومنها :** تحريمهن بعد موته على غيره .
- **ومنها :** حرمة الصدقة عليه وآله ﷺ .
- **ومنها :** وجوب صلاة الوتر .

وقد ألَّف العلماء في خصوصيات النبي ﷺ كتبًا كثيرة ، فمن كان يؤمن بالله ورسوله ، لا يعتريه شك ولا ريب في أن أقواله وأعماله كلها بإذن الله ، إذ لا يعقل أن رسولاً من الرسل يخالف ما أمر الله به ، أو يفعل ما نهى الله عنه ، كما مر في بيان العصمة ، وكما سيأتي بيان خصوصياته ﷺ تفصيلاً - إن شاء الله - .

أما القضية الثانية وهي تعدد الزوجات في الإسلام بصفة عامة، فإليك البيان :

تعدد الزوجات :

لم يوجبه الإسلام ، وإنما أجازه لما فيه من المصالح العديدة ، ولكن قيد الجواز بأن لا يخاف الرجل من عدم العدل بينهما أو بينهن ، كما قال الله تعالى : ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** ﴾ [النساء : ٣] ، والعدل في الإنفاق والإسكان والمبيت والكسوة ، والقيام بواجب الزوجية لا في المحبة القلبية ، لأن تلك ليست باختياره .

ولكن من خبث المستشرقين أنهم يطعنون في دين الإسلام بتشريعه تعدد الزوجات ، وقلدهم بعض المنتسبين إلى الإسلام الجاهلين بحقيقته ومحاسنه ، وما يرمي إليه التعدد من أهداف نبيلة ، وكأن هؤلاء الجهلة لم يقرأوا قوله تعالى : ﴿ **فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا (٣)** ﴾ [النساء : ٣] .

وعمل الرسول ﷺ وبعض أصحابه بالتعدد ، فقد روى الإمام أحمد والترمذي

وصححه ابن حبان والحاكم : إن غيلان الثقفي قد أسلم وله عشرة نسوة ، فأسلمن معه ، فأمره الرسول ﷺ أن يتخير منهن أربعًا .

ومن الجدير بالذكر أن يفهم أن التعدد ليس مما انفرد به الإسلام ، بل عرف التعدد من قرون غابرة ، وكان له في كثير من الشرائع السماوية وجود واسع وامتداد إلى عدد كثير ، كما يحدثنا التاريخ عن إبراهيم ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ .

وفي التعدد حكم كثيرة ، وأكتفي بأربع منها ، وإليك البيان :

[١] إن الحكمة من الزواج تحصين الرجل والمرأة من الوقوع في المحرم ، وإنجاب الذرية لتكثير سواد الأمة ، وكلما كانت الأمة أكثر عددًا ، كانت أقوى وأهيب عند الدول ، وأثقل في ميزان الأمم .

ومن المعلوم لدى كل عاقل فهيم أن التعدد سبب لكثرة النسل المطلوب والمرغوب شرعًا وعقلاً ، ولهذا جاء الحديث : « **تناكحوا تكاثروا ، فإني مُباهٍ بكم الأمم** » .

فالصين لما كثر عددها كثرة هائلة فاقت بها كل الأمم ، حسب لها ألف حساب وحساب ، بعد أن كانت الدول الأوروبية لا تنظر إليها بعين الاعتبار ، ولا ترى لها قيمة .

[٢] قد تُصاب الزوجة الأولى بالعقم ، وأكبر لذة للإنسان وأكبر سعادة لنفسه وللمجتمع أن يكون له نسل ، فهل من المعقول والعدل في شيء أن يصبر على هذه الزوجة العقيم أو العجوز التي بلغت سن اليأس ، وليس لديها استعداد للإنجاب ، أو أن يفارقها ويتركها هائمة على وجهها حائرة في أمرها ، خصوصًا إذا لم يكن لها من يعيلها إذا فارقها زوجها ؟ .

[٣] قد تكون حالة المرأة في الحيض والنفاس تأخذ أيامًا عديدة ، لا يجوز للرجل أن يقاربها ، وعنده من شهوة الجماع ما لا يستطيع الصبر ، هل يقع في حمأة الحرام ، أو يتزوج زواجًا شرعيًا يحصن نفسه ونفسها ، ولا أظن أن عاقلاً

يخالف في حُسن هذا ؟ .

[٤] إن للشريعة في إباحة التعدد نظرًا عمرانيًا خلقيًا آخر ، وهو أن عدد النساء أكثر من عدد الرجال قطعًا ، لأن الرجال معرضون للحروب والخدمة العسكرية والمشاق ، فلو قصرنا كل رجل على امرأة واحدة ، لبقي عدد كثير من النساء بلا أزواج ، وهؤلاء بحكم الطبيعة ميالون إلى ما تميل إليه النساء ، فإن لم يكن لهن أزواج ، فربما جنت تلك المحرومات من الزواج على أعراضهن ، إما لكسب نفقة أو لقضاء شهوة ، ومتى كان ذلك كما هو شائع في أوروبا - خصوصًا في فرنسا - فقد اكتفى الكثير من الرجال بهؤلاء البغايا ، فلا يميلون إلى الزواج تخلصًا من حقوق الزوجية ، فيكثر عدد من ليس لهن أزواج ، فيتسع الخرق حينئذ على الراقع ، وفي ذلك تقليل للنسل الذي فيه خراب العمران وفساد الكون .

من هنا تعلم : أن إباحة تعدد الزوجات مفخرة من مفاخر الإسلام ، لأنه استطاع أن يحل مشكلة عويصة من أعقد المشاكل الاجتماعية التي تعانيها الأمم والمجتمعات اليوم ، فلا تجد لها حلولاً إلا بالرجوع إلى حكم الإسلام (١) .

وإن تعجب فالعجب من قول هؤلاء الذين يمنعون التعدد ، ولكنهم يبيحون لأنفسهم المسافحات من غير عد ، وتشجعهم القوانين الوضعية بإباحتها لهم ، هذا الأمر المنافي للحياء والعقل والطبع السليم ، فضلاً عن الشرائع السماوية .

فإن قيل : ما ذكر من الحكم والمصالح في تعدد الزوجات تحصل بزوجة ثانية ، فلِمَ أباح الدين الإسلامي أربع زوجات ؟ .

فالجواب :

[١] إن الدين الإسلامي عدل وسط في جميع تشريعاته ، ومنها تجويزه تعدد الزوجات إلى أربع وبيانه :

---

(١) من أجل ذلك فقد سمحت الكنيسة الكاثوليكية بتعدد الزوجات بقرارات صادرة من الفاتيكان في روما ، وقصرت ذلك على الأفريقيين .

إن الشرائع السابقة على الإسلام ـ كاليهودية والنصرانية ـ لم تحرم التعدد حتى زعيم حركة الإصلاح المسيحي « مارتن لوثر » لم يكن يرى في التعدد ما يدعو إلى تحريمه .

يقول « وسترماك » : إن تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي إلى القرن السابع عشر الميلادي ، ويبدو أن التحريم المنسوب للمسيحية ابتدعه رجال الكنيسة ، كما ابتدعوا الرهبانية ولم يلتزموا بها هم أنفسهم ، وكان ما كان من فضائحهم مع الراهبات [١] .

بالإضافة إلى أن تلك الديانات لم تقيد التعدد كما أن ديانة الفرس كانت تجيز التعدد على حسب مقدرة الرجل ، والعرب في الجاهلية أجازوا التعدد بغير حصر ، فجاء الإسلام بالحد الوسط ، لا إفراط ولا تفريط ، لم يبح التعدد من غير حصر ، ولم يقيده بواحدة ، كما زعمت رجال الكنيسة المسيحية ، ولا يستريب في هذا عاقل أنه من العدل الواضح الذي لا يقبل النقاش والجدال .

[٢] إن الذي شرع نكاح الأربع هو الله ـ جل جلاله ـ ومن المسلم لدى كل من يؤمن بالله أنه أعدل وأعلم بطبائع خلقه وبما يصلحهم ، وإذا كان الأمر كذلك والسائل قد سلم بمبدأ التعدد فلا يرد هذا السؤال .

[٣] قد تكون واحدة مريضة أو في حالة الطمث لا يحل له أن يقربها ، وبعض الرجال به من الشبق ما لا تكفيه الزوجة الثانية أو واحدة مريضة والأخرى حائض أو نفساء أو مسافرة فيحتاج إلى ثالثة ورابعة ، على أن في هذا الشريع مصلحة كبيرة للنساء اللاتي يموت أزواجهن في الحروب أو في الأوبئة وتبقى آلاف النساء لا قيم لهن .

فإن قيل : قد تكون الزوجات الأربع كلهن مريضات أو بعضهن مصابة بمرض ، وبعضهن بأعذار أخرى ، إذًا فينبغي تجويز أكثر من أربع .

فالجواب :

إن هذا نادر والحكم للأغلب وليس للنادر حكم .

والحاصل أن الله لم يشرع لنا التعدد لإشباع رغبات الرجال والمضي في شهواتهم ،

---

(١) من « مفتريات على الإسلام » .

ولكن ليكبح جماع اندفاعاتهم الجنسية ، التي إذا لم يقيدها الشارع اندفعت اندفاعًا لا حد له ولا حصر ، كما وقع فيه الغرب ، كما أن في نفس الوقت شرع أيضًا ليحمي المرأة من شر مستطير وقعت فيه المرأة الغربية ولقيت فيه من العنت ومرارة العيش ما لقيت ، نعم إن في أوروبا وأمريكا عشرات الملايين من النساء اللاتي يعشن من حرفة العُهر ، وقد يرزقن أولادًا يحرمون من حقوق الوراثة ، فالإسلام يريد أن تعامل المرأة في جميع الأحوال باعتبار أنها زوجة شرعية ذات حقوق ، لا باعتبار أنها ساقطة من كل حماية من الشرع ، فأي الحالتين أجدى على المرأة وأحفظ لكرامتها ؟ ، أن تصبح زوجة ثانية أو ثالثة أو رابعة لرجل يستطيع أن تطالبه بنفقتها ونفقة أولادها ، وترث منه ، ويرث أولادها منه ، أو تضحى في عداد المبتذلات لا حق لها عنده ، ولا ترثه ولا أولادها منه ، فتسمي هي وهم في حالة من البؤس مجردين من الكرامة في نظر العقلاء والخلطاء ، فمصلحة المرأة في التعدد أرجح من مصلحة الرجل في نظر العاقل الفهيم ، وإن كان للرجل فيه مصلحة أيضًا .

ولا ينكر محاسن التعدد ومصالحه إلا جاهل غبي أو مضل عنيد ، أو مضلل مسمم الفكر والذهن بسموم الاستشراق ، وإلا فلا تخفى محاسن التعدد ، ولهذا لما عرف المنصفون من أهل أوروبا ذلك ، تمنوا الرجوع إلى تعاليم الدين الحنيف وفضائله الحقيقية ، حتى بعض فضليات نساء الإفرنج صرحت بتمني تعدد الزوجات للرجل الواحد ، ليكون لكل امرأة قيم وكفيل من الرجال .

قال السيد رشيد رضا ، نقلاً عن جريدة « لندن ثروت » بقلم كاتبة فاضلة ملخصًا :

لقد كثرت الشاردات من بناتنا ، وعمَّ البلاء ، وقل الباحثون عن أسباب ذلك ، وإذ كنت امرأة تراني أنظر إلى هاتيك البنات وقلبي يتقطع شفقة عليهن وحزنًا ، وماذا عسى يفيدهن بثي وحزني وتوجعي وتفجعي ، وإن شاركني فيه الناس جميعًا ، فلا فائدة إلا في العمل بما يمنع هذه الحالة الرِّجسة ، ولله درّ العالم الفاضل « تومس » فإنه رأى الداء ووصف له الدواء الكافل للشفاء وهو « الإباحة للرجل بالتزوج بأكثر من واحدة » ، وبهذه الواسطة يزول البلاء لا محالة ، وتصبح بناتنا ربات بيوت ، فالبلاء

كل البلاء في إجبار الرجل الأوروبي على الاكتفاء بامرأة واحدة ، فهذا التحديد هو الذي جعل بناتنا شوارد ، وقذف بهن إلى التماس أعمال الرجال ، ولابد من تفاقم الشر إذا لم يبح للرجل التزوج بأكثر من واحدة (١) .

وفي عام ١٩٤٨م أوصى مؤتمر الشباب العالمي المنعقد بألمانيا بإباحة التعدد حلاً لمشكلة تكاثر النساء ، وقالت مجلة : « لواء الإسلام » المصرية : إن كبير أساقفة إنجلترا أعلن أنه لا يجد علاجًا لمنع التحلل الخُلُقي والانهيار العائلي اللذين فشيا بعد الحرب العالمية الثانية إلا إباحة تعدد الزوجات (٢) .

وقال « جوستاف ليون » : إن نظام تعدد الزوجات هو في الحقيقة نظام مستقل وجد قبل محمد ﷺ بين شعوب الشرق وأممه (٣) .

كان مسنونًا بين اليهود ، مشروعًا بين الفرس ، ساريًا بين العرب ، فلم تكتسب الأمم التي دخلت في دين القرآن شيئًا من هذا النظام القديم ، ولم يكن في مقدرة أي دين من الأديان ، وإن أوتي قدرة كبرى على تغيير الآداب والأنظمة والأخلاق، أن يلغي نظامًا مثل هذا ، ويعمل على إبطاله، لأن النتيجة الضرورية للجو ، والغاية المجتمعة لمزاج الشرق، ونوع الحياة التي يعيشها ، ثم تحدث عن تأثير الجو في الشرق وطبيعة المرأة وما يعتريها من الأوجاع والأمراض وآلام الولادة ، وأن مزاج الشرق يقتضي التعدد ، ثم تحدث عن الغرب قائلاً : وإن كان الجو أهدأ تأثيرًا إلا أنك لا تجد فردية الزوجية إلا في القوانين، يعني أن الاقتصار على زوجة واحدة لا يوجد في أوروبا إلا في القوانين، ولا يعمل به إلا الأقلون، وأن تعدد الزوجات واقع في الغرب بين أهله ، وإن لم يكن مشروعًا ، ثم قال : لا أعرف لماذا يعتبر التعدد الشرعي للزوجات عند الشرقيين أحط منزلة من هذا التعدد الكاذب الفاحش عند الغربيين ، وإن كنت أعلم بالأسباب التي تجعل الأول أسمى مكانًا وأرفع قدرًا من الآخر ؟ . أ . هـ (٤) .

---

(١) أ . هـ . « تفسير المنار » (جـ ٤) .
(٢) أ . هـ . « مفتريات على الإسلام » ، لأحمد محمد جمال .
(٣) يفهم منه أن الشرق هو الذي كان مختصًا بنظام التعدد،وليس الأمر كذلك،بل كان في الغرب أيضًا،فقد كانت ملوك فرنسا يعددون الزوجات،ومع ذلك كانت الكنيسة تكن لهم كل تعظيم واحترام .
(٤) من « حكمة التشريع » لعليّ الجرجاوي .

ومن هنا نعلم أنه لم يحقق تحريم تعدد الزوجات في المسيحية الغرض المقصود منه ، بل انعكست الآية عندما اصطدمت بضرورات الفطرة ، فأسفرت عن نتائج خطيرة من الدعارة والعوانس من النساء والأبناء غير الشرعيين ، ولم نجد مثل هذه الأمراض الاجتماعية في البلاد التي طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق .

وأقول : وليس عجيبًا أن ينادي المسيحي بحظر التعدد ، لأنه مضلل بتعاليم الكنيسة والقسيسين والرهبان ، والذين ملأوا دماغه بأن هذا التعاليم هي تعاليم المسيح عليه السلام والإنجيل ، وبرأ الله المسيح والإنجيل .

ولم يثبت عنه كما لم يثبت في كتابه ، ما زعموه من تحريم التعدد ، ولكن العجب كل العجب ممن ينتسب إلى الإسلام ويزعم أن التعدد ظلم للمرأة وإهانة لكرامتها ، وأنه لدليل على شهوانية الرجل وبهيميته التي ينبغي أن يتنزه عنها كل عاقل ، كيف يصدر هذا الزعم الفاسد ، وهو يرى الاقتصار على واحدة قانونًا ، إنما هو مجرد حبر على ورق ، لا نصيب له في الصحة ولا ظل له في الواقع ، ويشاهد ما وقع في أوروبا من الجرائم الخُلقية وكثرة الأولاد غير الشرعيين ، أما ما يُقال : قَلَّ أن يحصل العدل من الرجل الذي في عصمته زوجتان أو ثلاث ؟ .

فالجواب :

نحن قلنا : إن الشريعة أجازت التعدد للرجل الذي لا يظن في نفسه الجور والظلم في حقهن ، لكنها وكَّلت هذا الأمر للرجل ووقوفه عند الحدود الشرعية ، والظلم قد يحصل حتى ولو عنده زوجة واحدة ، فعلى منطق هؤلاء يمنع الرجل من التزوج من امرأة واحدة خوفًا من ظلمه لها ، وعدم الإنصاف في حقها ، ولكن لا يقول هذا من يفهم ما يقول ، وإذًا فافتراض الظلم أو حصوله بالواقع يكون لغيبة الحكم الشرعي ، وإلا فما دام الحكم الشرعي قائمًا فسيردعه الحكم من الظلم ، وإذا رأى القاضي الشرعي أنه لا ينزجر ولا يفيد فيه الردع والتعزيز ، ففي إمكانه أن يفسخها بالمخالعة وغيرها ، ولا تضيق الشريعة بمثل هذه القضية الجزئية ، ويتفرع عن التعدد موضوع آخر لازم وهو الطلاق .

محاسن الطلاق :

إن الدين الإسلامي وإن أباح الطلاق لكنه كرهه ، حتى جاء في الحديث : «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**» ، وإباحة الطلاق من الضروريات الاجتماعية لما فيه من المصلحة العائدة إلى الزوجين ، فلو لم يشرع لكان بقاء عقدة الزواج بينهما شراً مستطيراً ، ومن أجل ذلك أخذت به القوانين الغربية ، وخالفت ديانتها المسيحية ، وتوسعت فيه توسعاً كبيراً فوق الحاجة .

بل نستطيع أن نقول : جاء الإسلام فالفى العالم كله يبيحه منذ القدم إلا أُمَّة أو أُمَّتين ، فهذه الأمة اليونانية ـ ارتقت في علوم الفلسفة وازدهرت حضارتها ـ كان الطلاق شائعًا فيها دون قيد أو شرط ، وكان الطلاق لدى الرومانيين يعتبر من كيان الزواج نفسه ، حتى أن القضاة كانوا يحكمون ببطلان الزواج إذا اشترط كلا الطرفين عدم الطلاق فيه ، والديانة الموسوية وإن حسنت من حالة الزوجة ولكنها أباحت الطلاق وتوسعت في إباحتها ، وكان في شريعة اليهود يجبرون الزوج على طلاق زوجته إذا أتت بجريمة الفسق ولو عفا الزوج عنها ، كما يُجبر على طلاقها إذا مضت عشر سنوات ولم تنجب أولاداً ، فظهر للقارئ جليًّا أن دين الإسلام لم يبتدع الطلاق ، بل هذَّبه وجعله دفعًا للضرر الحاصل بالزوج أو الزوجة .

فمن حكم الطلاق :

[١] إنه إذا استحكمت النفرة بين الزوجين ، وحل الخصام محل الوئام ، وعجزت الوسائل للتوفيق بينهما ، فقل لي بربك : هل يعيشان في جحيم لا يُطاق وعذاب أليم نتيجة تنافر الطباع وعدم التئام القلوب؟ ، أو يرجعان إلى الطلاق ، ليرفع الحرج عن كليهما ، ويعيشان في هدوء ضمير وسكينة بال .

[٢] إذا رأى زوجته خائنة بالزنا ـ وهيهات أن يثبت زناها ثبوتًا شرعيًا ـ فهو إما أن يقتلها ويعرض نفسه للمطالبة والسجن والقتل ، أو يصبر عليها وهو يعلم زناها وخيانتها ، ويدخل في نسبه ما ليس منه ، فيصبح ديوثًا يرى الفاحشة منها فيرضى ، وإما أن يطلقها ويستريح من عنائها ، ويستر عليها ويسلم من

عقوبة الله ، ويبقى رجلاً شهمًا لا يرضى أن يدنس فراشه أو عرضه ، ولا شك أن كل عاقل يختار الحل الثالث ، لأنه موافق للعقل والنقل وجالب للمصلحة وداريء للمفسدة .

[٣] من المعلوم أن كمال سعادة الدنيا أن يكون للرجل وللمرأة ذرية يأنس بها وتخلفه من بعده ، ويبقى ذكره ما بقي الدهر ، كيف لا يكون كذلك والله يقول : ﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾[الكهف : ٤٦] .

فإذا كانت الزوجة عقيمًا ، فإن بقاءها مع البعل فيه تكدير لصفاء العيش في الغالب لانقطاع النسل الذي هو من حكم الزواج وفوائده ، فالطلاق في هذه الحالة فيه فائدة للرجل حتى يتزوج بأخرى إذا لم ير في بقاء الأولى معه صلاحًا ، كما إذا كان الرجل عقيمًا والمرأة تحب أن تنجب ذريَّة تسعد بها وتقوم بواجباتها ، فالطلاق في هذه الصورة فيه فائدة كبيرة للمرأة ، فلو لم يشرع لكانت المرأة في عيش نكد وحياة تعيسة .

[٤] كما أنه قد يكون أحد الزوجين مصابًا بمرض يحول دون المباشرة أو بمرض من الأمراض المعدية ، التي يخشى من عدواه أن ينتقل إلى الثاني ، فللمعافى حق الفسخ أو الطلاق .

[٥] وكذلك إذا كانت المرأة لا تحب زوجها ، وتكره لخُلقه ولخلقه ، فلها أن تطلب المخالعة وتدفع له شيئًا من المال لكي يفارقها ، كما ثبت في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ثابت بن قيس ما أعيب عليه في خُلق ودين ، ولكني أكره الكفر في الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « **أتردين عليه حديقته ؟** » ، فقالت : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « **اقبل الحديقة وطلقها تطليقة** »[رواه البخاري] ، وفي رواية له : « **وأمره بطلاقها** » .

[٦] قد يسافر الزوج سفرًا طويلاً ، أو يحكم عليه بالسجن لمدة سنوات ، أو يمتنع عن الإنفاق عليها لمدة طويلة ، أو يكون مُعسرًا غير قادر على الإنفاق والكسوة

أو سكناها في بيت لائق ، ففي هذه الصور من حق الزوجة أن تطلب الطلاق عن طريق القضاء الشرعي ، لكي لا تتضرر معيشيًا أو نفسيًا بسبب هذه الحالات المذكورة .

ومما أسلفنا يتبين : أن الزواج والطلاق في الإسلام إنصاف للمرأة ولمصلحتها الشخصية [١] ، وتحقيق لإنسانيتها وتقرير لكرامتها على مستوى واحد مع الرجل ، إذ هما مخلوقان من نفس واحدة ، تطلب الخير وتكره الشر ، وليس كما زعم المغرضون والحاقدون على الإسلام ، أن إباحة الطلاق في الإسلام قسوة وظلم وتحكم في النساء ، وإهدار لكرامة المرأة !! .

فوالله لولا حقد أولئك الطاعنين في الإسلام وسوء طويتهم والتعصب الممقوت الذي ابتلوا به ، لما كانت محاسن الطلاق خفية تحتاج إلى تدليل وبرهان ، فأي عاقل يملك ذرة من الإنصاف يقارن بين الشريعة الإسلامية والمسيحية ، ولا يحكم للإسلام بالفضل والموافقة للطبائع والعقول والأفهام ، والمناسبة لكل عصر وجيل وأقوام .

قارن أيها المنصف بين شريعة الإسلام التي أجازت الطلاق لأسباب يؤيدها العقل ، وتسندها الطبائع ، وأحوال الزوجين في بعض الظروف التي من شأنها ـ لولا حل عقدة الزوجية ـ أن يتضرر الزوجان وأن يكونا في عيشة شقية وحالة نكدة ، وبين الشريعة المسيحية التي تقول طائفة الكاثوليك بمنع الطلاق بتاتًا مهما حل بالزوجين من المتاعب والمصائب والمحن ، فليس لدى هذه الطائفة من حل لما يحدث من مشاكل

---

(١) بيان ذلك بإمعان النظر في الرقم الأول : أن الطلاق الناتج عن استحكام الشقاق والخصام وعدم الوفاق ، لا ريب إن كان فيه مصلحة للزوج ، فكذلك تكون المصلحة للزوجة ، وهكذا القول في الرقم الثاني، وأما الرقم الثالث ففيه صورتان : صورة ما إذا كان الزوج عقيمًا وطلبت الزوجة الفراق ، فهنا لا لبس في أن الطلاق لمصلحة المرأة أكثر من الرجل ، وأما الصورة الثانية وهي ما إذا كانت الزوجة عقيمًا ، فالطلاق يبدو هنا لأول وهلة أنه ليس في صالح المرأة ، ولكن بتفكير قليل يتضح أن لها مصلحة في ذلك ، لأنه يصبح غير راغب فيها ، فلو لم يشرع الطلاق لكانت عيشتها معه غير هنيئة ، ولا تقضي حياتها معه سعيدة ، فما أحسن الطلاق ليختار زوجة أخرى ، كما تختار هي زوجًا آخر ، تتلائم أخلاقهما ، وتتناسب طبائعهما ، ويعيشان في حب ووفاق ، وقل مثل ذلك في الرقم الرابع ، وأما الرقم الخامس والسادس : فمصلحة الطلاق للزوجة فيهما أكثر وأرجح من مصلحة الزوج كما لا يخفى .

بين الزوجين - مهما كانت شدة قسوتها - إلا حلاً واحداً في حالة ما إذا زنت الزوجة في بيت الزوج أن يفترقا جسديًا ، ويعيش كل منهما على حدة ، لكن يحرم على الزوج أن يتزوج بأخرى ، ويحرم عليها التزوج بآخر ، لكن لها وله أن يطرقا سبيل العشق والمحبة ، إن أراد كل واحد منهما ذلك .

وبين طائفتي البروتستانت والأرثوذكس اللتين أباحتا الطلاق بسبب الزنا أو تغيير الدين ، لكن لا يجيزان أن يتزوج كل واحد منهما بعد ذلك الطلاق .

وإذا قارنت بين هذا التشريع الذي يأباه العقل ، وتنفر منه الطباع السليمة ، وهو التشريع الذي لا يمكن أن يجلب سعادة للزوجين ، ولا أدنى مصلحة للطرفين ، بل يجلب لهما الدمار والشقاق والعواقب السيئة والنتائج الضارة ، وبين التشريع الإسلامي الذي يوافق العقل ، ويلائم طباع الناس وأحوالهم ، ويجلب لهم السعادة والهناء ، والتمتع بالحرية الشخصية ، والعيشة المرضية ، ظهر لك محاسن الطلاق ، وأنه قد يكون نعمة ورحمة لا وبالاً ونقمة .

ومن أجل ذلك أقر مجلس الشيوخ الإيطالي - على الرغم من معارضة الفاتيكان وهو السلطة الدينية المسيحية العليا - مشروعًا لإباحة الطلاق في أكتوبر سنة ١٩٧٠م .

وفي بريطانيا وافق مجلس العموم البريطاني على قانون يُبيح للزوجين الطلاق بعد أن ينفصل أحدهما عن الآخر لمدة عامين إذا وافق الزوجان على الطلاق ، ولمدة خمسة أعوام إذا وافق أحدهما دون الآخر أ . هـ[1] .

---

(١) من « الإسلام والرسول » للمؤلف .

عصمة الملائكة

والقول في عصمة الملائكة كالقول في عصمة الرسل ، فقد وقع الإجماع على أن الرسل منهم معصومون في باب التبليغ عن الله .

ثم وقع الخلاف في غير المرسلين منهم ! ، ولم يأت المجوزون للذنوب بحجة نيرة، وما استدل به المجوزون بقصة هاروت وماروت .

فالجواب :

إنها لم تثبت بسند صحيح إلى النبي ﷺ ، وكل ما ورد فمرجعها إلى كعب الأحبار ، وفي بعضها إلى عليّ بن أبي طالب ، وابن مسعود ، ولكن الظاهر أنها من أخبار اليهود ، وإليهم يرجع المصدر ، وقد علم كذبهم وافتراؤهم ، فلا ثقة بنقلهم .

وكيف يجوز صدور الذنب منهم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾[التحريم : ٦] .

قلت في النظم :

فواجب لرسله الكرام	الصدق والتبليغ للأقوام
فطانة والرابع الأمانة	ويستحيل الكذب والخيانة
كذلك الكتمان والبلادة	نالوا العلا والمجد والسعادة

اعلم أن للأنبياء والرسل صفات واجبة وصفات جائزة ، وتستحيل عليهم الصفات التي هي ضد الصفات الواجبة ، فالصفات الواجبة أربعة ، وقد سبق ذكرها بالتفصيل ، ويستحيل عليهم ضد كل تلك الصفات ، فضد الصدق الكذب ، لأن المفروض أنهم مخبرون عن الله ، صادقون في كل ما أخبروا به ، فإذا كان الصدق واجبًا لهم ، فيستحيل عليهم الكذب ، ولو جوزناه عليهم لكانوا رسل إثم وشر ، ولبطلت الثقة بأخبارهم ، ولما وجب على الأمة قبول ما يبلغونه .

كما أن الأمانة ـ التي هي العصمة ـ واجبة لهم ، يستحيل عليهم ضدها ، لأنهم

أُرسلوا لكي يرشدوا الأنام إلى الأعمال الطيبة والأخلاق الفاضلة ، وترك الشر والأعمال المحرمة والأفعال المنكرة ، فلو اتصفوا بارتكاب بمحرم أو اعتقاد باطل ، لكانوا مضلين لا مرشدين ! .

وقد وصفهم القرآن وأثني عليهم ، كما سبق فيما أوردناه من الآيات ، مثل ما ذكر الله عن أيوب ﴿ **نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ [ص : ٤٤] .

ولا شك أن الله لا يختار للواسطة بينه وبين خلقه إلا من كان في نهاية الكمال ، من الأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة والسيرة الطاهرة .

وقل كذلك في صفة تبليغ ما أُمروا به من الله ، وذلك باستحالة كتمان ما أُوحى الله إليهم بتبليغ القوم ، وإلا لم تكن ثمة فائدة من اختيارهم ، وكتمان العلم النافع مُحرم ، وحاشاهم أن يفعلوا محرمًا ، ولا يمكن ألا يقوموا بوظيفة التبليغ ، إذ أنهم اختارهم الله واصطفاهم وكلفهم بأعباء الرسالة وتبليغ الأُمَّة ، ولابد من أن يقوموا بوظيفتهم التي اختارها الله لهم ، وقد بيَّنا فيما سبق أن الله شهد لهم البلاغ : ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً** ﴾ [النساء : ١٢٢] .

وهكذا يستحيل عليهم ضد الفطانة ، وهي الغباوة والبلادة ، لأن الرسول لابد أن يكون ذكيًّا ، في إمكانه أن يقرع الحجة بالحجة ، ويكشف الشبهة ، ويأتي بالبرهان الدال على صدق رسالته ونبوته .

وبالجملة :

لابد أن يكون ممتازًا على قومه بالعلم الإلهي ، وبالذكاء الخارق ، وبفصاحة اللسان ، وقوة الحجاج والبيان ، فلو كان بليدًا وغبيًا ، لما أمكن أن يقيم الحجة ، وينير المحجة ، ويكشف الشبهة ، ويُقيم الأدلة ، ويُلجم الخصم .

وانظر إلى محاجة إبراهيم الخليل عليه السلام حيث قال :﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ** (١) **إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ** (٢) **اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا**

---

(١) جادل .

(٢) حمله بطره بنعم الله على ذلك ، وهو نمرود بن كنعان ، وهو أول من لبس التاج المكلل ، وكانت هذه المحاجة بعد إلقاء إبراهيم في النار .

أُحْيي وَأُميتُ (١) قَالَ إبْرَاهيمُ فَإنَّ اللَّهَ يَأْتي بالشَّمْس منَ الْمَشْرق فَأْت بهَا منَ الْمَغْرب فَبُهتَ (٢) الَّذي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدي الْقَوْمَ الظَّالمينَ (٣) (٢٥٨)﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

الجائز في حقهم :

قد مضى القول في الواجب والمستحيل ، ونشرع الآن في بيان الصفات الجائزة فنقول :

اعلم أن هؤلاء الرسل هم بشر مثلنا ، وتعتريهم الأحوال البشرية مثلنا ، من اللذة والألم ، والصحة والسقم ، والحياة والموت ، والراحة والتعب ، والحاجة إلى الزواج والتواليد ، والأكل والشرب ، **كما قال في النظم :**

وجائز في حقهم ما قد عرض مثل جماعهم وأكل ومرض

وبرهان هذا مشاهدة وقوعها منهم للتشريع ، أو لتعظيم أجرهم ، أو للتسلي عن الدنيا ، والتنبيه على خسة قدرها عند الله ، كما أن فيه التنبيه لتلك الفرق الضالة ، التي ألَّهت الأنبياء والصالحين ، وعبدوهم وأشركوهم برب العالمين ، بأن من تعتريه تلك العوارض البشرية ، وخاضعًا للنواميس الكونية ، لا يصلح أن يكون إلهًا يُعبد ! وربًا يُلجأ إليه .

وإذا بطلت عبادة هؤلاء الأصفياء ، فمن باب أولى بطلان عبادة من دونهم من الأولياء أو الكواكب والشمس والأحجار والأوثان والقبور ، فقد غرق الكثيرون في بحور الشرك الأعظم، بصرفهم الدعوات والنذور واعتقاد الضر والنفع بيد ذلك المقبور ويُزين الشيطان لكثير من الدجاجلة المتسمين بسمة العلم ، تحسين تلك الأفعال ، وإغراء الجهال والأنذال باسم محبة الصالحين ، والتوسل بصفوة عباد الله ، وكأنهم لم يسمعوا قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ من دُون اللَّه مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ

---

(١) أي : بالقتل والعفو ، ودعا برجلين فقتل أحدهما ، وترك الآخر ، فلما رآه إبراهيم غبيًا ، سارع منتقلاً إلى حجة أوضح منها ، وهي : ﴿ فَإنَّ اللَّهَ يَأْتي بالشَّمْس منَ الْمَشْرق فَأْت بهَا منَ الْمَغْرب ﴾ .

[البقرة : ٢٥٨] .

(٢) أي تحير ودهش .

(٣) أي : أي الظالمين أنفسهم بالكفر لا يهديهم إلى محجة الاحتجاج الصحيح .

هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾[يونس : ١٨] .

ولم يسمعوا قوله تعالى : ﴿ **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (١٤)** ﴾[الرعد : ١٤] .

ولا أدري لماذا يستغيثون بغير الله ، والله منهم قريب !! ، ألم يسمعوا قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ .

[البقرة : ١٨٦] .

وقوله تعالى في آية أخرى : ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ .

[غافر : ٦٠] .

أيحتاج الإله إلى من يبلغه حاجة المضطرين حتى يوسطوا بينه وبينهم هؤلاء المقدسين ؟!! ، هل يشكون في قدرة الله ؟! ، أم يمترون في علمه ؟! ، أم يرتابون في رحمته ؟! ، أم يعتريهم الشك في إجابته ؟! ، فلجأوا إلى الترهات ، وعاذوا بالخرافات والأمور والموبقات ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ** ﴾[إبراهيم : ٤٢] .



فصل
النُّبوة لا تنال بالاكتساب

اعلم أن النُّبوة لا تنال بمباشرة الأسباب المخصوصة ، كملازمة الخلوة والعبادة ، وتناول الحلال ، وتنقية البدن وتصفية الأخلاق من الرذائل ، والاتصاف بالأوصاف الجميلة ، والنعوت الجليلة - كما زعمت الفلاسفة - بل هي من فضل الله ، يخص بها من يشاء ، **كما في النظم :**

نبوة ليست بالاكتساب لكن بفضل الملك الوهاب

قال في الدرة المضيئة :

ولا تُنال [١] رتبة النبوة بالكسب والتهذيب والفتوة [٢]
لكنها فضل من المولى الأجل لمن يشأ من خلقه إلى الأجل

وقال في الجوهرة :

ولم تكن نبوة مكتسبة ولو رقى في الخير أعلى عقبة
بل ذاك فضل الله يؤتيه لمن يشاء جل الله واهب المنن

أي : أنها فضل من الله يؤتيه من يشاء ، ممن سبق علمه وإرادته الأزليان باصطفائه لها : ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

وقد زعمت الفلاسفة أن النُّبوة تنال بالاكتساب ، وصفاء النفس ! ، وزعموا أن من شرط الرسول اطلاعه على المغيبات بالأزمنة الثلاثة ، لصفاء جوهر نفسه ، وشدة اتصاله بالروحانيات العالية من غير سابقة كسب ولا تعلم ولا تعليم ، فقد تتصل النفس الناطقة بتلك المجردات - يعنون بها الملائكة - اتصالاً معنويًا ، لتنجذب إليها بواسطة الجنسية ، ويشاهد ما فيها من صور الحوادث ، فيرتسم فيها كمرآة يحاذي بها لمرأة أخرى !! .

---

(١) بضم التاء ، مبني لما لم يسم فاعله .
(٢) كرم النفس بتخليصها من الأوصاف المذمومة .

ويرد عليهم بأن الاطلاع على جميع المغيبات لا يجب للنَّبي والرسول ، ولهذا قال الله حكاية عن سيد الأنبياء ﷺ : ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ [الأعراف : ١٨٨] .

والاطلاع على البعض لا يختص بالرسول ، كما اعترفوا بأن المرضى والنائمين والمرتاضين قد يطلعون على بعض المغيبات ، وهذا شيء مدهش ، وإذًا فبأي شيء يمتاز النَّبي عن غيره ؟! ، وباقي ما ذكروا من الاتصال بالنفوس المجردة ... إلخ ، لا يفيد إلا ظنًا ، والظن لا يُغني من الحق شيئًا .

وزعمهم ذلك الاتصال المعنوي ، والانتعاش المزعوم ، ما هو إلا من الخيالات التي تصورتها تلك الأذهان الخالية عن الإيمان ، لا وجود لها في الخارج ! ، وكلامهم صريح في أن من وجدت له تلك الصفات يكون نبيًّا .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

وهؤلاء عندهم النبوة مكتسبة ، إذ كان جماعة من زنادقة الإسلام يطلبون أن يصيروا أنبياء !! .

ومن زعم أنها مكتسبة فهو زنديق يجب قتله ، لأن كلامه يقتضي اعتقاده ألا تنقطع ! ، بل يكون باب النبوة مفتوحًا ! فهو مخالف للنص القرآني والأحاديث المتواترة بأن نبينا ﷺ خاتم النبيين .



فصل
في بيان بعض الفروق بين الأنبياء والمرسلين وبين الحكماء والفلاسفة والمصلحين

فنقول وبالله التوفيق :

وإذ بيَّنا طريقة الفلاسفة وزعمهم أن النبوة قد تدرك بالاكتساب بأنواع الرياضة وملازمة الخلوات ، إلى غير ذلك مما سبق ذكره ، فجدير بنا أن نبين الفرق بينهم وبين الأنبياء ، حيث أنه قد يزعم زاعم ، أنكم تدعون أن الأنبياء متصفون بمحاسن الأخلاق والصفات ، داعون إلى الخير ، ناهون عن الشر ، فكذلك الحكماء ، فإنهم يحثون على الكمالات النفسية ، وعلى حُسن المكارم ، وأحاسن الصفات كالصدق والعدل ، وترك الظلم والبغي والكذب والرذائل ، **فإليك البيان :**

الفَرَق الأول :

أن تعلم أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ والحكماء ، وإن اشتركوا في تلك الصفات التي مر بيانها ، فإن أكبر مميز وفارق بينهم هو :

أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لا يقتصرون على الدعوة إلى الكمالات النفسية ، والدعوة إلى الخير ، بل أهم مبدئهم وأساس دعوتهم هو : توحيد الله وإفراده بالعبادة ، والعمل الصالح ، والإيمان بالمغيبات ، كالإيمان بالبعث والحساب والجنة والنار ، مما لا تجده في كلام الحكماء ، ولا يدعون إليه ، بل أكثرهم يكفر بالبعث وبيوم الجزاء .

وما أحسن ما قال بعضهم :

بثلاثة كَفَرَ الفلاسفة العدى إذا أنكروها وهي حقًا مثبتة
علم بجزئي حدوث عوالم حشر لأجساد وكانت ميتة

الفَرَق الثاني :

﴿ ١ ﴾ **الأنبياء والرسل :** قوم يصطفيهم الله ويختارهم ، ليبلغوا عنه عباده

شرائعه التي بها سعادتهم الدنيوية والأخروية ، فمصدرهم إذًا الوحي الإلهي ، لا دراسة العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والفلسفية .

﴿ ب ﴾ **أما الفلاسفة :** فهم أُناس يقرأون العلوم الكونية ، ويتعمقون فيها ، ويعتمدون على معارفهم وعلومهم فيما يقولونه ، فليس لهم صلة بالوحي الإلهي ، بل كثير من آرائهم يكون مضادًا لما جاءت به النبوات والرسالات ، كإنكارهم لعلم الله بالجزئيات ، وإنكارهم للحشر ، وما إلى ذلك من الخزعبلات .

﴿ جـ ﴾ **أما المصلحون :** فهم كذلك قوم متعلمون مثقفون ، قد يرون بعقولهم الذكية وبصائرهم النافذة ، أن مجتمعهم الذي يعيشون فيه قد انتشرت فيه الأخلاق الرذيلة ، والعادات السافلة ، والمظالم الفاشية ، وعدم وجود العدالة ، فيثور المصلح على هذه الأعمال المنكرة ، وحينئذ إما أن يكون سياسيًا فيأتي بإصلاح سياسي لتغيير السلطة ومناهج الأحكام ، وإما أن يكون دينيًا ، فيثور على هذه العادات والخرافات والضلالات ، ويقود الناس إلى الطريق المستقيم ، ويرشدهم إلى الدين القويم .

ولابد أن يكون مُتبعًا لرسول من الرسل ، فلا ينسب لنفسه نبوة ولا رسالة ، ولا يزعم لنفسه معجزة ، وكل ما في الأمر أن يقول : إن الشريعة الصحيحة والملة المستقيمة تبرأ مما أنتم فيه أيها القوم من هذه الضلالات ،فدعوا هذه الطريقة المعوجة ، واسلكوا الطريق المستقيم .

وإما أن يكون دينيًّا وسياسيًّا في آن واحد ، فيجمع بين الأمرين: بأن يدعو إلى توحيد الله ، وتغيير السُّلطة وإبدال الأوضاع ، وتغيير سُبل الحكم وطرقه ، كما أنه في نفس الوقت ، يدعو إلى اتباع الشرع الحنيف والاهتداء بهدي الرسل الكرام ، وترك ما عليه أكثر الأقوام من عبادة الأوثان والأصنام ، وتبديل الشرائع بنصوص مبتدعة وتأويلات باطلة ، فيبيِّن لهم أن ما هم عليه من ذلك التغيير والتبديل والتحريف والتأويل والبدع الضالة ، مُخالف لما عليه الشريعة الصحيحة والملة القويمه ، وفي كل أموره ودعوته واصلاحه السياسي والديني لا ينسب لنفسه استقلالاً ، ولا يدعي بأن أرسله الله .

بل كل ما يقول : إنه عبد من عباد الله ، رأى بثاقب فكره وبمبلغ علمه الصحيح ، أن قومه خارجون عن منهج الحق والصواب ، فأراد أن يردهم إلى الطريق المستقيم ، ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم دنيا وأخرى .

الفرق الثالث :

إن من نظر في سيرة الأنبياء والمرسلين ، وسيرة الفلاسفة والمتنبئين ، والكهنة والمشعوذين ، يرى فرقًا كبيراً ! :

الأمر الأول : إن الأنبياء خُصُّوا بمواهب وبأخلاق فاضلة ، لا يمكن أن يساويهم في تلك الصفات والمواهب من ليس نبيًّا ولا رسولاً .

الأمر الثاني : إنهم يتصفون بالزهد الكامل ، والإعراض التام عن الدنيا وزخرفها وبهجتها ورونقها ، منقطعون إلى الله سبحانه وتعالى بعبادات وأذكار وصلوات وصيام وخلوات وتضرعات ، وهذا بخلاف الفلاسفة الذين أكثرهم كَفَرة مشركون ، لا يعرفون الله فضلاً عن أن يعبدوه ، والمقرون منهم بالربوبية لا يعبدونه كما ينبغي ، ولا تجد لديهم من الزهد ومكارم الأخلاق والبعد عن سفاسف الدنيا ما تجده لدى الأنبياء والمرسلين .

وبالجملة : فسيرتهم وأخلاقهم وعلومهم وعاداتهم ، كلها أو أكثرها على الضد من سيرة الأنبياء والمرسلين بل والمصلحين،ولا أظن أن عاقلاً يعرف سيرة الأنبياء، ويعرف شيئًا عن الفلاسفة ، ولا يميز بينهما ! ويجعل ما أتت به الأنبياء وما أتت به الحكماء سواء ، إلا من فقد عقله ، وعمت بصيرته ، وطُبِعَ على قلبه ، حيث أصبح لا يميز بين السماء والأرض ، والجوهرة والبعرة .

وأما المصلحون : فكثير منهم قد يكون على جانب من الصلاح والتقوى والعفاف والزهد ، ولكن مهما سمت درجته لا يمكن أن يكون كنبي ، حاش وكلا ! بل كل ما هنالك أن يكون رجلاً صالحًا ، وداعيًا مرشداً ، متبعًا لأحد من المرسلين .

الفرق الرابع :

إن أول وأهم ما يمتاز به معشر الأنبياء ، أن العلم الذي ينشرونه بين الناس ،

والعقيدة التي يدعون إليها ، والدعوة التي يقومون بها ، لا تنبع من ذكائهم أو حميتهم ، أو تألمهم بالوضع المزري الذي يعيشون فيه ، ومن شعورهم الرقيق الحساس، وقلبهم الرقيق الفياض ، وتجاربهم الواسعة الحكيمة ، لا شيء من ذلك كله .

إنما مصدره الوحي والرسالة التي يصطفون لها ، ويكرمون بها ، فلا يقاسون أبداً على الحكماء أو الزعماء أو المصلحين ، وجميع أصناف القادة الذين جربتهم البشرية وتاريخ الإصلاح والكفاح الطويل ، والذين هم نتيجة بيئتهم ، وغرس حكمتهم ، وصدى محيطهم ، ورد فعل لما كان يجيش به مجتمعهم من فساد وفوضى .

والقول الفصل في ذلك قول القرآن الكريم على لسان سيد الرسل ﷺ : ﴿ **قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦)** ﴾ [يونس : ١٦] .

وقول الله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)** ﴾ [الشورى ٥٢] .

ويقول القرآن الكريم عن طبيعة الرسالة التي يختار لها الرسل ، وعن مبدئها ومصدرها : ﴿ **يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)** ﴾ [النحل : ٢] ، لذلك لا يخضع الرسول لعوامل نفسية داخلية أو حوادث وقتية خارجية ، ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال والأوضاع وشاء المجتمع ، وقد قال الله تعالى عن رسوله الأمين ﷺ : ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)** ﴾ [النجم : ٣ ، ٤] .

الفرق الخامس :

لا يستطيع أن يحدث تغييرًا أو تبديلاً أو تحويلاً أو تعديلاً في رسالته في أحكام الله ، وقال الله آمرًا رسوله ﷺ : ﴿ **قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [يونس : ١٥] .

ونفـي الله عنـه المداهنـة ، وعـصـمــه منهـا ، فـقـال تعـالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾[القلم : ٩] .

وقد أنذره سبحانه بالعقاب الأليم المخزي إذا تجنى على الله ، أو قال ما لم يقله ، أو زاد أو نقص شيئًا من وحيه وكلامه ، فقال تعالى : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الحاقة : ٤٤] .

وقد أمره تبارك وتعالى بتبليغ الرسالة بنصها وفصها وبرمتها وجملتها ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[المائدة : ٦٧] .

وهذه هي السمة الفاصلة الأساسية المميزة بين الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، وبين القادة والزعماء ، الذين تكون رسالتهم وكفاحهم وحي بيئتهم وثقافتهم ومشاعرهم ، واستجابة للقلق الذي يساور المجتمع والظروف والأحوال ، فيتنازلون عن أشياء كثيرة ، وقد يساومون الأحزاب، ويتبادلون معها المنافع،ومبدأ الكثير منهم الذي يأخذون به : « در مع الدهر كيف دار » !! .

الفرق السادس :

إن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كان أول دعوتهم وأكبر هدفهم في كل زمان وفي كل بيئة ، هو تصحيح العقيدة في الله ، وتصحيح الصلة بين العبد وربه ، والدعوة إلى إخلاص الدين ، وإفراد العبادة لله وحده رب العالمين ، فإنه النافع الضار ، المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك والاستغاثة والحلف والنذر ، ونحو ذلك من إفراد العبادة ، وكانت حملتهم مركزة وموجهة إلى الوثنية القائمة في عصورهم ، الممثلة بصورة واضحة في عبادة الأصنام والأوثان والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات،الذين كان يعتقد أهل الجاهلية أن الله قد خلع عليهم لباس الشرف والتأله ، وجعلهم متصرفين في بعض الأمور الخاصة ، ويقبل شفاعتهم فيهم بالإطلاق !! .

والقرآن العظيم مملوء من بيان دعوة الأنبياء لأقوامهم إلى التوحيد كقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾ .
[الأنبياء : ٢٥] .

وكقوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٦٥) ﴾ [الأعراف : ٦٥] .

وكقوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) ﴾ [هود : ٦١] .

وهكذا سائر دعوة الأنبياء ، إذا تتبعتها عرفت أن القضاء على الوثنية والإنكار عليها ومحاربتها وإنقاذ الناس من براثنها ، كان هدف النُّبوة الأساسي ومقصد بعثة الأنبياء وأساس دعوتهم ، وهذا بخلاف الفلاسفة ، فإنهم لا يدعون إلى توحيد الله ، وليس لهم في ذلك اعتناء، بل أكثر مشركون،فقد كان أرسطو مشركًا يعبد الأصنام ، وهو من أكابر الفلاسفة .

الفرق السابع :

هو أن من سمات النبوة وشعارها دعوة الناس إلى الاعتقاد باليوم الآخر ، من البعث والحساب ، والثواب والعقاب ، وكانت عقيدة البعث وعقيدة الألوهية ، هما المحور الذي يدور عليه النقاش بين المرسلين وأقوامهم الوثنيين ، بينما الفلاسفة ينكرون المعاد ! ، فإذا أردت أن تعرف ما كان عليه الأنبياء من التشديد على جانب الآخرة ، والإشادة بذكرها ، فاقرأ ما حكى الله عنهم ، ترى أن الآخرة دائمًا نصب أعينهم ، لا تزال ماثلة أمامهم بنعيمها وجحيمها .

اقرأ قوله تعالى إخبارًا عن نبيه إبراهيم ، وقد جاشت نفسه ، وفاضت عواطفه حين ذكر الآخرة ، وتمثل هولها وفزعها : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) ﴾ [الشعراء : ٨٣] .

واسمع ما قص الله عن نبيه يوسف عليه السلام ، حيث أخبر عنه وهو إذ ذاك في أوج بهجته وسيادته ، له الكلمة النافذة ، وله الأمر المطاع في مصر : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِن

الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ [(١)] [يوسف : ١٠١] .

الفرق الثامن :

إن الله تعالى خص أنبياءه ورسله بالمعجزات الباهرة عندما تتحداهم الأقوام ، كما قال ابن رسلان ـ رحمه الله ـ :

أرسل رسله بمعجزات [(٢)] ظاهرة للخلق باهرات
وخص من بينهم محمداً فليس بعده نبي أبداً

ولم يخف ما قصه الله تعالى عن قصة إبراهيم حينما ألقاه نمرود في النار ، حيث قال الله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء : ٦٩] .

قالوا : إن النار لم تمس إلا الحبال التي أوثقوه بها ، وكأنه كان في روضة من الرياض .

وأيد الله موسى عليه السلام بمعجزات عديدة ، وأعظمها العصا التي ألقاها فانقلبت ثعبانًا تلقف ما صنعت سحرة فرعون من تلك الحبال ، التي خُيِّلت للناظرين بأنها ثعابين تسعى ، وشق له البحر حتى عبر موسى وبنو إسرائيل .

وأيد الله عيسى عليه السلام بإبراء الأكمه ، والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله .

وأيد نبينا محمداً ﷺ بمعجزات عديدة أعظمها القرآن ، ثم نبع الماء من بين أصابعه ، وشق القمر ، إلى غير ذلك .

وأنَّى للفلاسفة والمصلحين أن يأتوا بمثل هذه المعجزات ، ولا تشتبه المعجزة وأفعال السحرة والمشعوذين إلا على من لا علم له ولا عقل ولا دين .

وسيأتي ـ إن شاء الله ـ بسط الكلام عن المعجزات، لا سيما معجزات الرسول ﷺ .

---

(١) الفرق الثالث وما بعده ملخص من رسالة « النُّبوة والأنبياء » .

(٢) والمعجزة هي أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، هكذا عرفها علماء الكلام ، ولكن قولهم مقرون بالتحدي غير سديد ، فقد تأتي المعجزة بغير تحدٍ .

الإسلام والإيمان

وعند أهل الحق أتباع الأثر ... إيمانهم قول وقصد معتبر

وثلثن عمل الأركان ... قال بذا ذو العلم والعرفان

كمالك والشافعي الألمعي ... وأحمد ذاك الإمام اللوذعي

وغيرهم من سائر الأئمة ... ذوي الهدى الناصحين الأمة

وخالف النعمان في الأعمال ... ولم يصب في ذلك المقال

وقوله مخالف الدليل ... من سُنَّة البشير والتنزيل

وقال جهم إنه العلم فقط ... أقبح به من جاهل وذي شطط

وليس بالنطق ولا بالعمل ... فيا له من مارق مُضلل

وقال قوم إنه الإقرار ... أهل النفاق عندهم أبرار

أتباع كرام بهذا اعتقدوا ... وخالفوا الصواب فيما اعتمدوا

[ش] : الإيمان والإسلام من المسائل العظيمة التي أخذت جل اهتمام أهل العلم من السلف الصالح وغيرهم ، حيث أن الله تعالى علق بهما السعادة والشقاوة واستحقاق الجنة والنار ، وفي مسمى الإسلام والإيمان أول خلاف وقع في هذه الأمة ، وهو خلاف الخوارج ، لأنهم أول من قال بكفر مرتكب الكبيرة ، وإخراجه من حيز الإيمان والإسلام ، وتخليده في عذاب النار ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

الإيمان لغة : التصديق ، لقوله تعالى إخباراً عن إخوة يوسف عليه السلام لما أتوا أباهم مخبريه أن يوسف قد أكله الذئب : ﴿ **وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ** ﴾ [يوسف : ١٧] ، أي بمصدق لنا ، هذا من حيث اللغة .

وأما في الاصطلاح : فهو تصديق ما جاء به الرسول تصديقًا تامًا مستلزمًا لما وجب من الأعمال ، ومحله القلب .

ثم هو مركب من ثلاث :

[١] قول : أي نطق باللسان ، بأن يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ،

فمن لم يقر ويصدق بلسانه مع القدرة ، لا يسمى مصدقًا ، وليس مؤمنًا ، كما اتفق على ذلك سلف الأمة من الصحابة ، والتابعين لهم بإحسان .

[٢] وقصد معتبر : أي تصديق بالجنان تصديقًا جازمًا غير متردد ، وإلا فليس بمعتبر ، فمن تكلم بكلمة التوحيد غير معتقد لها فهو منافق [١] ، وليس بمؤمن ، وليس ناجيًا من النار ، ولا تنفعه كلمة الشهادتين ، ولا إتيانه بأركان الإسلام ، لأن هذا كان شأن المنافقين، كانوا ينطقون بالشهادتين، ويصلون مع النَّبي ﷺ الصلوات ، وقد يصومون ، ولكن الله تعالى فضحهم وكشف أستارهم ، وبيَّن كذب دعواهم الإيمان والإسلام ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢)** ﴾ [المنافقون : ١] ، أي : أن تلفظهم بالشهادتين ونطقهم بهما كان وقاية وحفظًا لدمائهم وأموالهم ، وإلا فهم أشد كفرًا من الكفار الأصليين ، ولذا قال الله تعالى في شأنهم : ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ** ﴾ [النساء : ١٤٥] .

وقال الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)** ﴾ [البقرة : ٩] ، أي : يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بقولهم

---

(١) **النفاق** : إظهار الخير ، وإسرار الشر ، وهو قسمان :

القسم الأول : اعتقادي ، وهو الذي يخلد صاحبه في النَّار ، لأنه يُظهِر الإسلام ويُبطِن الكفر ، كالمنافقين الذين ذكرهم الله في صدر سورة البقرة ابتداء من قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ [البقرة : ٩] ، إلى ختام قوله تعالى : ﴿ **أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ** ﴾ [البقرة : ١٩] ، كما ذكرهم الله في سورة المنافقين ، كما ذكرنا أولها في الشرح ـ أعني أول سورة المنافقين ـ وفي كثير من الآيات القرآنية .

القسم الثاني : النفاق العلمي ، كالمذكور في الحديث الصحيح عن النَّبي عليه الصلاة والسلام قال : « **آية المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذب ، وإذا أُؤتمن خان ، وإذا وعد أخلف** » ، وفي حديث آخر عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « **أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا ، ومن كانت فيه خَصْلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أُؤتمن خان ، وإذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر** » [متفق عليه] .

آمنًا ، ظانين أن ذلك نافعهم عنده ، ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

[٣] العمل بالأركان : هذا هو اللفظ الوارد عن السلف ، قال الإمام البخاري في كتاب الإيمان « باب قول النَّبي ﷺ بني الإسلام على خمس » ، وهو قول وفعل ، ويزيد وينقص ، ثم ذكر بعض الآيات الدالة على زيادة الإيمان ، كما سنبين ذلك في باب زيادة الإيمان ونقصانه إن شاء الله تعالى .

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ :

« قوله : قول وفعل ويزيد وينقص » ، وفي رواية الكشميهني « قول وعمل » ، وهو اللفظ الوارد عن السلف الذين أطلقوا ذلك ، فأما القول فالمراد به النطق بالشهادتين ، وأما العمل فالمراد به ما هو أعم من عمل القلب والجوارح ليدخل الاعتقاد والعبادات .أ . هـ[١] .

قال الحافظ ابن رجب ـ رحمه الله ـ في شرح الأربعين وغيره :

المشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ونية ، وأن الأعمال كلها داخلة في مسمى الإيمان ، وحكى الشافعي ـ رحمه الله ـ إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم على ذلك .

قال الحافظ ابن رجب ـ رحمه الله ـ :

أنكر السلف على من أخرج الأعمال من الإيمان إنكارًا شديدًا ، وممن أنكر ذلك على قائله وجعله قولاً محدثًا سعيد بن جبير وميمون بن مهران وقتادة وأيوب السختياني والنخعي والزهري ويحيى بن أبي كثير وغيرهم .

وقال الثوري ـ رحمه الله ـ :

هو رأي مُحدَث أدركنا الناس على غيره .

وقال الأوزاعي ـ رحمه الله ـ :

كان من مضى من السلف لا يفرقون بين الإيمان والعمل ، فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان . أ . هـ[٢] .

ومن الجدير أن يفهم القارىء أن ما ذكرته من أن الإيمان مركب من ثلاث :

---

(١) « فتح الباري » (جـ١) .
(٢) « من لوامع الأنوار » بتلخيص .

اعتقاد وقول وعمل ، هو مذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين وتابعيهم وسائر الأئمة المهتدين ، كما سلف ذكر بعضهم ، وبه قالت الخوارج والمعتزلة .

ولكن الفارق بيننا وبينهم هو أن عمل الجوارح من العبادات وترك المحرمات ، وإن كان ثالثًا ، ولكنه شرط كمال لا شرط صحة .

وقالت الخوارج والمعتزلة : بل العمل شرط صحة .

ومن هنا قلنا : إن الفاسق بإتيانه الكبيرة ليس كافرًا ، وليس مُخلدًا في النار .

وقالت الخوارج : هو كافر ، ومخلد في النار ، هذا بالنسبة لما عند الله والدار الآخرة ، ولكن تجري عليه الأحكام الإسلامية الظاهر في الحياة الدنيا .

وقالت المعتزلة : بالواسطة يعني لا هو مؤمن ولا هو كافر ، وعللوا ذلك بأن نفي الإيمان عنه من أجل أن الإيمان اسم مدح ، والفاسق لا يستحق المدح ، فلا يكون مؤمنًا ولا كافرًا ، لإيمانه بما يجب الإيمان به، وإقراره بالشهادتين ، ولوجود سائر الأعمال فيه ، وإذا مات بلا توبة خلد في النار ، إذ ليس في الآخرة إلا فريقان ، فريق في الجنة ، وفريق في السعير ، لكن يخفف عليه ، ويكون دركته فوق دركات الكفار ، وكأنهم غفلوا عن قوله تعالى : ﴿ **وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [المائدة : ١٥] ، وقوله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** (١) **إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** (٥٣) ﴾ [الزمر : ٥٣] . أ . هـ(٢) .

وسيأتي زيادة تفصيل وبيان في شرح قولي في النظم :

فمؤمن مرتكب الكبيرة كذا إذا أصر بالصغيرة

هذا بالنسبة لعمل الجوارح ، أما بالنسبة للنطق باللسان والتصديق بالجنان ، فالمفهوم من كلام أئمة السلف وعلماء الأثر ، كما قال الحافظ ابن القيم ـ رحمه الله

---

(١) مقيد بما إذا لم يشرك بالله وإلا فلا ، لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [النساء : ٤٨ – ١١٦] .

(٢) من شرح شيخنا الشيخ أحمد نو ـ رحمه الله ـ على منظومته في الفرق الإسلامية المسماة « المواهب الإلهية » تحت قوله في النظم في بيان معتقدات المعتزلة :

عندهم مرتكب الكبيرة لا مؤمن لا كافر السريرة

تعالى - في كتاب الصلاة :

إن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل ، والقول قسمان : قول القلب وهو الاعتقاد ، وقول اللسان ، وهو التكلم بكلمة الإسلام ، والعمل قسمان ، عمل القلب وهو نية وإخلاص ، وعمل الجوارح ، فإذا زالت هذه الأربعة ، زال الإيمان بكماله ، وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء ، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة .

إلى أن قال : وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب ، فغير مستنكر أن يزول بزوال [١] أعظم أعمال الجوارح ، ولا سيما إذا كان ملزومًا لعدم محبة القلب وانقياده الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم أ . هـ .

فالشيخ وإن لم يصرح بزوال نطق اللسان ، لكنه مفهوم بالبديهة ، أن من لم ينطق بالشهادتين ، فليس مؤمنًا ولا مسلمًا ، **وذلك لما يلي :**

[١] إنه جاء في الحديث الصحيح ، « **أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويُقيموا الصلاة ، ويُؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك ، عصموا مني دماءهم وأموالهم ، إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله** » .

[متفق عليه] .

[٢] إن كل من أتى إلى النَّبي ﷺ راغبًا في الإسلام ، كان أول ما يأمره به أن ينطق بالشهادتين ، وهذا مما اشتهر في الأحاديث والتفاسير والسير ، بحيث لا يخفى على أحد شم رائحة دين الإسلام ، أما قال لقريش : قولوا كلمة تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، فلما استفسروا عنها ، فسرها بكلمة التوحيد : لا إله إلا الله ، وهنا قالوا كما أخبر الله عنهم : ﴿ **أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** ﴾ [ص : ٥] .

---

(١) يقصد الحافظ ابن القيم بزوال أعظم أعمال الجوارح الصلاة ، لأنها أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين ، فالمحبة القلبية الإيمانية تستلزم فعل الصلاة وسائر الأعمال المشروعة ، والشيخ يدندن حول تكفير تارك الصلاة كسلاً لا اعتقاداً ، فإذاً يزول إيمان تارك الصلاة للأدلة من القرآن والسُنَّة ، ويخرج من الإيمان ، ويكون كافراً ، فلأن نحكم على من لم ينطق بالشهادتين بالكفر مع القدرة من باب أولى .

[٣] لما أرسل النَّبي ﷺ معاذًا إلى اليمن قال : « **إنك تأتي قومًا أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ، فإن هم أطاعوك لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ...** » [الحديث] .

[٤] قال الحافظ ابن القيم : إن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل ، فإذا كانت حقيقته من هذين الاثنين ، فإنه ينتفي بانتفاء أحدهما ، ولكن بما أن العمل قسمان ، وهما : عمل القلب ويراد به النية والإخلاص ، وعمل الجوارح وهو العبادات الظاهرة ، فبانتفاء عمل الجوارح أو عمل القلب وهو النية والإخلاص (١) ، لا يزول الإيمان للأدلة الدالة على أن العمل شرط كمال لا شرط صحة (٢) .

وأما النطق باللسان فليس فيه خلاف عندهم أنه شرط صحة ، وقد سبق في شرح قولي في النظم : قول وقصد معتبر ، إن لم يصدق بقلبه ويقر بلسانه مع القدرة لا يسمى مؤمنًا ، وذهب محققوا الأشاعرة والماتريدية وغيرهم ، أن النطق شرط في إجراء الأحكام الدنيوية ، وقال فريق منهم : إنه شرط في صحة الإيمان (٣) .

---

(١) هذا إذا فسر عمل القلب بالنية والإخلاص ، أما إذا فسر عمل القلب بالتصديق الجازم ، فإن بزواله يزول الإيمان ، فتنبه .

(٢) أ ـ هـ . كلام ابن القيم من كتا ب « الصلاة » .

(٣) قال ابن رسلان في زبده :

أول واجب على الإنسان ... معرفة الإله باستيقان

والنطق بالشهادتين اعتبرا ... لصحة الإيمان ممن قدرا

قال في غاية البيان في شرحه على الزبد تحت هذين البيتين : والمراد بتصديق القلب ، إذعانه وقبوله ، ولما كان تصديق القلب أمرًا باطنًا لا اطلاع لنا عليه ، جعله الشارع منوطًا بالشهادتين ، وهل النطق بالشهادتين شرط لإجراء أحكام المؤمنين في الدنيا ـ من الصلاة عليه والتوارث والمناكحة وغيرها ـ غير داخل في مسمى الإيمان أو جزء منه داخل في مسماه .

قولان : ذهب جمهور المحققين إلى أولهما ، وعليه من صدق بقلبه ، ولم يقر بلسانه مع تمكنه من الإقرار ، فهو مؤمن عند الله ، وهذا أوفق باللغة والعُرف ، وذهب كثير من الفقهاء إلى ثانيهما ، وألزمهم الأولون بأن من صدق بقلبه ، فاخترمته المنية قبل اتساع وقت الإقرار بلسانه يكون كافرًا ، وهو خلاف الإجماع على ما نقله الرازي وغيره ، لكن يعارض دعواه قول الشفاء الصحيح : إنه مؤمن مستوجب للجنَّة ، حيث أثبت فيه خلافًا ، وخرج بقوله : ممن قدرا العاجز لخرس أو سكتة أو اخترام منية قبل التمكن منه فيصح إيمانه . أ .هـ.

ويُبْطِل قول محققيهم القائلين باكتفاء التصديق القلبي ، وإن لم ينطق بلسانه مع تمكنه من الإقرار ، وأنه مؤمن عند الله :

هو أنه كم من كافر كان في الباطن مصدقًا بالله وبرسوله ﷺ ، ولكن لم ينطق بالشهادتين ، حكم بكفره ، =

وقالت جماعة من الأشاعرة : إن النطق شطر ، بمعنى أنه جزء من حقيقة الإيمان ، لا يعتد بإيمان من فقده ، وعليه فالقول بكونه شرط صحة ، أو القول بالشطرية ، فمآل القولين واحد ، والخلف بينهما في اللفظ والعبارة لا في المعنى .

وتوضيحه :

إن التارك للنطق مع القدرة غير معتد بإيمانه ، لأنه لم يأت بشرط صحته ، وهو الإقرار باللسان ، وعلى القول بالشطرية ليس بمؤمن لفقد جزء من الإيمان ، وهو جزء من حقيقته ، وإذا فقد جزء الحقيقة فقدت الحقيقة كلها .

مخالفة النعمان لمذهب سلف الأمة في الأعمال :

وخالف النعمان في الأعمال ... ولم يصب في ذلك المقال
وقوله مخالف الدليل ... من سُنَّة البشير والتنزيل

[ش] : ذهب الإمام أبو حنيفة وكثير من أصحابه - رحمهم الله - إلى أن الإيمان هو

= لأنه لم يكن معذوراً في عدم النطق بعذر اخترام المنية أو خرس اللسان .

فإن أجابوا : الحكم بكفر أولئك بالنسبة للأحكام الدنيوية ، لأن الإقرار باللسان شرط لإجراء الأحكام الإسلامية ؟ .

قلنا : فهذا أبو طالب عم الرسول ﷺ ، كم حمى الرسول ، ودافع عنه ﷺ ، وقال :

ولقد علمت أن دين محمد ... من خير أديان البرية دينًا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينًا

ولما سأل العباس بن عبد المطلب الرسول ﷺ : هل نفعت عمك بشيء ؟ ، قال ما معناه : « **شفعت فيه ، ولولا شفاعتي لكان في الدرك الأسفل من النار ، ولكن هو الآن في ضحضاح من النار** » .

فأين إذًا قول محققي الأشاعرة : إن المصدق بقلبه مؤمن عند الله ؟ .

أما قال الله : ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** ﴿١٤﴾ ﴾ .
[النمل : ١٤] .

وشبهتهم على هذا القول الباطل هي : إن الإيمان في اللغة عبارة عن التصديق ، فهو مرادف له ، ويقابل الإيمان بالتكذيب والجحود ، والتصديق والتكذيب محلهما القلب ، لا شغل للسان بهما .

والجواب :

لا يقابل لفظ الإيمان قط بالتكذيب ، وإنما يقابل بالكفر ، والكفر لا يختص بالتكذيب ، بل لو قال : أنا أعلم أنك صادق ، ولكن لا اتبعك ، لكان كافرًا ، فعلم أن الإيمان ليس التصديق فقط ، ولا الكفر والتكذيب كفرًا فقط ، بل إذا كان الكفر يكون تكذيبًا ، ويكون مخالفة ومعاداة بلا تكذيب ، فكذلك الإيمان يكون تصديقًا وموافقة وموالاة وانقيادًا ، ولا يكفي مجرد التصديق .

الإقرار باللسان والتصديق بالجنان ، وليس الأعمال من الإيمان ، وهذا القول كما ترى مخالف لمذهب سلف الأُمَّة وأئمتها القائلين بأن الأعمال من الإيمان .

قال العلامة السفاريني في الكلام عن الإيمان :

وتحقيق مذهب السلف : قال أبو القاسم الأنصاري : وذهب أهل الأثر إلى أن الإيمان جميع الطاعات فرضها ونفلها ، وعبَّروا عنه بأنه إتيان ما أمر الله فرضًا ونفلاً ، والانتهاء عما نهى عنه تحريمًا وأدبًا ، قال : وبهذا كان يقول أبو علي الثقفي من متقدمي أصحابنا ، وأبو العباس القلانسي ، وقد مال إلى هذا المذهب أبو عبد الله بن مجاهد ، وهذا قول مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، ومعظم أئمة السلف - رضوان الله عليهم أجمعين - فكانوا يقولون : الإيمان معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان . أ . هـ [1] .

والإمام أبو حنيفة وأصحابه ، وإن أخرجوا العمل [2] من الإيمان ، لكن بما أنهم والسلف والأشاعرة متفقون أن العاصي لا يُخلد في النار ، بل يعذب إن لم يغفر الله له بقدر ما يستحقه ، فمن هنا يكاد أن يكون الخلاف لفظيًا ، فلا يترتب على ذلك فساد عقيدة ، غير أن ذلك تقوية لمذهب المرجئة ، وتشجيع للفساق على اجتراح السيئات والمعاصي ، فلعل الإمام وأصحابه نظروا إلى الإيمان من حيث اللغة ، ومن حيث أنه عطف الأعمال على الإيمان ، والعطف يقتضي المغايرة ، ولذلك قالوا بما سبق ذكره ، وبقية الأئمة نظروا إلى حقيقته في عرف الشارع ، فإن الشارع ضم إلى

---

(١) من « لوامع الأنوار البهية » (جـ ١) .

(٢) لعل القائلين : إن الإمام أبا حنيفة كان يقول بالإرجاء ، بمعنى أنه من أتباع الفرقة المسماة بالمرجئة القائلين : « لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة » ، وقولهم هذا باطل بالكتاب والسُّنَّة ، والأدلة على بطلانه كثيرة ومنها : أن الله علق النجاة من النار بالإيمان والأعمال الصالحة في آيات تفوق العد والحصر، وستقرأ بعضها في صلب الكتاب ، ومنها أنه ليس من المعقول أن الإسلام جاء للنطق باللسان والتصديق بالجنان ، وليس بعد ذلك عمل ، فلماذا شرع الله ورسوله ﷺ هذه الشرائع ، وتوعد تارك الصلاة في الآيات والأحاديث ، وتارك الزكاة والصوم ومقترف جريمة الزنا والربا وسائر المحرمات ، فقال الله تعالى : **﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ ⁽١٨⁾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⁽١٩⁾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ⁽٢٠⁾﴾** [السجدة : ١٨] .

التصديق أوصافًا وشرائط ، كما في الصلاة والصوم والحج .

كما وأنهم قد أجابوا عن العطف ، كما قال العلامة ابن أبي العز الحنفي :

إن الإيمان تارة يطلق مطلقًا عن العمل وعن الإسلام ، وتارة يقرن بالعمل الصالح ، وتارة يقرن بالإسلام ، فالمطلق يستلزم للأعمال ، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)** ﴾[الأنفال : ٢] .

وفي الحديث : « **لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن** » ، وهو من الأحاديث المتفق عليها ، وحديث : « **لا تؤمنوا حتى تحابوا** » ، والأحاديث والآيات في هذا المعنى كثيرة من استلزام الإيمان للأعمال الصالحة .

قال الشيخ - رحمه الله - :

أما إذا عطف عليه العمل الصالح ، فاعلم أن عطف الشيء على الشيء يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه ، مع الاشتراك في الحكم الذي ذكر لهما .

والمغايرة على مراتب :

أعلاها : أن يكونا متباينين ، ليس أحدهما هو الآخر ، ولا جزءًا منه ، ولا بينهما تلازم كقوله تعالى : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ** ﴾[الأنعام : ١] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ** ﴾[آل عمران : ٣] ، وهذا هو الغالب .

ويليه : أن يكون بينهما تلازم ، كقوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢)** ﴾[البقرة : ٤٢] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢)** ﴾ .

[المائدة : ٩٢] .

والثالث : عطف بعض الشيء عليه ، كقوله تعالى : ﴿ **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ** ﴾[البقرة : ٢٣٨] ، وقوله تعالى : ﴿ **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ**

وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨) ﴾ [البقرة : ٩٨] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ ﴾ [الأحزاب : ٧] .

وفي مثل هذا وجهان : أحدهما : أن يكون داخلاً في الأول ، فيكون مذكورًا مرتين ، والثاني : أن عطفه عليه يقتضي أنه ليس داخلاً فيه هنا ، وإن كان داخلاً فيه منفردًا ، كما قيل مثل ذلك في لفظ : « الفقراء والمساكين » ونحوهما ، تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران .

الرابع : عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين ، كقوله تعالى :﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ [غافر : ٣] (١) .

ومما أوردته من كلام شارح الطحاوية ، يعلم أن عطف الأعمال على الإيمان هو من باب عطف بعض الشيء عليه كالقسم الثالث ، كقوله تعالى :﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] .

ويؤيد ذلك ما جاء في الحديث الصحيح ، قول النَّبي ﷺ لوفد عبد القيس : « **آمركم بالإيمان بالله وحده ، أتدرون ما الإيمان بالله ؟ ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخُمس من المغنم** » .

ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الأعمال تكون إيمانًا بالله بدون إيمان القلب ، لما قد أخبر في مواضع أنه لابد من إيمان القلب فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الإيمان .

ويزيدك إيضاحًا وبيانًا ما سأسوقه إليك من الأدلة على دخول الأعمال في الإيمان.

بعض أدلة السلف أن الأعمال من الإيمان :

الأدلة على ذلك أكثر من أن تُحصر :

■ منها قوله تعالى :﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال : ٢ – ٤].

(١) من « شرح الطحاوية » ، طبعة المكتب الإسلامي .

■ ومنها قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

■ ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) ﴾ .

[الحجرات : ١٥] .

وتقدم قريبًا حديث وفد عبد القيس، وحديث الإيمان بضع وستون شعبة .. إلخ.

فإن قيل : إذا قلتم بدخول الأعمال في الإيمان ، وذلك يتناول جميع ما أمر الله به ورسوله ﷺ ، فمتى ذهب بعض ذلك ، بطل الإيمان ، فيلزم تكفير أهل الذنوب ، وسلبهم اسم الإيمان بالكلية ، وتخليدهم في النار وهذا قول أهل البدع والضلال ؟ .

قلنا : لم يوافق أحد من أهل السُّنَّة أهل البدع في تكفير أهل الذنوب، وتخليدهم في النار، بل اتفقوا على عدم الخلود لمن كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، كما اتفقوا على شفاعة الرسول ﷺ ، لأهل الكبائر من أُمَّته ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة ، وهو ﷺ لا يشفع لكافر ، ولا يلزم من عدم قيام الشخص لبعض المأمورات أو ارتكابه بعض المحرمات ذهاب إيمانه بالكلية، بل نقول ناقص الإيمان، مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته ، كما أن الشجرة لا يلزم من ذهاب غصن منها أو غصنين أو أكثر ذهابها بالكلية ويبسها ،وكما أن الإنسان إذا قطعت منه يده أو رجله، لا يلزم منه أن يموت ، وكذلك الإيمان لا يذهب كله بذهاب بعضه ، فالإيمان بمنزلة الإنسان ، فلا يموت إلا بقطع رأسه أو ما يذهب حياته بالكلية ، لا مجرد قطع بعض أعضائه ، فكذلك الإيمان لا يذهب كله إلا بالكفر ، بمنزلة قطع الرأس من الجسد ، والدليل القاطع قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ [الحجرات : ٩] ، فسماهم مؤمنين مع قتال بعضهم لبعض ، وما قدمنا من شفاعته ﷺ لأهل الكبائر ، وحينئذ فما ورد من نفي الإيمان ممن ارتكب بعض المخالفات مثل قوله ﷺ : « **لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ...** » إلخ ، وقوله ﷺ :« **والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه** » ، وقوله ﷺ : « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب**

لأخيه ما يحب لنفسه » ، محمول على الإيمان الكامل ، كما أن قوله ﷺ : « **لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض** » ، ومثل قوله ﷺ : « **اثنتان في الناس هم بهما كفر ، الطعن في النسب ، والنياحة على الميت** » [أخرجه مسلم] ، محمول على كفر النعمة ، أو أنه مثل عمل الكافرين .

والخلاصة :

أن الخلاف في كون الإيمان مركبًا أو بسيطًا يرجع إلى خمسة أقوال :

[١] مبني على كونه بسيطًا ، كالتصديق وحده بالقلب ، وهذا مذهب جهم ومن وافقه من الأشاعرة وغيرهم ، وعلى هذا يكون اليهود الذين عرفوا بقلوبهم رسالته مؤمنين ، وكفى بذلك قبحًا ، قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة : ٨٩] .

[٢] هو القول فقط ، وهذه قول الكرامية ، وعلى قولهم ، فالمنافقون مؤمنون ، والله قد نفى عنهم الإيمان بقوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ⑧** ﴾ [البقرة : ٨] .

[٣] العمل وحده ، وقد نسب لبعض المعتزلة ، وهذا واضح البطلان .

[٤] مبني على كونه مركبًا ، القول والاعتقاد فقط ، وترد عليهم الآيات المتقدمة ، وهذا مذهب الحنفية .

[٥] قول واعتقاد وعمل ، وهذا مذهب السلف والخوارج والمعتزلة ، والخلاف بيننا وبينهم ، هل العمل شرط كمال ، أم شرط صحة ، أم لا ؟ ، وسبق الكلام عن ذلك .

مذهب الجهم بن صفوان :

وقال جهم إنه العلم فقط ... أقبح به من جاهل وذي شطط
وليس بالنطق ولا بالعمل ... فيا له من مارق مضلل

[**ش**] : مذهب جهم بن صفوان ، أن الإيمان هو العلم القلبي ، وهذا من البطلان بحيث لا يخفى إلا على خفافيش الأبصار والعميان ، ولا غرابة من جهم ، إذ أنه أتى

بمقالات لم يسبق إليها ، وسأذكر بعضها .

أما قوله هنا : إن الإيمان هو المعرفة القلبية لله وللرسول ﷺ ، ففي الآيات القرآنية مما يرد هذا ما لا يحصى إلا بكلفة ، فعلى قول جهم : إن فرعون وقومه كانوا مؤمنين ، فإنهم عرفوا صدق موسى لفرعون ، حتى قال له كما قال الله تعالى : ﴿ **قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ** ﴾ [الإسراء : ١٠٢] ، وقال تعالى : ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** ⑭ ﴾ [النمل : ١٤] ، وأهل الكتاب كانوا يعرفون النَّبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم ، ولم يكونوا مؤمنين به ، بل كانوا كافرين به ، معادين له .

ومن اعتقاداته الفاسدة : قوله بالجبر المحض ، فالعباد كالجماد فيما يصدر منهم من الأفعال من غير اختيار ولا كسب ، وقال : لا يعلم الشيء ربنا قبل وقوعه ، وكفى بهذا كفرًا وضلالاً ، وقال : بفناء الجنة والنار .

ومن أقواله الكفرية : إن الله لا يجوز أن يتصف بصفات تكون في غيره ، كالحياة والعلم والإرادة والقدرة والرحمة ، وإلى غير ذلك من الصفات .

قال شيخنا الشيخ أحمد نور ـ رحمه الله ـ في منظومته « الفرق الإسلامية » ، في سياق مذهب الجهم :

والرب لا يجوز أن يتصفا	بما يكون غيره متصفًا
والشيء لا يعلم قبل أن [١] يحل	وعلمه حادث [٢] ليس في محل
وما ترى أي ذاته العينان	والنَّار والجنة تفنيان

مذهب أبي عبد الله محمد بن كرام وأتباعه :

قلت في النظم :

وقال قوم إنه الإقرار	أهل النفاق عندهم أبرار
أتباع كرام بهذا اعتقدوا	وخالفوا الصواب فيما اعتمدوا

---

(١) أي : قبل وقوعه .

(٢) يترك التنوين للوزن .

[ش] : الكرامية أتباع محمد بن كرام ، قالوا : إن الإيمان هو الإقرار باللسان ، ونفوا التصديق بالقلب والعمل بالأركان من الإيمان ، وتصور هذا القول كاف في فساده ، ولا أدري كيف يدين بهذا الاعتقاد من يدين بالإسلام ، بل من يتصف بالعقل فضلاً عن الدين والإيمان ، فعلى قولهم : المنافقون مؤمنون كاملو الإيمان ، والله حكم بكفرهم وضلالهم في عدة آيات من القرآن وسبق ذكر بعضها .

أما قولهم : إنهم مع إيمانهم يستحقون الوعيد ، فقول ظاهر البطلان ، وذلك أنهم لما أخرجوا التصديق والعمل من دائرة الإيمان ، واكتفوا بتصديق اللسان ، فأي لوم يتوجه على من نطق بلسانه ، ولم يصدق بقلبه ، ولم يأت بالأعمال ؟ ، ولكن لا يقول هذا إلا من أعمى الله بصيرته ، وأضله عن سواء السبيل .

ونسبوا إلى الكرامية [1] تشبيه الله بخلقه ، وخالفوا قوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى : ١١] ، وقوله تعالى : ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** ﴾ [مريم : ٦٥] ، وقوله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)** ﴾ [الإخلاص] .

---

(١) الحقيقة أن الكرامية فرق عديد تبلغ أثنتي عشرة فرقة ، وهؤلاء الفرق عندهم مقالات فيها تشبيه ، إلا أن محمد بن كرام ليس مشبهاً ، كما نقلت ذلك عن الشهرستاني ، نقلاً عن ابن الهيصم ، الذي كان هو من أكابر أتباع محمد بن كرام .

فصل
نبذة مختصرة عن الكرامية

الكرامية : هم أتباع أبي عبد الله محمد بن كرام ، كان من سجستان ، وكان عابداً ، وممن يثبت الصفات ، وهم طوائف عديدة .

قال الشهرستاني : يبلغ عددهم إلى ثنتي عشرة فرقة ، ولهم أقوال غريبة ، ونص أبو عبد الله - يعني محمد بن كرام - على أن معبوده على العرش استقراراً .

ونقل عن كتابه المسمى« عذاب القبر» أنه تعالى أحدي الذات، وأحدي الجوهر ، وأنه مماس للعرش من الصفحة العليا ، وجوز الانتقال والتحول والنزول ، ونقل عن كل فرقة معتقداً غير معتقد الثانية .

ومن أتباعه محمد بن الهيصم ، وقد اجتهدا بن الهيصم في إرمام مقالة أبي عبد الله في كل مسألة حتى ردها من المحال الفاحش إلى نوع يفهم فيما بين العقلاء ، مثل التجسيم ، فإنه أراد بالجسم القائم بالذات [١] ، ومثل الفوقية ، فإنها حملها على العلو ، ومثل الاستواء ، فإنه نفي المجاورة والمماسة والتمكن بالذات .

مذهب الكرامية في إثبات الصفات :

ومما أجمعوا عليه في إثبات الصفات قولهم : الباري عالم يعلم ، قادر بقدرة ، حي بحياة ، شاء بمشيئته ، وجميع هذه الصفات قديمة أزلية ، قائمة بذاته ، وربما زادوا اليدين والوجه، صفات قائمة به، وقالوا: له يد لا كالأيدي ، ووجه لا كالوجوه .

كلام ابن الهيصم :

ويقول ابن الهيصم ما معناه : الذي أطلقه المشبهة على الله من الهيئة والصورة والجوف ونحو ذلك لا نقول به ، وإنما نقول : إنه خلق آدم بيده ، وإنه استوى على عرشه ، وإنه يجيء يوم القيامة لمحاسبة الخلق ، وذلك أننا لا نعتقد من ذلك شيئًا على معنى فاسد ، من جارحتين وعضوين تفسيراً لليدين ، ولا مطابقة المكان واستقلال

---

(١) يعني ليس عرضًا ، لأن العرض لا يقوم بذاته .

العرش بالرحمن تفسيراً للاستواء، وإنما ذهبنا في ذلك إلى إطلاق ما أطلقه القرآن فقط، من غير تكييف ولا تشبيه ، وما لم يرد به القرآن والخبر ، فلا نطلقه كما أطلقه سائر المشبهة والمجسمة .

قـــال : « يعني ابن الهيصم » : نحن نثبت القدر خيره وشره من الله .

وقـالوا : « أي الكرامية » : الإيمان هو الإقرار باللسان فقط ، دون التصديق بالقلب ، ودون سائر الأعمال ، وفرقوا بين تسمية المؤمن مؤمناً فيما يرجع إلى أحكام الظاهر والتكليف ، وفيما يرجع إلى أحكام الآخرة والجزاء ، فالمنافق عندهم مؤمن في الدنيا حقيقة ، مستحق للعقاب الأبدي في الآخرة . أ . هـ[(١)] .

تنبيه مهم :

إن إطلاقهم على الله تعالى بأحدي الجوهر ، وأنه تعالى مماس للعرش من الصفحة العليا ، من البدع التي لم ترد في كتاب الله العظيم ، ولا في سُنَّة رسوله الكريم ﷺ ، وإن فسرها ابن الهيصم أنه القائم بذاته .

ومما ينبغي أن يعلم أن الكثيرين ممن يكتب في توحيد الصفات ، إذ جاء إلى ذكر الفرق ، ينقل عن كتب سابقة تذكر عقائد الفرق ، لكنهم لا يذكرون المصدر ، لأننا لم نجد ولم نسمع أن للمشبهة كتباً ، إنما ينقل الآخر عن الأول .

فالشهرستاني ذكر فرق الكرامية ، وذكر معتقد كل فرقة ، لكن لم يذكر أنه نقل عن كتبهم بأسمائها ، إلا أنه كتب بعض النقول من كتاب أبي عبد الله محمد بن كرام المسمى « عذاب القبر » ، وعنوان هذا الكتاب لا يدل على كل المعلومات التي ذكرها ، إنما يدل على أمور البرزخ .

شبهة للكرامية والجواب عنها :

فتفسير ابن الهيصم لمقالة متبوعه تفسيراً مقبولاً ـ إن صح ـ لكن قولهم بأجمعهم : إن الإيمان مجرد الإقرار باللسان ، دون التصديق بالقلب ، دون الأعمال ، فهذا القول من الأخطاء الكبار .

---

(١) ملخصاً من (جـ ١) من المِلل والنِّحل ، للشهرستاني .

الجواب :

هل يعقل أن نسميه مؤمنًا وهو غير مصدق بقلبه بالإيمان بالله العظيم أو برسوله الأمين ﷺ ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (٣)** ﴾ [المنافقون : ١ -٣] .

فالله سبحانه وتعالى كذبهم في دعوى الإيمان ، ثم حكم بكفرهم بقوله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا** ﴾ ، أي بلسانهم ﴿ **ثُمَّ كَفَرُوا** ﴾ أي بقلوبهم وجوارحهم .

فقوم يحكم الله عليهم بالكذب وبعدم الإيمان ، كيف يطلق عليهم بأنهم مؤمنون ؟ ، وقد قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)** ﴾ [البقرة : ٨ ، ٩] ، إلى أن قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (١٣)** ﴾ [البقرة : ١٣] .

وقد ذكر الله المنافقين في سورة البقرة في ثلاثة عشر آية ، وصفهم بعدم الإيمان ، وأنهم يُخادعون الله ، وأنهم مرضى القلوب ، وأنهم مفسدون ، وأنهم سفهاء ، وأنهم يستهزؤون بالمؤمنين ، وأنهم اشتروا الضلالة بالهدى ، وأنهم صم بكم عمي ، إلى غير ذلك ، فإذا كان هذا قول الله تعالى فيهم ، فكيف نحكم بإيمانهم ؟ ، وأما تفرقتهم بين الأحكام الدنيوية والأحكام الأخروية ، فهذه لا تجدي شيئًا .

فكيف نحكم لهم بالإيمان ، ثم نقول : إنهم مُخلدون في النار ؟ .

شبهة أخرى للكرامية :

ولعلهم يحتجون بأن المنافقين الذين كانوا في المدينة في عصر الرسول ﷺ ، كان يعاملهم معاملة المسلمين ، فهذا دليل على أنه يكفي في الإيمان الإقرار ؟ .

والجواب أن نقول :

أولاً : الإيمان كما سبق بيانه يتركب من ثلاث :

- **قول باللسان .**

■ **واعتقاد الجنان .**

■ **وعمل بالأركان .**

فالذين كانوا في عصر النَّبي ﷺ كانوا ينطقون بالشهادتين ، ويقومون بأعمال الإسلام ، كالصلاة والصيام وسائر الأركان ، وحتى الجهاد ، فحصل منهم الركنان ، القول والعمل ، وبقي التصديق بالجنان ، فذاك موكول إلى الله تعالى .

وأما قول الكرامية : الإيمان هو الإقرار ، فمقتضى هذا الكلام ، أنه متى ما تلفظ بالشهادتين ، فهو مؤمن وإن لم يمارس شيئًا من الأعمال ، كأن لم يصل أو لم يصم ، أو لم يحج ، وإلى غير ذلك من الأعمال ، ولا شك أن هذا باطل ، بل وترك الصلاة فقط كفر عند الإمام أحمد وسائر المحدثين ، فضلاً عن سائر الأعمال ، فكلامهم هذا خطأ كبير .

ومعاملة الرسول ﷺ للمنافقين بالمدينة معاملة المسلمين ـ والله تعالى أعلم ـ لما قلته :

أولاً : من أنهم كانوا يقومون بأعمال الإسلام .

وثانيًا : إن المصلحة تقتضي ذلك ، لئلا يقال أن الرسول ﷺ يقتل أصحابه ، أو يعاملهم معاملة سيئة ، وهم في الظاهر من أتباعه ، وبذلك تنزاح شبهتهم وتبطل .



زيادة الإيمان ونقصانه

إيماننا ينقص بالعصيان	تزيده الطاعات بالبرهان
كم آية تقول بالزيادة	هذا الصواب واغنم الإفادة
ولم يقل بالزيد والنقصان	الماتريدي عظيم الشان
إذا فسر الإيمان بالتصديق	والنطق لا غير بلا تحقيق

[ش] : أراد بقوله : « إيماننا ينقص بالعصيان . . . إلخ » أن الإيمان قابل للزيادة والنقصان .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد حدثنا حريز بن عثمان قال : سمعت أشياخنا ، أو بعض أشياخنا ، أن أبا الدرداء قال : إن من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه وإن من فقه العبد أن يعلم أيزداد إيمانه أم ينقص ؟ ، وإن من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان أنى تأتيه .

وروى إسماعيل بن عياش عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : الإيمان يزيد وينقص .

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأصحابه : هلموا نزدد إيمانًا ، فيذكرون الله عز وجل .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

مذهب أهل السُّنَّة والحديث أن الإيمان يتفاضل وجمهورهم يقولون : يزيد وينقص ، ومنهم من يقول : يزيد ولا ينقص .

وإليك الدليل على زيادته :

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال : ٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾ [التوبة : ١٢٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : ١٣] .

وقد اتفق الصحابة والتابعون على ما قلنا من زيادته ونقصه .

وقال كثير من المتكلمين - ومنهم الماتريدية - : لا يزيد ولا ينقص ، لأنه مجرد التصديق والإذعان ، فهو حقيقة واحدة ، فكيف يمكن أن يقبل الزيادة والنقص ؟ ، وهذا بناءً على قولهم من عدم دخول الأعمال في الإيمان ، فمن قال بدخول الأعمال ، يقول بزيادته ونقصه ومن لا فلا .

وقولهم : إن التصديق لا يقبل الزيادة والنقص مردود بما قال النووي : الأظهر المختار أن التصديق يزيد وينقص بكثرة النظر ووضوح الأدلة ، ولهذا كان إيمان الصديق أقوى من إيمان غيره بحيث لا تعتريه شبهة .

وقال : ويزيده بيانًا أن كل واحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل حتى أنه يكون في بعض الأحيان أعظم إخلاصًا وتوكلاً منه في بعضها ، وكذلك التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها . أ . هـ .

وقد ألّف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابًا حافلاً في الإيمان وأتى بما لا مزيد بعده .

ومحله غير الأنبياء والملائكة لأن الأنبياء يزيد إيمانهم ولا ينقص ، ولا يقال : ما يقبل الزيادة يقبل النقص ، لأننا نقول : إيمانهم مستثنى لوجوب العصمة المانعة ، وإيمان الملائكة لا يزيد ولا ينقص ، لأن إيمانهم جبلي بأصل الطبيعة ، وما كان كذلك لا يقبل التفاوت ، وقال بعضهم : هم كالأنبياء يزيد ولا ينقص ، وما هنا دليل على نفيه .



الاستثناء في الإيمان

وجـــاز الاســـتـــثناء في الإيمان ولـم يـجـب بـواضـح الـبـــرهـان
لـيس مــحـــرمًـــا بـلا اشــتــبــاه والـقـــول بـالـتـــحـــريم يا ذا واهي

[ش]: الاستثناء في الإيمان ، كأن يقول : أنا مؤمن إن شاء الله ، هو من المسائل التي اختلفوا فيها على ثلاثة أقوال :

الأول : الجواز ، ولذا قال : « وجاز الاستثناء في الإيمان » .

وعليه فليس إذًا بواجب ولا بمحرم ، والقول بالجواز هو قول السلف وأهل الحديث والأشاعرة .

الثاني : الوجوب ، وبه قال بعض الكلامية وبعض أتباع المذاهب .

الثالث : التحريم ، وهو قول الجهمية والمرجئة ، ووافقهم الإمام الماتريدي وأتباعه ، وعليه الحنفية .

دليل المجوزين للاستثناء :

هو أن الإيمان المطلق فعل جميع المأمورات ، وترك جميع المحظورات ، فإذا قال الرجل : أنا مؤمن بهذا الاعتبار ، فقد شهد لنفسه بأنه من الأبرار المتقين القائمين بفعل جميع ما أُمروا به ، وترك كل ما نهوا عنه ، فإذا قال الرجل : أنا مؤمن ، فكأنه زكّى نفسه ، وشهد لنفسه بأنه مع الأبرار المتقين ، وهذه شهادة لنفسه بما لا يعلم ، ولو ساغ له أن يشهد لنفسه ، لساغ له أن يشهد بالجنة لنفسه ، ومعلوم تقصير الإنسان في بعض المأمورات ، فيقول الرجل : أنا مؤمن إن شاء الله ، أي بأن يوفقني لجميع خصال الإيمان ، أو يحمل على القبول ، فإذا قال : إن شاء الله ، أي : إن شاء الله قبوله منا ، وكان سليمان بن حرب يحمل هذا على التقبل يقول : نحن نعمل ، ولا ندري أيقبل منا أو لا ؟ .

ومحل الجواز إذا لم يرد المستثنى الشك وإلا فلا ، فالإمام أحمد وغيره من السلف كانوا يجزمون ولا يشكون في وجود ما في القلوب من الإيمان في هذا الحال ،

ويجعلون الاستثناء عائداً إلى الإيمان المطلق المتضمن فعل المأمور ، ويحتجون أيضًا بجواز الاستثناء في ما لا شك فيه ، وهذا مأخذ ثان ، وإن كنا لا نشك في ما في قلوبنا من الإيمان ، فالاستثناء في ما يعلم وجوده مما قد جاءت به السُّنَّة لما فيه من الحكمة ، قال تعالى : ﴿ **لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الفتح : ٢٧] .

وقال ﷺ في الميت : « **وعليه يُبعث إن شاء الله** »، وقال ﷺ لما وقف على المقابر : « **وإنا إن شاء الله بكم لاحقون** » ، وقوله ﷺ : « **إني اختبأت دعوتي ، وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئًا** » ، وهذا كثير .

دليل الموجبين للاستثناء :

إن الإيمان هو ما مات عليه الإنسان ، والإنسان إنما يكون عند الله مؤمنًا أو كافرًا ، باعتبار الموافاة وما سبق في علم الله أنه يكون عليه ، وما قبل ذلك لا عبرة به ، وبناء على ذلك فالسعيد من مات على الإيمان ، ولا عبرة بما قبله من الكفر ، لأنه بموته كان متصفًا بالإيمان ، تبينت سعادته ، وأنه كان سعيداً في الأزل والشقي بعكسه .

قال ابن رسلان ـ رحمه الله ـ :

إن الشقي لشقي الأزل وعكسه السعيد لم يبدل

فالسعادة والشقاوة عندهم لا تتبدلان ، واستثناؤهم بمعنى إن شاء الله إيماننا في الأزل ، أو إن شاء الله موتنا على الإيمان ، لأنه لا يعلم أحد أحداً مؤمنًا إلا بموته على الإيمان ، وعلى هذا كثير من أتباع المذاهب ، واطرد بعضهم حتى في الأعمال الصالحة فإنه يقول : صليت إن شاء الله ، وأفرط بعض غلاتهم حتى قال : هذا ثوبي إن شاء الله طرداً في كل شيء .

ولكن ليس هذا قول أحد من السلف ، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ، ولا كان الذين يستثنون في الإيمان أو يجوزونه يعللونه بهذا التعليل ، وإنما يعللونه بما سبق من أن قال : أنا مؤمن ، فإن هذه الدعوى تتضمن فعل جميع المأمورات ، وترك جميع المنهيات ، فكأنه زكى نفسه ، وشهد له بالولاية والصلاح ، كما سلف .

شبهة المحرمين للاستثناء :

حيث أن الجهمية والمرجئة قالوا :

إن الإيمان شيء واحد ، يعلمه الإنسان من نفسه كالتصديق بالرب ، فعلمنا بإيماننا كعلمنا بتكلمنا بالشهادتين وحبنا للرسول ﷺ ، كما نعلم بأننا قرأنا الفاتحة ، ونحو ذلك من الأمور المقطوع بها ، فلا معنى للاستثناء ، ويأتي الاستثناء فيما يشك به ، وإيماننا لا شك فيه ، فمن استثنى في إيمانه فهو شاك فيه ، وسموهم الشاكة ، وبناء على هذا الأصل الفاسد ، قال بعض غلاة الحنفية بعدم جواز نكاح المرأة الشافعية ، لأنها تستثني في إيمانها ، والاستثناء شك من القائل ، فلم يصح إيمانها ، وبالتالي لا يصح نكاحها ، وكفى بهذا القول قبحًا وضلالاً وجهلاً .

وبعد عرض هذه الأقوال الثلاثة تجد أن القول بجواز الاستثناء هو الصواب ، وهو الوسط بين الطرفين المتطرفين ، وأعني بهما القائلين بالوجوب والقائلين بالتحريم .



الإسلام

وفسر الإسلام بالأعمال والانقياد زد لذي الجلال
كالنطق بالشهادة والصلاة والصوم والحج مع الزكاة
وأمر معروف ونهي المنكر وإن يظن النهي لم يؤثر

[ش] : لما أنهيت الكلام عن الإيمان ، شرعت في بيان الإسلام ، فالإسلام في اللغة يأتي بمعنى الاستسلام والانقياد ، كما يأتي بمعنى الصلح والأمان .

وشرعًا : الاستسلام لله والانقياد له بالخضوع والإذعان ، بامتثال الأوامر ، وترك المنهيات .

والإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين ، كما أخبر الله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام أنه قال : ﴿ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [يونس : ٧٢] .

وكما أخبر الله عن نبيه إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢)** ﴾ [البقرة : ١٣٢] .

وقال تعالى عن يوسف مخاطبًا ربه : ﴿ **أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ [يوسف : ١٠١] .

وقال تعالى عن موسى عليه السلام قائلاً لقومه : ﴿ **يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤)** ﴾ [يونس : ٨٤] .

وقال تعالى عن عيسى عليه السلام : ﴿ **فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢)** ﴾ .

[آل عمران : ٥٢] .

والإسلام وإن كان دين جميع الأنبياء والمرسلين لوحدة الأديان في أصولها ، ولكن الإسلام هو الاسم الذي عرف به الدين الذي جاء به محمد ﷺ ، فكأنه صار عليه علمًا بالغلبة ، ولم تكن هذه التسمية من الرسول ﷺ نفسه ، وإنما كانت من الله سبحانه وتعالى ، قال الله تعالى : ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)** ﴾ [الحج : ٧٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة : ٣] .

وقال سبحانه : ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [آل عمران : ١٩] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)** ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

وإذ عرفت ما سبق تحريره ، فاعلم أن الإيمان يرتكز على تصديق الجنان ، والإقرار باللسان ، والعمل بالأركان ، والإسلام يرتكز ، أو نقول : يطلق على أعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل ، وهو الجزء الثالث من الإيمان (١) .

وما لنا نذهب يمينًا وشمالاً في تفسير الإيمان والإسلام ، وقد فسرهما النَّبي ﷺ تفسيراً ظاهراً واضحًا ، يفهمه الذكي والبليد ، فقال له لما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان : « **أن تؤمن بالله، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره** » ، وهذه من وظائف القلب ، وهو المعبر عنه بالتصديق .

وفسر الإسلام بأعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل ، فأجاب لما سأله جبريل عليه السلام عن الإسلام : « **أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً** » ، لأن من امتثل أمر الله ورسوله ، وأتى بهذه الأركان الخمس ، فقد استسلم وانقاد

---

(١) لأن العمل شرط كمال في الإيمان ، لا شرط صحة ولا شطر منه كما سبق .

وخضع لله ، وهو معنى الإسلام .

كما فسر الإحسان : « **أن تعبد الله كأنك تراه ، وإن لم تكن تراه فهو يراك** ، **ثم قال : يا عمر أتدري من السائل** » ، قلت [١] : الله ورسوله أعلم ، قال : « **فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم** » ، فثبت أن الدين يعم الثلاث ، فأعلاها الإحسان ، وأوسطها الإيمان ، وأدناها الإسلام .

ثم إنه مما يجمل بي القول أن أبيِّن للقارىء أن النَّبي ﷺ وإن كان قد فسر في حديث جبريل الإيمان بالاعتقادات القلبية ، والإسلام بالأعمال الظاهرية ، ولكنه قد فسر الإيمان في حديث وفد عبد القيس بتفسير الإسلام ، كما في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لوفد عبد القيس : « **آمركم بأربع : الإيمان بالله وحده ، وهل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان ، وأن تعطوا من المغانم الخُمس** » .

وكما في الحديث : « **الإيمان بضع وستون شُعبة أو سبعون ، أعلاها لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شُعبة من الإيمان** » .

وكما فسر في حديث آخر الإسلام بما فسر به الإيمان ، كما في مسند الإمام أحمد ، عن عمرو بن عنبسة ، قال : جاء رجل إلى النَّبي ﷺ فقال يا رسول الله : ما الإسلام ؟ ، قال : « **أن تسلم قلبك لله ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك** » ، قال : فأي الإسلام أفضل ؟ ، قال : « **الإيمان** » ، قال : وما الإيمان ؟ ، قال : « **أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت** » .

تنبيه أول :

قد علمنا من تفسير الإيمان والإسلام أن الإسلام أعم ، والإيمان أخص ، فكل مؤمن مسلم ولا ينعكس ، هذا من حيث مفهوميهما ، وأما الحكم الشرعي فلا يصح أن يقال : هو مؤمن لا مسلم ، أو مسلم لا مؤمن [٢] .

---

(١) أي : سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) وذلك لتفسير الإيمان في حديث وفد عبد القيس بأعمال الإسلام ، وكذا في حديث الإيمان بضع وستون شعبة ... إلخ كما فسر الإسلام بما فسر به الإيمان كما ورد في الحديث من رواية عمرو بن عنبسة كما سطرته في الصلب .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

قال أبو طالب المكي : مثل الإسلام من الإيمان كمثل الشهادتين ، إحداهما من الأخرى في المعنى والحكم ، فشهادة الرسول غير شهادة الوحدانية فهما شيئان في الأعيان ، وإحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم كشيء واحد ، كذلك الإيمان والإسلام أحدهما مرتبط بالآخر فهما كشيء واحد ، لا إيمان لمن لا إسلام له ، ولا إسلام لمن لا إيمان له ، إذ لا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه ، ولا يخلو المؤمن من إسلام به يحقق إيمانه ، ثم قال : وقد أجمع أهل القبلة على أن كل مؤمن مسلم ، وكل مسلم مؤمن . أ . هـ .

تنبيه ثان :

هل الإسلام والإيمان شيئان ، أم شيء واحد ؟ .

قيـل : هما شيء واحد ، ونقل عن محمد بن نصر المروزي وابن عبد البر .

وقيل : هما شيئان ، وهو قول الأكثرين كأحمد بن حنبل ، وابن أبي ذئب ، وأبي خيثمة ، ويحيى بن معين ، والمعنى على قولهم : شيئان في المفهومية ، ومن حيث هما لا من حيث الحكم ، لما قدمنا من كلام شيخ الإسلام .

وكان حجة محمد بن نصر المروزي أن الرسول ﷺ فسر الإيمان وأطلقه على ما أطلق عليه الإسلام ، كما في حديث وفد عبد القيس ، وفسر الإسلام بما فسر به الإيمان ، كما في مسند الإمام أحمد عن عمرو بن عنبسة .

ولعل جواب الأكثرين : أن الإسلام والإيمان من الأسماء التي تشمل مسميات متعددة عند إفرادها وإطلاقها ، فإذا قرن ذلك الاسم بغيره ، صار دالاً على بعض تلك المسميات ، والاسم المقرون به دال على باقيها، وهذا كاسم الفقير والمسكين ، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه كل من هو محتاج ، فإذا قرن أحدهما بالآخر ، دال أحد الاسمين على بعض أنواع ذوي الحاجات ، والآخر على باقيها ، فهكذا اسم الإسلام والإيمان ، إذ أفرد أحدهما كما في حديث وفد عبد القيس حيث أفراد الإيمان دخل فيه الإسلام ، فإذا قرن بينهما كما في حديث جبريل،دل أحدهما على بعض ما يدل عليه بانفراده ،

ودل الآخر على الباقي ، وأخص من هذين أن يقال إذا اجتمعا تفرقا ، وإذا تفرقا اجتمعا ، وحينئذ يقال : ما الفرق بينهما ؟ فنقول : تقدم ما يفهم منه الفرق ، وهو أن الإيمان وهو التصديق من وظائف القلب ، والإسلام وهو الخضوع وذلك يكون بعمل الجوارح ، فإذا جاءا معًا كما في حديث جبريل ، دل على أن الإيمان جنس تصديق القلب ، وأن الإسلام جنس العمل ، ولو قال قائل : رأينا الأحاديث والآيات ظاهرها التعارض كما في قوله تعالى : ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ** ﴾[البقرة : ٢٨٥] .

فهنا خصت الآية الإيمان بالاعتقادات الباطنة كما في قوله تعالى : ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ** ﴾ [البقرة : ١٣٦] ، وأما قوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ** ﴾[البقرة : ١٧٧] ، فهنا أدخل في الإيمان ما هو من وظائف الإسلام ، كإيتاء المال ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والأحاديث كما في حديث جبريل عليه السلام ، وحديث وفد عبد القيس ، وحديث الصحيحين : « **الإيمان بضع وسبعون ، أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان** » ، ولفظه لمسلم ، فالجواب هو الجواب السابق .



حكم مرتكب الكبيرة بأنه مؤمن

فمؤمن مرتكب الكبيرة — كذا إذا أصر بالصغيرة
بذا أتت آي من القرآن — لكن يعد من ذوي النقصان
كما يعد من ذوي العصيان — وليس خارجًا من الإيمان
ليس مُخلدًا مع الكفار — والمشركين في عذاب النار
إلا إذا أشرك بالرحمن — فإنه مُخلد النيران
أو استحل فعل شيء حرما — فكافر عند جميع العلما
وكفَّروا مرتكب الكبائر — من خرجوا على الإمام الباهر
أعني بذاك نجل عم المصطفى — رابع أصحاب النَّبي الخلفا
من أجل ذا مخلد قد قالوا — وإنهم عن الصواب مالوا

[ش] : مذهب أهل السُّنَّة والجماعة سلفًا وخلفًا ، أن مرتكب الكبيرة أو المصر على الصغيرة ، لا يكون كافرًا خارجًا عن نطاق الإسلام والإيمان ، فلذا ينصون في كتب العقائد بأنهم لا يكفِّرون أهل القِبلة بمطلق المعاصي والكبائر ، كما قال السفاريني في منظومته :

لا يخرج المرء من الإيمان — بموبقات الذنب والعصيان

ولأهل السُّنَّة والجماعة أدلة من القرآن والسُّنَّة على كون العاصي غير كافر، وإذا كان غير كافر، فليس مُخلدًا في النار مع الكفار والمشركين، وسيأتي بيان تلك الأدلة ، لكن وإن لم يكن كافرًا فهو فاسق ، ويقال فيه مؤمن ناقص الإيمان ، كما قلت في النظم: لكن يعد من ذوي النقصان، فهو مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته .

وقالت الخوارج : إنه كافر ومُخلد في النار .

وقالت المعتزلة : لا كافر ولا مؤمن ، ننزله منزلة بين المنزلتين ، لكنهم وافقوا الخوارج في كونه مخلدًا في النار .

أدلة الخوارج على كفر العاصي :

[١] قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** (٣) ﴾ .

[الإنسان : ٣] .

[٢] وقوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ** ﴾ [التغابن : ٣]، حيث لم يجعل الله بين الكفر والإيمان منزلة ثالثة ، ومن كفر وحبط عمله فهو مشرك ، والإيمان رأس الأعمال، وأول الفرائض، ومن ترك ما أمره الله به فقط حبط عمله ، فهو بلا إيمان ، والذي لا إيمان له مشرك ، ويمكن أن نضم إلى ذلك بعض الآيات التي تدل على كفر من ارتكب كبيرة مما ذكره غيرهم من العلماء مثل :

[٣] قوله تعالى :﴿ **وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** (٥١) ﴾

[المائدة : ٥١] .

[٤] وقوله تعالى :﴿ **إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [يوسف : ٨٧] .

[٥] وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ** ﴾ .

[النحل : ١٠٥] .

[٦] وقوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** (٩٧) ﴾ [آل عمران : ٩٧] ، إلى غير ذلك من الآيات ، وقد يتعلقون في رأيهم هذا بما ورد في الأحاديث التي تسير على هذا النمط ، وتدمغ مرتكبي الكبائر بالشرك أو ما يقتضيه مثل ما يأتي :

[٧] قول النبي ﷺ : « **لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر** » .

[٨] وقول النبي ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه : « **إنك امرؤ فيك جاهلية** » .

[٩] وقوله ﷺ : « **إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة** » .

[١٠] وقوله ﷺ : « **سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر** » .

[١١] وقوله ﷺ : « **لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض** » .

[١٢] وقوله ﷺ : « **لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن** » .

أدلة أهل السنّة على أن العاصي ليس بكافر :

[١] قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [النساء : ٤٨] ، فقد صرحت الآية أن غير الشرك من سائر المعاصي قابل لأن يغفره الله لمن يشاء .

[٢] وقوله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)** ﴾ [الزمر : ٥٣] ، فترى الآية تصرِّح بغفران الذنوب ، وأكّدت بقوله جميعًا ، ولكنها مقيدة بغير الشرك للآية السالفة .

[٣] وقوله تعالى : ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا** ﴾ [الحجرات : ٩] ، فسمَّاهم رغم الاقتتال مؤمنين ، والطائفة تطلق على الواحد والجمع ، ويزيدك إيضاحًا وبيانًا أن الله ذكر بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)** ﴾ [الحجرات : ١٠] .

[٤] وقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** ﴾ [التحريم : ٩] ، وهل التوبة إلا من ذنب ؟ ، ومع ذلك خاطبهم بالإيمان بقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ .

[٥] وقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ** ﴾ [البقرة : ١٧٨] ، فسمى الله القاتل مؤمنًا ، وجعله أخًا لولي المقتول ، ولم يخرجه بالقتل من الإيمان .

الأدلة من السنّة كثيرة ، وها أنا ذا أذكر بعضها :

[١] في الصحيحين عن النَّبي ﷺ من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال وحوله عصابة من أصحابه : « **بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وفَّى منكم فأجره على الله ،**

ومن أصاب من ذلك ، فعوقب به في الدنيا ، فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئًا ، ثم ستره الله ، فهو إلى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه » ، قال : فبايعناه على ذلك .

[٢] وقال ﷺ فيما يروي عن ربه تعالى : « **ابن آدم لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم أتيتني لا تُشرك بي شيئًا ، أتيتك بقرابها مغفرة** » ، أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وأبو عوانه في مسنده من حديث أبي ذر ، وأيضًا الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي ذر أيضًا .

[٣] وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه ، عن النَّبي ﷺ قال : يقول الله تعالى : « **من تقرَّب مني شبرًا ، تقربت منه ذراعًا ، ومن تقرب مني ذراعًا ، تقربت منه باعًا ، ومن أتاني يمشي ، أتيته هرولة ، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يُشرك بي شيئًا ، لقيته بقرابها مغفرة** » .

[٤] وأخرج الإمام أحمد من رواية أخشن السدوسي ، قال : دخلت على أنس رضي الله عنه فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **والذي نفسي بيده ، لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ، ثم استغفرتم الله ، لغفر لكم** » .

[٥] وقال ﷺ : « **من مات لا يُشرك بالله شيئًا دخل الجنة** » .

[٦] وقال ﷺ : « **من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة** » .

[٧] وقال ﷺ : « **إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله ، يبتغي بذلك وجه الله** » .

[٨] وفي حديث الشفاعة : « **أخرجو من النار من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان** » ، وفيه يقول الله عز وجل : « **وعزتي وجلالي ، لأخرجن من النار من قال : لا إله إلا الله** » .

فالتوحيد من أعظم بل أعظم أسباب المغفرة ، فهو السبب الأعظم ، فمن فقده فقد المغفرة ، ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة .

فصل
في ذكر الخلاف في إيمان المقلد

والجزم بالتقليد في الأصول ... قد صححوا للنقل والمعقول
فالجازمون من عوام الخلق ... موحدون للإله الحق
بعدم الجواز بعض العلما ... قال به فلتنبذن ولتعلما
ثم على هذا المقال اختلفا ... بالكفر قال بعض من قد أسرفا
وبعضهم قد قال بالعصيان ... كلاهما مخالف البرهان
وفي الفروع جاز أن تقلدا ... من الأئمة الكرام أحدا
لكن إذا قد ظهر الدليل ... فلا يجوز ذاك يا خليل

اعلم : أن التقليد هو قبول كلام الغير من غير معرفة دليله ، وقد وقع النزاع بين العلماء في الشخص المقلد : هل يصح إسلامه وإيمانه ؟ على أقاويل ، وقد منع كثير من العلماء التقليد في الأصول والفروع ، ومنهم من حرمه في الأصول فقط .

وإليكم مآخذ من حرم التقليد :

الأول : إن الله أمرنا بالتدبر والتفكر والنظر في مخلوقاته وآياته من السموات والكواكب والأرضين وغير ذلك .

الثاني : إن الله ذم التقليد ، وسفَّه رأي من قلد آباءه وأجداده ، فقال تعالى : ﴿ **بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ** (٢٢) ﴾ [الزخرف : ٢٢] .

الثالث : يقول الله تعالى : ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ** ﴾ [محمد : ١٩] ، فألزمنا بالعلم ، ويلزمنا ذلك لقوله تعالى : ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** (٣) ﴾ [الأعراف : ٣] ، فتعين طلب اليقين في الوحدانية ، ويقاس عليها غيرها ، والتقليد لا يفيد إلا الظن ، والظن لا يكفي هنا .

الرابع : إن التقليد لو أفاد علمًا ، فإما الضرورة وهو باطل ، وإما بالنظر فيستلزم الدليل والأصل عدمه ، ولهذا قال ابن حمدان في نهاية المبتدئين : كل ما يطلب فيه الجزم ، يمتنع التقليد فيه والأخذ بالظن ، لأنه لا يفيده ، قال كثير من أهل النظر : يحرم التقليد في معرفة الله والتوحيد والرسالة ، وكذا في أركان الإسلام الخمسة ونحوها مما تواتر . أ . هـ .

وبناء على حرمة التقليد وعدم الاكتفاء به ، قال بعضهم بكفر المقلد ، وعليه السنوسي في الكبرى ، ولا يخفى ما في هذا القول من المجازفة والإسراف ، وتكفير الأكثرين ، لأنه من البديهي أن الذين دخلوا في الدين كان أكثرهم من الجهال والأعراب والأجلاف ، وقد حكم النَّبي ﷺ والصحابة ﷺ من بعده بصحة إيمانهم ، ولم يوجب عليهم معرفة الدليل والبرهان .

وقال بعضهم بعصيانه مع الاكتفاء به ، سواء كان فيه أهلية النظر أم لا ؟ ، وبعضهم قيد عصيانه إن كان فيه أهلية النظر .

والحق الذي لا محيد عنه ، أن الجازمين من عوام المسلمين موحدون ومؤمنون ، وإن كان جزمهم عن تقليد ، وعليه أكثر المحققين ، ولا يجب النظر ولا الاستدلال ، بل قال بعضهم : إن إيمان المقلد صحيح ، ويحرم عليه النظر ، لأنه مظنة الوقوع في الشبه والضلال لاختلاف الأذهان .

قال بعض علماء الشافعية ومنهم النووي : الآتي بالشهادتين مؤمن حقًا ، وإن كان مقلداً ، على مذهب المحققين والجماهير من السلف والخلف ، لأنه ﷺ اكتفى بالتصديق بما جاء به ، ولم يشترط المعرفة بالدليل ، وقد تظاهرت بهذه الأحاديث الصحاح التي حصل بمجموعها التواتر والعلم القطعي . أ . هـ .

قال أبو منصور الماتريدي : أجمع أصحابنا على أن العوام مؤمنون ، عارفون بربهم ، وأنهم حشو الجنة ، والخلاف في إيمان المقلد ، إنما بالنظر لأحكام الآخرة ، وأما أحكام الدنيا من التناكح والتوارث وحرمة المال والدم ونحو ذلك ، فيكفي فيها الإقرار للشهادتين ، ما لم يأتِ بمناقض .

التقليد في الفروع :

تشعبت الآراء في هذه المسألة ، فقال كثيرون بوجوبه على من ليس مجتهداً مستدلين على ذلك بأمور :

[١] إن الإجماع منعقد على أن العامي مكلف بالأحكام ، وتكليفه طلب رتبة الاجتهاد محال ، لأنه يؤدي إلى أن ينقطع الحرث والنسل ، وتتعطل الحرف والصنائع ، ويؤدي إلى خراب الدنيا لو اشتغل الناس بجملتهم بطلب هذه الرتبة ، ولا يخفى على كل عاقل مشاهد أحوال الناس ، وتباين أفهامهم ، وتخالف درجاتهم ، واشتغالهم لما يقوم بمؤنهم ، وعلو هذه الدرجة التي لا تنال إلا بعد مضي سنين في الدراسة في أنواع العلم من لغة وصرف ونحو وحديث وأصول وتفسير وغير ذلك يفوت بعض تلك الفوائد .

[٢] إن الطالب لهذه الصفة وهي درجة الاجتهاد إنما يطلب أمراً عسيراً ومنصباً كبيراً ، ولا ينالها إلا أفراد قلائل لا كل فرد ، وإذا استحال هذا لم يبق إلا سؤال العلماء وهو التقليد لقوله تعالى : ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٧ – الأنبياء ٤٣] ، والذي يسأل إنما يسأل عن ما لا يعلم .

[٣] إجماع الصحابة ، فإنهم كانوا يفتون العوام ، ولا يأمرون بنيل رتبة الاجتهاد ، وذلك معلوم بالضرورة والتواتر من علمائهم وعوامهم ، وذهب قوم إلى وجوب التقليد مطلقاً وبحرمة النظر ، حكاه صديق في حصول المأمول ، ولا أدري كيف أوجبوا التقليد على من يكون مجتهداً ، وإذا حرموا النظر ، فمن يكون مجتهداً حتى يقلده الناس ؟ ، وذهب قوم إلى أنه لا يجوز التقليد مطلقاً .

قال القرافي : مذهب مالك وجمهور العلماء وجوب الاجتهاد وإبطال التقليد ، وادعى ابن حزم الإجماع على النهي عن التقليد ، وقد صرحت الأئمة الأربعة بالنهي عن التقليد ، وأجابوا عما استدل به الموجبون من أن العامي لا يمكنه نيل الاجتهاد ، وهو محال لكونه درجة عالية ... إلخ .

ولكن ليس الأمر كما ذكر ، لأنه لا يخلو من حالتين :

[١] إما أن يريد البحث والنظر ، فهذه أدوات الاجتهاد مبذولة له وميسرة ، لأن

العلوم دونت وضبطت وشرحت ، وليس عليه أن يحفظ أو يتقن كل العلوم أو جميع الحديث والتفسير، بل عليه أن يعرف من العربية درجة وسطى ، ومثله الأصول ، ومن الحديث والقرآن ما يتعلق بالأحكام فقط ، وهذا كما ترى ليس كما ذكروه، وبعدوا الطريق حتى غلا بعضهم وقال : إن رتبة الاجتهاد قد انقطعت من مدة تسعة قرون أو أكثر، ولا يمكن أن يكون اليوم مجتهد، ويكفي في بطلانه تصوره،وهل هذا إلا تحجر على الفضل الإلهي والقدرة الربانية ؟ .

ومن رأى هذا العصر ووسائل العلم ووفرة الكتب في كل فن ، وكتابات المؤلفين بأسلوب رائق وسهل، يفهمه أدنى طالب علم، عَلِمَ فساد هذه المقالة وبطلانها، فلا حاجة إلى ردها والاشتغال ببيان فسادها [١] .

[٢] وإما أن يكون عاميًّا ، فوظيفته السؤال ، لأنه لا يريد أن يقرأ ، أو لا يتمكن أن يبحث ، فعليه أن يسأل أهل العلم المعروفين بالدين ، وكمال الورع ، عالمين بالكتاب والسُّنَّة ، فيسألهم عن حادثته طالبًا منهم حكمها من الكتاب والسُّنَّة ، فحينئذ يأخذ الحق من معدنه ، ويستفيد الحكم من موضعه ، ومن مشي في هذا الطريق لا يفقد من يرشده إلى الحق ، فإن الله أوجد لهذا الشأن من يقوم به ، ويعرفه حق معرفته ، وعلى هذا ينزل قولهم : إن الصحابة كانوا يفتون العوام ، ولا يأمرونهم برتبة الاجتهاد ، لأن المفتين من الصحابة كانوا يجيبون السائلين ، ويرشدونهم بنص السُّنَّة والكتاب،واستدلالهم بقوله تعالى : ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾[الأنبياء : ٧ – الأنبياء ٤٣] ، جواب هذا ذكرناه آنفاً .

وقال بعضهم : يجوز التقليد في الفروع كما ذكرناه في النظم ، وبناء على القول بالتقليد ، هل يلزم التمذهب بمذهب معين ؟ ، فيه نزاع بين متأخري أصحاب أحمد والشافعي وغيرهما .

الحق أنه لا يجب ، كما أنه ليس له أن يقلد من يوافق غرضه .

---

(١) راجع « إعلام الموقعين » للعلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ وإيقاظ همم أولي الأبصار للفلاني ، والقول المفيد في حكم التقليد ، لتعلم ما قلناه .

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ :

التمذهب بمذهب بحيث يأخذ برخصه وعزائمه طاعة غير النَّبي في كل أمره ونهيه هو خلاف الإجماع .

وتوقف أيضًا في جواز ذلك ، فضلاً عن وجوبه ، وقال : إن خالف لقوة الدليل ، أو زيادة علم أو تقوى ، فقد أحسن ولم يقدح ذلك في عدالته بلا نزاع ، بل يجب في هذا الحال ، وأنه نص الإمام ، وعلى كل إذا استبان له الدليل من الكتاب والسُّنَّة بخلاف مذهبه ، وجب عليه أن يتبعه ويترك المذهب ، لقوله تعالى : ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف : ٣] .

وحكى ابن عبد البر الإجماع على أنه من استبانت له سُّنَّة رسول الله ﷺ ، لم يكن له أن يدعها لقول أحد كائنًا من كان .

قال صدر الوزراء عون الدين أبو المظفر بن هبيرة : إنه من مكائد الشيطان أن يقيم أوثانًا في المعنى تُعبد من دون الله ، مثل أن يتبين له الحق فيقول : هذا ليس بمذهبنا تقليداً لمعظم عنده قد قدمه على الحق أ . هـ .

وقال قوم بلزوم التمذهب بمذهب ، فعليه هل يجوز الانتقال عنه إلى مذهب آخر ؟ ، منهم من منعه مطلقًا ، ومنهم من أجاز .

والثالث التفصيل : وهو إن كان عمل بمقتضى ذلك المذهب الذي اعتنقه ، وتعبد بصلاة وصيام ونحو ذلك غير ملتفت لغيره ، لزمه الوقوف عليه ، وامتنع عليه الانتقال .

والصواب عند من جوَّز الانتقال بلا تفصيل ، وما سواه عار عن الحجة والدليل .

الأخذ بقول إمام معتبر :

وإذا عجز عن استنباط مسألة من الكتاب والسُّنَّة، ورجع الأمر بين أن يأخذ برأيه ، وبين أن يأخذ بقول إمام من الأئمة ؟ .

فهنا نقول له : الأخذ بقول إمام أحسن وأولى من الاكتفاء برأيك ، بل يجب التقليد على العاجز عن معرفة الدليل ، وذلك لأن القول الوسط في هذا الباب هو:

أن العوام لابد لهم من سؤال العلماء والاقتداء بهم ، وتقليد الأئمة المهتدين ، وأما من نال حظًا في الفقه والتفسير والحديث والأصول والعربية ، وأمكنه أن يعرف الناسخ والمنسوخ ، والمقيد والمطلق ، والعام والخاص ، واستطاع أن يقف على خلاف العلماء وأدلتهم ، فيجب عليه أن يأخذ بالدليل الذي يراه صحيحًا أو أقوى من المذهب ، ويترك المذهب ، وإن لم يصل درجة الاجتهاد المطلق أو الاجتهاد المذهبي ، ومن منع بلوغ الاجتهاد المطلق أو المذهبي ، أو الأخذ بالدليل ، فقد أخطأ خطأ كبيراً .

فاتضح مما سقناه من الأقوال في التقليد في الفروع أن ها هنا طرفين ووسط .

الطرف الأول :من يمنع الاجتهاد مطلقًا ،ويحكم بغلق باب الاجتهاد منذ قرون ، وأن الواجب تقليد أحد الأئمة الأربعة ، كما قال اللقاني في الجوهرة :

وواجب تقليد حبر منهم كذا حكى القوم بلفظ يفهم

وهذا القول كما يرى القارىء فيه من الغلو والشطط والتحجير على رحمة الله وفضله على عباده وخطئه الواضح ما لا يخفى .

الطرف الثاني يقول : يجب الاجتهاد على كل فرد من المسلمين في القرى والبادية والحاضرة ، الجاهل منهم والمتعلم .

وهذا القول كذلك فيه من التكليف بما لا يمكن لكل أحد ، وفيه من الشدة والغلو ما لا يقبله العقل الصحيح ولا الدليل الراجح .

القول الوسط يقول : يجب الاجتهاد لمن بلغ درجة الاجتهاد المطلق أو المقيد .

كما أن من لم يبلغ هذه الدرجة ، ولكنه استطاع أن يأخذ بالدليل من القرآن والسُّنَّة ، فعليه أن يتبع الدليل ولو خالف المذهب كما سبق البيان ، وأما من لم يستطع بلوغ درجة الاجتهاد ، ولم يستطع حتى الأخذ بالدليل ولو في بعض المسائل كحال أكثر العوام ، بل وأكثر العلماء في هذه العصور ، فهذا وظيفته التقليد ، بل يجب عليه وعلى هذا عَمَلُ المسلمين من قرون عديدة .

فصل
القضـــاء والقـــدر

وكل شيء بقـضـاء وقــدر	ليس الرضى بواجب على البـشـر
بكل مـقـضي ولكن حـتـمـًا	رضـاء خلق بالقـضـاء فـاعلمـا

يقول : إن كل شيء كائن بقضاء وقدر، كما قال الله تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢)** ﴾ [الحديد : ٢٢] .

ومعنى القدر : إيجاد الله الأشياء على قدر مخصوص ووجه معين .

والقضاء : إرادة الله الأشياء في الأزل على ما هي عليه فيما لا يزال ، فالقضاء من صفات الذات ، والقدر من صفات الأفعال .

وهناك أقوال أخر تركناها كما في تحفة المريد للباجوري .

قوله : ليس الرضى بواجب على البشر .

معناه : أنه ليس محتم على العبد أن يرضى بالمقضي الذي هو من فعل العبد ، لكن فيه تفصيل سيأتي ، وإنما يجب عليه الرضا بالقضاء الذي هو من صفات الله .

وإليك التفصيل :

قال الحافظ ابن عبد الهادي : القضاء يراد به ثلاثة أشياء :

أحدهما : الأمر والنهي ، فهذا الرضا به واجب .

والثاني : الكفر والمعاصي ، فهذا الرضا به ليس بواجب أقول ولا بجائز .

والثالث : المصائب التي تصيب العبد ، فهل الرضى بها واجب أو مستحب ؟ .

وأما المقضي وهو الكفر والمعاصي التي هي أفعال العباد، فالرضا بها ليس بواجب، ولنا أن نقول بعبارة أخرى نرضى بالقضاء الذي هو تقديره تعالى ، ولا نرضى بالمقضي

الذي من أفعالنا القبيحة ، وبهذا أجاب بعض أهل السُّنَّة للمعتزلة عن قولهم : لو كان الكفر بقضاء الله لوجب الرضا به ، لأن الرضا بالقضاء واجب ، ولكن بالكفر كفر ، فأجابهم بالفرق بين القضاء والمقضي .

وقال بعضهم : نرضى بالمقضي من حيث أنه خلق الله ومراده ، ونسخطه من حيث هو مكتسب لنا ، وهذا من باب اختلاف الجهتين ، كما قال الفقهاء في الوضوء من آنية الذهب والفضة .

وفي مسند الإمام أحمد ، ومسند الترمذي ، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من سعادة ابن آدم استخارة الله عز وجل ، ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله ، ومن شقوة ابن آدم سخطه مما قضاه الله ، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله** » . والله أعلم .



أفعال العباد

أفعالنا معاشر العباد	مخلوقة لربنا الجواد
لكن للعبد فكسب حاصل	بالاختيار غير ذا فباطل
من قول أهل الجبر واعتزل	قد خالفوا الإله ذا الجلال
وخالق للخير والشرور	كما أتى بواضح المسطور

هذه مسألة خلق الأفعال وكسب العباد،قد وقع فيها النزاع بين طوائف المسلمين ، وهي من الغوامض التي ضل في بيدائها الأكثرون .

اتفق أئمة السلف قبل ظهور أهل البدع والأهواء على أن الخالق هو الله لا سواه ، وأن الحوادث كلها حادثة بقدرة الله ، لا فرق بين فعل العبد وغيره ، إذًا فأفعالنا معاشر العباد جميعها خيرها وشرها مخلوقة لله .

وإليك الدليل على ذلك :

[١] الكتاب :

قال الله تعالى : ﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾[غافر : ٦٢] ، فأتى بكلمة كل الدالة على الإحاطة والعموم ، وأفعالنا من جملة الأشياء المسورة بالسور الكلي، وقال الله تعالى : ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾[الأنعام : ١٠١] ، وقال تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)** ﴾[الصافات : ٩٦] ، وقال تعالى : ﴿ **هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾[فاطر : ٣] ، وصرح بخلق الشر كقوله تعالى : ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢)** ﴾ . [الفلق : ١ ، ٢] .

[٢] السُّنة :

﴿ **أ** ﴾ جاء في الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النَّبي ﷺ : « **إن الله قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة** » .

﴿ ب ﴾ وحديث : « **أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب ، قال : وما أكتب ، قال : ما هو كائن إلى يوم القيامة** » .

واعلم أن فعل المخلوق يضاف إلى الله خلقًا وإلينا كسبًا ، هذا معنى قوله : لكنه للعبد كسب حاصل .

وهنا ثلاث طوائف :

القدرية تقول : إن العبد خالق فعل نفسه ، وإن الله ما أحدث الشر ولا الخير ، بل أمر بالطاعة ، ونهى عن المعصية ، وزعموا أن إثبات مشيئته العامة ، وخلقه لكل شيء ، يلزم منه القدح في عدل الرب ، فعظموا الأمر والنهي ، وضلوا في القدر .

وقابلتهم الجبرية فقالوا : إن العبد كالحجارة ، وأنه لا فعل للعبد أصلاً ، ولا قدرة له عليه ، ولا قصد ، ولا اختيار ، وأقروا بالمشيئة العامة ، وأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، فأحسنوا في إثبات القدر ، وأساؤوا في الأمر والنهي والوعد والوعيد ، وأفرطوا حتى غلا بهم الأمر في الإلحاد،فصاروا من جنس المشركين القائلين :﴿ **لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

وتوسطت أهل السُنَّة فأقرت بالقدر، وقالوا : إن جميع أنواع الطاعات والمعاصي والكفر والفساد واقع بقضاء الله وقدره لا خالق سواه ، والعبد غير مجبور على أفعاله ، بل هو قادر عليها ومريدها ، هذه متفق عليه بين سلفهم وخلفهم ، ولكن اختلفوا في الكسب بعدما اتفقوا على إثبات القدر .

فالكسب : هو عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة .

والخلـق : هو المقدور بالقدرة القديمة .

وقالوا أيضًا : الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه ، والخلق هو الفعل القائم بالمحل الخارج عن القدرة ، والفرق بين الكسب والخلق أن الكسب ما وقع بآلة ، والخلق ليس بآلة، والكسب لا يصح انفراد القادر به، والخلق يصح انفراده ، واختلافهم في الكسب بمعنى : هل يكون له تأثير في فعل العبد أم لا ؟ .

الإمام الأشعري ومن وافقه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد من الذين لا يثبتون قوى ولا طبائع ، ويقولون : إن الله فعل عندها لا بها ، وقالوا : إن قدرة العبد لا

تأثير لها في الفعل .

ويقول الأشعري : إن الله فاعل فعل العبد ، وأن عمل العبد ليس فعلاً للعبد ، بل كسبًا له ، ومع إثباته الكسب يقول : لا تأثير لقدرة العبد ، وهذا القول في الحقيقة والمعنى كقول الجبرية ، والأمور بحقائقها ، لا بالألفاظ المرونقة ، إذ إنكاره تأثير القدرة ، كأنه يقول : أن ليس لقدرة العبد إلا مجرد الاقتران ، والاقتران كما هو واضح لا اختصاص له بالقدرة ، فإن فعل العبد يقارن حياته وعلمه وإرادته وغير ذلك من صفاته ، فإذا لم يكن للقدرة تأثير إلا مجرد الاقتران ، فلا فرق بين القدرة وغيرها ، وسلف الأمة وأئمتها يقولون : إن العبد فاعل لفعله حقيقة ، وأن له قدرة حقيقية واستطاعة حقيقية ،ولا ينكرون تأثير الأسباب الطبيعية ، بل يقرون بما دل عليه الشرع والعقل، من أن الله يخلق السحاب بالرياح، وينزل الماء بالسحاب ، وينبت النبات بالماء، ولا يقولون : القوى والطبائع الموجودة في المخلوقات لا تأثير لها ، بل يقرون بأن لها أثرًا لفظًا ومعنى، لكن يقولون: هذا التأثير هو تأثير الأسباب في مسبباتها ، والله خالق السبب والمسبب ، فلابد للسبب من سبب آخر يشاركه ، ولابد له من معارض يمنعه ، فلا يتم أثره إلا مع خلق الله له ، بل يخلق الله السبب الآخر ، ويزيل الموانع .

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ :

الأعمال والأقوال والطاعات والمعاصي هي من العبد ، بمعنى أنها قائمة به ، وحاصلة بمشيئته قدرته، وهو المتصف بها ، والمتحرك بها ، الذي يعود حكمها عليه ، وهي من الله ، بمعنى أن الله خلقها قائمة بالعبد ، وجعلها عملاً له وكسبًا ، كما يخلق المسببات بأسبابها ، كما إذا قلنا : هذه الثمرة من هذه الشجرة ، وهذا الزرع من هذه الأرض ، بمعنى أنه حدث منها ،ومن الله بمعنى أنه خلقه منها ، ولم يكن بينهما تناقض،فالحوادث تضاف إلى خالقها باعتبار ، وإلى أسبابها باعتبار ، كما قال الله تعالى :﴿ **قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ** ﴾[القصص : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ** ﴾[الكهف : ٦٣] ، مع قوله تعالى : ﴿ **قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا** ﴾[النساء: ٧٨] .

شبه القدرية

الشبهة الأولى والجواب عنها :

احتجت القدرية لمذهبها : أنها ترى الآيات القرآنية تسند الفعل إلى العبد ، كما في قوله تعالى :﴿ **لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨)** ﴾ [التكوير : ٢٨] ، هذه بالمشيئة ، وبالإرادة كقول الخضر : ﴿ **فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا** ﴾ [الكهف : ٧٩] ، وبالفعل والكسب والصنع كقوله تعالى : ﴿ **يَفْعَلُونَ** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **يَعْمَلُونَ** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ** ﴾ [الأعراف : ٣٩] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [إبراهيم : ٤٢] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ** ﴾ [البقرة : ١٧٩] ، هذه من حيث الإضافة العامة .

وأما الإضافة الخاصة : فمثل إضافة الصلاة والزكاة والصيام والزنا والسرقة ، ومعلوم أن هذه الإضافة الخاصة لا يجوز أن تضاف إلى الله .

والجواب :

نعم لا تُضاف ، بمعنى منع قيامها به ، ووصفه بها ، وجريان أحكامها عليه ، واشتقاق الأسماء منها له ، فلا يقال مُزكٍّ ومُصَلٍّ . . . إلخ .

ولكن تضاف إلى علمه بها ، وقدرته عليها ، ومشيئته العامة ، فإنها معلومة له ، مقدورة له ، وإضافته إليهم لا تمنع هذه الإضافة ، كالأموال فإنها مخلوقة له ، وهي ملكه حقيقة ، وقد أضافها إليهم .

فالأعمال والأموال خلقه وملكه ، وهو سبحانه يضيفها إلى عبيده ، وهو الذي جعلهم مالكيها وعامليها ، فصحت النسبتان ، وحصول الأموال بكسبهم وإرادتهم ، كحصول الأعمال .

الشبهة الثانية والجواب عنها :

احتجوا أيضًا بأن العبد يحدث إرادته ، وليست مخلوقة لله ، والله مكّنه من

إحداث إرادته ، بأن خلقه كذلك ، وإلا لو لم يكن متمكنًا من إحداث ذلك ، فكيف يعاقبه على العصيان ، ويثيبه على الطاعة ؟ .

ومعلوم بداهة أن لو كان فعل العبد بإرادة الله وخلقه، لما جاز الثواب والعقاب ، فكيف يخلق فيه إرادة الشر والخير ويسوقه إليه ثم يثيبه أو يعاقبه ؟ .

والجواب أن نقول :

العبد بجملته مخلوق لله ، جسمه وروحه وصفاته ، وخلق على نشأة وصفة يتمكن بها من إحداث إرادته وأفعاله ، وتلك النشأة بمشيئة الله وقدرته ، وجعله محدثًا لإرادته وأفعاله ، ولذلك أمره ونهاه ، والعقاب والثواب يكون على هذه الأفعال والتروك التي مكنه منها وأقدره عليها ، فكان مريدًا شائيًا بمشيئة الله له ، فالرب أعطاه مشيئة وقدرة وإرادة ، وعرَّفه ما ينفعه وما يضره ، وأمره أن يجري مشيئته وإرادته في الطريق التي يصل بها إلى غاية صلاحه ، فإجراؤها في طريق هلاكه ، هو بمنزلة من أعطى عبده فرسًا يركبها ، وأوقفه على طريق نجاة وهلاك ، وقال : أجرها في هذه الطريق، فعدل بها إلى الطريق الأخرى ، وأجراها فيها ، فغلبته بقوة رأسها وشدة سيرها ، وعز عليه ردها ، وحيل بينه وبين إدارتها مع اختيارها وإرادتها .

أو نقول : إن الله لم يسلب العبد حريته وإرادته كما تقول الجبرية ، ولم يطلق له التصرف والحرية التامة كما تقول القدرية ، بل أعطاه حرية وإرادة محدودتين ، فجاء الثواب والعقاب على ما منح من تلك الحرية المحدودة ، لأنه لو سلبه الحرية لأصبح كالجماد ، أو كالريشة المعلقة في الهواء ، تصرفها الأرياح كما تشاء ، فلا يكون مسؤولاً عما يأتي ويذر ، ولا يستحق ثوابًا ولا عقابًا ، لأنه غير مختار ، كما قيل على لسان الجبرية :

ما حيلة العبد والأقدار جارية عليه في كل حال أيها الرائي
ألقاه في اليمِّ مكتوفًا وقال له إياك إياك أن تبتل الماء

ولو أطلق له الحرية لاستلزم الاستقلال التام والقدرة القاهرة والعلم المحيط، وذلك ليس إلا لله، فالعبد وإن كان حرًا في الإرادة بقدر ما، لكنه واقع تحت إرادة الله ومشيئته .

وإلى القارىء مثالاً للتوضيح :

نقول : مثله كمثل بعض الحكومات التي هي مستقلة في داخليتها ، مختارة فيما تدير به شئون رعاياها ، لكنها مشمولة بحماية بعض الدول الكبرى ، مسئولة إذا لم تقم بما يفرض عليها من تلك الدول الكبرى ، مع أنها مختارة فيما تحت يدها .



شبه الجبرية

الشبهة الأولى والجواب عنها :

قالوا : قال الله تعالى : ﴿ **فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [إبراهيم : ٤] ، أفلا يدل ذلك على أن الهدى والضلال بيد الله ، وليس للعبد فيهما كسب ولا عمل ؟ .

الجواب :

إنه من الثابت بالبداهة والعقل والمشاهدة والإحساس أن للعبد عملاً اختياريًا ، يفعل ما يشاء ، ويترك ما لا يشاء ، فمن حيث أن الله سبحانه دعاهم إلى طريق الخير وسبيل الهداية على لسان رسله في كتبه المنزلة ، بعد أن منحهم من أنواع الهدايات ما فيه بلاغ ، فأبوا أن يستجيبوا لداعي الحق ، واستكبروا أن يسلكوا سُبل الرشد ، فلا جرم أن يتركهم وما اختاروا لأنفسهم ، فلا يأتي إضلاله إياهم إلا بعد اتجاههم إلى الشر ، وإعراضهم عن الخير ، قال تعالى : ﴿ **وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)** ﴾ [البقرة :٢٦ ، ٢٧] .

فترون - في هذا النص الكريم - أن الذين وقع عليهم الإضلال هم الموصوفون بما ذكر ، فالإضلال قد وقع على فاسقين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض ، فهو نتيجة مترتبة على مقدمات أتوا بها ، ومسبب عن أسباب ، وهو ليس إلا تركهم يسيرون في الطريق الذي اختاروا سلوكه .

ولو وقع الإضلال على صالحين ، يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويصلحون في الأرض ، لقلنا : إن الله أرغمهم على الضلال ... وحاشا لله .

فمن اتجه إلى الخير وأخذ بأسبابه هيأ الله له ، ومن اتجه إلى الشر وتعلق بوسائله

ولاه الله ما تولى ، وتركه وما اختار ، كما أن من حرث التين زرع الله له التين ، ومن حرث الشوك زرع الله له الشوك ، وكل يجني ما غرست يداه ، ولا يظلم ربك أحداً .

الشبهة الثانية والجواب عنها :

وهي حول قول الله تعالى : ﴿ **أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)** ﴾ [الصافات : ٩٥ ، ٩٦] .

فقالوا : إن ﴿ **مَا** ﴾ مصدرية ، والتقدير خلقكم ، وخلق عملكم .

الجواب :

ما كان الله ليلهم الكفار من قوم إبراهيم الحجة عليه بعد أن آتاه الحجة عليهم ، وأراه ملكوت السموات والأرض ، فكان من الموقنين ، إذ لو كان إبراهيم عليه السلام يريد المعنى الذي ذهب إليه أولئك المفسرون ، لرد عليه قومه قائلين ، فما بالك تلومنا على أمر لا إرادة لنا فيه ، ولا قدرة لنا عليه ، ولا حيلة لنا في الخلاص منه ، فالله خلقنا ، وخلق علمنا ، أي عبادتنا للأصنام ، فلا توجه إلينا في ذلك كلام ، ولا تصوب إلينا سهام العتاب والملام ، ولو كان إبراهيم يقصد ذلك المعني لقامت الحجة عليه ، ولاستطاع قومه أن يفحموه ، وما استطاع أن يرد عليهم .

ولكن التفسير الصحيح للآية الكريمة ، التفسير الحق الذي يساير نصوص القرآن الكريم ولا يجافيها ، ويوافقها ولا ينافيها أن تقدر ﴿ **مَا** ﴾ اسمًا موصولاً واقعًا على الأصنام المنحوتة ، ويكون التقدير : « أتعبدون هذه الأصنام التي تنحتونها بأيديكم ، والله خلقكم وخلقها ؟ .

فالأصنام مخلوقة لله بمادتها ، وهي الحجر ، ومعمولة لهم بصورتها ، فالله تعالى خلق الحجارة ، وهم نحتوها وعملوها تماثيل وأصنامًا يعبدونها من دون الله .

وبهذا التفسير نهضت حجة إبراهيم على قومه ، وكانت حجتهم داحضة ، هذا هو المنطق الذي يساير حجة القرآن الناهضة وآياته البينات .

هذا هو التفسير الموائم لهذا الاستفهام الإنكاري الذي يوجهه إبراهيم إلى قومه ، منكرًا عليهم عبادة أصنام ينحتونها بأيديهم ، فكأنه يقول لهم : أيسوغ في قضية

العقل ، أن تعبدوا الأصنام التي تنحتونها بأيديكم ، وتتركوا عبادة الله الذي خلقكم وخلقها ؟ ، أي خلق الحجارة التي تتخذون منها الأصنام التي تنحتونها ، وتعملونها تماثيل لأوليائكم ومعتقديكم تعبدونها من دون الله .

الشبهة الثالثة والجواب عنها : إرادة الله :

قد يلوم أحدكم بعض من يقترفون المنكر،فيدفع عن نفسه بقوله :هذه إرادة الله؟ .

الجواب :

أجل هذه إرادة الله ، ولكن الله يكره من عباده أن يعملوا الشر ، وإن وقع بإرادته ، إذ لا يقع في ملكه إلا ما يشاء ، وليس معنى المشيئة أن يحب ذلك الشر ، بل معناها أن الشر لا يقع على الرغم منه ـ وحاشا له ـ .

وإرادة الله تعالى لا ترغم العبد على فعل الشر، ولو أن العبد فعل الخير بدل الشر ، لكان فعل الخير بإرادته سبحانه أيضًا ، فالله سبحانه بعد أن أنزل الكتاب ، وأرسل الرسول ﷺ ، وبين الحلال والحرام ، وأخبر بما أعد للمطيعين، وما اعتد للعصاة المارقين، ترك العباد لاختيارهم ، كما قال تعالى :﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف : ٢٩] .

ترك الله العباد لاختيارهم، وإن كان يحب منهم أن يأتوا الطاعات ، ويكره أن يأتوا المعاصي ، فالطاعات والمعاصي تقع من العبد بإرادة الله ومشيئته ، أي بغير أن يكون مكرهًا على وقوعها ، كما أن مشيئته تعالى لم تكره العبد على المعصية التي تقع منه .

وبعد أن قدمت الكلام في القضاء والقدر وأفعال العباد ، وقفت على كلام نفيس للشيخ أبي الوفاء محمد درويش في رسالة مستقلة وإلى القاري تلخيص ما ذكره .



الإنســـان والأقـــدار

الأقدار المحيطة بالإنسان على ثلاثة أنواع :

الأول : نوع لا يستطيع الإنسان دفعه مهما يكن له من القوة والبطش ، ولابد أن ينفذ وأنف الإنسان راغم .

الثاني : نوع لا يمكن الإنسان أن يقاومه كل المقاومة ، ولكن يمكنه تخفيف حدته وتلطيف شدته .

الثالث : نوع جعل الله في وسع الإنسان أن يدفعه ، بل أوجب عليه أن يدفعه ، وأن يبذل في سبيل ذلك كل ما يملك من قوة وجهد .

وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل ، وإلى حضراتكم تفصيل هذا الإجمال :

النوع الأول :

أما القدر الذي هو وراء قدرة الإنسان ، ولا تناله قوته ، ولا يستطيع دفعه مهما يكن له من القوة والسلطان ، فهو القدر المتصل بنواميس الكون وقوانين الوجود ، وهو القدر الغالب ابتداء وانتهاء ، فليس في وسع إنسان أن يوقف دورة الفلك ، أو يأتي بالربيع مكان الخريف ، أو بالشتاء مكان الصيف .

سُنن الوجود :

ومن ذلك أن أن يولد الإنسان لفلان دون غيره ، ومن فلانة دون غيرها ، وفي هذا البلد بالذات ، وفي هذا الإقليم دون سواه ، وفي هذا العصر دون سابقه أو لاحقه .

وأن يكون أبيض اللون أو أسمره ، طويل القامة أو قصيرها ، ذكيًا أو غبيًا ، أو غير ذلك من الأمور التي هي فعل الأقدار وحدها ، وليس للإنسان يد في إحداثها ، ولا قدرة له على تغييرها أو الخلاص منها .

ومن أجل ذلك لم يكلف الله الناس شيئًا من هذا في أية شريعة من شرائع المنزلة ، إذ ليس في وسع أحد أن ينهض به : ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ .

[البقرة : ٢٨٦] .

ذلكم هو القدر الذي يشير إليه الله سبحانه بقوله تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)** ﴾ [الحديد : ٢٢ ، ٢٣] ، وبقوله تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١)** ﴾ [التغابن : ١١] .

فلو تدبرنا هذه الآيات حق تدبرها ، لوجدناها تنطق بالحق ، وتشهد بالصدق ، وتعلن في صراحة وجلاء أن الله تبارك وتعالى يدير الكون بعلمه وحكمته وقدرته ومشيئته ، فلا يقع فيه شيء إلا بإذنه ، ولوجدنا فيها عزاء للذين تعتريهم الكوارث ، وتمسهم النكبات ، إذ تنزل السكينة في قلوبهم ، وترد إليهم عازب الصبر ، وتلهمهم الرضا والتسليم ، ولوجدنا فيها كذلك كبحًا لجماح النفوس السادرة في غلوائها ، المدللة بما خوَّلها ربها من الخير والنعمة والتي يستهويها شيطان الغرور ، فينسيها شكر المنعم وحمد المتفضل .

النوع الثاني :

أما القدر الذي لا يستطيع الإنسان أن يقاومه كل المقاومة ، ولكن في إمكانه تخفيف حدته وتلطيف شدته ، فهو ما يتصل بالغرائز والبيئة والوراثة وما إلى ذلك ، فهو غالب ابتداء ، ولكنه مخير انتهاء .

وتوضيح ذلك :

إن الله تعالى قدر على الإنسان غريزة حفظ الذات ، وهذه الغريزة جامحة طاغية عنيفة ، لو ألقى حبلها على غاربها لاقتحمت بالإنسان مخاطر ومُهلكات ، ودفعته إلى أن يظفر بكل ما تمكنه قوته من الظفر ، غير مُبال ولا حافل بسواه .

لم يفرض الله تعالى على الإنسان أن ينتزع هذه الغريزة من جذورها ، أو يقتلعها من أصولها ، لأنها قدر غالب ، لا سبيل إلى دفعه ، ولكنه أمره أن يكبح جماحها ، ويردها عن طغيانها ، **وعلمه كيف يخفف من حدة هذا القدر ، وكيف يلطف من** جموحه ، فقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن**

تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) ﴾ .
[النساء : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠) ﴾[النساء : ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٦٨) ﴾[البقرة : ١٦٨] .

فترون في هذه النصوص الحكيمة أن الله سبحانه حظَّر على الإنسان أن يعتدي على حق غيره ، وأن لا يأكل ما لم يكسبه من طريق طيب مباح ، وبذلك خفف من حدة هذه الغريزة ، وحد من طغيانها .

وهنا يشعر الإنسان بأنه حر ، مُخير بين أن يستجيب لداعي الغريزة الجموح ، وأن يستجيب لأمر الله الحكيم الذي لم يكلفه إلا ما له به طاقة ، وقدر سبحانه عليه غريزة حفظ النوع ، وهي كذلك جامعة شرود طاغية ، فلو أرخى لها العنان لأصاب الرجل كل امرأة تروقه ، واستسلمت المرأة لكل رجل يحظى بإعجابها .

وكذلك لم يكلف الله الإنسان أن يجتث هذه الغريزة من عروقها ، لأن ذلك قدر غالب لا قبل للإنسان بمقاومته والخروج على أحكامه ، ولكنه تعالى كلفه المستطاع ، وهو الحد من طغيان هذه الغريزة ، وكبح جماحها ، وتدبير أمرها ، فحرَّم الزنا ، وحرَّم أنواعًا من النساء تحريمًا مؤبدًا ، وحرم أنواعًا منهن تحريمًا مؤقتًا ، وأباح سائرهن بشرط الإيجاب والقبول والمهر والشهود ، وإذن الولي ، وإيراد النصوص يطول به الحديث ، ولا يتسع له الوقت ، وهي معلومة لحضراتكم جميعًا .

النوع الثالث :

وهو الأقدار التي أوجب الله على الإنسان أن يدفعها ، فهي الأقدار المخيرة ابتداء وانتهاء .

وإليكم البيان :

جاء رسول الله ﷺ قومه بالهدى ودين الحق ، فكذبوه ورموه به ، وحاولوا دون

نشر دعوته وإعلان كلمة الحق ، ولا جرم أن ذلك كله من قدر الله ، فماذا كان أمره عليه الصلاة والسلام ؟ .

أتظنون أنه خضع لأحكام هذا القدر، أو استسلم لسلطانه ؟! ، أتظنون أنه ترك حبل الدعوة على غاربها ، وقبع في كسر بيته انتظاراً لما تأتي به الأقدار ؟ ، كلا ، بل قاوم وجاهد وقاتل وأنفق جهد طاقته لينحي أعداء الحق من طريقه حتى أيده الله بنصره ، وذلك من قدر الله أيضًا ، فها نحن رأينا الرسول ﷺ قد دفع قدراً بقدر ، ونحن في كل حين ندفع أقداراً بأقدار .

فالجوع مثلاً من القدر ، وندفعه بقدر الطعام ، والعطش من القدر ، وندفعه بقدر الشرب ، والمرض من القدر ، وندفعه بالدواء ، وهو من القدر ، ولو أن امرءًا استسلم لقدر الجوع أو الظمأ وهو قادر على دفعه أو دفعهما ثم مات ، فإنه قد مات عاصيًا لله تعالى الذي نهاه عن أن يلقي نفسه إلى التهلكة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

وقد أفصح رسول الله ﷺ عن هذا كل الإفصاح ، وأوضحه كل الإيضاح ، حين قيل: يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ؟، ورقى نسترقي بها ؟، وتقي نتقي بها؟ ، أترد من قدر الله شيئًا ؟ ، فقال ﷺ : « **هي من قدر الله** » .

فاسمعوا إلى هذا الجواب الحكيم ، الذي يحفز الأمم إلى العمل النافع ، واتخاذ الأسباب ، والإمعان في الحذر ، وقد قال أبو عبيدة لعمر بن الخطاب حين أراد الفرار من الطاعون من الشام : أتفر من قدر الله ؟ ، قال : نعم ، أفر من قدر الله إلى قدر الله ، فيا له من جواب سديد .

قال تعالى في الثناء على المؤمنين : ﴿ **وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢)** ﴾ [الرعد : ٢٢] ، فقد أخبر عن المؤمنين أنهم يدرأون بالحسنة السيئة ، والسيئة من قدر الله، والحسنة التي يدفعون بها من قدر الله ، فهم يدفعون قدراً بقدر .

وقال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، فقد أمر الله بإعداد المستطاع من العدة إرهابًا للعدو ، والمستطاع هو ما يدخل في قدرة الإنسان وإمكانه واختياره ، وكل هذه من دفع الأقدار بالأقدار ، قدر الله سبحانه أن الحذر سبب الظفر في الدين ، وبالنعيم في الآخرة ، فإن قصرنا في عمل كان في وسعنا أن نعمله ، وحاق بنا تقصيرنا ، كنا خلقاء باللوم والتثريب ، وأحرياء بما أعد الله للمقصرين من الخيبة في الدنيا ، والعذاب الأليم في الآخرة ، فكل امرئ يدرك إدراكًا تامًا الفرق بين ما يأتيه وما يذر ، وما يُصيبه وليس له فيه اختيار ، ومن أنكر هذا فقد سفه نفسه وأنكر عقله .

ومن عجب أن القدر لا يخطر ببال إنسان في كل هذه الأمور إلا إذا اقترف سيئة ، ليحمل الأقدار تبعة ما جنى وجريرة ما اقترف ، ولولا أن الإنسان يشعر كل الشعور بأنه مختار فيما يأتي وما يذر ، ولولا أن الطاعات في وسعه وفي إمكانه ، لما نزلت الشرائع ، ولا جاءت الأوامر والنواهي ، ولا أنزل الله الكتب ، وأرسل الرسل ، ولا جعل جنة ونعيمًا ، ونارًا وجحيمًا .

ولو كان مُجبرًا على الأعمال الاختيارية ، لبطل الثواب والعقاب ، والأمر بالنهي عن المنكر .

سؤال وجواب

كيف توفق بين قول الله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾[النساء : ٧٨] ، وقوله له العزة : ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[النساء : ٧٩] ؟ .

الجواب :

ذلك أن المنافقين والكافرين الذين كانوا بالمدينة بعد أن هاجر النبي ﷺ إليها ، كانوا إذا أصابتهم حسنة من نزول غيث ونماء زرع وجودة حاصل ، قالوا : هذه من عند الله ، زاعمين أن الله تعالى ما أنعم بها عليهم إلا لكرامتهم عليه ومنزلتهم عنده ، وإذا أصابتهم شدة من احتباس مطر أو جفاف زرع ، قالوا : هذه من عند محمد ، أي أنهم كانوا يتشاءمون بقدومه ، ويتطيرون بدعوته ، فرد الله عليهم مقالتهم الخاطئة الآثمة ، وقال تعالى مخاطبًا نبيه الكريم : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[النساء : ٧٨] ، أي : أن كلاً من الحسنة والسيئة من عند الله ، لوقوعها في ملكه على حسب ما وضع من النواميس ورتب من السُّنن .

وبعد أن بيَّن سبحانه حقيقة الأمر في الحسنة والسيئة بالنسبة إلي موضوعهما وقوانين الوجود ، وسُنن الله تعالى فيهما ، وأوضح تعالى أن كل شيء مما يحسن وقعه عند الناس أو يسوؤهم بهذا الاعتبار ، يضاف إلى رب العزة ، لأنه مسبب الأسباب وواضع النواميس والسُّنن ، أراد سبحانه أن يبين حقيقة الأمر فيهما من وجه آخر فقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) ﴾[النساء : ٧٩] ، ومعنى هذا أن كل حسنة تصيب العبد ، من صحة وعافية ورزق واعتدال زمان وخصب أرض ونزول غيث وغير ذلك ، مما يحسن عنده وقعه ، فهي من محض فضل الله عليه ، فهو الذي سخر له المنافع التي بها حياته وحياة ما ينتفع به من حيوان ونبات ، وكل سيئة تصيب العبد فهي من نفسه ، لأنه أوتي قدرة على العمل ، واختيار في تقدير الباعث عليه من درء المضار وجلب المنافع ، وإيثار بعض المقاصد ، فيخطيء ويوقعه الخطأ فيما يسوؤه .

فإذا أساء العبد التصرف في عمله ، وفرط في النظر في شئونه ، فوجهها بسوء اختياره إلى ما يضره ، فحق أن ينسب إليه ما جني على نفسه ، ويقال له : ﴿ **وما أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾ .

وهنا حقيقتان متفقتان ينبغي تدبرهما وفقههما :

الأولى : إن كل شيء من عند الله ، بمعنى أنه خالق الأشياء التي هي مواد المنافع والمضار ، وأنه واضع النظام والسُنن ، ومسبب الأسباب التي توصل إلى هذه الأشياء بسعي الإنسان واختياره ، وكل شيء بهذا الاعتبار فهو حسن ، لأنه مظهر الحكمة والنظام والإبداع الإلهي .

الثانية : إن الإنسان لا يقع في شيء يسوؤه إلا بتقصيره في استبانة الأسباب ، وتقصيره في تعرف السُنن والأحكام .

فالمرض - مثلاً - من الأمور التي تسوء الإنسان ، وهو لا يصيبه إلا بتقصيره في السير على سُنن الفطرة في الغذاء والعمل ، فقد ينشأ من تخمة سببتها شهوته ، أو من إفراط في التعب أو الراحة ، أو من عدم اتقاء أسباب الضرر كالتعرض للحر أو البرد الشديدين ، فإذا قصر الإنسان في العلم ، وأساء الاختيار في استعمال قواه في غير ما يقتضيه نظام الفطرة وحاجة الطبيعة ، وقع فيما يسؤوه ، وكان على نفسه جانياً .

مثال :

أضرب لحضراتكم مثلاً : شاب منحه والده مالاً يستثمره ، ويصلح به شأنه ، فصار به غنيًا ، فيحق أن يقال : إن هذا الخير من عند أبيه .

فإن هو أساء التصرف في هذا المال ، وطفق ينفقه في اللهو والفساد ، وعرضه بذلك للضياع ، فعلم به والده فاسترد منه ما بقى ، وتركه يعاني الحرمان ، فلا جرم أنه يحق أن يقال : إن نفسه هي التي جنت عليه .

فالواهب والمسترد في الحقيقة واحد وهو الوالد ، ولكن نفس الولد جنت عليه حين عرضته لاسترداد المال منه لما ورطته فيه من أسباب الفساد ، وإذًا فسيئة هذا الولد على نفسه .

وأظنني بهذا البيان قد تمكنت ـ بتوفيق الله ـ أن أوفق بين هاتين الآيتين الكريمتين ، فكل شيء من الله أصلاً ووضعًا .

والعبد هو الذي يجلب الشر لنفسه ، لأنه لم يصرف نعم الله إلى ما وهبت من أجله . أ . هـ[١] .

---

(١) أ . هـ . من القضاء والقدر ، للشيخ أبي الوفاء محمد درويش .

فصل

موقف السلف من القضاء والقدر

وبعد فالواجب على المسلم التسليم بما جاء عن النبي ﷺ والسلف رضي الله عنهم في القضاء والقدر ، والبعد عن الجدل والنقاش العقيم الذي لا جدوى منه حتى يسلم في دينه ، **وإليك البيان بإيجاز :**

موقف السلف :

يرى السلف أن الخوض في القدر على هذا النحو الذي تناوله به المتكلمون ، هو خروج عن الشرع الذي جعل القدرة من الأصول الإيمانية التي يجب اعتقادها ، والتسليم بها دون مماراة أو جدل ، ولم يأذن الشرع للعقل بالخوض فيه ، لما يترتب على ذلك من الهلاك في الدين ، فالقول بالاختيار المطلق واستقلال الإنسان بإرادته وقدرته يؤدي إلى الغرور والاستعلاء،مما ينتهي بالإنسان إلى التكبر والاستهتار بالدين، والقول بالجبر المطلق يؤدي إلى التنطع والاستهتار والإلحاد والزندقة .

فالقول إذًا بالاختيار مثل القول بالجبر المطلق ، كلاهما يؤدي إلى نفس النتيجة ، وما ذلك إلا بسبب الخوض في أمور نهى الشرع عن الخوض فيها ، فالقدر سرٌ من أسرار الله في خلقه التي لا يجب بل لا يجوز الاشتغال بكشف الحجاب عنها ، لأنه إن حاول ذلك لن يكون إلا كناظر في عين الشمس ، لن يزيده النظر إلا حيرة وعماء .

يقول الشيخ الطحاوي : « وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه ، لم يطلع على ذلك مَلَكٌ مُقرب ولا نبيٌ مُرسل ، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك ، نظرًا وفكرًا ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن آنامه ، ونهاهم من مرامه ، كما قال تعالى في كتابه : ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** (٢٣) ﴾[الأنبياء : ٢٣] ، فمن سأل لِمَ فعل ؟ ، فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين [١] .

---

(١) شرح الطحاوية (ص ٤٩٣) .

وموقف السلف هذا أخذوه عن صاحب الشرع ﷺ ، ففيما رواه مسلم وأحمد أن الرسول ﷺ خرج على أصحابه ، وهم يتناظرون في القدر ، ورجل يقول : ألم يقل الله كذا ؟ ، ورجل يقول : ألم يقل الله كذا ؟ ، فكأنما فقيء في وجهه حب الرمان ، فقال : « **أبهذا أُمرتم ؟! ، إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما نزل كتاب الله يصدِّق بعضه بعضًا ، لا يكذب بعضه بعضًا ، وانظروا ما أُمرتم به فافعلوه ، وما نُهيتهم عنه فاجتنبوه** » .

وأخرج الهروي من طريق عمر بن شعيب عن أبيه عن جده فيما رواه الترمذي ، قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون في القدر ، فخرج مغضبًا حتى وقف عليهم ، فقال : « **ياقوم ، بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، وإن القرآن لم ينزل ليُضرب بعضه ببعض ، وإنما نزل القرآن يصدق بعضه بعضًا ، ما عرفتم منه فاعملوا ، وما تشابه فآمنوا به** » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه فيما رواه الترمذي ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر ، فغضب حتى احمر وجهه ، ثم قال : « **إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعو في هذا الأمر ، عزمت عليكم أن لا تنازعوا** » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا داود بن أبي هند ، عن عمر بن شعيب عن أبيه ، عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر ، قال : فكأنما فقيء في وجهه حب الرمان من الغضب ، قال : فقال لهم : « **مالكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض ؟! ، بهذا هلك من كان قبلكم** » ، قال : فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله لم أشهده ، بما غبطت نفسي بذلك المجلس أني لم أشهده . ورواه ابن ماجه أيضًا .

والرسول ﷺ يحدد بنفسه المنهج المناسب الذي يجب على المسلم اتخاذه في هذه المسألة حين يقول فيما رواه الطبراني : « **إذا ذكر القدر فأمسكوا** » .

من كل هذا يتضح لنا أن الطريق الصحيح في كل الأصول العقدية ومنها مسألة

القدر، هو الالتزام بالوحي،أما العدول عن هذا الطريق فهو خطأ علمي وديني،من أجل هذا التزم السلف الوحي في كل ما يتصل بالله وصفاته من غير سؤال بكيف ولم ؟ .

يقول صاحب شرح الطحاوية ـ رحمه الله ـ :

اعلم أن مبنى العبودية والإيمان بالله وكُتبه ورُسوله على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع ، ولهذا لم يحك الله سبحانه عن أُمَّة نبي صدقت بنبيها وآمنت بما جاء به ، أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه وبلغها عن ربها ، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها ، بل انقادت وسلمت وأذعنت ، وما عرفت من الحكمة عرفته ، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها وتسليمها على معرفته ، ولا جعلت ذلك من شأنها ، وكان رسولها أعظم عندها من أن تسأله عن ذلك ، كما في الإنجيل : « يا بني إسرائيل لا تقولوا لِمَ أمر ربنا ؟ ، ولكن قولوا : بِمَ أمر ربنا » ، ولهذا كان سلف هذه الأمة التي هي أكمل الأمم عقولاً ومعارف وعلوماً لا تسأل نبيها ﷺ : لِمَ أمر الله بكذا ؟ ، ولِمَ نهى عن كذا ؟ ، ولِمَ قدر كذا ؟ ، ولِمَ فعل كذا ؟ ، لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام ، وأن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم ، فأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به ، ثم العزم الجازم عن امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به، والحذر عن القواطع والموانع ، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه ، ثم فعله لكونه مأموراً ، بحيث لا يتوقف الإتيان به على معرفة حكمته ، فإن ظهرت له فعله وإلا عطله ، فإن هذا ينافي الانقياد ويقدح في الامتثال ، وقال ﷺ : « **من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يُعنيه** » [رواه الترمذي وغيره] أ . هـ [١] .

فالواجب على كل مسلم الإيمان بالقدر خيره وشره دون جدل أو بحث ، وأن يتجه بعد ذلك بكل طاقته إلى العمل بما أمر الله ، ثم يترك النتائج له سبحانه وتعالى ، مع الإيمان والتسليم بأن كل ما يقع له أو يصيبه هو مثل كل ما في الكون بقضاء الله وقدره ، فعلينا أن نشغل أنفسنا بما أمرنا به الله وأراده منا ، ولا نشغل أنفسنا بما أراده الله بنا ، أنه كما قيل : إن الله أراد بنا شيئًا ، وأراد منا شيئًا ، فما أراده منا أظهره لنا ،

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٢٩٠ ـ ٢٩١) .

وما أراده بنا طواه عنَّا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عمَّا أراده منَّا ؟!! .

والمسلمون يوم أن كانوا يشتغلون بما أراد الله منهم لا بما أراده لهم ، سادوا العالم، وكانت عقيدة الإيمان بالقدر طاقة دافعة لهم إلى الرقي والتقدم والسيادة بالحق والعدل ، فالإيمان بالقدر إذا تمكن في قلب المسلم ووعيه ، تحول إلى طاقة دافعة له نحو العمل والكسب والإقدام ، وإلى إزاحة كل العوائق التي تحول بينه وبين التقدم والرخاء والسيطرة والسيادة ، تملأ قلبه طمأنينة وثقة وعزمًا وجراءة لاعتقاده أن لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، فيصبح يد القدر الباطشة الغالبة .

وقد التقى رستم قائد الفرس بعربيٍ من طلائع جيش المسلمين ، فقال له : ما الذي أخرجكم من دياركم ؟ ، فقال العربي المسلم : ما لهذه الدنيا خرجنا ، بل كنا ضعفاء فقوانا الله ، وكنا ضالين فهدانا الله ، وأمرنا أن نبلغ الرسالة ، فإن دخلت فيما دخلنا فنحن وأنتم سواء ، وإلا فالسيف بيننا وبينكم ، فقال رستم : انظر إلى هذه الجيوش ، فنظر الرجل ساخرًا ، ثم قال : يا هذا ، إنك لا تحارب الناس ، ولكنك تحارب القدر ، فنحن قدر الله سلطنا عليكم [١] .

أما وبعد أن انشغل المسلمون بما أراده الله بهم عما أراده الله منهم ، انطفأت هذه الجذوة في قلوبهم ، وأصبحت رمادًا وتحولت عقيدة القدر من قوة مساندة دافعة إلى قوة مضادة معاكسة وإلى عامل من عوامل الإحباط والخمول واليأس والقنوط . أ . هـ . [٢] .

وبعد الانتهاء من الكلام في القضاء والقدر ، استلزم الأمر الكلام في الرزق .



---

(١) نظرات في السيرة (ص ٣٦) ، حسن البنا ، مكتبة الإعتصام ، القاهرة سنة ١٩٧٩م .

(٢) من « منهج السلف في العقيدة » د . حمدي عبد العال .

فصل
في الرزق

والرزق ما به انتفاع قد حصل — فخذ بقولنا ودع أهل الخطل
وعندنا الحلال والمحظور — رزق وقول غيرنا محذور
فالرزق ما يسوقه الكريم — لعبده الضعيف يا عليم
من الحلال أو من الحرام — بغير رزق ليس في الأنام

[ش]: الرزق بمعنى الشيء المرزوق عند أهل السُّنَّة، وهو ما ساقه الله إلى الحيوان ، فانتفع به بالفعل ، وبيَّن في النظم أن الرزق ما انتفع به العبد بالفعل سواء كان من حلال أو من حرام .

وقالت المعتزلة : الحرام ليس برزق ، وفسروه تارة بمملوك يأكله المالك ، وتارة بما لا يمنع عن الانتفاع به ، وذلك لا يكون إلا حلالاً .

ويرد عليهم على التفسير الأول :

إنما ما تأكله الدواب ليس برزق ، وعلى الثاني : إن من أكل الحرام طول عمره لم يرزقه الله أصلاً ، وتصور هذا القول كاف في فساده ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** ﴾ [هود : ٦] ، وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾** ﴾ [الذاريات : ٥٨] ، ولا يرد على قولنا السابق ما انتفع به العبد ، فقوله تعالى : ﴿ **وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [البقرة : ٣] ، فإنه يقتضي أنه لا يعتبر في الرزق الانتفاع بالفعل ، لأن المراد به المعنى اللغوي ، فالمعنى ومما أعطيناهم ينفقون ، أو المراد به ما هيىء لكونه رزقًا .

فقولنا : والرزق ما به انتفاع قد حصل خرج به ما لم ينتفع به بالفعل ، فمن ملك شيئًا ، وتمكن من الانتفاع به ، ولم ينتفع به ، فليس ذلك الشيء رزقًا له ، وإنما يكون رزقًا لمن ينتفع به فعلاً .

وللشيخ تقي الدين تفصيل نفيس قال : والرزق يراد به شيئان :

أحدهما : بيان ما ينتفع به العبد ، وهذا هو المذكور في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** ﴾ [هود : ٢] .

والثاني : ما يملكه العبد ، وهذا هو المذكور في قوله تعالى : ﴿ **وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [البقرة : ٣]، وقوله تعالى : ﴿ **أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ** ﴾ [البقرة : ٢٥٤] ، والعبد قد يأكل الحلال والحرام ، فهو رزق باعتبار الأول لا الثاني . أ . هـ .

حالة العالم قبل البعثة المحمدية
والحاجـــة الماســـة إلى إرســـال رســـول

الناس من عـــرب ومن عـــجم ... قبل الرسول الهاشمي التّهامي
حـــالتـــهم كـــانت بلا جـــدال ... سيـــئـــة من أسـوأ الأحـــوال
وإن تقل وضح لما تقـــــول ... فـــاســـمع إذًا مني مـــا أقـــول
قـــد عم الإشـــراك مع الكفـــران ... لربنا الخـــــلاق والمنـــان
من ساكني الغبـــرا بلا استثناء ... العـــرب والعـــجم على الســـواء
وعـــمت المظالم العـــبـــادا ... في كل قطر والفـــســـاد ســـادا
واشـــتـــعلت نار الحـــروب والفتن ... بين الســـلاطين لذلك الزمن
كم ســـفكوا من الدمـــا ونهـــبـــوا ... أمـــوالهم وللذراري سلبـــوا
قـــد حـــرف التـــوراة والإنجـــيـــلا ... أحـــبـــارهم وروجـــوا التـــضليـــلا
ترأســـوا العـــوام للحطام ... وخـــالفـــوا شـــريعـــة العـــلام

الشرح :

العالم كان في حالة سيئة يرثى لها بعد أن رفع الله المسيح عليه السلام إلى السماء ، وكانت الفترة بين رفع المسيح والبعثة المحمدية تقريبًا من ستمائة سنة،أي عام ٥٧١ م ، ففي هذه الفترة قد عم الشِّرك بالله العظيم والكفر سائر الأرجاء والبلدان ، من عبادة الأصنام والكواكب والأحجار ، وعمت المظالم من الملوك والرؤساء من أجل المطامع الدنيوية والتهالك على الرئاسة والسلطة ، فأشعلوا نيران الحروب لأتفه الأسباب ، وكم سفكوا بها من الدماء ، ونهبوا ما بها من الأموال والذراري ، ولم يكن إذ ذاك في الأرض دين على حق سوى دين المسيح عليه السلام، لأن دين موسى نسخه دين عيسى ، وكان الواجب على اليهود أن يتبعوا عيسى عليه السلام،ولكنهم قد عاندوا وتجبروا وتكبروا، وجرى منهم ما جرى مع عيسى حتى أرادوا قتله ، فألقى الله الشبه على غيره ، ونجاه من كيدهم ورفعه إلى السماء .

ودين عيسى كان على حق ، وإن كان أكثره يرجع إلى التوراة ، وإنما جاء عيسى بتبديل بعض الأحكام ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠)** ﴾[آل عمران : ٥٠] ، ولكن سرعان ما قد بدل الأحبار المسيحيون وحرفوا في كتاب الله كما فعلت من قبلهم أحبار اليهود ، من أجل أن يترأسوا على العوام ، ويسلبوا الأموال باسم الزعامة الدينية وباسم الكنيسة ، ولم يبق على دين عيسى الصحيح قبيل البعثة المحمدية إلا نفر قليل كما في قصة سلمان الفارسي ، إذ أنه خرج من أصفهان يريد أن يدخل في دين المسيح لما رأى الكنيسة في بلاده يتعبد فيها بعض المسيحيين ، وعندما جاء بلاد الشام دُلَّ على راهب ، فأقام عنده مدة من الزمن ، ولما وافته المنية قال له سلمان : دُلَّني على من يرشدني إلى الحق ، فقال : لا أعلم من يكون على دين المسيح الصحيح إلا فلان الراهب بأرض الموصل ، فجاءة وأقام عنده مدة من الزمن ، ولما نزل بالراهب بأرض الموصل ، فجاءه وأقام عنده مدة من الزمن ، ولما نزل بالراهب الموت دله على راهب آخر ، ولما جاء دور الثالث قال : لا أعلم من بقي على دين الحق ، ولكن عن قريب سيظهر نبي من العرب ، ووصف له أرض المدينة ، وأنها ذات سبخة ونخل وحجارة سوداء ، وأنه يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وأن بين كتفيه خاتم النبوة ، ولما رأى سلمان تلك العلامات في الرسول ﷺ أسلم .

فإذا كانت هذه حالة الديانات السماوية ، فكيف بالأديان الوضعية من الزرادشتية والبوذية والمجوسية ؟ .

وإلى القارىء مزيداً من البيان عن أحوال الروم والفرس والهند والعرب ، لأن هذه الأمم كانت مجاورة للجزيرة العربية ولا سيما الروم والفرس ، فلقد كانوا يمتزجون بالعرب ، والعرب يمتزجون بهم .

الـــروم :

كانت الروم تدين بالمسيحية ، ولم تكن في يوم من الأيام من التفصيل والوضوح ومعالجة قضايا الإنسان ، بحيث تقوم عليه الحضارة ، أو تسير في ضوئه دولة ، ولكن فيها آثارة من تعاليم المسيح ، وعليها مسحة من دين التوحيد البسيط ، فجاء بولس

فطمس نورها وطعمها بخرافات الجاهلية التي انتقل منها ، والوثنية التي نشأ عليها ، وقضى قسطنطين على البقية الباقية ، حتى أصبحت النصرانية مزيجًا من الخرافات اليونانية والوثنية والرومانية والأفلاطونية المصرية ، اضمحلت في جنبها تعاليم المسيح البسيطة ، كما تتلاشى القطرة في اليمّ ، وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية ، وتحكمت القساوسة والرهبان في الجهلة والعوام ، وفرضوا عليهم تقديسهم واحترامهم حتى أحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال ، فأطاعوهم لذلك وقدسوهم كالآلهة ، حتى سجدوا لهم من دون الله ، ونذروا لهم الأموال الطائلة ، وأوقفوا على كنائسهم العقارات الهائلة ، وحرفوا الإنجيل واختلفوا فيه حتى جعلوه بعد عدة سنين أربعة أناجيل ، وهذه حالتهم الدينية .

أما حالتهم الاجتماعية والاقتصادية ، فقد قال الشيخ أبو الحسن الندوي :

بلغ الانحلال الاجتماعي والقلق الاقتصادي غايته في الدولة الشرقية الرومية ، وكثرت مصائب أهل البلاد ، وكانوا يتذمرون من الحكومات، ويمقتونها مقتًا شديداً ، ويفضلون عليها كل حكومة أجنبية ، ومع شدة الحاجة إلى الاقتصاد في الحياة ، أسرف الناس فيه ووصلوا في التبذل إلى أحط الدركات ، فأصبح الهمّ الوحيد اكتساب المال من أي وجه ، ثم إنفاقه في الترف وإرضاء الشهوات .

وذابت أُسس الفضيلة ، وانهارت دعائم الأخلاق ، حتى صار الناس يفضلون العزوبة على الحياة الزوجية ، ليقضوا مآربهم في حرية ، وكان العدل يباع ويساوم مثل السلع ، وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع .

يقول جيبون : في أواخر القرن السادس وصلت الدولة في ترديها وهبوطها إلى آخر نقطة .

الفُرس :

أما الفُرس فكانت تدين بالمجوسية وعبادة النار ، إضافة إلى ما فيها من الأديان الباطلة : كالإباحية والشيوعية التي أتى بها مزدك ، حتى أنهم أباحوا نكاح المحرمات ، كالأم والبنت والأخت ، فقد ذكر المؤرخون أن يزدجرد الثاني الذي حكم في أواخر القرن الخامس الميلادي ، تزوج بنته ثم قتلها .

وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنهم يجري في عروقهم دم إلهي ، فكان الفُرس ينظرون إليهم كآلهة ، ويرونهم فوق القانون ، وفوق الانتقاد ، وفوق البشر .

وكان المجتمع الإيراني مؤسسًا على اعتبار النسب والحرف ، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة ، لا يقوم عليها جسر ، ولا تصل بينها صلة .

ومجمل القول : أن حالتهم الدينية كانت سيئة ، لأنها عبادة النار ، وإباحة لا يقرها عقل ولا ذوق ، وحالتهم السياسية ما سمعت من غطرسة ملوكهم وكبرائهم ، وأنهم فوق البشر ، وأن لهم الحق ، وليس لغيرهم حق ، فنتج من ذلك ظلمهم لرعيتهم وتعسفهم وإهانة للإنسانية ، ما تنفطر منه الأفئدة ، وتذرف منه العيون دمًا على أولئك الذين لهم من التعاسة والشقاء تحت ظل حكمهم النصيب الأكبر ، وساءت الحالة الاجتماعية وأخذت تضعف ، فقد انشقت عصا الأمة بما فشا فيها من تشعب المذاهب عن ماني ومزدك الذي ادعى أن الله بعثه ليأمر بإباحة النساء والأموال بين الناس ، فنشأ عن ذلك كثير من الأخلاق الفاسدة ، وانتابهم تدهور عام ، وانحلت روابط سياستهم ، فأصبحت حكومتهم فوضى ، حتى تملك عليهم في خلال أربع سنين تسعة من ملوكهم (١) .

الهند :

أما الهند فقد كانت أسوأ وأحط من غيرها ، كثرت فيها الآلهة التي يعبدونها حتى تجاوزت الملايين ، وحتى عبدوا آلات التناسل ، وكان رجال بعض الفرق يعبدون النساء العاريات ، وتعبد النساء الرجال العُراة ، وكانت الإنسانية تنوء بالمنكرات والفضائح ، زد على ذلك نظام الطبقات الجائرة ، فلم يعرف في تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي أشد قسوة واستهانة بشرف الإنسانية من النظام الذي اعترفت به الهند دينيًا ومدنيًا .

ومن ذلك أنهم قسموا أهل البلاد إلى أربع طبقات :

[١] البراهمة : وهم الطبقة العليا ـ الكهنة ورجال الدين ـ .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، للعلامة الندوي ، بتلخيص وتصرف .

[٢] رجال الحرب .

[٣] رجال الزراعة والتجارة .

[٤] رجال الخدمة: وهذه الطبقة عليها خدمة الطبقات الثلاثة التي أعلى منها ، ولا يسوغ أن ينكح واحد منها امرأة من طبقة أعلى ، ولا أن يدخل معبداً من غير طبقته ، وهم المنبوذون ، وكان يُنظر إليهم بعين الاحتقار والازدراء .

وبلغ التدهور الأخلاقي والإنساني درجةً عاليةً ، حتى أضافوا إلى عبادة آلة التناسل مذهب إباحة النساء ، وقد بلغ بهم القبح أن الكاهن الهندي كان يختص بالعروس في أيامها الأولى لينشر على زوجها البركة والنعمة .

ولم تكن الصين وأوروبا وسائر ممالك الدنيا بأحسن مما كان عليه الفرس والروم والهند ، إن لم تكن أسوأ وأحط وأردأ [١] .

---

(١) أ . هـ . من المصدر السابق .

حالة العرب قبل البعثة المحمدية

ديانة للعرب الكرام عبادة الأوثان والأصنام
قد ألهّوا الأحجار والأشجارا والجن والملائك الأبرار
والقتل والسفك مع الغارات وحربهم والوأد للبنات
دام الخصام والشقاق والنزاع لا وحدة بينهم ولا اجتماع
وليس مرسل وليس مصلح يدعوهموا للخير حتى يفلحوا
فمست الحاجة للأنام أن يبعث الله إلى الأقوام
من يصطفيه هاديًا مُبشرًا لمؤمن وللكفور منذرًا
ليخرج الناس من الظلام والشرك والجور من الحكام
إلى الهدى ولنور والتوحيد والعدل في الأحكام للعبيد
فرحم العباد خلاق الورى فأرسل الرسول من أم القرى
محمد هو بن عبد الله سليل هاشم بلا اشتباه

الشرح :

أما العرب فكانوا أدهى وأمر في حالتهم الدينية والسياسية، واليك البيان :

أديان العرب قبل الإسلام :

العرب من عدنان وقحطان كانوا قبل ظهور عمرو بن لحي الخزاعي فيهم على بصيرة من أمرهم ، يتعبدون بشريعة خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقد تلقوها من ابنه إسماعيل عليه السلام، وهي الحنيفية التي جاء بها محمد عليه الصلوات والسلام ، وكانوا يعتقدون أن الله واحد لا شريك له ولا وزير ولا مُعين ولا ظهير ، موصوف بصفات الكمال كالحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام وغيرها من الصفات ، وكانوا يعتقدون بالبعث بعد الموت ، وقد آمنوا بكل ما أُنزل على نبيهم عليه الصلاة والسلام ، وكانوا يعتقدون أن الله واحد لا شريك له ولا وزير ولا مُعين ولا

ظهير ، موصوف بصفات الكمال ، كالحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام وغيرها من الصفات ، وكانوا يعتقدون بالبعث بعد الموت ، وقد آمنوا بكل ما أُنزل على نبيهم عليه الصلاة والسلام ، من أصول وفروع وأحكام ، وكانوا يُصلُّون ويصومون ويحجون ويزكُّون ، ويصلُون الأرحام ، ويُكرمون الأضياف ، إلى غير ذلك من الأخلاق الحميدة ، فلما طال الأمد وبعدوا عن زمن النبوة ، كثر فيهم الجهل ، وقَلَّت معرفتهم بما جاءت به شريعتهم ، وجروا على شهوات أنفسهم ، واتبعوا كل ناعق ، وراجت عليهم الآراء الفاسدة والمذاهب الخبيثة الكاسدة ، حتى افترقت كلمتهم كل الافتراق ، سيما بعد أن ظهر فيهم الخزاعي ، وشرع لهم من الدين ما لم يأذن به الله ، فهناك انقسمت العرب في التعبُّد إلى أقسام .

ابتداء عبادة الأصنام وسببها :

قال المؤرخون : لما كثر أولاد إسماعيل بمكة حتى ملؤوها ، ونفوا من كان فيها من العماليق ، فضاقت عليهم ، فوقعت بينهم الحروب والعداوات ، وأخرج بعضهم بعضاً فساحوا في البلاد لالتماس المعاش ، فكان أحدهم إذا أراد أن يظعن من مكة ، احتمل حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، فحيث ما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة صبابة بها وحبًا ، وهم على أثر أبيهم إسماعيل تعظيمًا للكعبة والحج والاعتمار ، ثم أن عمرو بن لحي ذهب إلى البلقاء وهي الأردن ، وكان مريضاً ، ونعتوا له عيناً حارة هناك يستشفى بها المرضى ، فأتاها فاستحم بها ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال : ما هذه ؟ ، فقالوا : نستقي بها المطر ، ونستنصر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منها ، ففعلوا ، فقدم بها إلى مكة ، ونصبها حول الكعبة ، ومن ذلك الحين فشت فيهم عبادة الأصنام ، وجاوزت إلى غيرهم من العرب ، حتى صارت أكثرية العرب تدين بعبادة الأصنام والأوثان (١) ، فحجوا إليها ونحروا لها الهدي ، وتقربوا إليها بالمناسك ، وأحلوا وحرموا مع إقرارهم بالخالق الرازق المحيي المُميت ، النافع الضار، وهو الذي يسمى توحيد الربوبية ، وهو الذي أقر به الكفار

---

(١) الفرق بين الصنم والوثن : أن المعمول من خشب أو ذهب أو فضة أو نحاس على صورة إنسان فهو صنم ، فإذا كان من حجارة فهو وثن .

جميعهم ، عبدوها بشبهة أنها تُقربهم إلى الله ، لأنهم ليس لهم أهلية أن يعبدوه[١] بلا واسطة .

عبادتهم للملائكة وللجن وللشمس وللقمر وللنار :

قلنا فيما سبق : أن أكثرية العرب كانت تدين بعبادة الأصنام والأوثان ، لكن وُجدَ منهم أفراد عبدوا الملائكة ، وقد رد الله عليهم بقوله تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾** ﴾ [سبأ : ٤٠ ، ٤١] .

ومنهم من عبد الجن : وهم شرذمة قليلة من أهل البوادي ، قد حكى الله ذلك بقوله : ﴿ **وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾** ﴾ [الجن : ٦] ، أي : كبراً وعتواً ، أو غيًّا وضلالاً ، بأن أضلوهم حتى استعاذوا بهم ، فإن الرجل كان إذا أمسى بقفر قال : « أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه » ، وقال تعالى : ﴿ **بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾** ﴾ .

ومنهم من عبد الشمس : زعم عُبَّاد الشمس أنها مَلك من الملائكة لها نفس وعقل ، وهي أصل نور القمر والكواكب ، وتكون الموجودات السفلية كلها عندهم منها ، وهي عند ملك الفلك ، فتستحق التعظيم والسجود والدعاء ، ومن شريعتهم في عبادتها أنهم اتخذوا لها صنماً ، بيده جوهرة على لون النار ، وله بيت خاص قد

---

(١) وهكذا في العصر وقبله من عصور ، يدعي عُبَّاد قبور الأنبياء والصالحين ، أنهم متلطخون بأرجاس الذنوب وهؤلاء لهم مكانة عند الله ، فلذا يتوسلون بهم ويستغيثون بهم في الشدائد ، ويشدون إليهم الرحال ، ويطوفون بقبورهم ، ويسألونهم قضاء حوائجهم ، وكشف ما نزل بهم ، وجهل هؤلاء أن هذه الشبهة هي شبهة مشركي العرب ، وقد حكى الله عنهم ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ** ﴾ [الزمر : ٣] ، ومع ذلك أمر الله رسوله ﷺ بجهادهم ، وأباح دماءهم وأموالهم ، إن لم يسلموا ويخلصوا العبادة لله ، ويا سبحان الله ! كيف يخفى توحيد الألوهية وما بعث الرسول والأنبياء من قبله إلا لدعوة المشركين إلى توحيد الألوهية ، وهو صرف جميع العبادة لله سبحانه وتعالى ، وما كان ينكر الخالق إلا فرقة قليلة من العرب تأثرت بمذهب الدهرية ، ولم يعتقدوا أن للعالم خالقًا أو مُدبرًا أو نافعًا أو ضارًا غير الله ، ولكن كان كل جدلهم حول توحيد الألوهية والبعث وإرسال الرسل ، والسور المكية تُكثر فيها الآيات الآمرة بتوحيد الألوهية ، وقصص الأنبياء مع أممهم في هذا الشأن .

بنوه باسمه ، وجعلوا له الوقوف الكثيرة وله سدنة ، فكان منهم من يأتي ذلك البيت ويصلي فيه ، ويأتيه أصحاب العاهات ، فيصومون لذلك الصنم ، ويدعونه ويتشفعون فيه ، وإذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها كما يسجدون لها إذا غربت ، لهذا يقارنها الشيطان في هذه الأوقات الثلاثة لتقع عبادتهم وسجودهم له ، ومن أجل ذلك نهى النَّبي ﷺ عن تحري الصلاة في هذه الأوقات ، قطعًا لمشابهة الكفار ، وسدًا لذريعة الشرك وعبادة الأصنام ، وطائفة أخرى عبدت القمر ، وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة ، وإليه تدبير هذا العالم السفلي، ومن شريعة عبادتهم ، أنهم اتخذوا له صنمًا على شكل عجل وبيد الصنم جوهرة يعبدونه ويسجدون له ويصومون له أيامًا معدودة من كل شهر ، ثم يأتون إليه بالطعام والشراب والفرح والسرور .

ومنهم من عَبَدَ النَّار : وهم أشتات من العرب ، وكان ذلك سرى إليهم من الفُرس والمجوس ، وقد قيل : إن عبادة النار كانت في الأرض من عهد قابيل ، كما ذكر أبو جعفر بن جرير : أنه لما قتل قابيل هابيل وهرب من أبيه آدم ، أتاه إبليس فقال : إن هابيل قبل قربانه وأكلته فبنى بيت النار ، فهو أول من نصب النار وعبدها ، وسرى هذا المذهب في المجوس ، فبنوا لها بيوتًا كثيرة ، واتخذوا الوقوف والسدنة والحجاب ، فلا يدعونها تخمد لحظة واحدة ، فاتخذ لها « أفريدون » بيتًا بطوس وآخر « ببخارى» ، واتخذ لها « بهمن » بيتًا بـ« سجستان » ، واتخذت لها بيوت كثيرة وعباد النار يفضلونها على التراب ويعظمونها ، ويصوبون رأي إبليس .

وصنف من العرب عبدوا الكواكب : وهم طائفة من بني تميم،عبدوا « الدبران » من النجوم ، وبعض قبائل لخم وخزاعة وقريش عبدوا « الشعرى العبور » ، وأول من سن ذلك لهم أبو كبشة .

وصنف منهم كان على دين اليهود : بعد أن كان الغالب من المجوس وعبدة الشمس ، وصنف منهم على دين النصارى ، فقد كانت النصرانية في « ربيعة وغسان » ، وبعض « قضاعة » وكأنهم تلقوا ذلك من الروم ، فقد كان العرب يكثرون التردد إلى بلادهم للتجارة ، ومن العرب الذين اعتنقوا دين النصرانية بنو تغلب ، كما أن أهل نجران كانوا من نصارى العرب .

وإليك التوضيح لحالتهم السياسية :

أما حالتهم السياسية : فكانوا في حالة فظيعة لا مَلِك ولا سُلطان يُطاع ويدبر الأمور بالحنكة والسياسة ، وتجتمع عليه الكلمة ، فكان منهم من كان خاضعًا للفُرس كالمناذرة ، ومنهم من كان خاضعًا للروم كالغساسنة واللخميين والتغلبيين ، ومنهم من كان خاضعًا للحبشة كأهل اليمن .

أما عرب الحجاز ونجد : فإنهم وإن كانوا لم يخضعوا لملوك الفُرس أو الروم أو الأحباش ، لكنهم كانوا في حالة سيئة من التفكك والانقسام ، فليس لهم ملك ولا سلطان يجمع شملهم ويوحد كلمتهم ، ويفصل النزاع ويأخذ الحق للضعيف من القوي ، نعم كان لهم رؤساء قبائل وعشائر يرجعون إليهم في فصل النزاع ، وكانت القبيلة تحت رحمة هذا الرجل إن شاء الحرب أو السلم ، وكانت الغارات والحروب بينهم متفشية ، هذه حالتهم السياسية .

وأما حالتهم الاجتماعية : فكانوا في تفرق وتشتت وفقر وشرب خمر ولعب ميسر ، ووأد للبنات في بعض القبائل ، وخصام ونزاع مستمرين ، فكانوا في كل أحوالهم الدينية والسياسية والاجتماعية في أسوأ حال وأفظعها ، ولا ريب أن أمَّة هذه حالتها تكون حاجتها ماسة شديدة إلى من ينقذها من براثن الشرك ومخالب الكفر ، بل كان العالم كله في ظلام دامس وجور مطبق ، ونزاع مستمر ، فكانت الأرض تستغيث بالله بلسان حالها من جراء تلك المظالم ، وكانت الدهماء مقهورة مظلومة ليس له كلمة ولا أمر - تُساق كما تُساق البهائم - وكانت تحت رحمة رؤساء السياسة وزعماء الأديان ، الذين قد حرَّفوا التوراة والإنجيل واشتروا به ثمنًا قليلاً ، جمعًا لحطام وإعراضًا عن الله والدار الآخرة .

وحيث كان العالم كله بتلك الصفة ، فقد تبين بكل وضوح حاجته الماسة إلى بعثة رسول يدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد ، ويطهرهم من الشرك والكفر ، ويرفع عنهم جور الملوك والرؤساء ، ويهبهم الكرامة والحرية ، وينشر بينهم العدل والنظام الصالح ، وينشؤهم على الآداب والأخلاق الزكية ، ويعلمهم الدين الصحيح الذي يسعدهم في دنياهم وأخراهم .

إرسال محمد ﷺ رحمة للعالمين

فرحم العباد خلاق الورى ... فأرسل الرسول من أم القرى
محمد هو بن عبد الله ... سليل هاشم بلا اشتباه
أرسله إلى جميع الإنس والجن بلا ... ريب ولا شك كما قد أنزلا
لكن يكون هادي العباد ... ومنقذًا من ذلك الفساد
يدعو إلى التوحيد للعبادة ... لربنا الواهب للسعادة
ولاجتماع الشمل والوفاق ... بينهم من بعد الافتراق
كذا إلى محاسن الأخلاق ... وحُسن آداب بالاتفاق
وجاءهم للدين والدنيا معًا ... لأن الإسلام لذين جمعًا

الشرح :

فلا جرم أن الله سبحانه وتعالى رحم أهل الأرض ، فأرسل إليهم رسولاً عربيًا ، وهو سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب من مكة المكرمة ، صلوات الله عليه وسلامه ، وبعد أن بلغ من العمر ٤٠ سنة ، أمره الله في الابتداء أن ينذر عشيرته الأقربين ، ثم سائر العرب ، ثم سائر الأمم .

فكانت بعثته ﷺ رحمة للعالمين كما قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** (١٠٧) ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، وأرسله إلى جميع الإنس والجن [١] ، ليهدي العباد إلى طريق الرشاد ، وينقذهم من مهاوي الوثنية والكفر والشرك والإلحاد ، إلى

---

(١) والدليل على عموم رسالته قوله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وقوله تعالى : ﴿ **قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ** ﴾ [الجن : ١,٢] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)** ﴾ [الأحقاف : ٢٩ – ٣١] ، وسيأتي البحث مفصلاً في فصل خاص .

توحيد رب الأرباب ، ويقودهم إلى الخير بعد الشر والسلام بعد الحرب ، والأمن بعد الخوف ، وإلى الاتفاق والاعتصام بعد التفرق والانقسام ، وبالفعل فقد دعا باللطف واللين عشيرته الأقربين ، ثم سائر العرب الكرام، وصبر على ما ناله من أذى قريش حتى اضطروه إلى أن يهاجر من مكة إلى المدينة ،ثم أمره الله بالجهاد وقتال المعتدين، ومن يقف في وجه دعوته أو تبليغه الدين،ثم دعا الملوك والرؤساء من سائر الأمم والأقوام .

وأنزل الله تعالى عليه هذا القرآن العظيم ، المُعجز الحاوي لجميع ما يحتاجه البشر من أمور الدنيا والدين ، وما انتقل إلى الرفيق الأعلى حتى أكمل الله الدين ، وأتم به النعمة على العالمين ، ولا سيما على العرب ، فكوَّن منهم دولة ذات سيادة ووحدة متماسكة ، لا يتطرق إليها الضعف والوهن إن تمسكوا بتعاليمه ، فجعلهم رؤساء وسادة ورسل هداية إلى جميع البشر ، وفتحو بتعاليمهم المنيرة المستقاة من تعاليمه ﷺ وسُنَّته القولية والفعلية ، وتوجيهاتهم السديدة وسيرتهم الطاهرة وأحكامهم العادلة البلدان[١]والأمصار، قبل أن يفتحوها بالسيف والسنان،وطبقوا منهاج العدالة بين الشريف والوضيع ، والصغير والكبير، والملك والمملوك، والمسلم والكافر، حتى أعجبت بهم الأمم،ودخل جميع أهل الجزيرة في الدين وكثير من اليهودي والنصارى والمجوس والصابئين،وزخرت كتب المؤرخين من المسلمين والكافرين بفتوحاتهم وحضارتهم وعمرانهم وتقدمهم السريع ونشرهم لهذا الدين الحنيف ،كما اعترف الأعداء فضلاً عن الأحباء بهذا العدل وتلك الحضارة ، والحق ما شهدت به الأعداء .

إن هذه الفتوحات التي قام بها العرب لهذه الممالك الواسعة من حدود فرنسا إلى حدود الصين من معجزات الدهر ، ومما لم يعهد في التاريخ مثله ، كما شهد الأعداء أن العالم لم يعرف فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب [٢] .

فكل ما يوجد من خير في العالم أجمع ، فهو من آثار رسالته ﷺ ، لأن رسالته قد عم خيرها ، وانتشرت تعاليمها بين أكثر الأمم ، فهدى الله من هدى ، وبقي على الضلال والكفر من لم يرد الله هدايته ، ولكن انتفع بآثار هذه الرسالة المحمدية ، يدلك

(١) مفعول لفتحوا .
(٢) ألفت كتابًا وأسميته الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب وطبع في قطر .

على هذا أن الحروب الصليبية التي أجمع فيها أهل أوروبا ، رؤساؤها ودولها بحثّ القسيسين والأحبار على حرب المسلمين ، فجرت منهم الحروب الدّامية والأمور الفظيعة في البلدان العربية الإسلامية ، واستولوا على فلسطين وكثيراً من البلدان الشامية ، حتى قيض الله لهم صلاح الدين الأيوبي ، فقاتلهم وهزمهم وقطع دابرهم ، فرجعوا مهزومين مخذولين بعد أن ظلوا قرابة مئتي سنة ، وكانوا قبل هذه الحروب في حالة همجية وحشية وجهل وظلم واستبداد .

وبعد أن اختلطوا بالمسلمين عرف كثير منهم ما لهذه الرسالة المحمدية من المحاسن والمزايا ، التي تسارع العقول إلى قبولها وإلى التصديق بها ، فرجعوا مقتبسين كثيراً من مبادئ العدالة والإنسانية والحضارة ، كما أن بعثاتهم التي أخذت تتوافد على جامعات الأندلس ومدارسها ، رجع الطلاب منها بمختلف العلوم والآداب ، ومن ذلك الحين بدأت أوروبا تفيق من سُباتها ، وتنفض عن رأسها غبار الجهل وتتقدم رويداً رويداً حتى بلغت هذا المبلغ العظيم ، وهكذا القول في أهل الهند وسيلان والصين وسائر الممالك ، إذ تدفقت عليهم سيول مهاجري العرب المسلمين ، فنشروا الدين الإسلامي الحنيف ، فأسلم منهم الملايين ، ومن لم يسلم منهم قد تحسنت لديه بعض الأوضاع ، وتركوا بعض العادات السيئة بفضل احتكاكهم بالمسلمين ، وبالإجماع فقد صدق الله العظيم حيث قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ .

[الأنبياء : ١٠٧] .

ولهذا لما ضعفت دولة المسلمين ، وتفرقت كلمتهم ، وساد فيهم النزاع ، وتأخروا في ميادين العلوم والصناعة ، خسر العالم خسرانًا كثيرًا ، كما ذكر ذلك العلامة الندوي في كتابه « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » .

النبوة وأقسام الوحي

بمكة ولادة الرسول	في سنة الفيل على المنقول
صار نبيًا بعد الأربعينا	من عمره فاجزم بذا يقينا
فجاءه بالوحي في غار حرا	جبريل روح القدس من غير افترا
والوحي قد يأتيه بالإلهام	وبدؤه قد كان بالمنام
ومنه قد يأتيه جبريل الكريم	بشكل إنسان يراه يا فهيم
بشكله الأصلي قد رآه	نبينا المختار والأواه
وأنه يوحي إلى العدنان	كما أتى في محكم القرآن
ومنه قد يأتيه جبريل الأبر	ولا يراه أحد ممن حضر
وقد يكون الوحي من خلف الحجاب	إلى النَّبي المصطفى بلا ارتياب
مثاله قد كلم الكليما	بجبل الطور فكن عليمًا
وكلم الله الرسول الأعظما	في ليلة المعراج فاسمع واعلما
فهذه الأقسام وحي ربنا	للأنبياء المصطفين الأمنا

وبما أن الله قد أغاث العباد بإرسال سيدنا محمد ﷺ رحمة للعالمين ، وهداية شاملة لجميع الثقلين ، وجرنا الكلام إلى ذكر ذلك ، والرسالة لا تكون إلا بالوحي من رب العالمين فلذا كان من المستحسن جداً ، أن أذكر الوحي وأقسامه ، فقلت :

بمكة ولادة الرسول	في سنة الفيل على المنقول
صار نبيًا بعد الأربعينا	من عمره فاجزم بذا يقينا

الشرح : مضى شرح هذين البيتين في الكلام السابق .

بيان الوحي (١) وأقسامه والدليل عليه من القرآن والسنّة :

فجاءه بالوحي في غار حرا	جبريل روح القدس من غير افترا
والوحي قد يأتيه بالإلهام	وبدؤه قد كان بالمنام

(١) الوحي : مصدر وحي إليه يجي من باب وعد وأوحى إليه بالألف مثله ومصدره الإيحاء ، وهو قليل الاستعمال وبعض العرب يقول : وحيت له ووحيت إليه وأوحيت له ، ولغة القرآن الفاشية أوحى =

الشرح :

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) ﴾ [الشورى : ٥١] .

سأنقل للقارئ ابتداء الوحي من صحيح الإمام البخاري الحديث الثالث ، ويتضمن الوحي بالمنام والوحي باليقظة :

الحديث الأول :

« حدثنا يحيى بن بكير ، قال : حدثنا الليث عن عقيل [١] ، عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي ، الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد ، قبل ن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاء الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني [٢] حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا

بالألف مع التقيد بإلى . . . وأما في غير القرآن العظيم فوحيت إلى فلان مشهورة ، يقال : وحيت إليه بالشيء وحيًا وأوحيت ، وهو أن تكلمه بكلام يفهمه عنك ويخفي على غيره ، بأن يكون على سبيل الرمز والتعرض ، أو بصوت مجرد عن التركيب أو نحو ذلك مما ذكرناه ، وزيادة على ذلك قد يطلق على الرسالة والأمر وكل ما ألقيته إلى غيرك والرؤيا الصادقة ، وغلب استعماله فيما يلقى إلى الأنبياء من عند الله ، والوحي كالوحي ، الصوت عامة ، ومثل الوحي صوت الطائر وحاة الرعد صوته الممدود الخفي ، وقد جاء في القرآن ذكر مادة الوحي في سبعين آية منها(٦٤ مكية) ، و(٦ مدنية ، وأكثر ما ورد في الآيات القرآنية إنما هو الفعل ماضيًا ومضارعًا .

(١) « عُقيل » بالضم على التصغير مثل « فلق الصبح » أي : مشبهة بضياء الصبح ، وخص التشبيه لظهوره الواضح ، « حبب » بالبناء للمفعول لعدم تحقق الباعث على ذلك ، وإن كان كلٌّ من عند الله « الخلوة » بالمد ، والسر فيه أن الخلو فراغ القلب لما يتوجه له « حراء » بالمد وكسر أوله ، « ينزع » بكسر الزاي ، أي : يرجع وزنًا ومعنى « جاءه الحق » أي : الأمر الحق لأنه وحي من الله ، « وما أنا بقاريء » ما : نافية زيدت لتأكيد النفي ، أي : ما أحسن القراءة .

(٢) « فغطني » بغين معجمة وطاء مهملة ، والغط حبس ومنه غطه في الماء ، وفي رواية الطبري بتاء مثنى من فوق فغطتني ، كأنه أراد ضمني وعصرني « بلغ مني الجهد » روى بالفتح والنصب ، أي بلغ الغط مني غاية وسعي ، وروى بالضم والرفع أي بلغ من الجهد مبلغ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ أي : لا تقرأه بقوتك وبمعرفتك ، ولكن بحول ربك وإعانته فهو يعلمك كما خلقك « فرجع بها » أي :

بقاريء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقاريء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) ﴾ [العلق: ١-٣]، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: «زملوني زملوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة رضي الله عنها: كلا والله ما يُخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتُكسب المعدم، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى - ابن عم خديجة - وكان امرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟، فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، ياليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يُخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أوَمُخرجي هم؟»، قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي».

الحديث الثاني من صحيح البخاري:

« حدثنا عبد الله بن يوسف قال: أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن

= بالآيات أو بالقصة « فزملوه » أي لفوه، « الروع » بالفتح الفزع « خشيت على نفسي » الموت من شدة الرعب والمرض، « كلا » معناها النفي، « ما يخزيك الله » بضم أوله وضم الخاء وكسر الزاي، من الخزي، وروي ويحزنك، بفتح الحاء وضم الزاي والنون من الحزن، « الكل » ما لا يستقل بأمره، « تكسب المعدوم » بفتح التاء وسكون الكاف، وفي رواية « وتكسب » بضم أوله أي المعدوم الذي لا يكسب، والمعنى تعين رجلاً عاجزاً على ما يقوم به من إنفاق ونحوه، « نوائب الحق » كلمة جامعة لأفراد ما تقدم ولما ما لا يتقدم « ورقة » بفتح الراء، « العبرانية » بكسر العين، وفي رواية يونس « يكتب الإنجيل بالعربية »، « الناموس » صاحب السر، والمراد بالناموس هنا جبريل عليه السلام، « على موسى » ولم يقل عيسى مع أن ورقة كان نصرانيا، لأن كتاب موسى مشتمل على أكثر الأحكام بخلاف عيسى، « مؤزرا » قويا تؤخذ من الأزر وهو القوي، « ثم لم ينشب » بفتح الشين المعجمة، أي لم يلبث حتى توفي.

عائشة أم المؤمنين ﵂ ، أن الحارث بن هشام ﵁ سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ ، فقال رسول الله ﷺ : « **أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليَّ ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول** » ، قالت عائشة ﵂ : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقًا .

أقسام الوحي :

[١] الرؤيا الصادقة : فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح « كما في صحيح البخاري من حديث الحارث بن هشام ، والمدة التي كان يوحى إليه في المنام ستة أشهر إلى أن استعلن له جبريل ﵇ » .

[٢] ما كان الملك يلقي في روعه من غير أن يراه : كما قال ﷺ : « **إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب** » ، وهذا بمعنى الإلهام .

وهذا القسمان لا يختصان بالأنبياء ، بل مما وقع ويقع لغيرهم ، ومن الثاني قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي** ﴾ [المائدة : ١١١] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ** ﴾ [القصص : ٧] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ** ﴾ [النحل : ٦٨] ، ومن الإشارة قوله عن زكريا ﵇ : ﴿ **فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)** ﴾ [مريم : ١١] .

[٣] كان يتمثل له الملك رجلاً فيراه عيانًا ويخاطبه حتى يعي عنه ما يقوله له ، ويعبرون عن هذا بتنزل الملك من سماء الملكية إلى أرض البشرية ، وفي هذه الحال يراه كل من حضر ، وكان أحيانًا يراه في صورة دحية بن خليفة الكلبي ، وقد أعطي الملك القدرة على هذا التمثل ، ولا معنى لأن ننكر ذلك قياسًا على ما تعلمه من نفسك ، فإنك لا تعرف إلا أحكام عالمك ، ومن الغلط البين والجهل الثابت أن تحكم بأحكام عالم على عالم آخر .

[٤] إنه كان يأتيه مثل صلصلة الجرس : والمعنى أنه صوت كالصلصلة المتصلة المتداركة التي تسمع من الجلاجل ونحوها ، ليس بكلام مؤلف من الحروف ، والأقرب أن سببه وجود الملائكة ، وإن لم يراه أحد من الحاضرين في حال سماعه ، وكانت هذه الحالة أشد الحالتين عليه ، **لأنها كما قال الحكيم ابن خلدون :**

انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية ، ومن شدته أن جبينه يتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد ، حتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولا إنكار في هذا ، ولا يقال : كيف يمكن ذلك الانسلاخ ، وذلك التلقي ، والحال أن الحاضرين لا يشعرون بشيء من ذلك ؟ ، لأنا نقول : روحه الشريفة مستعدة لذلك تمام الإستعداد ، فإن علاقتها بالملأ الأعلى أكثر وأتم من علاقتها بعالم المحسوسات ، والروح في أصل خلقتها مناسبة لخلقة الملك ، وربما كانت أرف منه قدراً وأعظم سرًا ، والملك إذ ذاك يكون على حالته الملكية ، ولكن يصح أن يراه الرسول وهو على هذا الحال ، لأنه إنما ينظر إليه ببصر الروح عند تجرده عن الغواش البدنية ومفارقته للعوالم المادية ، وأما جلساؤه فلا يرونه لأنهم لم يتجردوا من ملابسهم الطبيعية ، ومحيطاتهم الكونية ، ويقرب هذا بعض التقريب ما نشاهده من أحوال المنوم تنويمًا مغناطيسيًا ، فإنه يرى ما لا يراه الحاضرون ، لأن السلطان فيه للروح ، فهوى يرى بحواسها لا بحواس البدن ، وأما حاضروه فالمستولي عليهم هو سلطان الجسم لا سلطان الروح ، ونقربه من وجه آخر فنقول : لأبُدَّ في تغير الأحكام بتغير الأطوار والأحوال حتى نصل إلى حد التباين ، فإن الثلج إذا كان جامداً كان له حكم الجامدات ، فإذا أذبناه بقليل من الحرارة كان له حكم السوائل ، وإذا صيرناه غازاً كان له حكم الغازات ، وإذًا فما الذي يستنكر من تغيير الأحكام بتغير الأحوال ويكفي هذا لمن أنصف ولم يتعسف .

[٥] يكلمه الله من وراء حجاب بلا واسطة ملك : كما كلم موسى عليه السلام على جبل الطور ، ونبينا ليلة الإسراء والمعراج .

[٦] أن يرى الملك في صورته التي خلق عليها : له ستمائة جناح ، فيوحي ما شاء

الله أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين : مرة بعد فتور الوحي وقبل تتابعه ، والمرة الأخرى ليلة الإسراء كما قال تعالى في سورة النجم ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤)** ﴾ [النجم : ١٣ ، ١٤] .

هذه الأقسام كلها تندرج تحت قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١)** ﴾ [الشورى : ٥١] .

بيانها : إن قوله تعالى : ﴿ **إِلاَّ وَحْيًا** ﴾ دخل تحت القسم الأول والثاني ﴿ **أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ** ﴾ دخل تحته القسم الخامس ، وبقية الأقسام تحت قوله : ﴿ **أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً** ﴾ ، وزاد بعضهم أقسامًا أخر تركناها لضعفها ، والصواب ما ذكرناه كما ذكرها العلامة ابن القيم في زاد المعاد .



ثبوت إمكان الوحي بالعقل وإيراد الأدلة

ومن أثر الغزو الفكري الثقافي الغربي الذي غزا الشرق وأثَّر في أكثر مدارسه ومعاهده ، أنه قد أنتج تلاميذ أصبحوا بعد ذلك أساتذة يزاولون مهنة التعليم ، وبواسطة ذلك نشروا أفكارهم المسمومة وأقوالهم المشؤومة ، وجاهر كثير منهم بالإلحاد كإنكار الرب والطعن في الرسالات ، واتصف البعض بالحذق والمكر ، فأظهر المصانعة وأقر بالربوبية وبالمعاد ، وطعن في كثير من العقائد الصحيحة كإنكار وجود الجن أو وجود الملائكة ، وإنكار فرضية الصلاة والصوم ، ومن آراء الملحدين ما فاه به الكثير منهم ، أن الاعتقاد بوحي مُنزل من السماء بواسطة ملك إلى رسول من البشر ، من الأمور التي لا يسيغها العقل ، وعجبوا أن يكون إنسان يرى الملائكة عياناً ويكلمهم جهاراً ، بل عجبوا أن يكون في الدنيا خلق لا يرونهم بأعينهم ، وصوت لا يسمعونه بآذانهم ، وقالوا : كيف يرى محمد ويسمع ما لا نرى ولا نسمع ؟ ، وقال بعضهم : لو انحلت مشكلة الوحي لزالت عقبات كثيرة تعترضنا في سبيل التصديق بالنبوة ، فإنه لا يمكننا أو لا يمكن لأبناء هذا العصر أن يصدقوا ما لم يفهموا ، والجواب : أن يُقال لهؤلاء : إن كنتم تعجبون من إنسان يرى الملائكة ويكلمهم ، أو من صوت يسمعه ولا تسمعونه ، فإننا نعجب منكم أشد من عجبكم بهذا ، فإننا نفهم أنه لو ساغ مثله في عصور الجاهلية الأولى ما كان ليسوغ اليوم ، وقد ملئت الأرض بالآيات العلمية التي تفسر لعقولنا تلك الحقائق الغيبية .

وإلى القارئ عدة أدلة حسية وعقلية :

لا يمكن لأحد أن ينكرها بل تقسر الخصم والمجادل على الإقرار بها ، وأنها تمثل الوحي أصدق تمثيل وتجعل العاقل مؤمناً بالوحي .

[١] العقل الصحيح لا يمنع إمكان الوحي بل ولا وقوعه ، والدليل على ذلك : أن عقول الملايين من البشر من أتباع الأنبياء ـ بما فيهم من علماء وأدباء وفلاسفة وعظماء وعامة وسوقة وشعراء ـ قد آمنوا بوقوع الوحي على أنبيائهم ، وقبلتها عقولهم ولم تمانع

في ذلك ، وأي استحالة في الوحي ؟ ، وأن ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات ؟ ، مع العلم أن ذلك من قِبل واهب الفكر ومانح النظر ، متى حفت العناية لمن اصطفاه الله بهذه المرتبة والدرجة العالية .

وكل ما عندكم أيها المانعون أو المستبعدون للوحي هو :

أن العلم لا يثبته ، وهذا مردود بقولنا : هل كل ما لم يصل إليه العلم غير موجود ؟ ، اللهم إن العلم نفسه يكذب ذلك ، فقد كنا نجهل الميكروبات منذ زمن قريب ، أفكان جهلنا بها موجبًا لعدم وجودها ، أم كانت موجودة في الواقع على الرغم من هذا الجهل ؟ ، ومثلها الكهرباء ، وأي معنى للبحث والتنقيب الذي تقدم به العلم يومًا فيومًا ، ومن ذلك الجاهل الذي يزعم أنه أحاط بكل العوالم وعرف كل ما في الوجود ؟ ، ألم يقرر العلماء والفلاسفة أن عدم الدليل ليس دليلاً على عدم المدلول؟ .

[٢] إن الوحي عبارة عن إلقاء الملك في روع النبي ، وهو عبارة عن الإلهام الذي يقع في القلوب المستعدة بغير نظر وفكر ، في كل الطبقات من أفراد هذا النوع حتى الطبقات الدنيا فضلاً عن العليا .

[٣] من ذا الذي ينكر الرؤيا الصادقة ، وقد وجدت في كل أمة ، وأثبتها علماء كل ملة بعد التجربة والمعاينة ؟ .

[٤] من ذا الذي يجعل المعارف الإنسانية كلها قصرًا على ما ينتجه الفكر والنظر بعدما أثبت علماء التنويم المغناطيسي بالأدلة المحسوسة التي يمكن لكل إنسان أن يشاهدها ، أن المنوم بعد أن يبطل حسه وتتخدر أعصابه تمامًا ، لا يمكن بعد ذلك أن ينظر أو يفكر ، فإنه لا يسمع أصوات المدافع ، ولا يتأثر بشيء من الأشياء ، ويأتي في هذا الحال بما لا يصل إليه فكر ولا نظر ، وقد أصبح الجدال في ذلك جدلاً في المحسوس . أ هـ . وسيأتي توضيح هذا المرام بأبسط من ذلك في الفقرة السابعة .

[٥] إن من أقرب الأدلة إلى متناول الجمهور « الهاتف » ، فقد أصبح الرجلان يكون أحدهما في أقصى المشرق ، والآخر في أقصى المغرب ، ثم يتخاطبان ويتراءيان

من حيث لا يرى الجالسون في مجلس التخاطب شيئًا ، ويسمع طنينًا كدوي النحل الذي في صفة الوحي ، وفي آية « اللاسلكي » الذي يحدد جهة الإرسال والاستقبال ، وينقل الكلام بنفس الصوت والألفاظ ، والرائي « التلفزيون » الذي ينقل الكلام والصورة على موجات الأثير بدون أسلاك تحمل ذلك ، لما يقرب فكرة الوحي للأذهان المؤمنة بالمادة ، ولم تعرف سر الروحانية التي هي أسمى وأعلا ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ [الزمر : ٦٧] .

[٦] إن علماء استحضار الأرواح [١] الذين اشتغلوا بالمسائل الروحية ، أثبتوا بالمشاهدات المتكررة والحوادث المتواترة ، أن هناك عالمًا وراء عالم الطبيعة ، قد خرق لهم كل نواميس المادة وما قرروه من ذلك ، وقد أصبح ذلك عندهم لمس اليد ورؤيا العين . أ هـ [٢] .

[٧] إن التنويم المغناطيسي يمثل الوحي تمثيلاً ، ويريهم من طريق التجارب التي لا يؤمنون إلا بها ، أن اتصال النفس الإنسانية بقوة أعلى منها ، قد يحدث فيها ظاهرة من هذه الظواهر ، وينقش فيها معلومات لم تكن مخزونة في العقل ولا في الحس قبل ذلك ، فها قد أراهم الله تلك الآية العجيبة في « أعجوبة التنويم المغناطيسي » ، فقد أصبح الرجل القوي الإرادة يستطيع أن يتسلط بقوة إرادته على من هو أضعف منه ، حتى يجعله ينام بأمره نومًا عميقًا لا يشعر فيه بوخز الإبر ، وهناك يكون رهين إشارته ، وتنمحي إرادته في إرادته ، فلو شاء أن يمحو رأيًا أو عقيدة لمحاها بكلمة واحدة ، بل لو شاء أ ن يمحو من صدره اسم نفسه ويلقنه اسمًا آخر يقنعه بأنه اسمه ، لما وجد منه إلا إيمانًا وتسليمًا ، ولأصبح اسمه الحقيقي نسيًا منسيًا ، ولبقي هذا الاسم المصطنع

---

(١) إن استحضار الأرواح قد شاع وانتشر في أوروبا وفي بعض البلدان الشرقية ، ويزعمون أنهم يحضرون أرواح الموتى ويخاطبونها ، وتخبرهم عما يريدون من الأمور الغيبية ، وهذا باطل شرعًا وعقلاً وحسًا ، ونحن إنما ذكرنا قضية استحضار الأرواح كدليل لوقوع الوحي ، لا نقصد من ذلك صحة استحضار أرواح الموتى ، بل نقول : لعل عندهم استحضار الجان وموهوا على الناس بأنهم يستحضرون أرواح الموتى ، وحتى في استحضار الجان دليل للوحي ، لأن القصد الاتصال بما وراء المادة أو نقول بعالم الغيب .

(٢) من « رسالة الأستاذ الدجوي » .

منقوشًا على قلبه ولسانه بعد أن يستيقظ إلى ما شاء الله ، فإذا كان هذا هو فعل الإنسان ، فما بالك بمن هو أشد منه قوة . أ . هـ[١] .

الخلاصة :

أن من آمن بالله ربًّا إيمانًا صادقًا ، وآمن بعالم الغيب ، سهل عليه الإيمان بالوحي ، بل ولا مناص له من الاعتراف به ، لأن سعادة البشر ونظامه مرتبان على الرسالة والنبوة ، وقد سبق بيان حاجة البشر إلى الرسالة بما أغنى من الإعادة ، ومن لم يؤمن بالربوبية فتقام عليه الأدلة الساطعة ، وقد مضى كثير منها في الجزء السابق من الكتاب ، فارجع إليه إذا شئت .

ومن آمن وأنكر بما وراء المادة ، واقتصر على مجرد المحسوسات ، فقد أقمنا عليه الأدلة الماضية ، بما لا مزيد بعد ولا محيص له من الاعتراف بها .



---

(١)الأرقام (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧) من « الوحي الإلهي » للشيخ الحسيني عبد المجيد هاشم .

شبهات المستشرقين
حول الوحي المحمدي ودحضه

الشبهة الأولى والجواب عنها :

من المستشرقين من جن جنونه ، وبلغت به الوقاحة ، وخلع جلباب الحياء ، حتى ساق حملة شعواء ضد الإسلام والنَّبي الكريم ، فسود الصحائف من التهم الباطلة ، والأكاذيب المكشوفة ، وألصقها بالرسول الأمين والشرع المبين ، تنفيراً للناس عن الدخول في هذا الدين الحنيف ، وخدمة لدولهم المستعمرة ، ومنهم من تحلى بشيء من العقل والإنصاف ، وقرأ سيرة هذا الرسول الكريم ، وأخلاقه العظيمة ، وعرف اشتهاره لدى الموافق والمخالف بالصدق ، والأمانة ، والعفة ، والصيانة ، ورأى فيما قرأ عن هذا الدين العظيم ، اتفاقه مع سائر الشرائع السماوية في الأصول[1]، ونظر بثاقب فكره إلى هذه الملة البيضاء والشريعة السمحاء ، والموافقة للعقول ، والمناسبة للطباع ، والصالحة لكل جيل وقبيل ، وكل عصر وأمة ، فرأى عندئذ من المصلحة أن لا يجاهر بالعداء السافر للرسول ،ولهذا الدين الباهر ، فأخذ يزوق العبارات ، ويزركش المعنى ، ويلبسها أثواباً ظاهرها الجمال وباطنها كل شر ووبال ، وتظاهر بمظهر الإنصاف ، والدراسات الطويلة والتحليلات العميقة ، لكي يروج كلامه المنمق ، وشبهاته السرابية ، على الجهال بحقيقة هذا الدين القويم ، فقال وهو يعلم أنه كاذب في هذا المقال ما معناه : إن محمد ابن عبد الله هذا الرسول العظيم ، لا ريب أنه نشأ نشأة صالحة مخالفة لما كان عليه قومه من عبادة الأصنام وشرب الخمور وسائر العادات الرذيلة ، وكان من طبيعته التأمل في هذا الكون ، وما فيه من إبداع وتناسق عجيب وسُنَّة لا تتبدل ، مما يدل على خالقه العظيم ، وقدرته التي لا تحد ، وسمع من أخبار الديانة اليهودية والعيسوية وحنفاء العرب ، ما تحقق لديه أن ما عليه قومه من عبادة الأصنام والأحجار والأنصاب باطل وضلال ، وأن كثيراً من عاداتهم وأخلاقهم كالحروب والغارات لأتفه الأسباب ، والتفرق والبغضاء ، والولوع بالخمور والقمار ، لا

(١) كالإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والرسل .

يقره عقل ولا يسيغه دين ، وكان بحكم فطرته السليمة وذكائه الخارق ، وتأملاته في الكون ، ولا سيما عندما كان يتعبد في غار حراء ، طفق اعتقاده يقوي يومًا فيومًا ، أن العرب في ضلال وشقاء ، ولابد لهم من رسول ينقذهم ، كالرسل الذين أرسلهم الله إلى الأمم الماضية،ولما قوي هذا الاعتقاد ، وفاضت به مشاعر نفسه الصافية، وسريرته الطاهرة ، خيل له أنه يوحى إليه من السماء، فتارة يخيل إليه أنه يسمع كلامًا ولا يرى من يكلمه وتارة يخيل إليه أن رجلاً يكلمه ويلقنه ، ويعتقد أنه ملك من عالم الغيب يوحي إليه وأنه مرسل إلى الناس،كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي عند جميع الأنبياء،فكل ما يخبر به النَّبي من الكلام ألقي في روعه، أو عن ملك ألقاه على سمعه ، فهو خبر صادق عنده ، ولا شك في صدق محمد ، ولكن ليس من عالم الغيب في شيء بل كان يفيض من نفس النَّبي .

والجواب عن هذه الشبهة السقيمة :

إن كان القائلون بالوحي النفسي من اليهود والنصارى ... فيقال لهم :

هل أوحي إلى موسى وعيسى عليهما السلام أم لا ؟ ، بالطبع سيكون الجواب بنعم ، وحينئذ يقال لهم : هل الوحي الذي جاء موسى وعيسى وحي إلهي ، أو فاض هذا الوحي من نفسيهما الصافية ، وسريرتيهما الطاهرة ، ومشاعريهما الفياضة ؟ ، فإن قال اليهودي أو المسيحي بالوحي النفسي بالنسبة لموسى أو لعيسى ، فقد كفر بدينه ، وأنكر اليهودي نبوة موسى ، والمسيحي نبوة عيسى ، وما أخاله يقول ذلك ، بل سيقول اليهودي كَلَّمَ الله موسى على جبل الطور في ابتداء الرسالة : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [البقرة : ٥١] ، ناجاه إذ ذاك بالخطاب الإلهي ، كما أوحى إليه بواسطة جبريل ، كما سيقول المسيحي : أوحى الله إلى عيسى بواسطة ملك الوحي ، هذا إن كان مسيحيًا صحيحًا ، وإن كان ممن يؤله المسيح فله شأن آخر .

وعندئذ يقال للمسيحي ولليهودي : كيف تقرون بالوحي الإلهي إلى موسى وعيسى ، ولا تقرون بالوحي الإلهي لمحمد ﷺ ؟، وتقولون : إن الوحي الذي يدعيه ، وإن كان صادقًا ، فمنبعه من نفسه الطاهرة ، فإن قالوا : قامت لدينا الدلائل العديدة والمعجزات الكثيرة على نبوة موسى ونبوة عيسى ؟ .

قلنا في الجواب :

الدلائل الدالة على نبوة محمد ﷺ وصدقه في دعواه الرسالة ، أعظم وأكثر من الدلائل الدالة على صدق موسى وعيسى ومعجزاته أكثر وأعظم من معجزات موسى وعيسى[١]، والكتاب الذي أرسل به أشرف من الكتاب الذي بعث به غيره ، والشريعة التي جاء بها أكمل من شريعة موسى وعيسى عليهما السلام ، أمته أكمل في جميع الفضائل من أمة هذا وهذا ، ولا يوجد في التوراة والإنجيل علم نافع وعمل صالح إلا وفي القرآن مثله أو أكمل منه ، بل في القرآن من العلم النافع ، والعمل الصالح ، ما لا يوجد مثله في التوراة والإنجيل .

إذا علمت هذا جيداً ،تعلم أنه يمتنع الإقرار بنبوة موسى وعيسى عليهما السلام ، مع التكذيب بنبوة محمد ﷺ ، لأن القائلين بالوحي النفسي لمحمد مكذبون في الحقيقة لنبوته ، لأن النَّبي ﷺ هو ما يُوحى إليه الله بشرع ، فمن لم يوح الله إليه لا يكون نبيًا ولا رسولاً ، وما من طعن يوجه إلى نبوة محمد ﷺ ورسالته ، إلا ومن الممكن أن يوجه مثله وأعظم منه إلى موسى وعيسى .

فإن قالوا : إن وحي محمد نابع من نفسه لا من الله العظيم.

أمكن أن يقال لهم : ماذا جوابكم لو قيل لكم : إن الوحي الذي يدعيه موسى وعيسى هو وحي نفسي وليس بإلهي ؟ .

فإن قالوا : جاء موسى بهذه التوراة التي فيها تلك الشريعة الموسوية ، التي دان بها وعمل بها جميع أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى فضلاً عن غيرهم .

قلنا : وكذلك أنزل الله القرآن الكريم وهو أعظم من التوراة في بلاغته وفصاحته ، وأجمع وأشمل في شرائعه وأحكامه ، بل وأنسب وأصلح للأمم ولا سيما أمة محمد ﷺ سواء أمة الإجابة أو الدعوة ، ودان بالقرآن والشريعة المحمدية مئات الملايين من البشر بما فيهم من فطاحل العلماء وأكابر الأدباء والفصحاء ، وأعاظم الفلاسفة والحكماء ، وعلماء أمة محمد ﷺ كأنبياء بني إسرائيل ، لأن أنبياء بني إسرائيل كانوا

(١) سيأتي بيان دلائل نبوته ﷺ ، كما سنذكر معجزاته عليه الصلاة والسلام ، ونبين بالمقارنة بين معجزاته ﷺ وغيره أن معجزاته أكثر وأعظم .

يحكمون بشريعة التوراة ، وكذلك علماء أُمَّة محمد ﷺ يحكمون بشريعة القرآن ، فإن عاندوا وجاهروا ونسبوا الكذب والافتراء إلى الرسول محمد ﷺ في دعواه الرسالة ، أمكن لخصمهم أن يقول مثل ذلك في موسى وعيسى .

فإن قالوا : نحن وإياكم معشر المسلمين متفقون على الإقرار بنبوة موسى وعيسى ، وبما أننا نفينا ولم نعترف بنبوة محمد ﷺ ، فعليكم أيها المسلمون أن تثبتوا نبوته بالدلائل القاطعة ؟ .

قلنا في الجواب :

نعم اعترفنا نحن معشر المسلمين بنبوة موسى وعيسى ، ذلك لأن القرآن العظيم المُنزَّل على محمد ﷺ من الله، أخبرنا بنبوتهما في آيات كثيرة ، وأمرنا بالإيمان بهما ، وبجميع الأنبياء والمرسلين ، كما قال تعالى : ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** (١٣٦) ﴾ [البقرة : ١٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ **مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ** (١٤٤) ﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

وقال عن عيسى ﷺ : ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ** (٦) ﴾ [الصف : ٦] .

فنحن نؤمن بموسى وعيسى وبالتوراة والإنجيل ، اللذين أنزلا على موسى وعيسى من طريق القرآن والرسول ، وبما أنكم أنكرتم نبوة سيدنا محمد ﷺ ، وقلتم : إن القرآن ليس من كلام الله ، ولم ينزل عليه وحي من السماء ، فلا يلزمنا الاعتراف بنبوة موسى وعيسى عليهما السلام ، وأما التوراة والإنجيل الموجودان الآن بأيدي اليهود والنصارى فلا اعتماد عليهما ، ولا يصلحان للتمسك بهما ، **وذلك لما يلي :**

أولاً : إن التوراة والإنجيل لم يحفظهما الله ، ولم يصنهما من التغيير والتبديل ،

ولكن حفظ القرآن من التغيير والتحريف ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ⑨ ﴾[الحجر : ٩] ، ولم تكن التوراة والإنجيل محفوظين في صدور أصحاب موسى وعيسى ، كالقرآن المجيد الذي حفظه عشرات من الصحابة حتى قُتِلَ من حفظة القرآن سبعون في وقعة اليمامة أيام حرب الردة .

ثانيًا : ليس هناك سند متصل لهما يوصل إلى موسى وعيسى ، كالقرآن العظيم الذي اتصل سنده بالرسول الموحى إليه من الله ، وحفظه كثير من الصحابة ، ونقل نقلاً متواترًا كما أنزل على الرسول ﷺ .

ثالثًا : إن التوراة عندما استولى البابليون على بيت المقدس ، أحرقها ملكهم ، وخربوا بيت المقدس ، وجعلوها خاوية على عروشها ، وقتلوا آلافًا من بني إسرائيل ، وأسروا كثيراً منهم ، وبعد مضي قرن أو أكثر رجعت الدولة لبني إسرائيل بمناصرة الفرس لهم ، ويقال : إن بعد رجوعهم أملى عُزير التوراة على بعض بني إسرائيل ، وهذا الذي أملاه حرف بنو إسرائيل كثيراً منه .

رابعًا : بالرغم من كل ذلك بقيت فيه بشائر عن الرسول العظيم ﷺ ، فأخذ اليهود يؤولونها على حسب أهوائهم ، ومن جاء ما أسلفناه لا تصلح هذه التوراة الموجودة عند اليهود للاستناد عليها .

وأما الإنجيل فأصبح منذ قرون عدة أناجيل كتبت بعد المسيح عليه السلام بمئات السنين، وبعد أن عقد المسيحيون عدة مجامع ومؤتمرات اختاروا منها هذه الأربعة التي هي الآن لدى النصارى ، وفيها ما ينقض بعضها بعضًا ، وأكثرها عن سيرة المسيح عليه السلام ، مما يدل على أنه ليس من كلام الله ، فأنى يصح الاحتجاج به والحالة هذه ؟ .

وإن قالوا : نؤمن بالقرآن وبمحمد عليه الصلاة والسلام ، إلا أننا نقول : أرسل إلى العرب خاصة ، وليس إلى الأمم كافة ، فلا يلزمنا اتباعه والدخول في دينه ، وهذا قول فرقة من اليهود والنصارى ؟ .

قلنا لهم في الجواب : إن صدقتم بالقرآن وبرسالة محمد ﷺ ، فيلزمكم الدخول في دينه ﷺ ، لأن القرآن يقول : إن الله أرسله إلى الناس جميعًا ، العرب

والعجم ، والروم والفُرس ، وسائر الأمم ، قال الله تعالى على لسان محمد ﷺ : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ .

[الأعراف : ١٥٨] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ﴾ [سبأ : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ١٠٧ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

والرسول ﷺ دعا ملوك عصره للدخول في دينه ، فكتب إلى ملوك الروم ومصر والحبشة والفُرس وعمان ، وأعلن أن رسالته عامة ، والنَّبي معصوم من الكذب بالاتفاق منا ومنكم ، ومن أكبر الكذب أن يدَّعي أنه مرسل إلى الناس عمومًا ، والحال أنه مرسل إلى العرب فقط ، وسيأتي مزيد بيان بهذا الشأن في بحث عموم رسالته ﷺ .

الرد على الماديين
الذين لا يؤمنون بالله و لا بعالم الغيب

وحيث انتهينا من الأجوبة لأهل الكتاب في خصوص الوحي النفسي ، نشرع الآن في الأجوبة للماديين الذين لا يؤمنون إلا بالمادة ، وينكرون ما وراءها من عالم الغيب ، فنقول وبالله التوفيق ، وبيده أزمة التحقيق :

إن الزاعمين أن محمداً ﷺ لم يُوحَ إليه من عالم الغيب،وليس هناك عالم غيب ، بل الوحي الذي ادعاه مصدره من نفسه الطاهرة ، هم واهمون مخطئون كاذبون ، لما يلي :

[١] قدمنا فيما سبق الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على وجود الله ، وأنه الخالق لجميع هذه الأكوان ، وليس من المعقول في شيء أنه توجد صنعة بلا صانع ، ومفعول بلا فاعل ، وفيما قدمناه كفاية فارجع إليه إن شئت .

[٢] قدمنا الأدلة الحسية والعقلية في إمكان الوحي ، تلك الأدلة التي تدحض شبهاتهم ، وتزهق باطلهم ، وأتت على بنيانهم من القواعد ، فخر عليهم السقف من فوقهم .

وإلى القارىء إضافة إلى ما سلف :

إن كل من أوتي حظًا من حس البيان وذوق البلاغة والعرفان ، يفرِّق بين أسلوب القرآن الذي هو كلام الله العزيز ، وأسلوب الحديث الذي هو كلام الرسول ﷺ ، ويجد فرقًا كبيرًا يمثل الفرق الكبير بين مقدور الخالق ومقدور المخلوق ، والقرآن والحديث يناديان بهذا الفارق البعيد ، إن كان لهم حظ في معرفة اللغة العربية وبلاغتها وأساليبها .

[٣] ولو كان ما زعمه هؤلاء له وجه مقبول ، ومستند يصح الاتكاء عليه ، لكان أولى الناس به أولئك العرب الفصحاء الذين واجههم الرسول بكلام الله المُعْجز ، والذي تحداهم به بأن يأتوا بأقصر سورة من مثله فعجزوا ، مع العلم أنهم كانوا أحرص الناس

على تعجيز الرسول وإسكاته ، لأنه سفَّه أحلامهم وزيَّف آلهتهم ، وأبطل عبادتهم لها، واستهجن عاداتهم ، وأتى بما يقضي على ديانتهم التي توارثوها أبًا عن جد ، لكنهم لمعرفتهم بأسرار لغتهم وأساليبها ، وبما أوتوا من الفرقان بين كلام الله وكلام الرسول ، وبين أحاديثه وكلامهم ، لم يتفوهوا بهذا الإفك المبين ، وأكرموا أنفسهم من هذا الافتراء المشين .

[٤] إن الوحي لو كان مصدره نفس محمد ﷺ ، لكان من الفخر له أن ينسبه إلى نفسه ، ولأمكن أن يدعي به الألوهية فضلاً عن النبوة ، ولكان مقدسًا في نظر الناس وهو إله أكثر من قداسته في نظرهم وهو نبي ، ، ولما كان في حاجة إذًا إلى أن يلتمس هذه القدسية الكاذبة بنسبة القرآن أو الوحي إلى غيره ،فما أجهل هؤلاء وما أكذبهم ، فتبًا وسحقًا لهؤلاء الذين لا يفقهون حديثًا .

الأدلة على أن القرآن مصدره من الله :

من الأدلة التي لا تقبل الجدل والمناقشة على إثبات الوحي الرباني ، وأن القرآن مُنزل من عند الله بلفظه ، لا صنعة فيه لمحمد ﷺ ، ولا لأحد من الخلق ، **هو ما أقدمه لك أيها القاريء الكريم ، نماذج من سيرته المطهرة ، وتحتها فقرات تريك الأدلة الساطعة على ما نقول :**

[١] كان ﷺ تقع له وقائع تحتاج إلى حل لها ، والفصل فيها ، فيتوقف ولا يحكم فيها بشيء ، فقد يبقى أيامًا ينتظر الوحي المبين ليحل ما أُشكل عليه ، ومن تلك الوقائع والمشاكل أن قريشًا سألوا رسول الله ﷺ عن ثلاث ، وذلك بإرشاد يهود المدينة لهم ، عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، وما كان من أمرهم ، وعن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغربها ، ما كان نبؤه ، وعن ماهية الروح ، فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه .

فلما سألوا رسول الله ﷺ عن المسائل الثلاثة أجابهم ﷺ : « **أُخبركم غداً عما سألتم عنه** ، **ولم يقل إن شاء الله** » .

ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة ، لا يأتيه جبريل بالوحي حتى أرجف

أهل مكة ، وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألنا عنه ، وحزن رسول الله ﷺ لتأخر الوحي ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ، ثم جاء جبريل عليه السلام من الله بسورة الكهف ، فيها معاتبة الله (١) إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية (٢)، والرجل الطواف ، وعن ماهية الروح (٣)، فلو كان الوحي نابعًا من نفسه الطاهرة ، لكان في مقدوره أن يجيب عن تلك الأسئلة ، ولا يصبر تلك المدة ، ويسبب له الحزن ، وإرجاف أهل مكة ، ولكنه كان ﷺ لا يقول في شيء إلا بوحي من ربه .

[٢] ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجته عائشة رضي الله عنها وأبطأ الوحي ، وطال الأمر ، والناس يخوضون حتى بلغت القلوب الحناجر ، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس : « إني لا أعلم عنها إلا خيراً ؟ » ، ثم إنه بعد أن بذل جهداً في التحري والسؤال واستشارة للأصحاب، ومضى شهر بأكمله والكل يقولون : ما علمنا عليها من سوء ، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر : « يا عائشة : أما أنه بلغني كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب ، فاستغفري الله » .

هذا كلامه بوحي ضميره ﷺ ، وهو كما ترى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب ، وكلام الصديق المتثبت الذي لا يتبع الظن ، ولا يقول ما ليس له به علم ، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلناً براءتها ، ومصدر الحكم المبرم لشرفها وطهارتها رضي الله عنها ، الحديث أخرجه الشيخان وغيرهما .

---

(١) **أي في قوله تعالى :** ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا** ﴾ [الكهف : ٦] ، أي : لا تُهلك نفسك أسفًا وحزنًا من أجل أنهم لم يهتدوا ﴿ **فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ** ﴾ [الزمر : ٤١].

(٢) **أي في قوله تعالى :** ﴿ **أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ⑨** ﴾ [الكهف : ٩] ، وهو غار في الجبل ، لجأ إليه الفتية المذكورون ، والرقيم اسم الوادي ، وقال سعيد بن جبير : الرقيم لوح من حجارة ، كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ، ثم وضعوه على باب الكهف .

(٣) **أي في قوله تعالى :** ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ⑧③** ﴾ [الكهف :٨٣] ، وأما الروح ففي قوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ⑧⑤** ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

فماذا كان يمنعه ـ لو أن أمر القرآن إليه ـ أن يقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ، ليحمي بها عرضه ، ويذب بها عن عرينه ، وينسبها إلى الوحي السماوي ، لتنقطع ألسنة المتخرصين ؟ ، ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾[الحاقة : ٤٤ ـ ٤٧] [١] .

[٣] قضية الحديبية : وفيها من الدليل القاطع ، الذي لا يتطرق إليه شك ، ولا يحوم حوله ريب ، في أنه كان ﷺ مبلغًا عن ربه هذا القرآن العظيم بلفظه ومعناه ، غير متقول من تلقاء نفسه ، وهاك القضية الثابتة بالقرآن والسُّنَّة ، والخبر المتواتر ، مما لا يدع مجالاً للتردد في صحة هذا المطلب :

في السنة السادسة من الهجرة النبوية ، قصد رسول الله ﷺ زيارة البيت الحرام لأداء العمرة ، فذهب معه من الصحابة ألف وأربعمائة ، وقيل : ألف وخمسمائة ، وأخذوا أسلحتهم للدفاع عن أنفسهم إن ألجأتهم قريش إلى الحرب ، أو أعلنت الاعتداء عليهم ، فلما علمت قريش بذلك جمعوا جموعهم قاصدين منع الرسول وأصحابه من دخول مكة ، وكان النَّبي ﷺ والصحابة على أتم استعداد لقتال من يريد صدهم عن البيت الحرام ، وأنهم لسائرون عند الحديبية ، إذ بركت راحلة النَّبي ﷺ ، وأخذ أصحابه يثيرونها إلى جهة الحرم فلا تثور ، وقالوا : خلأت القصواء ، أي « حرنت الناقة » ، وقال النَّبي ﷺ : « **ما خلأت القصواء وما ذلك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل** » ، وهنا أيقن أن الله لم يأذن لهم هذا العام بدخول مكة مقاتلين ، لا بادئين ولا مكافئين ، وزجر الناقة فثارت إلى ناحية أخرى ، فنزل بأصحابه في أقصى الحديبية .

وبعد أن جرت المفاوضات العديدة بينه وبين قريش ، قَبِلَ الرسول ﷺ ما عرضوه من الصلح بأن يرجع إلى المدينة ولا يسمحون له بدخول مكة إلا في السنة الآتية ، وأملت قريش عليه شروطًا قاسية ، منها : أن يرد كل رجل يجيء من مكة مسلمًا ، وأن لا ترد هي أحدًا يجيئها من المدينة تاركًا المدينة ، وأن لا يدخل مكة في هذه

(١) النبأ العظيم ، للشيخ / عبد الله دراز .

السنة ، فكان لهذا الصلح أثرًا سيئًا في نفس الصحابة ، لأنهم كانوا إذ ذاك أقوى من قريش ، لأنها قد أنهكتها الحروب ، والفرصة سانحة من النَّبي وأصحابه لجهادهم لينتصر الحق على الباطل ، ولكن بالرغم من كل ذلك قَبِلَ الرسول هذا الصلح ، لأنه يعلم أنه رسول من رب العالمين ، لا يمكن أن يفعل ما لم يُؤمر ، وربما كان يرجو أن يكون لهذا الصلح نتائج حسنة يعز بها المسلمون ، ويذل بها المشركون وينتصر الحق ، ويهزم الباطل ، ولكن الصحابة لما خفيت عليهم الحكمة أصابهم حزن عميق ، حتى كادت تزيغ قلوب فرق من الصحابة ، فأخذوا يتساءلوا فيما بينهم ، ويرجعون الرسول قائلين : لمَ نعطي الدنية في ديننا ؟ ، انظر إلى جوابه حين راجعه عمر رضي الله عنه : « **إني رسول الله ، ولست أعصيه ، وهو ناصري** » يعني أنا عبد مأمور ، ليس لي من الأمر شيء ، وأنزل الله : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** (٢٤) ﴾ [الفتح : ٢٤] ، كما أنزل تعالى : ﴿ **هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا** (٢٧) ﴾ [الفتح : ٢٥ – ٢٧] .

قل لي بربك لو كان الوحي مصدره من نفسه ، لأخبرهم بحكمة هذا التصرف الصادر منه ، ولم يتركهم وهم غارقون في بحور الحزن ، وللأسف الشديد ظلوا راجعين ، ولا يدرون تأويل ما أُشكل عليهم ، حتى نزلت سورة الفتح ، فبيَّنت لهم الحكم الباهرة ، وبشرتهم بدخول البيت الحرام آمنين غير خائفين ، وأن هذا الصلح الذي حصل بين النَّبي ﷺ وقريش وهو النصر المبين والفتح الأكبر ، لأن مدة الصلح كانت عشر سنوات ، فحصل فيها الاختلاط بين المشركين والمؤمنين ، وآمن الناس بعضهم بعضًا ، وأخذ كثير منهم يفهم حقيقة الإسلام ، ويدخل في حوزة الدين ، حتى مَنَّ الله بفتح مكة المشرفة في السنة الثامنة من الهجرة ، وأسلمت قريش وتبعها سائر العرب ، فأخذوا يدخلون في دين الله أفواجًا . . . .

[٤] لقد كان يجيئه الأمر أحيانًا بالقول المجمل أو الأمر المشكل ، الذي لا يستبين ولا أصحابه تأويله حتى ينزل الله عليهم بيانه بعد ، قل لي بربك : أي عاقل توحي إليه نفسه كلامًا لا يفهم هو معناه ، وتأمره أمرًا لا يعقل هو حكمته ؟ ، أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل ، وأنه مأمور لا آمر ؟ ، نزل قوله تعالى : ﴿ **وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ** ﴾ [البقرة : ٢٨٤] ، فأزعجت الصحابة إزعاجًا شديدًا ، وداخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها من شيء آخر ، لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى حركات القلوب وخطراتها ، فقالوا : يا رسول الله أنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها ، فقال لهم النَّبي ﷺ : « **أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ ، بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** » ، فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانه بقوله : ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة : ٢٨٦] إلى آخر السورة المذكورة ، وهناك علماء أهم إنما يحاسبون على ما يطيقون من شأن القلوب ، وهو ما كان من النيات المكسوبة ، والعزائم المستقرة ، لا من الخواطر والأماني الجارية على النفس بغير اختيار .

الحديث في مسلم وغيره ، وأشار إليه البخاري في التفسير مختصرًا (١) .

---

(١) روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ **لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ** ﴾ [البقرة : ٢٨٤] . اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب فقالوا : أي رسول الله ، كلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة والجهاد والصيام والصدقة ، وقد أُنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها ، قال رسول الله ﷺ : « **أتريدون أن تقول كما قال أهل الكتابين من قبلكم** ﴿ **سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا** ﴾ [البقرة : ٩٣] ، بل قولوا : ﴿ **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴾ ، فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم ، أنزل الله تعالى في أثرها : ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)** ﴾ [البقرة : ٢٨٥] ، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا** ﴾ ، قال : نعم : ﴿ **وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ** ﴾ ، قال : نعم ﴿ **وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾ ، قال : نعم .

وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما : ﴿ **وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ** ﴾ ، قال : نسختها الآية التي بعد ، يقصد قوله تعالى : ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ** ﴾

وموضع الشاهد منه أن النَّبي ﷺ لو كان يعلم تأويلها من أول الأمر لبين لهم خطأهم ، ولأزال اشتباههم من فوره ، لأنه لم يكن ليكتم عنهم هذا العلم ، وهم في أشد الحاجة إليه ، ولم يكن ليتركهم في هذا الهلع الذي كاد يخلع قلوبهم وهو بهم رؤوف رحيم ، ولكنه كان مثلهم ينتظر تأويلها ، ولأمر ما أخر الله عنهم هذا البيان ، ولأمر ما وضع حرف التراخي في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) ﴾ [القيامة : ١٩] .

الشبهة الثانية وهي : استدلالهم بالفتاة الفرنسية ، والجواب عنها :

وأما استدلالهم على ترويج هذه الشبهة السقيمة ، وهي أن منبع وحي محمد من نفسه ، مستدلين لها ، أن فتاة فرنسية تدعى « جان دارك » في القرن الخامس عشر الميلادي ، كانت من أجمل النساء سيرة ، بعيدة عن الأمور السياسية ، اعتقدت أنها مرسلة من عند الله ، لإنقاذ وطنها ، ودفع العدو عنه ، وصارت تسمع صوت الوحي يحضها على القتال ، فأخلصت في الدعوة للقتال ، وتوصلت بصدق إرادتها إلى رئاسة جيش صغير ، وقاتلت العدو ، وانتصرت عليه ، ثم دارت الدائرة عليها ، ووقعت في يد عدوها ، فألقوها في النار حيَّة ، وتركت في صحائف التاريخ ذكراً مُخلداً ، وهي الآن موضع إجلال القوم وإعظامهم ، فقد تيسرت لهم النهضة بعدها ، وقطعوا شوطًا في العلم والتقدم .

والجواب :

[١] لولا رواج هذه الشبهة السخيفة على بعض المسلمين (١) ، القليلي المعرفة، لما كان هناك حاجة للجواب ، إذ ضعف هذه الشبهة ، وسقم هذا الاستدلال ، لا يخفى على من رزق حظًا من العقل ، فضلاً عن العلم ، إذ كيف تقاس نبوة محمد ، وإصلاحه العام ، تلك النبوة التي أنقذت مئات الملايين من مهاوي الكفر ، وبحور الشرك والضلال ، والعادات المستهجنة ، إلى نور التوحيد والإسلام ومكارم الآداب

(١) حتى أن بعضهم رفع سؤالاً إلى العلامة السيد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ كما في الوحي المحمدي ، ذكر أنه عرضت له شبهات في وقع الوحي ، ثم ذكر قصة هذه الفتاة وأجابه السيد رشيد بما ذكرنا معنى السؤال والجواب وبعض الفقرات بلفظها .

والأخلاق ، وتأسيس دولة دينية وسياسية ، دينها العدل في الأحكام ، بفتاة فرنسية هيجها على القتال ، ما رأت من جور أعداء بلدها ، وإرادة الاستيلاء على وطنها ، وما رأت من الانقسامات الداخلية التي مزقت فرنسا ، مع ما شاع في عهدها من خرافات ، كان لها أثرها في نفسها وعقلها ، منها أن فتاة عذراء ستبعث في هذا الزمن لتخلص فرنسا من عدوها ، فثارت حمية لوطنها وبني قومها ، فقادت المعركة ضد العدو وانتصرت ، ثم لم تلبث أن أخذها العدو أسيرة فقتلها ؟ .

فأي إصلاح تركت تلك الفتاة ، وأي شريعة أتت بها ، ومتى ثبت أنها تسمع الوحي من السماء [1] ، وهل نار حماسها وقيامها بالثورة لتلك الأسباب السالفة يُعد وحيًا من السماء ؟ .

[٢] إن تلك الفتاة لم تقم بدعوة إلى دين أو مذهب ، تدعي أن فيه سعادة البشر في الحياتين ، كما هو شأن جميع المرسلين ، ولم تأت بآية كونية ولا علمية ، لا يعهد مثلها من كسب البشر ، تتحدى بها الناس ليؤمنوا بها .

قال السيد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ : أين هذه النوبة العصبية القصيرة الزمن ، المعروفة السبب ، التي لا دعوة فيها إلى علم ولا إصلاح اجتماعي، إلا المدافعة عن الوطن، التي لا حجة تدعمها ، ولا معجزة تؤيدها،التي اشتعلت بنفخة ،وطفئت بنفخة .

أين حال تلك الفتاة التي كانت كبارقة خفت « أي ظهرت وأومضت » ، ثم خفيت ، وصيحة علت ، ولم تلبث أن خفتت ، في حال شمس النبوة المحمدية التي أشرقت ، فأنارت الأرجاء ، ولا يزال نورها ، ولن يزال متألق السناء ؟ ، أي يتيم قضى سن الصبا وشرخ الشباب هادئًا ساكنًا ، لا يعرف عنه علم ولا تخيل ولا وهم ديني ، ولا شِعر ولا خطابة ، ثم صاح على رأس الأربعين بالعالم كله ، صيحة أنكم على ضلال مبين ، فاتبعون أهدكم الصراط المستقيم ، فأصلح وهو الأمي أديان البشر ،

---

(١) إن تلك الفتاة لم تأت ولا بدليل واحد معقول على صدق أوهامها وتخيلاتها التي تزعمها وحيًا حديثًا من الله إليها ، لكن محمدًا ﷺ له على وحيه الذي يدعيه ألف دليل ، وسيأتي بعضها في مبحث الأدلة على صدق نبوته ، فأين الثرى من الثريا ، وأين الظلام من النور .

عقائدها ، وآدابها ، وشرائعها ،وقلب نظام الأرض، فدخلت بتعليمه في طور جديد .

لا جرم أن الفرق بين الحالين عظيم ، إذا أنعم النظر فيه العاقل الحكيم ، فلا يساوي بين النبوة المحمدية وبين ثورة تلك الفتاة الفرنسية ، إلا من يساوي بين البعر والجوهر ، والدرر والمدر ، وكفى بقوم جهلا ، إذا كان هذا مبلغ علمهم ومنتهى فلسفتهم .

الشبهة الثالثة : نسبتهم العصبية له ﷺ :

يقولون : إن محمداً كان عصبيًا ، حاد المزاج [١] ، وكان مريضًا بما يسمونه « الهستريا » ، فالوحي الذي كان يزعمه ما هو إلا أعراض لتلك الحال التي أصيب بها .

والجواب :

أن هذه فرية تدل على جهلهم الفاضح بمحمد ﷺ ، فالمعروف عنه بشهادة التاريخ الصحيح والأدلة القاطعة ، أنه كان ﷺ وديعًا ، صبوراً حليمًا ، بل كان عظيم الصبر واسع الحلم ، فسيح الصدر ، حتى أنه وسع الناس جميعًا ببسطه خلقه ، وكان شجاعًا مقدامًا سليم الجسد صحيح البدن ، حتى أنه صارع ركانة المشهور بشجاعته فصرعه ، وكان يثبت في الميدان حين يفر الشجعان ، ويفزع الخلق ، ويشتد الأمر ، ويقول : « **أنا النَّبي لا كذب ، أنا ابن المطلب** » ، ويقول : « **إليَّ عباد الله** » ، ولا يزال كذلك حتى ينقذ الموقف ، يكسب المعركة ، ولو أفضنا في هذا الموضوع لطال بنا الكلام ، ولكن موضعه كتب السيرة والشمائل المحمدية ، فارجع إليها إن شئت .

---

(١) لو صح هذا الزعم لأمكن أن يقال في موسى عليه السلام مثل ذلك ، لأنه كان حاد المزاج ، ومعاذ الله أن يكون موسى وغيره من الأنبياء كانت نبوتهم نتيجة أعراض وأمراض نفسانية ، بل الأنبياء منزهون من مثل هذه الأمراض ، ولكن هؤلاء القوم قد تخلوا عن العقل ، وإلا لو كان لهم ذرة من العقل وعشرة من الإنصاف ، لقرأوا سيرة الرسول وتاريخه في بعض الكتب التي أُلفت في هذا الشأن مما كتبه المسلمون وكتبه منصفو الغرب ، أمثال كارليل وبرناردشو ، وعلى فرض أن يكون قد وهبوا شيئًا من العقل ، لكن كراهيتهم المتأصلة في نفوسهم للإسلام ، ونبيه عليه الصلاة والسلام ، وإرادة صد الناس عن الدخول في هذا الدين ، لما يعلمون من الإقبال عليه ، لما يحويه من المحاسن الباهرة ، ويدافع حقدهم المكين على الرسول الأمين ، فإنهم يثيرون هذه الشبهات التي هي أوهى من بيت العنكبوت بقصد التنفير والتشكيك ، وإبراز صورة منفرة عن النَّبي ودينه ، ولكن مهما عملوا وكادوا فسيبطل الله كيدهم ، ويحق الله الحق ، ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة : ٣٢] .

أما مرض « الهستريا » الذي يصمونه ﷺ كذبًا به ، فهو داء عصبي عضال ، أكثر إصاباته في النساء ، ومن أعراضه شذوذ في الخُلق ، وضيق في التنفس ، واضطراب في الهضم ، وقد يصل بصاحبه إلى شلل موضعي ، ثم إلى تشنج ، ثم إلى إغماء ، ثم إلى هذيان مصحوب بحركة واضطراب في اليدين والرجلين ، وقفز من مكان إلى مكان ، وقد يزعم المصاب أنه يرى أشباحًا تهدده ، وأعداء تحاربه ، أو أنه يسمع أصواتًا تخاطبه ، على حين أنه لا وجود لشيء من ذلك كله في الحس والواقع ، فهل يتفق ذلك وما هو معروف عن النَّبي ﷺ ، من أنه كان أُمَّة وحده في أخلاقه ، وثباته ، وحلمه ، وعقله ، ورباطة جأشه ، وسلامة جسمه ، وقوة بنائه ؟ .

ثم كيف يتفق ذلك الداء العضال الذي أعيا الأطباء ، وما انتدب له محمد ﷺ من تكوين أُمَّة شموس أبية، وتربيتها على أسمى نواميس الهداية ودساتير الاجتماع ، وقوانين الأخلاق ، وقواعد النهضة والرقي ؟ .

أضف إلى ذلك أنه نجح في هذه المحاولة المعجزة إلى درجة جعلت تلك الأمة بعد قرن واحد من الزمان هي أُمَّة الأمم ، وصاحبة العلم ، وربة السيف والقلم ؟، فهل للمريض المتهوس الذي لا يصلح لقيادة نفسه ، أن يتسنى له أن يقوم بهذه القيادة العالمية الفائقة ، ثم ينجح فيها هذا النجاح المعجز المدهش ؟ .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ويـنكر الفم طعم الماء من سقم [١]

الشبهة الرابعة : دعوى الأخذ عن بحيرا الراهب ، والجواب عنها :

من مزاعم المستشرقين وأكاذيبهم الفاضحة : أن محمداً ﷺ أخذ عن بحيرا الراهب في مدينة بصرى الشام ، لأنه ثبت في التاريخ أن محمداً كان يذهب إلى الشام ، فالتقى بالراهب السالف الذكر ، وكان الراهب نسطوريًا ينكر التثليث ، ويدين بالتوحيد ، فتتلمذ عليه ، وكون له دينًا زعم أنه أوحاه إليه ربه .

والجواب أن يقال :

إن تاريخ حياة محمد ﷺ قد اعتنى به العلماء ، من حين ولادته ﷺ إلى أن اختاره الله إلى جواره اعتناء كاملاً دقيقًا ، لم يغادروا صغيرة ولا كبيرة من أخلاقه

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني .

وسيرته وشمائله إلا ودونوها ، وتناقلتها الأجيال والأمم قرنًا بعد قرن ، وألفت المؤلفات العديدة التي لا يأتي عليها الحصر والعد من المسلمين ومن غيرهم ، واتفقوا على أن الأمية كانت متفشية في العرب ، لا يعرفون الكتابة ولا القراءة إلا النزر اليسير ، وشب ﷺ أميًّا بين قوم أُميين ، ولم تكن بمكة مدرسة ولا معلم ، ولم يتفق له ﷺ أن جالس عالمًا أو راهبًا ، وكل ما كان من أمر بحيرا معه أنه ذهب مع عمه أبي طالب ، وكان له من العمر سبع سنين وقيل : اثنتا عشر سنة ، وعندما رأى بحيرا سحابة تظله من الشمس وسأله عمه ، ماذا يكون هذا الغلام منك ؟ ، قال : هو ابني ، فقال : ما يكون لهذا الغلام أب في قيد الحياة ، قال : أنا عمه ، قال : صدقت ، ورأى بين كتفي المصطفى خاتم النبوة ، وعندما تحقق لديه أوصاف نبوته التي في التوراة ، وأنه النَّبي العربي ، أخبر عمه : أن يكون لهذا الغلام شأن ، ثم حذره عليه من اليهود ، فرجع به عمه ولم يتم الرحلة ، ولم يسجل التاريخ أن النَّبي ﷺ تلقى من الراهب درسًا أو تعلم منه شيئًا ، وذهب إلى الشام مرة أخرى للتجارة ، ومعه ميسرة غلام خديجة ، فقضى مهمته التجارية ورجع ، ولم يدون التاريخ أنه ذهب إلى أحد من الأحبار أو الرهبان أو اجتمع بأحد منهم ، فضلاً من أن يتلقى دروسًا عن أحد ، أو يأخذ علمًا ، ولكن إذا خلع الإنسان جلباب الحياء ، وأصبح لا يبالي بقيمة العلم ولا يحترم الناس ، يهون عليه أن يقول ما يريد ولو كان كاذبًا ، لا أساس له من الصحة ، ويفعل ما يريد ، ولو كان منافيًا للخلق والعفة ، وإلا فأين المصدر الذي يعتمدون عليه في هذا الكذب الفاضح ؟ .

وهذه الشبة باطلة لما يلي :

[١] كل دعوة لايؤيدها دليل مرفوضة لا تُقبل ولا تُسمع ، ودعواهم هذه بأخذه ﷺ عن بحيرا ، لا يسندها دليل ولا يقبلها عقل ، فإذًا هي مدفوعة ومردودة على صاحبها .

[٢] لو كان ذلك الراهب هو مصدر الوحي النازل على محمد ومنبع شريعته ، لكان أولى أن يكون هو نبيًا أو رسولاً لا محمداً ﷺ .

[٣] إن الراهب كان مسيحيًا ، وديانة محمد ﷺ تخالف المسيحية في العقيدة التي يدين بها المسيحيون والشريعة التي يعتنقونها ، فلو كان الراهب معلمًا له لوجدت اتفاقًا بين الديانتين ، إن لم نقل في كل شيء ، نقول في أكثر التعاليم الواردة .

[٤] إن هذا الزعم لو كان له ظل من الصحة أو نصيب من الواقع ، لكان أولى الناس أن يقول به العرب ، وخصوصًا قريشًا الذين عارضوا النَّبي ﷺ وخاصموه ، وكانوا حرصين أن يلصقوا به ما هو منه بريء ، وأن يأخذوا عليه المآخذ التي تدينه ، وتبطل ادعاء النُّبوة ، ولقالوا : ما أوحى الله إليك شيئًا ، وإنما تعلمت من بحيرا أو من غيره ، وأتيت لنا بما سميته دينًا ، زاعمًا أن الله أوحاه إليك وأرسلك إلينا ، ولكنهم على شدة عنادهم وقوة معارضتهم وعنادهم ، لم يلطخوا أنفسهم بهذه الجريمة الشنعاء (١) .

---

(١) ذكرت قصة بحيرا الراهب كثير من كتب السير ، وبني المستشرقون عليها بناء شامخًا ، زعموا أن النَّبي ﷺ أخذ دينه من بحيرا الراهب النصراني ، وقيل يهودي ، وهذا كلام باطل لا أصل له لأمور ذكرت بعضها في صلب الكتاب ، ومنها : كيف يتأتى في جلسة واحدة تستغرق بضع دقائق ، أن يأتي بهذا الدين العظيم الذي فارق جميع الأديان السماوية ، والذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة مما يحتاجه العباد لدينهم ودنياهم إلا وذكر القرآن إما تصريحًا وإما بقواعد مجملة ، استنبط منها العلماء الأحكام للحوادث المستجدة لكل عصر وآن ، هذا كله على فرض ثبوت هذه القصة ، وإلا فقد طعن فيها كثير من العلماء .

وإليك ما قاله العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي في سيرته :

وقد جاءت هذه القصة مطولة في سيرة ابن هشام وغيرها ، وتكلم في صحتها كثير من النقاد والمحدثين ، رواية ودراية ، وقد جاء في « سيرة النَّبي ﷺ » للعلامة شبلي النعماني : أن جميع روايات هذه القصة مرسلة ، فإن كل من روى هذه القصة من الصحابة ، إنما سمعها من غيره ولم يسمعه ، وقد قال الترمذي بعدما روى هذا الحديث ، حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، ومن رواته عبد الرحمن بن غزوان ، وقد تكلم فيه أكثر أهل الصناعة ، فقال العلامة الذهبي : كان يروى الأحاديث المنكرة ، وأشدها نكارة الرواية التي جاء فيها قصة بحيرا ، ومما يقدح في هذا الحديث أنه قد جاء فيه أن أبا طالب أرسل رسول الله ﷺ مع بلال ، قال العلامة ابن القيم في زاد المعاد : ووقع في كتاب الترمذي وغيره ، أنه بعث بلالاً ، وأنه من الغلط الواضح ، فإن بلالا إذ ذاك لعله لم يكن موجودًا ، وإن كان فلم يكن موجودًا مع عمه ولا مع أبي بكر رضي الله عنه . أ هـ .

وقد ذكر الشيخ أكرم ضياء العمري في كتابه السيرة النبوية الصحيح (جـ١) انتقادات الذهبي لقصة بحيرا الراهب وأطال فيها ، فارجع إليه إن شئت .

الشبهة الخامسة : وهي دعوى الأخذ عن ورقة بن نوفل والتتلمذ عليه ، والجواب عنها :

يقولون : أنه ﷺ كان يلقى ورقة بن نوفل وكان من متنصري العرب، ومن العلماء بالدين المسيحي، وكان من أقارب خديجة زوج النَّبي ﷺ ، يوهمون الناس الجهلاء، بأن النَّبي أخذ عن ورقة وتتلمذ عليه، فتكون نبوة محمد مصدرها من ورقة .

والجواب :

إن علماء الحديث والسير استقصوا كل ما عرف عن ورقة مما صح سنده ومما لم يصح ، وقد أورد البخاري حديث بدء الوحي، وقد سبق ذلك في بيان ابتداء الوحي ، وفي حديث البخاري ، أن خديجة أخذته ﷺ عقب إخباره إياها بما رآه في غار حراء إلى ورقة هذا ، وأخبرته خبره وكان شيخًا قد عمي ، ولم يلبث بعد ذلك أن توفي ، ولم ينقل أن النبي ﷺ رآه قبل ذلك ، وإنما ورد في بعضها أنه قال حين علم من خديجة خبر محمد ﷺ : إنه هو النَّبي المنتظر الذي بشر به المسيح عيسى بن مريم ، وفي بعضها أنه عاش حتى رأى بلالاً يعذبه المشركون ليرجع عن الإسلام ، ولكن هذه الرواية شاذة مخالفة - أي لم يلبث أن مات - وقد كان تعذيب بلال بعد إظهار دعوة النبوة ودخل الناس فيها ، وكان هذا بعد بدء الوحي بثلاث سنين .

وكل ما في أمر الرسول وورقة ، أنه عندما جاء من الغار وأخبر خديجة بما رأى ، ذهبت به إلى ورقة ، فقال له : اسمع من ابن أخيك ، فأخبره المصطفى ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزله الله على موسى (١) ، ياليتني فيها جذعًا إذ يخرجك قومك ، فقال الرسول ﷺ : « أومخرجي هموا » ، قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك حينًا أنصرك نصرًا مؤزرًا ، ثم لم يلبث ورقة إلا مدة قليلة ثم توفي ، فأين في هذه الجلسة القصيرة أخذ الرسول النبوة التي أتت بهذه الشريعة العظيمة ، التي سلم جميع العقلاء المنصفين

---

(١) ولم يقل عيسى مع أن ورقة كان نصرانيًا وعيسى قد أتى من بعد موسى ، لأن شريعة عيسى هي نفس شريعة التوراة ، إلا أنه جاء لنسخ قليل من شريعة التوراة كما قال الله تعالى : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران : ٥٠] .

والعلماء الراسخين ، أنها تفوق كل الشرائع السماوية السابقة ، فأجدر أن تفوق الوضعية ، لو أراد الإنسان أن يتعلم فصلاً يتألف من عدة سطور لأراد جلسة طويلة مع المعلم ،فكيف بهذا القرآن العظيم الذي أنزله الله منجمًا في ثلاث وعشرين سنة ، الذي حوى من الشرائع والآداب والأحكام والأخلاق والسياسة والاجتماع وقصص الأنبياء السابقين وغيرهم ، ما لو قرأه ذكي لأراد أن يمضي من عمره سنين عديدة ، ولكن هؤلاء الخبثاء لا أظن أنهم تخفى عليهم هذه الحقائق ، لكن حقدهم وبغضهم للرسول ولدين الإسلام ، وقصدهم تشويهه وصد الناس عنه وخدمة لدولهم المستعمرة ويثيرون مثل هذه الشبهات ويتلاعبون بعقول الناس ، ويسبكونه بقالب العلم والنقد التحليلي ، لكي تروج شبهاتهم على الجاهلين بحقيقة الدين الإسلامي ولا سيما الغربيين ، لأن أفكارهم قد سممها المستشرقون والقسس والرهبان بأكاذيبهم على نبي الإسلام ودينه الحنيف ، وقل منهم من يجد أو يبحث عن كتاب يبرز الإسلام بشكله الجميل ومحاسنه العظيمة ، لأن المسلمين المتضلعين من الثقافة القديمة والحديثة والمتمسكين بالعقيدة الصحيحة والدين الحنيف قليلون ، والكاتبون عن الإسلام الصحيح باللغات الأجنبية أيضًا قليلون ،فلذا قلّت الكتب باللغات الأجنبية ، ولم تكن ميسرة لمن يريد البحث عن حقيقة دين الإسلام ، ومن أجل ذلك نرى الكثيرين الذين هداهم الله للإسلام ، كان نتيجة لبحثهم عن الدين في كتب بعض المسلمين ، ممن كتبه باللغة العربية ، وبعض كتب المستشرقين المنصفين ، وعليه أصبحت شبهاتهم كلها ليس لها نصيب من الصحة ، ولا يؤيدها برهان ولا ذوق ولا وجدان، فانهارت وتبخرت أمام أضواء الحق كالسراب ﴿ **يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا** ﴾[النور : ٣٩] .

دلائل نبوته ﷺ

إن الدلائل الدالة على صدق بنوة سيدنا محمد ﷺ أكثر من أن تحصرها الأقلام ، لكثرة أفرادها وأنواعها ، من الأقوال والأفعال والأوصاف التي لم يتصف بها غيره ممن سبقه من الأنبياء والمرسلين ، وبالأحرى لم ولن يحظ غيره بها من سائر البشر ، منذ أن خلق الله آدم إلى حين انتهاء الدنيا ، وهذا وإن دل على شيء فإنما يدل على مزيد التشريف والتكريم لخاتم النبيين وسيد المرسلين من رب العالمين ، الذي اصطفى محمداً من سائر الأنام عمومًا ، ومن العرب خصوصًا ، وفضله على سائر الرسل الكرام وجعله الأنبياء وإمام الأصفياء ، ونسخ بدينه سائر الأديان ، وخصه بخصائص ترفع من مقامه الشريف ، وتسمو بدرجته وتبرهن على تفضيله على جميع الخلق على الإطلاق .

وتنقسم تلك الدلائل إلى عقلية حسية ، ومعجزات نبوية ، وهي أيضًا من الدلائل الحسية ، وبشائر .

الأدلة العقلية :

وإلى القاريء بيان بعض منها :

الدليل الأول :

إن من يقرأ سيرة الرسول ﷺ ويتدبرها بإمعان وإنصاف ، من حيث ولادته إلى وفاته ، يعلم علم اليقين جازمًا لا سبيل إلى الريب فيه ، أنه كان ﷺ صادقًا في نبوته ورسالته ، وذلك أن قد عرف منذ طفولته ونعومة أظفاره ، حتى آخر لحظة من حياته ، أنه نشأ أوجد الناس عفة ، وأشرفهم قصداً ، وأحكمهم كلامًا ، وأصدقهم حديثًا ، وأسماهم أمانة وسيرة ، قد جمع كل خلال الخير من الحلم والصبر والمروءة ، والشكر والعدل والنزاهة ، والتواضع والشجاعة والحياء والسخاء والوفاء ورجاحة العقل والصدق والأمانة ، ولم يجربوا عليه كذبًا قط ، حتى أن أعداءه المشركين لم يتهموه بكذب ، بل شهد له خصومه بصدق الحديث وكمال الأمانة .

وإلى القاريء أمثلة من شهادة الخصوم بصدق واعترافهم بأمانته :

﴿ أ ﴾ أخرج الشيخان والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** (٢١٤) ﴾ [الشعراء : ٢١٤] ، صعد النَّبي ﷺ على الصفا ، فجعل ينادي : « **يا بني فهر ، يا بني عدي** - لبطون قريش حتى اجتمعوا - **فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقي ؟** » ، قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقًا ، قال : « **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد** » ، قال أبو لهب : تبًّا لك يا محمد ، ألهذا جمعتنا ، فنزلت : ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** (١) ﴾ [المسد : ١] .

﴿ ب ﴾ أخرج البيهقي عن المغيرة بن شعبة قال : إن أول يوم عرفت فيه رسول الله ﷺ ، أني أمشي أنا وأبو جهل في بعض أزقة مكة إذ لقينا رسول الله ﷺ فقال رسول الله لأبي جهل : يا أبا الحكم هلم إلى الله ورسوله ، أدعوك إلى الله ، فقال أبو جهل : يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا ، هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغت ، فنحن نشهد أنك قد بلَّغت فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك،فانصرف رسول الله ﷺ ، وأقبل عليَّ فقال : والله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعني شيء ، أن بني قصي قالوا : فينا الحجاب ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا السقاية ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا الندوة ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا اللواء ، فقلنا : نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا : منا نبي ، والله لا أفعل » وأخرجه ابن أبي شيبة بنحوه .

﴿ جـ ﴾ روى البخاري ومسلم قصة أبي سفيان عند هرقل كما حدَّث بها أبو سفيان ابن عباس ، ومنها سؤال هرقل لأبي سفيان هذا ، قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، قلت : لا ، وفي آخر القصة يقول هرقل لأبي سفيان : وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فزعمت أن لا ، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى .

ومن هنا استدلت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها ، حينما جاءها ﷺ راجعًا من غار حراء على حفظ الله له من مس الشياطين ، وحفظه من إخزاء الله له حينما أخبرها بما

أقرأه ملك الوحي ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① ﴾[العلق : ١] حتى بلغ ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[العلق : ٥] ، وقال : وقد خشيت على نفسي ، فقالت له : كلا ، أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث ، وتحمل الكَلَّ... إلخ ، تعني ﷺ أن من كان مطبوعًا على تلك الصفات ، وأعظمها صدق الحديث ، لا يخزيه الله ، ولا يسلط عليه الشيطان ، بل يكون مصونًا ، مهابًا ، ومختارًا لأمر عظيم يراد به .

﴿ د ﴾ **شهادة الاتباع :** إن أصحاب رسول الله ﷺ لم يكونوا أغرارًا ولا مغفلين ، بل أثبت التاريخ من أفعالهم وأقوالهم أنهم أرجح الناس عقولاً ، وأكثرهم دهاء وحنكة بالرجال والشعوب وسياسة الأمم ، بدليل أنهم نجحوا رغم محدودية وسائلهم بفتكهم بأعظم الدول المتحضرة وقتذاك ، وإدارتها ، وكسب مودة شعوبها ، ودمجهم بعد ذلك في الأمة الإسلامية ، فإذا ما اجتمعت هاتان الناحيتان ، الخلطة الدائمة وذكاء المخالطين ، فإن أمر الكاذب يفتضح ، وأمر الصادق يتضح ، ولكنهم كانوا كلما ازدادوا برسول الله خلطة ، ازدادوا به إيمانًا وتصديقًا ، بل أكثرهم اختلاطًا به أكثرهم إيمانًا به وطاعة له ، وقد بلغ هذا معهم ، لدرجة أن أصبح الموت من أجل ما يريده الرسول أحب إليهم من الحياة ، وإنفاق المال أحب إليهم من إمساكه ، والطاعة أحب إليهم من المعصية ، ودين الرسول أحب إليهم من الأموال والأولاد والمساكن والزوجات والوطن [١] ، إذ لولا إيمانهم الراسخ وحبهم الكامل لله ولرسوله لما فعلوا ذلك ، بل أعظم من ذلك أن منهم من قتل أباه ، وأراد الأب قتل ابنه ، وإن أردت توضيحًا أكثر لتكون كشاهد عيان ، فاسمع ما أتلوه عليك :

لما أسلم بلال ، وكان من السابقين إلى الإسلام ، وكان رقيقًا لأمية بن خلف ، فاشتد غضب ذلك اللئيم ، وأخذ يعذب بلالاً بصنوف العذاب الأليم ، فكان يضربه ضربًا مبرحًا ، ويخرجه إذا حميت الظهيرة بعد أن يجيعه ويعطشه يومًا وليلة ،

---

(١) والدليل على ذلك أن الصحابة هاجروا إلى الحبشة ، وهاجروا إلى المدينة المنورة ، وتركوا أموالهم ووطنهم ، وكثير منهم ترك عياله وزوجته ، فلم يبالوا في سبيل حب الله ورسوله بالمال ، ولا بالعشرة ولا بالوطن .

فيطرحه على ظهره في الرمضاء إذا اشتدت حرارتها ، بحيث لو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة توضع فوق صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيأبى ذلك ويقول : أحدٌ أحد ، فكان يعطيه للولدان، فيربطونه بحبل ويطوفون به في شعاب مكة ،وهو يقول: أحدٌ أحد ، فيمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان ، حتى مَرَ به أبو بكر وهو يُعذب ، فبادل سيده بعبد لأبي بكر ، وأنقذه من رق أُمية بن خلف وأعتقه .

كما عذب المشركون حمامة أم بلال ، فاشتراها أبو بكر وأعتقها ، وكان من المعذَّبين أبو فكيهة ، وكان عبداً لصفون بن أمية ، فكان صفوان يربط برجله حبلاً ويجره في نصف النهار في شدة الحر مقيداً إلى الرمضاء ، فيضع على بطنه صخرة فيخرج لسانه من شدة العذاب ، وكان أُمية بن خلف والد صفوان يقول له : زده عذابًا حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره ، فاشتراه أبو بكر فأعتقه .

وأما تعذيبهم لعمار بن ياسر ، وأبيه ياسر ، وأمه سُمية ، وأخيه عبد الله ، فكان يعذبونهم أشد العذاب ، مرة بالنار ، ومرة بالضرب ، وغير ذلك من أنواع العذاب ، لأجل أن يخرجوهم من دين الإسلام ، فمر بهم رسول الله ﷺ فقال : «**صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة** » ، فمات ياسر في العذاب ، وأُعطيت سُمية أم عمار لأبي جهل يعذبها ، وكان الذي أعطاها له عمة أبو حذيفة بن المغيرة ، لأنها كانت مولاته ، فأخذها أبو جهل وعذبها تعذيبًا شديداً رجاء أن يفتنها في دينها ، فلم تجبه لما يسأل ، ثم طعنها في فرجها بحربة فماتت ، وكان أبو جهل يُلبس عماراً درعًا من حديد في اليوم الصائف شديد الحر ويطرحه في الرمضاء .

وأما خباب بن الأرت ، فكان يُعذب بالنار ، فكانوا يوقدون النار ويضعونها على ظهره ، فما يطفيها إلى ودك ظهره ، أي شحم ظهره ، فأتى النبي ﷺ وهو متوسد ببردة في ظل الكعبة ، وقال : يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ؟ ، فقعد رسول الله ﷺ محمراً وجهه فقال له : « **إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط من الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ليظهرن الله الأمر حتى**

يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه » .

﴿ هـ ﴾ تعذيبهم لأبي بكر : خرج أبو بكر مع رسول الله ﷺ من دار الأرقم حتى أتوا المسجد ، فقام أبو بكر في الناس خطيبًا [١] ورسول الله ﷺ جالس ، ودعا إلى الله ورسوله ، وهو أول خطيب في الإسلام ، فثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين ، فضربوهم ضربًا شديدًا ، ووطيء أبو بكر بالأرجل ، وضرب ضربًا شديدًا ، وصار عتبة بن ربيعة يضرب أبا بكر بنعلين مخصوفتين على وجهه ، حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه ، فجاءت بنو تيم يتعادون ، فأجلت المشركين عن أبي بكر إلى أن أدخلوه منزله ، ولا يشكون في موته ، فرجعوا إلى المسجد فقالوا : والله لئن مات أبو بكر فنقتلن عُتبة ، ثم رجعوا إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وصار والده أبو قحافه وبنو تيم يكلمونه فلا يجيب ، حتى إذا كان آخر النهار تكلم ، وقال : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ ، فعذلوه فصار يكرر ذلك ، فقالت أمه : والله ما لي علم بصاحبك ، فقال : اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، وأم جميل هي أخت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، كانت أسلمت وتخفي إسلامها ، فخرجت أم أبي بكر إليها وقالت

---

(١) أيها القاريء الكريم ، تأمل ما حصل لأبي بكر من قريش ، فسيتضح لك وضوحًا لا لبس عليه تصديق أبي بكر الكامل لرسول الله ﷺ ، وإيمانه الراسخ ، إذ لو لم يعتقد صدق رسول الله في نبوته ورسالته ، لما آمن به قبل كل رجل حر ، بل بلغ من رسوخ إيمانه أن لم يكتف بإسلام نفسه ، بل أصبح داعيًا إلى الدين وإلى التصديق بالنَّبي الأمين ، ويعلم أبو بكر قلة عدد المسلمين حينذاك ، وضعفهم وعدم نصير لهم إلا الله ، ومشركو مكة من رؤسائهم وغيرهم ، أجمعوا على تكذيب رسول الله ، وإعلان العداء له والسخرية والاستهزاء بالرسول وبأصحابه ، وصب العذب عليهم ، فما بال أبو بكر بكل هذا ، حتى وقف خطيبًا يدعو إلى الإسلام ، فنال ما نال من العذاب الكثير والعذاب الشديد ، وأغمي عليه حتى آخر النهار ، وعندما أفاق لم يهتم بنفسه ولا بما أصابه ، بل قال : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ ، ثم حلف أن لا يذوق طعامًا ولا شرابًا حتى يأتي رسول الله ، فقل لي بربك من يساوي أبا بكر في هذه المنقبة الجليلة ، بغض النظر عن سائر مناقبه رضي الله عنه ؟ ، ولا عجب فقد ورد : لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجح إيمان أبي بكر ، فهل مثل هذا الرجل العظيم المتليء إيمانًا وحبًا ﷺ ولرسوله الكريم ، يقال في حقه أنه كان منافقًا كما يقول الشيعة ، وأنه لم يكن مؤمنًا إيمانًا صحيحًا ؟ ، ما الذي دفع أبا بكر أن يعرض نفسه للعذاب وللهلاك لو لم يدفعه إيمانه ؟ ، لا يظهر الرجل النفاق إلا في وقت يكون النصر لخصمه ، فمن جبنه ولؤمه يُظهر النفاق لتسلم له نفسه ، فأين القوة إذ ذاك الرسول الله والسلطان والسيرة حتى يروج النفاق ؟ ، ولهذا لما هاجر النَّبي إلى المدينة وكثر أصحابه ، وصارت له قوة ، حصل النفاق من بعض الأنصار ، ولم يحصل النفاق من قريشي قط .

لها : إن أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله ، فقالت : لا أعرف محمداً ولا أبا بكر ، ثم قالت لها : أتريدين أن أخرج معك ، قالت : نعم ، فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر ، فوجدته صريعًا فصاحت وقالت : إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق ، وإني لأرجو أن ينتقم الله منهم ، فقال لها أبو بكر : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ ، فقالت له : هذه أمك تسمع ، قال : فلا عين عليك منها ، قالت : سالم ، قال : أين هو ؟ ، قالت : في دار الأرقم ، فقال : والله لا أذوق طعامًا ولا شرابًا أو آتي رسول الله ﷺ ، فأمهلته أمه حتى هدأت الرجال وسكن الناس ، خرجت به أمه يتكيء عليها حتى دخل على رسول الله ﷺ ، فرق له رقة شديدة ، وأكب عليه يقبِّله ، وأكب عليه المسلمون كذلك ، فقال أبو بكر : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما بي من بأس إلا ما نال الناس من وجهي ، وهذه أمي برة بولدها ، فعسى الله أن يستنقذها بك من النار ، فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الإسلام ، فأسلمت .

وهذه الأمثلة التي ذكرتها عن أولئك الأصحاب ، الذين تقبلوا صنوف العذاب والهوان من كبراء قريش ، وصبروا على ذلك الأذى وصمدوا أمام جبروت أولئك المتغطرسين ، فما استكانوا وما ضعفوا ، بل كانوا يعلنون التوحيد والإسلام في حالة التعذيب ، كل مثال منها يدل على كمال تصديقهم بالرسول العظيم ، لثبوت صدقه عليه الصلاة والسلام عليهم ، فلو لم يكن لديهم صادقًا في دعواه النبوة والرسالة ، لما آمنوا به ، ولما صبروا على ما أوذوا ، بل بلغ من تصديق أصحاب رسول الله وحبهم له ، أنهم كانوا يفدونه بأنفسهم وأموالهم ، ويقتل بعضهم قريبه في ساحة الجهاد طاعة لله ولرسوله ، فلو لم يكن لدنيا من الأدلة على صدق نبوته إلا هذا الدليل الباهر وهو : أنه ﷺ من حينما بدأ ينطق في صغره ، لم يجرب عليه قومه كذبة ، أو يعرفوا عنه زلة أو هفوة لكفى .

قال محمد أحمد جاد المولى : ولو عرفوا شيئًا من ذلك ، أي من كذبة أو زلة أو هفوة ، ما وسعه أن يسفه أحلامهم ويسب آلهتهم غير خائف مما يخجله ، فإن الكذب يحط من قدر الإنسان في نفسه وعند غيره على أن الكذاب لا يمكن أن يكون مصدراً للكمال ، مرشداً إلى سني الخصال .

أضعف إلى ذلك أنه أنذر بلسان القرآن الكريم الكاذبين بالوعيد الشديد ، ولا يقع ذلك إلا من صادق امتلأ قلبه ، وفاضت نفسه بما يخبر به إلى حد يفوق الوصف ، ويخرج عن نطاق البيان ، على أن الذين عاشروه قد شاهدوا في كلامه وحركاته وأفعاله ما ملأ قلوبهم يقيناً ، بأنه صادق جاء بخبر من ربه بوحيه ، ومن ذلك أن بعض الأعراب أسلم حين رآه ، وقال : « والله ما هذا الوجه بوجه كذاب » .

لم يُعرف في السُنن الإلهية أن الله يؤيد في دعوى النبوة كاذبًا أو ينصر مبطلاً ، ففي ذلك الضرر العظيم ، وقد قال السيد المسيح عليه السلام : « سيظهر بعدي أنبياء كذبة » ، فقيل ما علامتهم ؟ ، فقال : « علامتهم أن الله لا يؤيدهم » .

وقد شهد الأعداء أن محمداً عليه الصلاة والسلام أوتي من النصر ما لم يؤته أحد من قبله ولا من بعده ، ومن ظن أن الله نصره وأيده مع كونه مبطلاً ، فقد جهل ما يليق بصفات الله تعالى وسُنَّته في خلقه ، وأساء الظن بعدالته وحكمته إساءة كبرى ، هل يستطيع الكاذب أن يخفي حاله طيلة حياته على الناس عامتهم وخاصتهم ؟ ، كلا ، فإن الرياء طلاء كاذب ، لا يلبث أن تقضي عليه حوادث الأيام ، وبخاصة إذا كان لصاحبه أعداء يحصون هفواته وسقطاته .

لا يستطيع كاذب [1] أن يخاطب اليهود ـ والتوراة بين أيديهم ـ يقول على لسان القرآن : ﴿ **الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ** ﴾[الأعراف : ١٥٧] ، ثم يوبخهم ويقرعهم بأنهم يجدونه فيها ، وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وليس من المتصور أن يجتريء على ذلك وهو يعلم كذب نفسه ، والكاذب ضعيف حتى عند نفسه [2] .

فإذا كان الرسول ﷺ صادقًا ومجمعًا على صدقه حتى اعترف أعداؤه ، فمن

---

(١) قال الكاتب الإنجليزي المعروف « كارليل » إنه لا يمكن أن يكون محمداً كذوبًا ، فإنه إن كان كذلك ، فلا يستطيع أن يأتي بمثل هذا الدين العجيب ، والله إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبني بيتًا من اللبن ، إذا لم يكن عليمًا بمواد البناء على اختلاف أنواعها ، فما بالك بمواد بناء صرح شامخ البنيان مدعم الأركان مثل دين الإسلام ، الذي ظل على قوته وعظمته قرونًا طوالاً . أ هـ . من كتاب الإسلام والرسول ، للمؤلف .

(٢) أ . هـ . ممن محمد المثل الكامل .

البعيد غاية البعد ، ومن غير المعقول ، أن يمتنع عن الكذب على الناس ثم يكذب على الله ، ويدعي بأنه أرسله الله إليهم كافة ، وهذا أمر يسلم به العقل وكل منصف .

وأما رجاحة عقله ﷺ فقد أجمع الموافق والمخالف ، على أنه كان عليه الصلاة والسلام أرجح الناس عقلاً وأكملهم سياسة ونبلاً ، يدلك على ذلك أنه لما بلغ من العمر خمسًا وثلاثين سنة ، تصدعت الكعبة ، واختل بنيانها من جراء السيول الكثيرة بسبب كثرة الأمطار وغزارتها ، وجددت قريش في نقل الحجر الأسود إلى موضعه ، تريد كل قبيلة منهم أن تختص برفعه ، واستعدت كل قبيلة منهم للقتال ، ومكث النزاع بينهم أربعة أيام ، ثم اجتمعوا في المسجد الحرام ، فقال أبو أمية بن المغيرة ، وكان أسن قريش : اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم ، فاتفقوا على ذلك ، فكان أول داخل منه رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر ، فوضع ﷺ إزاره وبسطه في الأرض ، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعًا ففعلوا ، فكان في ربع عبد مناف عتبة بن ربيعة ، وكان في ربع بني مخزوم زمعة ، وكان في الربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة ، وكان في الربع الرابع قيس بن عدي ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه ﷺ في محله بيده الشريفة [١] .

فانظر - رعاك الله - كيف فض النزاع ، وقضى على الخلاف ، وحقن الدماء التي كادت أن تسيل من جراء النزاع والخصام والشقاق بحكمته [٢] البالغة ، وسياسته الحكيمة ، ونظره الصائب ؟ ، وأصبحت قريش تنظر إليه نظرة ملؤها الإجلال والاحترام ، لما رأوا فيه من خلال حميدة ، وأخلاق عظيمة ، وعقل وافر ، وأما صفة الأمانة ، فقد اشتهر بها عليه الصلاة والسلام ، وأصبح مضرب الأمثال ، واتفقت عليها كلمة الأعداء والأحباء ، وإن شئت الدليل ، فإليك البيان :

ذكر أهل السير والتواريخ ، وأعني من كتب في سيرته ﷺ أن قريشًا مع شدة

---

(١) أ . هـ ، من حياة سيد العرب ، (جـ ١) .
(٢) الجار والمجرور متعلق بقوله فض النزاع .

مخالفتهم له ، والكفر بما جاء به ، وعنادهم وعداوتهم ، عداوة بلغت على أنهم عزموا على الفتك به ، فأنجاه الله من كيدهم بالهجرة إلى المدينة ، وبالرغم من ذلك كله ، فقد كانوا يودعون لديه الودائع ، ويأتمنونه على أموالهم ، حتى أنه عليه الصلاة والسلام أمر عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن ينام على فراشه ليلة أن أراد الهجرة ، وأن يسلم الودائع لأربابها ، وإذا كانت الأمانة قد بلغت تلك الدرجة العالية حتى أصبح موثوقًا به ، ومؤتمنًا عند الموافق والمخالف ، فمن غير المعقول إذًا أن يخون الله ، ويكذب عليه ، ويدعي أنه مرسل منه إلى الأنام ، وهو كاذب خائن ، حاشاه من ذلك ، وبرأه الله مما هنالك .

الدليل الثاني :

هو أنه عليه الصلاة والسلام ، لما أخبر قريشًا بنزول الوحي عليه ، وأنه نبي مرسل إليهم ، بادر إلى تصديقه والإيمان برسالته أقرب الناس إليه صحبة وأعلمهم به ، وأمسهم قرابة ، فأول من أسلم من الرجال الحرار أبو بكر الصديق ، صحب النَّبي قبل البعثة عشرين سنة ، وعمره إذ ذاك ثمان عشرة سنة ، ومن النساء خديجة بنت خويلد رضي الله عنها زوجته التي عاشرته مدة خمس عشرة سنة قبل أن يُبعث ، ومن الغلمان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومن الأرقاء بلال رضي الله عنه ، ومن الموالي زيد بن الحارثة رضي الله عنه ، كما أسلمت أم أيمن بركة بنت ثعلبة مولاة النَّبي وحاضنته ، وأم رومان زوجة أبي بكر ، وأم الخير بنت صخرة بنت عامر والدة أبي بكر الصديق ، وأسماء بنت أبي بكر [1] .

فمبادرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وهو من عرفت صحبته الطويلة لمحمد بن عبد

---

(١) ذكرت هؤلآء السابقين إلى الإسلام ، ولم أذكر عثمان ، وعمر ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم ، لأن أولئك كانوا أسبق من هؤلاء إلى الإسلام ، وكان لهم الخلطة والصحبة والمعاشرة ما ليس لهؤلاء ، فأبو بكر قد صحب الرسول ﷺ قبل البعثة عشرين سنة ، وعرف من صفاته وأخلاقه ما لم يعرفه الكثيرون ، وإن كان الرسول ﷺ على وجه الإجمال والعموم معروفًا لدى قريش بحُسن السيرة والصدق والأمانة ، لكن معرفة أبي بكر لصحبته الطويلة أكثر ، وكذلك عليّ بن أبي طالب لأنه تربي في بيت النَّبي ، وحسبك معرفة زيد بن حارثة الذي اختار الرسول ﷺ على أبيه وعمه ، لأنه أخذ عنه مدة طويلة قبل أن يأتي أبوه وعمه ، وشاهد من سيد العالمين الخلال الحميدة والصفات السنية ، ما ملك عليه مشاعره ، وعرف أنه الصادق المصدوق ، إذ من غير المعقول على ذلك العظيم أن يتدنس بأقذار الكذب .

الله ، قبل أن يرسل لدليل على صدق النَّبي ، وقل مثل ذلك في إسلام زوجته البرة الطاهرة خديجة بنت خويلد ، إذ مهما خفيت أخلاق الزوج السيئة على الغير ، كالكذب والنفاق وحب الشهرة والدجل ، لا تخفى على زوجته التي عاشرته تلك السنين ، وبالطبع أن كل واحد من الزوجين يعرف أخلاق الثاني ما لا يعرفه غيره ، وكذلك عليّ بن أبي طالب الذي رباه النَّبي في حِجْره ، وهو الذي قام بتربيته ، لا تخفى عليه سيرة الرسول وأخلاقه ، وأضف إلى هؤلاء زيد بن حارثة الذي كان مملوكًا لخديجة بنت خويلد ، فوهبته للرسول ، وكان قد نهبه بعض العرب وهو صغير فباعه في سوق عكاظ ، ولما جاء أبوه وعمه يريدان أن يفدياه من الرسول ، خيره بأن يختار أباه وعمه أو يختاره ، فقال زيد : ما أنا بالذي أختار عليك أحداً .

فسبق هؤلاء إلى الإسلام ، والتصديق برسالة سيد الأنام ، وهم الذين صحبوه وعاشروه ، وعرفوا مدخله ومخرجه ، وعرفوا سيرته الطاهرة ، وأخلاقه الكريمة ، لدليل على ما قلناه ، إذ العادة الجارية ، والعقل حاكم ، أن من أتى بدعوى النبوة والرسالة ، بل بدعوى العلم والفضل أو الصلاح والديانة ، فإنه وإن راجت دعايته الكاذبة ، وأذعن لها من لا يعرفه حق المعرفة من البعداء ، فليس من شك أن لا تروج دعايته على أقربائه وأصدقائه الذين صحبوه منذ الصغر ، وعرفوا منه كل صغيرة وكبيرة من أخلاقه وأعماله ، وعليه فقد اتضح أن مبادرة هؤلاء إلى الإيمان برسالته ، لمن أقوى البراهين على أنه ﷺ كان صادقًا في دعوى النبوة والرسالة ، إذ ليس من المعقول أن لا يعرف

فإن قيل : قد يهب الله بعض الناس من الأخلاق الفاضلة ، والسيرة الحسنة ، والمعاشرة الطيبة ، ما تنجذب إليه الأفئدة ، ويصبح موضع الاحترام والإجلال ، وتصديقه فيما يقول ، ولا يلزم من اجتماع هذه الأوصاف أن يكون نبيًّا .

فالجواب : من وجهين :

الأول : لم تجتمع الفضائل عارية من النقائص لبشر كما اجتمعت للنَّبي ﷺ وقد أحسن من قال :

فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم

فاق النَّبيين في خلق وفي خُلق ... ولم يدانوه في علم وفي كرم

الثاني : إن من أكبر دعائم الأخلاق الفاضلة الصدق والأمانة ، فلا يمكن أن يكون الرجل فاضل الأخلاق ، صادق اللسان ، حسن السيرة والشمائل ، موضع الثقة والاحترام ، ويدعي كذبًا وافتراء على الله جل جلاله ، أنه أُوحي إليه وتوجه بتاج النبوة والرسالة ، ولا أظن أحدًا يستريب في ضعف هذا السؤال ، وصحة الجواب القاطع لعرق كل مشاغب ومرتاب .

أولئك الأجلاء مع طول الصحبة صدقه ، ويؤمنوا به ، أو يعرفوا كذبه فيتبعوه ، إن هذا من البطلان بمكان سحيق .

الدليل الثالث :

أنه قد عارضه أقرباؤه وأهل بلده أولاً ، ثم سائر أهل الأرض وقفوا معه موقف العناد تارة ، والاستهزاء والسخرية حينًا ، وصبوا عليه أنواعًا من العذاب (١) وعلى أصحابه حينما كان بمكة المكرمة ، كما رغبوه تارة أخرى في المال أو الملك والسيادة

(١) وإلى الواقف بعض أنواع العذاب الذي حصل من قريش لمن جاءهم يخرجهم من الظلمات إلى النور :

[١] عن ابن أبي يبة عن عمرو بن العاص ﵁ قال : ما رأيت قريشًا أرادوا قتل النَّبي إلا ائتمروا به وهم جلوس في ظل الكعبة ، ورسول الله يصلي عند المقام ، فقام إليه عقبة بن معيط فجعل رداءه ، فأقبل أبو بكر ﵁ يشتد حتى أخذ بضبعي رسول الله ﷺ من ورائه ويقول : « أتقتلون رجلاً يقول ربي الله » ، ثم انصرفوا عن النَّبي ﷺ ، فصلى ، فلما قضى صلاته مر عليهم وهم جلوس في ظل الكعبة ، فقال : يا معشر قريش ، أما والذي نفس محمد بيده ، ما أرسلت إليكم إلا بالذبح ، وأشار بيده إلى حلقه ، فقال أبو جهل : ما كنت جهولاً ، فقال له رسول الله : « أنت منهم » .

[٢] وأخرج البيهقي عن عبد الله بن جعفر ﵄ قال : لما مات أبو طالب ، عرض لرسول الله ﷺ سفيه من سفهاء قريش ، فألقي عليه ترابًا ، فرجع إلى بيته ، فأتت امرأة من بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكي ، فجعل يقول : أي بنية ، لا تبكين ، فإن الله مانع أباك .

[٣] وأخرج البزار والطبراني عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال : بينما رسول الله ﷺ في المسجد ، وأبو جهل بن هشام وشيبة وعتبة ابنا ربيعة ، وعقبة بن أبي معيط ، وأُمية بن خلف ، ورجلان آخران ، كانوا سبعة وهم في الحجر ورسول الله ﷺ يصلي ، فلما سجد أطال السجود ، فقال أبو جهل : أيكم يأتي جزور بني فلان فيأتينا بفرثها ، فنكفئه على محمد ، فانطلق أشقاهم عقبة بن أبي مُعيط ، فأتى به فألقاه على كتفه ورسول الله ﷺ ساجد ، قال ابن مسعود : وأنا قائم لا أستطيع أن أتكلم ، ليس عندي منعة تمنعني ، فأنا أذهب إذ سمعت فاطمة بنت رسول الله ﷺ فاقبلت حتى ألقت عن عاتقه ، ثم استقبلت قريشًا تسبُّهم فلم يرجعوا إليها شيئًا ، ورفع رسول الله ﷺ رأسه كما كان يرفعه عند تمام السجود ، فلما قضى ﷺ صلاته قال : « **اللهم عليك بقريش ثلاثاً ، عليك بعتبة ، وعقبة ، وأبي جهل ، وشيبه** » ، ثم خرج من المسجد فلقيه أبو البختري بسوط يتخصر به ، فلما رأى النَّبي ﷺ أنكر وجهته ، فقال : ما لك ؟ ، فلقد أصابك شيء ، فلما علم النَّبي ﷺ أنه غير مخل عنه أخبره فقال : إن أبا جهل أمر فطرح عليَّ فرث ، فقال أبو البختري : هلم إلى المسجد ، فأتي النَّبي ﷺ وأبو البختري فدخلا المسجد ، ثم أقبل أبو البختري إلى أبي جهل فقال : يا أبا الحكم ، أنت الذي =

على أن يترك هذه الدعوة ، فلم يكن منه إلا الثبات وقوة الجنان والصدع بالحق أمام جميع (١) العالم ، وهو مفرد فقير لا يملك درهمًا ، ولا ديناراً ، ولا سلاحًا إلا سلاح الإيمان ، والناس كلهم بضده وعلى خلاف دعوته ، فلم يتزلزل قيد أنملة ، ولم يجد

= أمرت بمحمد يُطرح عليه الفرث ؟ ، قال : نعم ، قال : فرفع السوط فضرب به رأسه ، قال : فثار الرجال بعضها على بعض ، قال : وصاح أبو جهل : ويحكم ، هي له ، إنما أراد محمد أن يُلقي العداوة بيننا ، وينجو هو وأصحابه .

ما ذكرته مما ناله ﷺ من أذى قريش،ما هو إلا نزر يسير من أعمالهم العدائية ، وسفاهتهم الجاهلية، فلو لم يفعلوا إلا مقاطعتهم لبني هاشم وبني المطلب ، لما رأوا من حماية أبي طالب للنَّبي ﷺ ، على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوا إليهم شيئًا ، ولا يشتروا منهم ، ولا يقبلوا منهم صلحًا أبداً ، حتى يسلموا رسول الله للقتل ، ومضت مدة ثلاث سنوات ، وبنو هاشم وبنو عبد المطلب يقاسون من شدة المقاطعة شيئًا عظيمًا ، حتى أكلوا ورق الشجر من قلة وجود الطعام ، فلو لم يفعلوا إلا هذه المقاطعة اللئيمة الدالة على منتهى لجاجتهم وعنادهم وقطعهم للرحم ، وتحجر أفئدتهم ، وقسوة قلوبهم ، لكفى ، وأما ما أنزلوه على أصحابه من العذاب والأذى فقد ذكرت قطرة من بحر لجي تحت شهادة الأتباع التابعة للدليل الأول .

(١) ولما مضى رسول الله ﷺ يظهر دين الله الذي ارتضاه لعباده ، ويدعو إليه ، ولا يرده عن ذلك عناد المعاندين ، ولا ضلال المضلين ، ولا زيغ الزائغين ، اجتمعت أشراف قريش من كل قبيلة ، وقالوا : ابعثوا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت محمداً الذي فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكلمه ولينظر ماذا يريد ؟ ، حتى نعذر إليه ، فقالوا : لا نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة ، وكان النَّبي جالسًا في المسجد وحده،فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي ، إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفَّرت به من مضى من آبائهم ، أنت خير أم عبد الله ؟ ، أنت خير أم عبد المطلب ؟ ، إن كنت تزعم أنك خير منهم ، فقل يسمع لقولك ، لقد أفضحتنا في العرب حتى طار فيهم إن في قريش ساحراً ، وإن في قريش كاهنًا ، ما تريد إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى ، فاسمع مني ، أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها ، فقال رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع ، فقال : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بماجئت به من هذا الأمر مالاً ، جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفًا ، سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك ، وإن كنت تريد مُلكًا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رؤيا من الجن نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوي ، فقال له رسول الله ﷺ : « **لقد فرغت يا ابن الوليد** »، قال نعم ، قال: فاسمع مني ، قال: ففعل ، قال رسول الله ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم ① تنزيلٌ من الرَّحمن الرَّحيم ② كتابٌ فُصلت آياتُهُ قُرآنًا عربيًّا لقوم يعلمُون ③ بشيرًا ونذيرًا فأعرض أكثرُهُم فهُم لا يسمعُون ④ ﴾ » [فصلت : ١ - ٤] ، ومضى رسول الله يتلو السورة عليه ، وعتبة بن ربيعة ملق يديه خلف ظهره معتمداً عليها ، يسمع منه إلى أن انتهى رسول الله ﷺ لقوله تعالى : =

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾[فصلت : ١٣] ، فأمسك عتبة على رسول الله ﷺ وناشده الرحم أن يكف عن ذلك، ثم انتهى إلى السجدة فيها فسجد، ثم قال : قد سمعت أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك ، فقام عتبة إلى الصحابة فقال بعضهم لبعض يحلف : لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم : قالوا له : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ ، قال : ورائي أني سمعت قولاً : يا معشر قريش : أطيعوني ، فاجعلوها لي ، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ ، فإن تصبه العرب ، فقد كفيتموه بغيركم ، وإن ظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم ، ثم اجتمع أربعون رجلاً من أشرفهم ، منهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة ،وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث ، والوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أمية ، وأمية بن خلف ، بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه ، وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه ، إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم رسول الله سريعًا ، وهو يظن أنه بدا لهم في أمره ببداء ، وكان حريصًا عليهم ، يجب رشدهم حتى جلس إليهم ، ما جئتكم به لأطلب أموالكم ، ولا للشرف عليكم ، ولا للملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً ، وأخبرهم أن الله أنزل عليه كتابًا ، وأمره أن يكون بشيرًا ونذيرًا ، فبلّغهم رسالة الله ، فإن يقبلوا فهو حظهم من الدنيا والآخرة ، وأن يردوا يصبر حتى يحكم الله بينه وبينهم وأنزل الله في ذلك ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سبأ : ٤٧] ، وهنا أظهروا عنادهم الكبير ، ولجوا في طغيانهم ، وطلبوا منه على وجه التحدي والتعجيز أن يسأل الله ليسير عنهم تلك الجبال التي ضيقت عليهم، ويفجّر لهم الأنهار، ويبعث من مضى من آبائهم ، وليكن منهم قصي بن كلاب ، ليسألوه عما يقول محمد : أحق هو أم باطل ؟ ، وأجابهم النّبي ﷺ كالجواب السابق ، فطلبوا أن يسأل ربه أن يبعث ملكًا يصدقه ، ويجعل له جنّات وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضه ليتعين بها على أمور معاشه ، لكي لا يقوم بالأسواق يلتمس المعاش كسائر الناس ، فقال ﷺ : « **ما بعثت بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً** » ، فأنزل الله ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الفرقان : ٧ – ١٠] ، ثم قالوا : فأسقط السماء كما زعمت ، إن ربك إن شاء فعل ، فقال ﷺ : « **ذلك إلي الله ، إن شاء فعل ذلك بكم** » ، فقال قائل منهم : لن نؤمن لك حتى تأتي لنا بالله والملائكة قبيلاً ، وهكذا أخذوا يتفننون بأنواع من التحدي والتعجيز ، ولم يكن هدفهم الحق والبحث عن الحقيقة وطلب الدليل ليؤمنوا ، ولكن كان قصدهم المشاغبة والعناد وعدم التزحزح عن دين الآباء والأجداد ، وانسخوا من العقل والأدب ، وفاهوا بتلك الكلمات التي ملؤها الغطرسة والكبرياء حتي قالوا: لن نؤمن لك حتى تأتي لنا بالله والملائكة قبيلاً، فلولا ما بهم من داء الكبر والعناد والإباء ، لعرفوا أنهم أقل وأحقر من أن يكونوا أهلاً لأن يروا الله

الخوف إلى قلبه سبيلاً ، كما لم يتطرق اليأس إليه أبداً ، بل حينما كان مستضعفًا هو وأصحابه ، وكان المشركون يتفننون في تعذيب أصحابه ، ويضعون العقبات في طريقه ، يبشر أصحابه بالنصر ، وأن العاقبة لهم مهما اشتد الأمر وتنوع العذاب ، فلو لم يكن رسولاً من ربه ، واثقًا بصدق رسالته ، لما صبر على هذا العذاب والاضطهاد ، ولما وعد أصحابه القليلين بالنصر والتأييد ، وأن الكلمة لهم ، وهو يرى أن الدنيا كلها واقفة ضده ، اللهم إن هذا لا يفعله كذاب أبداً .

الدليل الرابع :

بعد أن أيده الله ونصره ، ودخل العرب في دين الله ، وبَعُدَ صيته ، ورجفت منه الملوك ، وأسس دينًا بوحي من الله ، ودولة مستقلة إسلامية بأمر الله ، وجلبت إليه غنائم الجهاد ، وأعطى السائلين عطاء من لا يخشى الفقر ، فهل تبدلت سيرته من بعد الفقر والاضطهاد ، أم كانت سيرته سيرة أنبياء، زاهداً في هذه الدنيا الفانية ، معرضًا عن زهرتها البائدة ، فلو كان كذابًا وحاشاه يريد حب الظهور والسيطرة والمال والجاه ، لرأيته بعد الغناء والثروة والشوكة والسيادة ، يسير بسيرة الملوك الظالمين ، يتفنن بلذات الدنيا وشهواتها، ويتنوع في ترفها ونعيمها، فهل كان شيء من ذلك؟، حاشا، وكلا .

الدليل الخامس :

أنه قد تحدى اليهود والنصارى ، وأخبرهم كما أخبره الله تعالى في كتابه ، أنهم يجدون نعته في كتبهم ، وأن الأنبياء الذين قبله قد بشروا به ، فهل أمكنهم أن يكذبوا ذلك ، بل آمن الكثيرون منهم ، وكفر من كفر منهم عناداً واستكباراً وتمويهًا

= والملائكة ، فإذا لم يره الأنبياء والأصفياء ، فكيف يراه هؤلاء الكفرة السفهاء ؟ ، ولا أخال أنهم أغبياء أو بلداء أو قاصروا الفهم عن إدراك قول الرسول ، وأو ما أُنزل إليه من ربه ، وهم يعرفونه حق المعرفة منذ نعومة أظفاره ، وأنه الصادق والمصدوق ، وأنه من الصدق والأمانة بمكان مرموق ، وأن ما أُنزل عليه فوق مستوى البشر ، ليس بالشعر ولا بالحسر ولا بالكهانة ، وإنما هو كلام عربي مبين ، يعجز عن إتيان أقل سورة منه جميع الإنس والجن ، كما قال الله : ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** (٨٨) ﴾ [الإسراء : ٨٨] ، أي : نصيراً ومعينًا ، ولكن كما قلنا دام القوم العداء الشديد ، والحسد المكين ، وتقليد الآباء الميتين ، وكبرياء إبليس اللعين .

على أن النَّبي المبشر به غير محمد ﷺ .

ولا يخفى [١] أن محمداً ﷺ في رجاحة عقله ، يستحيل أن يدعي البشارة به في التوراة والإنجيل ، ما لم يكن ذلك حقًا وصدقًا ، فإن كتب أهل الكتاب موفورة بين أيديهم ، فلو كان الأمر على غير ذلك لكان أبلغ منفر لهم منه ، وأعظم حجة يقيمونها عليه ، لكن إيمان هؤلاء وشهاداتهم بالتبشير به أمر جليل وبرهان ساطع على نبوة محمد ﷺ ، وقد عدَّ الفخر الرازي البشارة به ﷺ في التوراة والإنجيل من الدلائل العقلية على نبوته ، وبين أنه لا يعقل أن تصدر عنه دعوى البشارة به ، إلا أن تكون واقعة يقينًا ، فقال :

« ومعلوم أنه لو كان كاذبًا في ذلك ، لكان هذا من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قبوله ، ولا يليق بالعاقل أن يقدم على فعل يمنعه عن مطلوبه ، ويبطل عليه مقصوده من غير فائدة أصلاً ، ولا نزاع بين العقلاء ، أنه كان أعقل الناس وأحذقهم » . أ . هـ [٢] .

الدليل السادس :

إنه من أوضح الأدلة وأكبرها على صدق رسالته ، أنه نشأ يتيمًا فقيراً بين قوم أُميين ، لم تتفق له صحبة لعالم ، أو دخول مدرسة ، أو مطالعة كتاب ، لأن الأمية كانت متفشية بين العرب ، والكتابة نادرة ، لا سيما في الحجاز ، وما دخلت الكتابة مكة إلا قبيل الإسلام بقليل ، وتعلمها أفراد قليلون بلغ عددهم سبعة عشر رجلاً ، ولم يكن النَّبي ﷺ منهم ، ولم تكن بمكة مدرسة ولا عالم ولا معلم ولا حبر ولا راهب ، واشتهر عليه الصلاة والسلام بحسن السيرة والسريرة والصدق والعفاف والبعد عن كل نقيصه والاتصاف بكل فضيلة حتى بلغ الأربعين ، فنزل عليه الوحي المبين ، وأرسله الله إلى الناس أجمعين ، ولن يستطيع أحد أن يقول : إنه قد درس علمًا أو صاحب عالمًا أو رحل لطلب العلم ، وبالرغم من ذلك كله أتاهم بهذا القرآن المجيد ، وفيه من قصص الأنبياء والمرسلين ما لم يكن لليهود والنصارى أن يكذبوا

---

(١) بدء الكلام من نبوة محمد في القرآن .

(٢) من نبوة محمد في القرآن ، لحسن ضياء الدين عن الأربعين في أصول الدين للفخر الرازي .

بشيء من ذلك، وأخبرهم بما هو منعوت في كتبهم موصوف بأوصاف، ومنها الأمية ، كما قال الله تعالى : ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ** ﴾ [الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧] ، فلم يستطيعوا أن يبرهنوا على كذبه ، بل لجأوا إلى العناد ، فلو لم يكن نبيًا لما قال لهم واثقًا بما قال : إنكم تجدون أوصافي في كتابيكم وأنهما بشَّرا بي ، إذ لا يمكن لكاذب والحال أنه أُمِّي يواجه علماء الديانتين بهذا التحدي السافر ، ولو لم يكن نبيًا فمن أين أتى له هذا الكتاب الذي قد حوى مختلف العلوم والفنون، وأتى بهذه الشريعة الغراء الوافية بحاجات البشر من العقائد والأحكام والآداب والأخلاق والعبادات والسياسة والاجتماع ،كما حوى ذلك الكتاب كثيراً من أنباء الغيب الماضية والمستقبلة،مما يقطع العاقل بصدق الرسول ﷺ ولا يجد الإنكار إليه سبيلاً ،رسول وصفه الله بالأمية في قوله تعالى:﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ** ﴾ ، وفي قوله تعالى:﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)** ﴾ [العنكبوت:٤٨].

أي : لو كنت يا محمد قارئًا وكاتبًا ، لتسرب الريب والشك لأهل الباطل والضلال أن هذا الكتاب من تأليفه ، أو أنه قرأ كتب الديانتين وغيرها ، وجميع من هنا ومن هناك ، وأتى بهذا الكتاب وزعم أنه من وحي رب العالمين ، أما وأنت الأمي الذي لم تقرأ كتابًا ولن تقرأ ولم ولن تكتب ، ثم تأتيهم بهذا الكتاب العزيز ، وبهذه الشريعة السمحة الطاهرة ، التي تعترف العقول بحسنها ، فكيف يصح أن يكذبوك ، وأن ينسبوا إليك التهم كالسحر والكهانة والشعر والكذب والافتراء على الله ؟ ، وحاشاه من ذلك ، قال تعالى : ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ** ﴾[الأعراف : ٣٧] .

الدليل السابع :

نقول لمنكري نبوته : بماذا تثبتون نبوة موسى وعيسى وغيرهما ؟ ، فإن قالوا : بسيرتهم الطاهرة وشمائلهم الفاخرة ، فالرسول ﷺ قد فاقهم في هذه الصفات السنية ، وإن قالوا : بالمعجزات التي أيد الله بها موسى وعيسى وغيرهما ، قلنا لهم :

كذلك قد أيدا الله محمداً ﷺ بمعجزات كثيرة ، بلغ مجموعها مبلغ التواتر الذي لا يمكن رده ولا الشك فيه ، كما بينته الكتب المؤلفة في دلائل النبوة ، على أنهم لو طعنوا في نبوة محمد بأن تلك المعجزات لم تثبت ، فبماذا يثبتون نبوة موسى وعيسى وغيرهما ؟ ، مع أنه لم يتفق لهما ولا لغيرهما ما اتفق له ﷺ من ذلك التواتر الصحيح الإسناد في كل طبقاته ، وبماذا تحتج النصارى على اليهود ، الذين لا يصدقون بعيسى عليه السلام ولا يؤمنون بكتابه ؟ .

وأما فرض الاحتمالات : بأنه يحتمل أن المعجزات التي أتى بها الرسول ﷺ ، كانت من قبيل السحر أو الشعوذة ، أو من قبيل المعونة لبعض الصالحين ، أو أن الناقلين لها لم يصدقوا في ذلك النقل ، أو كان عنده شيء من العلوم التي يتعين على تلك الخوارق ، كما يفعله كثير من الدجاجلة والكذابين .

فالجواب :

أولاً : قدمنا أن من تأمل سيرته ﷺ ، عرف يقينًا أنه لم يكن ساحرًا ولا كذابًا ولا دجالاً ولا كاهنًا ، ولم يعهد أنه تعلم علمًا كما أطبق عليه جميع الناس .

ثانيًا : أن كل عاقل يميز بين سيرة الساحر والدجال والكذاب ، وبين سيرة النَّبي الصالح، وكل إناء بما فيه ينضح ، فالنَّبي لابد أن يأمر بما أمرت به الأنبياء من التوحيد والعدل والصدق ، ويخبر بيوم الجزاء وبما أعد الله تعالى للصالحين ، وما توعد به الكافرين والفاسقين ، والساحر لا يأمر بخير ، والدجال كذلك مثله لا يحوم إلا حول مال أو رياسة أو جاه أو منصب ، ولابد أن يثبت كذب المتنبيء الكاذب ، وصدق النَّبي الصادق الصالح .

وأما طعنهم في النقل ،فقد قلنا : إنه قد تثبتت معجزاته بطريق الإسناده الصحيح وبالتواتر ، لأن كثيرًا من المعجزات قد رواها العدول الثقات المجمع على حفظهم وضبطهم وأمانتهم ، مما لو انفرد بروايته طريق واحد من تلك الطرق الصحيحة لوجب قبوله ، فكيف وقد تعاضدت وتضافرت كلها على شيء واحد ، حتى بلغت مبلغ التواتر الذي لا يمكن رده ولا الشك فيه،وكل ما يقال من

الاحتمالات في معجزاته ﷺ أو في نبوته ورسالته ،يمكن لقائل أن يقول في إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم،ومن يتتبع الاحتمالات ويسترسل فيها مع الشك ، فقلما يصل إلى الإيمان أو يظفر بإيقان،وقد أنكر الملحدون وجود الله بناءً على تلك الاحتمالات ، وهو عز وجل أصل كل شيء ، وأظهر من كل شيء،ولا يعقل بدونه وجود شيء ،ولا عجب في الناس فإن فريقًا يطعن في المحسوسات ، ويقول : إنها لا تفيد العلم بناء على أن الحس كثيراً ما يغلط ، فإنك إن كنت في الباخرة رأيت الشاطيء جاريًا ، وترى حبة العنب في الماء كبيرة ، إلى أمثال ذلك من غلط الحس .

الدليل الثامن :

ومن الأدلة على صدقه وكمال نفسه وعلوها ، وقوة رسوخه في صفات الكمال ، ونعوت الرفق والجلال ، ما كان حريصًا عليه أشد الحرص حتى كاد أن يهلك نفسه من أجله ، فقال له مولاه : ﴿ **فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ** ﴾ [فاطر : ٨] ، أي : على فوات ما كان مهتمًا به غاية الاهتمام ، من دعوة الناس إلى ما يسعدهم في دينهم ودنياهم ، وأخذه بيدهم إلى مكارم الأخلاق من كل باب ، ووضع القوانين العادلة والشرائع الفاضلة ، التي رفعت الأمة العربية من حضيض المهانة إلى أوج العز والرفعة ، وجعلتهم ملوكًا بعد أن كانوا سوقًا لا يعبأ بهم ولا يلتفت إليهم أحد ، فأصبحوا بعد هذه التعاليم النبوية أرفع أمم الأرض على الإطلاق بعدما كانوا أحطها على الإطلاق ، فانظر رعاك الله بعين التدبر في نفس تكاد تهلك حرصًا على سعادة غيرها ، هل تكون نفسًا دنيئة مظلمة كاذبة ساقطة ؟ ، كلا والله ، ثم كلا والله ، بل إن شئت فانظر وفقك الله إلى حاله يوم أُحد ، وقد شجوا وجهه وكسروا رباعيته ، وفعلوا له ما يذهب بلب الحليم ورشد الحكيم ، وهو يقول : اللهم اغفر لقومي ، فإنهم لا يعلمون ، لتعلم ما مقدار تلك الرحمة التي لم تذهب بها تلك الأفاعيل الفظيعة ، وما مقدار ذلك الاتصاف التي لم تستأصله تلك الأعمال الشنيعة ، حيث يذكر عذرهم فيما فعلوه وهو في ذلك المقام بقوله : « **اللهم اغفر لقومي ، فإنهم لا يعلمون** » ، اللهم إن ذلك لا يكون إلا من نفس قد تخلصت من الحظوظ البشرية ، وفنيت بالكلية في

الأوامر الإلهية .

الدليل التاسع :

إخباره ﷺ بالمغيبات وتنقسم إلى قسمين :

أولاً : إخباره بالأمور الغيبية على لسان القرآن الكريم ، الذي هو المعجزة العظمى .

ثانيًا : إخباره بالمغيبات على لسانه ﷺ .

أما القسم الأول :

فقد جاء في القرآن أخبار غيبية كثيرة ، وأكتفي بالقليل خوفًا من التطويل ، وهاك البيان :

[١] قال تعالى : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ (١) [النور : ٥٥] ، وقد تحقق هذا الوعد بخلافة الخلفاء الراشدين ، الذين فتحوا الممالك ، ونشروا الإسلام حتى تمكن في الأرض ، وصارت له القوة التي تخاشها أكبر الملوك .

[٢] وقال تعالى : ﴿ **الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ** ﴾ (٢) [الروم : ١ - ٤] ، كانت الحرب بين الفُرس والروم ، ولما انتصر الفُرس فرح مشركوا مكة ، لأن الفُرس مجوس ليس لهم كتاب كالعرب ولا دين سماوي ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على الفُرس لأنهم أهل كتاب ، فذكروا انتصار الفُرس على الروم للرسول ﷺ فقال : « **أما أنهم سيغلبون** » ، فذكر

---

(١) وهذه الآية من الأدلة الصريحة الصحيحة على صحة خلافة أبي بكر ، وعمر وعثمان ، وعليّ ، لأن في عصر الخلفاء الثلاثة ثم فتح العرا ق والشام ومصر ، وإيران ، وتمكن الدين الإسلامي ، وانتشر انتشارًا باهرًا ، ودخل فيه ملايين من البشر ، كما أن في القرآن آيات عديدة في فضل الصحابة ، وبالطبع في مقدمتهم الخلفاء الراشدين .

(٢) كان الرهان قبل الهجرة ، وانتصر الروم في سنة الحديبية ، وكانت المراهنة قبل تحريم القمار ، والذي حصل بينه وبين أبي بكر الرهان هو أبي بن خلف ، وكان الرهان قبلا على عشرة قلائص ، ثم طلب أبو بكر زيادة الأجل ، ويزيدهم في الرهان ، فتم الاتفاق على مئة قوص ، والقلوص هي الناقة الشابة كالجارية من النساء .

أبو بكر للمشركين ، وحصل الرهان بينه وبينهم إلى أجل نهايته خمس سنوات على عدد معلوم من الإبل ، فلم ينتصر الروم بعد انتهاء المدة ، فذكر ذلك للرسول ﷺ فقال : « **ألا جعلتها دون ؟** » ، أراه قال : العشر ، قال ابن جبير : البضع دون العشرة - ثم ظهرت الروم على الفُرس - كما أخبر القرآن في قوله : ﴿ **وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ** ﴾ ، فتحقق ما أخبر الله ورسوله من انتصار الروم على الفُرس ، وكان ذلك قبل سنين من فتح مكة .

[٣] قال الله تعالى : ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴿٤٥﴾ ﴾ (١) [القمر : ٤٥] وقال الله تعالى : ﴿ **وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ** ﴿٧﴾ ﴾ (٢) [الأنفال : ٧] ، وتم ذلك يوم بدر ، وانتصر الرسول وأصحابه ، وأذل الله المشركين ، فقتل منهم سبعون ، وأسر سبعون .

[٤] وقال الله تعالى : ﴿ **لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾

[الفتح : ٢٧] .

فتحق هذا الوعد للنَّبي ﷺ وأصحابه بدخول مكة معتمرين بعد صلح الحديبية بسنة ، وسميت عمرة القضاء (٣) .

[٥] تحدي القرآن للعرب بأن يأتوا بسورة من مثله ، قال تعالى : ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ**

---

(١) أي : جمع المشركين ببدر .

(٢) الطائفتان هما العير التي كانت قادمة من الشام لقريش ويرأسها أبو سفيان بن حرب ، والجيش الذي جهزه أهل مكة لإنقاذ العير وقتال الرسول وأصحابه ، وكان كثير من المسلمين يودون أن يغنموا العير لما فيها من الأموال ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ ، ولكن الله أراد أن ينصر الرسول وأصحابه ، ويعلي كلمة الإسلام ، ويقطع دابر المشركين ، لهذا قذف في قلوب الصحابة حب القتال ، فجرت وقعة بدر ، وكان النصر حليف المسلمين .

(٣) من كتاب « الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب » للمؤلف .

صادقين (٢٣) فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين (٢٤) ﴾ [البقرة : ٢٣ ، ٢٤] .

فعليك أيها القارىء الكريم : أن تنظر في هاتين الآيتين نظرة صادقة ، كيف ذكر عجزهم عن الإتيان بسورة من مثله فيما مضى وفيما سيأتي ، وذلك على سبيل القطع والجزم والتحدي السافر ، والمتحدون ملوك البيان وفطاحل البلاغة وأرباب الفصاحة والبراعة ، فلو لم يكن القرآن من كلام الله ، ولو لم يكن معجزة عظمى لرسول الله ﷺ ، لما خاطب العرب بهذا الخطاب المعجز ، ولو لم يكن الرسول صادقًا في دعواه النبوة والرسالة ، لما بلَّغهم ما أنزل إليه ومنه هاتان الآيتان وأعلن عجزهم ، وهم مئات الألوف من البشر من أهل مكة وغيرها ، وهل ذلك إلا تعرض للخطر وإلقاء النفس إلى التهلكة لولا وثوقه بالله ، وإخباره عن الله ، ولقد كان ﷺ في غنى عن ذلك ، وأنه لأحزم وأعقل من أن يخاطر بمستقبله ، بالإخبار عن عجز البشر كلهم ـ بما فيهم العرب الفصحاء ـ في المستقبل من الزمان عن الإتيان بسورة مماثلة لسورة من سور القرآن ، وقد تحقق ذلك ، وعجز العرب عن الإتيان بسورة ولو قصيرة تضاهي سورة من سور القرآن ، ولما تحقق عجزهم ، وفشلوا في ميدان المعارضة والإتيان بما طلب منهم ، عدلوا إلى اللجاج والعناد ، ورضوا بسفك الدماء واغتنام الأموال ، ولو كانوا قادرين لعارضوه وأتوا بسورة من مثله ، ليقطعوا حجة الرسول عليهم ، ولكن لم يكن شيء من ذلك ، وكي يمكن أن تحصل منهم المعارضة والإتيان بما طلب منهم القرآن ، وقد قال الله : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (٨٨)** ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

[٦] قوله تعالى : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح (١) ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا (٢) فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا (٣)** ﴾ [1] [النصر] .

---

(١) لوما علم الرسول ﷺ من هذه السورة الكريمة دنو أجله ، كان بعد أن نزلت عليه أشد ما يكون اجتهادًا في أمر الآخرة وخلاصة معنى السورة : أنك إذا فتحت مكة وهي قريتك التي أخرجتك ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا ، فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا ، فتهيأ للقدوم علينا ، فالآخرة خير لك من الدنيا ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ولهذا قال : ﴿ **فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا** ﴾

في هذه السورة الكريمة بشارة عظيمة للنَّبي ﷺ ولأصحابه ، من أن الله يفتح له مكة المكرمة ، وينتصر على أهلها الذين طالما نصبوا له العداء ، وألَّبوا عليه الأعداء ، وفاهت ألسنتهم بالبغضاء ، وأعلوا عليه حربًا شعواء ، وأن الناس سيدخلون في دين الله أفواجًا أفواجًا ، وذلك أن قبائل العرب في أرجاء الجزيرة العربية كانت تتريث بإسلامها فتح مكة ، يقولون : إن ظهر محمد على قومه فهو نبي ، ولذلك لما فتح الله مكة ، وأسلمت قريش ، بدأت القبائل تفد على رسول الله ﷺ وتُعلن إسلامها ، فهذه السورة إنباء بالغيب عما سيكون في المستقبل من انتصار الرسول على مشركي مكة ، ودخول الناس في دين الله أفواجًا أفواجًا ، بعدما كان يدخل في الإسلام الرجل والرجلان ، وبالفعل وقع كما أخبر القرآن ، وحصل النصر العظيم بفتح مكة المكرمة ، وانتشر الإسلام في ربوع الجزيرة كلها ، ولم يفارق النَّبي ﷺ الدنيا إلا وقد عم الإسلام جميع الجزيرة العربية ، وصار للإسلام دولة قوية ترهبها الأعداء ، وتحسب لها ألف حساب وحساب .

وهذه السورة على وجازتها حوت أربعة أنباء غيبية عما سيكون في المستقبل:

﴿ أ ﴾ نصر الله لرسوله ﷺ ولدينه على المشركين نصرًا نهائيًا ، لا يقوم بعده لمشركي العرب عمومًا ولقريش خصوصًا قائمة .

﴿ ب ﴾ فتح مكة المشرفة التي كان أهلها كالعقبة الكأداء في طريق الداخلين في الدين ، لأن قريشًا أشرف العرب ، وكانت العرب تنظر إليهم نظرة إجلال ، وتعترف لهم بالزعامة ، لأنهم جيران بيت الله ، وفيهم السدانة والحجابة والسقاية ، ولهم مكانتهم حتى عند ملوك الشام واليمن .

﴿ جـ ﴾ دخول سائر العرب في دين الله أفواجًا أفواجًا .

﴿ د ﴾ الإخبار بقرب أجل الرسول ﷺ والتحاقه بالرفيق الأعلى .

فقل لي بربك هذه السورة الوجيزة المتضمنة هذه الأخبار الغيبية العجيبة ، ألا تدل دلالة واضحة على صدق الرسول الذي أُنزلت عليه هذه السورة كسائر القرآن ؟ ، فقد تحققت أنباؤها كلها بإجماع المؤرخين من المسلمين والكافرين .

أما اضطهدت قريش الرسول ﷺ وأصحابه عندما كانوا بمكة ؟ ، أما عذبوا المستضعفين؟، أما أقام فيهم الرسول ثلاث عشرة سنة ، وهو يدعوهم إلى توحيد الله ، والدخول في دين الإسلام وهم يعارضون وينفرون عنه القبائل ، وعندما رأى اشتداد العذاب على أصحابه ، وأن قريشًا لم تفد فيهم الدعوة ، وأنهم يزدادون بمرور الأيام لجاجة وطغيانًا ، فأخيرًا اضطر إلى الهجرة من وطنه العزيز إلى المدينة ، ثم لم يتركوه حتى أقاموا عليه الحروب ، وجمعوا له قبائل العرب في معركة الخندق بجيش جرار ، يريدون استئصال المسلمين من المهاجرين والأنصار ، وفي المقدمة رسول الله ﷺ .

أضف إلى ذلك أن أكثر القبائل العربية واليهودية كانت تؤيد قريشًا ضد الرسول، فضلاً عن ملوك الفُرس والروم ، فحالة المسلمين إذ ذاك كقوم في جزيرة يحيط بهم البحر من جميع الجوانب ، في هذا الجو الملبد بالغيوم تنزل هذه السورة ، وتبشر بهذه البشارات العظيمة (١) .

---

(١) وما قلته من أن في هذه السورة بشارة للنَّبي ﷺ بأن ستفتح له مكة ، وينصره الله على الأعداء جريًا على القول الذي يقول : إن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة .

قال الفخر الرازي : والقول الثاني : أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة ، وهو وعد لرسول الله أن ينصره الله على أهل مكة ، وأن يفتحها عليه، ونظيره قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾[القصص : ٨٥] وقوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ ﴾ يقتضي الاستقبال ، إذ لا يُقال فيما وقع ، إذا جاء وإذا وقع . أ . هـ من مفاتيح الغيب .

وقال الطبرسي : ﴿ إِذَا جَاءَ ﴾ يا محمد ﴿ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ على من عاداك وهم قريش ﴿ الْفَتْحُ ﴾ فتح مكة وهذه بشارة من الله لنبيه ﷺ بالنصر والفتح قبل وقوع الأمر ، ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ ﴾ أي : جماعة بعد جماعة، وزمرة عبد زمرة ، والمراد بالدين الإسلام ، والتزام أحكامه واعتقاد صحته ، وتوطين النفس على العمل به . أهـ . من مجمع البيان .

ومن المعلوم في علم القواعد العربية ، أن إذ ظرف شرطي لما يستقبل من الزمان ، وهذا يعني أن ما بعدها لم يتحقق بعد ، وهو إذا كان وعدًا من الله ، فإن تحققه أمر لا شك فيه ، وهو واقع موقع اليقين من المؤمنين قبل أن يتحقق ، وما يرويه كثير من المفسرين من أن هذه السورة نزلت بعد فتح مكة ، وفي حجة الوداع قبل انتقال النَّبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى بثمانين يومًا ليس بصواب ، إذ لا يتفق وظاهر قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ ، لأن القرآن صريح بأن وعده يتحقق في زمن مستقبل ، ويؤكد ذلك ما قاله الحافظ ابن الجوزي ، قال قتادة : وعاش ﷺ بعد نزول هذه السورة سنتين ، وما ورد في الحديث من رواية الإمام أحمد عن الشعبي عن مسروق قال : قالت عائشة رضي الله عنها : كان يكثر في آخر أمره من قوله : « **سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه** » ، =

[٧] قوله تعالى : ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** (٨٨) ﴾[الإسراء : ٨٨] .

لعلك تلحظ بذهنك الثاقب ما في هذه الآية من التحدي للإنس والجن على أن يأتوا ببلاغته وفصاحته ، وما حواه من أحكام وآداب وأخلاق وأنباء غيبية ، وما أتوا مع العلم أنه عربي ، والعرب هم ملوك الفصاحة وأرباب البيان ، فإذا كان ظهر للعيان عجز العرب ، فأنَّى لغيرهم أن يتمنى أن يصل إلى هذا المقام ، وقوله : لا يأتون بمثله عبر بالمضارع الدال على الحال والاستقبال ، ففي الآية إنباء للغيب على أن الإنس والجن لو اجتمعوا وتعاضدوا على أن يأتوا بمثله لا يأتون ، ويظهر عجزهم ، وها قد مضى أربعة عشر قرنًا ، والقرآن يتحدى الثقلين على أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بسورة من مثله ، فلم يتقدم أحد مدعيًا أنه في إمكانه أن يأتي بذلك ، وها هي المطابع في أرجاء المعمورة تطبع المصحف الكريم ، وتنشر وتذيع الإذاعات ، ويسمعون هذا التحدي ، فما تجاسر أحد ، ومن سولت له نفسه كمسيلمة الكذاب ومحمد علي الباب الإيراني ، فقد أتى الأول بما أضحك عليه العرب ، وأصبح أضحوكة بين الورى ، وأتى الثاني بما أبان جهله وعجزه ، وكشف عن سوأته وعجمته ، فإذا كان في هذه الآية الكريمة إنباء بالغيب في الحال والمستقبل عن عجز جميع الإنس والجن ، فإن فيها من ا لتحدي لهما الدال على يقين من أنزل عليه ، ذلك اليقين الذي يستحيل أن يكون من كاذب فيما يدعيه أو مرتاب فيما يقوله ، فلو لم يكن الرسول ﷺ صادقًا ، لما وقف هذا الموقف الصلب أمام الإنس والجن، وتحداهم وحكم بعجزهم عن المعارضة، كما أن آية البقرة أنبأت وحكمت حكمًا جازمًا ، بأنهم لم يأتوا بسورة من مثله فيما مضى ، ولن يستطيعوا أن يفعلوه فيما يأتي ، قال الله تعالى : ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ**

= وقال : « **إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي ، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره ، إنه كان توابًا ، فقد رأيتها : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ﴾** .

وما رواه مسلم من طريق داود ابن أبي هند ، لا ينافي ما ذكرنا بل هذه الرواية تتفق مع ظاهر النص في السورة ، كما لا ينافيه ما رواه البخاري عن ابن عباس ، وإدخال عمر له مع أشياخ بدر ، وسؤاله لهم ما تقولون في قول الله : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ** ﴾ فأجابوا ، ولكن جواب ابن عباس كان هو الصواب حيث قال : هو أجل رسول الله أعلمه له ، والله أعلم بالصواب .

مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴾ [البقرة : ٢٣ ، ٢٤] .

[٨] قال الله مُخبرًا عن اليهود ﴿ **وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)** ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿ **لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١١١)** ﴾ .

[آل عمران : ١١١] .

وهذا من إنباء الغيب بأن اليهود لا يقفون أمام المؤمنين في معارك الجهاد ، مهما بلغت قوتهم الحربية من السلاح والجنود والعتاد ، إذا صدق المسلمون في الجهاد ، وبدافع الإيمان كانوا يقاتلون ، وقد تحقق نبأ هذه الآية بعد نزولها ، حيث أن الله أذلَّ بني قينقاع والنضير وقريظة ويهود خيبر ، وكلهم أرغم الله أنوفهم ، فلم يستطيعوا الثبات أمام الرسول ﷺ وأصحابه البواسل، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة وسلبوهم ملكهم ، وهكذا لما وقت الحرب بين العرب واليهود سنة ١٣٦٨هـ ، ظهرت بوادر النصر نزولاً على رغبة سادته الإنجليز ، هي التي مكنت اليهود من الاستيلاء على فلسطين ، وأضعفت العرب المسلمين .

القسم الثاني :

إخباره ﷺ المغيبات على لسانه الشريف بما سيكون في هذه الأمة :

وردت أحاديث كثيرة منها الصحيح ومنها الحسن عما سيحدث في الأمة الإسلامية وما سترتكبه ، وإليك النزر اليسير :

[١] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **لَتَتَّبِعُنَّ سُنن من كان قبلكم ، حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جُحر ضب لدخلتموه** » ، قالوا : اليهود والنصارى ؟ ، قال : « **فمن** » . [أخرجه الشيخان] ، فقد وقع ما أخبر ﷺ منذ قرون .

أولاً : ما حدث في اختلافهم في العقائد والمذاهب .

ثانياً : ما وقع فيه الكثيرون من تقديس الأنبياء والأولياء تقديساً لا يرضاه الله ورسوله ، حتى أنهم عبدوهم من دون الله ، ولا زالت الأمة يحدث فيها ما يحقق متابعتهم لليهود والنصارى ، حتى بلغ السيل الزبى في هذا العصر ، فترى الأكثرين من المسلمين يقلدون الغربيين في الملابس وإقامة الأعياد كعيد الميلاد لكل إنسان ، وعيد الشجرة ، وعيد الأم ، وحلق اللحى ، وشرب الخمر ، والسفور ، وقتل الوقت في الملاهي والمسارح والمجون ، وعدم المبالاة بالدين وتحكيم قوانين الكافرين ، إلى غير ذلك مما يعز استقصاؤه ، بحيث لو أراد أن يبين مشابهتهم وتقليدهم الكفرة والملحدين مؤلف ، لأمكن أن يكون مجلداً ضخماً أو أكثر (١) .

[٢] روى الإمام أحمد بإسناد حسن ، وأبو داود عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال : « **يُوشك أن تداعي عليكم الأُمم كما تداعى الأكلة على قصعتها** » ، قالوا : أمن قِلة بنا يومئذ ؟ ، قال : « **لا ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، لينزعن الله المهابة من قلوب عدوكم ، ويجعل في قلوبكم الوهن** » ، فقالوا : وما الوهن ؟ ، قال : « **حُب الحياة وكراهية الموت** » .

فانظر رعاك الله : كيف تحقق ذلك عياناً بما تراه من تكالب أعداء الله من الشرق والغرب على المسلمين في أكثر الممالك ، والسعي في إضعافهم والقضاء على دينهم أولاً وعليهم ثانياً ، أو إخراجهم من الدين إلى المسيحية أو الإلحاد أو الوثنية ، مما لا مجال هنا للشرح والبيان عنه ، لأن القصد هنا الإجمال والإشارة إلى النقط الحساسة التي يلمسها كل قاريء وسامع .

[٣] روى الإمام مسلم من حديث عمر بن الخطاب ﵁ ، وأعني به حديث جبريل ﵇ قال فيه : « **أخبرني عن أشراطها ، قال : أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان** » .

---

(١) سبق أن ألَّف شيخ الإسلام كتاباً سماه اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم ، وهذا بالنسبة لما رأى في زمانه ، أما في زماننا فبحر المشابهة قد عم وطم ،إلا من عصم الله من عباده ، وألَّف الشيخ حمود التويجري قبل سنين قليلة كتاباً وسطاً في هذا الموضوع .

صلوات الله وسلامه عليه ، فقد وقع ما أخبرت وتحقق ما أنبأت ، فترى نهضة العمران في أنحاء الجزيرة العربية وغيرها قائمة على قدم وساق ، وهذا ما لم يعهد في القرون الخالية ، حتى القرى الصغار يشاد فيها المباني الجديدة ، واستمرار أهلها في البناء والتوسع فيه ، كما ترى كثيراً من سكان الخيام والفيافي رعاء الإبل والشاء هجروا البدو والبادية ، ونزلوا الأمصار والقرى وتحضروا وشيَّدوا المباني ، بل وتسابقوا في هذا الميدان ، فاستحدثوا بلدانًا وقرى ، فكان كما أخبر سيد الورى ﷺ ، وكذا سكان بوادي غير الجزيرة العربية تحضروا وبنوا وتسابقوا في هذا الميدان .

[٤] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض ، حتى يخرج الرجل زكاة ماله فلا يجد أحداً يقبله منه ، وحتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا** » [رواه الإمام أحمد ومسلم] .

تأمل هذا الحديث الشريف ، تجد عَلمًا من أعلام نبوته ، فإنه قد أخبر قبل أربعة عشر قرنًا بما تراه الآن عيانًا ، حيث أن المال قد فاض وكثر ، ولا سيما في البلدان التي أنعم الله عليها بالنفط أو المعادن الأخرى ، ففي كثير من الأنحاء لا يوجد الفقير الذي يجوز له أخذ الزكاة ، ولم يتحقق الاستغناء عن الزكاة بعد عمر بن عبد العزيز إلا في هذه الأيام ، وتأمل في النهضة العمرانية في الجزيرة العربية ، ووفرة المياه في كثير من الأرجاء ، وشدة الاهتمام بغرس الأشجار والفواكه والزروع .

[٥] ورد في الحديث الصحيح عن النَّبي ﷺ : « **إن ابني هذا سيد** - وأشار إلى الحسين بن عليّ رضي الله عنهما - **وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين** » .

تحقق هذا الخبر بتنازل الحسن بن عليّ عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، بعدما كانت الحروب قائمة بين عليّ ومعاوية ، وقُتلَ فيها الخلق الكثير من الطرفين فلما قُتلَ عليّ وتولى الخلافة الحسن ، ورأى أنه لا فائدة من الحرب مع معاوية ، سوى تشتت الكلمة وتفرق المسلمين وسفك الدماء ، فرأى بثاقب فكره ، وأصالة رأيه ، وحُسن سياسته ، أن يجمع شمل المسلمين ، ويحقن دماء المؤمنين ، فتنازل عن الخلافة لمعاوية ، فحصل بينهما الاتفاق ، ووضعت الحرب أوزارها ، وزال الشقاق ، فسمى ذلك العام عام الجماعة ، وهو عام واحد وأربعين هجرية .

[٦] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبي ﷺ قال : « **لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج وهو القتل**» [رواه البخاري وابن ماجه] .

وقد حصل كل ما أخبر به ﷺ في هذا الحديث الشريف ، فإن المقصود بقبض العلم هو قبض العلم الديني ، كالتوحيد والتفسير والحديث والفقه ، فهذه العلوم قد تقلص ظلها ، بل أصبحت في كثير من الأمصار والقرى الإسلامية لا ظل لها ، مع أنك ترى عصرنا يموج بكثرة المدارس والمعاهد والكليات والجامعات ، تدرس فيها مختلف الفنون والعلوم ، كالجبر والهندسة والكيمياء والطب ، وما إلى ذلك من العلوم التي عليها تقوم أُسس النهضة العلمية والصناعية في شتى أقطار العالم الإسلامي وغيره ، ولكن لا تجد للعلوم الدينية سهمًا يذكر إلا القليل ، كقطرة في بحر لجي بالنسبة لسائر العلوم ، ومن أجل ذلك فإن أكثر المتخرجين من تلك المعاهد والكليات لا يعرفون شيئًا عن الدين الصحيح ، بل وكثير منهم لا يرى للإيمان ولا للدين الصحيح وزنًا ولا قيمة ، وربما جهر بأن التدين والعلوم الدينية من بقايا التقاليد البالية والرجعية الجامدة والجهل بواقع الحياة التي نعيشها ، وأما كثرة الزلازل في مختلف أصقاع العالم ، فحدِّث ولا حرج ، ففي كل يوم تذيع الإذاعات وتنشر الصحف والمجالات ، عن وقوع الزلازل هنا وهناك .

كما ورد في الحديث في رواية أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح البخاري ، أن رسول الله ﷺ قال : « **يتقارب الزمان ، وينقص العلم** »، وفي رواية : « **العمل، ويلقى الشح ، ويكثر الهرج** » ، فقوله : يتقارب الزمان إشارة إلى حدوث السيارات والقطارات والطائرات ، لأن المسافة التي كانت تُقطع على الدواب والأرجل في الأسبوع ، تقطعه السيارات والقطارات في بضع ساعات والطائرات في أقل من ساعة ، والتي كانت تقطع في سنة تقطعه الطائرات في ساعات ، وأما ظهور الفتن ، فإشارة إلى الخصومات والحروب التي ينتج فيها كثرة القتل ، وهذا ما تشاهده الآن في هذا الزمان من كثرة الفتن والاختلاف، والحروب المسببة لسفك الدماء ، وقتل النساء والأطفال والأبرياء وإهلاك الحرث والنسل ، لا لشيء يوجبه ، ولا لجهاد في سبيل الله يحتمه ، سوى بغية

استيلاء القوي على الضعيف ، والدول الكبرى على الدول الصغرى ، واستعمارها وسلب خيراتها ومنافعها ، فوالله ثم والله ، لو لم يُخبر ﷺ عن الغيوب الآتية إلا هذا الحديث لكفى ، فكيف وقد أتت عشرات الأحاديث عن غيوب تحقق نبؤها شيئًا فشيئًا بعد وفاته إلى يومنا هذا ، وسيتحقق ما بقي في العصور المقبلة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

[٧] روى البخاري عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : « بينما أنا عند النَّبي ﷺ إذ أتاه رجل ، فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال : « **يا عدي ، هل رأيت الحيرة ؟** » ، قلت : لم أرها وقد أنبئت عنها ، قال : « **فإن طالت بك الحياة لترين الظعينة** [١] **ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحداً غير الله** » ، قلت فيما بيني وبين نفسي : فأين دعار [٢] طيء الذين قد سعروا [٣] في البلاد ، « **ولئن طالت بك حياة لتُفتحن كنوز كسرى** » قلت: كسرى بن هرمز، قال : « **كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضه يطلب من يقبله فلا يجد أحداً يقبله منه ، وليقلين الله أحدكم يوم يلقاه ، وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له ، فيقول : ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك ؟** ، **فيقول : بلى ، فيقول : ألم أعطك مالاً وأفضل عليك ؟** ، **فيقول : بلى ، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم ، وينظر عن شماله فلا يرى إلا جهنم** » .

قال عدي رضي الله عنه : سمعت النَّبي ﷺ يقول : « **اتقوا النَّار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة** » .

قال عدي : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النَّبي أبو القاسم ﷺ : « **يخرج الرجل ملء كفه ذهبًا أو فضة ، فلا يجد من**

(١) المرأة في الهودج .
(٢) الدعار جمع داعر ، وهو الشاطر الخبيث المفسد ، والمراد قطّاع الطريق ، طيء « قبيلة عربية مشهورة وبلادها ما بين العراق والحجاز ، وكان رجالها يقطعون الطريق على من مر عليهم بغير جوار ، لذلك تعجب عدي ، كيف ستمر المرأة ببقاعهم غير خائفة » .
(٣) أوقدوا نار الفتنة ، أو ملأوا الأرض شراً وفساداً .

يقبله منه » [١] .

[٨] روى مسلم عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال : « **إن الله زوى لي الأرض** [٢] **فرأيت مشارقها ومغاربها ، وأن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها ، وأُعطيت الكنزين الأحمر**[٣] **والأبيض وإني سألت ربي لأمتي أن لا يُهلكها بسنة عامة** [٤] **وأن لا يُسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم** [٥] **فيستبيح بيضتهم** [٦] **، وإن ربي قال : يا محمد ، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أُهلكهم بسنة عامة ، وأن لا أُسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبي بعضهم بعضاً »** .

ورواه البرقاني في صحيحه وزاد : « **وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين ، وإذا وقع عليهم السيف لم يُرفع إلى يوم القيامة ، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من**

---

(١) قد تحقق ما أخبر به ﷺ في خلافة عمر بن عبد العزيز ، فقد أخرج البيهقي في الدلائل عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، أنه قال : إنما ولي عمر بن العزيز ثلاثين شهراً ألا والله ما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم ويقول : اجعلوا هذا حيث ترون الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيه فلا يجده ، قد أغنى عمر الناس ، ويؤيد ذلك ما ورد في سيرة عمر بن عبد العزيز أن يحيى بن سعيد قال : بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات أفريقية ، فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم ، فلم نجد بها فقيراً ، ولم نجد من يأخذها ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقاباً فعتقهم ، وولاؤهم للمسلمين . أ هـ . من كتاب نبوة محمد في القرآن ، لحسن ضياء الدين عتر .

(٢) قال الوريشي : زويت الشيء جمعته وقبضته ، حاصله أنه طوى له الأرض وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة ينظره ، قال الطيبي : أي جمعها لي حتى أبصرت ما تملكه أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها .

(٣) يعني بهما كنز كسرى وهو ملك الفرس، وكنز قيصر وهو ملك الروم، وعبر بالأحمر عن كنز قيصر، لأن الغالب عندهم الذهب ، وبالأبيض عن كنز كسرى ، لأن الغالب عندهم الجوهر والفضة .

(٤) وفي رواية : بزيادة الباء أي بعامة وهي رواية صحيحة في صحيح مسلم ، وقال القرطبي : وكأنها زائدة ، والسنة الجدب الذي يكون به الهلاك العام ، ويجمع على سنين ، قال الله : ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٣٠] .

(٥) أي : من غيرهم من الكفار .

(٦) قال الجوهري : بيضة كل شيء حوزته ، وبيضة القوم ساحتهم ، وقيل بيضتهم معظمهم وجماعتهم.

أمتي بالمشركين ، وحتى تُعبد فئام من أُمتي الأوثان ، وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النَّبيين ، لا نبي بعدي ، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى » .

هذا الحديث الشريف فيه دلائل كثيرة من أدلة نبوته وصدق رسالته ﷺ ، وأنه جدير بالحفظ والاعتناء وإشاعته بين الأمة الإسلامية ، ليعرفوا عظمته ﷺ ، ويزدادوا إيمانًا بنبوة سيد المرسلين وإمام المتقين ، وهذه الدلائل أخبر بها ﷺ قبل وقوعها ، وقد وقعت كما أخبر .

وها أنا أبين تلك الدلائل حسب فهمي القاصر وذهني الفاتر :

﴿ **أ** ﴾ إن الله زوي له الأرض ، أي : جمع الله ما تملكه أمته من بعده ، فشاهد ذلك عيانًا ، ومعنى ذلك أن مُلك أُمته يتسع ، وقد اتسع بالفتوحات التي قام بها الخلفاء الراشدون ومن بعدهم من الخلفاء والملوك ، حتى بلغ ملك المسلمين من أقصى الصين شرقًا إلى حدود فرنسا غربًا .

﴿ **ب** ﴾ أخبر بصفة خاصة عن فتح أُمته لُملك كسرى وقيصر ، المعبر عنهما « **وأُعطيت الكنزين الأحمر والأبيض** » ، وإنما أخبر عنهما مع أن ملكهما داخل في قوله السابق « **زوى لي الأرض** » ، لأنهما المملكتان المتجاورتان لجزيرة العرب ، ولأنهما كانتا أكبر الممالك ، إذ ذاك ، وهما اللتان كانتا تسيطران على كثير من العرب، ويستعمران بلدانهم ، فكانت العراق خاضعة لملك الفُرس ، وأخيرًا استعمرت الفُرس اليمن ، وكانت قبائل غسان ولخم وجذام تحت سيطرة الروم ، وبلدانهم مستعمرات لقيصر ، ما كان العربي يظن أن يأتي يومًا يملك العرب هاتين المملكتين العظيمتين وكنوزهما ، وأن يكونوا تحت إمرة العرب ، حتى بلغ الأمر أن سيق إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه تاج كسرى وحليته ، وما كان في بيوت أمواله ، وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها، وكذلك فعل الله بقيصر، ولكن الإسلام هو الذي أعزَّ الله به العرب ، ورفعهم من الذل والهوان إلى العزة والمُلك والسيطرة .

﴿ جـ ﴾ سأل النَّبي ﷺ ربه أن لا يُهلك أُمته بالقحط ، وأن لا يُسلط عليهم عدواً من غير المسلمين ، فيجتاحهم ويُهلكهم أو يُهلك معظمهم ، وقد استجاب الله له ما دعاه ، فلا يقع القحط في جميع الممالك المسلمة ، وإن وقع في ناحية فتموِّلها الناحية الأخرى ، كما أن الله لم يسلط إلى الآن كافراً ليستولي على المسلمين ويهلكهم ، أو يُهلك معظم المسلمين ، وإن وقع الاستعمار في كثير من البلدان ، فإن الاستعمار حكم مؤقت ، ولابد أن تبقى ممالك مستقلة ، وبالفعل زال الاستعمار من أكثر البلدان الإسلامية التي كانت مستعمرة ، ويؤخذ من مفهوم الحديث : أنه يقع استيلاء المسلمين بعضهم على بعض ، ومن لوازم الاستيلاء الحروب وسفك الدماء في أكثر الأحيان .

﴿ د ﴾ أخبر ﷺ أنه إذا جرى الخلاف بين المسلمين وجرت الحرب ، فإنه يستمر الاختلاف والحروب الناتجة من النزاع والاختلاف إلى يوم القيامة ، وقد وقع بالفعل ما أخبر به ، فأنت ترى من حينما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى يومنا هذا ، ترى الخلاف مستمراً بين المسلمين وقد تنوع الاختلاف ، فاختلفوا في العقائد حتى تفرقوا إلى ثلاث وسبعين فِرقة ، واختلفوا في الفروع كما اختلفوا في السياسة ، ما زالت الحرب قائمة ، إن هدأت في قطر أو مملكة شبت في مملكة أخرى ، نتيجة إعراضهم عن كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ ، وتحكيمهم آرائهم ، واتباعهم شهواتهم ، إضافة إلى حب السيطرة والسلطنة ، ولذا لم يتفقوا حتى ولو ترى في الظاهر هدوء الحال في كثير من الممالك الإسلامية ، لكن الاختلاف قائم على قدم وساق ، وهدوؤهم مؤقت ، يتحين بعضهم الفرص السانحة لكي ينقض على المملكة الأخرى ، ولا يلزم من وقوع الاختلاف والحزب أن تكون دائماً مستمرة بين كل طائفة وطائفة وملك ملك أو زعيم وزعيم ، ويكفي وجود الاختلاف وعدم الاتفاق وقوع حرب بين ملك وآخر ، وإن كانت الحالة في الأكثرين ساكنة وهادئة ، ومما ينبغي أن نفهم أن من القتال ما قد يكون حقّاً كقتال أهل التوحيد لأهل الشرك بالله ، وجهادهم على تركهم الشرك ، وكقتال الفئة الباغية الخارجة عن طاعة الأمير أو الملك بنوع من التأويل وسوء الفهم ، كقتال عليّ بن أبي طالب للخوارج ، وقتاله لمعاوية في صفين .

﴿ هـ ﴾ أخبر ﷺ أنه لا تقوم الساعة حتى تعبد فئام من أمته الأوثان ، وهذا واقع مشاهد ملموس من انصراف الجهلة عن إخلاص العبادة لله تعالى بعبادتهم لقبور الأنبياء والأولياء ، فترى في أكثر الأقطار الإسلامية قد اتخذوا قباباً على قبور من يزعمون أنهم من أولياء الله ، يطوفون حول تلك القبور وينذرون لها ، ويستغيثون في الشدائد بساكنيها ، كاستغاثة الشيعة بعليّ ، والحسين ، والعباس بن عليّ ، وجُهال أهل السُّنَّة ، بالجيلاني، والدسوقي ، والبدوي ، والزيلعي ، والعيدروس وأمثالهم ، مع العلم أن القرآن يصرح في آيات كثير من التحصن بالتوحيد وإفراد الله بالعبادة ، بل القرآن كله في التوحيد[١] كقوله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون** ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، وقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (٢١) ﴾ [البقرة : ٢١] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ [الإسراء : ٢٦]، وقوله تعالى : ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ [النساء : ٣٦] .

وفي الحديث : « **لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج** »[٢] .

وقد عمت الفتنة بالقبور ، وجاهر الناس بالشرح الصريح والكفر القبيح ، وكأنهم لم يعلموا أن الرسول ﷺ والرسل من قبله، ما بُعثُوا إلا لمحو الشرك والوثنية والدعوة إلى التوحيد ، كما قال الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [النحل : ٣٦] ، أي : اعبدوا الله وحده ، واتركوا عبادة ما سواه[٣] ،

---

(١) وبيانه ، أي : القرآن ، إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته ، وهو التوحيد العلمي الخبري ، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له ، وهو التوحيد الإرادي الطلبي ، وإما أمر ونهي ، وإلزام بطاعته ، فذلك من حقوق التوحيد ، وإما عن أهل الشرك ، وما يعاقبهم به ، فهو جزاء من نبذ التوحيد .

(٢) رواه أهل السُّنن من رواية ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) ورحم الله ملا عمران القائل في قصيدته التي بين فيها عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ ، والثناء عليه والرد على المخالفين له والناسبين له ما لم يقل :

هل قال إلا وحدوا رب السما	وذروا عبادة ما سوى المتفرد
وتمسكوا بالسُّنَّة البيضا ولا	تتنطعوا بزيادة وتردد
هذا الذي جعلوه غشا وهو قد	بعثت به الرسل الكرام لمن هدي

وقال الله تعالى : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ[١] بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

﴿ و ﴾ أخبر ﷺ أنه سيكون في أُمته متنبؤون كذابون، بل واحد يزعم أنه نبي ، وقد ظهر المتنبؤون كمسيلمة الكذاب باليمامة، والأسود العنسي باليمن، والمختار بن عبيد الثقفي ، وأبو الطيب المتنبي غير أنه قد تاب ، وظهر في القرن الثالث عشر الدجال الخبيث في الهند بسياسة الإنجليز ميرزا غلام أحمد القادياني، ومحمد علي الباب الإيراني ، وخليفته عبد البهاء، وتبع هذين الدجالين كثيرون ، وأخبارهما مشهورة ومسطورة وهما من أكبر المتنبئين الكذابين، ومن أعظم الخبثاء والدهاة، الذين يدعون إلى هدم دين الإسلام ، والإنضمام تحت لواء الكفر والصهاينة اللئام ، ولهما من الأساليب الشيطانية ، والمناهج الكفرية ، وتمويه الحقائق ، والتلبيس على العوام ، ما سطرته أقلام العلماء، وهتكت أستارهما، لا سيما محمد علي الباب وخليفته .

﴿ ز ﴾ أخبر ﷺ أنه مع انحراف الأكثرين عن الدين المبين ، وغلبة البدع والضلالات والمبادىء الهدَّامة والمذاهب الكفرية ، وتكالب الأعداء على الإسلام والمسلمين حتى من أبناء جلدتهم ، فإنه لن ينمحي الدين ، بل لا تزال طائفة من الأمة الإسلامية على الحق منصورة ، وهذا مما لا ريب فيه ، فلقد تجد المدينة الكبيرة يقطنها ملايين من البشر ، وأكثرهم منغمس في بحور الضلال والشرك أو الشهوات، أو الفسق والفجور ، ولكن تجد منهم أُناسًا قليلين يحافظون على الدين الصحيح ، ويتمسكون بالسُّنَّة المحمدية ، ويرشدون الناس إلى كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ ، ويحذرونهم مما هم فيه من الضلال والفسق والفجور والتحاكم إلى الطاغوت وعبادة القبور ، ومهما جاهد

---

(١) **قال الحافظ ابن القيم ـ رحمه الله ـ :**

« الطاغوت كل ما تجاوز العبد حد من معبود أو متبوع أو مطاع ، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه في ما لا يعلمونه أنه طاعة الله ، فهذه طواغيت العلام ، إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها ، رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت ، وعن طاعة رسول الله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته . أ هـ . « فتح المجيد » .

الأعداء في محو هذا الدين ، فإنه الله سيخيب قصدهم ، ويرد كيدهم في نحرهم ، فهذه أوروبا وأمريكا واليابان مع ما هم فيه من الحضارة والعلوم والرقي ومعاداة دين الإسلام ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام ، بدأ الإسلام ينتشر في تلك الأرجاء مع أن أهله ضعاف بالنسبة لأولئك ، وليس لدى الدعاة الإسلاميين من الاستعدادات والأموال ، ما لدى أولئك من المبشرين الذين يجوبون شرق الدنيا وغربها للتبشير بدين المسيح ، وتساعدهم دولهم بالأموال الطائلة والوسائل العديدة ، وبالرغم من ذلك كله ، فإن كفة الإسلام والدخول فيه أرجح من كفة أولئك اللئام .

﴿ حـ ﴾ قوله ﷺ : « **وإنما أخاف على أُمتي الأئمة المضلين** » ، صدق رسول الله ﷺ ، فقد وقع ما خافه على الأُمة ، وتحقق ظهور أئمة الضلال .

وأول من ظهر عبد الله بن سبأ يهودي من يهود صنعاء اليمن ، فحينما رأي قوة الإسلام وسيطرته على كثير من الأقطار ، وفتحه الشام ومصر وفارس والعراق ، ورأى ما حل بيهود المدينة وخيبر من الخزي والوبال ، ما تركه حقده اليهودي حتى فكر في الانتقام من الإسلام والمسلمين ، وتشتيت كلمتهم ، فأعلن الإسلام نفاقًا ، ودعا بدعوته الضالة قائلاً : إن النَّبي أوصى بالخلافة لعليّ بن أبي طالب ، وأنه الحقيق بالخلافة ، وله من القرابة والصُحبة والمواقف ما يستحق به الخلافة ، وأن الخلفاء غصبوا حقه وظلموه ، وكفَّرهم بذلك ، وروج هذه الدعاية الخبيثة وطورها ، حتى زعم أخيراً أن عليّ بن أبي طالب إله ، وتوسل بها مع بعض زنادقة الفُرس واليهود ، وألَّب أوغاد الأمصار والجهال ، حتى أعلنوا الثورة على عثمان ، بشبه أنه لم يعدل وأنه يحابي قرابته من بني أُمية ، حتى حاصروه وقتلوه ، وأوقدوا نار الفتنة في وقعة الجمل بين جيش عليّ بن أبي طالب وجيش الزبير وطلحة ، وجرى ما جرى مما سطره التاريخ ، ومن شؤم هذه الدعاية الخبيثة ، تفرق شمل الأمة ، وإشعال نار الحروب والفتن ، وتفرق أتباعه إلى اثنتين وعشرين فِرقة ، وقيل أكثر .

قال شيخنا الشيخ / أحمد نور - رحمه الله - في منظومة الفِرق الإسلامية :

تفـــرقـــوا اثنين والعـــشـــرينا　　　بعض يظن البـــعض كـــافـــرينا

وفي أواخر دولة بني أُمية ظهر الجعد بن درهم ، ودعا هذا الضال إلى إنكار الصفات والقول بخلق القرآن ، وأخذ عنه الجهم بن صفوان ، فأعلن بكل صراحة تعطيل الله عن أسمائه وصفاته ، ودان بخلق القرآن وإنكار رؤية الرب في الآخرة والجبر المحض .

وفي عهد المأمون ظهرت المعتزلة متأثرين بآراء الفلاسفة ومذهب الجعد والجهم بن صفوان ، واعتنق المأمون مذهب المعتزلة ، وبعده المعتصم ، وحصلت فتنة عظيمة بين المسلمين ، واضطهد أهل السُّنَّة والجماعة ، وسجن من سجن ، وفي المقدمة الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله تعالى ـ ، ونشروا بدعتهم من تعطيل الرب عن صفاته ، وشددوا النكير على من يقول : إن كلام الله صفة من صفاته ، ليس بمخلوق ، وقالوا : يجب أن تقولوا : إنه مخلوق .

وتفرقت المعتزلة إلى أكثر من عشرين فِرقة ، ثم تتابع أئمة الضلال والدعاة إلى النَّار ، حتى ظهرت الصوفية الاتحادية ، قال قائلهم :

الرب عبد والعبد رب ... وليت شعري من المكلف

ثم جاء دور الباطنية وحرَّفوا القرآن وأوَّلوه على حسب أهوائهم ، وزعموا أن للقرآن باطنًا وظاهرًا ، كانت دعوتهم ظاهرها التشيع وموالاة أهل البيت ـ رضوان الله عليهم ـ ، وباطنها الكفر والإلحاد ، وتفرعت منها الدرزية والإسماعيلية والنصيرية وغيرها ، ولا زال بقاياهم في سوريا والهند وإفريقيا .

وفي عصرنا هذا ، كثرت أئمة الإلحاد والفجور والفساد ، فمنهم من يدعو إلى الشيوعية والاشتراكية ، يزعم أن الإسلام أتى بالإشتراكية ، والاشتراكية في الحقيقة بنت الشيوعية ، ومنهم من يدعو إلى التبرج والسفور والاختلاط بالنساء ومنهم من يدعو إلى إباحة الربا بتأويلات فاسدة وآراء كاسدة ، ولا ريب أن من ليس عنده حصانه الإيمان والتوحيد ، فقد يقع في شرك هؤلاء الضالين المضللين ، وما أكثر ما وقع الجاهليون بشريعة الإسلام الصحيح في حبائل هؤلاء الشياطين الداعين إلى جهنم وبئس المهاد ، ولكن ولله الحمد لا زال في الأمة الإسلامية من العلماء الراسخين

والجهابذة المحققين ، من تصدى للرد على أباطيل هؤلاء الضالين ، وتفنيد ما روَّجوه وموَّهوه على الجُهال ، وإقامة الحجج القاهرة على بطلان ما يزعمه هؤلاء الأدعياء ، وبراءة دين الإسلام من المباديء التي أتى بها هؤلاء الدعاة الطغاة ، وصدق رسول الله ﷺ حيث قال : « **لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة** » ، والحمد لله على دين الإسلام ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)** ﴾ [التوبة : ٣٢ ، ٣٣] .

الدلائل الحسية
المعجزات النبوية

ومعجزات سيد العباد ... كثيرة تجل عن إعداد
أعظم آيات النَّبي يا قاري ... كلام ربنا العظيم الباري
لأنها المعجزة العلمية ... باقية ما بقي البرية
أما التي حسية كثيرة ... فهاك مني نبذة يسيرة
عين قتادة الصحابي ردها ... في يوم بدر واحذرن ردها
قد نبع الماء لجمع وافر ... بين أصابع النَّبي الطاهر
يوم الحديبية وبالزوراء ... عن النَّبي صلاح بلا امتراء
في يوم الأحزاب اللئام الكفرة ... إذ طوقوا المدينة المنورة
وقد روى جابر تكثير الطعام ... عن النَّبي المصطفى خير الأنام
قد سأل الكفار من أم القرى ... نبينا إبداء آية ترى
فسأل المولى فشق البدرا ... لكنهم قد زعموه سحرا
وحن جذع النخلة للمختار ... كما أتى في محكم الأخبار
فكم له من معجزات ... حررها ذوي العلوم الفاخرة

وإذ أنهينا الكلام عن الدلائل العقلية عن نبوته عليه الصلاة والسلام ، فلنشرع في بيان معجزاته عليه الصلاة والسلام ، وهي من الدلائل الحسية ما سوى القرآن ، فإنه معجزة عقلية ، وذكرها زيادة على ما سلف ، لكونها أعظم المعجزات والآيات .

تعريف المعجزة والفرق بينهما وبين دلائل النبوة :

والمعجزة في تعريف علماء الكلام : أمر [١] خارق للعادة ، مقرون بالتحدي مع

(١) وإنما قالوا أمر ليتناول الفعل ، كانفجار الماء من بين أصابع النَّبي ﷺ ، ويتناول عدم الفعل كعدم إحراق النار إبراهيم ، واحترزوا بقيد المقارنة بالتحدي عن كرامات الأولياء والإرهاصات التي تتقدم البعثة النبوية ، وبقيد عدم المعارضة عن السحر والشعوذة ، فإنهما مما يمكن معارضتهما ، ولم يرد في القرآن ولا في السُّنَّة لفظ المعجزات ، وإنما الموجود فيها لفظ الآية ، والبيِّنة ، والبرهان ، ولهذا =

عدم المعارضة ، ومن هذا التعريف نعرف أن هناك فرقًا بين دلائل النبوة وعلامات النبوة وبين المعجزة ، فدلائل النبوة أو علامات النبوة يُراد منه كل دليل يثبت نبوة محمد ﷺ ، ويبرهن على صدقه ، دون تقييد بشروط معينة ، فيشمل حتى السمات الخاصة في جسده كخاتم النبوة ، ويشمل تبشير الكتب السماوية ببعثته .

أما المعجزة فقد اشترط فيها أن تقترن بالتحدي ، إذ يتحدى النَّبي الناس بمعجزة ، فيعجزون عن الإتيان بمثلها ، كأن يفعل النَّبي أو أي رسول أرسله الله شيئًا لم تجر العادة أن يكون في قدرة البشر أو غيرهم ما سوى النَّبيين أن يعملوه ، كنبع الماء من بين الأصابع وفلق البحر وانشقاق البدر ونحو ذلك مما يأتي ، فيعجز الناس عن الإتيان بمثله ، ويهتدي من شاء الله له الهداية ، كما سجد السحرة لما رأوا ما عمل موسى ،

= كان علماء الحديث ومن تبعهم ، إذا ألفوا في هذا الموضوع يكتبون دلائل النبوة ، أو أعلام النبوة ، كأبي نعيم والبيهقي والماوردي .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ :

وكون الآية خارقة للعادة ، أو غير خارقة ، وهو وصف لم يصفه القرآن والحديث ولا السلف ، وأن هذا وصف لا ينضبط ، وهو عدم التأثير ، فإن نفس النبوة معتادة للأنبياء ، خارقة للعادة بالنسبة إلى غيرهم ، وقال ما معناه : خوارق الكهنة والسحرة هي بالنسبة لغيرهم خارقة لعادات ، ولكن بالنسبة لهم ليست خارقة لعاداتهم ، والمبرز في فن من الفنون يقدر على ما لا يقدر على مثله عامة الخلق ، ولكنه ليس بمعجزة بالنسبة لفطاحل علم النحو ، فآية النَّبي لابد أن تكون خارقة لعادة غير الأنبياء من الجن والإنس ، ولهذا يجب في آيات الأنبياء أن لا يعارضها من ليس بنبي ، فكل من عارضها صادرًا ممن ليس من جنس الأنبياء ، فليس من آياتهم ، من أجل هذا طلب فرعون أن يعارض السحرة ما جاء به موسى ، بأن يفعلوا مثل ما يفعل ، فلا تبقى حجته مختصة بالنبوة ، فأمرهم موسى أن يأتوا أولاً بخوارقهم ، كما قال الله تعالى مُخبرًا عنه وعنهم ، قال لهم موسى : ﴿ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشعراء : ٤٣ ــ ٤٨] ، وما سجد السحرة إلا لما رأوا كيف انقلبت عصا موسى حية كبيرة وابتعلت حبالهم وعصيهم التي انقلبت بسحرهم حيات ، فعلموا عندئذ أن ما أتي به موسى ليس من جنس مقدورهم ، فآمنوا إيمانًا جازمًا ، ولما قال لهم فرعون ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ ﴾ [طه : ٧١ ، ٧٢] . أ هـ . من كتاب النبوات بتلخيص وزيادة بعض الكلمات والآيات ، (ص ١١ ، ١٢ ، ١٣) .

وآمنوا إيمانًا صادقًا ، لأن من يرد الله له الهداية إذا رأى تلك الآيات التي تأتي بها الأنبياء ، يعلم إذ ذاك أنهم صادقون في دعوى النبوة والرسالة ، ولأن المعجزة في منزلة صدق عبدي في ما يبلغ عنِّي .

وبما أسلفناه لك من تعريف المعجزة ودلائل النبوة ، أو علامات النبوة ، يستبين لك أيها القاريء أن كل معجزة علامة على نبوة صاحبها حتمًا ، ولكن ليس كل علامة أو دليل على النبوة أمرًا معجزًا خارقًا للعادة مقرونًا بالتحدي ، فالمعجزة أخص من الدليل والعلامة .

أعظم المعجزات وأشهرها : القرآن العظيم :

[١] ومعجزاته ﷺ [١] كثيرة ، وأشهرها وأعظمها القرآن العظيم ، لأنه ﷺ تحدى به العرب ، وهم أفصح الناس لسانًا وأعظمهم بيانًا ، وأشدهم اقتدارًا على الكلام ، بأن يأتوا بسورة من مثله ، فعجزوا مع شدة عداوتهم له وصدهم عنه ، حتى قال بعض العلماء : أقصر سورة في القرآن ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** (١) ﴾ [الكوثر : ١] ، فكل قرآن من سورة أخرى كان قدر ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** (١) ﴾ سواء كان آية أو أكثر أو بعض آية ، فهو داخل فيما تحداهم به .

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ :

وعلى هذا فتصل معجزات القرآن من هذه الحيثية إلى عدد كثير جدًا ، ووجوه إعجاز القرآن من جهة حسن تأليفه والتئام كلماته وفصاحته وإعجازه في مقام الإيجاز وبلاغته ظاهرة جدًا، مع ما انضم إلى ذلك من حُسن نظمه، وغرابة أسلوبه ، مع كونه على خلاف قواعد النظم والنثر .

[٢] هذا إلى ما اشتمل عليه من الإخبار بالمغيبات،مما وقع من أخبار الأمم الماضية، مما كان لا يعلمه إلا أفراد من أهل الكتاب ، ولم يعلم أن النَّبي اجتمع بأحد منهم ،

---

(١) ذكر النووي في مقدمة شرح مسلم أن معجزات النَّبي ﷺ تزيد على ألف ومئتين ، وقال البيهقي في المدخل : بلغت ألفًا ، وقال الزاهدي من الحنفية : ظهر على يديه ألف معجزة ، وقد اعتنى بجمعها جماعة من الأئمة كأبي نعيم والبيهقي والماوردي .

ولا أخذ عنهم ، وبما سيقع ، فقع على وفق ما أخبر به [١] في زمنه ﷺ وبعده .

[٣] عدم حصول الملال والسآمة على قارئه وسامعه ، مع الهيبة التي تقع عند تلاوته ، والخشية التي تلحق سامعه .

[٤] تيسر حفظه لمتعلميه ، وتسهيل سرده لتاليه [٢] . أ . هـ .

[٥] بقاؤه مصونًا محفوظًا من أن تتطرق إليه يد التغيير والتحريف ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ⁽⁹⁾ ﴾ [الحجر : ٩] .

وحتى ولو سوّلت لملحد أن يغير شيئًا من الآيات ، أو يحذف شيئًا من بعض الحروف أو الكلمات ، فسرعان ما ينتبه المسلمون ، فيقومون بالإنكار ، وينبهون على ذلك الخطأ والتحريف ، ومن عجيب أمر القرآن أن الإنسان إذا أراد أن يحذف حرفًا من بعض الكلمات ، لتنبه المستمع إن كان من قراء القرآن فور سماعه ، ونبه على الغلط الذي وقع عمدًا أو سهوًا ، لأنه باختلال حرفين أو حرف من كلمات القرآن ، يتغير أسلوبه ومعناه ، ويتفكك نظمه ، مثلاً لو قرأ القارىء : « إنَّا أعطيناك الكوثر صل لربِّك وانحر » لنبه المستمع القارىء فور سماعه قائلاً له : إنك قد حذف الفاء من ﴿ **فَصَلِّ** ﴾ ، أو قال : « إن شانئك الأبتر » لقال له : ﴿ **هُوَ الْأَبْتَرُ** ﴾ ، لأن التركيب هنا يفيد الحصر ، حيث أن بعض زعماء قريش ، لما مات ابنا رسول الله قالوا : بتر محمد ، فأنزل الله : ﴿ **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ** ﴾ أي : مبغضك يا محمد ، ومبغض ما

---

(١) كما في قوله : ﴿ الٓمٓ ⁽¹⁾ غُلِبَتِ الرُّومُ ⁽²⁾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ⁽³⁾ ﴾ [الروم : ١ - ٣] ، فانتصر الروم على الفرس كما أخبر القرآن ، وكما في قوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾ [الفتح : ٢٧] ، فدخلوا مكة والمسجد الحرام بعد صُلح الحديبية بسنة ، كما أخبر القرآن وكما هو معروف ، وكما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ ﴾ [المائدة : ٥٤] ، فوقع كما أخبر القرآن بعد وفاته ﷺ ، فارتد أكثر العرب وجاهدهم أبو بكر بجيوشه الغفيرة ، وكان كثير منهم من أهل اليمن ، إلى غير ذلك من الآيات التي أخبرت بما سيكون ، فوقع بما أخبرت الآيات القرآنية ، بعضها في زمنه ﷺ وبعضها بعد وفاته ، وكل ما مضى عصر وحصلت كشوف وعلوم جديدة يظهر صدق القرآن وما أنبأ به عما سيكون في مستقبل الزمان .

(٢) من فتح الباري .

جئت به من الهدى والحق ، هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذكره لا أنت، بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمرًا على دوام الآباد إلى يوم الحشر والميعاد، فحصر الأبترية والأقلية إنما يحصل بكلمة ﴿هُوَ﴾ الواقعة مبتدأ للأبتر ، أما إذا حذفت كلمة ﴿هُوَ﴾ فلا يحصل هذا المعنى البليغ المفيد لهذا الحصر ، كما لا يخفى .

[٦] تحديه لليهود أن يتمنوا الموت ، فلم يقع ممن سلف منهم ، ولا من خلف من تصدى لذلك ولا أقدم ، مع شدة عداوتهم لهذا الدين ، وحرصهم على إفساده والصد عنه ، فكان في ذلك أوضح معجزة .

[٧] الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال من الأحوال ، وتأمل ذلك في سورة « ق » وغيرها .

[٨] التناسب في جميع ما تضمنته آياته ظاهرًا وباطنًا من غير اختلاف ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء : ٨٢] .

[٩] الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

بعض المعجزات العلمية للقرآن الشريف :

[١] في سورة الأنبياء ، قال تعالى : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا** ﴾ [الأنبياء : ٣٠] .

النظرة العلمية : يتفق معنى هذه الآية مع أحد النظريات في نشأة الأرض والسماء،وذلك أنهما كانتا في أول أمرهما ملتصقتين داخل السديم الذي يحتويهما ، ثم إنهما انفصلتا نتيجة انفجارات شديدة حدثت داخل السديم [١] ، ويتم الانفتاق المذكور في الآية بعد أن كانتا مرتوقتين ، أي : متصلتين بعضها ببعض ، وفي ذلك إشارة لما حدث في الكون من انفجارات انتشرت بسببها مادة الكون فيما حولها من فضاء وفراغ ، وانتهت بتكوين مختلف أجرام السماء المختلفة .

---

(١) المجرة والسديم بمعنى واحد ، سحابة ضخمة من غازات ومواد صلبة وعناصر أخرى مختلفة تتحرك بسرعة داخلها ، وهي تتجاذب فيما بينها ، وقد أطلق عليها علماء الفلك العرب اسم المجرة ، لأنها تشبه النهر الجاري .

[٢] قال الله تعالى في سورة النحل : ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)** ﴾[النحل : ٧٨] .

تفسير علماء الدين : ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ** ﴾لا تدركون شيئًا مما يحيط بكم ، ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ** ﴾وسائل للعلم والإدراك ، ولتؤمنوا به عن طريق العلم ، وتشكروه على ما تفضل به عليكم .

النظرة العلمية : يؤكد لنا العلم بدلائله الكثيرة أن حاسة السمع تسبق حاسة البصر في أداء وظيفتها ، ولم يكن أحد يعلم ذلك وقت نزول القرآن، وقد ورد تقديم السمع على البصر أكثر من سبعة عشر موضعًا ، منها قوله تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً** ﴾[الأحقاف : ٢٦] ، وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾[الإسراء : ٣٦] .

ويقرر العلم أن حاسة السمع تبدأ مبكرة في أداء عملها في الأسابيع القليلة الأولى بعد ولادة الطفل ، أما البصر فيبدأ عمله في الشهر الثالث ، ولا يتم تركيز الإبصار إلا بعد الشهر السادس ، ودليل ذلك أن أُذن الطفل تؤدي وظيفتها عقب ولادته ، لأنه إذا سمع صوتًا شعر به وأحسه فورًا ، وصدر عنه ما يدل على التأثر به ، أما عين الطفل فإنها لا تؤدي وظيفتها إلا بعد فترة من ولادته ، ودليل ذلك أنه إذا مددت يدك قريبًا منها لا ترمش ولا تتحرك .

ومن روعة الإعجاز العلمي في هذه الآية الكريمة : أن الله سبحانه يذكر الفؤاد بعد السمع والبصر لمعنى دقيق أيضًا ، وهو أن اكتساب العلم يحصل بعد الانتقال من مرحلة الإدراك الحسي بالسمع والبصر إلى مرحلة الإدراك العقلي ، وهذه هي طريقة تعلم المعارف والخبرات ، وكلها تجيء بحسب الترتيب الذي ذكره القرآن ، وهو الإدراك الحسي أولاً ، ثم الإدراك العقلي ، ودليل ذلك واضح في أن الطفل يولد لا يعلم شيئًا ، ثم تتوالى عليه المدركات الحسية وتتكاثر عن طريق السمع ثم البصر ، فإذا صارت مجموعة المدركات الحسية كافية ، يأتي دور الفؤاد ليعقل ويعي ما أدركه الطفل منها بحواسه .

وهناك حقيقة أخرى في تقديم السمع على البصر ، وهو أن القرآن يذكر السمع مفرداً ، ويذكر الإبصار بصيغة الجمع ، وفي ذلك سر من أسرار الإعجاز أيضاً ، لأن استقبال الأذن للمسموع لا خيار للإنسان فيه ،حيث لا حجاب يحجب وصول الصوت إلى طبلة الأُذن ، أما العين فللإنسان الخيار في أن يرى أو لا يرى ، ولها جفون تساعد على ذلك .

[٣] قال الله تعالى في سورة المائدة : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)** ﴾[المائدة : ٦] .

تفسير علماء الدين : يا أيها المؤمنون إذا قمتم للصلاة ولم تكونوا متوضئين فتوضؤوا بغسل وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا رؤوسكم كلها أو بعضها ، واغسلوا أرجلكم مع الكعبين ، وإن كنتم جنباً فاغسلوا جميع أبدانكم بالماء ، وإن كنتم مرضى مرضاً يمنع استعمال الماء أو كنتم مسافرين وتعذر وجود الماء ، فعليكم بالتيمم بالتراب الطهور ، ما يريد الله فيما أمركم به التضييق عليكم ، ولكنه شرع ذلك لتطهيركم ظاهراً وباطناً ، وليتم نعمه عليكم بالهداية والبيان والتيسير ، ولتشكروا الله على هدايته وتمام نعمته بالمداومة على طاعته .

النظرة العلمية : يقرر العلم الحديث أن هذه الآية الكريمة تُظهر لنا علاقتها بالطب ، ولا سيما الطب الوقائي للإنسان من الأمراض الجلدية التي يتعرض لها ، إذا لم ينظف أعضاء جسمه وبخاصة المعرضة للعوامل الجوية ، وما فيها من أتربة وجراثيم وغازات ضارة ، ولا شك أن الوجه والأيدي والأرجل هي أكثر أجزاء الجسم تعرضاً للتلوث والتأثر بهذه الميكروبات ، وهي تعد بملايين الملايين في كل سنتيمتر مكعب من الهواء ، وأن الوضوء خمس مرات في اليوم لا يترك مطلقاً أي درن على الجسم

يخشى منه الضرر ، وهكذا نرى آيات الله سبقت الحكمة القائلة : إن الوقاية خير من العلاج .

[٤] وقوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿ **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾** ﴾ [الرحمن : ١٩ ، ٢٠] .

النظرة العلمية : تشير هذه الآية إلى نعمة الله على عباده ، وهي عدم اختلاط مياه البحر المجاورة للمياه العذبة ، بل جَعَل بينهما قانونًا ثابتًا يحكم فيها العلاقة بينهما ، من حيث الكثافة والملوحة وما فيهما من أحياء مائية ، كأن بين كل بحر وآخر حاجزًا غير ظاهر للعيان ، لم تقمه يد الإنسان ، ولكن أقامته يد الرحمن .

ومن عجائب قدرة الله تعالى ، أنه جعل ماء النهر لا يؤثر في ماء البحر فيغير ملوحته ، كما لا يؤثر ماء البحر في ماء النهر ، لأن النهر الذي يصب في البحر يكون عادة بمستوى أعلى من مستوى سطح البحر ، وتدل المشاهدة على أن مياه نهر الأمزون الذي يصب في المحيط الأطلسي تندفع مسافة ٢٠٠ ميل في المحيط حافظة لعذوبتها طول هذه المسافة ، وفي الخليج العربي نجد عيونًا من الماء العذب تفيض داخل ماء الخليج الملح بماء عذب .

[٥] في سورة الواقعة ، قال الله تعالى : ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾** ﴾ [الواقعة : ٧٥ ، ٧٦] .

النظرة العلمية : يقسم المولى تبارك وتعالى بمواقع النجوم ، لأن القسم بمواقعها يوجه الانتباه إلى أن المسافات بين النجوم تبلغ حدودًا لا يتصورها الخيال ، فمثلاً نجد أن أقرب نجم إلينا في مجرتنا وهي الشمس ، تبعد عنا بمقدار ٥٠٠٠ ضوئية ، بينما النجم الذي يليها بالقرب يبعد عنا بمقدار أربع سنوات ضوئية تقريبًا ، والسنة الضوئية تدل على مدى المسافة التي يقطعها الضوء في سنة كاملة ، علمًا بأن سرعة الضوء تساوي ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية ، ثم إن هناك مدلولاً علميًا آخر عن مواقع النجوم ، وهي أن موقع الشمس موقع بالغ الدقة في وضعه ، لكي تستقيم معه الحياة على كوكبنا الأرضي ، لأنها لو تقدمت عن موضعها الحالي ، لاحترقت الأرض من

شدة حرارتها ، ولو تأخر عن موضعها لبردت الأرض، وتجمدت فيها البحار والمحيطات، وتعتبر غير صالحة لحياة البشر عليها .

ويلي هذه الآية قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)** ﴾[الواقعة: ٧٧-٧٩]، وهذا القسم للإشارة بشأن القرآن ، وأنه كثير المنافع، وأنه محفوظ في لوح مصون،لا يطلع عليه غير المقربين من الملائكة .

[٦] وقال الله تعالى في سورة القيامة : ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)** ﴾[القيامة : ٣ ، ٤] .

تفسير علماء الدين : أيحسب الإنسان بعد أن خلقناه من عدم ، أن لن نجمع ما بلي وتفرق من عظامه ؟ ، نعم إننا نقدر على أن نسوِّي أطراف أصابعه الصغيرة ، ونجعلها كما كانت قبل الموت ، فكيف بالعظام الكبار ؟ .

النظرة العلمية : تدل عبارة تسوية البنان على معنى لم يكشف العلم سره إلا بعد نزول الآية بأكثر من ألف سنة ، حينما عرف أن لكل بنان بصمة خاصة به ، وتختلف فيها اتجاهات خطوطها اختلافًا واضحًا بين فرد وآخر ، وبين جميع البشر ، وقد استخدم الإنسان هذه الاختلافات في تحقيق الشخصية عن طريق البصمات ، وقد أفادت هذه الحقيقة في التعرف على الأشخاص عن طريق بصماتهم ، لأنه في حالة وقوع جرائم يترك الجناة فيها بصماتهم على أي شيء يتناولوه .

[٧] وقال الله تعالى في سورة الطارق : ﴿ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤)** ﴾[الطارق : ١١ - ١٤] .

النظرة العلمية : يتجلى إعجاز القرآن في كلماته الحقة التي تنطوي على معان دقيقة ، وتحمل علمًا إلهيًا لا علمًا بشريًا ، ففي قوله تعالى : ﴿ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ** ﴾ أي : أنها ترجع وتعيد للأرض ما فُقِدَ من بحارها ومحيطاتها من بخار الماء الذي يجتمع مكونًا سحبًا ، ثم يتكاثف ويسقط الأمطار الغزيرة على الأرض ، كما أقسم سبحانه بالأرض ذات الصدع ، أي التي تتصدع وتنشق ، ليخرج منها النبات ، بعد ارتوائها بماء المطر ، كما أنها أيضًا ذات الصدوع التي تكوَّنت في باطنها ، وصارت

مكامن تتفجر منها مواد الغاز الطبيعي والبترول وينابيع الماء الكبريتية ، وكأنها تعيد لنا ما انطوى في باطنها من النبات بعد تحوله وتحلله إلى مواد أخرى .

معجزات الرسول ﷺ الحسية غير القرآن :

أما غير القرآن من معجزاته عليه الصلاة والسلام الحسيِّة فكثيرة ، حتى قال بعضهم تبلغ ثلاثة آلاف، وها أنا أتحف القارىء بعدد قليل من تلك المعجزات الباهرة :

[١] رده عين قتادة بن النعمان رضي الله عنه :

فقد أُصيبت عينه يوم بدر ، فسالت حدقته على وجنتيه ، فأرادوا أن يقطعوها ، فسألوا رسول الله ﷺ ، فقال : « **لا** » ، **فدعاه فمزع حدقته براحته ، فكان لا يدري أي عينيه أصيبت** » ، [أخرجه ابن عدي وأبو يعلى والبيهقي من طريق عاصم بن عمر بن قتادة عن حديث قتادة بن النعمان] .

[٢] براء عين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه :

أخرج الشيخان عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : « **لأُعطين هذه الراية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه ، فلما أصبح قال : أين عليّ ابن أبي طالب ؟** » ، فقالوا : يشتكي عينه ، قال : فأرسلوا إليه ، فأتى به ، «**فبصق رسول الله في عينه ، ودعا له حتى كأن لم يكن به وجع** » .

[٣] نبع الماء من بين أصابعه : (١)

وردت عدة أحاديث في نبع الماء من بين أصابعه ، وإليك بعضًا منها :

﴿ **أ** ﴾ أخرجه البخاري عن جابر فقال : عطش الناس يوم الحديبية ، ورسول الله

---

(١) قال القرطبي : نبع الماء من بين أصابعه تكررت منه في عدة مواطن في مشاهد عظيمة وردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي ، قال العلماء : لم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبينا ، حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه ، ونقل ابن عبد البر عن المزني أنه قال : نبع الماء من بين أصابعه أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر ، لأن خروج الماء من بين أصابعه ، أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر ، لأن خروج الماء من الحجر معهود ، بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم ، وقد روى نبع الماء من بين أصابعه في مواطن كثيرة جماعة من الصحابة ، منهم أنس ، وجابر ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو ليلى الأنصاري ، وأبو رافع مولى رسول الله ﷺ . أ . هـ . من حجة الله على العالمين .

بين يديه ركوة فتوضأ منها ، ثم أقبل على الناس فقال : « **ما لكم** » ؟ ، فقالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا ما في ركوتك ، فوضع النَّبي يده في الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون فشربنا وتوضأنا » ، قال الراوي عن جابر ، فقلت لجابر : كم كنتم يومئذ؟ قال : لو كنا مئة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مئة .

﴿**ب**﴾ أخرج البخاري عن أنس قال : أتى النَّبي بإناء هو بالزوراء [١] فوضع يده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ القوم ، قال قتادة : قلت لأنس : كم كنتم ؟ ، قال : ثلاثمائة ، أو زهاء ثلاثمائة [٢] .

[٤] إخبار الشاة المسمومة له ﷺ بذلك :

﴿ **أ** ﴾ أخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه أن يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها ، فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك ، قالت : أردت لأقتلك ، قال : « **ما كان الله ليسلطها على ذلك** » .

﴿**ب**﴾ وأخرج الدارمي والبيهقي ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن يهودية من أهل خيبر أهدت رسول الله ﷺ شاة مسمومة ، فأخذ الذراع فأكل منها ، وأكل رهط من أصحابه ، فقال : « **ارفعوا أيديكم ، ودعا اليهودية ، فقال : أسممت هذه الشاة ؟** » ، قالت : من أخبرك ؟ ، قال : « **أخبرتني هذه التي في يدي الذراع** » ، قالت : نعم ، قال : « **فما أردت إلى ذلك** » ، قالت : قلت : إن كان نبيًا فلا يضره ، وإن لم يكن نبيًا استرحنا منه ، فعفا عنها ولم يعاقبها .

﴿**جـ**﴾ وأخرجه البيهقي وأبو نعيم من وجه آخر ، عن جابر رضي الله عنه وفيه قال : «**أمسكوا ، فإن عضواً من أعضائها يُخبرني أنها مسمومة** » .

[٥] تكثير الطعام ببركته ﷺ :

وردت أحاديث كثيرة في هذا المعنى ، وأكتفي بحديث جابر رضي الله عنه المتفق عليه ، وهو حديث طويل وخلاصته :

أن النَّبي ﷺ وجيشه من الصحابة كانوا مشغولين بحفر الخندق ، ورأى جابر

---

(١) مكان بالمدينة .

(٢) قدر .

بالنَّبي ﷺ أمارة الجوع ، فجاء إلى زوجته ، وكان عندهم عناق وصاع من شعير ، فذبح العناق ، وقال لزوجته أن تطحن الشعير وتخبزه وتطبخ اللحم ، ورجع فأخبر النَّبي ﷺ بما صنع وقال له : تعال أنت ونفر معك ، يعني دون العشرة ، وفي رواية : طعيم لنا صنعته ، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان ، فجاء الرسول ﷺ ومعه أصحابه من المهاجرين والأنصار وكانوا ألفًا ، فقال جابر : لقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله ، وقلت : جاء الخلق على صاع من شعير وعناق ، وجاء النَّبي يقدم الناس ، ودعا بالبركة في العجين واللحم ، ثم قال لجابر : « **ادع خابزة لتخبز مع زوجتك ، ثم قال : اقدحي ،أي اغرفي من برمتكم ولا تنزلوها ،وأقعدهم عشرة عشرة يأكلون** » ، قال جابر : فأقسم بالله ، لقد أكلوا حتى تركوه وانصرفوا ، أي : مالوا عن الطعام - وأن برمتنا لتغط - أي لتغلي وتفور - كما هي ، وعجيننا ليخبز كما هو ، وفي رواية : ما زال يقرب الناس حتى شبعوا أجمعين ، والتنور والقدر أملأ ما كانا ، فقال : «**كلي واهدي ، فلم نزل نأكل ونهدي يومنا أجمع** » ، وفي رواية : « فأكلنا وأهدينا لجيراننا ، فلما خرج ﷺ ذهب ذلك » .

[٦] سقوط الأصنام بإشارته ﷺ :

﴿ **أ** ﴾ أخرج البخاري ومسلم والبزار والطبراني وأبو يعلى : عن جابر وعبد الله ابن مسعود قالا : كان حول البيت ستون وثلاث مئة صنم مثبتة الأرجل بالرصاص في الحجارة ، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد عام الفتح ، جعل يشير بقضيب في يده إليها ولا يمسها ، ويقول : «**جاء الحق وزهق الباطل** » ، فما أشار إلى وجه صنم إلا وقع لقفاه ، ولا لقفاه إلا وقع على وجه ، حتى ما بقي منها صنم .

﴿**ب**﴾ وفي رواية لابن مسعود رضي الله عنه فجعل يطعنها ويقول : « **جاء الحق ، وما يبديء الباطل وما يُعيد** » ، ويجمع بين الروايتين بأنه ﷺ كان يشير إلى بعضها من غير أن يمسها ، ويتلو الآية الأولى وتارة يطعنها ويتلو الآية الثانية .

[٧] استجابة دعائه ﷺ :

﴿ **أ** ﴾ أخرج البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن

ابن عوف رضي الله عنه : « **بارك الله لك** » ، وأخرجه ابن سعد والبيهقي من وجه آخر ، وزاد قال عبد الرحمن :فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً لرجوت أن أُصيب تحته ذهبًا أو فضة ، وفتح الله له أبواب الخيرات ، وكان حين قدم المدينة فقيراً لا يملك شيئًا واشتغل بالتجارة ، ففي أقرب زمن رزقه الله مالاً كثيراً ببركة دعائه ﷺ ، حتى أنه لما توفي بالمدينة سنة إحدى وثلاثين أو اثنتين وثلاثين ، حفر الذهب من تركته بالفؤوس ، حتى جرحت الأيدي من كثرة العمل ، وأخذت كل زوجة من زوجاته الأربع رُبع الثمن ، ثمانين ألفًا ، وقيل : إن نصيب كل واحدة كان مئة ألف ، وقيل : بل صولحت إحداهن على نيف وثمانين ألف دينار ، وأوصى بألف فرس وخمسين ألف دينار في سبيل الله ، وأوصى بحديقة لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن ، بيعت بأربعمائة ألف ، وأوصى لمن بقي من أهل بدر ، لكل رجل بأربعمائة دينار ، وكانوا مئة ، فأخذوها ، وأخذ عثمان فيمن أخذ ، هذا غير صدقاته الفاشية في حياته .

﴿ **ب** ﴾ وأخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله ﷺ ، فبينما هو يخطب يوم الجمعة ، إذ قام رجل فقال : يا رسول الله ، هلكت الكراك (١) ، هلكت الشاء ، فادع الله يسقينا ، فمد يده ودعا ، قال أنس : وإن السماء كمثل الزجاجة (٢) ، فهاجت ريح ، وأنشأت سحابًا ، ثم اجتمع ، ثم أرسلت السماء عزاليها ، فخرجنا نخوص الماء حتى أتينا منازلنا ، فلم نزل نمطر إلى الجمعة الأخرى، فقام إليه ذلك الرجل أو غيره: فقال: يا رسول الله ، تهدَّمت البيوت ، فادع الله يحبسه ، فتبسم ثم قال : « **حوالينا ولا علينا** » ، فنظرت إلى السحاب يتصدع حول المدينة كأنه إكليل (٣) .

[٨] انقياد الشجر :

عن جابر رضي الله عنه قال : سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا واديًا أفيح (١) ، فذهب

---

(١) المراد به الخيل وقد يطلق على غيرها من الحيوان .
(٢) أي : من شدة الصفاء ليس فيها شيء من السحاب .
(٣) بكسر الهمزة وسكون الكاف وهي العصابة التي تحيط بالرأس ، وأكثر ما تستعمل إذا ما كانت مكللة بالجوهر .
(٤) أوسع .

رسول الله ﷺ يقضي حاجته ، فأتبعته بإداوة [١] من ماء ، فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئًا يستتر به ، فإذا شجرتان بشاطيء الوادي ، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما ، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال : « **انقادي عَلَيَّ بإذن الله** »، فانقادت معه كالبعير[٢] المخشوش الذي يصانع قائده ، حتى أتى الشجرة الأخرى ، فأخذ بغصن من أغصانها فقال : « **انقادي عَلَيَّ بإذن الله** » فانقادت معه كذلك ، حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما ، لأم بينهما ، فقال : « **التئما عَلَيَّ بإذن الله** ، فالتأمتا » .

قال جابر رضي الله عنه : فخرجت أحْضِرُ مخافة أن يحس رسول الله ﷺ بقربي فَيَبْتَعِدَ أو فَيَتَبَعَّدَ، فجلست أحدث نفسي، فحانت مني لفتة، فإذا أنا برسول الله ﷺ مُقبلاً ، وإذا الشجرتان قد افترقتا ، فقامت كل واحدة منهما على ساق،فرأيت رسول الله ﷺ وقف وقفة ، فقال برأسه هكذا ،ثم أقبل فلما انتهى إليَّ قال: « **يا جابر هل رأيت مقامي؟** » ، قلت : نعم يا رسول الله . [رواه مسلم في حديث لمولى لأبي اليسر رضي الله عنه » [٣] .

[٩] حنين الجذع :

عن جابر رضي الله عنه قال : كان المسجد مسقوفًا على جذوع من نخل ، فكان النَّبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها ، فلما صنع المنبر فكان عليه ، سمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار [٤] ، حتى جاء النَّبي ﷺ فوضع يده عليها فسكنت .

وفي رواية : « فلما كان يوم الجمعة ورفع إلى المنبر ، صاحت النخلة صياح الصبي » ، رواه البخاري والنسائي والترمذي بلفظ : « فحن الجذع حنين الناقة ، فنزل النَّبي ﷺ فمسه فسكن » .

[١٠] انشقاق القمر :

قد سأل الكفار من أم القرى ... نبيًا إبداء آية ترى
فسأل المولى فشق البدرا ... لكنهم قد سموه سحرا

---

(١) إناء أو جلد صغير يوضع به ماء .
(٢) الذي في أنفه حلقه بينهما حبل يقاد به لسهولة سيره .
(٣) أ . هـ . من « التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ، جـ٣) .
(٤) والعشار جمع عشراء وهي الناقة التي مضى عليها من يوم إرسال الفحل عليها عشرة أشهر .

قد أيد الله رُسله بالمعجزات [١] الباهرات ،كما حكى الله عنهم في القرآن المجيد ، تلك المعجزات التي ليس في مقدور البشر أن يأتوا مثلها ، وكذلك النَّبي ﷺ من حيث بشريته، ليس في إمكانه أن يأتي بتلك المعجزات التي تعجز البشر، ولو تضافروا واجتمعوا وتناصروا على أن يأتوا بمثلها ـ حتى لو استنصروا بالجن والملائكة ـ لما استطاعوا الإتيان بمثلها ، لكن الله تعالى هو الذي أيد رسله بالمعجزات ، وخاتمهم محمد ﷺ قد أيده بعديد من المعجزات دليلاً على صدق نبوته ، وقد ذكرنا كثيراً منها فيما سلف ، ومن تلك المعجزات : معجزة كبرى وهي انشقاق القمر .

قال الله تعالى : ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝** ﴾ [القمر : ١ ، ٢] .

وقد ذكر المفسرون وفي المقدمة العلامة ابن جرير والحافظ والسيوطي وابن كثير والبغوي والقرطبي والبيضاوي والخازن والفخر الرازي والألوسي والخطيب والشربيني وجمال الدين القاسمي ، وسائر المفسرين حتى من مفسري الشيعة والإباضية ، في تفسير هذه الآية ثبوت انشقاق القمر للرسول ﷺ ، وأوردوا الأحاديث الواردة في الانشقاق ، وأكثر الحافظ ابن جرير والحافظ ابن كثير والسيوطي من تلك الأحاديث ، كما ذكر علماء الحديث في الصحاح والسُنن والمسانيد الأحاديث الواردة حول هذه المعجزة العظيمة ، ونحن نكتفي هنا بما أورده الإمامان الجليلان البخاري ومسلم ، وكفى بهما علمًا وحفظًا وإتقانًا واختياراً للصحيح ، ونضيف إليهما ما رواه الإمام أحمد في مسنده والبيهقي في دلائل النبوة .

ذكر بعض أحاديث انشقاق القمر وبعض أقوال العلماء فيه :

قال الإمام البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ في كتاب مناقب الأنصار « باب انشقاق القمر » :

[١] عن قتادة عن أنس بن ملاك رضي الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يُريهم آية ، فأراهم القمر شقين ، حتى رأوا حراء بينهما .

---

(١) كإخماد النار لإبراهيم ، وناقلة صالح ، ومعجزات موسى وعيسى عليهم السلام .

[٢] عن عبد الله ابن مسعود ﷺ قال : « انشق القمر ونحن مع النَّبي ﷺ بمنى ، فقال : اشهدوا » وذهب فرقة نحو الجبل .

[٣] عن عبد الله بن عباس ﷺ : « إن القمر انشق على زمان رسول الله ﷺ » . كما ذكر هذه الأحاديث في تفسير : ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢** ﴾[القمر : ١ ، ٢] .كما ذكرها في باب « سؤال المشركين أن يريهم النَّبي آية فأراهم انشقاق القمر» .

[٤] **وقد ذكر الحافظ ابن حجر في « الفتح » :** أن أبا نعيم أخرج عن أبي الضحى بلفظ : « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ ، فقالت كفار قريش : هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة ، فانظروا إلى السفار ، فإن أخبروكم أنهم رأوا مثل ما رأيتم فقد صدق ، قال : فما قدم عليهم أحد إلا أخبرهم بذلك » .

[٥] وروى أحمد في مسنده عن جبير بن مطعم ﷺ أنه قال : « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ ، فصار فرقتين : فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا محمد ، فقالوا : إن كان سحرنا ، فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم » ، وتفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه ، وأسنده البيهقي في الدلائل من طريق محمد بن كثير ، عن أخيه سليمان بن كثير ، عن حصين بن عبد الرحمن .

[٦] وروي البخاري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس ﷺ قال : « انشق القمر في زمان النَّبي ﷺ » ، ورواه البخاري أيضًا من حديث بكر بن مضر ، عن جعفر بن ربيعة ، عن عراك به مثله .

[٧] وروى البيهقي عن عبد الله بن عمر ﷺ في قوله تعالى : ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ** ﴾ قال : « وقد كان ذلك على عهد رسول الله ، انشق فلقتين ، فلقة من دون الجبل ، وفلقة من خلف الجبل ، قال النَّبي : اللهم اشهد » . وهكذا رواه مسلم والترمذي من طريق عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد به .

[٨] **وقال ابن جرير :** حدثنا ابن مثنى عبد الأعلى ، حدثنا داود بن أبي هند ، عن

عليّ بن أبي طلحة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾ [القمر : ١ ، ٢] قال : قد مضى ذلك ، كان قبل الهجرة انشق القمر حتى رأوا شقيه .

[٩] قال أبو داود الطيالسي : « حدثنا أبو عوانة عن المغيرة عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ ، فقالت : قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة ، قال : فقالوا : انظروا ما يأتيكم به السفار ، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم ، قال : فجاء السفار ، فقالوا ذلك » [١] .

[١٠] **قال العلامة ابن جرير في تفسير قوله تعالى :** ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾ [القمر : ١ ، ٢] ، يعني : تعالى ذكره بقوله : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ دنت الساعة التي تقوم فيها القيامة ، وقوله : ﴿ اقْتَرَبَتِ ﴾ افتعلت من القرب ، وهذا من الله تعالى ذكره إنذار لعباده بدنو القيامة ، وقرب فناء الدنيا ، وأمر لهم بالاستعداد لأهوال القيامة قبل هجومها عليهم ، وهم عنها في غفلة ساهون ، وقوله : ﴿ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ يقول جل ثناؤه : وانفلق القمر ، وكان ذلك فيما ذكر على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكة قبل هجرته إلى المدينة ،و ذلك أن كفار مكة سألوه آية فأراهم ﷺ انشقاق القمر آية وحجة على صدقة قوله وحقيقة نبوته ، فلما أراهم أعرضوا وكذبوا ، وقالوا : هذا سحر مستمر سحرنا محمد ، فقال الله جل ثناؤه : ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ وبنحو الذي قلنا في ذلك ، جاءت الآثار ، وقال به أهل التأويل ، ثم ذكر الآثار المروية بذلك ، والأخبار عمن قاله من أهل التأويل .

[١١] قال الحافظ ابن كثير بعد أن ساق الروايات حول هذا الموضوع : والحاصل أنه قد وردت أحاديث كثيرة، قال ابن كثير: « إنها متواترة بالأسانيد الصحيحة » ،

---

(١) أ . هـ . من تفسير ابن كثير .

وقال : « هذا أمر متفق عليه بين العلماء ، أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النَّبي ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات » .

[١٢] **وقال العلامة صديق بن حسن :** « إنا إذا نظرنا إلى كتاب الله ، فقد أخبرنا بأنه انشق ، ولم يخبرنا بأنه سينشق ، وإن نظرنا إلى سُنَّة رسوله ﷺ ، فقد ثبت في الصحيح وغيره من طرق متواترة ، قد كان ذلك في أيام النبوة ، وإن نظرنا إلى أقوال أهل العلم ، فقد اتفقوا على هذا ، ولا يلتفت إلى شذوذ من شذ ، واستبعاد من استبعد » (١) .

[١٣] **قال العلامة الألوسي :** « والأحاديث الصحيحة في الانشقاق كثيرة،واختلف في تواتره ، فقيل : هو غير متواتر ، وفي شرح المواقف الشريفي : أنه متواتر ، وهو الذي اختاره العلامة ابن السُبكي ، قال في شرحه لمختصر ابن الحاجب : الصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر منصوص عليه في القرآن مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق شتى بحيث لا يمتري في تواتره » . أ . هـ .

[١٤] وقد جاءت أحاديثه في روايات صحيحة عن جماعة من الصحابة منهم : عليّ، وأنس ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وحذيفة ، وجبير بن مطعم ، وابن عمر ﷺ ، وغيرهم ، نعم منهم من لم يحضر ذلك كابن عباس ، فإنه لم يكن مولوداً إذ ذاك ، وكأنس فإنه كان ابن أربع أو خمس بالمدينة ، وهذا لا يطعن في صحة الخبر كما لا يخفى .

[١٥] ووقع في رواية البخاري وغيره عن ابن مسعود : كنا مع رسول الله ﷺ بمنى ، فانشق القمر ، ولا يعارض ما صح عن أنس أن ذلك كان بمكة ، لأنه لم يصرح بأنه عليه الصلاة والسلام كان ليلتئذ بمكة ، فالمراد أن الانشقاق كان والنَّبي ﷺ إذ ذاك مقيم بمكة ، قبل أن يهاجر إلى المدينة (٢) .

[١٦] **وعند أبي عوانة :** « انشق القمر بمكة نحوه ، وفيه فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم » .

---

(١) من فتح البيان .

(٢) أ . هـ . من تفسير المعاني (جـ ٢٧) .

أقول : ولما كانت الشقوة غالبة على كثير من أولئك الكفرة ، لم يؤمنوا بالرسول مع وضوح هذه المعجزة التي خص الله بها نبينا محمداً ، ولم تكن لرسول قبله ، وبالرغم أن المسافرين أخبروهم بأنهم رأوا انشقاق القمر ، لكنهم قد عاندوا وأصروا على الشرك والكفران ، وعدم الإيمان بالرسول : ﴿ **مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا** ﴾ [الكهف : ١٧] .

[١٧] **قال الحافظ ابن حجر في شرح حديث أنس الأول :** « هذا من مراسيل الصحابة ، لأن أنسًا لم يدرك هذه القصة [١] ، وقد جاءت هذه القصة من حديث ابن عباس ، وهو أيضًا ممن لم يشاهدها [٢] ، ومن حديث ابن مسعود وجبير بن مطعم وحذيفة ، وهؤلاء شاهدوها ،قال: ولم أر في شيء من طرقه، أن ذلك كان عقب سؤال المشركين إلا في حديث أنس ، فلعله سمعه من النَّبي ﷺ [٣] . أ . هـ .

قلت : ما ورد في روايات ابن مسعود كما في البخاري ومسلم ، أن النَّبي قال لمن معه : « **اشهدوا** » يدل دلالة واضحة أنه كان ذلك بعد سؤال المشركين له أن يريهم آية أو آية انشقاق القمر ، وإلا لو كان الانشقاق مجرد حادث سماوي وقع إذ ذاك صدفة - كما يقول بعض المعاصرين - لما كان حاجة أن يقول النَّبي ﷺ لمن معه : « **اشهدوا** » .

فإن قال قائل: إن حديث أنس جاء فيه :سألوا النَّبي ﷺ أن يريهم آية ، ولم يعينوا انشقاق القمر ولا غيرها، فكيف أراهم انشقاق القمر ، وهلا أراهم آية أخرى أرضية .

فالجواب :

لعل المشركين سألوا النَّبي ﷺ ، وطلبوا انشقاق القمر ، ولكن الصحابي الذي

---

(١) لأنه كان صغيراً وكان بالمدينة ، وقصة انشقاق القمر بمكة المكرمة قبل الهجرة .

(٢) أي : لكونه كان صغيراً .

(٣) وسواء كان سمعه أنس من النَّبي ﷺ أو من بعض الصحابة ، فإن الحجة قائمة به لأن مرسل الصحابي في حكم المرفوع ، لا يحوم حوله شك ولا ارتياب ، لأن الصحابة كلهم عدول ، وما يذكر من بعض الأخطاء من بعضهم فذلك نادر بالنسبة إليهم ، ولا حكم للنادر والحكم للأغلب .

روى الحديث لأنس لم يذكر ذلك ، لأن هذه القصة كانت مشهورة عند الصحابة ، ويؤيد هذا أن قريشًا قالوا : إن هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة ، فاسألوا السفار ... إلخ .

إذًا لو لم تكن هذه المعجزة حصلت بعد سؤالهم ، لما قالوا : هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة ، لأن الحوادث السماوية كرمي الشهب والكسوف والخسف والصواعق الشديدة ، وحوادث الأرض كالزلازل والطوفان الشديد ، تحدث مرارًا ولا يدعي نبي أو رسول أن هذه معجزات ، كما لا يقول أحد : إن هذا سحر ، وكان في ذلك العصر كثير من المنجمين والكُهان من العرب وغيرهم ، فلم يخبر أحد منهم أنه سيقع حادث الانشقاق ، ولو كان المنجمون والكُهان أخبروا بشيء لسطر في الكتب التاريخية ، وهكذا شأن الكفار والمشركين مع الأنبياء ، قال الله تعالى عما جرى مع فرعون لموسى عليه السلام عندما جاء بالرسالة ودعاه إلى عبادة الله وأن يطلق بني إسرائيل ليذهبوا مع موسى إلى أرض فلسطين ، هدده اللعين كما أخبر الله عنه ، فقال تعالى : ﴿ **لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤)** ﴾ .

[الشعراء : ٢٩ — ٣٤] .

ما ذكره الإمام مسلم حول انشقاق القمر :

[١٨] أخرج مسلم عن مسروق عن عبد الله ابن مسعود قال : « خمس قد مضين : الدخان[١] ،

---

(١) أخرج مسلم عن ابن مسعود أن قريشًا لما استعصت على النَّبي ﷺ ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم قحط وجهد ، حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، وحتى أكلوا العظام ، فأتى النَّبي ﷺ رجل فقال : يا رسول الله استغفر الله لمضر ، فإنهم قد هلكوا ، فقال للرجل : إنك لجريء ، فدعا الله لهم ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦)** ﴾ [الدخان : ١٥,١٦] ، فمُطروا فلما أصابتهم الرفاهية قال : عادوا إلى ما كانوا عليه ، قال : فأنزل الله عز وجل : ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١)** ﴾ [الدخان : ١٠ ، ١١] ، قال : يعني : يوم بدر .

واللزام [١] ، والروم [٢] ، والبطشة والقمر [٣] » .

[١٩] وأخرج مسلم عن عبد الله قال :« انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا » .

[٢٠] وساق مسلم رواية أخرى عن ابن مسعود رضي الله عنه : « بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى ، إذ انفلق القمر فلقتين ، فكانت فلقة وراء الجبل ، وفلقة دونه ، فقال لنا رسول الله ﷺ : « **اشهدوا** » .

[٢١] وساق رواية أخرى عنه : « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فلقتين ، فستر الجبل فلقة ، وكانت فلقة فوق الجبل ، فقال رسول الله ﷺ : « **اشهدوا اشهدوا** » .

[٢٢] وساق عن ابن عمر رضي الله عنهما مثل ذلك ، كما أخرج حديث أنس : أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يُريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر مرتين ، كما أورد رواية ابن عباس قال : « إن القمر انشق على زمان رسول الله ﷺ » .

[٢٣] **قال النووي في شرحه :** قال القاضي : « انشقاق القمر من أمهات معجزات نبينا ﷺ ، وقد رواها عدة من الصحابة رضي الله عنهم مع ظاهر الآية الكريمة وسياقها » ، قال الزجاج : « وقد أنكرها بعض المبتدعة المضاهين لمخالفي الملة ، وذلك لما أعمى الله قلبه ، ولا إنكار للعقل فيها ، لأن القمر مخلوق لله تعالى ، يفعل فيه ما يشاء ، كما يفنيه ، ويكوره في آخر أمره » أ . هـ .

---

(١) المراد به ما جرى عليهم يوم بدر من القتل والأسر ، وهي البطشة الكبرى .

(٢) يعني : بذلك انتصار الروم على الفُرس ، كما في قوله تعالى : ﴿ **غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝** ﴾ [الروم : ٢، ٣] .

(٣) يقصد به الانشقاق .

قال العلامة ابن جرير الطبري في تفسير سورة اقتربت :

« عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : نزلنا المدائن ، فكنا منها على فرسخ ، فجاءت الجمعة فحضر أبي وحضرت معه ، فخطبنا حذيفة فقال : ألا إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝** ﴾ [القمر : ١] ، ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار ، وغداً السباق ، فقلت لأبي : أتستبق الناس غداً ، فقال : يا بني إنك لجاهل ، إنما هو السباق بالأعمال .

دفع تعارض روايات انشقاق القمر :

الشبهة الأولى والجواب عنها :

وأما ما جاء في بعض الروايات عن عبد الله بن مسعود أن القمر انشق بمكة ، وفي رواية ، ونحن مع النَّبي بمنى .

الجواب :

لا تعارض بين الروايتين ، فإن منى من مكة ، وكذلك ما جاء في بعض طرق حديث ابن مسعود بلفظ : فرقتين ، وبلفظ : « شقتين » ، وفي حديث ابن عمر : « فلقتين » ، وفي حديث جبير بن مطعم « فرقتين »، وفي لفظ عنه : فانشق باثنتين ، فكل هذه الألفاظ معناها واحد وهو أنه انشق شقتين .

وكذلك ما أخرجه مسلم من حديث سعيد عن قتادة ، بلفظ : فأراهم انشقاق القمر مرتين ، قال الحافظ ابن حجر : ولا أعرف من جزم من علماء الحديث بتعدد الانشقاق في زمنه ﷺ ، ولم يتعرض لذلك أحد من شرَّاح الصحيحين ، وتكلم الحافظ ابن القيم على هذه الرواية فقال : المرات يراد بها : الأفعال تارة ، والأعيان أخرى والأول أكثر ، ومن الثاني : انشق القمر مرتين ، وقد خفي على بعض الناس ، فادعى أن انشقاق القمر وقع مرتين .

وهذا مما يعلم أهل الحديث والسير أنه غلط ، فإنه لم يقع إلا مرة واحدة ، وقد قال العلماء ابن كثير : في الرواية التي فيها مرتين نظر ، ولعل قائلها أراد فرقتين ، قال الحافظ العسقلاني قلت : وهذا الرأي لا يتجه إلى غيره جمعًا بين الروايات .

وقد كثرت الأحاديث الواردة حول هذا الموضوع حتى قال بعضهم : إنها بلغت مبلغ التواتر المعنوي ، وذكرها مصنفو كتب التوحيد وعلماء الكلام في كتبهم وكتب دلائل النبوة ، والمفسرون في تفاسيرهم ، والمحدثون في كتبهم ، وذهب بعض المعتزلة وبعض مفسري هذا العصر ، أن معنى انشق القمر : أنه سينشق عند قيام الساعة ، وأنه التعبير بالماضي عن المضارع كقوله : ﴿**أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ**﴾ [النحل : ١] ، أي : سيأتي ، **وذلك لتحقيق الوقوع ويرد عليهم بما يلي :**

[١] صحت الأحاديث في الصحيحين وغيرهما بانشقاق القمر، وبعد ورود الأحاديث الصحيحة ، فضلاً عن الأحاديث الكثيرة التي تواترت معناها ، وأفادت العلم القطعي ، لا ينبغي للمسلم أن يشك وأن يؤول ، فالرسول ﷺ والصحابة من بعده والتابعون وتابعوهم أعلم بتفسير القرآن من هؤلاء الذين حكموا عقولهم ومشوا خلف أهوائهم .

وفتح باب التأويل هو فتح باب سوء ، فلو فتح هذا الباب على مصراعيه ، لأمكن لكل مبطل أن يقول في آيات القرآن وفي أحاديث الرسول ما شاء ، ويؤول بحسب رأيه وفكره أو على حسب مذهبه أو مبدئه ، ولا ينبغي للمسلم أن يجعل القرآن والحديث تبعًا لمذهبه ورأيه .

[٢] إن ما أوَّلوه بأنه سينشق مدفوع بدلالة الآية التالية : ﴿ **وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ** ﴿٢﴾ ﴾ [القمر : ٢] ، فإن سياقها أوضح شاهد على أن قوله ﴿ **آيَةً** ﴾ مطلق شامل لانشقاق القمر وغيره ، فعند وقوعه حصل إعراضهم وقولهم سحر مستمر ، ومن المعلوم أن تقوم القيامة يوم تظهر فيه الحقائق ، ويلجئون فيه إلى المعرفة ، ولا معنى حينئذ لقولهم في آية ظاهرة : إنها سحر مستمر ، فليس إلا أنها آية قد وقعت للدلالة على الحق والصدق، وتأتى لهم أن يرموها عنادًا بأنها سحر مستمر ، ولأنه تعالى قد بين أنه يكون آية على وجه الإعجاز ، وإنما يحتاج إلى الآية أو المعجزة في الدنيا ، ليستدل بها على صحة النبوة ، ويعرف صدق الصادق ، لا في حال انقطاع التكليف، فذلك وقت يكون الناس فيه ملجئين إلى المعرفة ، ولأنه تعالى قال : ﴿ **سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ** ﴾ وفي وقت الإلجاء لا يقولون في المعجزة : إنها سحر .

[٣] أي مانع يمنع من وقوع انشقاق القمر معجزة لرسول الله؟ ، فإنه ﷺ سأل ربه، ودعاء الرسول مُستجاب ، والذي خلق القمر هو الذي شقه ، فأي استحالة في هذا الأمر ؟ ، وهنا قد يُجيب بعضهم بأن أحاديث الآحاد لا تفيد العلم ، والعقائد لا تبنى إلا على العلم القطعي .

إن رد أحاديث الآحاد مردود على صاحبه ، وزلة كبرى لمن قال به ، وقد زيَّف

المحققون هذا القول وقرروا أن الأحاديث الصحيحة وإن كانت آحاداً فإنها تفيد العلم ، وأنه يحتج بها ، ولا فرق بين العقائد والفروع ، مع العلم أن أحاديث انشقاق القمر بلغت مبلغ التواتر المعنوي ، فلا مجال للتأويل ولا التشكيك .

الشبهة الثانية : والجواب عنها :

وهناك شبهة أخرى وهي : لو وقع انشقاق القمر لجاء متواتراً ، واشترك أهل الأرض في معرفته ، ولما اختص به أهل مكة ؟ .

الجواب :

والجواب عن هذه الشبهة كما في فتح الباري : إن ذلك وقع ليلاً وأكثر الناس نيام والأبواب مُغلقة ، وقلَّ من يرصد السماء إلا النادر ، وقد يقع في المشاهدة في العادة ، أن ينخسف إلا النادر ، وقد يقع في المشاهدة في العادة ، أن ينخسف القمر ، وتبدو الكواكب العظام وغير ذلك في الليل ، ولا يشاهدها إلا الآحاد ، وكذلك الانشقاق كان آية وقعت في الليل لقوم سألوا واقترحوا ، فلم يتأهب غيرهم لها ، ويحتمل أن يكون القمر ليلة أن كان في بعض المنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض ، كما يظهر الخسوف لقوم دون قوم .

شبهات بعض المعاصرين حول انشقاق القمر والأجوبة عنها :

وإذ قدمت الأجوبة عن شبهات القدماء حول انشقاق القمر ، فإلى القراء والواقفين على هذا الكتاب ، شبهات بعض العصريين على انشقاقه والأجوبة عنها ؟ .

الشبهة الأولى : والجواب عنها :

إنه وإن كانت تلك الأحاديث صحيحة إلى أن تصل إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، لكننا نشك في صحة السند ... إلخ .

الجواب :

[١] لا ينبغي للمسلم أن يقابل القرآن بالتأويلات الفاسدة ، ويجر الآيات إلى رأيه ويطبقها على مذهبه ، ولا يقف أمام الأحاديث الصحيحة موقف التشكيك ، فلا يخفى على أحد ممن شم رائحة العلم ، ولا سيما علم الحديث ، أن علماء الحديث لم

يألوا جهداً في تمييز الصحيح من الحسن ومن الضعيف والموضوع ، وقد وضعوا علم مصطلح الحديث ، وألفوا في ذلك كتبًا لا تعد ولا تحصى والمرسل والمعضل ، إلى سائر ما هناك من أقسام الحديث ، كما ألفوا في الجرح والتعديل ، وبينوا مراتب الرواة ونقدوا الرجال نقداً ليس بعده نقد ، وقد يردون رواية الرجل لأدنى هفوة ، فتراهم يتكلمون عن رجال السند واحداً واحداً ، حتى ولو كان السند فيه عشرة رجال وواحد منهم غير ثقة أو عهد منه النسيان أو الاختلاط أو قلب الأسانيد أو نحو ذلك ، ردوا روايته ولم يقبلوها .

أتصحيح هؤلاء الجهابذة النقاد ، يكون محل شك لمن لم يبلغ ولم يمنح عُشر معشار ما منحهم الله به من العلوم والحفظ المتقن وسعة الرواية والبصيرة النيرة ؟ .

[٢] قد قالوا في تعريف الحديث الصحيح كما في طلعة الأنوار تحت عنوان : « أقسام الحديث » :

منه صحيح (١) وهو ما يتصل   سنده دون شذوذ (٢) يحصل
وليس فيه علة تعطل (٣)   وكل راو ضابط معدل

فتأمل هذا التعريف وما حواه من الشروط من اتصال السند إلى النَّبي أو الصحابي، والخلو من الشذوذ والعلة ، وعدل الراوي الضابط (٤)، ومعنى العدل كما في التعليق: « المسلم البالغ السالم من ارتكاب كبيرة أو إصرار على صغيرة » ، فإذا

---

(١) بحيث يكون كل من رجاله سمعه من شيخه من أول السند إلى آخره حتى ينتهي إلى النَّبي ﷺ أو الصحابي ، ومن هنا خرج المقنطع والمعضل والمعلق والمرسل على رأي من لا يحتج به كالشافعي .

(٢) بأن لا يكون الثقة خالف من هو أرجح منه حفظًا مخالفة لا يمكن فيها الجمع .

(٣) أي تقدح وتؤثر في صحة الحديث ، وذلك كإرسال الحديث الموصول ، إما إرسالاً خفيًّا بأن يرويه عمن عاصره بلفظ عن ، ولم يسمع منه شيئًا ، أو ظاهرًا بأن ينقل عن شيخ عرف عند الناس عدم اجتماعه به ، والحال أنه لم يسمع عنه شيئًا .

(٤) ضبط مصدره وهو أن يثبت ما سمعه ، بحيث يتمكن من استحضاره متى شاء ، أو ضبط كتاب ، وهو أن يصونه لديه منذ أن سمع فيه وصححه إلى أن يروي عنه ، والمراد بالعدل هنا عدل الرواية ، وهو المسلم البالغ السالم من الفسق بارتكاب كبيرة أو إصرار على صغيرة ، فخرج الفاسق والمجهول عينًا كحدثنا رجل ، أو حالاً كحدثنا زيد ولا يعرف من هو إلا أنه ابن محمد مثلاً ، ولم ينص أحد من أهل الحديث على توثيقه أو تجريحه . [أ . هـ . ملخصًا من رفع الأستار شرح طلعة الأنوار].

كانت هذه شروط الحديث الصحيح ، وأحاديث الانشقاق من أحاديث الصحيحين، التي أجمعت الأمة الإسلامية إلا من قلَّ وندر من المبتدعة على التسليم لأحاديثهما، وأنهما حازا على درجات الصحة ، لا سيما إذا اتفقا على الحديث ، كما قال في طلعة الأنوار :

أعلى الصحيح [(١)] ما عليه اتفقا   فما روى الجعفي فردًا ينتقى
فمسلم كذلك في الشرط عرف   فما لشرط غير ذين يكتنف

قال الدكتور محمد عجاج الخطيب : « لقد بذل الشيخان ما في وسعهما في تصنيف صحيحيهما تصنيفًا علميًا دقيقًا ، يقوم على شروط الصحة التي لا يختلف فيها أئمة هذا الشأن ، فتلقتهما الأمة بالقبول ، وأجمع أهل العلم على أنهما أصح كتابين بعد القرآن الكريم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : « ليس تحت أديم السماء كتاب أصح من البخاري ومسلم بعد القرآن » .

وقال الإمام الدهلوي : « أما الصحيحات ، فقد اتفق المحدثون على أن جميع ما فيهما من المتصل المرفوع صحيح بالقطع ، وأنهما متواتران إلى مصنفيهما ، وأن كل من يهون من أمرهما ، فهو متبع غير سبيل المؤمنين » [(٢)] .

---

(١) أي : أصح مراتب الحديث الصحيح ، ما اتفق عليه البخاري ومسلم على إخراجه ، ثم ما انفرد به البخاري عن مسلم ، لأن شرط البخاري أضيق ، ثم ما انفرد به مسلم .
قال علماء الحديث : إن مراتب الحديث سبعة :
[١] ما تفق عليه الشيخان .
[٢] ما انفرد به البخاري .
[٣] ما انفرد به مسلم .
[٤] الحديث الذي على شرطهما ولم يخرجه واحد منهما في صحيحه .
[٥] ما هو على شرط البخاري وحده .
[٦] ما هو على شرط مسلم وحده .
[٧] ما هو على شرط غيرهما من الأئمة المعتبرين وليس على شرط واحد منهما ، وإليه أشار الناظم بقوله « فما » أي : يلي ذلك الحديث الذي « لشرط غير ذين » أي الصحيحين ، « يكتنف » أي يحتوي شرط غيرهما .

(٢) أ . هـ . من كتاب أصول الحديث علومه ومصطلحه .

وقال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ في مطلع شرحه على صحيح مسلم :

اتفق العلماء ـ رحمهم الله ـ على : أن أصح الكتب بعد القرآن الكريم الصحيحان، صحيح البخاري وصحيح مسلم ، فتلقتهما الأمة بالقبول ، كتاب البخاري أصحهما صحيحاً وأكثرها فوائداً ، وقد صح أن مسلماً كان يستفيد منه ، ويعترف بأنه ليس له نظر في علم الحديث » . أ . هـ .

وقد روى الفريري عن البخاري أنه قال : « ما أدخلت في الصحيح حديثاً إلا بعد أن استخرت الله ، وثبتت صحته » ، وكان مسلم يقول : « عرضت كتابي على أبي زرعة ،فكل ما أشار إلى أن له علة تركته » .

وأحاديث انشقاق القمر من الأحاديث المتفق بين الشيخين عليها ، ولم يتكلم عالم من علماء الحديث من كثرتهم بنقد أو طعن فيها ، وفيهم النقاد المبرزون كعلي بن المديني ، ويحيى بن معين ، والأئمة الأربعة ونظرائهم ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، والحافظ ابن القيم ، والحافظ الناقد الذهبي، والناقد العيني ، وأمثالهم ممن لا يُحصون.

فهل بعد تصحيح هؤلاء الفحول لأحاديث الانشقاق ، وهم الذين انتهى إليهم علم الحديث ، ونقد رجال مجال لتشكيك مشكك وارتياب مرتاب ؟ ، لا يشك في صحة هذه الأحاديث إلا من جهل قدر نفسه ، كما جهل قدر أولئك البحور الزاخرة ، أو أراد أن يُظهر نفسه بهذه الدعوى ليشهرها بين الورى ، أو يبطن الزيغ ، وإلا فأي مجوز لا يخالفوا الألوف العديدة من المحدثين والمفسرين ، وسائر علماء التوحيد والكلام ، الذين أطبقوا على صحة تلك الأحاديث ، وعلى قبولها والتسليم بها ، وعدها من المعجزات النبوية ؟ ، نعم لو أن هؤلاء القائلين بهذه الشبهة وزنوا تلك الروايات بميزان علماء الحديث ونقدوها على قواعد الجرح والتعديل، وجاءوا بعد ذلك بالنتيجة التي تؤيدهم ، ولسان حالهم يقول : وزنا أحاديثكم بميزانكم ، وسلطنا عليها الأضواء الكاشفة مثل أضواءكم التي كشفتم بها الأحاديث المقبولة والمردودة ، فرددناها بما رددتم كثيراً من الأحاديث،لو فعلوا ذلك لكان كلامهم وجيهاً، أما مجرد الشك من غير استناد إلى حجة نقلية صحيحة أو عقلية رجيحة فلا عبرة به .

[٣] إنه لا معنى للتسليم بصحة تلك الأحاديث ، ثم الشك في صحة السند ، إذ لم يحكم علماء الحديث ولا سيما الشيخين بصحتها إلا بعد صحة السند ، وهذا الوضوح بمكان لا يخفى .

[٤] لو أن مجرد الشك في صحة السند أو المتن ، يكون مسوغًا لرد الأحاديث الصحيحة ، لأمكن أن ترد آلاف الأحاديث في العقائد والأحكام بمجرد التشكيك في صحة السند ، وهذا فتح باب للزندقة والإلحاد ، إذ يمكن لملحد أن يقول في أحاديث الصلاة والصيام والزكاة والحج ، بل في العقائد التي هي أساس الدين : إنها لم يصح سندها ، فماذا يبقى عندنا من الدين ؟! .

والحال أن السُّنَّة شقيقة القرآن ، فإذا قضينا على السُّنَّة المحمدية بمثل هذه الشبه السقيمة ، فقد قضينا على القرآن لأن الله يقول لنبيه ﷺ : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل : ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾[الحشر : ٧] ، فلو فكر هؤلاء في مآل كلامهم ، لما أظنهم تفوهوا أو كتبوا هذه الشبهة الواهية ، وبالله التوفيق .

الشبهة الثانية والجواب عنها :

لو صح أن يكون للنَّبي معجزات أخرى متحدية غير القرآن الكريم ، لما كان انشقاق القمر واحدة منها ، لأن العرب لم يتحدوه بأن يأتيهم بمعجزة معلقة في السماء ، وإنما من تحديهم له ما حكاه القرآن عنهم في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣) ﴾ [الإسراء : ٩٠ - ٩٣] ، وعززوا قولهم بقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾[الإسراء : ٥٩] .

والجواب :

عن قولهم لو صح أن يكون للنَّبي معجزات أخرى غير القرآن ، لما كان انشقاق القمر واحدة منها :

[١] أن نقول هذه مكابرة وسفسطة ، وإنكار للمعجزات الباهرات العديدة التي أكرم الله بها محمداً عليه الصلاة والسلام وأيده بها ، وقد ذكرت فيما سلف عديداً من تلك المعجزات ، وقد ألَّف كثير من العلماء في بيان معجزاته ، وقد يسميها علماء السلف بدلائل النبوة ، كأبي نعيم والبيهقي .

[٢] أما منح الله رسله السابقين بكثير من المعجزات ؟ ، أما ألقى نمرود إبراهيم في النار ، وقال الله : ﴿ **يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] ، أما أيد الله شُعيبًا وصالحًا ولوطًا وموسى وعيسى بمعجزات ظاهرة وآيات باهرة ؟ ، فهل يستغرب أن يكرم الله نبيِّه محمداً ﷺ بخوارق تؤيده بدعوى النبوة والرسالة بالنسبة للكفار ، أو تزيد في إيمان المؤمنين ، وتقوي النفوس بالنسبة للمسلمين ؟ .

نعم القرآن المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ لكونه باق ما بقي الدهر يتحدى الثقلين أن يأتوا بسورة مثله ، لا يرتاب في ذلك ذوو النهى ، ولكن ليس معنى ذلك أنه لم يكن له معجزات غيره أو غير القرآن .

وأما قولهم : لأن العرب لم يتحدوه بأن يأتيهم بمعجزة معلقة في السماء .

فالجواب :

قد سبق أن بيَّنا في شرح حديث أنس أن كفار مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يُريهم آية ، فأراهم القمر شقتين ، وقوله في الحديث : « **اشهدوا اشهدوا** » يدل على أنهم سألوه هذه الآية ، وإلا فلماذا يقول : « **اشهدوا** » ؟ .

وقد أخرج أبو نعيم كما سبق : سِحر سَحَرَكُم ابن أبي كبشة .

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح :

أخرج أو نعيم في الدلائل من وجه ضعيف عن ابن عباس قال : اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ ، منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل

والأسود بن المطلب والنضر بن الحارث ونظراؤهم ، فقالوا للنَّبي ﷺ : إن كنت صادقًا فشق لنا القمر فرقتين ، فسأل ربه فانشق . أ . هـ[١] .

وهذا وإن قال فيه الحافظ من وجه ضعيف ، ولكن يتأتيد بحديث أنس المار المخرج في الصحيحين،وكل ما في الأمر أن حديث أنس أجمل ولم يذكر السائلين بأعيانهم ، وحديث ابن عباس فعل ذلك بأعينهم ذكر أسماءهم .

أما قولهم : إنما كان تحديهم له،ما حكاه القرآن عنهم في قوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣)** ﴾ .

[الإسراء : ٩٠ – ٩٣] .

وتشبثهم بهذه الآيات على إنكار انشقاق القمر كمعجزة لسيد الأولين والآخرين ، لأن النَّبي ﷺ قال بعد أن طلبت قريش تلك الطلبات المذكورة في هذه الآيات ، كما قال الله تعالى : ﴿ **هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا** ﴾، وليس في إمكان البشر أن يأتوا بمثل هذه الآيات وقالوا : لو أن الله يريد أن يؤيد رسوله بالآيات غير القرآن لأكرم رسوله بما طلبه المشركون ، لاسيما وأهل مكة كانوا في حاجة ماسة إلى الماء والزرع والنخيل والأعناب والأشجار ، لأن بلادهم قاحلة ومحاطة بالجبال .

فالجواب : من وجوه :

﴿ **أ** ﴾ **أن يُقال :** إن الله أعلم بمصالح عباده وبطبائعهم وما جبلوا عليه ، ولو علم الله أن في إجابتهم لتلك المقترحات فائدة ـ وهي إيمانهم بالله إيمانًا خالصًا من شوائب الشرك ، وتصديقهم برسالة محمد ﷺ ـ لأجابهم ، ولكن علم الله أنهم قوم متمردون على الحق ومصرون على الشرك والباطل .

وأن الآيات لا تفيد في كثير منهم ، فلذا لم يجبهم ، كما قال الله تعالى :

---

(١) من فتح الباري (جـ ٧) ، باب انشقاق القمر .

﴿ إنَّ الَّذينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يونس : ٩٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ [الأنعام : ١١١] .

وقال تعالى [(١)] : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ .

[الأنعام : ١٠٩] .

﴿ب﴾ جرت سُنَّة الله في مكذبي الرسل إذا طالبوا من رسولهم آية ليؤمنوا به ، فإذا أجابهم الله وأيد رسوله بتلك الآية التي طلبوها ثم لم يؤمنوا بها ، أن يهلكهم الله جميعًا ، كما أخبر الله سبحانه وتعالى عن نبيه صالح ، حيث طلبوا منه معجزة ، واقترحوا عليه أن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم ناقة حبلى ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم ليؤمنن به ، وعند ذلك قام صالح ودعا الله ، فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا ، وعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ، ومن كان معه على أمره ، وكذب الباقون ولم يكتفوا بتكذيبهم : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأعراف : ٧٧ ، ٧٨] .

---

(١) يقول تعالى إخبارًا عن المشركين : إنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم ، أي : حلفوا أيمانًا مؤكدة ﴿ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ ﴾ أي : معجزة وخارق ﴿ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ أي : لصدقنها : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ﴾ ، أي : قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات ، تعنتًا وكفرًا وعنادًا ، لا على سبيل الهدى والاسترشاد ، وإنما مرجع هذه الآيات إلى الله ، إن شاء جاءكم بها وإن شاء ترككم ، ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، عن ابن عباس في هذه الآية ، لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء وردت عن كل أمر ، وقال مجاهد في قوله : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ نحول بينهم وبين الإيمان ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ فلا يؤمنون كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة ﴿ نَذَرُهُمْ ﴾ أي : نتركهم ﴿ طُغْيَانِهِمْ ﴾ في ضلالهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ في كفرهم يترددون .

ولما جاء موسى إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان بالله وبرسوله موسى ، وأن يرسل معه بني إسرائيل ، قال كما أخبر الله : ﴿ **قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩)** ﴾ [الأعراف : ١٠٦– ١٠٩] ، وبالرغم من تعدد المعجزات التي أكرم الله بها نبيه موسى عليه السلام لم يؤمن اللعين ، بل زاد كفره وعتوه حتى قال : ﴿ **فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥)** ﴾ [النازعات : ٢٤ ، ٢٥] ، وذلك بإغراقه وقومه في البحر أجمعين ، كما قال الله تعالى : ﴿ **وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦)** ﴾ [الشعراء : ٦٥ – ٦٧] .

ولما طلب الحواريون من عيسى عليه السلام إنزال مائدة لهم من السماء ، دعا عيسى قائلاً : ﴿ **اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)** ﴾ (١) [المائدة : ١١٤ ، ١١٥] .

---

(١) ولما طلب عيسى عليه السلام من ربه أن يُنزِّل عليهم مائدة من السماء كما طلب الحواريون ، استجاب الله لدعائه ، فاقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم ، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم ، كذا رواه ابن جرير ، ورواه ابن أبي حاتم : كان ابن عباس يحدِّث فذكر نحوه ، روى ابن أبي حاتم عن عمَّار بن ياسر رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال : « **نزلت المائدة من السماء عليها خبز ولحم، وأمروا أن لا يخونوا ولا يرفعوا لغد ، فخانوا وادخروا ورفعوا ، فمُسخوا قردة وخنازير** » ، ورويت أخبار أخرى كلها تدل على أن المائدة نزلت على بني إسرائيل أيام عيسى بن مريم إجابة من الله لدعوته ، كما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم ، قال الله : ﴿ **إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ** ﴾ ، وقال القائلون : إنها لم تنزل ، وهناك أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن إنها لم تنزل ، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو في كتابهم ، ولو كانت قد نزلت ، لكان ذلك مما تتوافر الدواعي على نقله ، ويكون موجوداً في كتابهم متواتراً ،ولا أقل من آحاد والله أعلم، ولكن الذي عليه الجمهور هو الذي اختاره ابن جرير قال : لأن الله تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى : ﴿ **إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ** ﴾ قال : ووعد الله ووعيده حق وصدق، وهذا القول هو ـ والله أعلم ـ الصواب ، كما دلت عليه الأخبار والآيات عن السلف وغيرهم . أ هـ . من مختصر ابن كثير .

وقال قوم شعيب عليه السلام كما في سورة الشعراء : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) ﴾ [الشعراء : ١٨٥] يعنون : من المسحورين ، ﴿ وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) ﴾ [الشعراء : ١٨٦] ، أي : تتعهد الكذب فيما تقوله ،لا أن الله أرسلك إلينا ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) ﴾ [الشعراء : ١٨٧] في دعوى النبوة ، ومعنى كسفًا أي : قطعًا من السماء ، وقال بعضهم : عذابًا من السماء : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ (١) يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) ﴾ [الشعراء : ١٨٩] .

وإذا علمت أن الله أهلك مكذبي الرسول ممن عاندوا وأصروا على شركهم وضلالهم ، ولم تفدهم دعوة رسلهم ونصائحهم وتذكيرهم بآيات الله ، ومن طلبوا من رسولهم معجزة تبرهن لهم عن صدق دعوى رسالته ، فأعطاهم الله ولم يؤمنوا فأهلكهم الله كلهم ، فاعلم أن الله لم يجب مقترحات قريش ، لأن الله تعالى لو أجابهم ولم يؤمنوا ، ولكان عذاب الله نازلاً بهم ، غير مغادر منهم أحداً ، ولكن لما سبق علمه وإرادته ، أن كثيراً من أولئك المشركين الذين طلبوا من الرسول تلك الآيات تعجيزاً وعناداً سيسلمون ويدخلون في حوزة الدين ، ويكونون من المؤمنين الصادقين المجاهدين ، وبالفعل أسلم الكثيرون أو الأكثرون من بعد صلح الحديبية ثم يوم فتح مكة ، لهذا لم يجبهم الله إلى ما طلبوا ، لا لأن الرسول ليس له معجزة إلا القرآن ، كما يقول هؤلاء المنكرون لمعجزة انشقاق القمر .

وإلى القارىء تأييداً لما قلت من كلام المفسرين ، ومن أجلهم ابن جرير وابن كثير ـ رحمهم الله ـ :

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ

(١) وهذا من جنس ما سألوه من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام لا يكنهم منه شيء ، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم ، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر ، فلما اجتمعوا كلهم تحتها ، أرسل الله عليهم منها شرراً من نار ولهبًا ووهجًا عظيمًا ، ورجفت بهم الأرض ، وجاءت صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) ﴾

أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ﴾[الأنعام : ١٠٩] .

قال في تفسيرها : قل يا محمد للمشركين الذين يسألونك الآيات عناداً لا استهداء واسترشاداً ، إنما مرجع هذه الآيات إلى الله تعالى إن شاء جاءكم بها ، أو ترككم .

وهنا نورد حديثًا مرسلاً ، ولكن له شواهد من وجوه أخر ، فقد روى ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : كلم رسول الله ﷺ قريشًا ، فقالوا : يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصاً يضرب بها الحجر فانفجر اثنتا عشرة عيناً ، وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى ، وتخبرنا أن ثمود كانت له ناقة ، فأتنا من الآيات حتى نصدقك ، فقال رسول الله ﷺ : « **أي شيء تحبون أن آتيكم به ؟** » ، قالوا : تجعل لنا الصفا ذهبًا ، فقال لهم :« **فإن فعلت تصدقوني ؟** »، قالوا : نعم ، والله لئن فعلت لنتبعك أجمعون ، فقال رسول الله يدعو ، فجاء جبريل عليه السلام فقال له : « **ما شئت ، إن شئت أصبح الصفا ذهبًا ، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبهم ، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم ، فقال رسول الله ﷺ : « بل يتوب تائبهم ، فأنزل الله :** ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ** ﴾إلى قوله تعالى : ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ** (١١١) ﴾[الأنعام : ١٠٩ - ١١١] .

وذكر الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا** (٥٩) ﴾ [الإسراء : ٥٩] .

روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالت قريش للنَّبي ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ونؤمن بك ، قال : « **وتفعلون** » ، قالوا : نعم ، قال : فدعا جبريل ، فقال : « **إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا ، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابًا لا أُعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة ، فقال : لا بل أبواب التوبة والرحمة** » .

وروى الحافظ أبو يعلى عن أم العطاء مولاة الزبير بن العوام حديثًا أطول وبنفس المآل ، إنما قالت أخيرًا بروايتها عن الزبير عنه ﷺ : « **والذي نفسي بيده ، لقد أعطاني ما سألتم ، ولو شئت لكان ، ولكنه خيرني بين أن تدخلوا باب الرحمة ، فيؤمن مؤمنكم ، وبين أن يكلكم إلى ما أخبرتم لأنفسكم ، فتضلوا عن باب الرحمة ، فلا يؤمن أحد ، فاخترت باب الرحمة ، فيؤمن مؤمنكم ، وأخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم ، أنه يعذبكم عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين** »،ونزلت : ﴿ **وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ** ﴾[الإسراء : ٥٩] .

والمعنى : أن الله تعالى لم يرسل الآيات التي طلبها المشركون من قريش ، إلا أنه قد كذَّب بها الأولون بعدما سألوها ، وجرت سُنَّته تعالى فيهم وفي أمثالهم ، أنهم لا يؤخرون وإن كذبوا بها بعد نزولها ، كما قال تعالى : ﴿ **قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾** ﴾[المائدة : ١١٥] ، وقال تعالى عن ثمود حين سألوا آية ناقة تخرج من صخرة عينوها ، فدعا صالح عليه السلام ربه ، وأخرج لهم منها ناقة على ما سألو، وعقروها فقال تعالى : ﴿ **تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ** ﴾[هود : ٦٥] ، ولهذا قال تعالى ﴿ **آتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا** ﴾[الإسراء : ٥٩] ، أي دالة على من خلقها وأنه الواحد الأحد ، وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها ﴿ **فَظَلَمُوا بِهَا** ﴾ ، أي : كفروا بها ، ومنعوها شربها وقتلوها ، فأبادهم الله عن آخرهم ، وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا** ﴾[الإسراء :٥٩] .

قال قتادة ـ رحمه الله ـ : إن الله تعالى يخوف الناس بما من الآيات ، لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون ، ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه فقال : يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فاعتبوه ، وهكذا روى أن المدينة زلزلت على عهد عمر رضي الله عنه مرات ، فقال عمر رضي الله عنه ؟ : أحدثتم ، والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن . أ . هـ[١] .

---

(١) من مختصر ابن كثير ، (جـ ٢) .

الشبهة الثالثة والجواب عنها :

إذا كان النَّبي يريد أن يتحدى قومه بمعجزة مادية ، يطلب من الله أن يؤيده بها ، فلم يختار انشقاق القمر؟ ، أليس الأولى من ذلك أن يريهم أثرًا محسوسًا بين أيديهم ؟ ، كأن يفجر لهم عين ماء أو أن يشير إلى جبل من الجبال المحيطة بهم فيتحول عن مكانة ؟ .

الجواب من وجوه :

[١] إن النَّبي عليه الصلاة والسلام ما تحداهم بمعجزة ، بل هم الذين تحدوه وطلبوا منه ، كما ذكر الله عنهم في سورة الإسراء في قوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا** ﴿٩٠﴾ ﴾ [الإسراء : ٩٠] ... إلخ ، وهم الذين تحدوه بأن يشق لهم القمر كما سبق في حديث أنس ، فهو عليه الصلاة والسلام لم يختر لهم انشقاق القمر ، بل هم الذين طلبوا ذلك .

[٢] سبق أن بيَّنت الحكمة في عدم إجابتهم لسؤالهم ، وهي أنهم إن لم يؤمنوا بعد ذلك سيعاقبهم الله أجمعين ، كما عاقب الأمم السابقة التي كذبت رسلها ، والتي طلبت الآيات ولم تؤمن بها ، وكانت المصلحة لكفار قريش في عدم الإجابة .

[٣] الله أعلم بمصالح عباده في الحال والمآل ، فإنه وإن لم يفجر لهم من الأرض ينبوعًا ، فقد فجَّر لهم ينبوعًا من ماء الحياة المعنوية ، وهي حياة الإيمان ، تلك التي سعدوا بها ، وأصبحوا بعد أن كانوا فقراء أغنياء ، وبعد أن كانوا جهالاً علماء ، وبعد أن كانوا كفاراً ومشركين صاروا مؤمنين وموحدين ، وبعد أن كانوا فساقًا أصبحوا زهاداً ، وبعد أن كانوا مشتتين لا تجمعهم رابطة ، ولا تحكمهم شريعة ، جمعهم الله على هذا الدين القويم ، وجعلهم أمة واحدة متماسكة يشد بعضها بعضًا ، وبعد أن كانوا رعاة للإبل والشاة ، أصبحوا رعاة للأمم وملوكًا على سائر العرب والعجم ، وهو إن لم يجعل لهم الصفا ذهبًا ، فقد جلبت لهم كنوز كسرى وقيصر ومغانم وسائر الأمم التي جاهدوا وانتصروا عليها ، فهل ما أدركوه ونالوه بعد إيمانهم مما ذكرته ومما لم أذكره أفضل في ميزان العقل أم الذي سألوه ؟ ، ذلك السؤال الذي ملؤه الجحد والعناد

والعتو والاستكبار وتعجيز النَّبي ﷺ ، ولا شك أن ما اختار الله لهم في عدم الإجابة أفضل وأصلح مما طلبوه .

وهنا لا يخلو هذا المقام مع منكري الانشقاق من ثلاثة أمور :

[١] **إما أن يقولوا :** إن الله غير قادر على إجابة ما طلبه المشركون ، وطبعًا فإنهم لا يقولون بذلك وإلا كفروا .

[٢] **أو يقولوا :** إن مقام النَّبي لم يصل عند ربه تلك الدرجة التي يعطي معها ما طلبه المشركون ، وهذا لا أظنه يقوله مسلم ، فما بقي إلا الأمر الثالث وهو :

[٣] أن الله ما أجابهم لذلك ،لما علم أن عدم الإجابة أصلح لهم في الحال والمآل ، وهذا الذي أردناه وقررناه .

أما قولهم : أو يشير إلى جبل من الجبال المحيطة بهم فيتحول عن مكانه :

فالجواب :

لا يخفى على كل عاقل ما في الجبال من المنافع والحكم ، للعباد منها :

[١] إنها حصون تحمي أهل البلاد من هجوم الأعداء ، إذا وضعوا حراسًا عليها يمنعون من دخول الأعداء .

[٢] إن فيها من الأدوية النافعة والأشجار المثمرة التي قد تكون فاكهة ، ويكون بعضها قوتًا ، وقد يكون بعضها عيونًا جارية ، وفيها الكهوف التي تكون في وقت الشدة عند هجوم الأعداء مخبآت لساكني تلك البلاد .

[٣] ومن منافعها ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التي بمنزلة الحصون والقلاع ، وهي أيضًا أكنان الناس والحيوان .

[٤] **ومنها :** ما ينحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها والأرضية وغيرها .

[٥] **ومنها :** ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزبرجد والزمرد ، وأضعاف ذلك من أنواع المعادن التي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل ، حتى أن فيها ما يكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة ، وفيها من

المنافع ما لا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه .

[٦] **ومنها :** أيضًا أنها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها ، فلا تدعها تصدم ما تحتها ، ولهذا فالسكانون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية .

[٧] **ومنها :** أيضًا أنها ترد عنهم السيول التي كانت في مجاريها ، فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ، ولولاها لخربت السيول في مجاريها ما مرت به ، فتكون لهم بمنزلة السد والسكن .

[٨] **ومنها :** أنها أعلام يستدل بها في الطرقات ، فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق ، ولهذا سماها الله أعلامًا فقال : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢)** ﴾ [الشورى : ٣٢] ، فالجواري هي السفن ، والأعلام الجبال ، وواحدها علم .

قالت الخنساء :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

فسمي الجبل علمًا من العلامة والظهور .

[٩] **ومنها أيضًا :** ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية التي لا تكون في السهول والرمال ، كما أن ما ينبت في السهول والرمال لا ينبت مثله في الجبال ، وفي كل هذا منافع وحكم لا يحيط بها إلا الخلاق العليم .

[١٠] **ومنها :** أنها تكون حصونًا من الأعداء ، يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم ، كما يتحصنون بالقلاع ، بل تكون أبلغ من كثير من قلاع المدن .

[١١] **ومنها :** ما ذكره الله تعالى في كتابه ، أن جعلها للأرض أوتادًا ورواسي بمنزلة مراسي السفن ، وأعظم بها من منفعة وحكمة ، هذا وإذا تأملت خلقتها العجيبة البديعة على هذا الوضع ، وجدتها في غاية المطابقة للحكمة ، فإنها لوطالت واستدقت ، لتعذر الصعود عليها والانتفاع بها ، وسترت عن الناس الشمس والهواء ، فلم يتمكنوا من الانتفاع بها ، ولو بسطت على وجه الأرض ضيقت عليهم المزارع والمساكن ، ولملأت السهل ، ولما حصل لهم بها الانتفاع

من التحصن والمغارات والأكنان ولما سترت عنهم الرياح ، ولما حجبت السيول ، ولو جعلت مستديرة كشكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها ، ولما حصل لهم بها الانتفاع التام ، فكان أولى الأشكال والأوضاع بها ، وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة ، هذا الشكل الذي نصبت عليه ، ولقد دعانا الله في كتابه إلى النظر وفي كيفية خلقها ، فقال تعالى : ﴿ **أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)** ﴾ [الغاشية : ١٧ - ٢٠] ، فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها وفاطرها وعلمه وحكمته ووحدانيته . أ . هـ[١] .

فهذه المنافع التي ذكرتها ، والتي ذكرها الحافظ ابن القيم - رحمه الله - هي حسب علم البشر القاصر،وإلا فقد تكون لخلقها حكم ومنافع لا يعرفها البشر أو الأكثرون منهم.

والحاصل أن مخلوقات الله لا تخلوا من حكم ومصالح ، فلو لم يكن في تلك البقعة المكرمة المحاطة بتلك الجبال - التي تشبث بها منكرو شق القمر - من الأسرار والحكم والمصالح العاجلة والآجلة ، لما أمر الله نبيه إبراهيم عليه السلام بأن ينقل هاجر وطفلها إسماعيل إلى ذلك المكان الذي وصفه إبراهيم بقوله كما أخبر الله عنه : ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ** ﴾ [إبراهيم : ٣٧] ، ولما أمره الله أن يبني في ذلك المكان الكعبة المشرفة ، ليقصد إليه العباد حاجين ومعتمرين من سائر أرجاء الأرض ، مع العلم أنه إذ ذاك لم يكن هنا أحد من السكان سوى أصهار إسماعيل ، ولكن قد سبق في علم الله وإرادته ، أنه سيكون ذلك المكان المحاط بالجبال والأودية ، والمقفر من الزرع والأشجار أن يكون فيها بيته قبلة للناس ، وأن سيبعث الله فيه سيد الأولين والآخرين ، تعم رحمته العالمين ، وسيكون لذلك المكان المستقبل الزاهر والدين الحنيف الباهر ، والحضارة الراقية والعدل الشامل ، ذلك الدين الذي فيه كل ما يحتاج إليه البشر من أمور الدنيا والآخرة ، كما فيه حل مشاكلهم وعزهم في الدنيا وسعادتهم في العقبى .

---

(١) من مفتاح دار السعادة ، (جـ ١) .

أفبعد هذه الحكم التي ذكرتها يبقى أدنى ريب لذوي الأحلام ، أن بقاء تلك الجبال أنفع وأصلح من زوالها ؟!! .

وهنا قد يقـــول قائل : أنتم قررتم أن الله جل جلاله ، لم يجب سؤال المشركين وتحديهم ، كما أخبر الله عنهم : ﴿ **وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣)** ﴾[الإسراء : ٩٠ – ٩٣] ، لأن الله لو أجابهم ولم يؤمنوا لأهلكهم جميعًا ، وها أنتم قررتم أنهم سألوه أن يشق لهم القمر ، فسأل الله وشق لهم القمر ، ولم يؤمنوا ولم يهلكهم ، فما تقولون ؟ .

الجواب :

أقول في الجواب والله أعلم بالصواب :

[١] إن الله لم يجبهم لما قد سبق في الأجوبة السالفة في الفترة الثالثة ، أن الله أعلم بمصالح عباده في الحال والمآل ، وهنا بقاؤهم وعدم إجابتهم كان أصلح وأنفع لهم ولمن يأتي بعدهم ، وأضيف إلى ذلك أنه لا ريب أن الله لا يعجزه شيء كما قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)** ﴾[يس : ٨٢] ، ولكن بما أن القوم قد بلغوا منتهى العناد والسفاهة ، فما كانت أسئلتهم تستحق العناية والإجابة .

[٢] فهل من الحكمة أن يجيب الله على رغبات أولئك الذين يتعنتون في تحديهم ، بأن يرقى النَّبي ﷺ إلى السماء عيانًا يشاهدونه ، ويأتي لهم بالملائكة يشاهدونهم وليشهدوا له ، بل لا يؤمنوا حتى ينزل لهم من السماء كتابًا يقرؤوه ، فهل مثل هؤلاء السخفاء الذين لم يعرفوا أنفسهم ، ولم يعرفوا الله جل جلاله كما ينبغي ، يجابون بكل ما سألوا .

[٣] لو سأل أُناس ملكًا من ملوك البشر وقالوا : لا نسلم لك الطاعة والإذعان حتى

تفعل لنا كذا وكذا من الأمور الجسام ، وكانت داخلة في نطاق قدرة ذلك الملك ، فهل يجيبهم إلى ما سألوا ؟ ، والحال أنه يعرف أن موقفهم موقف عناد وإصرار واستكبار، لا عن حاجة وافتقار، فلا يتطرق شك لعاقل أنه لا يجيبهم ، بل إما أن يتركهم، أو يعلن حربًا شعواء عليهم ، حتى يذعنوا له بالطاعة أو يُهلكهم كلهم أو بعضهم ، وعند ذلك يدخلون في طاعته قهرًا عليهم ، ولكن الله العليم بما هو أنفع لعباده في العاجل والآجل ، الخبير بأحوالهم ، الحليم الذي لا يعجل بالعقوبة ، لم يجبهم إلى سؤالهم لما في ذلك من المصلحة والخير لهم .

[٤] لو سأل صبي يبلغ من العمر سنتين أو ثلاثًا أباه ما لا يليق به ، كأن يسأله بأن يأتي له بفرس يركبها أو سيارة يسوقها ، فهل من الحكمة والمصلحة أن يجيبه والده ، أو يتركه ويعطيه ما هو أنفع وأصلح له ؟ ، فالله ـ ولله المثل الأعلى ـ العباد عنده كالصبيان الصغار عندنا ـ باستثناء الملائكة والأنبياء ـ فليس من الحكمة أن يُجيبهم بكل ما سألوا،والحال أن الله تعالى يعلم أن كثيرًا مما سألوه ليس تقتضيه المصلحة لهم.

[٥] وأما كونه لهم يهلكهم فما كان الله ليهلك بها جميع من أرسل إليهم النَّبي ﷺ ، وهم أهل الأرض جميعًا ، لعدم تمام الحجة عليهم يومئذ ، وقد كان الانشقاق سنة خمس قبل الهجرة،وقد قال تعالى :﴿ **لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ** ﴾ [الأنفال : ٤٢] .

[٦] وما كان الله ليهلك جميع أهل مكة وحواليها ، خاصة وبينهم جمع من المسلمين كما قال تعالى : ﴿ **وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾[الفتح : ٢٥] .

[٧] وما كان الله لينجي المؤمنين ويُهلك كفارهم ، وقد آمن جمع كثير منهم فيما بين سنة خمس قبل الهجرة وسنة ثمان بعد الهجرة عام فتح مكة ، ثم آمنت عامتهم يوم الفتح ، والإسلام كان يكتفي منهم بظاهر الشهادتين ، ولم تكن

عامة أهل مكة وحواليها أهل عناد وجحود ، وإنما كان أهل الجحود والعناد عظماؤهم وصناديدهم المستهزئين بالنَّبي ﷺ ، المعذبين للمؤمنين ، المقترحين عليه بالآيات ، وهم الذين يقول تعالى فيهم: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ⦗٦⦘ ﴾[البقرة : ٦] ، وقد أوعد الله هؤلاء الجاحدين المقترحين، بعدم الإيمان وبالهلاك في مواضع من كلامه ، فلم يؤمنوا ، وأهلكهم الله يوم بدر ، وتمت كلمة الرب صدقًا وعدلاً » .

[٨] وقد أوضح سبحانه سبب عدم معالجتهم بالعذاب في قوله : ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ⦗٣٣⦘ ﴾[الأنفال : ٣٣] ، واستبان بذلك أن المانع من عذابهم وجود الرسول فيهم ، كما يفيده أيضًا قوله تعالى : ﴿ **وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً** ⦗٧٦⦘ ﴾[الإسراء : ٧٦] ، ثم قال تعالى : ﴿ **وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ⦗٣٤⦘ **وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** ⦗٣٥⦘ ﴾[الأنفال : ٣٤ - ٣٥] ، والآيات نزلت عقيب غزوة بدر ،و تبين أنه لم يكن من قبلهم مانع من نزول العذاب غير وجود النَّبي ﷺ بينهم ، فإذا زال المانع بخروجه من بينهم ، فليذوقوا العذاب ، وهو ما أصابهم في وقعة بدر من القتل الذريع .

وبالجملة : كان المانع من إرسال الآيات تكذيب الأولين ، ومماثلتهم لهم في خصيصة التكذيب ، ووجود النَّبي ﷺ بينهم المانع في معالجة العذاب ، فإذا وجد مقتضى للعذاب كالصد والمكاء والتصدية ، وزال أحد ركني المانع ، وهو كونه ﷺ فيهم ، فلا مانع من العذاب ، ولا مانع من نزول الآية وإرسالها ، ليحق عليهم القول ، فيعذبوا بسبب تكذيبهم لها ، وبسبب مقتضيات أُخر كالصد ونحوه ، فتحصل أن قوله تعالى : ﴿ **وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ** ﴾ . . . إلخ ، إنما

يفيد الإمساك عن إرسال الآيات ما دام النَّبي ﷺ فيهم ، وأما إرسالها وتأخير العذاب إلى خروجه من بينهم، فلا دلالة فيه عليه، وقد صرح سبحانه بأن وقعة بدر كانت آية، وما أصابهم فيها عذاب ، وكذا لو كان مفاد الآية هو الامتناع عن الإرسال لكونه لغواً ، بسبب كونهم مجبولين على التكذيب ، فإن إرسالها مع تأخير العذاب والنكال إلى خروج النَّبي ﷺ من بينهم فيه من الفائدة ، ليحق الله الحق ويُبطل الباطل ، فلتكن آية انشقاق القمر من الآيات النازلة التي من فائدتها نزول العذاب عليهم بعد خروج النَّبي ﷺ من بينهم .

وأما قوله تعالى : ﴿ **قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً** (٩٣) ﴾ [الإسراء : ٩٣] ، فليس مدلوله نفي تأييد النَّبي ﷺ بالآيات المعجزة ، وإنكار نزولها من أصلها ؟ ، كيف وهو ينفيها عن نفسه بما أنه بشر رسول ، ولو كان المراد ذلك ، لأفاد إنكار معجزات الأنبياء جميعًا يكون كل منهم بشرًا رسولاً ، وصريح القرآن فيما حدث من قصص الأنبياء ، وأخبر عن آياتهم يناقض ذلك ، وأوضح من الجميع في مناقضة ذلك نفس الآية التي هي من القرآن المتحدي بالإعجاز ، بل مدلوله أن النَّبي ﷺ بشر رسول،غير قادر من حيث نفسه على شيء من الآيات التي يقترحون عليها ، وإنما الأمر إلى الله سبحانه ، إن شاء أنزلها ، وإن لم يشأ لم يفعل ، قال تعالى : ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ** (١٠٩) ﴾ [الأنعام : ١٠٩] ، وقال حاكيًا عن قوم نوح عليه السلام : ﴿ **قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** (٣٢) **قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ** ﴾ [هود : ٣٢ ، ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [الرعد : ٣٨] ، والآيات في هذا المعنى كثيرة .

والخلاصة :

أن عدم إجابتهم لما اقترحوا من الآيات ، التي كان باعثها التعنت ، هو كما سبق أن قلنا : إنه كان أصلح لهم في العاجل والآجل ، وأما عدم أخذهم بالهلاك لما لم

يؤمنوا بعد أن سألوا انشقاق القمر ، وأتاهم الله سبحانه وتعالى بما سألوا ، فليس كذلك ، بل أخر عنهم العذاب لما تقدم من الأسباب المانعة إذ ذاك ، وتتلخص في كون وجود الرسول فيهم ، وأن الكثيرين منهم أو الأكثرين سيسلمون من بعد ذلك ، وأما هلاك من أصر على شركه وعناده ، فقد أخذهم الله في وقعة بدر ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ** ① ﴾ [القمر : ١] .

[٩] وبعد هذا كله ، لنا أن نجيب بجواب آخر وهو :

أن الله عاقب أولئك الذين سألوا النَّبي ﷺ أن يشق لهم القمر ، ثم لم يؤمنوا بعد الانشقاق ، وذلك في وقعة بدر بأن قتلوا ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ** ① **وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ** ② ﴾ [القمر : ١ – ٢] ، ثم ذكر الله كثيراً من الأنبياء وأُممهم وعقاب تلك الأمم ، ثم قال : ﴿ **أَكُفَّارُكُمْ** [١] **خَيْرٌ مِّنْ** [٢] **أُوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ** [٣] ㊸ **أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ** [٤] ㊹ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ㊺ [٥] ﴾ [القمر : ٤٣ – ٤٥] ، فقتل منهم في وقعة بدر سبعون ، وأسر منهم سبعون ، أما الذين علم الله منهم الإصرار على الكفر والعناد فقتلوا ، ومن علم الله منهم أن سيسلمون وقعوا في الأسر ، وأسلم بعضهم قبل فتح مكة ، وأكثرهم بعد فتح مكة ، فما بقي بعد الفتح في مكة مشرك .

الشبهة الرابعة والجواب عنها :

بقيت شبهة أخرى لهم وهي :

أنه بما أن الله جعل نبوة محمد ﷺ ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في

---

(١) أيها المشركون .
(٢) يعني : من الذين تقدم ذكرهم ، مَنْ أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل ، أأنتم خير من أولئكم .
(٣) أي : أم معكم من الله براءة ، أن لا ينالكم عذاب ولا نكال .
(٤) أي : يعتقدون أن جمعهم يغني عنهم من أراد بسوء .
(٥) أي سيتفرق شملهم ويغلبون ، وقد وقع الاتفاق أن هذه الآيات إخبار عما سيقع في بدر ، لأن السورة مكية .

ثبوتها وفي موضوعها ، لأن البشر قد بدأوا يدخلون بها في سن الرشد والاستقلال النوعي ، الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنه أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سُنن الكون ، فلذا كان معجزة محمد ﷺ هو كتابه المعجز للبشر ، بهدايته وبعلومه وبإعجازه اللفظي والمعنوي ، وبأنباء الغيب الماضية والحاضرة والآتية فيه ، لا بالمعجزات التي تقولون بها كانشقاق القمر ، وتفجير الماء من بين أصابعه ، يؤيد ما قلنا ما قد ورد في الحديث المتفق عليه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ أنه قال : « **ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أُوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أن كون أكثرهم تابعًا يوم القيامة** » .

فهذا الحديث نص قاطع بأنه ليس له من المعجزات إلا القرآن ، لأنه أتى بأداة من أدوات القصر ، وهي « إنما » ، والمقصود عليه من « إنما » هو المذكور بعدها ، وهنا المقصود بعد « إنما » هو الوحي الذي أوحاه الله إليه ، ويعني به القرآن العظيم ، وعليه فقد صح استدلالنا على نفي انشقاق القمر ؟ .

الجواب : ومن الله أستمد الصواب :

قد سبق الجواب في أول الأجوبة التي أسلفتها حول هذا الموضوع ، وهو أن كون القرآن العظيم أعظم معجزة للرسول ﷺ لا ينافي أن تكون له معجزات أخرى ، وإنما القرآن هو أعظم وأكبر معجزة ، وأضيف هنا إلى أن القصر في الحديث الذي أوردوه هو قصر إضافي [١] ، وهو أن يختص المقصور عليه بحسب الإضافة والنسبة إلى شيء آخر معين ، لا لجميع ما عداه كما تقول : « ما حاتم إلا كريم » ، فإنك تقصد قصر الكريم عليه بالنسبة لغيره كزيد وعمر ، وليس القصد أن لا يوجد كريم غيره ، وهنا قوله ﷺ : « **وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ** » ، فقصر آيته على الوحي

---

(١) لأن القصر ينقسم إلى قسمين باعتبار الحقيقة والواقع :

(أ) قصر حقيقي وهو : أن يختص المقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع ، بأن لا يتعداه إلى غيره أصلاً نحو لا إله إلا الله ، ومنه نوع يسمى القصر الحقيقي الإدعائي ، ويكون على سبيل المبالغة لفرض أن ما عدا المقصور عليه لا يتعد به .

(ب) قصر إضافي هو الذي ذكرناه في الجواب .

الذي أوتيه ، يعني أنه بالنسبة لغير القرآن من المعجزات هو أعظمها وأكبرها ، لا أن ليس له معجزة سوى هذا الكتاب المجيد .

[١١] الإسراء والمعراج :

الإسراء والمعراج هما من أكبر معجزاته ﷺ ، لا خلاف في الإسراء به ﷺ ، إذ هو نص القرآن على سبيل الإجمال ، قال الله تعالى : ﴿ **سُبْحَانَ** (١) **الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا**(٢) **الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾[الإسراء : ١] .

وقع الإجماع أن المراد بالعبد في هذه الآية محمد ﷺ ، وقد وردت أحاديث كثيرة في الإسراء والمعراج عن أكثر من ثلاثين راويًا من الصحابة ، وكان الإسراء والمعراج بجسده وروحه ﷺ ، قيل قبل الهجرة بسنة في شهر ربيع الأول ، وقيل في رمضان ، وقيل في شهر رجب وهو المشهور (٣) ، وكان الإسراء في بيت المقدس ،

---

(١) علم للتسبيح بمعنى التنزيه منصوب على المصدرية ، - أسرى وسرى - السير بالليل ، بعبده : هو محمد بالإجماع ، ليلاً منصوب على الظرفية وتنكيره للدلالة على تقليل المدة الإسرائية .

(٢) إلى المسجد الأقصى : هو مسجد البيت المقدس ، ووجه تسميته بالأقصى ، من أجل بعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام، الذي باركنا حوله ببركات الدين والدنيا ، لأنه مهبط الوحي ومتعبد الأنبياء من لدن موسى إلى زمن عيسى عليه السلام ، وهو محفوف بالأنهار والأشجار والأزهار والأثمار .

(٣) ولم يأت تعيين الليلة التي أُسري به ﷺ وعُرج به إلى السموات في الأحاديث الصحيحة ، وكل ما ورد فهو غير ثابت عن النبي عليه الصلاة والسلام عند أهل العلم بالحديث .

ومن المناسب لهذا المقام أن أقول : ما اعتاده الكثيرون في كثير من الأمصار من الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج بدعة لم يفعلها الرسول عليه الصلاة والسلام ولا أصحابه ولا التابعون ولا الأئمة المعتبرون ، وإن كان المحتفلون يزعمون أن ما دفعهم وبعثهم على الاحتفال بتلك الليلة إلا محبتهم لرسول الله ﷺ ، فقصدهم إظهار شعورهم نحوه عليه الصلاة والسلام وتعظيمه ؟ .

فالجواب :

أن يقال قد يكون هذا صحيحًا ، وأن الباعث لهم محبة الرسول ، ولكن لا تتمثل المحبة في الاحتفالات المخترعة ، وإنما تتمثل في التأسي به ﷺ ، واتباعه في هديه ، والتمسك بسنّته ، ومهما ادعينا من الحب له عليه الصلاة والسلام ، فلن نبلغ معشار حُب أبي بكر وعمر وسائر الصحابة له ، وهم لم يقيموا لهذه المناسبة ولا لمناسبة أخرى احتفالاً ، وقد وردت الأحاديث الصحيحة والحسنة في النهي عن المحدثات كحديث العرباض بن سارية وفيه : « **وإياكم ومحدثات الأمور ، فكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة** » رواه الترمذي وزاد أبو داود : « **وكل ضلالة في النار** » .

والمعراج به ﷺ إلى السماوات تشريفًا له وتكريمًا ، وليطلع على عجائب الملكوت ، كما قال تعالى : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ .

ولنقتصر على حديثين وهما :

[١] ما أخرجه مسلم من طريق ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « **أتيت (١) بالبراق (٢) ، وهو دابة أبيض (٣) طويل فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه (٤) ، فركبته حتى أتيت بيت المقدس (٥) فربطته بالحلقة (٦) التي تربط بها الأنبياء ، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجائني جبريل بإناء من خمر وإناء (٧) من لبن، فاخترت اللبن ، فقال جبريل : اخترت الفطرة (٨) ، ثم عرج بنا إلى السماء الدنيا ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ ، قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ ، قال محمد ، قيل : وقد بُعِثَ إليه ؟ ، قال : قد بُعِثَ إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بآدم ، فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم عُرِجَ بي إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ ، قال: جبريل، قيل : ومن معك ؟، قال محمد ، قيل: وقد بُعِثَ إليه(٩) ؟! ،قال : قد بُعِثَ إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ، فرحبا بي ، ودعوا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ ، قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ ، قال محمد ، قيل : وقد**

---

(١)بصيغة المجهول المتكلم .
(٢)بضم الباء لشدة بريقه ولمعانه ، وسرعة سيره وطيرانه كالبرق .
(٣)فيه إيماء إلى ما قيل : إنه ليس بذكر ولا أنثى .
(٤)بفتح الطاء وسكون الراء ، أي : نظره وبصره .
(٥)يقرأ مقدس بسكون القاف وكسر الدال ، وفتح الميم ، ومقدس على وزن محمد ، وسمي بذلك لأن فيه يتقدس من الذنوب أي : يتطهر .
(٦)بإسكان اللام وفتحها .
(٧)هكذا في صحيح مسلم ، وفي صحيح البخاري زيادة إناء من ماء .
(٨)أي : علامة الإسلام والاستقامة ، لكونه طيبًا طاهرًا ، سهل المرور في الحلق سليم العاقبة ، سائغًا شرابه ، وطيبًا مذاقه ، والخمر أم الخبائث جالبة لأنواع الشرور والحوادث، ثم عرج بالبناء للفاعل ، والفاعل هو الله أو جبريل ، وفي نسخة صحيحة بصيغة المجهول .
(٩)وقد بعث إليه : أي بعث إليه للإسراء وصعود السماء .

بُعثَ إليه ؟ ، قال : قد بُعثَ إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بيوسف ، وإذا هو قد أُعطى شطر الحُسن ، فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الرابعة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من هذا ؟ ، قال : جبريل ، قد : ومن معك ؟ ، قال : محمد ، قيل : وقد بُعثَ إليه؟ ، قال : قد بُعثَ إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بإدريس ، فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الخامسة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من هذا ؟ ، قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ ، قال : محمد ، قيل : وقد بُعثَ إليه ؟ ، قال : قد بُعثَ إليه ، ففتح لنا ، فإذا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم عُرِجَ بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل فقيل : من هذا ؟ ، قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ ، قال : محمد ، قيل : وقد بُعثَ إليه؟ ، قال : قد بُعثَ إليه ، فَفُتِحَ لنا ، فإذا أنا بموسى ، فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم عُرِجَ بنا إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل فقيل : من هذا ؟ ، قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ ، قال : محمد ، قيل : وقد بُعثَ إليه ؟ ، قال : قد بُعثَ إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بإبراهيم مُسنداً (١) ظهره إلى البيت المعمور (٢) ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى (٣) فإذا ورقها كآذان (٤) الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال (٥) فلما غشيها (٦) من أمر الله ما غشي تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ، فأوحى الله إليَّ ما أوحى ، ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال : ما فرض ربك على أمتك ؟ ، قلت : خمسين صلاة قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فإني قد بلوت (٧) بني

---

(١) بصيغة الفاعل منصوب على الحال ، قال الشيخ علي القاري : وفي بعض نسخ المصابيح مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أي : وهو مسند .

(٢) فيه دليل على جواز الاستناد إلى القبلة ، وتحويل الظهر إلى الكعبة .

(٣) أي : ينتهي علم الخلائق عندها، وخصت السدرة لأنها ظلها مديد،وطعمها لذيذ ورائحتها طيبة .

(٤) الأذان بالمد : جمع الأذن ، فيه : بكسر الباء وفتح الياء .

(٥) بكسر القاف : جمع قلة ، وسميت بذلك لأنها تقل أي ترفع ، أي تحمل .

(٦) بفتح الغين وكسر الشين ، أي : علاها وغطاها .

(٧) أي : جربتهم ، وبلاه وابتلاه بمعنى واحد .

إسرائيل وخبرتهم (١) ، فرجعت (٢) إلى ربي فقلت : يارب خفف عن أمتي ، فحط عني (٣) خمسًا ، فرجعت إلى موسى فقلت : حط عني خمسًا ، قال : إن أمتك لا يطيقون ذلك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، قال : فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى حتى قال : يا محمد ، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة ، لكل صلاة عشر ، فتلك الخمسون (٤) صلاة ، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبَت له حسنة ، فإن عملها كُتِبَت له عشرًا ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تُكتب شيئًا ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة ، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فقلت : قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه (٥) .

وفي البخاري أنه لما مر الرسول على موسى فسلَّم عليه ، فرد عليه قال : مرحبًا بالأخ الصالح والنَّبي الصالح ، فلما تجاوز بكى موسى (٦) ، قيل ما يُبكيك ؟ ، قال :

---

(١) بتخفيف الباء : عطف تفسيري أو إشارة على أنه جربهم مرة بعد مرة ، يعني امتحنهم وعالجهم ، فلقي منهم الشدة وعدم الطاعة فيما قصد منهم من تحمل الكلفة وقبول الطاعة .

(٢) قال النووي معناه : رجع إلى الموضع الذي ناجيته أولاً ، فناجيته فيه ثانيًا .

(٣) ولم يقل عن أمتي لئلا يتوهم بقاء فرضية الخمسين عليه .

(٤) أي بحسب المضاعفة ، ولعل هذه المراجعة من الرسولين بإلهام ، حيث لم يكن الوجوب حتمًا مبرمًا ، أو أوجبها أولاً ، ثم رحمنا فنسخها ، فيجوز نسخ وجوب الشيء قبل وقوعه ، كنسخ وجوب ذبح إسماعيل تبيانًا لمحل فضله وكرمه .

(٥) بيائين ، وفي نسخة بياء واحدة ، ولعل وجه الحياء هو أن المبالغة في تخفيف العبادة نوع من الجفاء، والقيام بما تعين وتحتم من باب الوفاء في تحمل البلاء ، ولعل الحكمة في وجوب الصلاة ليلة الإسراء للإيماء إلى أنها معراج المؤمن إلى أعلى كمالاته ومقاماته ، ومحل مناجاته من بين عباداته وكما ترقي منازل سادته .

(٦) **قال العلماء** : لم يكن بكاء موسى حسدًا معاذ الله ، فإن الحسد في ذلك العالم منزوع عن آحاد المؤمنين ، فكيف بمن اصطفاه الله تعالى ، بل كان أسفًا على ما فاته من الأجر الذي يترتب عليه رفع الدرجة بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم ، المستلزم لتنقيص أجره، لأن لكل نبي مثل أجر كل من اتبعه ، ولهذا كان من اتبعه من أُمَّته في العدد دون من اتبع نبينا ﷺ مع طول مدتهم بالنسبة لهذه الأمة .

وأما قوله : غلام ، فليس على سبيل النقص ، بل على سبيل التنويه بقدرة الله وعظيم كرمه ، إذ أعطى لمن كان في ذلك السن ، ما لم يعطه أحدًا من قبله ، ممن هو أسن منه ، وقد وقع في موسى من العناية بهذه الأمة من أمر الصلاة ما لم يقع لغيره ، ووقعت الإشارة لذلك في حديث أبي =

أبكي لأن غلامًا بُعثَ بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي .

[٢] أخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لما

هريرة رضي الله عنه عند الطبري والبزار ، قال عليه الصلاة والسلام : « كان موسى أشدهم عليّ حين مررت به ، وخيرهم لي حين رجعت إليه » ، وفي حديث أبي سعيد « فأقبلت راجعًا ، فمررت بموسى ونعْمَ الصاحب كان لكم ، فسألني : كم فرض عليك ربك » ، الحديث ، وقال ابن أبي جمرة : إن الله جعل الرحمة في قلوب الأنبياء أكثر مما جعل في قلوب غيرهم ، فلذلك بكى رحمة لأمته .

وأما قوله : هذا الغلام ، فأشار إلى صغر سنه بالنسبة إليه ، قال الخطابي : العرب تسمي الرجل المستجمع السن غلامًا ما دامت فيه بقية من القوة . أ هـ .

وقال القرطبي : الحكمة في تخصيص موسى بمراجعة النَّبي ﷺ في أمر الصلاة ، لعلها لكون أُمَّة موسى كلفت من الصلوات بما لم تكلف به غيرها من الأُمم ، فثقلت عليهم ، فأشفق موسى على أُمَّة محمد من مثل ذلك ، ويشير إلى ذلك قوله : « إني جربت الناس قبلك » أ . هـ .

وقال غيره : لعلها من جهة أنه ليس في الأنبياء من له أتباع أكثر من موسى ولا من له كتاب أكبر ولا أجمع للأحكام من كتابه ، فكان من هذه الجهة مضاهيًا للنَّبي ﷺ ، فناسب أن يتمنى أن يكون له مثل ما أنعم به عليه ، من غير أن يريد زواله عنه ، وناسب أن يطلعه على ما وقع له ، وينصحه فيما يتعلق به ، ويحتمل أن يكون موسى غلب عليه في الابتداء الأسف على نقص حظ أمته بالنسبة لأمة محمد ، حتى تمنى ما تمنى ثم استدرك ذلك ببذل النصيحة لهم ، والشفقة عليهم ، ليزيل ما عساه أن يتوهم عليه فيما وقع منه في الابتداء .

وقد استشكل رؤية الأنبياء في السماوات ، مع أن أجسادهم مستقرة في قبورهم بالأرض .

وأُجيب : بأن أرواحهم تشكلت بصور أجسادهم ، أو أحضرت أجسادهم لملاقاة النَّبي تلك الليلة ، تشريفًا له وتكريمًا ، ويؤيد عبد الرحمن بن هاشم عن أنس ، ففيه : وبعث له آدم فمن دونه من الأنبياء ، فافهم ، هكذا قاله الحافظ ابن حجر في فتح الباري (جـ ٧) .

وقد اختلف في الحكمة في اختصاص كل منهم بالسماء التي التقاه بها ، فقيل : ليظهر تفاضلهم في الدرجات ، وقيل : الإشارة إلى ما سيقع له ﷺ مع قومه من نظير ما وقع لكل منهم ، فأما آدم فوقع التنبيه بما وقع له من الخروج من الجنة إلى الأرض ، بما سيقع للنَّبي ﷺ من الهجرة إلى المدينة ، والجامع بينهما ما حصل لكل منهما من المشقة وكراهة فراق ما ألف من الوطن ، ثم كان مآل كل منهما أن يرجع إلى موطنه الذي أخرج منه ، وبعيسى ، ويحيى ، على ما وقع له من أول الهجرة من عداوة اليهود ، وتماديهم على البغي عليه ، وإرادتهم وصول السوء إليه ، وبيوسف على ما وقع له من إخوته كما وقع للنَّبي من قريش في نصبهم الحرب له ، وإرادتهم هلاكه ، وكانت العاقبة له ، وقد أشار إلى ذلك بقوله لقريش يوم الفتح ، أقول كما قال يوسف : لا تثريب عليكم اليوم ، وبإدريس على رفيع منزلته عند الله ، وبهارون على أن قومه رجعوا إلى محبته بعد أن آذوه ، وبموسى على ما وقع له من معالجة قومه ، وقد أشار إلى ذلك بقوله ، لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر ، وبإبراهيم في استناده إلى البيت المعمور ، بما ختم له ﷺ في آخر عمره من إقامة منسك الحج ، وتعظيم البيت ، وهذه مناسبات لطيفة أبداها السهيلي ، فأوردتها منقحة ملخصة . أ هـ . « من فتح الباري » .

كذبتني قريش حين أُسري بي إلى بيت المقدس ، قمت في الحجر ، فجلى الله لي بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه . . . » .

وهناك روايات عديدة في بعضها زيادة بعض الأمور ، وفي بعضها نقصان .

وقد أطال القاضي عياض في الشفاء في بحث الإسراء والمعراج ، وذكر المفسرون والمحدثون الشيء الكثير حول هذا الموضوع لا سيما الحافظ العسقلاني في فتح الباري، والإمام النووي في شرح صحيح مسلم ، ولكن الحافظ ابن كثير - رحمه الله - قد استوعب جميع الروايات الواردة في كتب الأحاديث حول الإسراء والمعراج ، فنقل عن صحيح البخاري وصحيح مسلم ومسند الإمام أحمد وسُنني البيهقي والبزار وعبد الله ابن الإمام أحمد وأبي حاتم والترمذي وابن جرير ، وأكثر النقل عن الإمام أحمد وأبي بكر البيهقي ، ومن روايات كثير من الصحابة منهم أنس بن مالك ، تارة يخبر أنس أنه سمع النَّبي ﷺ يقول : وتارة يروي عن غيره ، كما روى عن مالك بن صعصعة ، وأبي ذر وعن أُبي بن كعب .

ومن الصحابة الذين رووا حديث الإسراء بريدة بن الحصيب الأسلمي ، وجابر بن عبد الله ، وحذيفة بن اليمان ، وسعد بن مالك بن سنان ، وشداد بن أوس ، وعبد الله ابن عباس، وعمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود ، وأبو هريرة ،وعائشة أم المؤمنين ، وأم هانيء بنت أبي طالب ، وأبو بكر الصدِّيق .

ثم قال الحافظ : بعد أن أطنب في هذا الموضوع إطنابًا لا مزيد بعده : الإسراء به ﷺ يقظة لا منامًا .

فصل : وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها ، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، وأنه مرة واحدة ، وإن اختلفت عبارات الرواة في آدائه ، أو زاد بعضهم فيه ، أو نقص منه ، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام ، ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة ، فأثبت إسراءات متعددة ، فقد أبعد وأغرب وهرب إلى غير مهرب ، والحق أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أُسري به يقظة لا منامًا من مكة

إلى البيت المقدس راكبًا البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ، ربط الدابة عند الباب ودخله ، فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين ، ثم أتي بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها ، فصعد فيه إلى السماء الدنيا ، ثم إلى بقية السماوات السبع ، فتلقاه من كل سماء مقربوها ، وسلم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم ، حتى مر بموسى الكليم في السادسة ، وإبراهيم الخليل في السابعة ، ثم جاوز منزلتيهما ﷺ وعلى سائر الأنبياء ، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام ، أي أقلام القدر بما هو كائن ، ورأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة ، وغشيتها الملائكة ، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح ، ورأى رفرفًا أخضر قد سد الأُفق ، ورأى البيت المعمور ، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسند ظهره إليه ، لأن الكعبة السماوية يدخلها كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة يتعبدون فيه ، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة ، ورأى الجنة والنار وفرض الله عليه هنالك الصلوات الخمسين ، ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفًا بعباده ، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها .

ثم هبط إلى بيت المقدس ، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة ، ويحتمل أنها الصبح من يومئذٍ ، ومن الناس من يزعم أنه أَمَّهم في السماء ، والذي تظاهرت به الروايات أنه كان أول دخوله إليه ، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه ، لأنه لما مر بهم في منازلهم ، جعل يسأل عنهم جبريل واحدًا واحدًا ، وهو يخبره بهم ، وهذا هو اللائق ، لأنه كان أولاً مطلوبًا إلى الجانب العلوي ليفرض عليه وعلى أُمَّته ما يشاء الله تعالى ، ثم لما فرغ من الذي أُريد به ، اجتمع به هو وإخوانه من النَّبيين ، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة ، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك .

ثم خرج من بيت المقدس ، فركب البراق ، وعاد إلى مكة بغلس . أ . هـ[1] .

ولما أصبح ﷺ أخبر أم هانيء بحديث الإسراء ، فقالت : هل تخبر قومك بما أخبرتني ؟ ، قال : نعم ، قالت : أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم ، قال : وإن كذبوني ، فلما أخبر القوم بأن أُسري به إلى بيت المقدس ، قالوا : ثم أصبحت بين

(١) من تفسير ابن كثير ، (جـ ٤) ط ، دار الأندلس بيروت .

أظهرنا ؟ ، قال : نعم ، وهنا منهم من أنكر وازداده كفره ، ومنهم من تملكه العجب فسكت ، ومن ضعفاء الإيمان من ارتد عن دين الإسلام ، فتحدوه أن يصف لهم بيت المقدس ، لأن كثيراً منهم ذهب هناك ورآه ، فعنَّته لهم عليه الصلاة والسلام .

وفي الحديث : « **فما زلت أنعت حتى التبس عليَّ ، فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه ، حتى وضع دوران دار عقيل ، فنعت المسجد وأنا أنظر إليه** »، فقال القوم : أما النعت فوالله لقد أصاب ، ثم سألوه عن عير لهم ، فأخبرهم أنه رأى العير بالروحاء [١] وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه ، وفي رحالهم قدح من ماء، فعطشت فأخذته وشربته ثم وضعته كما كان ، وقال لهم : مررت بعير بني فلان ، وفلان وفلان راكبان عقوداً لهما ، فنفر بعيرهما مني فرمى بفلان فانكسرت يده .

والحاصل أنه لما قدمت العير ، سألوهم عما أخبر النَّبي ﷺ فقالوا كما قال النَّبي عليه الصلاة والسلام ، ومع ذلك من غلبت عليه الشقوة ، وران على قلبه الضلال ، لم يؤمن ولج في طغيانه وكفره ، والله يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، وأول من صدق أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه ، ولما قيل له : أتصدقه على ذلك ؟ ، قال : إني أصدقه على أبعد من ذلك ، أصدقه على خبر السماء في غدوة أو روحة ، فسمي يومئذ الصدِّيق .

تنبيـــه :

سبق أن ذكرت أن الإسراء مجمع عليه لا خلاف فيه ، ولكن وقع الخلاف في المعراج، والذي عليه جمهور المسلمين أنه عليه الصلاة والسلام عُرِجَ بروحه وبدنه .

قال الحافظ ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

والذين قالوا : عُرِجَ برسول الله طائفتان ، طائفة قالت : عُرِجَ بروحه وبدنه ، وطائفة قالت : عُرِجَ بروحه ولم يفقد بدنه ، وهؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان مناماً ، وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أُسري بها ، وعرج بها حقيقة ، وباشرت من جنس ما تباشر بعد المفارقة ، وكان حالها في ذلك كحالها بعد المفارقة في صعودها إلى السماوات

(١) تبعد عن المدينة ستة وثلاثين ميلاً .

سماء سماء ، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة ، فتقف بين يدي الله عز وجل ، فيأمر فيها بما شاء ، ثم تنزل إلى الأرض ، والذي كان لرسول الله ﷺ ليلة الإسراء أكمل مما يحصل للروح عند المفارقة ، ومعلوم أن هذا أمر فوق ما يراه النائم ، لكن لما كان رسول الله ﷺ في مقام خرق العوائد ، حتى شق بطنه وهو حي لا يتألم بذلك ، عُرِجَ بذات روحه المقدسة حقيقة من غير إماتة ، ومن سواه لا ينال بذات روحه الصعود إلى السماء إلا بعد الموت والمفارقة ، فالأنبياء إنما استقرت أرواحهم هناك بعد مفارقة الأبدان ، وروح رسول الله ﷺ صعدت إلى هناك في حال الحياة ثم عادت ، وبعد وفاته استقرت في الرفيق الأعلى مع أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومع هذا فلها إشراف على البدن وإشراق ، وتعلق به ، بحيث يرد السلام على من سلم عليه ، وبهذا التعلق رأى موسى قائمًا يصلي في قبره ، ورآه في السماء السادسة ، ومعلوم أنه لم يعرج بموسى من قبرهِ ثم رده إليه ، بل ذلك مقام روحه واستقرارها ، وقبره مقام بدنه واستقراره إلى يوم معاد الأرواح إلى أجسادها ، فرأه يصلي في قبره ورأه في السماء السادسة،كما أنه ﷺ في أرفع مكان في الرفيق الأعلى مستقراً هناك ، وبدنه في ضريحه غير مفقود ، وإذا سلم عليه المسلم ، رد الله عليه روحه حتى يرد السلام ، ولم يفارق الملأ الأعلى .

هذا ما قاله الحافظ ابن القيم في زاد المعاد ، ولكن الظاهر أن الأقوال ثلاثة :

[١] عُرِجَ بروحه وبدنه ، وعليه جمهور المسلمين من الصحابة والتابعين وتابعيهم وسائر الأئمة المعتبرين .

[٢] وطائفة قالت : عُرِجَ بروحه .

[٣] وطائفة قالت : عُرِجَ بالمنام .

وهناك قول رابع : وهو أنه أُسري به بروحه وبدنه إلى البيت المقدس ، وعُرِجَ به من بيت المقدس إلى السماء بروحه . . . وكلها بمعزل عن الصواب ، إلا القول الأول لما سبق من الأدلة .

شبهات القائلين : إن الإسراء والمعراج كان بالروح أو بالمنام :

[١] قالوا : روي عن عائشة أم المؤمنين ، ما فقدت جسد رسول الله ﷺ ولكن عُرِجَ بروحه .

[٢] روي عن معاوية بن أبي سفيان أنه كان بالروح منامًا ، ومعاوية رضي الله عنه من الصحابة الأجلاء ، وأصبح من بعد خليفة للمسلمين ، ويبعد أن يقول ما ليس له مستند ، إما أن يكون سمعه من النَّبي ﷺ أو عن بعض أصحابه .

والجواب :

حديث عائشة رضي الله عنها غير ثابت ، وعلى فرض الثبوت ، فإنها لم تكن في وقت الإسراء زوجًا للنَّبي عليه الصلاة والسلام ، بل لعلها لم تكن وُلِدت إذ ذاك ، على خلاف في زمن الإسراء ، فإذا لم تشاهد ذلك دلت الرواية على أنها حدثت به من غيرها ، فلم يرجع خبرها على قبول أم هانيء بخلافه .

وأما ما يروى عن معاوية فغير ثابت أيضًا ، وعلى فرض الثبوت فلعله فهم من قوله تعالى : ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ** ﴾ [الإسراء : ٦٠] ، هي لرؤيته ﷺ ليلة الإسراء ، وفهم أن الرؤيا بالألف لا تطلق إلا على الرؤية المنامية ، وهذا الفهم في غير محله ، لأنها كما تطلق على المنامية تطلق على رؤية البصر ، كما ذكر في لسان العرب وغيره من كتب اللغة .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية :

حدثنا عليّ بن عبد الله ، حدثنا السفيان عن عمرو بن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ** ﴾ قال : هي رؤيا عين أُريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به ، والشجرة المعلونة في القرآن شجرة الزقوم ، وكذا رواه أحمد وعبد الرزاق وغيرهما عن سفيان بن عُيينة به ، أي هذا السند .

وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء مجاهد وسعيد بن جبير والحسن ومسروق وإبراهيم وقتادة وعبد الرحمن بن زيد وغير واحد . أ . هـ(١) .

---

(١) من تفسير ابن كثير ـ رحمه الله ـ .

فالرؤيا بمعنى الرؤية ، يقال : رأيت بعيني رؤية ورؤيا ،فليست الرؤيا مقصورة على رؤيا المنام ، بل تشمل رؤيا العين في اليقظة ، كما حقق علماء اللغة ، فقد ورد في لسان لعرب ما نصه : قال ابن بري : وقد جاء الرؤيا في اليقظة ، **قال الراعي :**

فكبر للرؤيا وهش فؤاده وبشر نفسًا كان قبل يلومها

وعليه فسر قوله تعالى : ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ** ﴾ .

وعليه قول أبي الطيب :

مضى الليل والفضل الذي لك لا يمضي ورؤياك أحلى في العيون من الغمض

وتفريق من فرق كالحريري بأن يقال : في البصرية رؤية ، وفي الحلمية رؤيا ، مردود بما ورد عن ابن عباس في صحيح البخاري « هي رؤيا عين أُريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به إلى بيت المقدس » ، أي : لا رؤيا منام .

وبما ذكر في لسان العرب من قول الشاعر الراعي : فكبر للرؤيا وهش فؤاده . . .

ومن المعلوم الثابت في وقت الإسراء أن معاوية لم يكن قد أسلم ، بل كان على دين قومه وهو من مسلمة الفتح ، ولم تأت في رواية صحيحة أن معاوية سمع ذلك من النَّبي ﷺ أو من أصحابه ، وعلى تقدير أن يكون قد سمع من صحابي . . . ؟ .

فالجواب :

أنه قد وردت الروايات العديدة الوفيرة من طريق أكثر من ثلاثين صحابيًا ، وكلها تثبت الإسراء والمعراج بروحه وبدنه ، إلا رواية شريك [1] في البخاري حيث قال في

---

(١) قال في تفسير الخازن بعد أن ساق روايات الإسراء والمعراج ومنها رواية متفق عليه عن شريك ابن أبي نمر ثم قال فصل : قال البغوي : قال بعض أهل الحديث : ما وجدنا للبخاري ومسلم في كتابيهما شيء لا يحتمل مخرجًا إلا حديث شريك بن أبي نمر عن أنس ، ثم ساق كلامًا طويلاً إلى أن قال : قال الشيخ محيي الدين - رحمه الله - في كتابه شرح مسلم : قد جاء في رواية شريك في هذا الحديث أوهام أنكرها عليه العلماء، وقد نبه مسلم على ذلك بقوله : قدَّم وأخَّر، وزاد ونقص ، منها قوله : وذلك قبل أن يوحي إليه وهو غلط لم يوافق عليه ، إلى أن قال : وأما قوله في رواية شريك : وهو نائم ، وفي الرواية الأخرى : بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان ، فقد يحتج به من يجعلها رؤيا نوم ولا حجة فيه ، إذ قد يكون ذلك حاله أول وصول الملك إليه ، وليس في الحديث يدل على كونه نائمًا في القصة كلها .
هذا كلام القاضي عياض ، وهذا الذي قاله في رواية شريك ، وأن أهل العلم قد أنكروها ، قد قال =

آخره : « واستيقظ وهو في المسجد الحرام » .

ولمنكري الإسراء والمعراج والقائلين أنه كان بالمنام أو بالروح شُبهات عقلية :

الشُبهة الأولى : أن صعود الجرم الثقيل إلى السماء غير معقول ؟ .

والجواب :

أن على المسلم أن يؤمن بما جاء في القرآن ، أو صح في الحديث عن النَّبي عليه الصلاة والسلام ولا يقابل الوحيين بمثل هذه الشبهة العقلية الكاسدة ، لأن الله جل جلاله الذي وهب العقول لذويها،ولأولئك الذين انقدحت هذه الشبهة في أذهانهم ، هو الذي خرق ناموس الكون لرسوله ﷺ معجزة ، وأي عقل يستبعد ما يفعله الله أو ما يقوله ، أو ما يقول الرسول ﷺ لا يستبعد هذا من يملك ذرة من الإيمان ، وليلة الإسراء والمعراج كانت من المعجزات الكبرى لنبيه عليه الصلاة والسلام ، والمعجزة أمر خارق للعادة .

الشُبهة الثانية : قالوا : إن الحركة الجسمانية البالغة في السرعة إلى هذا الحد غير معقولة ؟ .

والجواب :

هو الجواب الأول : ونضيف إليه جوابًا ثانيًا ، وهو أنه قد ثبت في الهندسة ، أن قرص الشمس يساوي كرة الأرض مليونًا وستمائة ألف مرة ، ثم إنا نشاهد أن طلوع قرص الشمس يحصل في زمن لطيف سريع وذلك يدل على أن بلوغ الحركة في السرعة إلى الحد المذكور أمر ممكن في نفسه ، وإذا ثبت ذلك ثبت أن حصول مثل هذه الحركة في جسد الرسول ممكن ، لقيام البرهان على أن الأجسام متماثلة في تمام ماهيتها ، فلما ثبت حصولها في بعض الأجسام ، وجب إمكان حصولها في سائر

= غيره ، وقد ذكر البخاري في رواية شريك هذه عن أنس في كتاب التوحيد من صحيحه وأتى بالحديث مطولاً ، وقال الحافظ عبد الحق في كتابه الجمع بين الصحيحين بعد ذكر هذه الرواية : هذا الحديث بهذا اللفظ من رواية شريك بن أبي نمر عن أنس قد زاد فيه زيادة مجهولة ، وأتى فيه بألفاظ غير معروفة ، وقد روى حديث الإسراء جماعة من الحفَّاظ المتقنين والأئمة المشهورين كابن شهاب ، وثابت البناني وقتادة - يعني عن أنس - فلم يأت أحد منهم بما أتى شريك ، وشريك ليس بالحافظ عند أهل الحديث ، قال : والأحاديث التي تقدمت قبل هذا هي المعول عليها .

الأجسام ، إذًا فالمعراج ممكن كما أخبر به الصادق الأمين ، وكل ما أخبر به الرسول ﷺ فهو حق يجب تصديقه .

الشُبهة الثالثة : إن القول بصعود الرسول إلى السماوات واستفتاحه ، وفتح باب السماء له سماء سماء ، يلزم منه خرق السماء والتآمها ، وهما ممتنعات عند أهل الفلك والهندسة ؟ .

والجواب :

أولاً : قد قلنا غير مرة : إن الذي خلق السماوات والأرض،هو الذي أُسري بعبده ، وخرق ناموس الكون حسب ما هو متعارف لدينا ، وأي قيمة لقول علماء الفلك بعد ما صح عن رسول الله ﷺ في ذلك ، وليس من شأن المسلم أن يعارض الحديث الصحيح بقول فلسفي أو فلكي .

وثانيًا : قد مر لنا أنه قد ثبت تماثل الأجسام ، وعليه فيجوز على السماوات الخرق والتئام ، كما يجوز على غيرها كالأرض والماء .

وثالثًا : لو كان القول بمعراج الرسول في بعض ليلة ممتنعًا ، لكان القول بنزول جبريل من العرش إلى مكة أو المدينة في لحظة واحدة ممتنعًا ، لأن الملائكة أيضًا أجسام عند جمهور المسلمين ، وتوضيحه : أنه كما يستبعد عقلاً صعود الجسم الكثيف من الأرض إلى السماء وإلى العرش ، كذلك يستبعد نزول الجسم اللطيف من السماوات ، ولو قلنا بذلك لكان طعنًا [١] في نبوة جميع الأنبياء ، والقول بثبوت المعراج فرع تسليم جواز أصل النبوة .

ورابعًا : أما أخبر الله عن عرش بلقيس ، بأن يحضره من كان عنده علمٌ من الكتاب قبل أن يرتد طرفه ، كما أخبر الله : ﴿ **قَالَ الَّذِي عِندَهُ** [٢] **عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا**

---

(١) لأن النَّبي تعريفه رجل يوحى إليه أمر ، والوحي ينزل به جبريل ﷺ ، فإذا امتنع نزول الجسم اللطيف في لحظة بطل الوحي ، وبناء عليه فلا نبوة لنبي من الأنبياء ، فلا وحي على منطق هذه الشبهة .

(٢) هو آصف بن برخيا « وقيل : هو سليمان » ، لأنه كان يعرف اسم الله الأعظم ، وكان الخطاب في آتيك به للعفريت الذي قال : ﴿ **أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** ﴾ .

آتيكَ به قَبْلَ أن يَرْتَدَّ إلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾[النمل : ٤٠] ، وبالفعل أحضر عرش بلقيس من سبأ إلى فلسطين بلحظة خفيفة ، ولذا قال الله مُخبرًا ، ﴿ **فَلَمَّا رَآهُ** ﴾أي : العرش ﴿ **مُسْتَقِرًا عِندَهُ** ﴾قال ـ أي : سليمان ـ : ﴿ **هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ** ﴾[النمل : ٤٠] ، فإذا تأتى إحضار عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى الشام في تلك اللحظة القصيرة ، فكيف لا يتأتى من الخالق جل جلاله أن يعرج برسوله ﷺ في لحظات من الليل ؟ ، وكيف يُقال أيضًا : إن الحركة الجسمانية البالغة السرعة إلى هذا الحد غير معقولة ؟ ، فقد ثبت بدعاء من عنده علم من الكتاب أن الله بعث ملائكة حملت عرش بلقيس ، حتى وضعوه بين يدي سليمان .

خامسًا : إن الحركة بالأجسام المتناهية في السرعة لا مانع من حصولها ، بل هي موجودة بالفعل وإن لم تدركها العقول باديء ذي بدء ، وليس كل ما لا تصل العقول إلى إدراكه مستحيل الحصول في ذاته ، فلو قال قائل قبل سبعين سنة : إن هناك طائرات من حديد تطير في الجو ، وعليها مدافع ورشاشات ، وتقطع المسافات البعيدة التي تستغرق بسير الدواب أو السفن الشراعية أيامًا عديدة تقطعها بساعات قليلة ، لكان كل سامع يكذب القائل ، ويصفه بقلة العقل ، لكونه مخالفًا لذوي التفكير والعقول آنذاك ، ولكن كون عقولنا لا تصل إلى إدراك ذلك ، لا تجعل الطائرات في دائرة المستحيل ، بل قد حصل في هذه الأيام ما هو أسرع من الطائرات الموجودة منذ سنوات ، كالأقمار الصناعية والصواريخ عابرة القارات ، وقد يحصل في المستقبل ما هو أكثر وأعجب ، قال الله العظيم: ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾[الإسراء: ٨٥]، فإذا كان علم البشر وقدرته قد وصل إلى هذا الحد ، بل أعظم من ذلك أنه قد اخترق الفضاء وصعد إلى القمر ، والحال أنه محدود القدرة والعلم ، فما موقف المكذبين بالإسراء والمعراج مع قدرة الله التي لا وصف لها ولا نهاية . . . ؟ ، من يعرف الله معرفة حقيقة ، ويعرف هذه المخلوقات العظيمة التي أوجدها الله من السماوات والكواكب والأقمار والبحار والجبال لا يكذب ، بل لا يستبعد أن يسري الله بعبده إلى بيت المقدس ثم إلى السماوات، ولكن من سُلِبَ العقل أو الإيمان، واستحوذ عليه الشيطان، وتأثر بآراء الفلاسفة وأشباههم هو الذي يماري ويجادل ، ويتسلح بسلاح الإنكار

﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ .

[الكهف : ١٧] .

الشُبهة الرابعة : إن الإنسان عبارة عن الروح وحده ، لأنه باقٍ من أول عمره إلى آخره ، والأجزاء البدنية في التغير والانتقال ، والباقي مغاير للمتغير ، فالإنسان مغاير لهذه الأعضاء ، فالعبد في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ المراد منه الروح ، لأن العبد يطلق على الروح كما يطلق على الروح والجسد معًا ، بل الروح خلاصته ، فهي أولى بالذكر ، والنتيجة من هذه الشبهة هو أن الإسراء والمعراج كانا بالروح ؟ .

والجواب :

لما كان الإسراء والمعراج من الأمور العجيبة الخارقة للعادة ، افتتح الله آية الإسراء بكلمة ﴿ سُبْحَانَ ﴾ إشارة إلى تنزيه ذاته العلية ، وتقديسها عن شوائب النقص ، وإشارة إلى أن الله أسرى بجسده محمد ﷺ وروحه .

ولنا على ذلك من الأدلة الشيء الكثير وإلى القارىء بعضها :

[١] لو كان الإسراء والمعراج بالروح أو بالمنام ، لما افتتح الله السورة بكلمة ﴿ سُبْحَانَ ﴾ الدالة على تنزيه الله وتعظيمه ، لأن المنام أمر عادي ، يكون للأنبياء ولغير الأنبياء ، فقد يرى النائم أنه صعد إلى السماء ورأى الملائكة أو الجنة والنار ، فأي غرابة وعجب في هذا حتى يستفتح بالتنزيه ؟ .

[٢] لو كان بالمنام أو بالروح ، لما استبعده المشركون وأنكروه وكذَّبوا الرسول ﷺ ، وارتد بعض ضعفاء الإيمان ، لأنه لم يكن غريبًا عندهم ولا عند غيرهم من بني آدم ، أن يرى الرائي منهم في المنام ما هو على مسيرة سنة أو أكثر ، فكيف على ما هو أقل - ونعنى بذلك المسافة من مكة إلى بيت المقدس - ولما كان هناك وجه للدهشة والاستغراب للجاهلين من المشركين .

[٣] لو كان بالمنام لما ذكر الله صريحًا في القرآن الكريم في سورة الإسراء ، وأشار إلى المعـراج في سـورة النجم ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ** ﴾ [النجم : ١] ، لأن المنام يحصل لكل أحد لا فرق بين نبي وغيره .

[٤] لو كان بالروح لما كان حاجة إلى إتيان البراق ، لأن الروح لا تحمل على الأجسام ، وقد وصف البراق بدابة دون البغل وفوق الحمار، والدواب لا تحمل إلا الأجسام.

[٥] ولو كان بالروح كما ذكروا ، لما عطش وطلب الماء ، لأن الأرواح المجردة لا تظمأ ولا تجوع ولا تطلب الماء ، وإنما ذلك من خواص الأرواح والأجسام .

[٦] ولو كان منامًا لما كان هناك وجه لسؤال جبريل عنه عليه السلام ، لأن الأرواح من أمر الله ، فلا تتناكر حتى تحتاج للسؤال .

[٧] ومنها أنه لو كان بالروح أو منامًا ، لما كان له ﷺ مزية فيه على غيره ، لأن مطلق مؤمن يرى في منامه أن القيامة قد قامت ، واجتمعت الخلائق ونُصِبَ الميزان ، وحصل فصل القضاء ، ويرى الصراط والنار ، ويرى أنه قد دخل الجنة ومن الناس من يرى أنه صعد السماء ، ورأى فيها الملائكة،بل يرى ذلك غير المؤمن ، وإذًا فلا مزية في الإسراء لمحمد عليه الصلاة والسلام على غيره من باقي الأنام ، ولم يكن هناك وجه لذكره في القرآن الكريم مبدوءًا بتنزيه العزيز الحميد .

وأما زعمهم أن العبد عبارة عن الروح ؟ :

فالجواب :

أن نقول أولاً : هذا تفسير باطل ، وتحكم لا يحتمله اللفظ ، ولم يرد في كتب اللغة لفظ العبد بمعنى الروح ، ولو كان الإسراء بالروح ، لقال :« أسرى بروح عبده »، وتقديرهم بأن الكلام على حذف مضاف تقديره أسرى بروح عبده » ، تأويل باطل ، لأنه لا يقال بالمجاز إلا تعذر حمل الكلام على الحقيقة ، وهنا لا يتعذر ، ولا هناك مانع من حمل الكلام على حقيقته ، وهو أن الإسراء والمعراج كانا بروحه وبجسمه يقظة لا منامًا ، والدلائل النقلية والعقلية التي سقنا كثيراً منها تؤيدنا ، وتضعف قولهم ، وتبطل شبهتهم ، ومن تدبر قول هؤلاء المنكرين للإسراء والمعراج ، أو القائلين بالروح

أو المنام ، يتبين له بكل وضوح فساده وبطلانه ، لأنه يلزم منه نسبة العجز إلى الله العلي القدير ، وإنكار هذه المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ ، ولم يثبت عن صحابي قط ما زعمه هؤلاء المنكرون أو المؤولون، وما نُسِبَ إلى عائشة، ومعاوية رضي الله عنهما ، فلا أصل له كما سلف بيانه .

ونقول ثانيًا : لو فُتِحَ باب التأويل ، لما صحت عقيدة إسلامية ، ولأمكن لكل مُلحد أن يؤول العقائد والأحكام ، كما أوَّلت الجهمية والمعتزلة صفات الباريء ، وعطلته عن أسمائه وصفاته ، وما أثبتوا إلا ذاتًا مجردة هي قدرة وهي سمع وهي بصر وإرادة ، إلى غير ذلك مما يخالف المعقول والمنقول ، كما سلطت الباطنية التأويل على العقائد وعلى الأحكام الشرعية ، فأصبحوا يُظهرون الإسلام ويُبطنون الكفر ، وأكبر معوِّل لهدم الدين هو التأويل ، باستثناء حالات ضرورية تسوغ لنا التأويل ، كما فسروا قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ** ﴾ ، بمعية العلم ، لأن الله تعالى قال ذلك ﴿ **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)** ﴾ . [الحديد : ٤ - ٦] .

فالآيات السابقة واللاحقة ترينا أن المعية هنا بمعنى معية العلم ، كما أن قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨)** ﴾ [النحل : ١٢٨] ، فإن المعية هنا بمعنى : التأييد والنصر ، لا بمعنى معية الذات لاستحالتها ، ولكن أي استحالة في إثبات الصفات لله ، وهي صفات كمال مع تنزيهه عن مشابهة المخلوقات لقوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى : ١١] ، وأي استحالة في إسراء الله لنبيه ﷺ إلى المسجد الأقصى ، ثم إلى السماوات العلى ، وأي محذور في ذلك حتى يوجب علينا التأويل وتفسيره بالروح أو بالمنام ؟ .

وحيث أننا بيَّنا بعض المعجزات النبوية ، والمعجزة كما سبق أمر خارق للعادة ... إلخ ، وخرق العادة قد يحصل لغير الأنبياء من السحرة والكُهان والدجاجلة والمتنبئين

الكذابين فمن الجدير بنا أن نذكر الفروق بين معجزات الأنبياء وخوارق غيرهم ، فهاك البيان الشافي :

الفروق بين آيات الأنبياء وغيرهم من السحرة والكُهان ونحوهم :

هناك فروق كثيرة ، ونحن ذكر بعضها :

[١] إن سيرة النَّبي ﷺ وأخلاقه وصفاته ، إذا قورنت بسيرة السحرة والكُهان والمُتنبئين من الدجاجلة وغيرهم ، تبين بينه وبينهم بون شاسع ، وبُعد عظيم ، فالنَّبي يتمتع بالسيرة الحسنة والأخلاق العظيمة والصفات الجليلة ، كالصدق والمروءة والوفاء بالوعد ، والإعراض عن الدنيا ، والزهد فيها ، وعبادة الله وحده ، والانقطاع إليه ، بينما ترى الساحر والكاهن ديدنه الكذب ، وصفاته الظلم والغدر والكذب ، وشيمته إخلاف الوعد ، وكل همَّه أن ينال حطام الدنيا ، وهكذا المتنبئون الكذابون ، لا يتصفون بالصدق ، ولا يبالون بالظلم ، وليس لديهم مروءة ولا وفاء ، وجل همهم الرئاسة على أتباعهم ، ومن يقع في شركهم ، وأن يعيشوا منعمين ، معرضون عن الله وعن الدار الآخرة ومقبلون على الدنيا ، ولا أظن أن إنسانًا حباه الله ذرة من العقل والتمييز بين الطيب والخبيث والحق والباطل ، ثم لا يميز بين سيرة الأنبياء والمرسلين ، وبين سيرة السحرة والكُهان والمتنبئين ، ومن وصلت به الحالة إلى أن لا يميز بين هؤلاء وهؤلاء ، فهو أقرب إلى الحيوان ، ولا ينبغي أن يعد نفسه من بني الإنسان ، وإذا عرفت ما ذكرته من الفرق بين الصنفين ، تعرف الفرق بين خوارق الأنبياء وهي معجزاتهم وآيات نبوتهم ورسالتهم ، وخوارق السحرة والكُهان والمشعوذين والدجاجلة المتنبئين الكذابين ، فإن خوارق الأنبياء منحة ربانية ، وخوارق هؤلاء كسبية بتعلم علوم ، أو معرفة خواص أشجار ونباتات ، أو سحر أو من الشياطين .

[٢] الأنبياء تأمر بعبادة الله وتوحيده ، والإيمان باليوم الآخر، ولا تأمر إلا بالعدل ، ولا تفعل إلا العدل،وهؤلاء المخالفون لهم لا يأمرون بالتوحيد، بل لابد لهم من الظلم ، فإن من خالف العدل لا يكون إلا ظلمًا ، فيدخلون في العدوان على الخلق ، وفعل

الفواحش والشرك ، والقول على الله بغير علم ، وهي المحرمات التي حرمها الله مطلقًا ، كما قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** (٣٣) ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

[٣] ما تُخبر به الأنبياء لا يكون إلا صدقًا ، وأما ما يخبر به من خالفهم من السحرة والكُهان ، وعباد المشركين وأهل الكتاب ،وأهل البدع والفجور من المسلمين ، فإنه لابد فيه من الكذب ، كما قال تعالى : ﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ** (٢٢١) **تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ** (٢٢٢) **يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ** (٢٢٣) ﴾ .

[الشعراء : ٢٢١-٢٢٣] .

ومن هنا قد تُخبر الكُهان والسحرة عن بعض أمور الغيب بالنسبة لمن لم يعرف طرقهم الشيطانية ، فهو غيب إضافي مصدره الشياطين ، أما ما تُخبر به الأنبياء والرسول :

فأولاً : مصدره الرب العظيم الذي يعلم ما كان وما يكون وما سيكون لو كان كيف يكون ، كما قال الله تعالى : ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا** (٢٦) **إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا** (٢٧) ﴾ .

[الجن : ٢٦ ، ٢٧] .

وثانيًا : قد يُخبر الرسول بأمور بعيدة كبيرة مفصلاً ، مثل إخباره عليه الصلاة والسلام : « **إنكم تُقالون الترك صغار الأعين ، ذلف الأنف** [١] ، **ينتعلون الشعر ، كأن وجوههم المجان المطرقة** » [٢] ، وقوله ﷺ : « **لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز ، تضيء لها أعناق الإبل ببصرى** » ، ونحو ذلك ، فمثل هذه الأخبار لا يقدر عليه جني ولا إنسي ، والمقصود أن ما يُخبر به غير النَّبي - من ساحر أو

---

(١) الذلف بالتحريك قصر الأنف وانبطاحه ، والأنف جمع قلة للأنف وضع موضع الكثرة .

(٢) المجان : جمع المجن وهو الترس ، والمطرقة التي قد عليت بطارق وهو الجلد الذي يغشاه ، شبه وجوههم في عرضها ونتوء وجناتها بالترس قد ألبست الأطرقة .

كاهن أو منجم أو متنبيء - من الغيب معتاد معروف نظيره من الجن والإنس ، فهو من جنس المقدور لهم ، وما يخبر به النَّبي خارج عن قدرة هؤلاء وهؤلاء ، فهو من غيب الله الذي اختص به ، كما ذكرته الآية السالفة .

[٤] معجزات الأنبياء خارجة عن مقدور جميع العباد ، ولا تُنال بالاكتساب ، بل هي من إمداد الله لهم دليلاً على صدقهم ، أما خوارق غيرهم من السحرة والكُهان وأضرابهم ، فإنها معتادة ومقدورة بأسباب يتعاطونها ، فليست خارجة عن نطاق فعل العباد ، لأن السحر والكهانة مما يمكن التوصل إليه بسبب كالتعلم ، وممارسة أعمال خبيثة كالانقياد للجن وطاعتهم ، ومن هنا يتضح لنا أن ما يأتي به النَّبي من الخوارق ليس له فيها كسب وسبب ، وإنما هي من الله ، لأن النبوة هبة من الله ، فكذلك المعجزات المترتبة على النبوة بخلاف السحر والكهانة وادعاء النبوة بالكذب ، فإنها مما يمكن أن يفعله كل أحد إذا أخذ بالأسباب الموصلة إليه ، فلذا كان كل ما يأتون به من خوارق مما ينال بالاكتساب ، وهذا مجرب عند الناس .

[٥] إن النبوة ليس بالاكتساب ، وسبق بينها - فيما سبق - قال اللقاني :

ولم تكن نبوة مكتسبة ولو رقى في الخبر أعلى عقبة

ولو قدر فرضًا أنها تنال بالكسب ، فإنما تنال بالأعمال الصالحة والصدق والعدل والتوحيد ، لا تحصل مع الكذب على الله ، فالطريق الذي تحصل به ، لو حصلت بالكسب ، مستلزم للصدق على الله فيما يُخبر به .

[٦] إن ما يأتي به الكُهان والسحرة لا يخرج عن كونه مقدوراً للجن والإنس، وهم مأمورون بطاعة الرسل، وآيات الرسل لا يقدر عليها جنِّي ولا إنسي، بل هي خارقة لعادة كل من أرسل النَّبي إليه ، قال الله تعالى :﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)** ﴾ .

[الإسراء : ٨٨] .

ولزيادة التوضيح نقول :

قد يؤثر الساحر في المسحور بمرض أو موت ، أو قد يطير في الهواء من بلد إلى

بلد ، فالمرض والحركة والموت أعراض ، والحيوان يقبل في العادة مثل هذه الأعراض ، ليس في هذا قلب جنس إلى جنس ، ولا في هذا ما يختص الرب بالقدرة عليه ، ولا ما يختص به الملائكة ، وهذا التصرف مقدور للناس أو للحيوان ، فإن تمريض الغير أو قتله يحصل بعدة أسباب ، وهو في مقدور الجن والإنس ،وكذلك الطيران في الهواء من شأن الطير ، وقد تفعله الجن أيضًا ،كما أخبر الله أن العفريت قال لسليمان عليه السلام: ﴿ **أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ** ﴾[النمل : ٣٩] ، ومثل ذلك ما قد يفعله الكاهن أو الساحر أو المشعوذ من إحضار طعام أو فاكهة من بلد إلى بلد ، فهذا كل ما فيه إنما هو نقل مال من مكان إلى مكان ، وقد تفعله الإنس والجن ، وقد تحضره الشياطين للساحر والكاهن ، إذا كان منقادًا لهم ونازلاً على رغباتهم ، فلم تخرج هذه الأمور وأمثالها عن نطاق قدرة الإنس والجن والحيوان .

أما معجزة الرسل مثل فلق البحر لموسى ، وقلب عصاه حية تسعى ، ونبع الماء الزلال من بين أصابع المصطفى ﷺ ، وانشقاق البدر له ، فمثل هذه الآيات أو نقول المعجزات ، ليس من مقدور الإنس والجن ، وليس في الإمكان أن يعارضهم أحد بمثل ما أتوا به .

[٧] إن خوارق غير الأنبياء ليست خارقة لعادات بني آدم أو الجن ، بل كل ضرب منها معتاد لطائفة غير الأنبياء ، وأما آيات الأنبياء فليست معتادة لغيرهم .

[٨] إن خوارق السحرة والكُهان والمشعوذين والدجاجلة وأمثالهم ، يمكن أن تعارض بمثلها .

وآيات الأنبياء لا يمكن لأحد أن يعارضها بمثلها ، كما في قصة موسى والسحرة ، حيث أنهم قد عجزوا عن المعارضة وآمنوا بالله إيمانًا جازمًا ، وخروا لله سُجدًا ، وكما عجز قوم عيسى عليه السلام أن يأتوا بمثل معجزاته، من إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى وإخبارهم بما يأكلون ويدخرون في بيوتهم ، وكما عجز مشركو العرب أن يعارضوا الرسول بأن يأتوا بمثل ما أُتي به، فقد أتاهم بالقرآن العظيم وتحداهم بأن يأتوا بأقصر سورة من مثله فعجزوا ، وشق الله له القمر ، فهل استطاعوا أن يفعلوا مثل ذلك ؟ .

[٩] إنه إذا كان من الآيات ما يقدر عليه الملائكة،فإن الملائكة لا تكذب على الله ، ولا تقول لبشر : إن الله أرسلك ولم يرسله ، وإنما يفعل ذلك الشياطين .

والكرامات معتادة (١) في الصالحين منا ومن قبلنا ، وليست خارقة لعادة

---

(١) في هذا الكلام إثبات كرامات الصالحين ، وأنها لا تصل إلى درجة معجزات الأنبياء ، وكرامات الأولياء قد تنال بالدعاء والصلاح والتقوى بخلاف معجزات الأنبياء ، فهذا من الفارق بينهما ، كما أن كرامات الأولياء تدل على صدق نبوة من كان أولئك الأولياء على شريعتهم ، وكرامة الأولياء ثابتة ، كما ذكر الله عن مريم : ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا** ﴾ ، وفاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ﴿ **قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)** ﴾ [آل عمران : ٣٨] .

ثبت عن بعض الصحابة كرامات لا مجال للريب فيها ، كمشي العلاء بن الحضرمي على الماء ، وشرب خالد بن الوليد للسم ، ومخاطبة عمر لسارية على المنبر ، ولكن مما ينبغي أن يعلم أن كل ما أتى بخارق من خوارق العادات دل على صلاحه وولايته ، لأن الخوارق تأتي بها السحرة والكُهان ، والمتنبئون الكاذبون ، والشياطين ، كما يأتي بها من يدعي الصلاح ، فلا ينبغي أن نغتر بمجرد ظهورخارق على يد رجل يدعي الصلاح أو يُدْعَى له ، حتى ولو مشى على الماء أو طار في الهواء، أو دخل في النار ، لأنه قد تفعل له الشياطين ، أو تفعل به بأن تطير به ، أو تمشي به على الماء أو تدخل به في النار ، ولكن العلامة المميزة بين الصدق والكذب ، وبين كون ذلك الخارق من جنس كرامات الصالحين الصادقين ، وبين خوارق الكهنة والدجاجلة والسحرة والشياطين ، وأمثالهم هي اتباع الكتاب والسُّنَّة ، كما قال الله تعالى : ﴿ **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣)** ﴾ [يونس : ٦٢ ، ٦٣] ، فالإيمان والتقوى هما العلامة الفارقة بين أولياء الله الصالحين ، وبين أولياء الشياطين الكاذبين ، فمن كان مؤمنًا بالله وموحدًا ومتبعًا لسُنَّة رسول الله ﷺ ، قائمًا بالفرائض التي أوجبها الله عليه ، وبالسُنن الواردة عن الرسول ﷺ ، تاركًا لجميع المحرمات ، خالصًا في أعماله عن الرياء والسمعة ، وكانت أعماله مطابقة للشريعة المطهرة ، فمثل هذا إذا استجيب له دعاء، أو أتى بخارق من غير أن يدعي أنه ولي، ويباهي بما أتى به الناس ، فهذا قد يكون كرامة ولا مانع من ذلك .

وأما من يشرك بالله بأن يستغيث بغير الله بنبي أو وليّ أو بشيخه ، أو ينذر لغير الله ، أو يحلف بغير الله، أو ينتحل بدعة في اعتقاده ، أو أتى ببدع في أعماله التعبدية ، كأذكار غير مشروعة ، وصلوات مخترعة ، أو يترك شيئًا من الفرائض الواجبة أو يرتكب محرمًا من المحرمات ، مع ذلك يدعي أنه من أولياء الله الصالحين ، ويأتي بخوارق يظنها الجهال أنها من الكرامات ، وأنه قد بلغ درجة الولاية ، فهذا دجال كذاب ، فالمشرك لا يكون وليًّا لله ، وتارك الفرض أو فاعل الحرام ، والمبتدع أقل أحواله أن يكون فاسقًا ، ومتى كان فاسقًا وليًّا لله ، حتى يكون له كرامة ؟ ، وقد شرط الله للولاية شرطين ، الإيمان والتقوى كما قال الله تعالى : ﴿ **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣)** ﴾ ، فإذا صدر من هذا المشرك أو الفاسق ما يرى أنه من =

الصالحين ، وآيات الأنبياء خارقة لعادة الصالحين ، وهذه تنال بالصلاح بدعائهم وعبادتهم ، ومعجزات الأنبياء لا تنال بذلك ولو طلبها الناس ، حتى يأذن الله فيها ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠٩] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٧] .

[١٠] إن النَّبي قد تقدمه أنبياء ، فهو لا يأمر إلا بجنس ما أمرت به الرسل قبله ، فله نظراً يعتبر بهم ، وكذلك الساحر والكاهن له نظراً يعتبر بهم .

[١١] إن النَّبي لا يأمر إلا بمصالح العباد في المعاش والمعاد ، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فيأمر بالتوحيد والإخلاص والصدق ، وينهى عن الشرك والكذب والظلم ، فالعقول والنظر توافقه كما توافقه الأنبياء قبله ، فيصدقه صريح المعقول وصحيح المنقول الخارج عما جاء به ، والله أعلم .

الأدلة على أن نبوة محمد ﷺ خاتمة النبوات والرسالات :

أولاً : الكتاب المجيد . **ثانياً :** السُّنَّة الصحيحة والحسنة .

ثالثاً : اللغة العربية . **رابعاً :** الإجماع .

خامساً : البراهين العقلية .

= جنس الخوارق ، كان يطعن نفسه بسكين ، أو يدخل النار ، فاجزم أن ما أتى به تلبيس وتمويه ، فإما أن يكون من قبيل السحر أو من فعل الشياطين له .

ومما يدل على كذب أمثال هؤلاء الدجاجلة ، أن التقي الصالح لا يعمل حلقة كحفلة مولد مثلاً ويطعن نفسه بخنجر بدعوى الولاية أو يدخل النار ، أو يمسك حديداً محمياً من نار ، ليرى الناس ولايته وكرامته ، بل الأولياء يخفون ولايتهم وكرامتهم ، ولا يظهرونها إلا إذا دعت الضرورة ، مثل أن يقع في شرك ظالم يريد حبسه وإهانته ، فيسأل الله الفرج والخلاص من هذا المازق ، أو يتحداه قوم كفار ، يقولون له : إن كان دينك صحيحاً ، ونبيك صادقاً ، فادع الله لنا بكذا ، أو ادخل النار ، فعند ذلك قد يطلب من الله بقصد أن يظهر صحة دينته ، وأن يهتدي أولئك الكفرة المتحدون إلى الدين الصحيح .

وأما هؤلاء الدجاجلة وكثير من المتصوفة ، فجل همهم الشهرة بين الأنام ، والرئاسة على الطغام ، وابتغاء الدنيا وجمع الحطام ، وهذا أعمال أولياء الشياطين لا أولياء الرحمن .

أولاً : الكتاب المجيد :

فحيث أن المتنبئين يعترفون به ، كما يعترفون بنبوة محمد ﷺ ورسالته العامة ، فنقول لهم : إذا كنتم تعترفون بل وتحتجون على بعض مطالبكم بالقرآن وببعض الأحاديث ، فالقرآن يقول : ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

فهذه الآية صريحة بختم النبوة به ﷺ ،لا تحتاج لتفسير ولا زيادة إيضاح وبيان ، يعرف معناها كل من ملك مسكة من العقل وشم رائحة من اللغة العربية ، ولم يخالف في هذا المرام أحد من العرب ولا من غيرهم ممن دخل في دين الإسلام ، ولم يسترب أحد في هذه الحقيقة طيلة اثني عشر قرنًا ، حتى أتى هؤلاء الدجاجلة المتنبئون الأعاجم الكذابون في القرن الثالث عشر الهجري : محمد علي الباب الإيراني وخليفته عبد البهاء ، وميرزا غلام أحمد القادياني الهندي ، فزعموا ما زعموا من ادعاء النبوة ، وأتوا بتفسير جديدة لآية ﴿ **وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ ولا ندري متى كان الأعاجم أعلم بتفسير كتاب الله تعالى من العلماء العرب ومن علماء الإسلام قاطبة ، الذين مارسوا كتاب الله وتفسيره ، وأحاديث النَّبي وسيرته ، واللغة العربية ومفرداتها وعلومها من نحو وصرف وبلاغة وعروض ، وما إلى ذلك من علومها المعروفة ، وفقهها وأسرارها ، وعرفوا الشريعة الإسلامية أصولها وفروعها ، ومقاصدها وأسرارها ، ومن الصحابة الذين شاهدوا رسول الله ، ونقلوا عنه القرآن وسُنَّته القولية والفعلية ، وسيرته العطرة بكل دقة وإخلاص ، فإن هؤلاء كلهم مطبقون على أنه لا نبي بعد سيدنا محمد ﷺ ، ولا كتاب سماوي بعد القرآن ، ومن ادعى النبوة بعد الرسول والقرآن ، فقد باء بالضلال والكفران ، ووجب قتله ، إن لم يتب من دعوى النبوة أو الرسالة .

وها أنذا أورد للقارىء ما قاله بعض أئمة التفسير على هذه الآية الكريمة ، وأبتدىء بشيخ المفسرين ـ المتفق على جلالته ـ الإمام محمد بن جرير الطبري :

[١] قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، يقول تعالى ذكره : ما كان أيها

الناس محمد أبا زيد بن حارثة ، ولا أبا أحد من رجالكم الذين لم يلده محمد ، فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها ، ولكنه رسول الله وخاتم النَّبيين الذي ختم النبوة ، فطبع عليها ، فلا تفتح لأحد بعده إلى قيام الساعة ، وكان الله بكل شيء من أعمالكم ومقالكم وغير ذلك ذا علم ، لا يخفى عليه شيء ، وبنحو الذي قلنا في ذلك ، قال أهل التأويل : ذكر من قال ذلك : حدثنا بشر قال : ثنا يزيد قال : ثنا سعيد عن قتادة قوله : ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ** ﴾ ، قال : نزلت في زيد أنه لم يكن بابنه ولعمري ، ولقد وُلِدَ له ذكور ، إنه أبو القاسم ، وإبراهيم ، والطيب ، ولكن رسول الله وخاتم النَّبيين ، أي آخرهم : ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾ . أ . هـ .

[٢] قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره آية : ﴿ **وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ، فهذه الآية نصٌ في أنه لا نبي بعده ، وإذا كان لا نبي بعده ، فلا رسول بالطريق الأولى والأحرى ، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس .

ثم أورد الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ عدة أحاديث في ختم النبوة ، ثم قال بعد ذلك ما نصه : « والأحاديث في هذا كثيرة ، فمن رحمة الله تعالى بالعبادة إرسال محمد ﷺ إليهم ، ومن ثم تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الحنيف له ،وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه ، ورسوله ﷺ في السُّنَّة المتواترة عنه ، أنه لا نبي بعده ، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذَّاب أفَّاك دجال ضال مُضل ، ولو تخرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم ، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب ، كما أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود العنسي باليمن ، ومسيلمة الكذاب باليمامة ، من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ، ما علم كل ذي لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان لعنهما الله ، وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين ، يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها ، وهذا من تمام لطف الله

تعالى بخلقه ، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الإتفاق ، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ، ويكونون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم ، كما قال تعالى : ﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١)** ﴾ [الشعراء : ٢٢١] ، وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنهم في غاية البر والصدق ، والرشد والاستقامة والعدل ، فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه ، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات ، والأدلة الواضحات والبراهين الباهرات ، فصلوات الله وسلامه عليهم دائمًا مستمرًا ، ما دامت الأرض والسموات .

[٣] قال العلامة الألوسي ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية المذكورة :

والخاتم اسم آله لما يختم بها ، كالطابع لما يطبع به ، فمعنى خاتم النَّبيين ، الذي ختم النبيون به ، ومآله آخر النَّبيين ، وقال المبرد : خاتم فعل ماض على فاعل ، وهو في معنى ختم النَّبيين ، « فالنَّبيين » منصوب على أنه مفعول به وليس بذلك ، وقرأ الجمهور خاتِم بكسر التاء على أنه اسم فاعل ، أي الذي ختم النَّبيين ، والمراد به آخرهم أيضًا ، وفي حرف ابن مسعود ولكن نبيًا ختم النَّبيين ، والمراد بالنَّبي ما هو أعم من الرسول ، فيلزم من كونه ﷺ خاتم النَّبيين كونه خاتم المرسلين ، والمراد بكونه عليه الصلاة والسلام خاتمهم ، انقطاع حدوث وصف النبوة في أحد من الثقلين بعد تحليه عليه الصلاة والسلام بها في هذه النشأة ، ولا يقدح في ذلك ما أجمعت الأمة عليه ، واشتهرت فيه الأخبار ، ولعلها بلغت مبلغ التواتر المعنوي، ونطق به الكتاب على قول، ووجب الإيمان به ، وأكفر منكره كالفلاسفة من نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان ، لأنه كان نبيًا قبل تحلي نبينا ﷺ بالنبوة في هذه النشأة ، ثم إنه عليه السلام حين ينزل باق على نبوته السابق لم يعزل عنها بحال ، لكنه لا يتعبد بها بنسخها في حقه وحق غيره ، وتكليفه بأحكام هذه الشريعة أصلاً وفرعًا فلا يكون إليه عليه السلام وحي ولا نصب أحكام ، بل يكون خليفة لرسول الله ، وحاكمًا من حكام ملته بين أمته بما علمه في السماء قبل نزوله من شريعته عليه الصلاة والسلام ، كما في بعض الآثار .أ . هـ[١] .

---

(١) من روح المعاني للألوسي .

[٤] قال العلامة الخطيب الشربيني في تفسير الآية الشريفة ﴿ لَكِن ﴾ :

كان في علم الله غيبًا وشهادة ﴿ رَّسُولَ اللَّهِ ﴾ أي : الملك الأعظم الذي كل من سواه عبده ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ أي : آخرهم ، الذي ختمهم لأن رسالته عامة ، ومعها إعجاز القرآن ، فلا حاجة مع ذلك إلى استنباء ولا إرسال ، وذلك مفض لئلا يبلغ له ولد ، إذ لو بلغ له ولد لاق بمنصبه أن يكون نبيًا إكرامًا له ، وروى عطاء بن ابن ابن عباس رضي الله عنهما ، لما حكم أن لا نبي بعده ، لم يعطه ولدًا ذكرًا يصير رجلاً ، وقيل : من لا نبي بعده ، يكون أشفق على أمته وأهدى لهم ، إذ هو كالوالد لولد ليس له غيره ، والحاصل أنه لا يأتي بعده نبي مطلقًا بشرع جديد ، ولا يتجدد بعده مطلقًا استنباء ، وهذه الآية مثبتة لكونه خاتمًا على أبلغ وجه وأعظمه ، وذلك أنها في سياق الإنكار ، بأن يكون بينه وبين أحد من رجالهم بنوة حقيقية أو مجازية ، ولو كانت بعده لأحد لم يكن ذلك إلا لولده ، ولأن فائدة مجيء النَّبي تتميم شيء لم يأت به من قبله ، وقد حصل به التمام ، فلم يبق بعد ذلك مرام ، وأما تجديد ماوهي مما أحدث بعض الفسقة ، فالعلماء كافلون فيه ، لوجود ما خص به ﷺ من هذا القرآن المُعجز الذي من سمعه فكأنما سمعه من الله عز وجل، لوقوع التحقيق والقطع بأنه لا يقدر غيره أن يقول شيئًا منه . أ هـ .[(١)] .

[٥] وقال العلامة جمال الدين القاسي في تفسير الآية المذكورة :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] هذا دفع لتعيير من جهل فقال : تزوج محمد زوج ابنه زيد ، فدفعه تعالى بأنه لم يتصور لو كان ﷺ أبًا لزيد على الحقيقة ، لكنه ليس أبًا لأحد من أصحابه حتى بقيت بينه وبينه ما يثبت من الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ، وزيد واحد منهم ، الذين ليسوا بأولاده حقيقة ، فكان حكمه حكمهم ، والإدعاء والتبنِّي من باب الاختصاص والتقريب لا غير ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ ﴾ أي : ولكن كان رسول الله ﷺ مبلغًا رسالاته ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ بفتح التاء وكسرها ، قراءتان ، أي فهذا نعته ، وهذه صفته ، فليس هو في

(١) من السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني ربنا الخبير .

حكم الأب الحقيقي ، وإنما ختمت النبوة به لأنه شرع له من الشرائع ما ينطبق على مصالح الناس في كل زمان وكل مكان ، لأن القرآن الكريم لم يدع أُمًّا من أُمَّهات المصالح إلا جلاها ، ولا لمكرمة من أصول الفضائل إلا أحياها ، فتمت الرسالات برسالته إلى الناس أجمعين ، وظهر مصداق ذلك بخيبة كل من ادعى النبوة بعده ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها،وهو خير الوارثين ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أي : فلا يقضي إلا بما سبق به علمه ، ونفذت فيه مشيئته ، واقتضته حكمته . أ هـ [١] .

[٦] قال الشيخ محمد عزة دروزة في تعليقه على جملة : ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ :

ولقد علق المفسرون على هذه الجملة فقالوا : إنه ينطوي فيها أن يكون خاتم الرسل أيضًا ، لأن كل رسول نبي ، وليس كل نبي رسول ، فما دام أنه خاتم النَّبيين ، فهو خاتم الرسل ، ثم رووا في سياقها أحاديث نبوية عديدة ، ونقل جملة منها من تفسير ابن كثير ، ثم قال : ولقد رشح القرآن الدين الإسلامي الذي جاء به محمد ﷺ في آيات عديدة ، ليكون دين البشرية جميعًا في كل زمن ومكان ، مثل آية الفتح هذه : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح : ٢٨]، وآية سورة النور هذه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور : ٥٥] .

ولقد احتوى القرآن من الأُسس والمبادىء والتشريعات والتلقينات والنظم والمعالجات في صدد العقائد والمعاملة والحياة الدنيوية والأخروية ، ما يكفل جميع الإشكالات، والتمشي مع كل طور وزمن ومكان وصلاح البشرية وسعادتها على أتم وجه وأفضله ، وجاءت السُنن النبوية متممة موضحة مفسرة ، فلم يعد هناك حاجة إلى أنبياء ورسل بعده ، وذلك هو مصداق قوله الله : ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ صلوات الله وسلامه عليه . أ هـ .[٢] .

---

(١) من محاسن التاويل .

(٢) من التفسير الحديث .

[٧] وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب في قوله ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ :

إشارة إلى أنه صلوات الله وسلامه عليه وارث النَّبيين جميعًا والمهيمن برسالته على رسالات الرسل كلهم ، فلا رسول بعده إلى يوم الدين ، لقد ختمت به صلوات الله وسلامه عليه رسالات السماء ، وأضفت شعاعاتها كلها إلى شمس شريعته ، فأصبحت تلك الشعاعات مضمونًا من مضامينها ، وقبسًا من أقباسها ، فلا هدى بعد هذا إلا من هداها ، ولا نور إلا من نورها ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران : ٨٥] . أ هـ . [١] .

وإذا ذكرت كلام بعض مفسري أهل السُّنَّة والجماعة سلفًا وخلفًا فمن المستحسن أن أذكر كلام بعض مفسري أهل الشيعة والإباضية ليعلم القرَّاء أن المسلمين وإن تفرقت مذاهبهم ، لكنهم اتفقوا وأجمعوا على ختم النبوة بمحمد ﷺ .

[٨] فإلى القارئ ما قاله الشيخ أبو عليّ الطبرسي من أكابر علماء الإمامية في القرن السادس في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ بعد كلام سبق :

ولما تزوج النَّبي ﷺ زينب بنت جحش رضي الله عنها ، قال الناس : إن محمدًا تزوج زوج ابنه ، فقال سبحانه : ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ** ﴾ الذي لم يلدهم ، وفي هذا بيان أنه ليس بأب لزيد فتحرم عليه زوجته ، فإن تحريم زوجة الابن معلق بثبوت النسب ، فمن لا نسب له ، لا حرمة لامرأته ، ولهذا أشار إليهم فقال : من رجالكم ، وقد ولد له ﷺ أولاد ذكور : إبراهيم والقاسم والطيب والمطهر ، فكان أباهم ، وقد صح أنه قال للحسن : إن ابني هذا سيد ، وقال ﷺ : « **إن كل أبناء بنت ينتسبون إلى أبيهم إلا أولاد فاطمة ، فإني أنا أبوهم** » ، وقيل : أراد بقوله : رجالكم البالغين من رجال ذلك الوقت ، ولم يكن أحد من أبنائه رجلاً في ذلك الوقت ﴿ **وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ أي : ولكن كان رسول الله ، لا يترك ما أباحه الله تعالى بقول الجهال ، وقيل : إن الوجه في اتصاله بما قبله ، أنه أراد سبحانه ليس يلزم طاعته وتعظيمه لمكان النسب

---

(١) من التفسير القرآني للقرآن .

بينه وبينكم ولمكان الأبوة ، بل إنما يجب ذلك عليكم لمكان النبوة ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ أي : وآخر النَّبيين ، ختمت النبوة به ، فشريعته باقية إلى يوم الدين ، وهذا فضيلة له صلوات الله عليه وآله اختص بها من بين سائر المرسلين .

فإن قيل : إن اليهود يدعون في موسى مثل ذلك .

فالجواب :

إن بعض اليهود يدعون أن شريعته(١) لا تُنسخ ، وهم مع ذلك يجوزون أن يكون بعده أنبياء ، ونحن إذا أثبتنا نبوة نبينا بالمعجزات القاهرة وجب نسخ شريعته (٢) بذلك ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ ، لا يخفى عليه شيء من مصالح العباد ، وصح الحديث عن جابر بن عبد الله عن النَّبي ﷺ قال : « **إنما مثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً ، فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة ، فكان من دخل فيها فنظر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة ، قال ﷺ : فأنا موضع اللبنة ، خُتِمَ بي الأنبياء** » [وأورده البخاري ومسلم في صحيحيهما . أ هـ .(٣) .

[٩] **قال الأستاذ السيد محمد حسين الطباطبائي** ـ من متأخري الشيعة الإمامية ـ في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ .

الخاتم : بفتح التاء،ما يختم به كالطابع والقالب، بمعنى ما يطبع به وما يقلب به، والمراد بكونه خاتم النَّبيين ، أن النبوة اختتمت به صلى الله عليه وآله فلا نبي بعده .

وقد عرفت فيما مر معنى الرسالة والنبوة ، وأن الرسول هو الذي يحمل رسالة من الله إلى الناس ، والنَّبي هو الذي يحمل نبأ الغيب الذي هو الدين وحقائقه ، ولازم ذلك أن ترتفع الرسالة بارتفاع النبوة ، فإن الرسالة من أنباء الغيب ، فإذا انقطعت هذه الأنبياء انقطعت الرسالة ، ومن هنا يظهر أن كونه ﷺ خاتم النَّبيين ، يستلزم كونه خاتمًا للرسل ، وفي الآية إيماء إلى أن ارتباطه صلى الله عليه وآله وتعلقه بكم تعلق الرسالة والنبوة ، وإن ما يفعله كان بأمر من الله سبحانه وقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أي : ما يبيِّنه لكم إنما كان بعلمه . أ هـ .(٤) .

---

(١) ، (٢) الضمير عائد إلى موسى عليه السلام .

(٣) من تفسير مجمع البيان ، (جـ ٢١) .

(٤) من الميزان في تفسير القرآن (جـ ١٦) .

[١٠] وقال الشيخ محمد يوسف الإباضي ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ ﴾ :

أي : ولكن رسول الله ، وكل رسول أبو أمته فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم ، ووجوب الشفقة عليهم والنصيحة لهم ، لا في تحريم أزواج الأمة عليه ، والادعاء والتبنِّي باب اختصاص وتقريب ، وقرىء بالرفع أي : ولكن هو رسول الله ، وبالتشديد والنصب فيقدر خبر لكن ، أي : لكن رسول الله من عرفتموه ، أي : لم يعش له ولد ذكر ، ولكن رسول الله أب من غير وراثة .

﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ لا نبي معه ولا بعده ، وأما سيدنا عيسى عليه السلام فإنه لو كان سينزل فإنه قد مضى زمان إرساله ، ولم يجعله الله نبيًا في زمان النَّبي أو بعده قط ، بل جعله نبيًا مرسلاً قبل ذلك مستمرة نبوته ورسالته إلى أن يموت ، والمراد لا ينبئ الله نبيًّا ، ولا يرسل نبيًّا في زمانه ولا بعده ، فلا ينقض أيضًا بالخضر وإلياس [١] ، مع أنهما وعيسى إذا نزل إنما يعملون بشريعته ﷺ ، ويتعبدون بشريعته لا بشريعتهم ، بل هو بعض أمته ، ولا يرد علينا أن عيسى لا يقبل الجزية من أهل الكتاب ، بل يؤمنون ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ، لأن هذا أيضًا من شريعة نبينا ﷺ ، مؤقت بنزول عيسى عليه السلام ، وقرأ عاصم : ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ بفتح الخاء بمعنى آلة الختم ، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ ومنه علمه أنه لا نبي بعده ولا معه ، وإن من حيا من الأنبياء وعيسى إذا نزل يعملون بشريعته ، ومنه علمه بمن يليق بختم النبوة ويسمى ﷺ الخاتم والمقفى ، أي : الأخير ، وعنه ﷺ : « **إن مثلي ومثل الأنبياء قبلي** ،

---

(١) قضية حياة الخضر وإلياس ، من القضايا التي روجتها الصوفية ، وأشاعتها بين الأنام ، وروت في ذلك أحاديث واهية لا يصح منها عند المحققين حديث واحد ، بل الصحيح أن الخضر قد مات ، وممن قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ، وشيخ الإسلام ابن القيم ، والحافظ ابن حجر العسقلاني – رحمهم الله – ، وذلك لما ورد في الحديث الصحيح : « **أرأيتكم ليلتكم هذه ، فإنه إلى مئة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض أحد** » ، ولو كان حيًّا لجاء إلى الرسول ﷺ وجاهد معه .
وفي أسنى المطالب : ليس في السُّنَّة ما يدل على حياة الخضر ، ولا على موته ، ولم يصح في حياته شيء ، ولا اجتماعه بإلياس كل عام ، ويلزم عليه أن يكون إلياس حيًّا ولم يقل هذا أحد من أهل الإسلام . أ هـ . من « الخضر وآثاره للشيخ أحمد عبد العزيز الحصين » .
وكذلك إلياس قد توفي ، ولو كان حيًا لجاء إلى النَّبي ﷺ وتبعه ، كما قال ﷺ : « **لو كان موسى حيًا لما وسعه إلا اتباعي** » .

كمثل رجل بنى بيتًا وحسَّنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل النَّاس يطوفون ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه الموضع هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النَّبيين » [رواه أبو هريرة وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم] ، وروى : « **جئت فختمت الأنبياء** » . أ هـ . (١) .

[١١] قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، **بعد كلام سبق :**

قرىء ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ ﴾ بالنصب عطفًا على أبا أحد ، وبالرفع على ولكن هو رسول الله ، ولكن بالتشديد على حذف الخبر وتقديره ولكن رسول الله من عرفتموه ، أي لم يعش له ولد ذكر ، وخاتم بفتح التاء بمعنى الطابع ، وبكسرها بمعنى الطابع وفاعل الختم ، وتقويه قراءة ابن مسعود : « ولكن نبيًّا ختم النَّبيين » ، فإن قلت : كيف كان آخر الأنبياء وعيسى ينزل في آخر الزمان » ؟ ، قلت : معنى كونه آخر الأنبياء ، أنه لا ينبؤ أحد بعده وعيسى ممن نبيء قبله ، وحين ينزل ينزل عاملاً على شريعة محمد ، مصليًا إلى قبلته ، وكان بعض أمته . أ هـ .(٢) .

وها أنا قد أوردت من كلام أولئك المفسرين الأجلاء حول الآية الشريفة ما يكفي ويشفي ، وسائر التفاسير لأهل السُّنَّة والشيعة والإباضية والمعتزلة ، بين مطول ومختصر تلتقي عند نقطة واحدة وهي : تصريح الآية بختم النبوة بمحمد ﷺ ، خاتم النَّبيين ، وأن لا نبي بعده ، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده من باب أولى .

ومن أراد أن يراجع في هذا المرام ، فليراجع أي تفسير أراد ، وفي أي مذهب من مذاهب المسلمين ، فسيجد أن المفسرين كلهم على هذا المنوال ، وأن حقيقة ختم النبوة لم يتطرق إليها خلاف .

ثانيًا : ختم النبوة في الأحاديث الصحاح والحسنة :

[١] قال النَّبي ﷺ : « **إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا**

---

(١) من « هيميان الزاد » . (٢) من « الكشاف » (جـ ٢) .

فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النَّبيين» [رواه البخاري في كتاب المناقب باب ختم النَّبيين ، ورواه مسلم وأحمد والترمذي وابن أبي حاتم] .

[٢] أخرج الإمام مسلم حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة وعلي بن حجر قالوا : حدثنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **فُضِّلتُ على الأنبياء بست : أُعطيت جوامع الكَلِمَ ، ونُصرت بالرعب ، وأُحلت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ،وأُرسلت إلى الخلق كافة ، وخُتِمَ بي النَّبيون** » [رواه الترمذي وابن ماجه من حديث إسماعيل بن جعفر ، وقال الترمذي : حديث حسن] .

[٣] قال الزهري : أخبرني محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن لي أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى بن الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي** » [أخرجاه في الصحيحين] .

[٤] قال عليه الصلاة والسلام : « **إني آخر الأنبياء ، ومسجدي آخر المساجد** » . [أخرجه مسلم] .

[٥] قال ﷺ : «**أنا آخر الأنبياء ، وأنتم آخر الأمم** » [رواه ابن ماجه والحاكم].

[٦] لما أراد الرسول غزوة تبوك ، ترك عليّ بن أبي طالب يخلفه في المدينة ، قال عليّ : أتخلفني في النساء والصبيان ؟ ، قال : « **أما ترضى أن تكون منِّي بمنزلة هارون وموسى ، إلا أنه لا نبي بعدي** » . [أخرجه الشيخان] .

[٧] قال ﷺ : « **كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي ، وأنه لا نبي بعدي ، وسيكون الخلفاء فيكثرون** » [أخرجه البخاري وابن ماجه وأحمد] .

[٨] قال ﷺ : « **سيكون في أُمَّتي كذَّابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبي الله ،**

وأنا خاتم النَّبيين لا نبي بعدي » ، وفي رواية : « **لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالون ، كلهم يزعم أنه رسول الله ، فأنا خاتم النَّبيين لا نبي بعدي »** [رواه أبو داود والترمذي] .

[٩] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لقد كان في ما قبلكم من الأُمم محدثون ، فإن يكن في أُمَّتي أحد فإنه عمر »** ، زاد زكريا بن أبي زائدة عن سعد عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لقد كان فيما قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن في أُمَّتي منهم أحد ، فعمر »** . [رواه البخاري في صحيحه في مناقب عمر ، وكذلك رواه مسلم (١) .

[١٠] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **يا أيها الناس إنه لم يبق من النبوة إلا المبشرات »** . [رواه البخاري في كتاب التعبير على هامش الفتح ومسلم].

ثالثًا : اللغة العربية :

[١] **قال ابن منظور :** ختم فلان القرآن إذا قرأه إلى آخره ، وقال ابن سيده : ختم الشيء يختمه ختماً بلغ آخره ، وخاتم كل شيء وخاتمه عاقبته وآخره ، واختتمت الشيء ، نقيض افتتحه ، وخاتمة السورة آخرها ، وخاتم القوم وخاتمهم وخاتمتهم آخرهم ، ومحمد خاتم الأنبياء ، والخاتَم والخاتِم من أسماء النَّبي ﷺ ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ أي : آخرهم . قال : وقد قرأ وخاتم وقول العجاج : « مبارك للأنبياء خاتم » ، إنما حمله على القراءة المشهورة فكسر ، ومن أسمائه ﷺ العاقب : ومعناه آخر الأنبياء (٢) .

---

(١) **قال الحافظ في الفتح في شرح لفظ المحدث :** « قوله محدثون بفتح الدال واختلف في تأويله فقيل ملهم » ، وعند مسلم في رواية وهب : « ملهمون وهي الإصابة من غير نبوة ، ووقع في مسند الحميدي عقب حديث عائشة : « الملهم بالصواب » في رواية الترمذي عن بعض أصحاب ابن عيينة محدثون يعني « مفهمون » انتهى الكلام .

(٢) أ . هـ ملخصاً من لسان العرب ، المجلد الثاني عشر .

[٢] قال السيد مرتضى الزبيدي : الخاتم من كل شيء عاقبته وآخرته كخاتمته ، والخاتم آخر القوم كالخاتم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ أي : آخرهم ، إلى أن قال : وختام كل مشروب آخره ، وقوله تعالى : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ [المطففين : ٢٦] أي : آخر ما يجدونه رائحة المسك ، وختام الوادي أقصاه ، وختام القوم آخرهم ، ومن أسمائه ﷺ الخاتَم والخاتِم ، وهو الذي ختم النبوة بمجيئه [١] .

[٣] **قال أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا :** « ختم » هو بلوغ آخر الشيء ، يقال : ختمتُ العمل ، وختم القارىء السورة ، فأما الختم بسكون التاء ، وهو الطبع على الشيء ، فذلك من الباب أيضًا ، لأنه الطبع على المشيء لا يكون إلا بعد بلوغ آخره في الإحراز ، والخاتم مشتق منه لأن به يُختم ، ويقال : الختِم « بكسر التاء » ، والنَّبي ﷺ خاتم الأنبياء ، لأنه آخرهم ، وختام كل مشروب آخره ، قال الله تعالى : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ أي : أن آخر ما يجدونه منه عند شربهم إياه رائحة المسك [٢] .

[٤] **قال العلامة محمود بن أحمد الزنجاني :** فصل الخاء « ختم » والخاتِمُ والخاتَم والخيتام ، كلمة بمعنى واحد ، والجمع الخواتيم ، وختام الشيء آخره . أ هـ [٣] .

[٥] **قال سعيد الخوري الشرتوني اللبناني :** ختمه ختمًا وختامًا ، طبعه ووضع عليه الخاتم ، ويتعدى أيضًا بعلى ، يقال : ختم الكتاب ، وعلى الكتاب ، والشيء ختمًا بلغ آخره ، والكتاب قرأه كله وأتمه ، وختم العمل فرغ منه ، والخاتَم والخاتِم ، والخاتام ، وآخر القوم وعاقبة كل شيء [٤] .

[٦] **قال الشيخ أحمد رضا عضو المجمع العلمي العربي بدمشق :** ختم ختمًا وختامًا الكتاب ، طبعه بالخاتم وهو خاتم والكتاب مختوم ، قال أبو إسحاق :

---

(١) أ . هـ . « تاج العروس » (الجزء ٨) .
(٢) أ . هـ . « من معجم مقاييس اللغة » (الجزء الثاني) .
(٣) أ . هـ . « من تهذيب الصحاح » (القسم الثاني) .
(٤) أ . هـ . « من أقرب الموارد في مصح العربية والشوارد » (الجزء الأول) .

الختم والطبع في اللغة واحد ، وهو التغطية على الشيء ، والاستيثاق من أن لا يدخله شيء ، وختم الشيء بلغ آخره ، ومنه ختم القرآن ، وختم له بخير بلغه آخرته بخير ، والخاتم والخاتمة والختام من كل شيء آخر ، الخاتَم والخاتِم من أسماء الرسول المصطفى ﷺ ، وهو آخر النَّبيين .

ها أنا قد أوردت كلام ستة من أئمة اللغة العربية الكبار ، وتراهم قد نص كل واحد منهم أن الخاتم آخر الشيء ونهايته .

ولو ذهبنا نتتبع كتب اللغة ، لوجدناها كلها على هذا المنوال ، فلا حاجة إلى تكثير النقل من نصوص أئمة اللغة ، لأنها من البديهيات المسلمة ، لم يسترب في هذه الحقيقة إلا من أعمى الله بصيرته وأغواه الشيطان ، والقصد بيان أن القرآن عربي ، وهذا كلام أئمة اللغة في معنى كلمة الخاتَم والخاتم ، وبه يتضح معنى قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

رابعًا : الإجماع :

قال العلامة أبو الحسن الندوي ـ رحمه الله ـ :

« أجمع الصحابة ﷺ ـ وإجماعهم أكبر دليل من دلائل الثبوت الشرعي ـ على انقطاع النبوة بعد النَّبي ﷺ ، وأنه لا نبي بعده في كل مفهوم من مفاهيم الكلمة العربية التي كانوا يُحسنون فهمها ، ولذلك اتفقت كلمتهم عن آخرهم عن قتال مسيلمة الكذاب ، والحكم بكفره وردته ، لم يشذ منهم في ذلك شاذ ، مع أن مسيلمة كان مقرًا بنبوة محمد ﷺ ، وكان يؤذن للنَّبي ﷺ ، ويشهد في الأذان أن محمداً رسول الله ، وكان مؤمنًا بالقرآن ، يرى العمل به فرضًا ، وإنما كان يفسر القرآن حسب أهوائه ، ويدعي الإلهام ، وكان يدعي أنه أُشرك في نبوة محمد ﷺ ، فكان أول فاتح لباب نبوة تابعة للشريعة المحمدية ، وكل من ادعى ذلك في العصور الأخيرة كان تابعًا له ، وقد قتل في حرب اليمامة ألف ومائتا رجل من خيار المسلمين ، كما جاء في كتاب كتبه أبو بكر إلى خالد بن الوليد ، وقتل الأسود العنسي الذي ادعى

النّبوة في عهد رسول الله ﷺ .

ثم أجمع المسلمون في كل عصر عن انقطاع النبوة بعد محمد ﷺ ، وأن كل من يدعيها مارق من الدين ، متبع غير سبيل المؤمنين .

واستفاضت هذه العقيدة في العالم الإسلامي كله ، وأصبحت جزءاً من عقائد المسلمين التي يدينون بها، ويعضون عليها بالنواجذ، وتتوارثها الأجيال بعد الأجيال ، حتى أصبحت عقول المسلمين وطبيعتهم لا تسيغ ادعاء النبوة ولا تحتمله ، ولذلك قلَّ عدد المتنبئين في المجتمع الإسلامي بالنسبة إلى اتساع العالم الإسلامي ، وتفاوته في فهم الدين والتمسك به ، وبالنسبة إلى عدد المسلمين الضخم ، واضطراب الأمور فيهم ، وبالقياس إلى كثرة الدواعي إلى هذه الإدعاءات بالعكس من الأمم السابقة ، التي كثر فيها عدد المتنبئين مع ضيق رقعة الأرض التي كانت تسكنها ، وقلة عدد المتدينين الذين كانوا يتدينون بهذه الديانات [١] .

خامساً : الأدلة العقلية على ختم النبوة والرسالة بمحمد ﷺ :

[١] خلق الله عباده حنفاء على الفطرة التي لو لم تتأثر بالميول والنزغات الشيطانية ، وتأثيرات البيئة والمجتمع ، لما أشركوا بالله أحداً ، ولكن خُلقُوا على طبيعة فيها استعداد لقبول الخير والشر ، ومن هذه الطبيعة وتلك المؤثرات السالفة حصل منهم الشِّرك والبغي وعدم إقامة ميزان الحق والإنصاف ، الأمر الذي أوجب كما سبق علم الله وإرادته أن يرسلا رسلاً ، ترشدهم إلى عبادة الله ، وإلى حُسن معاملة بعضهم بعضاً ، لكن كان البشر إذ ذاك في دور الطفولة ، فكانت التعاليم السماوية تأتي إذ ذاك على قدر استعداد البشر وقابليتهم وأهليتهم، فلذا كانت الشرائع السابقة مؤقتة ، بعضها محدودة في شعب ، أو مختصة بإقليم ، أو خاصة بفترة زمنية ، قصيرة أو طويلة ، وقد وردت في العهد القديم نصوص وتصريحات ، بأن رسالات أنبياء بني إسرائيل كانت مؤقتة ومختصة بزمن خاص ، وكذلك كانت دعوة سيدنا المسيح خاصة لبني إسرائيل ، وقد صرح بأنه لم يبعث إلا ليرعى خراف بني إسرائيل الضالة ،

---

(١) أ . هـ . من كتاب « النّبي الخاتم » .

ولما تم استعداد العباد ، وبلغ بهم النضوج الفكري ما يؤهلهم لقبول شريعة عامة ، بحيث لا يحتاجون بعد هذه الشريعة إلى شريعة أخرى ، بُعثَ الله سيدنا محمد ﷺ بالرسالة العامة للأمم والشعوب وطبقات الناس جميعًا ، غير مختصة بشعب أو بإقليم أو بأمة ، بل للثقلين جميعًا ، قال الله ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾[الأعراف : ١٥٨] .

وقال الله : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** (١) ﴾ [الفرقان : ١] ، فالدين الإسلامي حق مشاع ، وثروة مشتركة لجميع الشعوب والأمم والعناصر والأجناس ، وقد جاءت الشريعة الإسلامية سهلة سمحة ، توافق الفطرة المستقيمة ، والعقول السليمة في كل زمان ، كما قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾[الحج : ٧٨] ، وقال تعالى: ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾[البقرة : ١٨٥] .

واستوفت الشريعة كل ما يحتاجه العباد من العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات ، وشؤون الجهاد والسلم والمعاهدات والقضاء ، وبالجملة لم تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا ووضع القرآن أو السُّنَّة من القواعد والكليات ما هو كفيل بأن يستنبط منه حكم ما لم ينص عليه حسب تجدد الحوادث والمشاكل على مر العصور وكر الدهور ، وإنما كانت هذه الشريعة الإسلامية بهذه المثابة وبهذه الأهلية الفائقة ، لأنها أتت كي تبقى إلى أن تقوم الساعة ، لأن الله ختم سلسلة النبوات بمحمد ﷺ ، وسلسلة الشرائع بهذه الشريعة الغراء التي فاقت جميع الشرائع الماضية ، ووافقت جميع العقول السليمة والطبائع الصحيحة ، والأفكار المستنيرة ، وعليه فأي حاجة إلى بعثة نبي جديد ؟! .

[٢] إن القرآن صرح بلسان عربي مبين ، لا غموض فيه ، ولا خفاء بأن هذا الدين قد بلغ طوره الأخير من الكمال والوفاء بحاجات البشر، والصلاحية للبقاء والاستمرار، وقال تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾[المائدة : ٣] .

قال العلامة أبو الحسن الندوي ـ رحمه الله ـ :

« وقد نزلت هذه الآية يوم عرفة في حجة الوداع سنة عشر للهجرة ، ولم ينزل بعدها ـ كما تقول أكثر الآثار ـ حلال ولا حرام ، ولم يعش رسول الله ﷺ بعد هذا اليوم إلا إحدى وثمانين ليلة ، وقد فهم كبار الصحابة الذين كانوا من أعرف الناس بأسرار هذا الدين ، ومقاصد التشريع ، وأقرب الناس إلى صاحب الرسالة ﷺ ، وأعظم الناس حبًّا له ، وحرصًا على بقائه ، كان في مقدمتهم أبو بكر وعمر ، دنو ما كانوا يحذرونه من مفارقة رسول الله ﷺ ولحوقه بالرفيق الأعلى ، وقد بلغ رسالة الله ، وكمل الدين ، وتمت نعمة الله على عباده ، فمنهم من بكى ، ومنهم من تنبأ بدنو هذه الساعة ، ومنهم علماء اليهود والأذكياء الذين كانوا من أعرف الناس بالعلم القديم ، وتاريخ الديانات ، أنها كرامة خص بها المسلمون ، ومفخرة لهذا الدين لا يشاركه فيها دين آخر ، ورأوا أن اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية جدير بأن يخلد ، وهكذا فهمها رسول الله ﷺ ـ وهو الذي نزلت عليه هذه الآية ـ فقال في خطبته يوم حجة الوداع ، ينصت إليها أكثر من مئة ألف إنسان ويحفظونها : « **أيها الناس إنه لا نبي بعدي ، ولا أُمَّة بعدكم ، ألا فاعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم طيبة بها أنفسكم ، وأطيعوا ولاة أمركم ، تدخلوا جنة ربكم** » .

وكذلك صرح القرآن بأن هذا الدين قد قدر له البقاء والغلبة والانتشار ، وأنه سيبلغ ذروة المجد والعز ، وتعلو كلمته ، ويمتد ضوؤه ، ويتبين صدقه ، قال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا** (٢٨) ﴾ [الفتح : ٢٨] ، وقال تعالى ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** (٩) ﴾ [الصف : ٩] ، وقال : ﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** (٨) ﴾ [الصف : ٨] .

وكل هذه الكفالات والضمانات والنبوءات والإعلانات ، تدل بدلالة النص وإشارته على أن هذا الدين هو رسالة الله الأخيرة ، وحاجة البشرية كلها على اختلاف

العصور والأمصار ، وأن الله هو بالغ أمره فيه ، كره الناس ذلك أو أحبوه ، وسالمه الملحدون والمعارضون أو حاربوه ، وكل ما كان ذلك شأنه ، ووردت فيه هذه الأخبار الصادقة ، والتحديات البالغة في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا يقبل العقل السليم أن يقبل النسخ والتغيير ، أو يحتاج إلى نبي جديد ورسول مبعوث .

بعض بشارات التوراة والإنجيل
بنبيّنا محمد ﷺ (١)

وإذ قدمت لك بعض الدلائل الدالة على نبوته ﷺ من النقلية والعقلية ، بما في تلك من المعجزات النبوية التي أعظمها القرآن العظيم ، فمن الجدير والمستحسن جداً أن أذكر بعض بشارات التوراة والإنجيل بنبيِّنا ﷺ ، لتقوم الحجة النيِّرة على اليهود والنصارى الذين كفروا بمحمد ﷺ بعد تلك الدلائل الواضحة والحجج الساطعة ، وبكفرهم بمحمد ﷺ كفروا بكتابيهما المنزلين على موسى وعيسى عليهما السلام ، لأنهما لم يعملا بما فيهما ، إذ لو عملا بما فيهما لآمنا بالرسول العظيم ﷺ ، لأن الله تعالى قال وهو أصدق القائلين : ﴿ **الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ** ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

فهاك أيها القارىء بعض بشارات الكتابين ، وقبل أن أتلو عليك تلك البشائر ، أحب أن أقدم لك ما يُنير الطريق ويزيل اللبس ويجلو الحقيقة ، فأقول وبالله التوفيق :

اعلم أن الله بعدما أخبرنا في القرآن العظيم أن محمداً ﷺ مرسل من ربه للعالمين، وأن اليهود والنصارى يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، فلا حاجة لنا إلى الاستدلال بغير القرآن العظيم : ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً** ﴾ [النساء : ١٢٢] .

قال الله تعالى : ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ**

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : ولفظ التوراة قد عرف أنه يُراد به جنس الكتب التي يقر بها أهل الكتاب ، فيدخل في ذلك الزبور ، ونبوة أشعيا ، وسائر النبوات غير الإنجيل . « أ . هـ . من الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » .

وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) ﴾ [الأعراف : ١٥٦ – ١٥٨] .

وقال الله مخبرًا عن المسيح ﷺ أنه بشَّر بالرسول في قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) ﴾ [الصف : ٦] [١] .

ومن المحال أن يخبر الله في قرآنه المجيد ، ويكون ذلك خلاف الواقع ، لأن القرآن كلام الله المجيد ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، حفظه الله من أن تصل إليه يد التغيير والتحريف كما قال الله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر : ٩] ، وهذه الخصيصة اختص بها القرآن من بين الكتب الإلهية، لأن تلك الكتب لم يخبر الله عنها ، أنه حفظها من التغيير والتبديل ، بل وكلها إليهم ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وقال الله في شأن اليهود : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾ [المائدة : ٤١] .

---

(١) ولقد ترجم القسيس أوسكان الأرمني سفر أشعيا إلى اللغة الأرمينية ، وطبعت ترجمته عام (١٧٣٣م) ، وقد جاء في الإصحاح الثاني والأربعين منه هذه الفقرة : « سبحوا الله تسبيحًا جديدًا، وأثر سلطنة على ظهره ، واسمه أحمد » (من كتاب خلاصة سيف المسلمين ، تأليف حيدر علي القرشي) .

وقال الله : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ [البقرة : ٧٥] .

وقال الله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾ .

[البقرة : ٧٩] .

فهذه الآيات التي أوردتها من سورة المائدة والبقرة ، تصرح أن التوراة والإنجيل لم يصنهما الله كما صان القرآن ، لذلك امتدت إليهما أيدي التحريف والتبديل ، وعليه فلا وثوق بهما فيما يخالف القرآن لأن ما خالفه ـ وقد أخبر الله أنه موجود فيهما أو في أحدهما ـ لابد أن يكون مما تصرف فيه القسيسون والأحبار ، وعليه فلا قيمة لإنكار اليهود والنصارى بشارة كتبهم بالنَّبي العظيم ، لأنه إما من قبيل التحريف والتبديل ، وإما استكباراً وعناداً كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة : ٨٩] ، وإما كتماناً للحق وتلبيساً على عوامهم ، وحبًا في الرئاسة ، وفي نيل الحطام ، كما قال الله عنهم : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ﴾ [البقرة : ١٤٦] ، وقال الله تعالى : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) ﴾ [المائدة : ٤٢] .

وقد سجلت الآية الأولى عليهم كتمان الحق بعدما عرفوه ، والحق هنا أوصاف النَّبي الموجودة في التوراة ، كما سجلت الآية الثانية سماعهم للكذب والباطل بصيغة المبالغة ، وأكلهم السحت وهو كل مال حرام من الرشا والربا ونحوهما ، فقد رأوا في أنفسهم أنهم إذا أسلموا تزول عنهم الرئاسة عند العوام ، كما يحرمون من أكل أموال أولئك الجهال من الطرق المحرمة باسم الدين .

ولعل مما يؤيد ما أسلفناه هو ما احتواه القرآن من مشاهد وإشارات ، تدل على أن من أهل الكتاب في مكة والمدينة أو وفودهم - ومنهم الأحبار والرهبان والقسس والراسخون في العلم - من آمنوا بالرسالة النبوية وصدقوا بما جاء في القرآن ، وقرروا أنه متطابق مع ما عندهم ، كما جاء في الآية التي نحن في صددها ثم في آيتي آل عمران هذه : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) ﴾ [آل عمران : ١١٣، ١١٤] .

وقال الله تعالى في سورة آل عمران أيضًا : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) ﴾ [آل عمران : ١٩٩] .

وفي سورة النِّساء : ﴿ لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢) ﴾ [النِّساء : ١٦٢] .

وفي آية سورة المائدة هذه : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) ﴾ .

[المائدة : ٨٢ - ٨٤] .

وآيتي سورة القصص هذه : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) ﴾ .

[القصص : ٥٢ ، ٥٣] .

وآية سورة الأحقاف هذه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) ﴾ [الأحقاف : ١٠] .

وآية سورة العنكبوت هذه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) ﴾ .

[العنكبوت : ٤٧] .

وفي كل هذه شواهد عيانية مكية ومدنية حاسمة ، لا يسع منصفًا أن يكابر فيه حتى من الكتابيين أنفسهم فيما نعتقد ، ومما يصح أن يقال في هذا المقام : « إن مما في أيدي اليهود والنصارى اليوم من أسفار ، لا يمكن أن يجزم بأنه هو نفس ما كان في أيديهم في عهد النَّبي ﷺ بدون نقص أو زيادة أو جميع ما كان في أيديهم ، وأن جملة : ﴿ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، لا يمكن أن تكون جزافًا وهي تتلى على مسمع من اليهود والنصارى ، ونشير خاصة إلى الإنجيل المعروف باسم برنابا أحد الحواريين الذي فيه نصوص القرآن عن عيسى وحياته ورسالة النَّبي وصفاته ، ومهما يكن من المآخذ التي توجه إلى هذا الإنجيل فإن نصوص القرآن الذي لا يشك أحد في أنه يرجع تاريخيًا إلى ألف وأربعمائة سنة ونيف ، دليل قاطع على أن فيما كان متداولاً في أيدي اليهود والنصارى من أسفار أشارت إلى صفة النَّبي ﷺ ورسالته » . أ هـ . [(١)] .

وسيأتي بعض تلك الآثار التي هي بشارات النَّبي ﷺ .

بعد هذه المقدمة وقبل الدخول في الموضوع ، أقدم لك مقدمة أخرى تحتوي على عدة أمور تنير لك الطريق ، وتؤيد البشارات الآتية ، فإلى القارىء ما قاله الشيخ رحمة الله الهندي ـ رحمه الله ـ قال :

كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى يتناقلون خبر بعثته ﷺ فيما بينهم ، ويذكرون البشارات من كتبهم ، حتى إذا ما بعثه الله تعالى بالهدى ودين الحق آمن به

---

(١) من التفسير الحديث للشيخ محمد عزة دروزة ، (جـ ٢) .

كثيرون ، وكان علماؤهم يصرحون بذلك كعبد الله بن سلام وأصحابه من علماء اليهود ، وتميم الداري من علماء النصارى ، وغيرهم ممن أسلموا في عصر النَّبي ﷺ ورضي عنهم ، والروايات في هذا كثيرة ، ومن أعجبها قصة سلمان الفارسي رضي الله عنه ، وأما الذين أبوا واستكبروا فكانوا يكتمون البشارات به في كتبهم ، ويؤولون ما بقي منها لمن اطلع عليه ويكتمون عمن لم يطلع عليه ، وقد أربى المتأخرون ولا سيما الإفرنج منهم على المتقدمين في المكابرة والتأويل والتضليل ، لذلك وضح العلامة المحقق الشيخ رحمة الله الهندي هذه المسألة في كتاب « إظهار الحق » بأمور جعلها مقدمات لبشارات تلك الكتب به ﷺ ، فرأينا أن نقتبسها بنصها .

كلام الشيخ رحمة الله الهندي - رحمه الله - في البشارات :

قال رحمه الله تعالى في سياق مسالك الاستدلال على نبوته ﷺ ما نصه :

المسلك السادس :

أخبار الأنبياء المتقدمين عليه من نبوته عليه السلام ، ولما كان القسيسون يغالطون العوام في هذا الباب تغليطًا عظيمًا ، استحسنت أن أقدم على نقل تلك الأخبار أمورًا ثمانية تفيد الناظر بصيرة :

الأمر الأول :

إن أنبياء بني إسرائيل مثل أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى عليهم السلام أخبروا عن الحوادث الآتية : كحادثة بخت نصر ، وقورش ، والإسكندر وخلفائه ، وحوادث أرض أدوم ومصر ونينوى وبابل ، ويبعد كل البعد أن لا يخبر أحد منهم عن خروج محمد ﷺ الذي كان وقت ظهوره كأصغر البقول ، ثم صار شجرة عظيمة تأوي طيور السماء في أغصانها ، فكسر الجبابرة والأكاسرة ، وبلغ دينه شرقًا وغربًا وغلب الأديان ، وامتد دهرًا بحيث مضى على ظهوره مدة ألف ومائتين وثمانين [(١)] إلى هذا الحين ، ويمتد إن شاء الله إلى آخر بقاء الدنيا ، وظهر في أمته ألوف ألوف من العلماء الربانيين ، والحكماء المتقين ، والأولياء ذوي الكرامات والمجاهدات ، والسلاطين

---

(١) هذا عصر المؤلف ، ونحن الآن في سنة ١٤١٥هـ .

العظام ، وهذه الحادثة كانت أعظم الحوادث ، وما كانت أقل من حادثة أرض أدوم ونينوى وغيرهما ، فكيف يجوز العقل السليم أنهم أخبروا عن الحوادث الضعيفة ، وتركوا الإخبار عن هذه الحادثة العظيمة ؟ .

الأمر الثاني :

إن النَّبي المتقدم إذا أخبر عن النَّبي المتأخر ، لا يشترط في إخباره أن يخبر بالتفصيل التام بأنه يخرج من القبيلة الفلانية ، في السنة الفلانية في البلد الفلاني ، وتكون صفته كيت وكيت ، بل يكون هذا الإخبار في غالب الأوقات مجملاً عند العوام ، وأما عند الخواص فقد يصير جليًا بواسطة القرائن ، وقد يبقى خفيًّا عليهم أيضًا لا يعرفون مصداقه إلا بعد ادعاء النَّبي اللاحق أن النَّبي المتقدم أخبر عنه ، وظهور مصداق ادعائه بالمعجزات وعلامات النبوة ، وبعد الادعاء ، وظهور صدقه ، يصير جليًا عندهم بلا ريب ،ولذلك يعاتبون كما عاتب المسيح عليه السلام علماء اليهود بقوله : « ويل لكم أيها الناموسيون ، لأنكم أخذتم مفتاحا لمعرفة ما دخلتم أنتم والداخلون منعتموهم » ، كما هو مصرح به في الباب الحادي عشر من إنجيل لوقا ، وعلى مذاق المسيحيين قد يبقى خفيًّا على الأنبياء فضلاً عن العلماء ، بل قد يبقى خفيًا على النَّبي المُخبر عنه على زعمهم في الباب الأول من إنجيل يوحنا هكذا (١٩) « وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت ؟ » (٢٠) « فاعترف ولم ينكر ، وأقر أني لست أنا المسيح » (٢١) « فسألوا إذًا ماذا ؟ أنت إيليا ؟ ، فقال : أنا لست إيليا ، فسألوه أنت النَّبي ؟ فأجاب : لا » (٢٢) « فقالوا له : من أنت لنعطي جوابًا للذين أرسلونا ؟ ماذا تقول عن نفسك ؟ » (٢٣) « قال : أنا صوت صارخ في البرية قوّموا طريق الرب ، كما قال أشعيا النَّبي »(٢٤) « وكان المرسلون من الفريسيين »(٢٥) « فسألوه وقالوا له : فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النَّبي ؟ » والألف واللام في لفظ النَّبي الواقع في الآية (٢١ ، ٢٥) للعهد والمراد النَّبي المعهود الذي أخبر عنه موسى عليه السلام في الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء [1] ، على ما صرح به علماء المسيحية ، فالكهنة واللاويون كانوا

(١) هو سفر تثنية الاشتراع وهو الخامس والأخير من أسفار التوراة ، ويعبر عنه صاحب الحق بسفر الاستثناء ، أخذًا من بعض التراجم .

من علماء اليهود ، وعرفوا أيضًا أن يحيى عليه السلام نبي ، ولكن شكّوا في أنه المسيح عليه السلام ، أو إيليا أو النَّبي المعهود الذي أخبر عنه موسى ، فظهر منه أن علامات هؤلاء الأنبياء الثلاثة لم تكن مصرحة في كتبهم ، بحيث لا يبقى فيها اشتباه على الخواص فضلاً عن العوام [1] ، فلذلك سألوا أولاً أنت المسيح ، فبعدما أنكر يحيى عليه السلام عن كونه مسيحًا ،سألوه أنت إيليا ؟،فعندما أنكر كونه إيليا ،سألوه أنت النَّبي« أي المعهود؟ »، ولو كانت العلامات مصرحة لما كان للشك محل ، بل ظهر منه أن يحيى عليه السلام لم يعرف نفسه أنه إيليا حتى أنكر ، فقال : لست أنا ، وقد شهد عيسى أنه إيليا « أي يحيى » في الباب الحادي عشر من إنجيل متَّى .

الأمر الثالث :

ادعاء أن أهل الكتاب ما كانوا ينتظرون نبيًّا آخر غير المسيح وإيليا ، ادعاء باطل لا أصل له ، بل كانوا منتظرين لغيرهما أيضًا ، لما علمت في الأمر الثاني أن علماء اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام سألوا يحيى عليه السلام أولاً أنت المسيح ؟ ، ولما أنكر سألوه أنت إيليا ؟ ، ولما أنكر سألوه أنت النَّبي ؟ ، أي : النَّبي المعهود الذي أخبر به موسى ، فعلم أن هذا النَّبي كانت منتظراً مثل المسيح وإيليا ، وكان مشهوراً بحيث ما كان محتاجًا إلى ذكر الاسم ، بل الإشارة إليه كانت كافية ، وفي الباب السابع من إنجيل يوحنا بعد نقل قول عيسى عليه السلام هكذا (٤٠) «فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا : هذا بالحقيقة هو النَّبي »(٤١) « وآخرون قالوا : هذا هو المسيح » وظهر من الكلام أيضًا أن النَّبي المعهود عندهم كان غير المسيح ، ولذلك قابلوه بالمسيح .

الأمر الرابع :

ادعاء أن المسيح خاتم النَّبيين ولا نبي بعده باطل ، لما عرفت في الأمر الثالث : أنهم كانوا منتظرين للنَّبي المعهود الآخر الذي يكون غير المسيح وإيليا ـ عليهم السلام ـ ولما لم يثبت بالبرهان مجيئه قبل المسيح فهو بعده ، ولأنهم يعترفون بنبوة الحواريين

(١) بل كانت مجملة لا تخلو من الخفاء والاشتباه ، والقصد من هذا الكلام ، أن البشارات التي وردت عن النَّبي محمد ﷺ كانت بإشارات لا يعرفها إلا الراسخون في العلم ، ولو كانت واضحة للعوام لما عوتب علماؤهم في كتمانه

وبولس بل بنبوة غيرهم أيضًا ، وفي الباب الحادي عشر من كتاب الأعمال هكذا ، (٢٧) « وفي تلك الأيام انحدر الأنبياء من أورشليم إلى إنطاكية » (٢٨) « وقام واحد منهم اسمه آغابوس وأشار بالروح أن جوعًا عظيمًا كان عتيدًا يصير على جميع المسكونة الذي صار في أيام كلوديوس قيصر » فهؤلاء كلهم كانوا أنبياء على تصريح إنجيلهم ، وأخبر واحد منهم اسمه آغابوس عن وقوع الجدب[1] العظيم .

الأمر الخامس :

الأخبار التي نقلها المسيحيون في حق عيسى عليه السلام ، لا تصدق عليه على تفسير اليهود وتأويلاتهم ، ولذلك هم ينكرونه أشد الإنكار ، وعلماء المسيحية لا يلتفتون في هذا الباب إلى تفاسيرهم وتأويلاتهم ، ويفسرونها ويؤولونها بحيث تصدق في زعمهم على عيسى عليه السلام ، كما أن تأويلات اليهود في الآيات المذكورة مردودة غير صحيحة وغير لائقة عند المسيحيين ، كذلك تأويلات المسيحيين في الأخبار التي هي في حق محمد صلى الله عليه وسلم مردودة غير مقبولة عندنا ، وسترى أن الأخبار التي ننقلها في حق محمد صلى الله عليه وسلم أظهر صدقًا من الأخبار التي نقلها الإنجيليون في حق عيسى عليه السلام ، فلا بأس علينا إن لم نلتفت إلى تأويلاتهم الفاسدة ، وكما أن اليهود ادعوا في حق بعض

---

(١) **القصد من إيراد الكلام تفنيد زعم المسيحيين أن المسيح خاتم النَّبيين ومما يفنده :**

الأول : أنهم كانوا منتظرين للنَّبي المعهود الذي يكون غير المسيح وإيليا ، وهو يحيى عليه السلام .

ثانيا : أنهم اعترفوا بأنبياء بعد المسيح كالحواريين وبولس وآغابوس وهو من اليهود ، وهنا قد يجيب المسيحيون لإثبات زعمهم بأن المسيح قال : كما في الباب السابع من إنجيل متَّى هكذا « احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ، ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة » ، والتمسك به عجيب ، لأن المسيح عليه السلام أمر بالاحتراز من الأنبياء الكذبة لا الأنبياء الصادقين ، ولذلك قيد بالكذبة ، نعم لو قال : احترزوا من كل نبي يجيء بعدي ، لكان بحسب الظاهر وجه للتمسك ، وإن كان واجب التأويل عندهم لثبوت نبوة الأشخاص المذكورين ، وقد ظهر الأنبياء الكذبة الكثيرون في الطبقة الأولى بعد صعوده ، كما يظهر من الرسائل الموجودة في العهد الجديد في الباب الحادي عشر من الرسالة الثانية إلى أهل قورنيئوس هكذا (١٢) « ولكن ما أفعله لأقطع فرصة الذين يريدون فرصة كي يوجدوا كما نحن أيضًا فيما يفتخرون » (١٣) « لأن مثل هؤلاء رسل كذبة فعلة ماكرون مغيرون شكلهم إلى شبه المسيح » ، فمقدسهم ينادي بأعلى نداء أن الرسل الكذبة الغدارين ظهروا في عهده ، وقد تشبهوا برسل المسيح .

الأخبار التي هي في حق عيسى عليه السلام على زعم المسيحيين أنها في حق مسيحهم المنتظر ، أو في حق غيره ، أو ليست في حق أحد ، والمسيحيون يدعون أنها في حق عيسى عليه السلام ، ولا يبالون بمخالفتهم ، فكذا نحن لا نبالي بمخالفة المسيحيين في حق بعض الأخبار التي هي في حق محمد ﷺ لو قالوا أنها في حق عيسى عليه السلام ، وسترى أيضاً أن صدقها في حق محمد ﷺ أليق من صدقها في حق عيسى عليه السلام ، فادعاؤنا أحق من ادعائهم .

بشارات التوراة بالرسول ﷺ :

وهاك بشارات التوراة بالرسول ﷺ :

البشارة الأولى :

في الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء ، هكذا (١٧) « فقال الرب لي نعم جميع ما قالوا » (١٨) « وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامي في فمه ، ويكلمهم بكل شيء آمره به » (١٩) « ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا أكون المنتقم من ذلك » (٢٠) « فأما النَّبي الذي يجترئ بالكبرياء ، ويتكلم في اسمي ما لم آمره به بأنه يقوله أم باسم آلهة غيري فليقتل » .

وهذه البشارة ليست بشارة بيوشع عليه السلام كما يزعم أحبار اليهود ، ولا بشارة بعيسى كما زعم علماء البروتستنت ، بل هي بشارة بمحمد ﷺ لعشرة أوجه :

الوجه الأولى : قد عرفت في الأمر الثالث ، أن اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام ، كانوا ينتظرون نبيًّا آخر مبشراً به في هذا الباب ، وكان هذا المبشر به عندهم غير المسيح ، فلا يكون هذا المبشر به يوشع ولا عيسى .

الوجه الثاني : أنه وقع في هذه البشارة لفظ مثلك ، ويوشع وعيسى لا يصح أن يكون مثل موسى ، **أما أولاً :** فلأنهما من بني إسرائيل ، ولم يوجد أحد من بني إسرائيل مثل موسى ، كما تدل عليه الآية العاشرة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء وهي هكذا « ولم يقم بعد ذلك في بني إسرائيل مثل موسى يوافه الرب وجهاً لوجه »،فإن قام أحد مثل موسى بعده من بني إسرائيل يلزم تكذيب هذا القول ،

وأما ثانياً : فلأنه لا مماثلة بين يوشع وبين موسى ، لأن موسى صاحب كتاب وشريعة جديدة ، ويوشع ليس كذلك ، بل هو متبع لشريعة موسى ، كما لا توجد المماثلة التامة بين موسى وعيسى ، لأن عيسى كان إلهًا وربًا على زعم النصارى ، وموسى كان عبداً لله ، وأن عيسى دخل الجحيم بعد موته ، كما هو مصرح به في عقائد أهل التثليث ، وموسى ما دخل الجحيم ، وأن شريعة موسى مشتملة على الحدود والتعزيزات وأحكام الغُسل والطهارات والمحرمات من المأكولات والمشروبات ، بخلاف شريعة عيسى فإنها فارغة عنها .

الوجه الثالث : أنه وقع في هذه البشارة لفظ من بين إخوتهم ، ولاشك أن الأسباط الإثني عشر كانوا موجودين في ذلك الوقت مع موسى حاضرين عنده ، فلو كان المقصود كون النَّبي المُبشر به منهم لقال منهم،لا من بين إخوتهم ، لأن الاستعمال الحقيقي لهذا اللفظ ، أن لا يكون المُبشر به له علاقة الصلبية والبطنية ببني إسرائيل .

الوجه الرابع : أنه وقع في هذه البشارة لفظ سوف أقيم ، ويوشع عليه السلام كان حاضراً عند موسى داخلاً في بني إسرائيل ، فكيف يصدق عليه هذا اللفظ ؟ .

الوجه الخامس : أنه وقع في هذه البشارة لفظ أجعل كلامي في فمه ، وهو إشارة إلى أن ذلك النَّبي ينزل عليه كتاب سماوي، وإلى أنه يكون أُميًّا حافظًا للكلام، وهذا لا يصدق على يوشع عليه السلام لانتفاء كلا الأمرين فيه .

الوجه السادس : أنه وقع في هذه البشارة، ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به ، فأنا أكون المنتقم من ذلك ، وهذه الوجوه تصدق في حق محمد ﷺ أكمل صدق ، لأنه غير المسيح ، ويماثل موسى عليه السلام في أمور كثيرة منها :

[١] كونه عبد الله ورسوله .

[٢] وكونه ذا والدين .

[٣] له زوجات وأولاد .

[٤] شريعته مشتملة على السياسات المدنية والعبادات ، كاشتراط الطهارة وقت العبادة ، ووجوب الغُسل للجنب والحائض والنفساء ، والأمر بالجهاد ، وتعيين

الحدود والتعزيرات والقصاص ، وكونه مدفونًا كموسى ، إلى غير ذلك من الأمور التي إذا تأملها العاقل يجد صحة ما قلناه ، قال الله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ ﴾ [المزمل : ١٥] .

وكان من إخوة بني إسرائيل ، وليس منهم لأنه من بني إسماعيل ، وأنزل الله عليه الكتاب المجيد ، وكان أُميًّا ، جعل كلام الله في فمه كما قال : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم : ٣ ، ٤] ، وكان مأمورًا بالجهاد ، وقد انتقم الله لأجله من صناديد قريش ومن الأكاسرة والقياصرة وغيرهم .

الوجه السابع : أنه صرح في هذه البشارة بأن النَّبي الذي ينسب إلى الله ما لم يأمره يُقتل ، ولو لم يكن محمد نبيًّا حقًّا لقُتلَ ، وقد قال الله : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحاقة : ٤٦] ، وما قتل بل قال الله في حقه : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] .

وأوفى بوعده فلم يقدر على قتله أحد ، حتى لحق بالرفيق الأعلى ﷺ ، وعيسى عليه السلام قُتلَ وصُلبَ على زعم أهل الكتاب ، فلو كانت هذه البشارة في حقه ، فيلزم أن يكون نبيًّا كاذبًا ، كما يزعمه اليهود والعياذ بالله .

وتركنا بقية الوجوه وهي ثلاثة اختصارًا .

البشارة الثانية :

في الباب الثالث والثلاثين من سفر الاستثناء بالترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٨٤م ، هكذا وقال : جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير ، واستعلن من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار في يمينه سنة من نار، فمجيئه من سيناء ، إعطاؤه التوراة لموسى ، وإشارقه من ساعير ، إعطاؤه الإنجيل لعيسى ، واستعلانه من جبل فاران ، إنزاله القرآن ، لأن فاران جبل من جبال مكة ، بدليل ما جاء في الباب الحادي والعشرين من سفر التكوين في حال إسماعيل عليه السلام هكذا (٢٠) « وكان الله معه ، ونما وسكن في البرية وصار شابًا يرمي السهام »(٢١) وسكن برية فاران وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر » ، ولا شك أن إسماعيل عليه السلام كان سكناه بمكة المكرمة ، ولا

يصح أن يراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير ومن فاران أيضًا ، فانتشرت في هذه المواضع ، لأن الله لو خلق نارًا في موضع ، لا يقال جاء الله من ذلك الموضع ، إلا إذا اتبع تلك الواقعة وحي نزل في ذلك الموضع ، أو عقوبة أو ما أشبه ذلك ، وقد اعترفوا أن الوحي اتبع تلك في طور سيناء ، فكذا لابد أن يكون في ساعير وفاران .

البشارة الثالثة :

في الآية العشرين من الباب السابع عشر من سفر التكوين ، وعد الله في حق إسماعيل عليه السلام لإبراهيم عليه السلام في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٨٤م « وعلى إسماعيل أستجيب لك هوذا أباركه وأكبره وأكثره جدًا فسيلد إثني عشر رئيسًا وأجعله لشعب كبير » وقوله أجعله لشعب كبير يشير إلى محمد ﷺ ، لأنه لم يكن في ولد إسماعيل من كان لشعب كبير غيره ، وقد قال الله ناقلاً دعاء إبراهيم وإسماعيل في حقه عليه السلام في كلامه المجيد أيضًا : ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (١٢٩) ﴾ . [البقرة : ١٢٩] .

وقال الإمام القرطبي في الفصل الأول من القسم الثاني من كتابه :

وقد تفطن بعض النبهاء ممن نشأ على لسان اليهود وقرأ بعض كتبهم ، فقال : يخرج مما ذكر من عبارة التوراة في موضعين اسم محمد ﷺ بالعدد على ما يستعمله اليهود فيما بينهم :

الأول قوله : جدًا جدًا بتلك اللغة بماد ماد وعدد هذه الحروف اثنان وتسعون ، لأن الباء اثنان والميم أربعون والألف واحد والدال أربعة والميم الثانية أربعون والألف واحد والدال أربعة كذلك الميم من محمد أربعون والحاء ثمانية والميم أربعون والدال أربعة .

والثاني قوله : لشعب كبير بتلك اللغة لغوي عذول ، فاللام عندهم ثلاثون والغين ثلاثة ، لأنه عندهم في مقام الجيم إذ ليس في لغتهم جيم ولا صاد ، والواو ستة

والياء عشرة والغين أيضًا ثلاثة والدال أربعة والواو ستة واللام ثلاثون ، فمجموع هذه أيضًا اثنان وتسعون . أ . هـ .

« واعترضوا على هذا الدليل بأن الباء في بماد ماد ليست من نفس الكلمة ، بل هي أداة وحرف جيء به للصلة ، فلو أخرج منه اسم محمد لاحتاج إلى باء ثانية ، ويقال ببماد ماد ، قلنا : من المشهور عندهم إذا اجتمع الباءان أحدهما أداة والآخر من نفس الكلمة ، تحذف الأداة وتبقى التي هي من نفس الكلمة ، وهذا شائع عندهم في مواضع غير معدودة ، فلا حاجة إلى إيرادها » أ هـ .

وكلامه بلفظ أقول قد صرح العلماء بأنه من أسمائه ﷺ ماد ماد كما في شفاء القاضي عياض .

بشارة إنجيل يوحنـــا :

ففي الفصل الخامس عشر منه قال يسوع المسيح : إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي يعلمكم كل شيء ، وقال يوحنا أيضًا : قال المسيح من يحبني يحفظ كلمتي وأبي يحبه وإليه يأتي وعنده يتخذ المنزلة ، كلمتكم بهذا لأني لست عندكم بمقيم ، والفارقليط روح القدس الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء ، وهو يذكركم كل ما قلت لكم أستودعكم سلامي ، لا تقلق قلوبكم ولا تجزع ، فإني منطلق وعائد إليكم ، لو كنتم تحبوني كنتم تفرحون بمضيٍّ إلى الأب ، وقال أيضًا : إن خيرًا لكم أن أنطلق لأبي ، لأني إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط ، فإذا جاء فهو يوبخ العالم على الخطيئة ،وإن لي كلامًا كثيرًا أريد قوله ولكنكم لا تستطيعون حمله، ولكن إذا جاء روح الحق ذلك الذي يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بكل ما يأتي ، ويعرفكم جميع ما للأب ، وقال أيضًا : إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطًا آخر يثبت معكم إلى الأبد [١] ، روح الحق الذي لم يطق العالم أن يقبلوه ، لأنهم لم

---

(١) وأما قوله : يثبت معكم إلى الأبد ، فلا يعني أنه ليس لحياته نهاية ، لأن التلاميذ الذين قيل لهم هذا الكلام لم يمكثوا إلى الأبد ، لكنهم ماتوا أو قُتلوا جميعًا منذ تسعة عشر قرنًا ، فهذا القول لا يصمد للتأويل حرفيًا ، ولكنه يمكن أن يعني أن ما يأتي به روح الحق إلى الأجيال اللاحقة لكم =

يعرفوه ، ولست أدعكم أيتامًا ، لأني سآتيكم من قريب [١] .

والفارقليط لفظن يؤذن بالحمد ، وتعين إرادته ﷺ من كلامه عليه السلام ، مم لا غبار عليه لمن كشف الله تعالى غشاوة التعصب من عينيه، وقد فسر بعض النصارى بالحماد وبعضهم بالحامد ، فيكون في مدلوله إشارة إلى اسمه عليه الصلاة والسلام أحمد .

هذا اللفظ « الفارقليط » يوناني ، ويكتب بالإنجليزية بارقليط ، أي : « المعزى » ويتضمن أيضًا معنى المحاج ، ولا يخفى أن المسيح عليه السلام كان يتكلم بالعبرية ، فلا ندري ماذا كان اللفظ الذي نطق به عليه السلام ، وهل كانت ترجمة مؤلف إنجيل يوحنا صحيحة أو خطأ ، لأننا نعلم أن كثيراً من الألفاظ والعبارات وقع فيها التحريف من الكتاب سهواً أو قصداً ، كما اعترفوا به في جميع كتب العهدين .

قال الشيخ رحمة الله الهندي : إنه قد وصلت إليه رسالة صغيرة بلسان الأردو من رسائل القسيسين في سنة ١٢٦٨هـ ، وكانت هذه الرسالة طبعت في كل كتبه ، وكانت في تحقيق لفظ فارقليط ، وكان ملخص كلامه : إن قلنا إن هذا اللفظ اليوناني الأصل باركلي طوس ، فيكون بمعنى المعزى والمعين والوكيل ، وإن قلنا إن اللفظ الأصل بيركلوطوس يكون قريبًا من معنى محمد وأحمد ، فمن استدل من علماء الإسلام بهذه البشارة فَهِمَ أن اللفظ الأصل بيركلوطوس ، ومعناه قريب من معنى محمد وأحمد ، فادعى أن عيسى عليه السلام أخبر بمحمد أو أحمد ، لكن الصحيح أنه باركلي طوس . انتهى ملخصًا من كلامه .

وقال الشيخ رحمة الله بعد ذلك : إن التفاوت بين اللفظين يسير جداً ، فتبدل بيركلوطوس بباراكلي طوس من الكاتب قريب القياس ، ومن نظر بعين الإنصاف اعتقد يقينًا أن مثل هذا الأمر من ديانة أهل التثليث ليس ببعيد ، يقصد تبديل

= يبقي إلى الأبد ، وأما قوله : عن روح الحق : الذي لا يستطيع العالم أن يراه ولا يعرفه ، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم ، فقد بيَّنا أن المكث معهم لا يعني مع التلاميذ ، لأنهم لم يمكثوا إلى الإبد ، وإنما المقصود به أجيال لاحقة لهم ، وأما حديثه عن عدم استطاعة العالم رؤيته ومعرفته ، فلا يقصد به سوى الإيمان القلبي الخالص ، فلقد كان في الشعب الإسرائيلي من يُبصر المسيح ويعرفه شخصيًا ، لكنه في حقيقة الأمر كان أعمى وجاهلاً لأنه لم يؤمن به .

(١) أ . هـ . من « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » .

بيركوطوس بباراكلي طوس ، فإن كان اللفظ اليوناني الأصلي بيروكلوطوس فالأمر ظاهر ، وتكون بشارة المسيح في حقه عليه الصلاة والسلام بلفظ هو قريب من محمد أو أحمد ، وهذا وإن كان قريب القياس بالنظر إلى عاداتهم ، لكني أترك هذا الاحتمال لأنه لا يتم عليهم إلزامًا ، وأقول : إن كان اللفظ اليوناني الأصل باراكلي طوس كما يدعون ، فهذا لا ينافي الاستدلال أيضًا ، لأن معناه المعزى والمعين والوكيل على ما بين صاحب الرسالة ، أو الشافع كما يوجد في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦م ، وهذه المعاني كلها تصدق على محمد ﷺ (١) . أ هـ .

وإن من تأمل بعين البصيرة والإنصاف ، وترك التعصب والاعتساف وتقليد الآباء والأجداد ، عرف أن الأوصاف التي ذكرها المسيح عليه السلام تطابق تمام المطابقة على وصف النَّبي عليه الصلاة والسلام ، وشرح كلام المسيح مطول ، وقد شرحه الشيخ رحمة الله الهندي كما نقله سيد رشيد رضا ، وشرحه صاحب فتح الملك العلام في بشائر دين الإسلام ، ومن جملة ما قاله : « إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي يعلمكم كل شيء » ، وهذا ما ترى معناه أن شريعة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أتت وافية بحاجات البشر في أمور دينهم ودنيهم ، بحيث لا يحتاجون إلى كتاب غير القرآن ، ولا إلى نبي غير محمد عليه الصلاة والسلام .

وقوله : « إن خيرًا لكم أن أنطلق ، لأني إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط » معناه لا يأتي الرسول العربي محمد ﷺ في زمن عيسى ، ولابد أن يكون بعد عيسى عليه السلام .

وقوله : « فهو يوبخ العالم على الخطيئة » فهذا القول بمنزلة النص الجلي لمحمد ﷺ لأنه وبخ العالم على ضلاله وكفره وشركه وجوره ، لا سيما اليهود على عدم إيمانهم بعيسى عليه السلام .

وقوله : « إذا جاء روح الحق ، ذلك الذي يرشدكم إلى جميع الحق » معناه : والله أعلم أن النَّبي يبيِّن للأمة كل ما يحتاجون إليه من العقائد والآداب والأخلاق والأحكام والمعاملات والحدود ونحوها ، كما جاء في الحديث :« **تركتكم على المحجة**

(١) أ . هـ . ملخصًا من تفسير المنار ، (جـ ٩) .

البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك » .

وقوله : « لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بما يسمع » ، هذا بمعنى قوله تعالى في شأن الرسول ﷺ :﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)** ﴾ [النجم : ٣ ، ٤] .

وقوله : « يخبركم بكل ما يأتي ويعرفكم بجميع ما للرب » .

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ :

وكذلك كان محمد ﷺ أرشد الناس إلى جميع الحق ،حتى أكمل الله له الدين ، وأتم به النعمة ، ولهذا كان خاتم الأنبياء ، فإنه لم يبق شيء يأتي به غيره ، وأخبر محمد ﷺ بكل ما يأتي من أشراط الساعة والقيامة والحساب والصراط ، ووزن الأعمال والجنة وأنواع نعيمها ، والنار وأنواع عذابها ، فلهذا كان في القرآن من تفصيل أمر الآخرة وذكر الجنة والنار ، وما يأتي من ذلك أمور كثيرة لا توجد لا في التوراة ولا في الإنجيل ، وذلك تصديق قول المسيح : « إنه يخبر بكل ما يأتي » .

ومحمد ﷺ بعثه الله بين يدي الساعة كما قال : « **بُعثت أنا والساعة كهاتين** » وأشار بأصبعيه ، السبابة والوسطى ، وكان إذا ذكر الساعة علا صوته ، واحمر وجهه ، واشتد غضبه ، كأنه منذر جيش ، وقال : « **إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد** » ، وقال : « **أنا النذير العُريان** » ، فأخبر من الأمور التي تأتي في المستقبل بما لم يخبر به نبي من الأنبياء ، كما نعته به المسيح حيث قال : « إنه يخبركم بكل ما يأتي » ، ولا يوجد مثل هذا قط عن أحد من الأنبياء قبل محمد ﷺ ، فضلاً عن أن يوجد شيء ينزل على قلب بعض الحواريين .

وأيضًا قال : « ويعرفكم جميع ما للرب » فبين أنه يعرف الناس جميع ما لله ، وذلك يتناول ما لله من الأسماء والصفات ، وما له من الحقوق وما يجب من الإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله ، بحيث يكون ما يأتي به جامعًا لكل ما يستحقه الرب ، وهذا لم يأت به أحد غير محمد ، حيث يتضمن ما جاء به من الكتاب والحكمة [١] .

---

(١) أ . هـ من « الجواب الصحيح » .

الفصل الثاني والسبعون من إنجيل برنابـــا :

[١] « وفي الليل تكلم يسوع سرًا مع تلاميذه قائلاً :

[٢] الحق أقول لكم إن الشيطان يريد أن يغربلكم كالحنطة » .

[٣] « ولكني توسلت إلى الله لأجلكم فلا يهلك منكم إلا الذي يلقي الحبائل لي » .

[٤] « وهو إنما قال هذا عن يهوذا لأن الملك جبريل قال له كيف كانت ليهوذا يدمع الكهنة وأخبرهم بكل ما تكلم به يسوع » .

[٥] « فاقترب الذي يكتب هذا إلى يسوع بدموع قائلاً : يا معلم قل من هو الذي يسلمك » .

[٦] « أجاب يسوع قائلاً : يا برنابا [1] ليست هذه الساعة هي التي تعرفه فيها، ولكن يعلن الشرير نفسه قريبًا لأني سأنصرف عن العالم » .

[٧] « فبكى حينئذ الرسل قائلين : يا معلم لماذا تتركنا لأن الأحرى بنا أن نموت من أن تتركنا » .

[٨] « أجاب يسوع : لا تضطرب قلوبكم ولا تخافوا » .

[٩] « لأني لست أنا الذي خلقكم بل الله الذي خلقكم يحميكم » .

[١٠] « أما من خصوصي ، فإني قد أتيت لأهيئ الطريق لرسول الله الذي سيأتي بخلاص للعالم ، ولكن احذروا أن تفشوا لأنه سيأتي أنبياء كذبة كثيرون يأخذون كلامي وينجسون إنجيلي » .

[١١] « حينئذ قال إندراوس : يا معلم اذكر لنا علامة لنعرفه » .

---

(١) إنجيل برنابا بقي مخفيًا طيلة سبعة عشر قرنًا ، وأول من عثر على النسخة الإيطالية وهي الوحيدة المعروفة الآن في العالم والتي ترجمت إلى العربية وغيرها ، هو الرجل كريمر أحد مستشاري ملك بروسيا ، وكان مقيمًا وقتئذ في أمستردام فأخذها سنة (١٧٠٩م) من مكتبة أحد مشاهير المدينة المذكورة ، ويقال إنه أقرضها ذلك الوجيه المشهور لكريمر، ثم أهداها بعد ذلك بأربع سنين إلى الأمير أيوجين الذي كان على كثرة حروبه ومشاغله السياسية شديد الولع بالعلوم والآثار التاريخية ، ثم انتقلت النسخة المذكورة سنة (١٧٣٨م) مع سائر مكتبة الأمير إلى مكتبة البلاط الملكي في ڤيينا حيث لا تزال هناك حتى الآن ، « راجع مقدمة المترجم لإنجيل برنابا الدكتور خليل سعادة » .

[١٢] « أجاب يسوع : إنه لا يأتي في زمنكم ، بل يأتي بعدكم بعدة سنين ، حينما يبطل إنجيلي ، ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمنًا » .

[١٣] « في ذلك الوقت يرحم الله العالم ، فيرسل رسوله الذي تستقر على رأسه غمامه بيضاء ، يعرفه أحد مختاري الله وهو سيظهره للعالم » .

[١٤] « وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار ، ويبيد عباد الأصنام من العالم » .

[١٥] « وإني أسر بذلك لأنه بواسطته سيعلن ويمجد الله ويظهر صدقي » .

[١٦] « وسينتقم من الذين سيقولون إني أكبر من إنسان » (١) .

تأمل ما قاله برنابا في وصف الرسول عليه الصلاة والسلام ، تجد الأوصاف بكل وضوح منطبقة على الرسول ﷺ من تلك الأوصاف :

« أهيىء الطريق لرسول الله الذي سيأتي بخلاص العالم » ، ويقصد والله أعلم أنه يقضي على مادية اليهود ويأتي بروح الزهد ، كما وأنه بشر برسولنا العظيم ، فتبشيره به كتهيئة له ، ثم قال : « سيأتي بخلاص للعالم » ، يعني أن رسالة رسولنا عامة وليست بخاصة كرسالات الأنبياء السابقين ، حيث كان يبعث كل رسول إلى قومه ، وتخليص النَّبي للعالم من رذائل الوثنية وشرور الملوك الظلمة ، وتطهيرهم من العادات الرذيلة ، وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ، وقال : « إنه لا يأتي في زمنكم بل يأتي بعدكم بعدة سنين ، حينما يبطل إنجيلي ، ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمنًا » .

ولا شك لدى كل عاقل ، أنه لم يأت بعد عيسى عليه السلام رسول إلا محمد ﷺ ، ومعنى يبطل إنجيلي : « أن القرآن ناسخ للإنجيل » ، وقوله : « ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمنًا » يعني أن النصارى لا يتمسكون بالإنجيل الصحيح المنزل على عيسى عليه السلام ، بل يخترعون لهم أناجيل ، ولا يبقى مؤمن إيمانًا صحيحًا بالله وبالمسيح إلا عدد قليل ، وكان في المدينة الكبيرة تجد فيها الألوف من النصارى وعشرات من الأحبار والرهبان ، ولكن لا تجد المسيحي الصحيح إلا واحداً أو اثنين ، اقرأ قصة إسلام سليمان الفارسي

(١) أ . هـ . من « إنجيل برنابا » ترجمة من الإنجليزية الدكتور / خليل سعادة وطبع بمطبعة المنار .

رضي الله عنه لتعرف صحة ما أقول، ومن الذي أتى بقوة عظيمة ، وقضى على عبادة الأصنام ، وعباد النيران والكواكب وغيرها إلا محمد عليه الصلاة والسلام ، ومن الذي أظهر صدق المسيح ، وأظهر منزلته التي أنزله الله فيها غير النَّبي ﷺ ، لأنه برأه مما اتهمه اليهود من قولهم : إنه ابن زنا ، وأنهم صلبوه ، وكذبوا ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ** ﴾[النساء : ١٥٧] ، كما أبطل قول النصارى من كونه ابن الإله أو ثالث ثلاثة ، وأبطل قولهم بالصلب والفداء .

ولما كان إنجيل برنابا هو الإنجيل الصحيح بالنسبة لغيره ، وفيه من أوصاف النَّبي عليه الصلاة والسلام ما لا يحتاج إلى تفسير وبيان لوضوحه ، أنكره عُبَّاد الصليب لأنه يقضي على معتقداتهم الفاسدة .

كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ منقول من الجواب الصحيح :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » الجزء الرابع :

فصل : وقال دانيال عليه السلام وذكر محمداً ﷺ باسمه فقال : « تنزع في قسيك إغراقًا ، وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء » ، فهذا تصريح بغير تعريض ، وتصحيح ليس فيه تمريض، فإن نازع في ذلك منازع ، فليوجد لنا آخر، اسمه محمد ، له سهام تنزع ، وأمر مُطاع لا يدفع .

وقال دانيال النَّبي أيضًا حين سأله بخت نصر ، عن تأويل رؤيا رآها ، ثم نسيها :

رأيت أيها الملك صنمًا عظيمًا قائمًا بين يديك ، رأسه من ذهب ، وساعده من الفضة وبطنه وفخذاه من النحاس ، وساقاه من الحديد ، ورجلاه من الخزف ، ورأيت حجراً لم تقطعه يد إنسان، قد جاء وَصَكَّ ذلك الصنم ، فتفتت وتلاشى، وعاد رفاتًا ، ثم نسفته الرياح،فذهب وتحول ذلك الحجر فصار جبلاً عظيمًا حتى ملأ الأرض كلها ، فهذا ما رأيت أيها الملك ؟ .

قال بخت نصر : صدقت فما تأويلها ؟ .

قال دانيال : أنت الرأس الذي رأيته من الذهب ، ويقوم بعدك ولداك اللذان

رأيت من الفضة وهما دونك ، ويقوم بعدها مملكة أخرى هي دونها ، وهي التي تشبه النحاس ، والمملكة الرابعة تكون قوية مثل الحديد الذي يدق كل شيء .

فأما الرجلان اللتان رأيت من خزف فمملكة ضعيفة ، وكلمتها سخيفة ، وأما الحجر الذي رأيت قد صك ذلك الصنم العظيم ففتته ، فهو نبي يقيمه الله إله السماء والأرض هنا ، من قبيلة بشريعة قوية ، فيدق جميع ملوك الأرض وأُممها حتى تمتليء منه الأرض ومن أمته ويدوم سلطان ذلك النَّبي إلى انقضاء الدنيا ، فهذا تعبير رؤياك أيها الملك .

قلت : فهذا بعث محمد ﷺ لا بعث المسيح ، فهو الذي بعث بشريعة قوية دون جميع ملوك الأرض وأُممها ، حتى تمتليء الأرض منه ومن أمته في مشارق الأرض ومغاربها ، وسلطانهم دائم لا يقدر أحد أن يزيله ، كما زال ملك اليهود ، وزال ملك النصارى عن خيار الأرض وأوساطها .

أدلة صحة بشارات التوراة والإنجيل بالنبي ﷺ

الدليل الأول :

من أقوى الدلائل على صحة تلك البشارات التي أسلفتها من التوراة والإنجيل بالنَّبي عليه الصلاة والسلام ، أن النَّبي ﷺ كان يخاطب اليهود والنصارى ، لأنه مبشر به في التوراة والإنجيل ، وأنه مرسل إلى العالمين ، فلذلك كتب [1] إلى ملوك النصارى ، وإلى ملوك الفرس ، وإلى ملوك العرب ، ويدعوهم للإيمان بالله وبرسوله ، فهذا النجاشي ملك الحبشة عندما هاجر بعض الصحابة إلى الحبشة وكان منهم جعفر ابن أبي طالب ، فأرسلت قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة لإرجاعهم إلى مكة ، وقدموا هدية للملك ثم قالا له : أيها الملك أنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بَعَثَنا إليهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم ، فعند ذلك أحضرهم الملك وسألهم : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من الملل ؟ .

وهنا تكلم جعفر بن أبي طالب ، وعرّف بما كانوا عليه في الجاهلية من عبادة الأصنام ، وأكل الميتة ، وإتيان الفواحش ، وأكل القوي للضعيف ، حتى بعث الله إليهم رسولاً منهم ، يعرفون نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعاهم إلى الله ليوحدوه ويعبدوه ويخلعوا ما كان يعبدون هم وآباؤهم من دونه من الحجارة والأوثان .

قال : وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحُسن الجوار ، وهنا قال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ ، فقال له جعفر : نعم ، فقال له النجاشي : فاقرأه عليّ ، فقرأ عليه صدراً من سورة مريم ، فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلاه عليهم.

فقال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ،

(١) الكتب التي أرسلها النَّبي ﷺ إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام كلها بعد صلح الحديبية ، والحديبية (سنة ٦ من الهجرة) .

انطلقا فلا والله لا أُسلمهم إليكما ، وأكرم أصحاب رسول الله ﷺ وآمن بالنَّبي ﷺ ، وهو الذي أخبر أصحابه بموته ، وصلى عليه صلاة الغائب .

وهذا النجاشي كان ملكًا نصرانيًا ، وكان عالمًا بدين المسيح ، فلما قرأ عليه جعفر وعرف أن هذا الكلام كلام الله ، وأنه موافق لما في الإنجيل الصحيح بوصف المسيح وأمه ، وأنه رسول لا إله ولا ابن إله ، أَسلم ، ولو لم يكن مسلمًا لما صلى عليه النَّبي وأصحابه ، ولو لم يعرف صدق الرسول وصحة نبوته ورسالته ، وأنه ناسخ لدين عيسى وموسى ، لما أَسلم .

الدليل الثاني :

أن الرسول ﷺ كتب إلى قيصر ملك الروم بعد صلح الحديبية كتابًا قال فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله إلى « هرقل » عظيم الروم ،سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تُسلم ، يُؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت ، فإن عليك إثم اليريسيين [١] ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** (٦٤) ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

فلما ورد إليه الكتاب، أراد أن يتثبت في أمر النَّبي ، وبحث عمن يستخبره في شأنه ، فقال كما في صحيح مسلم : هل ها هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، قالوا : نعم ، فقال أبو سفيان :فدعيت في نفر من قريش ودار بينهما الحوار الآتي :

- هرقل : كيف نسبه فيكم ؟ .
- أبو سفيان : هو فينا ذو نسب .
- هرقل : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ .
- أبو سفيان : لا .

---

(١) اليريسيون ، قيل : هم الفلاحين ، وقيل هم أتباع « أريوس المصري » مؤسس فرقة مسيحية كان لها دور كبير في تاريخ العقائد المسيحية والإصطلاح الديني .

- ■ هرقل : فهل كان من آبائه من ملك ؟ .
- ● أبو سفيان : لا .
- ■ هرقل : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ .
- ● أبو سفيان : بل ضعفاؤهم .
- ■ هرقل : أيزيدون أم ينقصون ؟ .
- ● أبو سفيان : بل يزيدون .
- ■ هرقل : فهل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ .
- ● أبو سفيان : لا .
- ■ هرقل : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ .
- ● أبو سفيان : لا .
- ■ هرقل : فهل يغدر ؟ .
- ● أبو سفيان : لا ، ونحن منه في مدة لا ندر ما هو فاعل فيها ؟ . قال : « ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة » .
- ■ هرقل : فهل قاتلتموه ؟ .
- ● أبو سفيان : نعم .
- ■ هرقل : فكيف كان قتالكم إياه ؟ .
- ● أبو سفيان : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا ، وننال منه .
- ■ هرقل : ماذا يأمركم ؟ .
- ● أبو سفيان :يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تُشركوا به شيئًا ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ؟ ، فذكرت أن لا ، قلت : لو كان أحد قال هذا القول قَبله لقلت : رجل يأتسي بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك ، فذكرت : أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم

ضعفاؤهم ؟ ، فذكرت : أن ضعفاؤهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون ، أم ينقصون ؟ ، فذكرت : أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخلَ فيه ؟ ، فذكرت : أنه لا ، وكذلك الإيمان حتى تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر ؟ ، فذكرت : أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك بما يأمركم ؟ ، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئًا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج [١] ، ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ... وأذن بعظماء الروم في القصر وأمر بأبوابه فغلقت ، ثم أطلع فقال : يا معشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم وتبايعوا هذا النَّبي ؟، ففروا وبادروا إلى الأبواب ، فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم ، وأيس من الإيمان ، قال : ردوهم عليّ ، وقال : إني قلت مقالتي آنفًا أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت فسجدوا له ورضوا عنه .

هكذا آثر هرقل الملك على الهداية ووقعت بينه وبين المسلمين في خلافة أبي بكر وعمر حروب ومعارك ، وكان فيها ذهاب ملكه وسلطانه .

الدليل الثالث :

وكتب إلى المقوقس [٢] عظيم القبط : سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ،

---

(١) قف قليلاً على قول هرقل مخاطبًا لأبي سفيان : « فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن أنه منكم » تصريح واضح أنه كان يعرف أنه سيأتي نبي بعد عيسى ، وفي قرارة نفسه علم صدق الرسول، ولذا قال : لو كنت عنده لغسلت قدميه ، ويزيد هذا وضوحًا، أنه قال لعظماء الروم : هل لكم في الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم ؟ ، تبايعوا هذا النَّبي ، وأما قوله بعد ذلك لما رأى نفرتهم : أختبر بها شدتكم على دينكم ، فهذا تضليل منه على قومه ، ولكن في هذه القصة لنا دليل على أن كثيرًا من أحبار النصارى وعظمائهم ، وكذلك اليهود كانوا يعرفون أن محمدًا رسول الله ﷺ صدقًا ، وأنه رسول الله حقًا ، لما يجدونه عندهم في التوراة والإنجيل من أوصافه العظيمة ، التي تنطبق عليه تمام الانطباق عندما شاهدوه وشاهدوا سيرته ، لكن الهداية بيد الله ، فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر .

(٢) هو حاكم الإسكندرية والنائب العام للدولة البيزنطية في مصر ، وذكره مؤرخو العرب باسم المقوقس ، وسماه بعضهم جريج بن مينا المقوقس .

فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم القبط ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)** ﴾ [آل عمران : ٦٤]، وبعث به مع حاطب بن أبي بلتعة.

وأخذ كتاب النَّبي ﷺ فجعله في حُق من عاج ، وختم عليه ودفعه إلى جارية له ، ثم دعا كاتبًا له يكتب بالعربية ، فكتب إلى رسول الله ﷺ :

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك ، أما بعد : فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًا بقي(١)، وكنت أظن أن يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك ، ولم يزد على هذا ، ولم يسلم ، والجاريتان مارية وسيرين ، والبغلة دلدل بقيت إلى زمن معاوية .

الدليل الرابع : إسلام عبد الله بن سلام :

هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي الأنصاري ، ويكنى أبا يوسف ، وهو من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام ،خرج عبد الله بن سلام مع جماعة من أهل المدينة لما سمعوا بقدوم رسول الله ﷺ المدينة لينظروا إليه ، فنظر عبد الله بن سلام إليه وتأمل وجهه ، فعلم أنه ليس بوجه كذاب ، فعاد إلى نخلة وجنى منه الثمار لأهله ، وعلم أن رسول الله ﷺ نزل على أبي أيوب الأنصاري ، فجاء إلى النَّبي ﷺ والثمار معه ، فسمع النَّبي ﷺ يقول : « **أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ،**

(١) فيه اعتراف صريح بأن اليهود والنصارى كانوا في انتظار نبي بعد عيسى عليه السلام ، وأماقوله : وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، فلعله ظن ذلك بناء على أن أكثر الأنبياء بعثوا من الشام كأنبياء بني إسرائيل ، أو أنه أراد أن يعتذر لعدم إسلامه ، لأن أولئك العظماء كهرقل والمقوقس والنجاشي كانوا دارسين الديانة النصرانية ، ومن لوزام ذلك أن يتفقهوا في التوراة ، لأن التوراة هي الأصل ، والبشارات في التوراة والإنجيل حتى بعد التحريف والتبديل كثيرة ، فيبعد أن يكون المقوقس غير عارف بالرسول وبمبعثه ، لأن في التوراة أنه سيكون من نسل إسماعيل أمة عظيمة ومنهم نبي عظيم ، ومن نصوص التوراة ، جاء الرب من سينا وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران ، « وفاران هي جبال مكة والحجاز والصحراء الممتدة إلى قرب فلسطين » .

وصلوا الأرحام ،وصلوا بالليل والناس نيام ،تدخلوا الجنة بسلام» ، فقال : إني أشهد أنك رسول الله ، وأنك جئت بحق ، وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم ، وأعلمهم وابن أعلمهم ، فادعهم فاسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت ، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت ، قالوا في ما ليس فيّ ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى اليهود ، فأقبلوا فدخلوا عليه ، فقال لهم النَّبي ﷺ :«**يا معشر اليهود ، ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذي لا إله إلا هو ، إنكم لتعلمون أني رسول الله حقًا ، وإني جئتكم بحق فأسلموا** »، قالوا : ما نعلم ، قال : فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ ، قالوا : ذلك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : « **أفرأيتم إن أسلم ؟** »، قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم، قال رسول الله ﷺ : يا ابن سلام أخرج عليهم ، فخرج فقال : يا معشر اليهود ، اتقوا الله ، فوالله الذي لا إله إلا هو ، إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بالحق ، فقالوا له : كذبت ، فأخرجهم رسول الله ﷺ من عنده .

فمن هذا الوقت : أخذ اليهود يتظاهرون بما تكنه صدورهم من الحسد والبغضاء ، ووضع العراقيل لعدم نمو الإسلام .

الدليل الخامس : حديث مخيريق :

كان مخيريق حبرًا عالمًا،وكان غنيًا كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته، وما يجده في علمه،وغلب عليه إلف دينه، فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم أُحدٍ يوم السبت،قال : يا معشر اليهود، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق ، قالوا : إن اليوم يوم السبت ، قال : لا سبت لكم ، ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بأُحد ، وعهد إلى من وراءه من قومه ، إن قتلت هذا اليوم ، فأموالي لمحمد ﷺ، ويصنع فيها ما أراه الله ،فلما اقتتل الناس قاتل حتى قُتِلَ ، فكان رسول الله ﷺ يقول : « **مخيريق خير يهود** » وقبض رسول الله ﷺ أمواله ، فعامة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها . [رواه ابن هشام عن ابن إسحاق] (١) .

---

(١) أ . هـ . من حياة سيد العرب ، الجزء الأول .

إن قول مخيريق وهو من أحبار اليهود وعلمائهم : إن نصر محمد عليكم لحق ، دليل على أنه كان يعلم صدق رسول الله ﷺ لما يجد صفته في التوراة ، ولهذا جاهد مع المسلمين في أُحد ضد المشركين وأوصى بأمواله للرسول ﷺ ، ولا يضرنا أنه لم يسلم ، فاعترافه بصدق الرسول وقوله لليهود ،إن نصر محمد لحق كافٍ في الدلالة على المرام .

الدليل السادس : كتاب رسول الله ﷺ إلى أهل نجران :

قال الحافظ ابن القيم - رحمه الله - :

« وروينا عن أبي عبد الله الحاكم ، وعن الأصم ، عن أحمد بن عبد الجبار ، عن يونس بن بكير ، عن سلمة بن عبد يسوع عن أبيه ، عن جده ، قال يونس وكان نصرانيًا فأسلم : إن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب : « أما بعد ، فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ، فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب ٍ ، والسلام » .

فلما أتى الأسقف الكتاب فقرأ ، فزع به ، وذعر به ذعرًا شديداً ، فبعث إلى رجل من أهل نجران ، يقال له : شرحبيل بن وداعة ، وكان من هدمان ، ولم يكن أحد يدعى إذا نزل معضلة قبله ، لا الأيهم ، ولا السيد ، ولا العاقب ، فدفع الأسقف كتاب رسول الله ﷺ إليه فقرأه ، فقال الأسقف : يا أبا مريم ، ما رأيك ؟ ، فقال شرحبيل : قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة ، فما يؤمن أن يكون هذا ذلك الرجل ، ليس لي في النبوة رأي حتى سأل ثلاثة من كبرائهم ، وكان جواب الكل كجواب شرحبيل ، فانطلق الوفد حتى وصلوا إلى المدينة .

وفد نصارى نجران :

فلما قدم الوفد كان مؤلفًا من ستين راكبًا منهم : أربعة وعشرون رجلاً من أشرافهم والأربعة والعشرون منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم : العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم ، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه وأمره ، واسمه عبد المسيح ، والسيد : ثمالهم ، وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، واسمه الأيهم وأبو حارثة بن علقمة أخو بني بكر بن وائل ، أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم ، وكان أبو حارثة قد شرف ومولوه وأخدموه ، وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات ، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم .

وجرى النقاش بينهم وبين الرسول حتى قالوا له : ما تقول في عيسى ؟، فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى ، فيسرنا إن كنت نبيًا أن نعلم ما تقول فيه ، فقال رسول الله

ﷺ : ما عندي فيه شيء يومي هذا ، فأقيموا حتى أخبركم بما يقال لي في عيسى عليه السلام ، فأصبح الغد وقد أنزل الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)** ﴾ .

[آل عمران : ٥٩ — ٦١] .

فلما أبوا أن يقروا بأن عيسى عبد الله ورسوله ، وليس بإله ولا بابنه ، دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة ، وأتى بالحسن والحسين وفاطمة ، لأن الله قال : ﴿ **فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** ﴾ ، فرفضوا أن يباهلوا ، لأنهم لو علموا أنهم على حق والرسول على باطل لباهلوا ، ولكن بما أنهم كانوا يعرفون صدقه لم يقبلوا المباهلة .

وقال شرحبيل لصاحبيه : إن كان هذا الرجل نبيًا مرسلاً فلاعناه ، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك ، فعند ذلك لجأوا إلى الصلح ، فقرر عليهم الرسول أن يسلموا في كل شهر رجب ألف حلة، وفي كل شهر صفر ألف حلة ، وعلى أهل جران مثوى رسله ومتعتهم بها عشرين فدونه ، وعليهم أن يسلموا عارية ثلاثين درعًا وثلاثين فرسًا وثلاثين بعيرًا إذا كان كيد باليمن ومغدرة وكتب لهم كتابًا طويلاً في ذلك كما ذكره الحافظ ابن القيم في زاد المعاد وغيره .

ومن هنا تعرف أيها القارىء أن هذا الوفد النصراني كان فيه من أحبارهم وكبرائهم ما سبق ذكره ، وإن شرحبيل بن وداعة قال : قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة ، ثم رفضهم للمباهلة وقبولهم للصلح والجزية ، لأدلة واضحة على صدق رسول الله ﷺ ورسالته إلى العالمين ، وأن أحبار اليهود والنصارى كانوا يعرفون ذلك أو كثير منهم ولا سيما الوفد النجراني .

وما ذكرته من كتب الرسول إلى الملوك ، ومن حديث عبد الله بن سلام ومخيريق، وهذا الوفد السالف الذكر ، وقصة إسلام سلمان الفارسي الذي خرج من أصفهان مع

قافلة من النصارى إلى الشام تابعًا لدين الحق لأنه كان مجوسيًا ، فدل على راهب وجلس عنده حتى حانت وفاة الراهب حتى مر على ثلاثة رهبان ، ولما حانت وفاة الثالث أخبره أنه لم يبق على دين عيسى من هو متمسك بالنصرانية الحقة ، وأخبره ببعثة نبي العرب عن قريب ونعت له المدينة مهجره ، وأنه لا يأكل الصدقة وبين كتفيه خاتم النبوة ، فأسلم سلمان لما وصل إلى المدينة ، وتحقق العلامات كما ذكر له .

كل ما ذكرته ذكرتها الأحاديث وكتب السير والتواريخ ، وثبتت واشتهرت عند أهل الحديث والمؤرخين والمفسرين والفقهاء ، حتى أصبحت أجلى من الشمس في رائعة النهار ، لا يشك فيها عاقل ولو لم يكن مسلمًا ، لثبوت ما ذكرته واستفاضته وشهرته .

الدليل السابع : وهو خاتمة الأدلة :

الأدلة على صدق رسول الله ﷺ وصحة نبوته ، وكونه مرسلاً إلى العالمين ، وختم الله به النَّبيين والمرسلين ، أكثر من أن تحصر ، وقد ذكرت من الدلائل الدالة الشيء الكثير ، ووفيت بما وعدت من بشارات التوراة والإنجيل ، كما ذكرت كتابته إلى الملوك وما كان من جواب هرقل والمقوقس وملك الحبشة ، وما حصل من الوفد النجراني ، وإسلام من أسلم في عصره ﷺ من اليهود والنصارى .

ولكن ألفت نظر القارىء إلى ما لعله من قوة البرهان ووضوحه للعيان ، ما لا يخفى على من سلك سبيل الإنصاف ، ولم يسلك سبيل الاعتساف ، وهو أنه من الثابت بالتاريخ والحس والمشاهدة بالعيان ، ومن الأمور التي لا يسع فيها المكابرة ، أن بعدما امتدت الفتوحات الإسلامية في عصر الخلفاء إلى العراق والشام ومصر وفارس وأفريقيا وغيرها من البلدان حتى ما وراء النهر ، أسلم من اليهود والنصارى والمجوس من مواطني تلك الأمصار والبلدان مئات الألوف ، بما فيهم من الأحبار والرهبان طوعًا ورغبة من غير جبر ولا اضطرار ، فلو لم يجدوا وصف النَّبي ﷺ كما بشرت به التوراة والإنجيل لما أسلموا ، ومن الذي أجبرهم على دخول دين الإسلام ، وقد أعطاهم الإسلام الحرية الكاملة في دينهم ودنياهم ، ولو لم يجدوا نعته كما قال الله في سورة

الأعراف : ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ** ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، ورأوا أوصافه في كتبهم كما ذكر القرآن ، وكما قال الله في سورة الفتح : ﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)** ﴾ [الفتح : ٢٩] .

لما دخلوا في دين الله أفواجًا أفواجًا ، وأصبح كثير منهم من علماء الدين ومن الناصرين له ، فوالله إن هذا لبرهان ساطع معقول وملموس ، لا يأبى الإذعان له إلا من كان من أهل الشقاوة ومن أهل النار .

فلو لم أذكر من الدلائل إلا هذا الدليل الباهر ، لكفى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .



شهادات بعض منصفي المسحيين

وإذا ذكرت بشارات التوراة والإنجيل التي تنبئنا عن النَّبي الكريم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وبعض شهادات المسيحيين السالفين كالنجاشي ملك الحبشة وغيره ، وكنت قد وعدت بأن أذكر شهادات بعض المنصفين من مسيحي الغرب ، فإلى القارىء ما وعدته به ليزداد إيمانًا بصدق الرسالة المحمدية ، وأنها آخر الرسالات السماوية :

[١] قال فارس الخوري بك أحد وزراء سورية المسيحيين في خطبة له ، في إحدى الحفلات العظيمة التي أقيمت بدمشق عام ١٩٣٥م لإحياء ذكرى مولد محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وذلك في رسول الإسلام وفي مبادئه الخالدة :

إن محمداً أعظم عظماء العالم ، ولم يجيء الدهر بمثله والدين الذي جاء به أولى الأديان وأتمها وأكملها ، وإن محمداً أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف (١) مسألة علمية واجتماعية وتشريعية ، ولم يستطع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الذي دعا الناس إليه باسم الدين،وبأنها متفقة مع العلم مطابقة لأرقى النظريات والحقائق العلمية ، وأن محمداً الذي تحتفلون به وتكرمون ذكراه ، أعظم عظماء الأرض كافة ، فلقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم ، وأنشأ منهم أُمَّة واحدة فتحت العالم المعروف يومئذ ، وجاء لهم بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم وأصول تعاملهم على أُسس تعد من أرقى دساتير العالم وأكملها .

[٢] وقال الدكتور شلبي شمبل وهو نصراني :

بحاثة حرّ ملحد : لا يوجد دين في الأديان يتفق مع الرقي الاجتماعي والعلمي سوى دين الإسلام ، وأن محمداً لهو أكمل وأعظم بشر في الأقدمين والحاضرين ، ولا يتصور وجود مثله في المستقبل ، ويقول أيضاً في سيدنا محمد ﷺ :

---

(١) تحديد بأربعة آلاف مسألة ، لعله بحسب فهمه وعلمه وإلا فما جاء به رسول الأعظم مما حواه القرآن والسُّنَّة لا يدخل تحت الحصر .

نعم المدبر والحكيم أنه	رب الفصاحة مصطفى الكلمات
رجل الحجا رجل السياسة والدهى	بطل حليف النصر في الغارات
ببلاغة القرآن قد خلب النهى	وبسيفه أنحى على الهامات
من دونه الأبطال في كل الورى	من سابق أو لاحق أو آت

[٣] وقال الكاتب الإنجليزي المعروف كارليل :

إنه لا يمكن أن يكون محمد كذوبًا ، فإنه إذا كان كذلك فلا يستطيع أن يأتي بمثل هذا الدين العجيب ، والله إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبني بيتًا من اللبن ، إذا لم يكن عليمًا بمواد البناء على اختلاف أنواعها ، فما بالك بمواد بناء صرح شامخ البنيان مدعم الأركان مثل دين الإسلام ، الذي ظل على قوته وعظمته قرونًا طوالاً .

وقال أيضًا في كتابه الأبطال :

لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر،أن يصغي إلى تلك الاتهامات التي وجهت إلى الإسلام وإلى نبيه ، وواجبنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التي أداها الرسول الكريم مازالت السراج المنير لنحو أربعمائة مليون من الناس (١) .

وقال أيضًا في اعترافه بالقرآن :

إن القرآن كتاب لا ريب فيه ، وإن الإحساسات الصادقة الشريفة والنيِّات الكريمة تظهر لي فضل القرآن ، والقرآن هو أول وآخر فضل وجد في كتاب نتجت عنه جميع الفضائل على اختلافها ، بل هو الكتاب الذي يقال عنه في الختام ﴿ **وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** ﴾ [المطففين : ٢٦] ، لكثرة ما فيه من الفضائل المتعددة (٢) .

[٤] وقد كتبت دائرة المعارف البريطانية - الطبعة الحادية عشرة - :

كان محمد أظهر الشخصيات الدينية العظيمة ، وأكثرها نجاحًا وتوفيقًا ، ظهر النَّبي في وقت كان العرب فيه قد هووا إلى الحضيض ، فما كانت لهم تعاليم دينية

---

(١) هذا الإحصاء كان في وقته،أما اليوم فقد تبين أن عدد المسلمين يبلغ المليار (١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) أو أكثر .

(٢) من كتاب الأبطال .

محترمة ولا مبادىء مدنية أو سياسية أو اجتماعية ، ولم يكن لهم ما يفاخرون به من الفن والعلوم ، وما كانوا على اتصال بالعالم الخارجي، وكانوا مفككين لا رابطة بينهم، كل قبيلة وحدة مستقلة وكل منها في قتال مع الأخرى ، وحاولت اليهودية أن تهديهم ، فما استطاعت ، وباءت محاولات المسيحية بالخيبة ، كما خابت جميع المحاولات السابقة للإصلاح ، ولكن ظهر محمد ﷺ الذي أُرسل هدى للعالمين ، فاستطاع في سنوات معدودات أن يقتلع جميع العادات الفاسدة من جزيرة العرب ، وأن يرفعها من الوثنية المنحطة إلى التوحيد ، وحول أبناء العرب الذين كانوا أنصاف برابرة إلى طريق الهدى والفرقان ، فأصبحوا دعاة هدى ورشاد ، بعد أن كانوا دعاة وثنية وفساد ، وانتشروا في الأرض ، يعملون على رفع كلمة الله ، وعبدوا الله حق العبادة ، حتى فاقوا النُّساك والزاهدين ، ولقد وصل المسلمون إلى ذروة السمو الروحي والرخاء الاقتصادي ، وتثقفوا بعلوم الإسلام ، التي فاض خيرها على العالم أجمع في ذلك الوقت ، والتي تغلغل ضوؤها ليبدد دياجير الجهل المتفشي في كل مكان ، وإنه لعجيب حقًا أن يتم هذا في عشرين عامًا فقط ، إذًا لقد كانت تعاليمه سهلة من الميسور الأخذ بها ، وناجعة قاضية على جميع العلل الاجتماعية والأمراض الخلقية... وليس الطبيب البارع من يدعي أنه الأول ، بل الطبيب البارع من يشفي أكبر عدد من الحالات المستعصية ، كذلك المصلح الناجح ليس من يدعي أنه المصلح الأول ، بل من يقوم بإصلاح العالم ، فيهديه إلى الصراط المستقيم ، وهذا هو الذي رفع النَّبي فوق هامات المصلحين والهادين في أعين المفكرين من ذوي العقول الناضجة .

ثم ذكرت الميزات التي اختص بها الرسول ﷺ من بين سائر الرسل ، فعددت ما يلي :

[١] إنه مرسل إلى العالم كافة ، بينما كانت رسالات غيره محددة ، كل رسول لأمة واحدة خاصة ، وهكذا كانت كتبهم المنزلة ، كل كتاب لشعب معين ، أما النَّبي محمد ﷺ فكانت رسالته عالمية (١) .

---

(١) بدليل قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ ﴾ [الفرقان : ١] ، وقوله : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

[٢] إنه كان هدف الرسالات السابقة السمو بطبيعة من طبائع البشر المتعددة ، فكان كل نبي من الأنبياء آية في صفة واحدة من الصفات ، ولكن النَّبي محمد كان آية في جميع السجايا ، وجاء ليسمو بأخلاق الناس كلهم ، وكان المثل الأعلى للإنسان الكامل .

[٣] إن ميزة النَّبي العظمى هي وضع أُسس السلم العالمي ، فهو لم يضع الأسس التي تعيش الأفراد بمقتضاها في سلام جنبًا إلى جنب فحسب ، بل علمهم كيف تعيش القبائل والشعوب في سلام ووئام ، ألم يكن أعظم من ظهر على وجه الأرض ، ومع ذلك كان عظيم التواضع لا يعتبر نفسه إلا إنسانًا عاديًا كسائر البشر ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [الكهف : ١١٠] ، كان يعتبر نفسه فردًا من الأفراد ، له ما لهم من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات ، حقوق للجميع متساوية ، وواجبات على الجميع متساوية ، لا فرق بين كبير وصغير ، ولا ذكر وأنثى ، ولا عربي وأعجمي ، وهذه هي عدالة الإسلام (١) .

[٥] ويقول « الفريد غليوم » أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة لندن :

علينا من المبدأ أن نقرر أن محمداً ﷺ كان واحداً من أعلام التاريخ العظماء ، وكان يقينه الغالب أنه لا إله إلا الله ، وأنه يدعو إلى ملة واحدة ، وكانت قدرته على التدبير بين المشاكل المعقدة التي تواجهه قدرة خارقة بغير مراء ، فما استطاع عربي بعزة الجيوش والشرطة والدواوين أن يجمع شمل قومه كما فعل ، فإن قيل : إن العالم الإسلامي عند وفاته كان عالمًا صغيراً بالقياس إلى دولة خلفائه ، فالجواب عن ذلك : أن إخلاص خلفائه لدعوته وإيمانهم بها ، وفهمهم لها ، قد جعلهم يعملون على تعميم الدعوة المحمدية مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ . [الأنبياء : ١٠٧] .

[٦] وقال المستر « ولز » :

كل دين لا يسير من المدنية في كل طور من أطوارها ، فاضرب به عرض الحائط

---

(١) الإسلام والمستشرقين .

ولا تبال به ، لأن الدين الذي لا يسير مع المدينة جنبًا إلى جنب ، فهو شر مستطير على أصحابه ، يجرهم إلى الهلاك ، وأن الديانة الحقة التي وجدتها تسير مع المدنية أنَّى سارت هي الديانة الإسلامية ، فإذا أراد الإنسان أن يعرف شيئًا من هذا فليقرأ القرآن [١] وما فيه من نظرات علمية وقوانين وأنظمة لربط المجتمع ، فهو كتاب ديني علمي اجتماعي تهذيبي خلقي تاريخي . . . كثير من أنظمته وقوانينه تستعمل حتى في وقتنا الحالي ، وستبقى حتى قيام الساعة ، **وإذا طلب مني أحد القراء أن أحدد الإسلام فإني أحدده بالعبارة التالية :**

وهل في استطاعة إنسان أن يأتيني بدور من الأدوار كان فيه الدين الإسلامي مغايرًا للمدنية والتقدم ، وكان النَّبي محمد ﷺ زراعيًا وطبيبًا وقانونيًا وقائدًا ، واقرأ ما جاء في أحاديثه تتحقق صدق ما أقول ، ويكفي أن قوله المأثور : « **نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع** » هو الأساس الذي بنى عليه علم الصحة ، ولم يستطع الأطباء على كثرتهم ومهارتهم أن يأتوا حتى اليوم بنصيحة أثمن من هذه ، والخلاصة : أن محمداً كان مجموعة من الحسن والنبوغ والبحث ، وهذا هو التحديد الصحيح الذي يجب على كل مسلم أن يعرفه .

ثم قال : أن محمداً هو الذي استطاع في مدة وجيزة ـ لا تقل [٢] عن ربع قرن ـ أن يكتسح دولتين من أعظم دول العالم ، وأن يقلب التاريخ رأسًا على عقب ، وأن يكبح جماح أمة اتخذت الصحراء المحرقة سكنًا لها،واشتهرت بالشجاعة ورباطة الجأش والأخذ بالثأر واتباع آثار آبائها،ولم تستطع الدولة الرومانية أن تغلب الأمة العربية على أمرها ، فمن الذي يشك أن القوة الخارقة للعادة التي استطاع محمد أن يقهر خصومه بها ، هي من عند الله [٣] .

[٧] قال العلامة بارتلمي سانت هيلر :

كان محمد أكثر عرب زمانه ذكاءً ؛ وأشدهم تدينًا ؛ وأعظمهم رأفة ،

(١) الحديقة (جـ ٧) .
(٢) لعله يريد أن يقول : لا تزيد .
(٣) الحديقة (جـ ٧) .

ونـال [١] محمـد سلطانه الكبير بفضل تفوقه عليهم ، ونعد دينه - الذي دعا إلى اعتناقه - من جزيل النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته ، ونستنشق سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض ، وفي هذه السهولة سر قوة الإسلام ، والإسلام إدراكه سهل خال مما نراه من الأديان الأخرى ، مما يأباه الذوق السليم من المتناقضات والغوامض ، ولا شيء أكثر وضوحًا وأقل غموضًا من أصول الإسلام القائلة بإله واحد ، وبمساواة جميع الناس أمام الله ، وببضعة فروض يدخل الجنة من يقوم بها ، ويدخل النار من يعرض عنها ، وإنك إذا ما اجتمعت بأي مسلم من أية طبقة رأيته يعرف ماذا يجب عليه أن يعتقده، ويسرد لك أصول الإسلام في بعض كلمات بسهولة ، وهو بذلك عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثًا عن التثليث ، والاستحالة ، وما ماثلها من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل .

وساعد في وضوح الإسلام وما أمر به من العدل والإحسان ؛ على انتشاره في العالم ، وبتلك المزايا نفسر سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام ، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية ، فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام ، كما نفسر به السبب في عدم تنصر أية أمة بعد أن رضيت بالإسلام دينًا ، سواء كانت هذه الأمة غالبة أم مغلوبة [٢] .

[٨] ويقول المنصف المحقق « وليام موير » في كتابة « حياة محمد » :

وبالاختصار فإنه مهما درس الباحث حياة محمد وجد فيها على الدول كتلة فضائل مجسمة مع نقاء سريرة وخُلق عظيم ، وستبقى تلك الفضائل عديمة النظير على الإطلاق في جميع الأزمان في الماضي والحاضر والمستقبل .

---

(١) لم ينل ما ناله الرسول بتفوقه كما قال هذا المستشرق ، ويقصد بذلك تفوقه في صفاته الفاضلة، ولكن نال تلك المنزلة العالية وهي دخول الملايين من البشر في دينه وخضوعهم لحكمه ، بفضل الله الذي وهبه النبوة والرسالة ، وأمره بتبليغها إلى جميع الأمم ، وأيده بتوفيقه ونصره ، وبإسلام السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وبسهولة مبادئه التي أتى بها ووضوحها ويسرها ، كما هو معلوم لدى كل منصف ، وكما اعترف هذا المستشرق ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين .

(٢) من كتاب « نظرات في الشريعة » لزيد بن عبد العزيز بن فياض .

[٩] وقال المؤرخ والكاتب « فرنسيسكو أيزولدو » :

جاء محمد فأحيا البلاد العربية ، وقاد العرب في سبيل المجد ، ونهض بهم فبلغوا أسمى المراتب ، وفي أقل من قرن واحد أشرقت أنوار محمد في العالم ، وقدر الناس عبقريته ومواهبه ، إن هذا الحادث العظيم الذي وقع ما بين القرنين السادس والسابع ، لهو حادث فريد مبتكر ، ولم يعرف له التاريخ مثيلا ، ولم يدون قط في صفحاته وثبة هائلة ونهضة نادرة كنهضة العرب في فجر الإسلام ، إن الشعب العربي الذي قام بواجبه التاريخ ومهمته الإنسانية ، لهو شعب يستحق الإعجاب والإكرام ، وإن الفضل في هذه النهضة العلمية المجيدة يعود إلى محمد ﷺ ، لذلك يجب بالشعوب المتمدنة أن تعترف بجميله وتحيي ذكراه .

[١٠] وقال الأستاذ « بورست سميث » :

إنني مصمم على الاعتقاد أنه سيأتي يوم ، فيه يتفق علية القوم - يعني المسلمين - وزعماء النصرانية الحقة ، على أن محمداً نبي ، وأن الله بعثه حقًا .

[١١] وقال السير وليم سوبر في كتابه « سيرة محمد ﷺ » :

امتاز محمد بوضوح كلامه ويسر دينه ، وأنه أتى من الأعمال ما أدهش الألباب ، ولم يشهد التاريخ مصلحًا أيقظ النفوس ، وأحيا الأخلاق الحسنة ، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير ، كما فعل محمد ﷺ .

[١٢] وقال الأستاذ الكبير الشجاع المنصف « خليل اسكندر قبرصي » :

ناشرًا في صحيفة الفتح وغيرها عدة مقالات جمعت في رسالة بعنوان « دعوة نصارى العرب إلى الدخول في الإسلام » ، وقال : ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل : ١٢٥] .

إن العرب أول من علَّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين ، إنني لا أدعو إلى بدعة مستحدثة ولا إلى ضلالة مستهجنة ، بل إلى دين عربي قويم ، أوحاه الله سبحانه إلى رسوله الكريم محمد ﷺ ، فكان أمينًا على رسالته ، حريصًا على بعث دعوته بين قبائل رحل تلهث بعبادة الأصنام ، فجمع بين صفوهم بعد أن كانت

مبعثرة ، ووحد كلمتهم بعد أن كانت متفرقة ، ووجه أنظارهم لعبادة الخالق وحده ، فكان خير البرية على الإطلاق ، حسبًا ونسبًا وزعامة ونبوة ، هذا النَّبي الذي اعتنق شريعته أربعمائة مليون مسلم [١] منتشرين في جميع أنحاء العالم ، يرتلون قرآنًا عربيًا مُبينًا ، هذا فخر العرب جميعًا ، وأساس عزهم ومجدهم ومدنيتهم ، هذا الذي امتدت أيدي خلفائه إلى أقصى حدود أوروبا ، فأناروا بحسن عدلهم وأمانتهم وجميل تقواهم ظلماتها ، ومزقوا بنور الفرقان دياجير جهالاتها [٢] .

[١٣] وقال عبد الله بوركي حلاق صاحب ورئيس تحرير مجلة الصفاء السورية قصيدة شعرية بعنوان : « إني مسيحي أجلّ محمد » :

قبس من الصحراء شعشع نوره ... فجلا ظلام الجهل عن ديننا
ومشى وفي أدرانه عبق الهدى ... وأريج فضل عطّر الأكوانا
بعث الشريعة من عميق ضريحها ... فرعى الحقوق وفتّح الأذهانا
مرحى لأمي يعلم سفره ... نبغاء يعرب حكمة وبيانا
أمحمد والمجد نسج يمينه ... مجدت في تعليمك الأديانا
ونشرت ذكر الله في أمة ... وثنية ونفحتّها الإيمانا
بعث الجهاد لدن بعث وجردت ... أسياف صحبك تقمع الطغيانا
وتساعد الضعفا وتصفع من بغى ... صفحات صدق تزهق البهتانا
إني مسيحي أجلَّ محمداً ... وأراه في سفر العلا عنوانا
وأطأطيء الرأس الرفيع لذكر من ... صاغ الحديث وعلم القرآنا
إني أباهي بالرسول لأنه ... صقل النفوس وهذب الوجدانا
صان الفخار البكر ذكر محمد ... وهفا [٣] وشنف باسمه الأذانا
إنا حلفنا أن نصون إخاءنا ... بسياج عز لن يمس هوانا
وغداً نزيل العار عن أوطاننا ... لنرى الجنوب محرراً وعمانا [٤]

---

(١) هذا العدد كان في زمانه ، أما اليوم فعدد المسلمين تجاوز المليار .

(٢) عبد الفتاح الإمام في تفسيره العصري القديم (جـ ٧) .

(٣) أسرع ذكره في الخافقين ، أو ارتفع ذكره وذهب ما ذهب الليل والنهار .

(٤) أ . هـ . من الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب للمؤلف ، وعنوانه يبين موضوعه .

فصل

أفضل الورى محمد ﷺ

بما أني قد ذكرت الدلائل الدالة على نبوة سيدنا محمد ﷺ ورسالته العامة إلى جميع الثقلين ، تلك الدلائل المنوعة من النقلية والعقلية ، والمعجزات وبشائر التوراة والإنجيل ، وكلام بعض منصفي الغرب ، والأجوبة عن الشبهات حول الرسالة والوحي، وعموم رسالته إلى غير ذلك مما سبق ذكره ، ناسب هنا أن أذكر بأنه أفضل خلق الله على الإطلاق ، ثم أفردت فصلين مستقلين :

الأول : نسخ الدين الإسلامي للأديان السابقة .

والثاني : في أن فصل الدين عن الدولة قولٌ مردود .

وهاك النظم بأن النبي ﷺ أفضل الخالق ثم شرحه :

وأفـــضل الورى بلا امــــتـــراء محـــمـــد رســـول ذي النعـــمـــاء

اتفقت كلمة أهل الحق ، أن سيدنا محمداً أفضل جميع المخلوقين من الملائكة والنَّبيين والمرسلين ، وإليك برهان تفضيله على سائر العباد :

[١] أن الله أقسم بحياته ﷺ في قوله : ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ** (٧٢)﴾ [الحجر : ٧٢] ، والإقسام بحياته يدل على شرف حياته وعزته عند الله ، وللخالق أن يقسم بما شاء (١) إظهاراً لمقام ذلك المقسم به .

---

(١) كما أقسم بقوله تعالى : ﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ** (١) **وَطُورِ سِينِينَ** (٢) **وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ** (٣) **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** (٤)﴾ [التين : ١ – ٤] ، لأن في هذه الأمكنة التي أقسم الله بها ، ظهرت النبوات العظيمة من نبوة سيدنا موسى وعيسى ومحمد ﷺ في قوله : ﴿**وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ** (٣)﴾ ، كما جاء في التوراة جاء الله من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران وهي الحجاز .
وأقسم بقوله تعالى : ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا** (١) **وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا** (٢) **وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا** (٣) **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا** (٤)﴾ [الشمس : ١–٤] ، وهناك آيات كثيرة أقسم الله بمخلوقاته ، إلفاتًا لنظر العباد ، لما في تلك المقسمات بها من آيات دالة على ربوبيته وعظمته ، وعلى ما فيها من المنافع والحكم ، أما المخلوق فليس له أن يقسم بمخلوق ولو كان المحلوف به نبيًّا أو ملكًا ،كما جاء في الحديث الصحيح : « من حلف بغير الله فقد أشرك » ، فالذين يحلفون بالنَّبي أو بالكعبة أو بالولي أو بالشرف أو بالآباء مبتدعون ضالون ما لم يعتقدوا تعظيمهم كتعظيم الله ، وإلا فقد كفروا كفرًا صريحًا .

[٢] قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ** ﴾[الفتح : ١٠] ، وفيه من الشرف والتفضيل ما لا يخفى، حيث جعل بيعتهم له كبيعتهم لله تعالى .

[٣] نادى الأنبياء بأسمائهم فقال : ﴿ **وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** ﴾[الأعراف : ١٩] ، ﴿ **يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا** ﴾[هود : ٤٨] ، ﴿ **يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي** ﴾[الأعراف : ١٤٤] ، وقال الله : ﴿ **يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ** ﴾[مريم : ١٢] ، وهكذا ، ونادى محمد ﷺ بالنبوة والرسالة تشريفًا له وتعظيمًا ، وقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥)** ﴾[الأحزاب : ٤٥] ، وقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ** ﴾[المائدة : ٦٧] .

[٤] إن الله أثنى على خُلقه فقال : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)** ﴾[القلم : ٤] . وهذا غاية الثناء والمجد .

[٥] إن الله جعل ثناؤه أخبر أنه وملائكته يصلون على النَّبي ﷺ ، وأمر المؤمنين بالصلاة والتسليم عليه ، وليس هناك رفعة وشرف فوق هذا .

[٦] إن الله أخذ الميثاق على النَّبيين ، آدم فمن بعده أن يؤمنوا به وينصروه ، قال الله تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)** ﴾[آل عمران : ٨١] ، ففي هذه الآية من التنويه بمحمد ﷺ وتعظيم قدره ما ليس وراءه زيادة لمستزيد .

[٧] إن الله جل ثناؤه خصه بخمس لم يعطهن أحدًا من خلقه ، تأمل ما رواه جابر عنه ﷺ أنه قال : « **أُعطيت خمسًا لم يُعطهن أحد قبلي ، كان النَّبي يُبعث إلى قومه خاصة ، وبُعثت إلى كل أحمر وأسود** - وفي رواية وإلى الناس كافة - **وأحلت لي الغنائم ؛ ولم تحل لأحد قبلي ، وجعلت لي الأرض مسجدًا**

وطهوراً ، فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل حيث كان ، ونُصرت بالرعب مسيرة شهر وأُعطيت الشفاعة » ، وفي حديث مسلم « **أُعطيت ستًا** » بزيادة : « **أُعطيت جوامع الكلم ، وختم بي النَّبيون** » .

[٨] إن معجزة كل نبي انصرمت وانقضت ، ومعجزة سيد الأولين والآخرين ، وهي القرآن باقية إلى يوم الدين .

[٩] إن الكتب القديمة السالفة حوت من البشائر [١] بنبوة محمد ﷺ ما لا سبيل لإنكاره .

[١٠] إن الله تعالى [٢] علم عباده كيف يخاطبونه في قوله تعالى : ﴿ **لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا** ﴾ [النور : ٦٣] ، وقد كانوا يخاطبونه بمحمد أو بابن عبد الله ، فنهاهم الله في هذه الآية عن خطابهم السالف ، بل يقولوا : يا رسول الله ، يا نبي الله ، عندما يريدون أن يخاطبوه تشريفًا له وتعظيمًا ، بل بلغ من سمو المكانة ورفعة المقام ، أن الله تعالى قال في شأنه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢)** ﴾ [الحجرات : ٢] ، يالها من درجة سامية ومقام عظيم ، حيث أن رفع الصوت على صوته موجب لإحباط الأعمال .

هذا وفضائله وخصائصه كثيرة ، وقد ألف العلماء في ذلك كتبًا ، ومن أحسنها وأجمعها الخصائص الكبرى للحافظ السيوطي - رحمه الله - .

تعقيب على حديث :

وهنا يرد سؤال وهو أنه ورد في الحديث : « لا تفاضلوا بين الأنبياء » ، وفي حديث آخر : لا يقل عبد أنا خير من يونس بن متَّى » .

فقد أجاب العلماء بأجوبة عديدة أحسنها : أنه عليه الصلاة والسلام قال

---

(١) قد سبق ذكر تلك البشائر من التوراة والإنجيل وشهادة المنصفين من الغربيين .

(٢) هذه العشرة التي ذكرتها بجعل حديث جابر : « **أُعطيت خمسًا لم يُعطهن أحد قبلي** » ، فضيلة احدة مع أنها في الحديث خمس أو ست فضائل، وبالتفصيل تكون خمس عشرة فضيلة .

ذلك قبل أن يخبره الله بتفضيله ، أو المراد أن لا يفضل تفضيلاً يؤدي إلى تنقيص النَّبي الآخر، أو يؤدي إلى النزاع والخصومة ، وإلا فدلائل تفضيله كثيرة وواضحة، ومن ذلك أنه قال عليه الصلاة والسلام كما في رواية مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « **أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا أول من ينشق عنه القبر ، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة** » .

وبعده في الفضل أهل العزم فالرسل ثم الأنبياء بالجزم

ومن بعده في الفضيلة والرفعة أهل العزم من المرسلين ، وهم أولو العزم والثبات والجد ، وعددهم على المشهور أربع : إبراهيم الخليل وموسى وعيسى ونوح ، قال بعض الفضلاء :

محمد ثم الخليل الكليم عيسى المسيح ثم نوح يا فهيم

ويسموا بأهل العزم ، لأنهم اجتهدوا في تأسيس الشرائع ، وصبروا على تحمل المشاق ، وزعمت طائفة بأن جميع الرسل أولو العزم ، ومن بعد هؤلاء في الفضيلة والرتبة بقية المرسلين ، وإن كان بعضهم أعلى درجة من بعض كما في آية ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، ثم سائر النَّبيين صلوات الله وسلامه عليهم :

ولم يرد في عدد الأنبياء نص صحيح يا أولي الذكاء

قوله ولم يرد في عدد الأنبياء ... إلخ ، بين هنا أن ما اشتهر من أن عدد الأنبياء مئة وأربعة وعشرون ألفًا ، والرسل عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر لم يصح ، وإن كثر في ألسنة المتكلمين والفقهاء معتمدين على رواية ابن حبان من حديث أبي ذر ، قال : دخلت المسجد فإذا رسول الله جالس وحده وفيه قلت : يا رسول الله كم من الرسل من ذلك ؟ ، قال : « ثلاثمائة وثلاثة عشر » ، ثم ذكر عدد الكتب ... إلخ ، وقد انتقده الحافظ ومنهم الولي العراقي ولم يصححوه ، والأسلم الإيمان بالجميع وعدم التعرض للعدد لقوله تعالى : ﴿ **وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤)** ﴾ [النساء : ١٦٤] .

نسخ الدين الإسلامي للأديان السابقة

ودينه قد نسخ الأديانا ومن يشك كفره استبانا
ودينه باق إلى القيامة ومن يخالف فانبذن كلامه

تعريف النسخ :

النسخ [١] **لغة بمعنى :** الإزالة ، ومنه بهذا المعنى نسخت الشمس الظل ، أي : أزالته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ** ﴾ [الحج : ٥٢] ، ويأتي بمعنى « النقل » ومنه نسخت الكتاب ، أي : نقلت ما فيه باللفظ والمعنى نقلاً صحيحًا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الجاثية : ٢٩] ، ويأتي بمعنى « التبديل » تقول : نسخ القاضي الحكم ، أي : بدله وغيَّره ، ونسخ الشارع السورة أو الآية ، أي : بدلها بآية أخرى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ** ﴾ [النحل : ١٠١] .

وفي اصطلاح الأصوليين ، رفع الحكم الشرعي [٢] بدليل شرعي متأخر ، لولاه لكان الأول ثابتًا ، وبذلك نتبين الفرق بين النسخ والتخصيص ، فالنسخ يكون فيه النصان ، الناسخ والمنسوخ غير مقترنين زمانًا ، بل يكون الناسخ متأخرًا عن المنسوخ،

---

(١) قال في شرح الترتيب : الفرق بين النسخ والسلخ والمسخ : إن النسخ نقل اللفظ والمعنى نقلاً صحيحًا ، وأن السلخ نقل المعنى دون اللفظ ، وأن المسخ إفساد اللفظ ، والمعنى إفسادًا كليًا كما في اللؤلؤة .

(٢) فخرج بالشرع أي المأخوذ من الشرع رفع الإباحة الأصلية المأخوذة من العقل ، وبخطاب الرفع بالموت والجنون والغفلة ، فكل ذلك لا يسمى نسخًا ، لأنه ليس رفع تلك الأمور حاصلاً من الخطاب الإلهي ، وهل يدخل النسخ في الأخبار ؟ ، فالجمهور أن النسخ إنما هو مختص بالأوامر والنواهي والخبر لا يدخله النسخ ، وقيل إذا تضمن الخبر حكمًا شرعيًا ، فقد يجوز أن ينسخ كقوله تعالى : ﴿ **وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾** ﴾ ، [النحل : ٦٧] ، قال ابن عباس : نزلت الآية قبل تحريم الخمر ، وأراد بالسكر الخمر ، وبالرزق الحسن جميع ما يؤكل ويشرب حلالاً منه هاتين الشجرتين ، فعلى هذا أفادت الآية إباحة الخمر ، ثم نسخ إباحتها آيات تحريم الخمر ، وقيل : السكر بمعنى العصر الحلال ، وسمي سكرًا لأنه قد يصبر سكرًا إذ بقي ، وقيل : السكر الخل بلغة الحبشة ، فعلى التفسير الأخير ، لا يستفاد من الآية إباحة الخمر ، ولا نسخ يعتريها ، وتكون آية محكمة ، وهذا القول هو الأرجح ، والله أعلم .

وإذا عرفت تعريف النسخ لغة واصطلاحًا ، **فمن المهم أن تعرف ما يلي :**

أولاً : إن الشريعة الإسلامية قد نسخت الشرائع السابقة ، وبيان ذلك مقرونًا بالأدلة ، وأن من لم يعتقد نسخ تلك الشرائع السالفة بدين الإسلام فهو كافر .

ثانيًا : هل وقع النسخ في الشريعة الإسلامية ؟ ، وبيان ذلك بالأدلة والأمثلة .

أما الأمثلة ، فإلى القاريء البيان :

الشرائع السماوية كلها متفقة على توحيد الله وإفراده بالعبادة ،والاعتقاد بالملائكة والكتب واليوم الآخر، ومحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ، فلا نسخ في شيء من هذه الأمور،ولكن النسخ في الشرائع التفصيلية التي تختلف باختلاف الأجيال والأزمان ، حسب تطور البشر وظروفهم وبيئاتهم .

قوله : « وإنه قد نسخ الأديان » :

كما أن شريعة التوراة نسخت ما قبله من الأديان ، وشريعة عيسى عليه السلام نسخت بعض شريعة التوراة ، فكذلك شريعة محمد نسخت جميع الشرائع الماضية ، فهو خاتم النَّبيين وليس بعده نبي بإجماع الأمة الإسلامية ، وليس بعده دين ينسخ دين محمد ﷺ .

قال بعضهم :

ودينه لا ينسخه دين وهو لنسخ غيره قمين

وقال في الجوهرة :

ونسخه لشرع غيره وقع حتمًا أذل الله من له منع

والدليل على أن دين محمد ﷺ نسخ الأديان السابقة كما في قوله تعالى : ﴿ **إنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [آل عمران : ١٩] .

وقوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** (٨٥) ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

ودعوة القرآن اليهود والنصارى وسائر الملل إلى الدخول في دين الإسلام ،كقوله

تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٦٤] (١) .

إنكار اليهود للنسخ وإبطال شبهاتهم :

حيث أن اليهود مرنت طبائعهم على القسوة والعناد ، وعدم الانصياع إلى الحق ولو كان أجلى من الشمس في رابعة النهار إلا القليل ممن هداه الله ، والدليل على ذلك ما قصَّه الله علينا من بيان موقفهم من أنبيائهم وأعظمهم موسى عليه السلام ، ذلك الموقف السافر عن عنادهم أمام الحق ، واستكبارهم وغلظة طبائعهم مع ظهور المعجزات الواضحة من موسى عليه السلام ،المؤيدة لنبوته ورسالته كقلب العصا حية ، وإغراق فرعون ، ومن عنادهم وجحدهم للحق أنهم كانوا إذا حاربتهم العرب قبل مجيء الرسول ، يستنصرون بمجيئه على أعدائهم المشركين ، يقولون : إنه سيبعث نبي في آخر الزمان، نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن اليهود كانوا يُستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل بعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا وجحدوا ما كانوا يقولون فيه : فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة : يا معشر اليهود : اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك ، وتخبروننا بأنه هو المبعوث ، وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم : أخو بني النضير ، ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي نذكره لكم ، قال الله : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ جاء اليهود ﴿ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ يعني من التوراة ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعني مشركي العرب ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا ﴾ هو محمد ﴿ كَفَرُوا بِهِ ﴾ [البقرة : ٨٩] .

ولما كان اليهود مجبولين على العناد والجحد وعدم الاعتراف بالحق - إلا من قلَّ منهم ممن أراد الله له الهداية - وقفوا تجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم موقف العناد والاستكبار ، بعد أن كانوا يستفتحون به ويصفونه للأوس والخزرج ، وحينما أرادوا أن يؤيدوا موقفهم الاستكباري ، زعموا أنهم شعب الله المختار ، وأن شريعة موسى هي الشريعة المؤبدة في

---

(١) سيأتي مزيد من الأدلة من حيث عموم رسالته لجميع الخلق ، لا فرق بين اليهود والنصارى ولا غيرهم ، لأنه إذا كانت رسالته عامة فمعناها أن دين اليهود والنصارى منسوخ ، وعليهم محتم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ويمتثلوا أمره وينتهوا عن نواهيه .

زعمهم ، فلذا حاولوا أن يعززوا هذا الزعم السخيف بإنكار النسخ ، ويحتجوا بذلك للبقاء على دينهم والتمسك به ، وعدم الاعتراف بدين الإسلام ، وبرسالة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام .

فقالوا : إن نسخ الدين على الله محال ، ولكن اختلفوا إلى ثلاث فرق ، بعد أن اتفقوا على شيء واحد ، وهو أن الشريعة الإسلامية لم تنسخ شريعتهم :

الفرقة الأولى : وتعرف بالشمعونية ، نسبة إلى شمعون بن يعقوب :

الشبهة الأولى للشمعونية وردها :

ادعت هذه الفرقة : أن النسخ لا يجوز عقلاً ولم يقع سمعًا ، قال العلامة ابن حزم ـ رحمه الله ـ : وعمدة حجة من أبطل النسخ أن قالوا : إن الله يستحيل منه أن يأمر به ثم ينهى عنه ، ولو كان كذلك لعاد الحق باطلاً ، والطاعة معصية ، والباطل حقًا والمعصية طاعة .

وأجاب : أن من تدبر أفعال الله كلها ، وجميع أحكامه وآثاره ، يتيقن بطلان قولهم ، ومما يبطل قولهم :

[١] إن الله يحيي ويميت ، ويُعز ويُذل ، وينقل الدولة من قوم ويمنحها آخرين ، فهل يقول عاقل : إن هذا لا يجوز على الله ؟ .

[٢] **قال :** ما تقولون فيمن كان قبلكم من الأمم المقبول دخلوها فيكم إذا غزوكم؟ ، أليست دماؤهم لكم حلالاً ، وقتلهم حقًا وفرضًا وطاعة ؟ ، ولابد من الإجابة بنعم ، فإن دخلوا في شريعتكم ، أليست قد حرمت دماؤهم ، وصار عندكم قتلهم حرامًا وباطلاً ومعصية ، بعد أن كان فرضًا وحقًا وطاعة ، فلابد من الإجابة بنعم ، يقال لهم : أما انقلب الحرام حلالاً حينئذ والطاعة معصية وبالعكس ؟ .

[٣] إنهم إن عدوا في السبت وعملوا أليس قد عاد قتلهم فرضًا بعد أن كان حرامًا؟، ولابد من جوابهم بنعم ، فإذا كان الجواب بنعم ، كان إقرارًا ظاهرًا ببطلان قولهم ، وإثبات ما سجلوه من الإنكار بأن الحق يعود باطلاً ، والأمر

يعود نهيًا والطاعة تصبح معصية .

[٤] هكذا القول في جميع شرائعهم ، لأن ما هي أوامر في وقت محدود بعمل محدود ، فإذا خرج ذلك الوقت عاد ذلك الأمر نهيًا عنه ، كالعمل مباح عندهم في الجمعة محرم يوم السبت ، ثم يعود مباحًا يوم الأحد ، وكالصيام والقرابين ، وسائر الشرائع كلها ، وهذا بعينه هو نسخ الشرائع الذي أبوه وامتنعوا منه ، إذ ليس معنى النسخ إلا أن يأمر الله بعمل ما مدة ، ثم ينهى عنه بعض انقضاء تلك المدة ، ولا فرق في شيء من العقول بين أن يعرف الله ويخبر عباده بما يريد أن يأمرهم قبل أن يأمرهم به ، ثم بأن ينهى عنه بعد ذلك ، وبين أن لا يعرفهم به ، إذ ليس عليه شرط أن يعرف عباده بما يريد أن يأمرهم قبل أن يأتي الوقت الذي يريد إلزامهم فيه الشريعة [١] .

[٥] مما يبطل شبهتهم ، أننا وإياهم متفقون على أنه كان في شريعة آدم عليه السلام مباح أن يتزوج الأخ أخته ، ثم حُرِمَ بعد ذلك .

[٦] جاء في توراتهم : أن الله قال لنوح عليه السلام عند خروج من السفينة : أني جعلت كل دابة مأكلاً لك ولذريتك ، وأطلقت ذلك لكم في النبات والشعب ما خلا الدم فلا تأكلوه ، ثم قد حُرِمَ على موسى وعلى بني إسرائيل كثيراً من الحيوان .

[٧] إننا وإياهم قد اتفقنا على أن الله أمر الخليل بذبح ابنه، وأن اختلفنا في تعيينه ، هل هو إسماعيل أو إسحاق ؟ ، قالت اليهود : إن الذبيح إسحاق ، وقال جمهور المسلمين إنه إسماعيل وهو الصحيح ، ثم نسخ ذلك بأن يذبح كبشًا فداء عن ابنه ، كما قال الله ﴿ **وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ** (١٠٧) ﴾ [الصافات : ١٠٧] .

[٨] أمر الله بني إسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل ، ثم أمرهم برفع السيف عنهم بعد أن قتلوا ألوفًا .

[٩] قد اتفقنا وإياهم أن شريعة يعقوب عليه السلام كانت غير شريعة موسى،وأن يعقوب عليه السلام تزوج ليسا وراحيل ابنتي لابان وجمعهما معًا ، وهذا حرام في شريعته .

---

(١)من الفصل بتوضيح وتصرف .

[١٠] وفي توراتهم البداء الذي هو أشد من النسخ ، وذلك فيما قال الله لموسى : سأهلك هذه الأمة ، وأقدمك على أمة أخرى عظيمة ، فلم يزل موسى يرغب إلى الله في أن لا يفعل ذلك حتى أجابه ، وأمسك عنهم ، وهذا هو البداء بعينه والكذب المنفيان عن الله ، لأنه سيهلكهم ويقدمه على غيرهم ، ثم لم يفعل .

الشبهة الثانية للشمعونية وردها :

قالوا : لو جاز النسخ على الله عز وجل ، لكان إما : لحكمة ظهرت له بعد أن لم تكن ظاهرة ، أو لغير حكمة ، وكلا الأمرين باطل ، لأن الأول بداء ، والثاني عبث ، والبداء والعبث لا يجوزان على الله سبحانه ، إذ كل منهما نقص ينزه الله عن أن يوصف به .

نقول : إنهم لم يستوفوا جميع الاحتمالات بترديدهم هذا ، ولو أنهم أرادوا أن يستوفوها لوجب أن يقولوا :النسخ إما أن يكون لحكمة ظهرت لله كانت خافية عليه، أو لحكمة كانت معلومة لله ولم تكن خافية عليه ، أو لغير حكمة ، وإذن لوجدوا في الاحتمال الثاني مساغًا للنسخ ، دون أن يستلزم بداء وعبثًا، وبيان هذا : أنه ما دام قد أمكن بناء النسخ على احتمال لا يأباه العقل ، فمن الخطأ الحكم باستحالته عقلاً ، وما في النسخ من جديد على هذا ، إنما يعتبر جديداً بالنسبة لنا نحن ، أما بالنسبة لله عز وجل فقد سبق به علمه ، ثم جاء النسخ تحقيقًا لهذا العلم ، ولا اعتراض عليه .

الفرقة الثانية : العنانية : نسبة إلى عنان بن داؤود : (١)

ترى أنه لا بأس بالنسخ في حكم العقل ، ولكنه لم يقع .

---

(١) قال الشهرستاني : يخالفون سائر اليهود في السبت والأعياد ، ويقتصرون على أكل الطير والظباء والسمك ، ويصدقون عيسى ﷺ في مواعظه وإرشاداته ، ويقولون : إنه لم يخالف التوراة البتة ، بل قررها ودعا الناس إليها ، وهو من بني إسرائيل المتعبدين بالتوراة ، ومن المستجيبين لموسى ﷺ إلا أنهم لا يقولون بنبوته ورسالته ، ومن هؤلاء من يقول : إن عيسى ﷺ لم يدع أنه نبي مرسل ، وأنه صاحب شريعة ناسخة لشريعة موسى ، بل هو من أولياء الله المخلصين والعارفين أحكام التوراة ، والإنجيل ليس كتابًا منزلاً عليه ، بل فيه جميع أحواله من مبدئه إلى كماله ، وإنما جمعه أربعة من أصحاب الحواريين ، فكيف يكون كتابًا منزلاً ؟ . [من الملل والنحل الشهرستاني جـ٢] .

والجواب :

أننا قد رأيناك أيها القارئ إبطال شبه الشمعونية ، وإثبات جواز النسخ عقلاً ووقوعه نقلاً ، وهذه الأجوبة كما أبطلت مذهب الشمعونية الذي هو أوغل في بطلان دعوى النسخ ، فقد أبطلت أيضًا شبهة العنانية .

الفرقة الثالثة : العيسوية : نسبه إلى ابن عيسى الأصفهاني :

وتعرفت باسم العيسوية، نسبة إلى ابن عيسى[1] إسحاق بن يعقوب الأصفهاني، ذهبت هذه الفرقة إلى أن النسخ جائز في حكم العقل وأنه قد وقع فعلاً ، لكنها تمنع أن تكون شريعة محمد ناسخة لشريعة موسى عليه السلام ، وتزعم أن رسالة محمد إلى العرب خاصة ، ولم تكن عامة إلى جميع الناس .

الجواب : أن يقال لهم :

إذا صدقتم الكافة في نقل القرآن عن النَّبي ﷺ وفي نقل معجزاته ، وصدقتم بأنه نبي مرسل ، فقد لزمكم الانقياد لما في القرآن من أنه عليه الصلاة والسلام بُعثَ إلى الناس كافة ، والدليل من القرآن قوله تعالى أمرًا لرسوله أن يقول : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، فالناس شامل للعرب ولغيرهم من الأُمم ، وزاده تأكيداً بالأمر الصادر من الله مخاطبًا لجميع العباد بقوله : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، ثم جاء الأمر الثاني فقال : ﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وقال الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) ﴾ [الفرقان : ١] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، فكلمة العالمين تشمل الإنس والجن .

---

(١) كان في زمن المنصور ، وابتدأ دعوته في زمن آخر ملوك بني أمية ، فاتبعه كثير من اليهود وادعوا له آيات ومعجزات ، ولما حارب المنصور أصحاب هذا الرأي قُتِلَ وقُتلَ أصحابه ، وكان يزعم أنه نبي وأنه رسول النَّبي المنتظر ، وأن المسيح أفضل ولد آدم ، وأنه أعلى منزلة من الأنبياء الماضيين ، ولما خالف اليهود في هذا ، خالفهم في كثير من أحكام التوراة ، وكان يوجب تصديق المسيح ، وحرم في كتابه الذبائح كلها ، ونهى عن أكل ذي روح على الإطلاق ، طيرًا كان أو بهيمة ، وأوجب عشرة صلوات ، وأمر أصحابه بإقامتها وذكر أوقاتها .

وقال جمع من محققي الشافعية : وإلى الملائكة تشريفًا وتكريمًا لهم ، وقال الله تعالى : ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ** ﴾[آل عمران : ٨٥] ، فكل من لم يؤمن بالرسول ﷺ فهو كافر غير مسلم ، وسيأتي في بحث إثبات نبوته ورسالته ﷺ مزيد بيان لعموم رسالته عليه الصلاة والسلام .

وإذا بيَّنا نسخ الشريعة الإسلامية للشرائع السابقة ، ودحضنا شبهات اليهود القائلين بعدم النسخ ، فهاك المبحث الثاني .

هل وقع النسخ في الشريعة الإسلامية ؟ :

نعم وقع النسخ (١) وإليك البيان :

الدليل من القرآن : قوله تعالى : ﴿ **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦)** ﴾[البقرة : ١٠٦] ، أي : ما نبدل من حكم آية فنغيِّره ، أو نترك تبديله فنقرّه بحاله ، نأت بخير لكم منها أيها المؤمنون ، في العاجل أو الآجل ، إما برفع مشقة عنكم ، أو بزيادة الأجر لكم والثواب ، أو بمثلها في الفائدة للعباد ، ألم تعلموا أن الله عليم حكيم قدير ، لا يصدر منه إلا كل خير وإحسان ، وأنه جل وعلا شرع هذه الملة الحنيفية السمحة ، ليرفع عن عباده الأغلال والآصار ، فلا تظنوا أن تبديله للأحكام لعجز في القدرة ، أو جهل في المصلحة ، وإنما تغييرها يرجع إلى منفعة العباد ، فهو المالك المتصرف في شؤون الخلق ، يحكم بما شاء

---

(١) أجمع المسلمون على وقوع النسخ في بعض أحكام الشريعة ، ولم يخالف في ذلك إلا أبو مسلم الأصفهاني ، قائلاً : إن جميع ما ذكر من النسخ ، فالمراد نسخ شرائع الأنبياء المتقدمين ، واحتج لقوله بقوله تعالى : ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)** ﴾[فصلت : ٤٢] فلو وقع النسخ لكان قد أتاه الباطل .

والجواب :

المعنى أن هذا الكتاب لا يتطرق إليه تحريف ولا تبديل ، ولا يكون فيه تناقض ولا اختلاف ، قال تعالى : ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢)** ﴾[النساء : ٨٢] ، والمقصود من الآية : أن الله تعالى حفظ كتابه العظيم من أيدي العابثين من تبديل كلمة ، وأولى أن لا يحصل التبديل في آية ، أو تحريف في معنها ، وعلى فرض أن يحصل ، فسرعان ما يفتضح الفاعل، فتنكشف سوأته ، ومن حفظ الله لهذا القرآن وإعجازه ، أنه لو زيد كلمة في آية من الآيات، أو حذف منها فسرعان ما يتنبه القاريء ، ويعرف أن هذا زيادة لا تناسب سياق الآية ، وليست لها بلاغة القرآن .

ويأمر بما شاء، ويبدل وينسخ الأحكام حسب ما يريد(١)، ومن هنا تعرف الحكمة في النسخ الواقع في الشريعة الإسلامية، وهي أنه تعالى قد يشرع لعباده شيئًا يكون فيه مصلحة لوقت ما،ثم ينهى عنه لما يرى فيه من الخير لهم، لأنه أعلم بمصالح عباده، ولا يعب في ذلك ، ولا ينسب بالنسخ جهل لله تعالى، لأن الله يعلم ما كان وما يكون ، وقد خلق عباده ، ويعلم ما جُبلوا عليه ، ويعلم دخائل أنفسهم ، فأنزل الشريعة مبنية على جلب المصالح للعباد، ودرء المفاسد، فما يصلح لزمن بالنسبة لأُمة من الأُمم ، قد لا يصلح لأُمة أخرى بعد ذلك الزمن .

ومن الجدير أن تعرف أن الشرائع السماوية كلها أتت لإصلاح البشر، وهي واحدة في أصولها لا تتعدد كما قال الله تعالى : ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾[الشورى : ١٣] .

وإنما النسخ في الأمور التي تختلف فيها الأجيال الإنسانية حسب البيئات والأزمنة والتطورات البشرية، لأن البشر في أوائله يعتبر كالطفل، وكل ما مضت قرون نما وتطور كالطفل الذي ينمو بمرور الأيام ويكبر، فما يصلح للطفل لا يصلح للصبي ، وما يصلح للصبي لا يصلح للبالغ الكامل لنضوج عقله واكتمال قواه .

الحكمة في وقوع النسخ :

ولذا كانت الشرائع السابقة تأتي كعلاج مؤقت حسب ما تقتضيه المصلحة، وتناسب طبائعهم وعقولهم، وحينما وصل البشر منتهاه ، واكتمل نضجه ، وصار فيه استعداد مؤهل للتفهم والعلم والإدراك أكثر من قبل، جاءت الشريعة الإسلامية شاملة لكل ما يحتاجه البشر ، وبكل ما يسعدهم في دنياهم وأخراهم ، ناسخة لما قبلها من

---

(١) ولتوضيح ذلك للقاريء : كان في زمن آدم لقلة عدد البشر الناتجين من صلبه ، كانت المصلحة تقتضي إباحة زواج الأخت لأخيها ، وعندما رست السفينة على الجودي ، وخرج نوح ومن معه ، وكان على ما يقال عددهم اثنان وسبعون من الرجال والنساء ، ولعدم استعدادهم ومعرفتهم وتسهيلاً لهم ، أباح الله لهم كل شيء إلا الدم ، وهكذا كلما تطور البشر وتقدموا ، جاءت الشرائع بمنا يناسب حالهم ، ويجلب لهم المصالح ، ويدرئ عنهم المفاسد .

الشرائع ، باقية ما بقيت الدنيا ، لأنها أتت بتشريعات صالحة لكل زمن وجيل وقبيل ، ولكل أُمة من الأُمم ، وإذا كانت الشريعة الإسلامية شريعة خالدة جامعة وشاملة فلا شريعة بعدها ، لأن الله تعالى ختم بسيدنا محمد ﷺ النَّبيين ، وبشريعته ختم الشرائع ، ومن باب أولى أن لا حاجة للأمة الإسلامية بالقوانين الوضعية ، لأنها زبالة أفكار بني الإنسان ، وقابلة للتغير والتبديل في كل زمان ومكان .

ولا بأس أن أتحف القاريء حكمة أخرى لوقع النسخ في شريعتنا الغراء :

أن النَّبي ﷺ بعثه الله تعالى في قوم لم يكونوا ذوي دين ، ولم يتقيدوا من قبله بقانون ولا نظام ، فلو خوطبوا بالأحكام الشرعية دفعة واحدة ما أطاقوها ، ولذلك أخذهم الله سبحانه وتعالى بالتدريج ، فنزل على الرسول من الأحكام ما يطيقون ، حتى إذا ذاقوا حلاوة الإسلام والإيمان ، وراضوا أنفسهم على أخلاقه الفاضلة ، خوطبوا بأحكام الشريعة الخالدة .

أمثلة وقوع النسخ من الكتاب والسُّنة :

ولا بأس ببيان بعض الأمثال حتى يتضح للقاريء وضوحًا لا يتسرب إليه شك ولا إشكال :

[١] إن الميراث في الجاهلية لم يكن يسير على نظام محكم ثابت ، فقد كان أكبر الأولاد يأخذ التركة ، وأحيانًا يوصي بها لمن يشاء ، والمرأة في كل الأحوال ليس لها نصيب ، فأوجب أولاً أن تكون الوصية للوالدين والأقربين من غير تعيين ، حتى إذا ألفوا ذلك جاءت آية الميراث المحكمة ، ووزعت التركة بأحكام الفرائض ذلك التوزيع العادل ﴿ **لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ** ﴾[النساء :٧]، وجعل لقرابة الأُم ميراثًا ، كما لقرابة الأب ميراثًا ، وإن كانت قرابة الأب تأخذ قدرًا أكبر .

[٢] فرض الله صيام رمضان ، ولكن جعله مُخيرًا بين أمرين ، إما أن يصوم ، وإما أن يدفع فدية طعام مسكين ، قال تعالى : ﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ** ﴾[البقرة : ١٨٤] ،، فلما امتثلوا أمر الله ورسوله وصاموا وتمرنت

نفوسهم على الصوم نسخ التخيير بقوله تعالى : ﴿ **فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ** ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، ووجب الصوم على كل مسلم مكلف ، وما قلناه من التخيير هذا هو رأي الأكثرين ، كما روى البخاري عن سلمة بن الأكوع .

[٣] كان العرب مولعين بشرب الخمر ولعب الميسر ، ويتفاخرون بهما ، وقد نشأوا عليهما خلفًا عن سلف ، شب عليهما الصغير وهرم عليهما الكبير ، ورسخا في طبائعهم حتى أصبحا كالصفة اللازمة لهم ، فلهذه الأسباب لم يحرمها الإسلام دفعة واحدة لئلا ينفروا ، بل أخذهم على سُنَّة التدريج ، فنزلت الآية أولاً من سورة البقرة : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا** ﴾ [البقرة : ٢١٩] ، ومن هذه الآية التي تقول ما كان ضرره أكثر من نفعه ينبغي اجتنابه ، ترك شرب الخمر ولعب الميسر بعض الصحابة ، ثم دعا عبد الرحمن بن عوف أُناسًا فشربوا وسكروا فقام بعضهم يُصلي فقرأ : « قُل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون » ، فنزلت : ﴿ **لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ** ﴾ [النساء : ٤٣] ، فقل من شربها ، ثم اجتمع قوم من الأنصار ومنهم سعد بن أبي وقاص ، فلما سكروا افتخروا وتناشدوا الأشعار ، حتى أنشد سعد شعرًا فيه هجاء للأنصار ، فضربه أنصاري بلحى بعير فشجه شجة موضحة ، فشكا إلى رسول الله ﷺ ، فقال عمر رضي الله عنه : اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فنزل ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١)** ﴾ [المائدة : ٩٠ ، ٩١] ، فقال عمر : انتهينا يارب .

[٤] فرض الله الجهاد، وأوجب أن يقابل كل عشرين من المؤمنين مائتين من الكافرين ، أي واحد مقابل عشرة ،ويثبتوا أمامهم في الجهاد ، فلما امتثلوا وجاهدوا نسخ

الله ذلك؛ بأن يقابل كل مئة من المسلمين مئتين من الكافرين، أي واحد باثنين ، قال تعالى : ﴿ **إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين** ﴾[الأنفال : ٦٥] ، ثم قال : ﴿ **الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين** ﴾[الأنفال : ٦٦] .

[٥] قال الله تعالى : ﴿ **والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا** [1] **وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم (٢٤٠)** ﴾[البقرة : ٢٤٠] .

فقد ذكر علماء التفسير :

أن أهل الجاهلية كانوا إذا مات أحدهم ، مكثت زوجته في بيته حولاً يُنفق عليها من ميراثه ، ثم جاء الإسلام فأقرهم على ما كانوا عليه من مكث الحول بهذه الآية ، ثم نسخ ذلك بالآية التي قبلها بآيات ، وهي قوله تعالى : ﴿ **والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا** ﴾ [البقرة : ٢٣٤] ، فصارت عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام بعد أن كانت عدتها سنة .

[٦] لما هاجر النَّبي ﷺ إلى المدينة المنورة صلى متوجهًا إلى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر ، ثم نزلت الآيات من سورة البقرة آمرة بالتوجه إلى الكعبة المشرفة ، وناسخة ما سبق ، قال الله تعالى : ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك**

---

(١) روى البخاري عن ابن الزبير رضي الله عنه قال : قلت لعثمان بن عفان : ﴿ **والذين يتوفون منكم ويذرون** ﴾ ، قد نسختها الآية الأخرى ، فلم تكتبها أو تدعها قال : يا ابن أخي لا أغير شيئًا منه من مكانه .

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

معنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان بن عفان ، إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة أشهر ، فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها ، وبقاء رسمها بعد التي نسخها ألا يوهم بقاء حكمها ؟ ، فأجابه أمير المؤمنين : بأن هذا أمر توقيفي ، وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها ، فأثبتها حيث وجدتها ، والقول بأن هذه الآية منسوخة بالآية التي قبلها بآيات هو قول الجمهور ، ومن السلف من ذهب إلى أنها ليست منسوخة ، وإنما خص من الحول بعضه ، وبقي البعض وصية لها إن شاءت أقامت .

قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) ﴾ [البقرة : ١٤٤] ، ﴿ **وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩)** ﴾ .

[البقرة : ١٤٩] .

[٧] جاء في الحديث الشريفة عن النَّبي ﷺ : « **كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزوروها فإنها تذكر الآخرة** » ، فقد حرم النَّبي أول الإسلام زيارة القبور ، لأن الناس كانوا حديثي عهد بالشرك والتعلق بالأنبياء والصالحين ، فلما استنارت قلوبهم بالإيمان ، ورسخ التوحيد في الجنان ، أذن لهم في زيارة القبور ، ناسخًا ذلك التحريم السابق بالإذن اللاحق .

وبحث النسخ وما منه من أقسام وخلاف ، قد تكفلت به كتب الأصول ، وإنما ذكرت للقارىء نموذجًا ليعلم أن النسخ قد وقع في الشريعة ولا عيب في ذلك ، لأن الشريعة مبنية على جلب المصالح ودرء المفاسد .



فصل الدين عن الدولة قول مردود

فدين الإسلام لذين جمعا … وجاءهم للدين والدنيا معًا

الشرح :

الإسلام في اللغة : الطاعة والإذعان ؛ وينقسم إلى قسمين :

[١] الإسلام الكوني : ومعناه أن العالم بما فيه بأجمعه خاضع لله ، مسخر بإرادته وقدرته كما قال الله تعالى : ﴿ **وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

[٢] الإسلامي الشرعي : معناه توحيد الله والاستسلام والانقياد لله طوعًا ولرسوله، وهو بهذا المعنى دين جميع الأنبياء والمرسلين ، وهو الاسم الذي عُرف به الدين الذي جاء به محمد ﷺ ، ولم تكن هذه التسمية عن اجتهاد من الرسول محمد ﷺ ، وإنما كانت من الله كما قال تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة : ٣] .

وبعدما جاء الرسول ﷺ بهذا الدين الحنيف ، أصبح لا يُطلق دين الإسلام إلا على ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ، فالمسلم يجتمع فيه الإسلامان ، الكوني والشرعي ، والكافر فيه الإسلام الكوني فقط ، والكلام على الإسلام والإيمان سبق مفصلاً في الجزء السابق من الكتاب ، والقصد هنا بيان أن الإسلام أتى بكل ما يحتاج إليه البشر ، فهو شامل للعقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات والجنايات وفصل الخصومات وإقامة الدولة العادلة،وبالإجمال هو النظام العام الشامل لأمور الحياة كلها ، ومناهج السلوك الإنساني التي أوحى الله بها إلى نبيه محمد ﷺ ، وعلى هذا كان الإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة .

فالعقيدة : هي توحيد الله في الذات والأفعال والصفات وإفراده بالعبادة ، فالمؤمن يوحد الله ، ويفرد بالعبادة ، ويؤمن بالأنبياء والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر ، والقرآن مملوء بذكر التوحيد والإيمان به وباليوم الآخر وسائر الأصول

الإيمانية ، وقد شغل التوحيد في السور المكية حيزًا كبيرًا ، وركزت كثيرًا على توحيده تعالى والإيمان بالبعث والرسل .

أما الشريعة : فهي طريق العابد الذي يسلكه إلى ربه كما رسمه القرآن والسُّنَّة ، لا يرتد عنه ولا يخالف إلى طريق غيره ، وتشمل جميع شؤون الحياة وسلوك الإنسان، محققة ما ينفعهم في حياتهم، ويحفظهم من الفساد والفوضى في دنياهم ، فإذا كانت شاملة لجميع شؤون الحياة ، فمن هنا نفهم أنها لم تأتِ للعبادات والأخلاق فقط ، بل أنها كما أتت لهذين ، جاءت تنظم أمور الفرد مع الفرد ومع الجماعة ومع الحاكم ، والحاكم مع الرعية ، فلذا ترى القرآن والسُّنَّة كما أتيا بالعقائد ، شرعا لنا العبادات والأخلاق ، وشرعا لنا نظام المعاملات .

وعلى ما قلنا من كون الدين شاملاً لجميع نواحي الحياة الإنسانية والمعادية ، اتفق جميع المسلمين سلفًا وخلفًا بالرغم من تعدد المذاهب فيه، وعلى هذا جرى المسلمون، ولم يقل أحد منهم أن الدين لا شغل له في الحياة ، وأنه منحصر في العبادات والأخلاق ، حتى جاء الغرب بغزوه الفكري غازيًا الشرق الإسلامي بالمباديء الهدامة والأفكار المنافية لدين الإسلام ، بقصد إضعاف المسلمين وتشتيتهم وإضعاف الثقة بدينهم، وبالتالي الاستيلاء عليهم ونهب خيراتهم وأموالهم واستعبادهم ، فعل ذلك بعد أن فشل في الحروب الصليبية وغيرها، وعرف أن إعلان الحرب على المسلمين لا يجدي شيئًا ، بل يزيدهم قوة ووحدة وتمسكًا بالدين ، فلذا لجأ إلى هذا الغزو اللعين ، وأنجب من الشرق تلاميذ درسوا في مدارس الغرب ، ونهلوا من ثقافتهم ، وتشبعوا بأفكارهم المسمومة ، فرجعوا دعاة مبشرين لكل ما ينعق به الغرب ، معززين ذلك بحضارة الغرب واختراعاته الصناعية وكشوفاته العلمية ، وأن المسلمين إذا أرادوا التقدم ، فعليهم بتقليد الغربيين والتبعية لهم .

شبهة القائلين بفصل الدين عن الدولة وردها :

فمن تلك الأفكار التي صدرها الغرب إلى الشرق بشتى الوسائل من كتب وصحف ونشرات ومبشرين وتلاميذ أخلصوا لأسيادهم الغربيين ، وهي في نفس الوقت تأتي على الدين من قواعده ، وتفصل المسلم عن إيمانه وتبعده عن إسلامه

وقرآنه ، مبدأ فصل الدين عن الحياة عمومًا وعن السياسة خصوصًا ، وأنه لا علاقة له بالمجتمع ، بل علاقته مع الخالق ، ووظيفته التمسك والزهد وحصره في المساجد والزوايا ، فراجت هذه الفكرة الكافرة على الشرق الإسلامي إلا من عصمه الله، ونفذها أذناب الغربيين ممن لا يعرف لحقيقة الدين الإسلامي سبيلاً، ولم يدرس محاسنه ، ولم يدقق النظر في سيرة الرسول وخلفائه وسائر من أتى من بعدهم ، وتأثر كثير من الحكام والزعماء بهذا الفكر الخاطيء ، فأقصوا أحكام الكتاب والسُّنَّة ، وأتوا بالقوانين الغربية والشرقية ، وحبذها لهم شياطين الغرب والشرق وأذنابهم ممن تسموا بالإسلام ، والإسلام منهم بريء كبراءة الذئب من دم يوسف ، بشبهة أن أوروبا لما كانت متقيدة بأوامر الدين لم يحصل لها تقدم ورقي وحضارة ، بل كانت تتخبط في ظلمات الجهل ، وترتمي في أحضان الفقر ، ولما فصلت الدين عن الدولة ، بلغت من المجد الدنيوي والحضارة الراقية ما لا يختلف فيه اثنان ، لأن الدولة تريد أن تكون متقدمة متطورة ، تساير تطور الفكر الإنساني والدين لا يسمح بذلك ، لأن مبادئه ثابتة لا تتطور ولا تتغير .

الجواب :

إن الدين الذي وصفتموه بالجمود وعدم التطور ، ليس هو دين الإسلام ، ذلك هو الدين المسيحي ، دين القسس والرهبان ورجال الكنائس وعُبَّاد الصلبان ، ذلك الدين الذي من أُسسه « أعط لله ما لله وأعط لقيصر ما لقيصر » ، ذلك الدين الذي ليس له تدخل في شؤون الدولة ، ولا عناية بقضايا الحكم والإرادة ، ولكن رجال الدين المسيحي بمرور القرون والأزمنة ، أخذوا يتدخلون في شؤون الممالك ، ويتحكمون في الملوك والشعوب ، حتى أصبح رجال الدين طبقة لها محاكمها الخاصة وسجونها الخاصة ، وبذلك أصبحت الكنيسة دولة في دولة ، وكم أعلن رجال الكنائس الحروب الشعواء على المصلحين من المسيحيين أنفسهم ، وجرت أنهار الدماء من جراء أحكام البابوات والقسس ضد كل من لا يأخذ برأيهم ولا ينقاد لأوامرهم ، وكم طاردت الكنيسة رجال الفكر والعلم ، وأحرقت كتبهم وصادرتها حتى لا يطلع الناس على ما فيها من آراء تحرمها الكنيسة .

ومن جراء ذلك انفجر بركان الغضب أولاً من الملوك،ثم سائر الشعوب لا سيما ذوي الأقلام والفكر،حتى أنهم فصلوا الدين عن السياسية،وحصروا سلطة رجال الكنائس على كنائسهم وأتباعهم ، لا علاقة لهم بالدولة وشؤونها ، ولم يحصل ذلك إلا بعد حروب دامية ، ونحن نسأل هؤلاء الذين يحبذون فكرة الفصل ، أعني فصل الدين عن الدولة ، هل جاء دين الإسلام بما جاء به الدين المسيحي ؟ ، هل قال الإسلام أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ؟ ، لا ، لم يقل ؛ بل قال الإسلام مخاطبًا نبيه ﷺ : ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩)** ﴾[المائدة : ٤٩] .

هل في دين الإسلام رجال دين يتحكمون في الناس ويريدون السيطرة على الملوك والعباد ؟! ، ويزعمون بأنهم وسطاء بين الله وبين خلقه ، وأن الدعاء من العبد إلى ربه لغفران الذنوب لا يمكن إلا بواسطة أولئك الرجال ؟ ، هل قال علماء الدين الإسلامي : هناك دولة الدين ودولة الملوك أو السياسة ، ودولة الدين لها السيطرة على دولة الملوك ؟ ، أم جاء الدين الإسلامي بأن الناس أحرار ، لا يمكن لفئة من الفئات أن تسيطر على الفئة الأخرى ، وتجعلها أرقاء لها ، وتسلب حرياتها وليس لها حل وعقد؛ لا بينها وبين ربها ولا بينها وبين العباد إلا بواسطة أولئك الرجال المتزعمين للدين ؟ .

كلا وألف كلا ، لم يأت الإسلام بشيء من ذلك ، بل نهى الإسلام عن الخضوع ولسيطرة الأحبار والرهبان ، وجعل الخضوع لهم وتقليدهم فيما يحللون ويحرمون شركًا برب العالمين ، كما قال الله تعالى : ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)** ﴾[التوبة : ٣١] .

هل في دين الإسلام تنافٍ بين الدين والدولة ؟ ، أم الدين والدولة في نظر الإسلام كلٌّ لا يتجزأ ، لأن الإسلام يوجب على الناس أن ينصبوا حاكمًا لهم ، يرعى مصالحهم ، ويقيم ميزان العدل بينهم ، ويجاهد الأعداء ، ويأمر بالمعروف وينهى عن

المنكر ، ويساوي الناس في الحقوق ، ولا يحجر على أحد حريته إلا فيما يخالف الشريعة ، فإذا كان الدين الإسلامي يأمر بإقامة الحاكم ، ويأمر الناس بطاعته ، كما قال الله تعالى : ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [النساء : ٥٩] .

ونظَّم الدينُ الدَّوْلة ووضع لها أُسسًا وقواعد لنظامها السياسي ، فمن أين يأتي التنافي بين الدين والدولة ؟!! .

وقياس دعاة فصل الدين عن السياسة على الغربيين حينما قاموا وقاوموا سيطرة الكنائس، وفصلوا الدين عن الدولة، قياس باطل ليس له ما يسنده ،لا من عقل ولا من نقل ولا من واقع التاريخ،ولا من واقع ذلك الدين المسيحي قبل أن يبدله رجال الكنائس ، ولو ذهبنا نعد البواعث والأسباب التي ألجأت الغربيين إلى فصل الدين عن الحياة والسياسة لطال بنا الكلام،مما ليس لدنيا سبب واحد يسوغ لنا ما سوغ للغربيين.

ولكن ألفت نظر القارىء والسامع إلى أن يتأمل كتاب الله ، فسيراه مملوءًا من الآيات التي فيها تشريع الأحكام الجنائية والمدنية والسياسية والشخصية والأخلاقية ، وكذلك السُّنَّة الغراء .

فقوله تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة : ٣] ، تصريح واضح وبيان شامل على إكمال هذا الدين وشموله لجميع جزئيات حاجات البشر ، وكذلك كتب الأحاديث والفقه التي لا حصر لها ولا عد ، فهي تشمل العبادات وأحكام البيوع والجنايات والحدود وغيرها .

ومما يوضح لك اهتمام الشريعة الإسلامية بالسياسة ، أن الصحابة رضي الله عنهم اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ونصبوا الخليفة الأول أبا بكر الصديق رضي الله عنه قبل أن يدفنوا الرسول ﷺ ، ولا زال الصحابة وأمراء بني أمية وبني العباس وسائر من أتى بعدهم من الملوك من السُّنَّة وغيرهم ، يحكمون الشريعة الغراء ويطبقون الحدود ، وإن كان عندهم شيء من الظلم والترف ، حتى جاء كمال أتاتورك وقضى على الخلافة الإسلامية والدين الإسلامي ، متأثرًا بالغربيين خادمًا لهم .

فصل

في بيان بعض الفرق الضالة
التي فتحت باب النبوة والرد عليها

فأفضل الورى بلا امتراء	محمد رسول ذي النعماء
وأنه خاتم كل الأنبيا	ورسله المكرمين الأصفيا
ودينه قد نسخ الأديانا	ومن يشك كفره استبانا
ودينه باق إلى القيامة	ومن يخالف فانبذن كلامه
وليس بعده نبي أبداً	من ادعاها كفره فقد بدا
كما ادعاها الفارسي الباب	والكافر الهندي ذا الكذاب

وحيث قد بيَّنت أن سيدنا محمد ﷺ أفضل خلق الله على الإطلاق ، وأن دين الإسلام قد نسخ الأديان ، وأنه باق إلى يوم القيامة ، وذكرت الأدلة على ذلك ، والأمثلة في وقوع النسخ في الشرائع الماضية وفي شريعتنا الغراء ، ففرعت على ذلك بأنه إذا كان دين الإسلام دين عام شامل لكل البشر والجن ، وأنه الباقي إلى أن تقوم الساعة ، فليس بعد النَّبي ﷺ نبي ولا رسول ، ولا ينزل كتاب بعد القرآن ، وكل من ادعى النبوة والوحي بعد خاتم النَّبيين فكذَّاب مرتد كافر يجب أن يُستتاب ، فإن تاب وإلا قُتِلَ كافراً .

وبما أن علي محمد الباب الإيراني قد ادعى النبوة ، وتبعه عبد البهاء من بعده ، ثم جاء ميرزا غلام أحمد الهندي فادعى النبوة ، وفتح كل من الباب ، وميرزا باب النبوة على مصراعيه ، فناسب أن أذكر نبذة عن هاتين الفرقتين ، ليكون القارىء على بيِّنة من الأمر ، وليقف على شبههم السقيمة ، والأجوبة العقيمة .

البهائيـــة

منذ أن وُلدَ الإسلام ببعثة محمد سيد الأنام ، الذي قد أرسله الله بشيرًا ونذيرًا وسراجًا منيرًا ، أرسله الله على حين فترة من الرسل حينما اختفى توحيد الله وعبادته كما شرعه على لسان أنبيائه من الكرة الأرضية ، ما سوى عدد ضيئل من المتمسكين بالنصرانية الصحيحة ، وقليل من حنفاء العرب .

حورب الإسلام بشتى الطرق ، حاربته قريش بالدعاية واللسان ، ثم بالحرب والسنان كما حاربه سائر العرب ، وأخيرًا خرج الإسلام من المعركة منتصرًا على خصومه ، وأسلم الأكثرون ، وانضموا تحت لوائه ، وحاربته الفُرس والروم وهما أكبر دولتي الشرق إذ ذاك ، فنصره الله عليهم وبدد شملهم وفتح ملكهم ، ودخل أكثرهم في دين الله طائعين مختارين ، ولما رأى أعداء الله أن دين الإسلام قد قوي وأصبح دولة عظيمة تخشى بأسها الدول ، قالوا : لا طاقة لنا اليوم بحربه ، فلابد من الكيد والمكر حتى ندرك ثأرنا من هؤلاء الذين قضوا على أدياننا وأمجادنا وملوكنا ودولنا ، ومن هنا أظهر بعضهم الإسلام نفاقًا وخداعًا وكيدًا له وللمسلمين حتى ينفثوا سمومهم باسم الدين ، فمن أولئك الخدَّاعين الماكرين عبد الله بن سبأ ، وكان يهوديًا من يهود صنعاء ، فأسلم نفاقًا من أجل أن يوقع الفرقة بين المسلمين ويمزق وحدتهم ، ظهر هذا الخبيث في عهد عثمان ﷺ في صورة زاهد ورع يفيض حبًّا للإسلام ، وتلمس الماكر السبيل إلى عاطفتي الحب والكراهية ، حب أهل البيت وكراهية للعرب في نفوس بعض الموالي ومن على شاكلتهم ، فظل يحث على حب أهل البيت ، وأن عليًّا ﷺ هو الخليفة المحق ، وسائر الخلفاء غاصبون ظالمون ، وهيج الكراهية للعرب عمومًا ، ولبني أمية خصوصًا ، وألَّب الناس على عثمان وألصق به من التهم ما هو بريء منه ، وأخيرًا تم له ولأتباعه القضاء على عثمان ، ثم جرت حرب الجمل وصفين ، ومن ظهور هذا الماكر اللعين تكوَّن مذهب التشيع ، وأخذ يتطور المذهب حتى وجد فيهم الغلاة بمرور الأيام ، وكفَّروا جميع الصحابة ما عدا سبعة أو اثنى عشر ، منهم عليّ بن أبي طالب ، وسلمان الفارسي ، وأبو ذر الغفاري ، والمقداد ، وقالوا : « إن المصحف الذين

أُنزل على محمد سرق عثمان منه ثلاثة أرباعه ، وما بقي إلا الربع » .

ثم ظهر التصوف وجنى على الدين الإسلامي ، وحاربه باسم الدين والزهد والعبادة ، وحربه ليس بالسنان والسيوف،ولكن ببث المباديء الهدَّامة كالقول بالحلول والاتحاد،وأن الولي يأخذ من حيث ما يأخذ الرسول،ولا يجب عليه أن يتقيد بالشريعة إذا بلغ درجة الكشف ، وأصبح يكاشف ويتجلى له اللوح المحفوظ ويأخذ منه ، ولا حاجة له إلى الرسول ، وقال بعضهم : تسقط عنهم التكاليف الشرعية عندما يبلغ هذه الدرجة المزعومة باستثناء قلة صالحة لم يتأثروا بهذا المذهب الكفري ، والتصوف خليط من الإسلام والمسيحية والفلسفة ومذهب البراهمة والبوذية ، ودخل التصوف في الشيعة كما دخل في أهل السُّنَّة .

ومن القرن الثامن عشر الميلادي زاد كيد دول الغرب والشرق للإسلام والمسلمين ، بغية القضاء عليهم وعلى دينهم وسلب خيراتهم ، فأخذوا يغزون الشرق تارة بالقوة ، وتارة بالمباديء الكفرية ، وأخرى بالديانات الهدامة ، ولما كان التصوف والتشيع مرتعًا خصبًا ومجالاً واسعًا لنبت نحل وديانات تلبس لباس الدين ، وتقضي على الإسلام والمسلمين ، وتهدم أسسه بالدعايات الخلابة والأُسس الكفرية ، فمن تلك النحل أنه تحت سمع وبصر الروس نبتت البابية والبهائية في إيران ، فأحاطتها دولة الروس ، إذ ذاك بالحماية والرعاية ، كما أيدتها الصهيونية والإنجليز .

ثم ظهرت القاديانية في الهند بإيعاز من الإنجليز حتى يقضوا على وحدة مسلمي الهند أولاً وغيرهم ثانيًا ، ويميتوا فيهم روح المقاومة والجهاد ، ويبثوا التفرقة بينهم ويشتتوا شملهم ، وترى ذلك واضحًا في حب ميرزا غلام أحمد القادياني للإنجليز ، والتفاني في ولائهم ، وفرض الطاعة على المسلمين لهم ، وتحريم جهادهم ، وسننقل شيئًا من كتابات ميرزا غلام أحمد القادياني تأييداً لما قلنا [1] .

إذا تمهد ما ذكرته لك ، فإليك الآن نبذة من تاريخ البابية والبهائية وديانتها الهدامة وشبهاتها السقيمة ، ثم نقفي على ذلك بذكر نبذة من تاريخ القاديانية وتعاليمها وشبهاتها وبيان بطلانها .

---

(١) سبق وأن كتبنا ونشرنا في مجلة التوعية ، (عام ١٣٩٦هـ) .

الميرزا علي محمد الباب الشيرازي :

ولد في شيراز عام (١٢٣٥هـ الموافق لعام ١٨١٩م) ، توفي والده وهو صغير ، فكفله خاله الميرزا علي الشيرازي ، وعهد به إلى الشيخ عابد أحد تلامذة كاظم الرشتي ، ورجاه أن يرعاه جيداً ، وينشؤه النشأة الصالحة ، ولم يدر أنه أوقع ابن أخته في الرشتية ، اشتغل في أيام شبابه بفن تسخير روحانيات الكواكب والدراسات الرياضية الفلسفية ، ولما رأى خاله شذوذاً في سلوكه نتيجة تلك الدراسات ، أرسله إلى كربلاء والنجف ، وكان عمره يومئذ عشرون عامًا ، فتتلمذ على السيد كاظم الرشتي ، فلازمه ملازمة شديدة ،وسقاه من تعاليمه المسمومة ،وأوحى إليه ما أوحى ، وعينه خلفًا له بعد موته ، وأفهمه بأنه هو الذي سيدعي المهدية والظهور .

وفي سنة (١٢٦٠هـ) أعلن الميرزا عن دعوته ، وكان عمره يومذاك خمسًا وعشرين سنة ، فادعى أولاً أنه الباب [١] إلى الإمام المنتظر ، ثم ادعى أنه هو نفسه ، وبعد ذلك ادعى النبوة ، ثم تعداها إلى ادعاء الربوبية عن طريق حلول روح الإله فيه .

وكان يدعو سرًا أحيانًا وجهرًا أحيانًا مثيرًا للفتن والقلاقل بين المسلمين ، حتى أصدر العلماء الفتوى بقتله لارتداده عن الإسلام وادعائه النبوة ، وتأكيده على إبطال الشريعة الإسلامية ، فنفذ فيه حكم الإعدام بأمر الشاه ناصر الدين القاجاري صبيحة يوم الاثنين عام (١٢٦٥هـ الموافق عام ١٨٤٩م) .

دين البابية :

قال الشيخ عبد الرحمن الوكيل : ـ الباب ـ يعتقد فيه البابيون أنه أتم وأكمل هيكل بشري ظهرت فيه الحقيقة الإلهية ، وأنه هو الذي خلق كل شيء بكلمته ، والمبدأ الذي ظهرت عنه جميع الأشياء ، أو هو كما يعبر « جولد زيهر » أرفع مراتب الحقيقة الإلهية التي حلت في شخصه حلولاً ماديًا وجسمانيًا ، وهو حقيقة كل نبي ورسول وقديس . أ هـ .

---

(١) فلذلك سميت دعوته بعد بالبابية ، ويعني بذلك أن الناس عن طريقه يتصلون بالغائب صاحب الزمان ، ويأخذون أوامره ونواهيه ، وكان كثيرًا ما يستشهد بالقول المشهور : « أنا مدينة العلم وعليّ بابها » يعني بذلك نفسه .

من عقائد الباب :

أنه كفر بالقيامة ، وأخذ بتفسير الباطنية فقال عنها : « إنها الروح الإلهية من مظهر بشري جديد » .

وعن البعث : أنه إيمان بألوهية هذا المظهر ، يعني نفسه .

وعن النـــار : أنها الحرمان من معرفة الله في تجلياته في مظاهر البشرية .

وعن الجنــة : أنها الفرح الروحي الذي يشعر به من يؤمن بالمظهر الإلهي .

شريعة الباب :

ألغى الباب الصلوات الخمس وصلاة الجماعة إلا في الجنازة ، وقرر أن الطُّهر من الجنابة غير واجب ، وأن القبلة هي البيت الذي ولد فيه بشيراز .

أما الصوم : فمن شروق الشمس إلى غروبها ، ومدته شهر بابي ، وعدته تسعة عشر يومًا .

أما الزكاة : فخمس العقار ،وتؤخذ في آخر العام من رأس المال ، وتعطى للمجلس البابي المؤلف من تسعة عشر عضواً .

العيد الرئيسي عندهم هو عيد النيروز مدته تسعة عشر يومًا ، وفي صباح كل جمعة يجب استقبال الشمس بالسلام .

نسخ جميع الأديان :

زعم الشيطان أن دينه نسخ جميع الأديان السابقة ، وأعلن أنه القائم والمظهر الإلهي الجديد ، وحرم على أتباعه جميعًا قراءة القرآن ، فقام البابيون بتحريف المصاحف ، وذر رمادها ، وكل امرىء لا يدخل دين البابية كافر جاحد مهدور الدم .

البهاء :

وكان البهاء في غاية من المكر والدهاء ، ونفاق من الزهد المكذوب ، من ذلك أنه أقام في صحاري ا لعراق ، وصرف سنتين وحده في فيافي الهجر ، وزعم أنه لم يرجع إلى بغداد إلا بوحي من الله ، وصمم البهاء على التمادي في غيِّه وضلاله ، فزعم أولاً أن الباب بشر به ، وأنه كان كممهد لظهوره ، وأن الباب منه بمنزلة يحيى من عيسى ،

وأن عيسى وموسى ومحمداً إنما جاؤو ليبشروا بمجيئه وظهور الله فيه ، وأن جميع الديانات جاءت مقدمات لظهوره ، وأنها ناقصة لا يكملها إلا دينه ، وأنه هو المتصف بصفات الله من دون الله ، وهو مصدر أفعال الله ، وأن اسم الله الأعظم اسم له ، وأنه هو المعني برب العالمين وأنه المعني ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)** ﴾ . [القيامة : ٢٢ ، ٢٣] .

دين البهائية :

اتفق دين البهائية والبابية في جل الأمور التي أتى بها الميرزا على محمد الباب ، غير أنه قال : « يجب التوجه إلى البيت الذي ولد به في شيراز ، وأن يحج إليه » .

القِبْلة : أوجب الباب أن يتوجهوا إلى البيت الذي ولد فيه بشيراز ، وأن يحجوا إليه ، بينما يقول البهاء في الأقدس : « إذا أردتم الصلاة ولوُّا وجوهكم شطري الأقدس المقام المقدس الذي جعله الله مطاف الملأ الأعلى » ، يعني : قصره في عكا ، أما بعد هلاكه فقبره هو قِبلة البهائية .

الزكاة : ألغى الباب فريضة الزكاة ، وأوجب الخُمس في آخر الحول ، وتعطى للمجلس البابي المؤلف من تسعة عشر عضواً ، بينما أوجب البهاء على من يملك مئة مثقال من الذهب أن يؤخذ منه تسعة عشر مثقالاً .

الحج : فمفروض على الرجال فقط لقصره في حياته في عكا ، ولقبره بعد موته .

العقوبات : ألغى الباب جميع العقوبات ، وقال البهاء في الأقدس : « كتب على السارق النفي والحبس ، وفي الثالث فاجعلوه في جبينه علامة يُعرف بها لئلا تقبله مدن الله ودياره » .

ويقول عن الزنا : « حكم الله لكل زانٍ أو زانية دية مسلمة إلى بيت العدل، وهي تسعة عشر مثقال من الذهب ، وإن مرة أخرى عودوا بضعف الجزاء » ، وهكذا يعيش بيت عدله على ثمن الأعراض ، ويكفي من يريد اقتراف هذه الخطيئة أن يدفع ثمنها لبيت العدل .

شُبهات البابية والبهائية على خاتم النبيين :

تتفق البابية والبهائية والقاديانية في الشبهات التي أوردوها ، وانفردت البابية والبهائية بثلاث شبهات ، وإلى القارئ البيان :

الشبهة الأولى : والجواب عنها :

هي أن شريعة الإسلام لم تعد صالحة لهذا العصر ، ولم تعد مقبولة في ظل الحضارة المادية الحاضرة ، وسوغ دعايته الضالة ، بقوله : « الإنسان ما زال في تطور ورقي، فكذلك الشرائع في تطور وتبدل على مقتضى الأزمان والأدوار، والشريعة التي تصلح لزمان قد لا تصلح لزمان آخر، فهذه الأمة المحمدية قد كانت مستظلة بسماء شريعة القرآن أكثر من اثني عشر قرنًا ، تركتها واستعاضت عنها بالقوانين الوضعية ، ولا تكاد تجد الآن دولة من دول أمة القرآن تحكم بشريعة القرآن كاملاً إلا في بعض الأحوال الشخصية ، وما ذاك إلا لأنهم لم يجدوا أنها تصلح لزمانهم هذا »(١) .

أقول وبالله التوفيق : « الجواب عن شبهة هذا الكذّاب » :

أما قوله : إن شريعة الإسلام لم تعد صالحة لهذا العصر .. إلخ ، فكلام باطل مسروق من كلام المستشرقين الذين يحملون الحقد الدفين على الإسلام والمسلمين ، ويطعنون في هذا الدين القيّم مثل هذا الطعن الذي لم يكتسب وصف الصحة يومًا قط ، ولم يتأيد ببرهان ، بل الشريعة الإسلامية شريعة كاملة وافية بحاجات البشر من يوم أن نزل من السماء على رسول رب العالمين وخاتم النَّبيين ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

والدليل الأول على ذلك قوله تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة : ٣] ، يصرح الله بكمال هذه الشريعة الغراء ، ويطعن فيها هذا الدجال بأنها لم تعد صالحة لهذا العصر ، يعني أنها ناقصة ، إن صلحت للعصر النَّبوي فلا تصلح لهذا العصر ، أي : فيحتاج الناس إلى

---

(١) من حقيقة البابية والبهائية ، للشيخ / محسن عبد الحميد نقلاً عن « التبيان والبرهان » (جـ٢ ، ص٧) .

نبي جديد ، وكذَّبَ في ذلك وقلب الحقائق وموه على خفافيش الأبصار ، وقال الله في آية أخرى : ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (١٥٣) ﴾ [الأنعام : ١٥٣] ، أمرنا الله باتباع سبيل القرآن والسُنَّة ، فلو كانت غير صالحة لما أُمرنا الله باتباعها .

وفي الحديث الشريف عن النَّبي عليه الصلاة والسلام : « **تركتكم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك** » .

قال أبو ذر رضي الله عنه : « لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً » أو كما قال .

والشريعة الإسلامية شريعة عالمية صالحة لجميع الأقوام والأجناس، وبالاختصار نقول: صالحة لسكان الكرة الأرضية كلهم خالدة،جاءت لتبقي على كر الدهور ومر العصور إلى يوم ينفخ في الصور،وما أتت الشريعة يومًا قط لقوم دون قوم أو لعصر دون عصر ، ومن ادعى خلاف هذا القول فقد كفر بالله العظيم ، واتبع غير سبيل المؤمنين. ولو ذهبنا نسرد الأدلة من الكتاب والسُّنَّة لطال بنا المقام ، ولكن نكتفي بالآيتين والحديث الآنف الذكر .

الدليل الثاني :

قلنا جاءت هذه الشريعة لتبقى دائمًا لا ينسخها ناسخ كما مر في باب النسخ[١] وأنها تعطي للثقلين متطلبات الحياة ، ولها رصيد من التشريعات لكل ما يفتقر إليه الناس في أمور دينهم ودنياهم،وفيها الاستعداد الكامل لحل كل مشكلة تحدث للأنام، وذلك لما في الكتاب العزيز والسُّنَّة المطهرة من القواعد والأُسس والنصوص العامة ، ما يتمكن منه المجتهد على اختلاف العصور والبلدان والمجتمعات ، أن يستخرج من الوحيين ما يحل كل مشكل ويحكم في كل نازلة ، وإن لم تكن حديث في عصر الرسول وأصحابه أو في العصور التي بعدهم .

---

(١) ذكرت في باب نسخ الشريعة الإسلامية للشرائع السابقة الأدلة النقلية والعقلية في هذا الجزء ، وقد مر .

وقوله : « والشريعة التي تصلح لزمان قد لا تصلح لزمان آخر ؟ » .

الجواب :

قد قدمنا غير مرة أن الشريعة الإسلامية جاءت صالحة لكل زمان ولكل بلد ومكان ، لما فيها من النصوص والقواعد العامة الباقية ما بقي الدهر ، والتي يمكن أن يستنبط منها المجتهد ما يحل كل مشكل ، ويعطي كل حادثة حكمها .

وقوله : « إن الأمة المحمدية يعني دولها استعاضت بالقوانين الوضعية . . . إلخ » .

الجواب :

إن التعميم الحاصل منه لجميع الأمة الإسلامية في كونها تركت أحكام الشريعة الإسلامية غير صحيح ، بل لازال ولله الحمد كثير من الدول تحكم بالشريعة المحمدية ، وأما احتجابه بالدول الآخذة بالقوانين فحجة أوهى من بيت العنكبوت ، إذ فعل هؤلاء ليس حجة على شريعة الله ورسوله ، هؤلاء الآخذون بالقوانين متأثرون بدعاية الغربيين والمستشرقين ، ولقلة عملهم بدين الإسلام الصحيح ، وما أتى به من حل كل المشاكل التي تحصل للبشر ، ومن خضوعهم لدول الغرب والشرق وجعل أنفسهم أذنابًا لهم ، تركوا بعض الأحكام الشرعية وجنحوا إلى القوانين الأوروبية ، أفي فعل هؤلاء حجة ؟ وأحوالهم معلومة من كونهم يدورون في فلك الدول المستعمرة ، لا يبالون بدين ولا بشريعة ، وبعضهم قد دخل في مبدأ الماسونية ، أُناس لا يعرفون الله ، ولا يخضعون لشريعة الله ، ويستبيحون المحرمات ، ويُقرون المنكرات في بلادهم ، فهل يحتج عاقل بفعل هؤلاء ؟ ، ولو فرضنا أن تنصر أو تهود بعض المسلمين ، أفيكون حُجة لليهود والنصارى على أن دين الإسلام غير صحيح ؟! ، والحجة دائمًا إما أن تكون عقلية أو نقلية ، والنقلية إما من كتاب ربنا أو من سُنَّة نبينا ، وليس هنا حجة لا من عقل ولا من نقل ، فإذا كان البهائي ومثله القادياني يعترف أن محمدًا رسول الله ، والرسول باتفاق المسلمين واليهود والنصارى وسائر الملل من صفاته الصدق وعدم الكذب ، فإذا كان كذلك ، فالرسول ﷺ قد أخبر إضافة إلى القرآن ، أن الله ختم به النبوة في أحاديث كثيرة متواترة ، والتواتر يفيد القطع بالاتفاق ، وقيام الدين البهائي لم يخف

على أحد أنه قام على أكتاف دول الروس ، وأن هذه الدولة هي التي حضنت البهائية وربتها ، ولما ترعرعت هذه الديانة وشبت وأعلنت كفرها الصريح وقُتِلَ الميراز علي محمد الباب ونُفي أتباعه ، احتضنهم الإنجليز وأوحي لهم أن يتخذوا عكا مركزاً لهم، ديانة هذه أصولها ، كيف يقبلها عاقل ويصدق بأنها سماوية ؟ .

والتشريعات التي أتى بها هي من السخف والهذيان بمكان لا يخفى،ويكفي أنه قد أباح الزنا لقاء مثاقيل من الذهب ، تؤخذ من الزاني لبيت الباب ، وكفى بهذا قبحًا وضالاً .

الشبهة الثانية : والجواب عنها :

الشبهة الثانية للبابية والبهائية على ختم النبوة بمحمد ﷺ هي :

أن الله قال : ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ولم يقل وخاتم المرسلين ؟ .

والجواب : عن هذه الشبهة السقيمة أن نقول :

إن الآية الكريمة نص في أن لا نبي بعده ، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأحرى ، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كان رسول نبي ولا ينعكس ، لأنه يلزم من ختم النبوة وهي الأعم ختم الرسالة وهي الأخص ، وذكر ذلك أكثر المفسرين ، وهذا من بلاغة القرآن ودقة تعبيره حيث لم يقل وخاتم المرسلين، لأنه لو قال كذلك لقال المتنبئون الكذَّابون : ولم يقل وخاتم النَّبيين على اعتبار خصوصية الرسالة ، ولكن الله قطع عليهم الطريق بقوله : ﴿ **وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ لأن الرسالة مبنية على النبوة ، فإذا احتجبت النبوة احتجبت الرسالة معها ، وهذا على القول بالفرق بين النَّبي والرسول كما هو قول الجمهور ، قائلين : إن النَّبي من أُوحي إليه بشرع ولم يُؤمر بتبليغه ، والرسول من أُوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه ، وقال بعضهم : إنهما مترادفان [1] فلا فرق بينهما ، واستدلوا بالآيات والأحاديث التي

---

(١) وقال بعضهم : إن الرسول من خصه الله بكتاب جديد وشريعة مستقلة ، بخلاف النَّبي أنه يشمل من له كتاب وشريعة جديدة ، ومن ليس كذلك من الأنبياء كأكثر أنبياء بني إسرائيل، ولا ينكر الجمهور إطلاق أحدهما في موضع الآخر توسعًا ومجازاً، فلا يرد عليهم إطلاق النَّبي والرسول على =

أطلقت لفظ الرسول والنَّبي على رجل واحد ، فإذا كان مترادفين ، فلا مستمسك للبهائية والقاديانية بأنه لم يقل وخاتم المرسلين كما لا يخفى .

والجواب الثاني أن نقول :

ذكر الله في القرآن آيات كثيرة تدل على انقطاع النبوة بعد محمد ﷺ ، منها قوله تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾[المائدة :٣] ، فإنها دلت على أنه تعالى أكمل لهذه الأمة دينه من جميع الوجوه ، بحيث يكفي لكافة الورى إلى يوم القيامة ، فلا حاجة لها إلى نبي بعد نبيها ﷺ ، ولا إلى دين غير دينها ، كما صرح به ابن كثير وعامة المفسرين ، وبالجملة فهذه الآية صرحت بختم النبوة ، وبه تجلى لك معنى الآية المذكورة .

■ **ومنها :** قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾[الأعراف : ١٥٨] ، فقد صرَّح بعموم بعثته لكافة الورى إلى يوم القيامة ، وهو إعلان بختم النبوة بعده عليه السلام .

■ **ومنها :** قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** (٢٨) ﴾[سبأ : ٢٨] .

■ **ومنها :** قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾[الأنبياء : ١٠٧] .

فإنه عليه السلام لما كان رحمة للعالمين كافيًا في هدايتهم ، فلا يحتاجون إلى الإيمان برسول أو نبي بعده ، بل جريان النبوة بعده عليه السلام يستلزم أن يُكَفِّر من أمته من لم يؤمن بأنبياء ما بعده بعدما آمن به عليه السلام واتبعه وعمل بشريعته ، وحينئذ لم يُبعث النَّبي ﷺ رحمة لجميع العالمين ، فقد صرحت الآية بختم النبوة بعده عليه السلام وبالجملة فكم من آية من القرآن دلت على أن المراد بكونه ﷺ خاتم النَّبيين آخرهم أجمعين من دون تأويل ولا تخصيص ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** (٢٤) ﴾ [محمد : ٢٤] .

= رجل واحد في بعض الآيات ، هذا ما صرح به القاضي عياض في شفائه، وابن الهمام في مسايرته ، ووقع مثله في حواشي شرح العقائد النسفية ، ونص عليه الحافظ في الفتح . أ هـ . ملخصًا من هدية المهديين في آية خاتم النَّبيين للشيخ محمد شفيع الديوبندي ـ رحمه الله ـ .

الشبهة الثالثة والجواب عنها :

هي أن قوله تعالى : ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ بمعنى : الزينة وهي الحلي المعروف ، وليس معنى الآية آخر النَّبيين كما يقول المسلمين ؟ .

والجواب :

عجبًا لهؤلاء الأعاجم الذين طبع الله على قلوبهم، فهم لا يفقهون ولا يسمعون ، بل ما زالوا في غيِّهم يعمهون ، أما علموا أن الله أنزل القرآن بلسان عربي مُبين ويؤخذ تفسيره :

أولاً : من القرآن نفسه ، لأنه إذا أجمل في آية فصلها في آية أخرى ، وقد ألَّف العلماء في تفسير القرآن بالقرآن تفاسير عديدة .

ثانيًا : ممن أُنزل عليه وهو الرسول العظيم ﷺ .

ثالثًا : من أصحابه الكرام الذي صحبوه ، وبذلك كانوا أدرى بمعانيه ، لما وهبهم الله من الفهم التام والعلم الصحيح ، ولما شاهدوا من القرائن والأحوال عند نزوله ، ولأنهم تعلموا القرآن من صاحب الوحي .

رابعًا : إذا لم يوجد تفسيره في الكتاب العزيز ، ولا في أحاديث الرسول ، ولا في تفاسير الصحابة ، يرجع إلى اللغة العربية ، ولكن يجب أن يعلم أن المعنى المحتمل من حيث اللغة يقبل ، إذا لم يخالف التفسير المأثور عن النَّبي ﷺ وأصحابه والسلف الصالحين بإجماع المسلمين .

وإذا فهمت ما قدمته لك فاقرأ ما أتلوه عليك :

إن لفظ الخاتم فيه قراءتان ، الأولى : « خاتِم » وهي المشهورة التي اختارها جمهور القراء بكسر التاء ، والثانية : « خاتَم » بفتح التاء ، وحيث جاءت فيه قراءتان وجب بيان معناهما ، فاعلم أن : « خاتِم » بكسر التاء يُطلق على معان :

[١] آخر القوم .

[٢] فاعل الختم .

[٣] الطابع .

[٤] الحلي المعروف للأصبع .

[٥] خاتم القفا ، أي : نقرته .

أما بفتح التاء « خاتَم » فيستعمل بمعنى آخر،وبمعنى الطابع الذي يوضع على الطينة .

قال الشيخ محمد شفيع الديوبندي ـ رحمه الله ـ :

« وإذا استقريت معاني الخاتَم والخاتِم فانظر أيها يكون مرادًا في الآية ، وأنت تعلم أن إطلاق الخاتَم والخاتِم على النَّبي بحسب المعاني الأخيرة لا يمكن إلا مجازًا كما هو ظاهر غني عن البيان ، ولا حاجة إلى ارتكاب المجاز لجواز إرادة الحقيقة بالمعنى الأول والثاني بلا تكلف ، فتبين أن المعنى الأول أو الثاني هو المراد في الآية لا غير ، سواء قرىء بفتح التاء أو بكسرها ، ثم مآل هذين المعنيين واحد ، فإن المعنى آخر النَّبيين على الأول ، والذي ختمهم على الثاني، ومرجعهما ههنا واحد ، قال في روح المعاني : خاتم النَّبيين الذي ختم النَّبيون به ، ومآله آخر النَّبيين ، وبمثله صرح الشيخ زاده في حاشيته على البيضاوي ، ثم ذكر بعض كلام علماء اللغة » . أ هـ [١] .

إذا تمهد ما سبق فأقول غير خاف : أن تفسير الآية بما فسره هذا الدجال ، يفتح باب النبوة على مصراعيه بعد خاتم النَّبيين سيدنا محمد ﷺ ، والقرآن يرد هذا التفسير كما سبق في الأجوبة للشبهة الثانية ، كما أن أحاديث الرسول وأقوال الصحابة والتابعين ترد هذا الزعم الفاسد ، وتصفع وجه صاحبها وتقول له : إنك لغويٌّ مُبين ، حيث أن الأحاديث التي بلغت مبلغ التواتر قد نصت على انقطاع النبوة والرسالة بعد محمد ﷺ ،كما أن المسلمين سلفًا وخلفًا بما فيهم من المذاهب المتعددة، قد أجمعوا على أن محمدًا خاتم النَّبيين والمرسلين ، وأنه لا نبي بعده إلى يوم الدين ، واللغة العربية ترده ومن أجل ذلك لما ادعى الميرزا على محمد الباب ، أنه رسول الله أوحى الله إليه ، حكم علماء الشيعة في المملكة الإيرانية بكفره وارتداده ، وأنه يجب قتله إن لم يتب ، ولما لم يتب قتله ناصر الدين القاجاري .

(١) من هداية المهديين .

قال الدكتور محمد عبد الحميد نقلاً عن الشيخ محمد الكاظمي القزويني :

على أنا لو سلمنا جدلاً صحة ذلك ، لكان على بطلان دعوى التبيان [١] أدل ، وذلك لأنه إذا كان رسول الله ﷺ زينة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأنهم يتزينون به كما يقول ، لزم أن يكون أفضلهم قطعًا ، والأفضل لا يصح أن تختم بنبوته بمن هو دونه ، كما لا يصح التقدم عليه ، يقبح ذلك في أوائل العقول ، وعليه يجب أن يكون خاتمهم ، لأنه به كمالهم وتمامهم ، وتلك قضيته على حد تعبيره .

وأقول : إذا كان هذا القول صحيحًا ، وإذا كان الأنبياء سابقين ولاحقين يتزينون برسول الله لأنه أفضلهم ، فكيف جاز لهم أن ينسخوا أحكامه ؟ ويبطلوا قرآنه ؟ ، كما ادعى بذلك الكذابان الباب والبهاء . أ هـ [٢] .

---

(١) « التبيان والبيان » كتاب بهائي لمؤلفه أحمد حمدي وهو محشو بتأويلات باطنية وتوجيهات سخيفة ، ومفعم بالأباطيل والأكاذيب التي يسمو عليها الإنسان العاقل المثقف .

(٢) البهائية في الميزان .

القاديانية

ميرزا غلام أحمد القادياني

ولد ميرزا غلام أحمد بن غلام مرتضى في سنة (١٨٣٩م) ، ويوافق (١٢٥٥هـ أو سنة ١٨٤٠م) في مدينة قاديان إحدى مدن مقاطعة بنجاب بالهند ، في بيت من البيوتات التي اشتهرت بخدمة سياسة الإنجليز الاستعمارية ، وتوفي في مايو سنة (١٩٠٨م) ، بمرض الهيضة « الكوليرا » وفي سنة (١٨٨٠م) ظهر الميرزا غلام أحمد كأحد الدعاة إلى الإسلام والمناظرين لخصومه من غير المسلمين حتى سنة (١٨٨٨م) وبدأ منذ أوائل سنة (١٨٨٩م) يأخذ منهم البيعة ويدعي أنه مجدد العصر مأمور من الله ، ويظهر للناس مماثلته للمسيح الموعود ، والمهدي المعهود .

وفي سنة (١٩٠٠م) بدأ الخواص من أتباعه يلقبونه بالنَّبي صراحة ، أما ميرزا غلام أحمد فكان يصدقهم تارة ويحاول إقناع الذين كانوا مترددين في الإيمان بنبوته، بتأويل نبوته بكلمات النَّبي الناقص ، والنَّبي الجزئي ، أو النَّبي المحدث ، وفي سنة (١٩٠١م) أعلن الميرزا بوجه سافر أنه النَّبي والرسول ، ولم يقيد نبوته ورسالته بكلمات النقص أو الجزئية أو المحدثية ، وفي هذا يقول الميرزا بشير الدين محمود بن أحمد أحد أتباعه : إن الميرزا غيَّر عقيدته في سنة (١٩٠١م) ، وكانت هذه السنة فترة انتقال من العقيدة الأولى إلى العقيدة الثانية وهي النبوة ، وصار كلامه السابق منسوخًا ، وفي سنة (١٩٠٤م) أضاف الميرزا دعوى جديدة إلى دعاواه السابقة وهي إنه كرشن [(١)] ، وبعد أن كان يقول بأن لا نبي بعد محمد ﷺ مثل قوله : « ولا يجوز أن يأتي أحد بعد نبينا من حيث هو نبي مرسل من الله » [(٢)] .

« لا يجوِّز القرآن أن يأتي رسول بعد خاتم النَّبيين جديدًا كان أو قديمًا »[(٣)] .

كما قال بعد كلام : « إن كل من يدعي النّبوة بعد سيدنا ومولانا محمد ﷺ ،

---

(١) وهم يعتقدون فيه ما يعتقد المسلمون في الله عز وجل ، وكرشن هذا معبود من معبودي الهنداك .
(٢) من كتاب البرية لميرزا غلام أحمد القادياني ، (ص ١٤٤) .
(٣) إزالة الأوهام لميرزا غلام حمد ، (ص ٥٧٧) .

هو كاذب وكافر »[١] .

بعد هذه التصريحات التي صرح بها غير مرة أعلن دعواه النبوة ، فقال : « أحلف بالله الذي في قبضته روحي ، هو الذي أرسلني وسمَّاني نبيًّا ، وناداني المسيح الموعود ، وأنزل لصدق دعواي بينات بلغ عددها ثلاثمائة ألف بيِّنة »[٢] .

ويقول : « إن الله أرسل لإثبات رسالتي آيات ، لو وزعت على ألف نبي لثبتت بها رسالتهم ، ولكن الشياطين من الناس لا يصدقون هذا »[٣] .

وكتبت جريدة قاديانية « الفضل » : « إن غلام أحمد كان نبيًّا ورسولاً في المعنى الذي يراد به الأنبياء والرسل السابقون » .

ويقول الغلام : « والله العظيم أؤمن بوحيي كما أؤمن بالقرآن وبقية الكتب التي أُنزلت من السماء ، وأنا أُؤمن بأن الكلام الذي ينزل عليّ ينزل من الله ، كما أؤمن بأن القرآن نزل من عنده »[٤] .

« وقد زعموا - أي المسلمين - أن خزائن الله قد نفدت ، وما زعمهم هذا إلا لأنهم لم يقدروا الله حق قدره ، وإلا فإني أقول إنه لا يأتي نبي واحد فقط ، بل يأتي ألوف من الأنبياء »[٥] .

خدمات الميرزا في تأييد الحكومة الإنجليزية :

قال : لقد نشرت خمسين ألف كتاب ورسالة وإعلان في هذه البلاد وفي البلاد الإسلامية ، تفيد أن الحكومة الإنجليزية صاحبة الفضل والمنَّة على المسلمين ، فيجب على كل مسلم أن يطيع هذه الحكومة طاعة صادقة ، وقد ألَّفت الكتب في اللغات الأردوية والعربية والفارسية ، وأذعتها في العالم الإسلامي ، حتى وصلت وذاعت في البلدان المقدسين مكة والمدينة ، وفي الأستانة وبلاد الشام ومصر وأفغانستان ، وكان

---

(١) نشرة من الميرزا غلام أحمد المنشورة في (٢ / ١٠ / ١٨٩١م) وهي مندرجة في تبليغ الرسالة (جـ ٢ ص ١٢) ، أ . هـ ملخصًا من كتاب « ما هي القاديانية لأبي الأعلى المودودي » .

(٢) تتمة حقيقة الوحي ، لغلام أحمد القادياني (ص ٦٨) .

(٣) عين المعرفة (ص ٣١٧) لغلام أحمد القادياني .

(٤) حقيقة الوحي (ص ٢١١) لغلام أحمد القادياني .

(٥) أنوار الخلافة ، تأليف الميرزا بشير الدين محمد أحمد ، (ص ٦٢) .

نتيجة ذلك أن أقلع ألوف من الناس عن فكرة الجهاد التي كانت من وحي العلماء[١] الجامدين ، وهذه مأثرة أتباهى بها، يعجز المسلمون في الهند أن ينافسوني فيها [٢] .

تكفيره للمسلمين :

يقول حضرة الميرزا : « أن لا بأس بالزواج من بنات غير الأحمديين ، لأنه من الجائز الزواج من بنات أهل الكتاب » [٣] .

« نعلن ليعرف الجميع أنه لا يجوز لأحمديين أن ينكحوا بناتهم من غير الأحمديين ، وعليهم بأخذ الحيطة في هذا الباب في المستقبل » [٤] .

« إن حضرة المسيح عليه السلام ما صلى على ولده الميرزا أفضل أحمد ، لا لشيء إلا لأنه كان من غير الأحمدية » .

موجبات كفر الميرزا غلام أحمد القادياني :

[١] ادعاؤه النبوة ادعاءً صريحًا، وجعل نفسه كالأنبياء السالفين، بل أفضل منهم .

[٢] إلغاؤه جهاد الكافرين خدمة لأسياده المستعمرين .

[٣] تكفيره لجميع المسلمين الذين لا يعترفون بنبوته ورسالته .

[٤] الولاء والطاعة للحكومة الإنجليزية ، وهذان من معتقدات الميرزا غلام أحمد وأتباعه الأصولية .

[٥] الحج هو الحضور في المؤتمر السنوي في القاديان ، فيقول ابن الغلام وخليفته الثاني :« إن مؤتمرنا السنوي هو الحج ،وأن الله اختار المقام لهذا الحج القديان » .

[٦] تشبيه الله بالبشر ، فقال المتنبيء القاديان غلام أحمد « قال لي الله : إني أصلي

---

(١) كذب الدجال ، بل الجهاد من وحي القرآن والسُنَّة ، ولا تخفي آيات الجهاد وأحاديثه التي زخرت بها كتب السُّنَّة إلا على جاهل أو متجاهل أو متنبيء ، كذاب يريد خدمة المستعمرين وإذلال المسلمين كالميرزا غلام أحمد ، ومحمد علي الباب ، وعبد البهاء ومن دار في فلكهم واتبع نهجهم المعوج .

(٢) أ . هـ . من ستارة قيصر تاليف الميرزا غلام أحمد « من القادياني والقاديانية » للشيخ أبي الحسن الندوي .

(٣) جريدة الفضل (١٦/١٢/١٩٢٠م) .

(٤) إعلان مراقب الأمور العامة « بقاديان » المنقول من جريدة الفضل (١٤/٢/١٩٣٣م) .

وأصوم وأصحو وأنام » .

[٧] التناسخ والحلول كما قال العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي : في عبارات الميرزا ما يدل على حقيقة التناسخ والحلول ، وعلى أن الأنبياء تتناسخ أرواحهم ، ويتقمص روح بعضهم وحقيقتهم جسد بعضهم ، وتظهر في مظهر الآخر ، كما في صريح عبارته في « ترياق القلوب » .

[٨] الطامة الكبرى :« أنه ابن الإله » وادعى أنه مظهر لكرشن ، وأنه برز فيه وتجلى ، وخاطبه الله مرة بقوله : « اسمع يا ولدي » ، يا قمر يا شمس ، أنت مني ، وأنا منك ، « ظهورك ظهوري » .

وبعد أن أتيت بنبذة كافية ، وإن كانت وجيزة عن دعاية ميزرا غلام أحمد الضال المضل المتنبيء الكذَّاب ، فلا بأس أن أذكر للقاريء شبهاته التي استند إليها في دعوى النبوة :

الشبهة الأولى : زعمه أن النبوة لم تختم بنبوة سيدنا محمد ﷺ وإبطال هذه الشبهة :

قال : وكلمة ﴿ **وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، في الآية الشريفة ليست بدليل على أن لا نبي بعد سيدنا محمد ، لأن خاتم ليس بمعنى آخر ، ولكن بمعنى أفضل، يعني: أن محمداً ﷺ أفضل النَّبيين لا بمعنى انقطاع النبوة بعده، فلذا ادعى النبوة ، وفتح باب النبوة على مصراعيه لغيره .

الجواب :

إن الله أنزل القرآن بلغة العرب ، كما قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴿٢﴾ ﴾[يوسف : ٢]، ولم ينزله بلغة العجم والفُرس والهنود وغيرهم ، والرسول ﷺ أفصح العرب والصحابة وغيرهم من فصحاء العرب ، ومن جاء بعد ذلك من التابعين وفيهم الشعراء والأدباء ، والبلغاء ما يفوق العد والإحصاء ، ولم يقل أحد من الصحابة ولا من التابعين ولا من أتباعهم من الفقهاء والمحدثين واللغويين من أن خاتم النَّبيين أفضل ، بل كلهم فهموا من الآية وجزموا واعتقدوا أن النبوة خُتمت

بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وها هي القواميس والمعاجم العربية بين أيدينا ، هل فيها حرف واحد مما زعمه هذا الكذّاب ، كما أن كل نبي باتفاق من المسلمين ومن اليهود والمسيحيين وغيرهم، وحتى من ميرزا غلام أحمد هذا المتنبيء ، أن يكون النَّبي صادقًا معصومًا من الكذب فإن كان كذلك ، فقد وردت الأحاديث العديدة الكثيرة التي بلغت مبلغ التواتر عن النَّبي أنه خاتم النَّبيين ، وأنه لا نبي بعده ، **ومن تلك الأحاديث :**

[١] ما جاء في البخاري في كتاب المناقب، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ومسلم في باب الإمارة، وأحمد في مسنده،قال النَّبيﷺ :«**كانت بني إسرائيل تسوسهم الأنبياء ،كلما هلك نبي خلفه نبي ، وأنه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء** » .

[٢] وقال عليه الصلاة والسلام كما أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه : « **فُضلت على الأنبياء بست : أُعطيت جوامع الكلم ، ونُصرت بالرعب ، وأُحلت لي الغنائم ، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا ، وأُرسلت إلى الخلق كافة ، وخُتم بي النَّبيون** » . وذكرت كثيرًا من الأحاديث في كتابي القاديانية .

الشبهة الثانية : زعم الكذاب أن معنى الخاتم المهر وإبطالها ، أنه ﷺ يمهر الناس وبمهره يصير الواحد نبيًا .

الجواب :

أولاً : إن هذا الكلام سخيف لا يعرفه العرب ، وإنما هو من مخترعات هذا الكذاب ، وبهذه السفاهة والأكاذيب يريد أن يصبح نبيًا متبوعًا ، ويريد أتباعه أن يثبتوا نبوة متنبئهم الكذاب ، ليخدعوا به المسلمين ، ويخدموا مصالح المستعمرين .

ثانيًا : إذا كان هذا المتنبيء رسولاً أرسله الله ، فأي حاجة أن يمهره سيدنا محمد ، مع العلم أن الرسول قد انتقل إلى الرفيق الأعلى في عالم غير هذا العالم ، فأين اتصل به حتى يمهره ؟، وهذا المتنبيء زعم أن الله كاشفه وخاطبه وأرسله ، فأي حاجة إلى الرسول ﷺ لكي يختم له ؟! .

ثالثًا : ليس في كتب اللغة ولا في قواميسها أن الخاتم يكون بمعنى المهر ، وإذا كان

معنى الخاتم الطابع ، فليس يراد به الطابع الذي يطبع به على الرسل في دائرة البريد عند توزيعها ، وإنما المراد به الطابع الذي يطبع به على الغلاف حتى لا يدخل فيه شيء ولا يخرج منه شيء ، وعليه فإذا كان الخاتم بمعنى الطابع بهذا المعنى الصحيح ، فقد ختم الله النبوة بمحمد عليه الصلاة والسلام بحيث لا يأتي نبي بعده .

والحاصل أن كلام هذا السخيف قُبحه واضح ، وكذبه أوضح من الشمس في رابعة النهار ، لا يحتاج إلى كبير جهد وعناء ، ولا سيما لمن استقرأ أحواله من حين ولادته إلى حين وفاته وتطوراته وتفانيه في حب الإنجليز ، فيعلم علمًا جازمًا أن هذا الرجل كذاب ، وأنه صنيعة من صناعة الدول البريطانية ، وكفى ذلك قُبحًا وضلالاً ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

فصل
فضائل آل البيت النبوي

حب النَّبي وآله الكرام — فرض محتم على الأنام
ففضلهم قد جاء في الكتاب — وفي الأحاديث بلا ارتياب

عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة ، أنهم يرون حب أهل البيت فرضًا ، لأنهم من ذرية رسول الله ﷺ ، وحب الرسول ﷺ واجب على كل مسلم ، فأهل السُّنَّة لا يفرقون بين الصحابة وأهل البيت رضي الله عنهم أجمعين ، فكما يحبون صحابته ﷺ فإنهم يحبون أهل بيته ﷺ ، بل يرون حُب أهل البيت آكد من حب الصحابة رضي الله عنهم .

وما أحسن ما قال بعضهم :

يا أهل بيت رسول الله حبكم — فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم الفضل أنكم — من لم يصلِّ عليكم لا صلاة له

وهذا القول يوافق مذهب الشافعي في بعض أقواله : إن الصلاة على الآل في التشهد الأخير فرض ، فمن لم يصلِّ عليهم لا تصح له الصلاة ، ولكن المعتمدة أن الصلاة عليهم سُنَّة مؤكدة .

ذكر بعض الآيات في فضائل أهل البيت النبوي :

[١] قال تعالى :﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

قال كثير من المفسرين : إن الآية نزلت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم ، لتذكير ضمير عنكم وبعده .

وقيل : نزلت في نسائه ﷺ لقوله تعالى في الآية التالية لها :﴿ **وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ** ﴾ [الأحزاب : ٣٤] ، ونسب لابن عباس رضي الله عنهما

لأنهن في بيت سكناه ﷺ ، واعتمده جمع ورجّحوه وأيده ابن كثير بأنهن ﵅ سبب النزول .

ثم إن هذه الآية منبع فضائل أهل البيت النبوي،لاشتمالها على غرر من مآثرهم ، والاعتناء بشأنهم ، حيث ابتدئت بإنما المفيدة لحصر إرادته تعالى في أمرهم على إذهاب الرجس، الذي هو الإفك أو الشك فيما يجب الإيمان به عنهم، وتطهيرهم من سائر الأخلاق والأحوال المذمومة .

ومن تطهيرهم تحريم صدقة الفرض - بل والنفل - على قول لمالك - عليهم لأنها من أوساخ الناس - مع كونها تنبيء عن ذل الآخذ وعز المأخوذ منه ، وعوضوا عنها خُمس خُمس الفيء والغنيمة المنبيء عن الآخذ وذل المأخوذ منه ، ومن ثم كان المعتمد دخول أهل البيت النبوي النسب في الآية ، ولذا اختصوا بمشاركته ﷺ في تحريم صدقة الفرض « الزكاة والنذر والكفارة وغيرها » .

[٢] قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴿٥٦﴾ ﴾[الأحزاب : ٥٦] .

صح عن كعب بن عجرة قال : لما نزلت هذه الآية قلنا : يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك ، فكيف نصلي عليك ؟ ، فقال : « **قولوا اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ...** » إلخ .

فسؤالهم بعد نزول الآية وإجابتهم باللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ... إلخ، دليل ظاهر على أن الأمر بالصلاة على أهل بيته وبقية آله مراد من هذه الآية ، وإلا لم يسألوا عن الصلاة على أهل بيته وآله عقب نزولها ولم يجابوا بما ذكر ، فلما أجيبوا به دل على أن الصلاة عليهم من جملة المأمور به ، وأنه ﷺ أقامهم في ذلك مقام نفسه، لأن القصد من الصلاة عليه مزيد تعظيمه ومنه تعظيمهم، ومن ثم لما أدخل من مر - وهم عليّ وفاطمة والحسن والحسين - في الكساء ، قال : « **اللهم إنهم مني وأنا منهم ، فاجعل صلاتك ورحمتك ومغفرتك ورضوانك عليَّ وعليهم** » .

وأما الأحاديث الواردة في فضائلهم فكثيرة ، ومنها :

[١] حديث مسلم عن زيد بن أرقم قال : قام فينا رسول الله ﷺ خطيبًا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « **أما بعد ، أيها الناس إنما أنا بشر مثلكم ، يوشك أن يأتيني رسول ربي عزَّ وجلَّ فأجيبه ، وإني تارك فيكم الثقلين ، أولهما : كتاب الله عز وجل ، فيه الهدى والنور ، فتمسكوا بكتاب الله عزَّ وجلَّ ، وخذوا به** » ، وحث فيه ورغَّب فيه ثم قال : « **وأهل بيتي أذكركم الله عز وجل في أهل بيتي** » ثلاث مرات ، فقيل لزيد : من أهل بيته ؟، أليس نساؤه من أهل بيته ؟ ، قال : بلى ، إن نساءه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حرم عليهم الصدقة بعده، قال : ومن هم ؟ ، قال : هم آل عليّ ، وآل عقيل ، وآل عباس ، قال : كل هؤلاء حُرِمَ عليهم الصدقة ؟ ، قال : نعم .

وفي بعض الروايات : حثَّ النَّبي ﷺ على الكتاب والسُّنَّة مقتصرًا عليهما ، وهنا ذكر أهل البيت ولم يذكر السُّنَّة ، لأن السُّنَّة داخلة في الكتاب .

[٢] قال العلامة ابن حجر في الصواعق : صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال على المنبر: « **ما بال أقوام يقولون : إن رحم رسول الله لا ينفع قومه يوم القيامة ؟ ، بلى والله إن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة** » .

[٣] عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، عن النَّبي ﷺ أنه قال : « **يا أيها الناس ، ارقبوا محمدًا في أهل بيته** » [أخرجه البخاري] .

[٤] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **أحبوا الله لما يغذوكم به ، وأحبوني لحب الله ، وأحبوا أهل بيتي بحبي** » . [أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب » .

[٥] عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من أبغض أهل البيت فهو منافق** » [أخرجه أحمد في المناقب] .

هذه الأحاديث في فضل آل البيت من حيث العموم ، أما من حيث الخصوص فأفضلهم الخليفة الراشد الرابع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وسيأتي الكلام عنه

بالتفصيل ، كما سيأتي الحديث عن الحسن والحسين وفاطمة ﷺ .

فضائل آل لابيت ﷺ من حيث الخصوص :

[١] أخرج الترمذي وابن حبان عن أسامة بن زيد أن النَّبي ﷺ قال : « **هذان ابناي ، وابنا ابنتي ، اللهم إني أحبهما فأحبهما ، وأحب من يحبهما** » .

[٢] أخرج البخاري وأبو يعلى وابن حبان والطبراني والحاكم عن أبي سعيد أن النَّبي ﷺ قال : « **الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، إلا ابني الخالة عيسى ابن مريم ،ويحيى بن زكريا ، وفاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم** » .

[٣] وأخرج أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي بكرة أن النَّبي ﷺ قال : « **إن ابني هذا سيد ، ولعل الله يُصلح به بين فئتين من المسلمين** ، - يعني الحسن - » .

[٤] وأخرج البخاري في الأدب المفرد ، والترمذي وابن ماجه عن يعلى بن مرة ، أن النَّبي ﷺ قال : « **حسين مني وأنا منه ، أحب الله من أحب حسيناً** » .

[٥] أخرج الترمذي عن أنس أن النَّبي ﷺ قال : « **أحب أهل بيتي إليَّ ، الحسن والحُسين** » .

[٦] أخرج الشيخان عن فاطمة ﷺ أن النَّبي ﷺ قال لها : « **إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة ، وأنه عارضني العام مرتين ، ولا أراه إلا حضر أجلي ، وإنك أول أهل بيتي لحاقًا بي ، فاتقي الله واصبري ، فإنه نعم السلف أنا لكِ** » .

[٧] أخرج أحمد والترمذي والحاكم عن ابن الزبير أن النَّبي ﷺ قال : « **إنما فاطمة بضعة مني ، يؤذيني ما آذاها ، وينصبني ما أنصبها** » .

[٨] أخرج الشيخان عنها أن النَّبي ﷺ قال لها : « **يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين ؟** » .

[٩] أخرج الترمذي والحاكم عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النَّبي ﷺ قال : « **أحب أهلي إليَّ فاطمة** » .

[١٠] أخرج الحاكم عن أبي سعيد أن النَّبي ﷺ قال : « **فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران** » .

[١١] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن النَّبي ﷺ قال لعلي : « **فاطمة أحب إليَّ منك ، وأنت أعزَّ عليَّ منها** » .

فضائل أصحاب رسول الله ﷺ
من القرآن والحديث

فأفضل الأنام بعد الأنبيا صحب الرسول الأتقيا الأصفيا
ترتيبهم في الفضل كالخلافة ومن يخالف فانبذن خلافه

لا يخفى على أحد ممن قرأ تاريخ الرسول وسيرته وتاريخ أصحابه ﷺ من المسلمين وغيرهم ، أنهم قد حازوا قصب السبق والفضائل بما قاموا به من خدمة عظيمة، ومبادرات كريمة لنصر هذا الدين الحنيف بتأييدهم لرسول الله ﷺ ونصره له، ومواقفهم مشهورة معلومة لا ينكرها إلا من طمس الله بصيرته ، وهل ظهر هذا الدين الحنيف إلا بالله أولاً ثم بما قاموا به من نصر وجهاد وبذل نفوس وأموال ، حتى أن بعضهم كان يقتل قريبه في الجهاد ؛ ويتبرأ من أخيه إذا كان مُشركًا ؟ ، وكذلك أثنى الله عليهم في كتابه الكريم في آيات عديدة ، أذكر منها ما تيسر :

[١] قال تعالى في سورة آل عمران ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

هذه الآية نص صريح في كون هذه الأمة المحمدية أفضل من جميع الأُمم التي دانت بالدين الإلهي وصدقت الرسل ، ومدح عظيم لها على تفوقها على الأُمم قبلها بهذه الأوصاف ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله .

وإذا تقرر هذا فهذا الخطاب ـ الذي تشرفت به هذه الأُمة النَّبيلة ـ موجه مباشرة إلى جميع الصحابة ﷺ ، وإلى من بعدهم من الأُمة بطريق التبع ، وقد ثبتت أحاديث كثيرة في فضل هذه الأُمة وفي كونها مرحومة ، وفي كثرتها ودخولها الجنة ، فمنها :

﴿ **أ** ﴾ ما أخرجه الإمام البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى** » ، قالوا ومن يأبى؟، « **من أطعاني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى** » .

﴿ **ب** ﴾ وأخرج الترمذي عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « **إن الله**

لا يجمع أُمتي على ضلالة، ويد الله على الجماعة، ومن شذ شذ في النار » .

﴿ جـ ﴾ وأخرج الشيخان عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ليدخلن الجنة من أُمتي سبعون ألفًا أو سبع مئة ألف ، متماسكين آخذ بعضهم بيد بعض ، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم ، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر** » .

﴿ د ﴾ وأخرج الشيخان والإمام أحمد والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « **خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته** » .

فإذا كان هذا الفضل العظيم في هذه الأحاديث التي ذكرتها وما لم أذكره أكثر في هذه الأُمة ، فلا يرقى أدنى شك ولا ريب ، أن الصحابة الكرام هم المقدومون في الفضائل والدرجات .

[٢] قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ **الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)** ﴾ . [آل عمران : ١٧٢ ، ١٧٣] .

اشتملت هذه الآية على مدح عظيم للصحابة رضي الله عنهم بقوة الإيمان والصبر على البلاء ، وتفويض كل الأمور باللجوء إلى الله تعالى ، وعلى وعده تعالى للمحسنين المتقين منهم بالثواب العظيم ، وقد فعلوا رضي الله عنهم ما وعدهم بالثواب عليه ، ولا خلاف بين العلماء أن الذين استجابوا لله والرسول ، هم المهاجرون والأنصار الذي حضروا معه ﷺ وقعة أُحد ، أجابوه في ثاني يومها حين دعاهم إلى الخروج وراء قريش قال لهم : « **ولا يخرج معنا إلا من حضر أحدًا** » ﴿ **مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ** ﴾ الجروح الكثيرة بأحد ، فخرجوا معه مع ما بهم من القروح صابرين راضين حتى بلغوا حمراء الأسد ، ولم يدركوا قريشًا ﴿ **الَّذِينَ** ﴾ بدل من الذين السابق ﴿ **قَالَ لَهُمُ النَّاسُ** ﴾ أي : ركب من عبد القيس مروا بأبي سفيان قاصدين المدينة فدسهم إلى المسلمين ليثبطوهم عن

الخروج وراء قريش ويخوفونهم منهم ﴿ إِنَّ النَّاسَ ﴾أي قريشًا ﴿ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ أي : عزموا على الرجوع إليكم ليستأصلوا بقيتكم في زعمهم ﴿ فَاخْشَوْهُمْ ﴾أي : خافوهم واحذروهم فإنه لا طاقة لكم بها ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ﴾أي : زاد ذلك التخويف من الركب المسلمين تصديقًا ويقينًا وقوة في دينهم وثباتًا على نصر نبيهم ﷺ .

[٣] قال تعالى في سورة التوبة : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) ﴾[التوبة : ١٠٠] .

هذه الآية صريحة في تفضيل المهاجرين والأنصار ومن اتبعهم من بعدهم بإحسان شرط في التابعين أن يتبعوهم في أعمالهم الحسنة دون السيئة ، لأنهم غير معصومين من الهفوات لكنها مغفورة لهم . أ هـ [١] .

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ، ورضاهم عنه بما أعد لهم في الجنات من النعيم المقيم ، روى محمد بن كعب القرظي : مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ ، فأخذ عمر بيده ، فقال : من أقرأك هذا ؟ ، قال : أُبي بن كعب ، فقال : لا تفارقني حتى أذهب بك إليه ، فلما جاءه ، قال : أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا ، قال : نعم ، قال : وسمعتها من رسول الله ﷺ ؟ ، قال : نعم ، قال : لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا ، فقال : إني أره تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ﴾ [الجمعة : ٣] ، وفي سورة الحشر : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾[الحشر : ١٠] ، وفي الأنفال : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ ﴾[الأنفال: ٧٥] ، رواه ابن جرير .

فياويل من أبغضهم أو سبهم ـ كلهم أو بعضهم ـ ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول ، وخيرهم وأفضلهم ، أعني الصدِّيق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي

---

(١) من إتحاف ذوي النجابة ملخصًا .

قحافة رضي الله عنه ، فكل من يبغضهم أو يسبهم ، فإن عقولهم معكوسة ، وقلوبهم منكوسة، وأين هؤلاء من القرآن الذي وصفهم بالآية : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ ﴾ فيسبُّون من رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأما أهل السُّنَّة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه ، ويسبون من سبَّه الله ورسوله ، ويوالون من يوالي الله ورسوله ، ويعادون من يعادي الله ورسوله ، وهم متبعون لا مبتدعون ، ويقتدون ولا يبتدعون ، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون (١) .

[٤] وقال الله تعالى في سورة الفتح : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) ﴾[الفتح : ١٨] .

هذه البيعة هي بيعة الرضوان ، وكانت بالحديبية وعدد المبايعين له عليه الصلاة والسلام فيها ألف وخمسمائة من الصحابة كما في الصحيحين من رواية جابر بن عبد الله ، ومجمع بن جارية رضي الله عنهم ، فصرح تعالى برضاه عن هذا العدد منهم ، ومن رضي عنه تعالى لا يمكن موته على الكفر ، لأن العبرة بالوفاة على الإسلام ، فلا يقع الرضا منه تعالى إلا على من علم موته على الإسلام ، وأما من علم موته على الكفر فلا يمكن أن يخبر بأنه رضي عنه ، فعلم أن كلا من هذه الآية وما تقدم قبلها ، وما سيأتي بعدها صريح في الرد على المبتدعة القائلين : إنهم ليسوا بمؤمنين ، وكل من قال : إنهم ليسوا بمؤمنين فهو غير مؤمن بالقرآن ، إذ يلزم من الإيمان به الإيمان بما فيه ، وقد علم أن الذي فيه أنهم خيار عدول ، وأنهم خير الأُمم ، وأنه رضي عنهم وأن الله لا يخزيهم ، فمن لم يصدق بذلك فهو جاحد مُلحد مارق ، وقوله تعالى : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ يعني : من الصدق والإخلاص والوفاء ، كما علم ما في قلوب المنافقين من المرض والنفاق ﴿ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ ﴾ يعني : الطمأنينة ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على المؤمنين المخلصين ، حتى ثبتوا وبايعوك على الموت وعلى أن لا يفروا .

وفي هذه الآية لطيفة : وهي أن هذه البيعة كانت في طاعة الله وطاعة رسوله

---

(١) أ . هـ . من اختصار تفسير ابن كثير محمد نسيب الرفاعي .

ﷺ ، وذلك موجب لرضوان الله عزَّ وجلَّ ، وهو موجب لدخول الجنة ، ويدل عليه قوله تعالى في الآية المتقدمة : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ [النساء : ١٣]، فثبت بهذا البيان أن أهل بيعة الرضوان من أهل الجنة ، ويشهد له حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في صحيح مسلم قال: قال رسول الله ﷺ : « **لا يدخل النَّار أحد ممن بايع تحت الشجرة** » ، وقوله تعالى : ﴿ **وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا** ﴾ ، إخبار بغيب ومعجزة له ﷺ ، فالفتح القريب فتح خيبر ، والمغانم الكثيرة ، مغانمها من نخيل وعقار وغيرهما ، وكانت الحديبية في آخر السنة السادسة للهجرة من ذي القعدة ، وخيبر في أول محرم السنة السابعة للهجرة ، وقد حضر فتح خيبر جميع من حضر الحديبية من الصحابة رضي الله عنهم . أ هـ [١] .

تنبيــه :

لا يفهم من هذه الآية أن الإيمان والفضل مختصان ببيعة أهل الرضوان ، بل الصحابة كلهم مؤمنون صادقون في إيمانهم ، متبعون القرآن والسُّنَّة ، زكَّاهم الله وأثنى عليهم في عدة آيات ، وأثنى الرسول ﷺ عليهم في عدة أحاديث ، سنذكر بعضها إن شاء الله ، ولكن أهل بيعة الرضوان لهم خصوصية لعدم دخلوهم النار لقوله ﷺ : « **لا يدخل النَّار أحد ممن بايع تحت الشجرة**» وقد سبق في آية التوبة ﴿ **وَالسَّابِقُونَ** ﴾ فقد صرح الله عنهم جميعًا ، وإنما تأتي الآيات بصيغة العموم كما لا يخفى .

[٥] قال تعالى في سورة الفتح : ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)** ﴾ [الفتح : ٢٩] .

بعد أن أثنى الله على نبيه محمد ﷺ في قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)** ﴾ [الفتح : ٢٨] ،

---

(١) من إتحاف ذوي النجابة ملخصًا .

قال : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ ، فثنى بالثناء على جميع أصحابه بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ كما قال الله فيهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] ، فوصفهم الله تعالى بالشدة والغلظة على الكفار ، وبالرحمة والبر والعطف على المؤمنين ، والذلة والخضوع لهم .

وقد جاءت أحاديث صحيحة تحث على تراحم المؤمنين عموماً منها :

﴿ أ ﴾ ما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء** » .

﴿ ب ﴾ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من لا يرحم لا يُرحم** » ، أخرجه الشيخان والإمام أحمد وأبو داود والترمذي ، وأخرجه الشيخان أيضاً وابن ماجه عن جرير بن عبد الله وهو متواتر .

﴿ جـ ﴾ ومنها ما أخرجه الشيخان والإمام أحمد أيضاً والترمذي عن جرير بن عبد الله أيضاً بلفظ : « **من لا يرحم الناس لا يرحمه الله** » ، وأخرجه الإمام أحمد والترمذي أيضاً عن أبي سعيد الخدري .

﴿ د ﴾ وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه بإسناد صحيح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « **لا تُنزع الرحمة إلا من شقي** » .

﴿ هـ ﴾ وجاء في مقدار الرحمة ما أخرجه الإمامان أحمد بن حنبل ومسلم بن الحجاج عن سلمان رضي الله عنه ، عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « **إن لله عزَّ وجلَّ مئة رحمة ، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق ، وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخَّر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة** » .

ولا ريب عند كل مسلم عاقل أن الحظ الأعظم من هذه الرحمة الواحدة التي يتراحم بها خلقه تعالى للصحابة رضوان الله عليهم كما وصفهم الله بذلك ، وقد

جعل النَّبي ﷺ ثناءهم بالخير والشر على الجنائز حجة وشهادة مقبوله عند الله تعالى ، ففي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً - يعني الصحابة - فقال النَّبي ﷺ : « **وجبت** » ، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً ، فقال : « **وجبت** » فقال عمر رضي الله عنه : ما وجبت يا رسول الله ؟ ، فقال : « **هذه أثنيتم عليها خيراً فوجبت له الجنَّة ، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض** » ، ثم أثنى عليهم تعالى بكثرة الأعمال مع الإخلاص وسعة الرجاء في فضل الله ورحمته بابتغائهم فضله ورضوانه ، وبأن آثار ذلك الإخلاص وغيره من أعمالهم الصالحة ظهرت في وجوههم حتى أن من نظر إليهم بهره حُسن سمتهم وهديهم ، ومن ثم قال مالك رضي الله عنه : بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام ، قالوا : والله لهؤلاء خيرٌ من الحواريين فيما بلغنا ، وقد صدقوا في ذلك ، فإن هذه الأُمة المحمدية خصوصاً الصحابة رضوان الله عليهم لم يزل ذكرهم معظَّماً في الكتب السماوية ، كما قال تعالى في هذه الآية : ﴿ **ذَلِكَ مَثَلُهُمْ** ﴾ أي وصفهم ﴿ **فِي التَّوْرَاةِ** ﴾ أي وصفهم ﴿ **فِي الإِنجِيلِ** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ** ﴾ ... إلخ ، مثل للنَّبي ﷺ وأصحابه في كونه عليه الصلاة والسلام بعث وحده ، فكان كالزرع حبة واحدة يبدو بعد البذر ضعيفاً ، فيقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ نباته ، وشطء الزرع نباته وفراخه والجمع أشطاء ، وفي كون أصحابه كانوا قليلين أول دعوته إلى الله ثم لا زالوا يزدادون ويكثرون .

والمعنى : هم أي محمد ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم ﴿ **كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ** ﴾ أي : فراخه ، ﴿ **فَآزَرَهُ** ﴾ أي : شده وقواه ، ﴿ **فَاسْتَغْلَظَ** ﴾ ، أي : شب وطال ، ﴿ **فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ** ﴾ أي : يعجبهم قوته وغلظه وحُسن منظره ، فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه ، فهم معه كالشطء مع الزرع ، وقوله تعالى : ﴿ **لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ** ﴾ ابتداء كلام قبله محذوف تقديره ، جعلهم الله بهذه الصفة ليغيظ بهم الكفار ، فهو تعليل كما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوة ، ويجوز أن يعلل به قوله تعالى : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا**

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ لأن الكفار إذا سمعوا بما أعد الله لهم في الآخرة مع ما يعزهم به في الدنيا غاظهم ذلك ، ومن في قوله : ﴿ **مِنْهُم** ﴾ لبيان الجنس لا للتبعيض، والمعنى وعد الله جميع الصحابة الجنة ، وكذلك كل من آمن وعمل صالحًا من أُمة الإجابة ، روى أبو عروة الزبيري قال : كنا عند مالك بن أنس « الإمام » فذكروا رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فقرأ مالك هذه الآية ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ** ﴾ حتى بلغ ﴿ **لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ** ﴾ فقال مالك : من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية [١] .

والآيات في فضائل الصحابة ﷺ كثيرة ، ونكتفي بما ذكرناه من الآيات الخمس .

[٦] قال الله تبارك وتعالى في سورة الحديد : ﴿ **لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ** ﴾ [الحديد : ١٠] [٢].

والمعنى : لا يستوي في الفضل من أنفق ماله وقاتل العدو مع رسول الله ﷺ قبل فتح مكة مع من أنفق ماله وقاتل بعد الفتح ، فقد نفى سبحانه وتعالى المساواة بين من أنفق قبل فتح مكة وبين من أنفق ذلك بعده ، لأن حاجة الناس كانت قبل الفتح أكثر لضعف الإسلام ، وفعل ذلك كان من المنافقين أشق ، والأجر على قدر المشقة ﴿ **أُوْلَئِكَ** ﴾ الذين أنفقوا قبل الفتح وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين قال فيهم النَّبي ﷺ كما في الصحيح : « **لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصفيه** » ﴿ **أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُواْ وَكُلاًّ** ﴾ أي : كل واحد من الفريقين ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ** ﴾ أي : المثوة الحسنى وهي الجنة مع تفاوت الدرجات .

قال عطاء : درجات الجنة تتفاضل ، فالذين أنفقوا قبل الفتح في أفضلها ، والتقييد بالإنفاق والقتال خرج مخرج الغالب ، والمراد مَن اتصف بالإنفاق والقتال بالفعل أو بالقوة عند المحققين ، فهذه الآية تصريح في تفاوت الصحابة ﷺ في

---

(١) ،(٢) أ . هـ . ملخصًا من إتحاف ذوي النجابة .

الدرجات والمراتب، ونص صريح أيضًا في كون جميعهم في الجنة . أ هـ [١] .

فعلم من هذه الآية من أسلم في يوم فتح مكة أو أسلم من بعده ، فهو من الذين شملتهم الآية كلها ولا سيما في ختامها ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أي : الجنة .

فلا مسوغ لمن يتكلم في معاوية أو في أبيه أبي سفيان رضي الله عنهما ، ممن أسلموا يوم الفتح وبعده ، لأن الآية صريحة في ثناء الله عليهم مع تفاوت الدرجات ، وأبو سفيان رضي الله عنه وإن كان قد حارب رسول الله ﷺ وقاد الأحزاب ، وأصر على شركه وكفره حتى يوم الفتح ، لكنه بعدما أسلم حسُنَ إسلامه حتى ولاه النَّبي ﷺ نجران ، وحارب في الفتوحات التي كانت أيام أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وتزوج النَّبي ﷺ ابنته حبيبة رضي الله عنها .

وكان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما من كُتَّاب الوحي ، وهو أخو زوج النَّبي ﷺ ، والله سبحانه وتعالى قد أخبر النَّبي ﷺ بالمنافقين، وكان النَّبي ﷺ يعرفهم معرفة حقيقية ، وإن كان قد قَبِلَ منهم الإسلام الظاهري ولم يقتلهم ، فلو كان من الصحابة أو بعضهم نفر لأخبر الله تعالى النَّبي ﷺ عنهم حتى يحذرهم ولا يغتر بهم .

وكان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه صاحب سر رسول الله ﷺ ، فقد أفضى إليه النَّبي ﷺ أمورًا كثيرة لم يفضلها إلى غيره ، ومنها أسماء المنافقين ، حتى قال عمر رضي الله عنه لحذيفة بن اليمان ، أذكرني رسول الله ﷺ عندك من المنافقين ، فقال : لا .

وسؤال عمر لحذيفة رضي الله عنهما ، مع أعماله الجليلة في نصرة الإسلام وخلافته بالعدل الذي اشتهر به ، حتى سلم له الكافرون فضلاً عن المؤمنين ، يدل على كمال إيمانه ، وكمال خوفه من الله سبحانه وتعالي ، والخوف من الله نتيجة الإيمان القوي ، ومن كان أعرف بالله كان أخوف منه .

---

(١) أ . هـ . ملخصًا من إتحاف ذوي النجابة .

فصل في
بعض ما ورد في فضل الصحابة رضي الله عنهم عموماً من الأحاديث

وإذا ذكرت بعض الآيات القرآنية في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ، فإليكم الآن بعض الأحاديث الواردة :

[١] أخرج الشيخان وأصحاب السُنن من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ومن بعض طرق عند مسلم قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فسبَّه خالد ، فقال رسول الله ﷺ : « **لا تسبُّوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه** » .

[٢] وتواتر عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « **خير النَّاس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم** » .

[٣] وأخرج الترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضًا ، فمن أحبهم فبحبي إياهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه** » .

[٤] وروى البزار في مسنده بسند رجاله موثوقون عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :« **إن الله اختار أصحابي على الثقلين سوى النَّبيين والمرسلين** » .

[٥] وأخرج أحمد ومسلم عن أبي موسى : « **النجوم أمنة للسماء ، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابي ، فإذا ذهبت ، أتى أصحابي ما يوعدون ، وأصحابي أمنة لأمتي ، فإذا ذهبت أصحابي ، أتى أمتي ما يوعدون** » .

[٦] وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبي ﷺ قال : « **خير أُمَّتي القرن الذي بُعثت فيه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يخلف قوم يحبون السمانة ، يشهدون قبل أن يستشهدوا** » [رواه مسلم] .

[٧] وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النَّبي ﷺ قال : « **خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم** - فلا أدري أذكر مرتين أو ثلاثة - **ثم إن بعدهم قومًا يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يُؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن** » .

زاد في رواية : « **ويحلفون ولا يستحلفون** » ، رواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وأبو داود .

الصحابة رضي الله عنهم وبيان فضائلهم

بعدهم الصديق ثم عمر ... وبعده عثمان ثم حيدر
يليهم في الفضل باقي العشرة ... فأهل بدر الكرام البررة
كذاك من بايع تحت الشجرة ... فأهل أُحد الكرام الخيرة

بعد أن أتممت الكلام على الأنبياء ، وبيان فضائلهم ،وفضل بعضهم على بعض ، وبيان فضل آل بيت النَّبي ﷺ من حيث العموم والخصوص ، فأتكلم في بيان فضائل الصحابة رضي الله عنهم عمومًا ، ثم أبدأ ببيان رفعة بعضهم على بعض ، مقدمًا الصدِّيق كترتيبهم في الخلافة ، وإليك البيان مختصراً .

الصدّيق رضي الله عنه

هو أبو بكر بن أبي قحافة بن تيم مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ، ولد لسنتين من عام الفيل ، وشب على الأخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة ، وكان ذا يسار يحمل الكل ويكسب المعدوم ، وكان محببًا إلى قريش ، يعرف من أنسابهم ما لا يعرفه غيره ، وكان حبًّا لرسول الله ﷺ قبل النبوة ، فلما شرف الله محمداً براسلته كان أبو بكر رضي الله عنه أول رجل أجابه حتى قال في ذلك رسول الله ﷺ : « **ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة ، غير أبي بكر** » [رواه ابن إسحاق] .

بعض ما ورد في فضله رضي الله عنه من الآيات :

[١] قال الله تعالى : ﴿ **وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨)** ﴾ .
[الليل : ١٧ ، ١٨] .

[٢] قال الله تعالى : ﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ [التوبة : ٤٠] .

[٣] وقال تعالى : ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣)** ﴾ .
[الزمر : ٣٣] .

فالذي جاء بالصدق هو النَّبي ﷺ ، وصدَّق به هو أبو بكر ، وإن قيل إن الآية عامة في كل من صدَّق بالنَّبي عليه الصلاة والسلام ، فأبو بكر في المقدمة لأنه أول من أسلم من الرجال الأحرار ، ومن الصبيان عليّ ، ومن الأرقاء بلال ، ومن الموالي زيد بن حارثة ، ومن النِّساء خديجة بنت خويلد رضي الله عنهم جميعًا .

[٤] ومما جاء مع تَشْرِيك عمر له في الفضيلة قوله تعالى : ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] لأنه ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في أبي بكر وعمر ، ويؤيده ما ورد : « **إن الله أمرني أن أستشير أبا بكر وعمر** » .

[٥] وقوله تعالى : ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [التحريم : ٤] ، أخرج الطبراني عن ابن عمر وابن عباس أنها نزلت فيهما .

بعض الأحاديث الواردة في فضله رضي الله عنه :

[١] ورد في الصحيحين عنه ﷺ : « **لو كُنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام** » .

[٢] وأخرج الشيخان عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سأل النَّبي ﷺ فقال : أيُّ النَّاس أحبُ إليك ؟ ، قال : « **عائشة** » ، قلت : من الرجال ، قال : « **أبوها** » ، فقلت : ثم من ؟ ، قال : « **عمر بن الخطاب** » .

[٣] وأخرج مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم والبيهقي،أن رسول الله ﷺ قال : « **أرحم أُمَّتي بأُمَّتي أبو بكر** » .

[٤] كما أخرج الترمذي عن عليّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **رحم الله أبا بكر ، زوَّجني ابنته ، وحملني إلى دار الهجرة ، وأعتق بلالاً من ماله ، وما نفعني مال في الإسلام ما نفعني مال أبي بكر** » .

[٥] وثبت أنه بُشِّر بالجنة ، وذكر في الصواعق في فضله سبعين حديثًا ، وتواتر عن عليّ رضي الله عنه : « **خير هذه الأُمَّة بعد نبيها أبو بكر وعمر** » ، وأنه قال : « **لا يفضلني أحد على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري** » [١] .

خلافته رضي الله عنه :

في السنة الحادية عشرة من الهجرة يوم (الإثنين ١٣ ربيع الأول) لحق ﷺ بالرفيق الأعلى ، لم يَرَ المسلمون حينئذٍ بدُ من إقامة من يخلف رسول الله ﷺ في خلافة المسلمين ، ومن الواضح والمحقق أن الكتاب لم يشر أي إشارة إلى تعيين بيت أو بطن أو شعْب يكون منه خليفة المسلمين ، وأما الرسول ﷺ فقد وردت عنه أحاديث تدل

(١) روى المحدثون والمؤرخون هذا عنه من أكثر من ثمانين وجهًا،ورواه البخاري وغيره ، وكان عليّ رضي الله عنه يقول : « لا أوتي بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا ضربته حد المفتري ، ولهذا كان الشيعة المتقدمون متفقين على تفضيل أبي بكر وعمر ، ونقل عبد الجبار الهمداني في كتاب « تثبيت النبوة » ، أن أبا القاسم نصر بن الصابح البلخي قال في كتاب « النقض على ابن الراوندي» : سأل سائل شريك بن عبد الله فقال له : أيهما أفضل ؟ ، أبو بكر ، أو عمر ؟ ، فقال له : أبو بكر . فقال السائل : تقول هذا وأنت شيعي ؟ ، فقال له : نعم ، من لم يقل هذا فليس شيعيًا !! ، والله لقد رقي هذه الأعواد عليّ فقال : « ألا أن خير هذه الأمة نبيها أبو بكر ثم عمر ، فكيف نرد قوله ، وكيف نكذبه ؟ ، والله ما كان كذَّابًا !! » .

على خلافة أبي بكر ، وسيأتي بيانها - إن شاء الله - كما اجتمع كبار الأنصار في سقيفة بني ساعدة من الأوس والخزرج يريدون انتخاب خليفة لرسول الله ﷺ ، وكان نظرهم متوجهًا إلى اختيار سعد بن عبادة أحد النقباء الذين انتخبوا ليلة العقبة ، لأن سعداً خطب فيهم مُبينًا ما للأنصار من الفضل والسبق إلى حماية رسول الله ﷺ ، وبلغ هذا الاجتماع كبار المهاجرين أبا بكر وعمر وغيرهما ، فساروا إلى السقيفة مسرعين ، وأراد عمر أن يتكلم فقال له أبو بكر : على رسلك ، ثم تكلم فذكر تاريخ المهاجرين وما لهم من فضل السبق ، وتحمل المصاعب في سبيل دينهم ، ثم كر على ذكر الأنصار فأثنى عليهم ولم يترك شيئًا مما لهم من المآثر إلا ذكره ، ثم ذكر لهم ما ورد عن الرسول ﷺ من تخصيص قريش بالخلافة ، كما بيَّن لهم مصلحة الاتفاق ومضار الشقاق .

ثم تكلم أبو عبيدة ﵁ قائلاً : يا معشر الأنصار ، إنكم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدَّل وغيَّر ، فقام بشير بن سعد وهو من بني زيد بن مالك من الخزرج مؤيداً لكلمة المهاجرين ، فقال أبو بكر : هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا ، فأبوا أن يتقدما عليه لما له من الفضل والمناقب ، ولا سيما وقد قدمه ﷺ للصلاة بالنَّاس ، فمد عمر يده فبايعه ، ثم أبو عبيدة ، ثم بشير بن سعد ، ثم أقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر حتى كادوا يطئون سعد بن عبادة ، ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا عليّ بن أبي طالب والزبير والعباس ، معتذرين بأنهم أخروا عن المشورة ، مع أن لهم فيها حقًا لا القدح في خلافة الصدِّيق ، قيل : تأخر عليّ ثلاثة أيام ، وقيل ستة أشهر ، لما رأى من فاطمة ما رأى ، ثم بايع واعتذر بما تقدم مبينًا عظم حق أبي بكر ومزاياه الحميدة ، وبهذا تمت البيعة لأبي بكر ، وانعقد الإجماع على صحة خلافته[1] ، ولم يأت عليّ ولا العباس بدليل يعارضون به خلافته

(١) روى البخاري أن الإمام عليًّا عندما أراد مبايعة الصديق ﵄ أرسل إليه فجاءه ، فتشهد عليّ فقال : إنا قد عرفنا فضلك وما أعطاك الله ، ولم ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك ، ولكنك استبددت علينا بالأمر ، وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله ﷺ نصيبًا حتى فاضت عينا أبي بكر ، فلما تكلم أبو بكر قال : والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله أحب إليَّ أن أصل من قرابتي ، وأما الذي شجر بيني وبينكم من هذه الأموال فلم آل فيها عن الخير ، ولم أترك أمرًا رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيها إلا صنعته ، فقال عليّ لأبي بكر : موعدك العشية البيعة ، فلما صلى أبو بكر الظهر رقى على المنبر فتشهد ، وذكر شأن علي وتخلفه عن البيعة ، وعذره بالذي اعتذر إليه ، ثم استغفر وتشهد عليّ ، =

مع مالهم من النصرة والمنعة والشوكة والقوة،يوضحه أن الأنصار لما كان لديهم ما يورث شبهة استحقاقهم عارضوا في الابتداء،ثم بعد بيان البرهان رجعوا مذعنين للمهاجرين مبايعين أبا بكر،وحيث أن عليًّا ومن معه لم يبدو شيئًا دل على صحة خلافته .

بعض الآيات المشيرة لخلافته ، وإذا صحت خلافته فغيره تبعًا له :

[١] قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) ﴾[المائدة : ٥٤] .

من المعلوم أن حين ما ذاع خبر وفاته ﷺ ارتدت طوائف كثيرة من العرب ، منهم من ارتد عن الدين خالعًا ربقته بالكلية ، ومنهم من منع الزكاة ، فجاهدهم أبو بكر حق الجهاد، وأظهر من صدق العزيمة وقوة الشكيمة ونهاية الشجاعة ما أعجب به أولوا الألباب ، واعترف له جميع الأصحاب ،وأعز الله بن الدين، وجمع الله به كلمة المسلمين ، وأذل الله به الكافرين ، كما أعز به المؤمنين بجهاده المستميت لرفع كلمة التوحيد ، وإظهار شعائر الإسلام والمسلمين والموحدين ، بما يبرهن بأن الآية دالة على صحة خلافته ، ومشيرة لكمال فضله .

[٢] ومنها قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[النور : ٥٥] .

ففي هذه الآية دلالة واضحة على صحة خلافته وخلافة الثلاثة حيث أن الله لا يخلف وده ، فقد تم وعده لهؤلاء الراشدين باستخلافهم وتمكينهم وحيازتهم النصر المبين ، ونشر الإسلام والدين وجهاد أعداء الله الكافرين ، ورفع منار الدين الحنيف،

فعظَّم حق أبي بكر ، وحدث أنه لم يجعل عليٍ الذي صنع نفاسة على أبي بكر ، ولا إنكار للذي فضله الله به ، ولكنا نرى لنا في هذا الأمر نصيبا فاستبد علينا ، فوجدنا في أنفسنا ، فسر بذلك المسلمون وقالوا : أصبت .

وروى مسلم أكثر من رواية تفيد ما سبق ، وفي إحدى روايته: ثم قام عليّ فعظَّم من حق أبي بكر ، وذكر فضيلته وسابقته ، ثم مضى إلى أبي بكر فبايعه ، فأقبل الناس إلى عليّ فقالوا : أصبت وأحسنت ، كتاب « الجهاد » ، باب قول النَّبي ﷺ « **لا نورّث ، ما تركناه فهو صدقة** » ، واستبد الأمر ، إذ انفرد به من غير مشارك له فيه ، وقول الإمام : ولكن استبددت علينا بالأمر ، أي لم تشاورنا في أمر الخلافة .

وتدويخ تلك الممالك العظيمة الشاسعة التي شيدت فيها صروح الإسلام ، وذكر على منابرها اسم الله واسم محمد ، وذلك لما تصفوا به من الإيمان الكامل والعمل الصالح والنصح والإخلاص ، ولا ريب أنه لم تكن الآية إلا عن المستقبل ، كما يصرح به ﴿ **اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ ولم يحصل ذلك الاستخلاف والتمكين إلا لهؤلاء الراشدين المهديين ، وأئمة أهل البيت لم يحصل منهم ذلك ، فلا يجوز أن يمنحوا بما هناك .

[٣] ومنها قوله تعالى : ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ** ﴾[الحشر : ٩] .

فقد وسمهم بسيما الصدق بصيغة الحصر بعد أن وصفهم بالهجرة وابتغاء الفضل ونصر الله ورسوله ، ثم ذكر الأنصار مُثنيًا عليهم ، وحكم لهم بالفلاح بقوله : ﴿ **فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ ، وقد اتفقت كلمة من سماهم صادقين ومن حكم لهم بكونهم مفلحين على بيعته واصطفائه وتسميته خليفة رسول الله ، فثبتت صحتها وجدارتها بالرشد والفلاح ، وإلا لزم كونهم غير صادقين وغير مفلحين ، وذلك واضح البطلان وشناعته بمكان لا يخفى .

بعض الأحاديث الواردة المشيرة لخلافته أو الناصة عند من يقول ثبتت بالنص :

[١] أخرج الشيخان عن جُبير بن مُطعم قال : أتت امرأة إلى النَّبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه ، فقالت : أرأيت إن جئت ولم أجدك ، كأنها تقول الموت ، فقال : « **إن لم تجديني فأتي أبا بكر** » .

[٢] أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ في المرض الذي مات فيه : « **ادعي لي أباك وأخاك حتى كتب كتابًا ، فإني أخاف أن يتمنى متمنٍ ، أو يقول قائل : أنا أولى ، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر** » .

[٣] وثبت عند الموافق والمخالف لأنه متواتر ، أنه قدم أبا بكر للصلاة بالناس مع حضور المهاجرين والأنصار ومنهم عليّ .

[٤] وأخرج ابن عساكر عن عليّ ، لقد أمر النَّبي ﷺ أبا بكر أن يُصلي وإني لشاهد وما أنا بغائب وما بي مرض ، فرضينا لدنيانا ما رضيه النَّبي ﷺ لديننا .

[٥] وثبت عن النَّبي ﷺ أنه قال : « **عليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين** » [رواه أبو داود والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح] .

ففي هذه الأحاديث واضح البيان وساطع البرهان على صحة خلافته ، كما صحت خلافة من بعده ، ومن لم يقل بالنص يقول : صحت بيعة المهاجرين والأنصار، وإن لم يكن هناك نص عن النَّبي المختار ، كيف وقد جاءت الأحاديث الكثيرة الدالة على بعض فضائله ومناقبه الحميدة ، وفي بعضها الإشارة إلى خلافته ، ولاشك أنه أجدر وأحرى من غيره ، لما امتاز به من الخلال المحمودة وتلك المناقب المشهورة .

شبه الشيعة ودحضها :

للشيعة شبه منسوجة من خيالات أفكارهم الفاسدة ، يروجونها على خفافيش الأبصار وحلفاء الجهل ، وهي مبنية على شفا جُرفٍ هار ، مسبوكة في قوالب حب أهل البيت ورد الحق لأهله ، وتحت تقويض صرح الدين الحنيف ، لأن مؤسس المذهب كان يهوديًا دخل الإسلام نفاقًا بقصد الإفساد وهدم عروشه المشيدة ، اسمه عبد الله ابن سبأ [١] ، فأخذ يتظاهر بحب أهل البيت ، وتنقيص الخلفاء ، وازدراء الصحابة ونسبتهم إلى الغصب والحيف ، وترويجًا لتعاليمه المسمومة ، أخذ ينوع مقالاته بحسب ما تواتيه الظروف ، وبحسب الأقوام جهالة وعلمًا ، وقد ذكر علماء الملل والنِّحل والباحثون عن الفرق والمذاهب والتواريخ أخباره ومذهبه كسائر الفِرق ، بما يغنينا ويكفينا عن الإتيان به ، لأن القصد هنا الإيجاز .

بيان شبهات الشيعة حول خلافة أبي بكر رضي الله عنه :

[١] **قالوا :** إن أبا بكر ومن معه قد ظلموا عليًّا بجعلهم الخلافة للصديق ثم عمر ، وهكذا ، لأن عليًّا ابن عم الرسول وزوج بنته وهو إمام معصوم ، والمعصوم أحق بالخلافة ، كما زعموا أن هناك آيات قرآنية تنص على خلافته ، والنَّبي ﷺ جعله

---

(١) وسنتكلم عنه تفصيلاً إن شاء الله تعالى في موضع آخر عند الحديث عن ذي النورين ، سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وصيًّا وخليفة من بعده ، مؤيدين تلك المزاعم بأحاديث أكثرها مُختلق موضوع ، والصحيح منها لا يمت بأي صلة بالخلافة كزعمهم في الآيات القرآنية .

والجواب :

الخلافة لاشك من الأمور التي يهتم بها ، لهذا قدموها على دفنه ﷺ ، ولو كان هناك برهان على إمامة عليّ أو غيره يقضي على الشكوك والأوهام والاحتمالات والتأويلات ، لما كان هناك مجال لأن يتحاور المهاجرون والأنصار ، وكل يريد رجلاً من قبيلته ، وغاية ما هناك أحاديث يؤخذ منها بأن الخلافة تصلح لفلان ، فإن كان هذا ، فما أتى في أبي بكر أصرح وأوضح مما أتى لعلي ، وعليّ لم يأت بأدنى مستمسك يشم منه رائحة دعوى الخلافة ، والقوم ما كانوا معروفين بالظلم والاستبداد ، ولم يكونوا من بيوت الأكاسرة والقياصرة حتى أنهم لا يقبلون نصوص الحق ، بل كانوا معروفين بالديانة الكاملة ، وكانوا يخضعون تمام الخضوع لأوامر الشرع ، لا يخافون في الله لومة لائم ، ووسع عدلهم جميع العباد ، وطبقت شهرتهم جميع الآفاق ، وكتب التاريخ على اختلاف أنواعها وتباين مشارب مؤلفيها شاهدة بذلك ، فكيف يقال : لم يعترفوا بالحق ؟، وعليّ لا شك أنه أعلم من أئمة المذهب الإمامي في معرفة جميع الأخبار ، ولا سيما نصوص الخلافة التي هي حقه بزعمهم ، فكيف يكون هو يعلم ولا يبدي أي برهان لأخذ حقه ؟،وحيث لم يكن هذا، لزم أن هؤلاء بزعمهم أعلم من علي وأولاده، ولا تنفعهم كلمتهم بأنهم ما سمعوا منه ولم يقبلوا كلامه ، لأن القوم كما ذكرنا كانوا إذا أصابت امرأة أو أحقر إنسان الحق ، قبلوه ورفضوا قولهم لقوله ، فكيف بأمير المؤمنين؟ ، على أن القوم لم يكونوا في غابر الزمن مع عليّ في حالة سيئة ، ولم يكن هناك أدنى شيء من الضغن والحقد والبغضاء [1]،حتى يُقال تلك أورثت هذه .

---

(١) وما تقوله الشيعة من أنها كانت أحقاد من قريش على عليّ رضي الله عنه ، لأنه قتل صناديد قريش في الغزوات ، ومن هنا تكالبوا عليه وظلموه بدافع الحقد والانتقام ؟ .

فالجواب :

أولاً : أن عليّ بن أبي طالب لم ينفرد في الغزوات بالقتل فقط ، بل في تلك الغزوات كان عليّ وغيره شاركوا في القتل والأسر ونصر الإسلام ، وهذه من الأمور الواضحة التي لا تفتقر إلى إقامة دليل =

ونقول ثانيًا : أبو بكر مثلاً أو عمر يريد الخلافة ، فما بال بقية المهاجرين والأنصار؟ ، هل كل فرد يريد لنفسه الخلافة ، هذا غير معقول ، فإن كان لأجل المال ، فعبد الرحمن بن عوف وعثمان والزبير كانوا من الأغنياء المكثرين ، فلماذا يكون أبو بكر وهو فقير ؟ ، وإن كان بالقرب والوراثة ، فالعباس أقرب ، فلماذا أبو بكر ؟ ، وإن كان بالعشيرة والمنعة ، فما كان بنو هاشم وبنو المطلب وبنو عبد مناف أقل من أبي بكر ، بل كانوا أعز وأكثر وأمنع .

وثالثًا : هل القرآن نزل بعد عليّ والأحاديث ؟ لأننا نرى هذه الاستدلالات نسجتها علماء المذاهب بعد عليّ ، أكان عليّ لم يعرف ، أم هؤلاء أعلم ؟، قال بعضهم : لم يقل عليّ لأنه رأى أن الكلام لا يفيد وأظهر التقية ، نقول : إن هذا كما يقال عذره أقبح من فعله ، ولا يخفى ما فيه من نسبة الجُبن والخُور والضعف لأمير المؤمنين وأحد الخلفاء الراشدين ، وأقوالهم كلها متناقضة ومضطربة لأنها من خيالات الأذهان ، لا مؤيدة بنص القرآن ، فتارة يقولون : خليفة معصوم ، وتارة يقولون : القرآن نزل في إثبات خلافته ، وأنه طالب وادعى ولم يظفر ولم ينتصر مع قولهم : إنه منصور ومؤيد من الله ، وتارة يقولون : لم يدع لكونه لا تفيد الدعوى مع القوم ، ويعنون الصحابة، أو للتقية، وتارة يقولون: يوحي إليه وإلى الأئمة ، وأخرى يقولون : إن مصحف عليّ وفاطمة غير هذا المصحف ، إلى غير ذلك مما لا يخفى شناعته واضطرابه .

فنقول : قولهم للتقية باطل بالبديهة كما سبق ذكره ، لأنه لماذا لم يتسلح بسلاح التقية مع طلحة ومعاوية ، ولماذا حارب ؟ ، وما خاض غمار الحرب إلا لما رأى

= بل قراءة سير النَّبي ﷺ ولا سيما تلك الغزوات والجهاد يبرهن لنا صحة ما قلنا،وخطأ ما قالوا .

ثانيًا : على الفرض أن هناك كانت أحقاد ، فالإسلام يقضي عليها قضاء مبرمًا ، فالقوم كانوا بعد الشر والضلال ، وبعد ما جرى بينهم من أيام الجاهلية خصوصًا بين الأوس والخزرج ، جاء الإسلام فيجب كل ما سبق ، وأبدلهم إيمانًا قويًا ، لا يبالي الرجل منهم في نصر الدين بابن ولا بأخ ، فترى بعضهم يأسر أخاه المشرك ويشد عليه لأن أُمَّه غنية ، وقتل بعضهم بعض أقاربه كأبي عبيدة قتل أباه ، ، ومصعب بن عمير قتل أخاه ، وكل من قرأ سيرة الصحابة بإنصاف يرى أن القوم منزهون عن إثارة الأحقاد ، والكلام في هذا يطول ، وسيرة النَّبي ﷺ وأصحابه شاهدة بذلك ، فلن نطيل الكلام عن هذا .

أن معه ما يؤيده من البرهان ، ما يتضح بكل جلاء أنه احتج على معاوية بكونه خليفة ببيعة من بايعوا أبا بكر كما في نهج البلاغة المقدس والمعتمد لديهم ، ولما لم يبد أدنى دليل مما يؤيد كون الخلافة له عند بيعة الصدِّيق ، علم أنه لم يكن يرى أنه أحق بالخلافة ، وأن خلافة الصدِّيق كانت صحيحة بلا ريب .

وعلى فرض إنه كان معه سلاح من البرهان الذي يكفل له ثبوت أحقيته ، فحيث لم يأت به ، وأولئك ما كان معلوماً لديهم ، فلا مجال للوم وتخطئة أولئك الأبرار ، فإن قالوا : لأنه علم أن القوم لا يؤازرونه ولا ينصرونه ، ولا ينضمون تحت لوائه ؟ ، قلنا : لا يصح هذا ، لأنهم لما اشتبك مع طلحة ومعاوية قام كثير منهم معه ، فثبت بطلان هذه المزاعم .

وقولهم : إن هناك آيات وأحاديث تنص بعضها ، ويؤخذ من بعضها أحقية خلافته .

فجوابه :

لم يكن شيء من ذلك كما ذكرنا ، ولو وجد لما كانوا يأبون ، وقد عهد انقيادهم التام لأوامره ﷺ ، وقد آزروه ونصروه وأنفقوه أموالهم وباعوا مهجهم في سبيل تأييده ونصره ، فكيف يقال : إنهم خالفوا أمره ؟ ، اللهم إن هذا مستحيل ، وقد أثنى الله عليهم في كتابه ، كما تصرح بذلك عدة آيات كقوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] ، فقد أخبر الله أنهم من السابقين، وأنهم ممن نالوا رضاه ، وهل يرضى الله عن قوم يخالفون أمره وأمر رسوله ، ويظلمون أهل بيت نبيه المطهر ؟ ، وهل لا يعلم الله بأنهم في المستقبل سيكونون خارجين عن الطاعة ، وأن هذا الإسلام الذي ينتحلونه لم يتمكن من قلوبهم ؟ ، أم هؤلاء مقالاتهم خاطئة ، يبيِّن هذا أن المنافقين في عصره ﷺ كان معتنقي الإسلام وخاضعين لأوامره ظاهراً ، وحيث أن قلوبهم تخالف ظواهرهم ، وأن ذلك تصنُّع ونفاق ، هتك الله أستارهم ، وسجل عليهم الكفر والنفاق والكذب في المقال كما في قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون : ١] .

وهل كان شيء من ذلك في هؤلاء الأبرار ؟ ، فليوجدوا لنا ولو كلمة واحدة .

يقول الله تعالى : ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** (٢٩) ﴾ [الفتح : ٢٩] .

تأمل هذه الآية لا سيما قوله : ﴿ **أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ** ﴾ ، وقوله : ﴿ **لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ** ﴾ ، ووازن بين الآية وقول هؤلاء : إنهم غصبوا حقه وتجبروا عليه وعلى أهل البيت ، وكانوا شديدين عليه وعلى أهل البيت ، تجد الطعن والازدراء ونسبة الكفر إلى الإمام عليّ ، وحاشاه كما لا يخفى ، لأنه نعتهم بأنهم أشداء غلاظ على الكفار، وهنا لا محيص من أحد الأمرين : إما ما قلنا أولاً في حق الإمام ، وإما أن هؤلاء خارجون من ربقة الحق كما هو واضح .

[٢] وقوله : إن الأمير كان متظلماً ومشتكياً ومعلناً بأنه مظلوم ومقهور مدة حياته في زمانهم .

فالجواب أن نقول :

بطلان هذا أجلي من الشمس في رابعة النهار ، كما يعلم مما سلف ، ومما يبطل هذه المزاعم ، ويهدم تلك الأسس المبنية على شفا جرف هار ، ثناء الله عليهم ، وثناء رسوله ، وثناء جميع الناس ، لا سيما ثناء أمير المؤمنين وعترته الطاهرين ، فقد ثبت في نهج البلاغة أن عمر رضي الله عنه لما أراد الخروج إلى دفع فتنة نهاوند ، استشار عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له : إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلة ، وهو دين الله الذي أظهره ، وجنده الذي أعزه حتى بلغ ما بلغ ، وطلع حيث ما طلع ، ونحن على موعد من الله ، والله منجز وعده ، وناصر جنده ، قال الله تعالى : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي**

لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) ﴾[النور : ٥٥] .

ومكان القيم في الإسلام مكان النظام من الخرز ، فإن انقطاع النظام تفرق وذهب ثم لم يجمع أبداً، والعرب وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام، عزيزون بالاجتماع ، فكن قطبًا ، واستدر الرحا بالحرب .

انظر نصح الأمير لعمر وإخلاصه ، وثنائه عليه ، والإشارة بالرأي السديد ، والاستدلال بنصره وتمكينه بالآية الشريفة ، هل يتفوه بالثناء على الغاصب الجائر ، وهل يكون لهم عينًا وناصرًا ومشيرًا ؟ .

واليك ثناء الأمير على أبي بكر رضي الله عنه: في رواية محمد بن عقيل بن أبي طالب ، أنه لما قُبضَ أبو بكر الصدِّيق وسجي عليه ، ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قُبِضَ فيه رسول الله ﷺ ، فجاء عليّ رضي الله عنه باكيًا مسترجعًا وهو يقول : اليوم انقطعت خلافة النبوة ، فوقف على باب البيت الذي فيه أبو بكر مسجي فقال: « رحمك الله أبا بكر ، كنت إلف رسول الله وأنيسه ومستروحه ، وموضع سره ومشورته ، كنت أول قومه إسلامًا ، وأخلصهم إيمانًا ، وأشدهم يقينًا ، وأخوفهم في الله ، وأعظمهم غناءً لدين الله ، وأحوطهم لرسول الله ﷺ ، وأشفقهم عليه ، وأحبهم صحبة ، وأكثرهم مناقبًا ، وأفضلهم سوابق ، وأرفعهم درجة ، وأشبههم برسول الله ﷺ هديًا وسمتًا ورحمة وفضلاً وخلقًا ، وأشرفهم عنده منزلة ، جزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله ﷺ وعن المسلمين خيرًا ، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر ، صدَّقت رسول الله ﷺ حين كذَّبه النَّاس ، إلى أن قال : ورفيقه في الهجرة ، وخليفته في دين الله ، أحسنت الخلافة حين ارتد الناس ، وقمت بما لم يقم به خليفة نبي ، نهضت حين وهن أصحابك ، ولزمت منهاج رسول الله ﷺ إذ كنت خليفة حقًا ، ثم أخذ عليّ رضي الله عنه في الثناء عليه وأكثرها في نصر الحق ، وقوة الإيمان ، وإعلاء كلمة الله بما هو جدير به ، إلى أن قال : شأنك الحق والصدق والرفق، فجللت عن البكاء،وعظمت رزيتك ، إنا لله وإنا إليه راجعون » .

هذه قطرة من بحر ثناء أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب على الصدِّيق رضي الله عنهما ، فهل يبقى بعد هذا أدنى شك وريب في أن ما عليه زعماء الإمامية ، من توليد آرائهم وخيالة أذهانهم ، ليس له نصيب من الحق والبرهان ؟ ، وقد اشتهر عند أهل الحديث ،

ونقلت الأخبار في ثناء أمير المؤمنين وعترته الطيبين بما لا مزيد بعده على الصحابة ، ولا سيما على الخلفاء الراشدين .

فإن زعموا أن ما يرويه أهل السُّنَّة من ثناء علي ، وإقراره بالفضل لأولئك ، وعدم طلبه للخلافة هو مما وضعه ونسجه علماؤهم .

قلنا : إن هذا الكلام من البطلان بمكان لا حاجة إلى تدعيمه بالحجة :

أولاً : إن أهل السُّنَّة وعلى الأخص علماء الحديث مشهورون بالديانة الكاملة ، وتحري الصدق في نقل الخبر وإذاعته ، كما أنهم متصفون بقول الحق والحكم العدل مع خصومهم من مختلف المذاهب والآراء ، فكيف يصح أن يُقال إن هذا مما أوحت أذهانهم وولدته أفكارهم ، على أن أهل التاريخ من مسلم وكافر وسُنِّي وغيره قد باح بهذا وقرره معترفًا به ، فأنى يصح بعد هذا ما يقولون ؟ ، وأي غرض للناس في نقل مثل هذه الآثار ، بل تواريخهم التي ألفتها علماؤهم ذكرت هذا .

ثانيـًا : إن جاز هذا ، جاز لنا أن نقول : ما أوردتم وذكرتم من تلك الشبه والاستدلالات المزعومة لأحقية أمير المؤمنين ، ودعوى أنه كان مظلومًا ومضطهدًا ، إلى آخر تلك الكلمات التي هي أشبه بالسخف والهذيان في أن تسمى دليلاً وبرهانًا ، هو من نسيج زعماء المذهب ، ولم يكن شيء من هذا ، على أن من أنكر الواضحات والأمور المتواترات مثل هذا القرآن الشريف المعجز ، المجمع عليه أنه محفوظ من قبل الله من أن تعتريه أيدي الزيادة والنقصان ، قد زعموا أنه قد اعتراه النقص والتحريف من الصحابة ، وحاشاهم وهم أجلّ قدرًا ، ومثل تزويج عليّ ابنته لعمر قد زعموا إنكار ذلك ، أو أنها كانت جنيَّة ، ليس ببعيد عليهم إنكار ذلك الثناء ، أو إنكار فضائل الصحابة التي رواها الجمّ الغفير ، واشتهرت لدى المسلمين والكافرين من اليهود والنصارى والمجوس والمشركين ، حتى أنهم لما رأوا تلك الخلال الحميدة وتلك العدالة التامة التي ما طرق البشر مثلها ، تهافت الكثير منهم على دخول هذا الدين الحنيف، ولوضوح ما قلنا من الفضائل لدى المسلمين وغيرهم من مختلف المذاهب والنحل يصح فيه أن يُقال :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وإن بدلوا حسنات الصحابة بسيئات نسبوها ، فيقال لهم :

وهبني قلت : هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء

[٣] ومنها : أن أبا بكر لم يعط لفاطمة رضي الله عنها من تركة أبيها ﷺ حتى قالت : يا ابن أبي قحافة : أنت ترث أباك وأنا لا أرث أبي ؟ ، واحتج أبو بكر على عدم توريثها بما رواه هو فقط من قوله ﷺ : « **نحن الأنبياء لا نورِّث، ما تركناه صدقه** » ، مع أن هذا الخبر مخالف لصريح قوله تعالى : ﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ** ﴾ [النساء : ١١] ، فإنه عام للنَّبي وغيره ومخالف أيضًا لقوله تعالى : ﴿ **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ** ﴾ [النمل : ١٦] ، وقوله تعالى : ﴿ **فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)** ﴾ [مريم : ٥ ، ٦] .

وجوابه :

أن أبا بكر رضي الله عنه لم يمنع فاطمة الإرث لعداوة وبُغض ، بدليل عدم توريثه الأزواج المطهرات حتى ابنته الصدِّيقة ، بل السبب في ذلك سماعه للحديث بأُذنه منه ﷺ ، وقد روى علماء السُّنَّة هذا الحديث عن حذيفة بن اليمان والزبير بن العوام وأبي الدرداء وأبي هريرة والعباس وعلي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ، فقولهم : إن هذا الحديث رواه أبو بكر فقط غير مسلم عند أهل السُّنَّة ، وروى الكليني في « الكافي » عن أبي البختري عن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام قال : « إن العلماء ورثة الأنبياء ، وذلك أن الأنبياء لم يرثوا ولم يورثوا درهمًا ولا ديناراً ، وإنما أورثوا أحاديث من أحاديثهم فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ بحظ وافر » ، وكلمة « إنما » تفيد الحصر ، لما هو مسلم عندهم ، فثبت المدعي برواية المعصوم عندهم ، أما كون هذا الحديث مخالفًا للآيات فجهل عظيم لأن الخطاب في ﴿ **يُوصِيكُمُ** ﴾ لما عدا النَّبي ﷺ ، فهذا الخبر مبين لتعيين الخطاب لا مخصص ، بل لو كان مخصصًا للآية ، فأي ضرر فيه ؟ ، فقد خصص من الآية الولد الكافر والرقيق والقاتل، ومما يدل على صحة هذا الخبر لدى أهل البيت : أن تركة النَّبي ﷺ لما وقعت

في أيديهم ، أخرجوا العباس وأولاده ولم يورثوهم مما ترك ﷺ ، وكذا لم يورثوا أمهات المؤمنين .

وأما قوله تعالى : ﴿ **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ** ﴾ فالمراد النبوة ، فقد روى الكليني عن أبي عبد الله أن سليمان ورث داود ، وأن محمداً ورث سليمان ، فقد علم أن هذه وراثة العلم والنبوة ، وإلا فوراثة نبينا مال سليمان لا يتصور لا شرعًا ولا عقلاً ، ولو كان المراد وراثة سليمان مال داود فما وجه تخصيصه بالذكر ، مع أنه كان لداود عليه السلام تسعة عشر ابنًا بإجماع المؤرخين .

وعلى ما ذكرنا يحمل قوله تعالى : ﴿ **يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ** ﴾ إذ لا يتصور أن يكون يحيى وارثًا لجميع بني إسرائيل ، بل هو وارث زكريا فقط ، فما فائدة ذكر ويرث إلخ ، هذا وأما إبقاء الحجرات في أيدي الأزواج المطهرات ، فأجل كونها مملوكة لهم لا لكونها ميراثًا ، فإن النَّبي ﷺ بنى حجرة لكل زوج من أزواجه ووهبها لهنَّ ، فتحققت الهبة بالقبض ، وهي موجبة للملك كحجرة فاطمة وأسامة ، ولذا أضاف الله تعالى البيوت لهنَّ في حياة النَّبي ﷺ في قوله عز اسمه : ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ** ﴾ [الأحزاب : ٣٣] . أ هـ(١) .

[٤] **ومنها قولهم** : إن أبا بكر لم يعط فاطمة رضي الله عنها فدكًا ، وقد كان النَّبي ﷺ وهبها لها ، ولم يسمع دعواها الهبة ، ولم يقبل شهادة عليّ وأم أيمن لها ، فغضبت فاطمة رضي الله عنها وهجرَتَه ، وقد قال النَّبي ﷺ في حقها : « **من أغضبها أغضبني** » .

الجواب :

أن هذا ليس له أصل عند أهل السُّنَّة ، بل ذكر في البخاري برواية عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها : طلبت فاطمة رضي الله عنها فدكًا من أبي بكر ، لا بطريق دعوى الهبة ، بل بطريق الميراث ، وعلى تقدير تسليم روايتهم ، فإن الهبة لا تتحقق إلا بالقبض ، ولا يصح الرجوع عنها بعد تصرف المُوهَب في الموهوب ، ولم تكن فدك في عهده ﷺ في تصرف فاطمة رضي الله عنها ، بل كانت في يده ﷺ يتصرف فيها تصرف المالك ، فلم

---

(١) من كتاب مختصر التحفة الإثنى عشرية .

يكذبها أبو بكر في دعوى الهبة ، ولكن بيَّن لها أن الهبة لا تكون سببًا للملك لما لم يتحقق القبض ، فلا حاجة حينئذ إلى الشهود ، وما زعموا أنه صدر من عليّ رضي الله عنه وأم أيمن محض أخبار ، وأبو بكر لم يقض لا لأنه لم يقبل شهادتهما ، على أنه لو لم يقبلها وردها لكان له وجه ، فإن نصاب الشهادة في غير الحدود والقصاص رجلان أو رجل وامرأتان ، وإما إغضابه إياها فلم يتحقق منه ، إذ الإغضاب إنما هو جعل أحد غضبان بالفعل أو القول قصداً ، وكيف يقصد الصديق إغضاب تلك البضعة الطاهرة ، وقد كان يقول لها مراراً : « والله يا ابنة رسول الله ﷺ ، إن قرابة رسول الله أحب إليَّ أن أصل من قرابتي » ، وليس الوعيد على غضبها ، كيف لا وقد غضبت على الأمير زوجها مراراً ، كغضبها يوم سمعت بخطبة الأمير بنت أبي جهل لنفسه ، حتى أتت أباها ﷺ باكية ، فخطب إذ ذاك رسول الله ﷺ وقال : « **ألا إن فاطمة بضعة مني ، يؤذيني ما آذاها ، ويريبني ما رابها ، فمن أغضبها أغضبني** » .

وكغضبها يوم ذهب الأمير إلى المسجد ونام على التراب ، ولذلك لقب بأبي تراب ، فقد أتاها النَّبي ﷺ وقال لها : أين ابن عمك ؟، قال : غاضبني فخرج ولم يَقِلْ عندي ، ومع ذلك فقد ثبت عند الفريقين أن غضب فاطمة قد شق على الصدِّيق حتى رضيت عنه، فقد روى صاحب « محجاج السالكين » وغيره من الإمامية : أنا أبا بكر لما رأى أن فاطمة انقبضت عنه وهجرته ، ولم تتكلم بعد ذلك في أمر فدك ، كبر ذلك عنده ، فأراد استرضاءها فأتاها فقال لها : صدقت يا ابنة رسول الله فيما ادعيت ، ولكني رأيت رسول الله ﷺ يقسمها ، فيعطي الفقراء والمساكين وابن السبيل ، بعد أن يُؤتي منها قوتكم والصانعين بها ، فقالت : افعل فيها كما كان أبي رسول الله ﷺ يفعل فيها ، فقال: ولك الله عليَّ أن أفعل فيها ما كان يفعل أبوك ، فقالت: والله لتفعلن ؟ ، فقال : والله لأفعلن ذلك ، فقال : اللهم اشهد ، فرضيت ذلك ، وأخذت العهد عليه ، وكان أبو بكر يعطيهم منها قوتهم ، ويقسم الباقي على من ذكر . أ هـ .[١] .

---

(١) من كتاب مختصر التحفة الإثنى عشرية ، (ص ٢٤٦) .

بعض آيات قرآنية زعموا أنها ناصة على خلافة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه :

[١] منها قـوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥)** ﴾ [المائدة : ٥٥] .

زعموا أنها إجماعًا نزلت في عليّ وأنه أعطى السائل خاتمه في حالة الركوع ، بدعوى أن ما تفيد الحصر ، والولي بمعنى المتصرف في الأمور ، والمراد هنا التصرف العام في جميع أمور المسلمين المساوي للإمام بقرينة ضم ولايته إلى ولاية الله ورسوله ، فثبتت إمامته وانتفت إمامة غيره للحصر المستفاد ، وهو المدعى .

وإليك بطلان هذه الدعوى ودحضها :

نقول أولاً : دعوى الإجماع لنزول الآية في شأن عليّ رضي الله عنه ، وأنه قد تصدَّق بخاتمه في الركوع ، من الدعاوى الكاذبة ، وكل ما يؤيدون هذه الدعوى بآراء وأخبار وآثار ، كما نقلوا عن أبي ذر رضي الله عنه ، فكلها مختلقة لا نصيب لها من الصحة ، بل روى عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنها نزلت في أبي بكر .

فإن قالوا : لم يثبت ما قلتم ، قلنا : وكذلك لم يثبت ما ادعيتم .

ثانيًا : إن الآية وردت بصيغة الجمع ، وعليّ مفرد ، فأنَّى يصح هذا الزعم ؟ .

ثالثًا : إنه قد استفاض عند المفسرين أن الآية نزلت في النهي عن موالاة الكفار ، والأمر بموالاة المؤمنين ، يوضح هذا أن قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ [المائدة : ٥١] ، ثم ذكر الله مرضى القلوب في محبي الكفار كالمنافقين ، ثم ذكر المرتدين ثم ذكر هذه الآية .

فقد بيَّنت الآية أحوال داخلي الإسلام من المنافقين والمرتدين والمؤمنين الثابتين ، مما يتضح بأنصع برهان بأنها عامة لكل من اتصف بتلك الصفات السنية ، لا تختص بأبي بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ، وما أدري أي مدح وأي فضيلة امتاز بها عليّ في التصدّق بذلك التافه ، حتى ينزل به القرآن يتعبد به آناء الليل وأطراف النهار ، ويشهره الرسول على الملأ ، مع أن ما أنفقه أبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن ما

يعادل أضاف أضعاف ذلك ، بل تقدر بالألوف ، وقد اشتهر عند أهل الأخبار بما لا يسع أحد جحده ، فكيف ينفق أولئك تلك المبالغ الطائلة في أوقات الشدة ، ولا يمنحون الثناء فضلاً عن استحقاق الإمامة ، وهو بالاتفاق مما لا يذكر بل يخجل عن ذكره ، يدعى له تلك الادعاءات التي لا تخفى سخافتها وبطلانها ، على أن في نسبة ذلك له تنقيص ، إذ إعطاء أحد في الصلاة مشعر بعدم الخشوع ، وفعل العبث والحركات فيه ظاهرة ، والتبجح بذلك مما يتنزه عنه الإمام .

رابعًا : إنه يبطل إمامة بقية الأئمة الذين هم من سلالته لدعوى الحصر فيه ، فقد رجع عليهم بالبطلان ، كما أن ظاهره لا يجوز أن يتولى أحد إلا أمير المؤمنين ، وهل هذا إلا نقض لما بناه القرآن وشيده من الحث على موالاة المؤمنين .

خامسًا : إن الولي قد نصت معاجم اللغة : بأن معناه مشترك بين المحب والناصر والمعين ، ولم يقل أحد بأنه الوالي أو المتصرف ، إن هذا إلا من خيالات أذهانهم ، وإذا كان بمعنى ما ذكرناه ، فلا شك أن أحدًا لا يدعي الخلافة ، ويكفِّر ويُضلل من يخالفه بدعوى أنه محب ، إذ هذه الصفة ثابتة لكل المؤمنين ، إذ يقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، أكل تواب وآيب إلى ربه يصح له تلك الدعوى الفارغة .

سادسًا : إذا سلمنا أنها نزلت فيه ، نقول : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما هو متفق عليه عندنا وعندهم ، على أننا نعارضهم بما ثبت من الآيات في شأن الصحابة ، ولا سيما أبي بكر ، فإن زعموا أنها لا تدل على ما نقول ، قلنا : وكذلك لا تدل الآية ونظراؤها على ما تدعون .

[٢] وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

قالوا : جاء في الحديث : إن النَّبي ﷺ أجلس عليًّا عن يساره ، وفاطمة عن يمينه ، والحسن والحسين بين يديه ، ثم التف عليهم بثوبه ، وتلا الآية ، وقال : « **اللهم إن هؤلاء أهلي حقًا** » ، وفي رواية ، قال : « **هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس**

وطهرهم تطهيراً » ، وهي تدل على عصمتهم مع التأكيد بلفظة إنما ، والمعصوم هو المستحق للولاية ، وقد وقع الإجماع أن نزول الآية في عليّ وفاطمة والحسن والحسين.

وإليك معاول الهدم لتلك الأبنية الواهية ، وإن كانت لا تحتاج إلى الهدم ، لكن بالنسبة إليهم لأنهم يرون أن مثل هذه الأبنية منيعة وحصينة :

أولاً : نقول :دعوى الإجماع من المفسرين أو غيرهم كاذبة خاطئة ، وقد روى المفسرون ومنهم ابن جرير : أن الآية نزلت في نساء النّبي ﷺ ، والظاهر من سياق الآية هو هذا ، لأن أولها قوله تعالى :﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ** ﴾ [الأحزاب : ٣٢ ، ٣٣] وهذا الخطاب للأزواج الطاهرات ، وهذه الآية مما ثبت أنها لهنَّ ، وهنَّ من أهل البيت لاشك ، ولو صح زعمهم لكانت هذه الآية جملة معترضة بلا قرينة ، ومن غير إشعار على انتهاء السابق وافتتاح الجديد ، وذلك مما تأباه البلاغة ولا سيما كلام الله المعجز ، فإن أردت إيضاح هذا ، فارجع إلى القرآن تجده افتتح قوله في شأن أزواجه :﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨)** ﴾ [الأحزاب : ٢٨] ، إلى قوله تعالى :﴿ **وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)** ﴾ [الأحزاب : ٣٤]، تجدها كلها في سياق أزواجه ، فمتى صح خروج هذه الآية من بينها وصرفها لأولئك الأربعة ؟ ، هل هذا إلا تفكيك لنظم القرآن ومنافيًا لأسلوب البلغاء ، ومآله الطعن في القرآن ؟ .

وسبب النزول معروف بأن نساء النّبي ﷺ سألنه من عرض الدنيا ، وطلبن زيادة في النفقة ، فنزلت هذه الآية مبينة من الأمر والنهي وجزاء المحسنات من الأجر الجزيل والفضل الجسيم ، يبيِّن هذا أن أم سلمة رضي الله عنها قالت : أشركني فيهم ، قال : أنت على خير .

ولا يفهم مجنون فضلاً عن عاقل ، أن في هذه الآية مستنداً لتلك المزاعم ، ولو سلمنا أنها نزلت فيهم ، فأي مناسبة بين دعاء النَّبي لشخص وبين الخلافة ؟ .

ثانياً نقول : إن الآية لما كانت في سياق الأزواج ، أدخل النَّبي هؤلاء الأربعة بدعائه المبارك ، إشعاراً منه بأن هؤلاء داخلون في منطقة أهل البيت ليقضي على الأوهام أن الآية لا تشمل أهل البيت يبيِّن هذا أن الآية لو كانت مختصة بهم لما كان في حاجة إلى الدعاء .

ثالثاً : ورد في الرواية الصحيحة للإمام البيهقي أن النَّبي عامل العباس وأبناءه هذه المعاملة ، ليبيِّن أنهم داخلون في لفظة أهل البيت ، ولئن صح ما يقولون ، لكان هؤلاء شركاءه في الإمامة ، وهم غير قائلين بذلك ، ومما يبطل ويفضح تلك الأستار والدعاوي ، أن فاطمة كانت فيهم وهي بالإجماع لا تصلح للإمامة .

رابعاً : هم قدرية يقولون : إنه قد يكون خلاف إرادة الله وبالعكس ، فعلى هذا دعاء لهم ، لكن فمن أين لهم بأن الله قبل ذلك الدعاء ، وإن كان دعاء النَّبي مُجاباً ، غير أنه لا يتمشي على أصول القدرية .

خامساً : أقصى ما في الحديث والآية ، أنه دعا لهم بأن يكونوا من المتقين الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم ، واجتناب الرجس واجب على المؤمنين ،والطهارة مأمور بها كل مؤمن ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿**مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ**﴾ [المائدة : ٦] ،هل هؤلاء المؤمنين مستحقون للخلافة ، أم ماذا هم قائلون ؟ ، وحينئذٍ يكون ذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم من الذنوب ، هو بعض ما وصف به السابقين الأولين ، لأنه نبأنا بأنه رضي عنهم ، وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، وما نالوا تلك المرتبة إلا بعد أن أذهب الله عنهم الرجس .

سادساً : إن كان مجرد دعاء النَّبي ﷺ يمنح رتبة الخلافة لأحد ، فقد دعا النَّبي ﷺ لأقوام كثيرة بالجنة والمغفرة ، وبمحبة الله وبالتفقه في الدين ، فما بال أولئك لا تكف الإمامية ألسنتها عنهم فضلاً عن خلافتهم وإيمانهم ، وهؤلاء تمنحهم الخلافة والعصمة ، بل وبعض صفات الألوهية بمجرد دعاء مشترك ، اللهم إن هذا جور

لا يقبله الإنصاف .

سابعًا : دعواهم العصمة لعليّ وأولاده وأبنائهم بمثل هذا الاستدلال باطلة ، لا نسلم العصمة لأحد إلا للرسل والأنبياء ، وفيهم أيضًا وقع الخلاف ، وكيف يذعن عاقل لعصمتهم وقد شاهد الناس كثيرًا من أفعالهم مما هم مخطئون فيها ، ومحتاجون لأن يتضرعوا إلى الله سائلينه العفو والغفران ، على أن الآية التي عولوا عليها تنادي بعدم عصمتهم لأنها تقول : ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾ [الأحزاب : ٣٣] ، وهل التطهير إلا من ذنوب أَلَمُّوا بها ؟ ، هذا هو الأصل والحقيقة ، إذ لا يُقال في حق من هو طاهر : إني أريد أن أطهره ، ضرورة امتناع تحصيل الحاصل ، وغاية ما في الباب أنهم محفوظون من الذنوب بعد تعلق الإرادة بإذهابها [١] .

والشيعة لا تقول بذلك ، لأن وقوع مراد الله غير لازم لإرادته عندهم ، ومما يوضحه أن الآية جملة فعلية تدل على التجدد والحدوث بالصيغة المضارعية الدالة على المستقبل ، ولو قال : إن الله أذهب عنكم الرجس لكان صحيحًا ما يقولون .

ثامنًا : إن كانت هذه الكلمة مانحة للعصمة ، فينبغي أن يكون الصحابة لاسيما الحاضرين في غزوة بدر قاطبة معصومين ، لأن الله قال في حقهم في مواضع من التنزيل : ﴿ **وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [المائدة : ٦] ، وقال : ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾ ، وظاهر أن إتمام النعمة في حق الصحابة كرامة زيادة بالنسبة إلى ذينك اللفظين ، ووقوع هذا الإتمام أدل على عصمتهم ، لأن إتمام النعمة لا يتصور بدون الحفظ عن المعاصي وشر الشيطان، تأمل أيها القاريء ، أي الفريقين أوضح حجة ،وأبين برهانًا ، وأرجح ميزانًا ؟.

---

(١) وقع الخلاف في عصمة الأنبياء ، هل معصومون من الصغائر والكبائر ، أم من الكبائر فقط ؟ ، هذا مع الاتفاق على أنهم معصومون فيما يبلغون عن الله ، والخلاف في غير ذلك .
والصحيح أنهم معوصومون من الكبائر ، وقد تقع منهم الصغائر ، ولكنهم يلهمون بالاستغفار والتوبة ، وقد سبق الكلام في الجزء السابق من عصمة الأنبياء ، فراجعه .

[٣] قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

روى أبو نعيم بإسناده إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النَّبي ﷺ دعا الناس إلى غدير خم ، وأمر بإزالة ما تحت الشجر من الشوك ، فقام فدعا عليًّا ، فأخذ بضبعيه فرفعهما حتى نظر الناس إلى بياض إبطي رسول الله ﷺ ثم لم يتفرقوا حتى نزلت هذه الآية : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر على إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ورضا الرب برسالتي ، وبالولاية لعلي من بعدي ، ثم قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم والِ من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » .

والجواب من وجوه :

أحدها : أن المستدل عليه بيان صحة الحديث ، ومجرد عزوه إلى رواية أبي نُعيم لا تفيد الصحة باتفاق الناس ، علماء السُّنَّة والشيعة ، فإن أبا نعيم روى كثيراً من الأحاديث التي هي ضعيفة ، بل هي موضوعة باتفاق علماء أهل الحديث : السُّنَّة والشيعة ، وهو وإن كان حافظًا ، كثير الحديث واسع الرواية ، لكن روى كما عادة المحدثين أمثاله ، يروون جميع ما في الباب ، لأجل المعرفة بذلك ، وإن كان لا يحتج من ذلك إلا ببعضه .

الوجه الثاني : أن هذا الحديث من الكذب الموضوع باتفاق أهل المعرفة بالموضوعات ، وهذا يعرفه أهل العلم بالحديث، والمرجع إليهم في ذلك، ولذلك لا يوجد هذا في شيء من كتب الحديث التي يرجع إليها أهل العلم بالحديث .

الوجه الثالث : أنه قد ثبت في الصحاح والمسانيد والتفاسير أن هذه الآية نزلت على النَّبي ﷺ وهو واقف بعرفة وقال رجل من اليهود لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين : آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، فقال له عمر ، وأي آية هي ؟ ، قال : قوله تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة : ٣] ، فقال عمر : إني

لأعلم أي يوم نزلت ، وفي أي مكان نزلت ، نزلت يوم عرفة بعرفة ، ورسول الله ﷺ واقف بعرفة ، وهذا مستفيض من وجوه أخر ، وهو منقول في كتب المسلمين : الصحاح والمسانيد والجوامع والسير والتفاسير وغير ذلك .

وهذا اليوم كان قبل غدير خم بتسعة أيام، فإنه كان يوم الجمعة تاسع ذي الحجة ، فكيف يقال :إنها نزلت يوم الغدير ؟! .

الوجه الرابع : أن هذه الآية ليس فيها دلالة على عَليٍّ ، ولا على إمامته بوجه من الوجوه ، بل فيها إخبار الله بإكمال الدين وإتمام النعمة على المؤمنين ، ورضا الإسلام دينًا ، فدعوى المدعى أن القرآن يدل على إمامته من هذا الوجه كذب ظاهر .

وإن قال : الحديث يدل على ذلك .

فيقال : الحديث إن كان صحيحًا فتكون الحجة من الحديث لا من الآية ، وإن لم يكن صحيحًا ، فلا حجة في هذا ولا في هذا .

فعلى التقديرين لا دلالة في الآية على ذلك ، وهذا مما يبين به كذب الحديث ، فإن نزول الآية لهذا السبب ، وليس فيها ما يدل عليه أصلاً تناقض .

الوجه الخامس : أن هذا اللفظ وهو قوله : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » ، كذب باتفاق أهل المعرفة بالحديث .

وأما قوله : « من كنت مولاه فعلي مولاه » فلهم فيه قولان ، وسنذكره إن شاء الله تعالى في موضعه .

الوجه السادس : أن دعاء النَّبي ﷺ مجاب ، وهذا الدعاء ليس بمجاب ، فعلم أنه ليس من دعاء النَّبي ﷺ لأن الذين قاتلوا عليًّا لم يخذلوه ، بل لازالوا منصورين يفتحون البلاد ، ويقتلون الكفار « وهم معاوية ومن أتى بعده من الأمويين » .

وفي الصحيح عن النَّبي ﷺ أنه قال : « **لا تزال طائفة من أُمَّتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم ، ولا من خذلهم ، حتى تقوم الساعة** » ، قال معاذ بن جبل رضي الله عنه : وهم بالشام .

والعسكر الذين قاتلوا مع معاوية ما خذلوا قط ، بل ولا في قتال عليّ ، فكيف يكون النَّبي ﷺ قال : « اللهم اخذل من خذله وانصر من نصره » ، والذين قاتلوا معه

لم يُنصروا على هؤلاء،بل الشيعة الذين يزعمون أنهم مختصون بعليّ مازالوا مخذولين مقهورين لا ينصرون إلا مع غيرهم ، إما مسلمين وإما كفار ، وهم يدعون أنهم أنصاره ، فأين نصر الله لمن نصره ؟! ، وهذا وغيره مما يبين كذب هذا الحديث . أهـ[1] .

[٤] قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ .

[الشورى : ٢٣] .

روى أحمد بن حنبل في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت ﴿ **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ** ﴾ قالوا يا رسول الله : من قرابتك الذين وجبت علينا مودتهم ؟ ، قال : عليّ وفاطمة وابناهما ، وكذا في تفسير الثعلبي ، ونحوه في الصحيحين .

وغير عليّ من الصحابة والثلاثة لا تجب مودته ، فيكون عليّ أفضل ، فيكون هو الإمام ، ولأن مخالفته تنافي المودة وبامتثال أوامره تكون مودته ، فيكون وجب الطاعة وهو معنى الإمامة .

والجواب من وجوه :

أحدهما : المطالبة بصحة هذا الحديث ، وقوله : إن أحمد روى هذا في مسنده ، كذب بيِّن،فإن مسند أحمد موجود، به من النُّسخ ما شاء الله،وليس فيه هذا الحديث، وأظهر من ذلك كذبًا قوله : إن نحو هذا في الصحيحين ، وليس هو في الصحيحين ، بل فيهما وفي المسند ما يناقض ذلك .

لكن أحمد صنَّف كتابًا في فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وغيرهم ، وقد يروي في هذا الكتاب ما ليس في المسند ، وليس كل ما رواه أحمد في المسند وغيره ، ويكون حجة عنده ، بل يروي ما رواه أهل العلم وشرطه في المسند أن لا يروي عن المعروفين بالكذب عنده ، وإن كان في ذلك ما هو ضعيف .

الوجه الثاني : أن هذا الحديث كذب موضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث ، وهم المرجوع إليهم في هذا ، ولهذا لا يوجد في شيء من كتب الحديث التي يرجع إليها .

---

(١) من منهاج السُّنَّة النبوية ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق الدكتور : محمد رشاد سالم .

الوجه الثالث : أن هذه الآية في سورة الشورى وهي مكية باتفاق أهل السُّنَّة ، بل جميع آل حم مكيات ، وكذلك آل طس ، ومن المعلوم أن عليًّا إنما تزوج فاطمة بالمدينة بعد غزوة بدر ، والحسن وُلدَ في السنة الثالثة من الهجرة ، والحسين في السنة الرابعة ، فتكون هذه الآية قد نزلت قبل وجود الحسن والحسين بسنين متعددة ، فكيف يفسر النَّبي ﷺ الآية بوجود مودة قرابة لا تُعرف ولم تُخلق بعد ؟! .

الوجه الرابع : أن تفسير الآية الذي في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما يناقض ذلك ، ففي الصحيحين عن سعيد بن جبير قال : سُئل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله تعالى : ﴿ **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ** ﴾[الشورى : ٢٣] ، فقلت : أن لا تؤذوا محمداً في قرابته ، فقال ابن عباس : عجلت ، إنه لم يكن بطن من قريش إلا لرسول الله ﷺ فيهم قرابة ، فقال : لا أسألكم عليه أجرًا ، لكن أسألكم أن تصلوا القرابة التي بيني وبينكم .

فهذا ابن عباس ترجمان القرآن ، وأعلم أهل البيت بعد عليّ ، يقول : ليس معناها مودة ذوي القربى ، لكن معناها : لا أسألكم يا معشر العرب ويا معشر قريش عليه أجرًا ، لكن أسألكم أن تصلوا القرابة التي بيني وبينكم ، فهو سأل الناس الذين أرسل إليهم أولاً أن يصلوا رحمه ، فلا يعتدوا عليه حتى يبلغ رسالة ربه .

الوجه الخامس : أنه قال : لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى ، لم يقل : إلا المودة للقربى ، ولا المودة لذوي القربى ، فلو أراد المودة لذوي القربى لقال : المودة لذوي القربى ، كما قال : ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ** ﴾[الأنفال : ٤١] ، وقال : ﴿ **مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ** ﴾[الحشر : ٧] .

وكذلك قوله : ﴿ **فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ** ﴾[الروم : ٣٨] ، وقوله : ﴿ **وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ** ﴾[البقرة : ١٧٧] ، وهكذا في غير موضع .

فجميع ما في القرآن من التوصية بحقوق ذوي قربى النَّبي ﷺ ، وذوي قربى

الإنسان ، إنما قيل فيها : ذوي القربى لم يقل : في القربى ، فلما ذكر هنا المصدر دون الاسم ، دل على أنه لم يرد ذوي القربى .

الوجه السادس : أنه لو أريد المودة لهم ، لقال: المودة لذوي القربى ، ولم يقل: في القربى، فإنه لا يقوم من طلب المودة لغيره : أسألك المودة في فلان، ولا قربى فلان، ولكن أسألك المودة لفلان والمحبة لفلان ، فلما قال : المودة في القربى ، علم أنه ليس المراد لذوي القربى .

الوجه السابع : أن يقال: إن النَّبي ﷺ لا يسأل على تبليغ رسالة ربه أجرًا ألبتة، بل أجره على الله ، كما قال: ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** ﴿٨٦﴾ ﴾ [ص : ٨٦] ،وقوله : ﴿ **أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ** ﴿٤٠﴾ ﴾[الطور: ٤٠] ، وقوله : ﴿ **قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [سبأ : ٤٧] .

ولكن الاستثناء هنا منقطع ، كما قال : ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً** ﴿٥٧﴾ ﴾[الفرقان : ٥٧] .

ولا ريب أن محبة أهل بيت النَّبي ﷺ واجبة، لكن لم يثبت وجوبها بهذه الآية، ولا محبتهم أجر للنَّبي ﷺ ، بل هو مما أمرنا الله به ، كما أمرنا بسائر العبادات .

الوجه الثامن : أن القربى معرَّفة باللام ، فلابد أن يكون معروفًا عند المخاطبين الذين أمر أن يقول لهم : ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ** ﴾ وقد ذكرنا أنها لما نزلت لم يكن قد خلق الحسن ولا الحسين ، ولا تزوج عليّ بفاطمة ، فالقربى التي كان المخاطبون يعرفونها يمتنع ، أن تكون هذه ، بخلاف القربى التي بينه وبينهم ، فإنها معروفة عندهم ، كما تقول : لا أسألك إلا المودة في الرحم التي بيننا ، وكما تقول : لا أسألك إلا العدل بيننا وبينكم ، ولا أسألك إلا أن تتقي الله في هذا الأمر .

الوجه التاسع : أنا نسلم أن عليًّا تجب مودته وموالاته بدون الاستدلال بهذه الآية ،لكن ليس في وجوب موالاته ومودته ما يوجب اختصاصه بالإمامة ولا الفضيلة.

وأما قوله : « والثلاثة لا تجب موالاتهم » فممنوع ، بل يجب أيضًا مودتهم وموالاتهم ، فإنه قد ثبت أن الله يحبهم ، ومن كان الله يحبه ، وجب علينا أن نحبه ،

فإن الحب في الله والبغض في الله واجب ، وهو أوثق عرى الإيمان ، وكذلك هم من أكابر أولياء الله المتقين ، وقد أوجب الله موالاتهم ، بل قد ثبت أن الله رضي عنهم ورضوا عنه بنص القرآن ، وكل من رضي الله عنه فهو يحبه ، والله يحب المتقين والمحسنين والمقسطين والصابرين ، وهؤلاء أفضل من دخل في هذه النصوص من هذه الأمة بعد نبيها .

وفي الصحيحين عن النَّبي ﷺ أنه قال : « **مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد الواحد ، إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر** » ، فهو أخبرنا أن المؤمنين يتوادون ويتعاطفون ويتراحمون ، وأنهم في ذلك كالجسد الواحد .

وهؤلاء قد ثبت إيمانهم بالنصوص والإجماع ، كما قد ثبت إيمان عليّ ، ولا يمكن من قدح في إيمانهم ، أن يثبت إيمان عليّ ، بل كل طريق دل على إيمان عليّ ، فإنها على إيمانهم أدل ، والطريق التي يقدح بها فيهم ، يجاب عنها كما يجاب عن القدح في عليّ وأولى ، فإن الرافضي الذي يقدح بهم ويتعصب لعليّ فهو منقطع الحجة ، كاليهود والنصارى الذين يريدون إثبات نبوة موسى وعيسى والقدح في نبوة محمد ﷺ .

ولهذا لا يمكن الرافضي أن يقيم الحجة على النواصب الذين يبغضون عليًّا ، أو يقدحون في إيمانه من الخوارج وغيرهم ، فإنهم إذا قالوا له : بأي شيء علمت أن عليًّا مؤمن أو ولي لله تعالى .

فإن قال : بالنقل المتواتر بإسلامه وحسناته .

قيل له : هذا النقل موجود في أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من أصحاب النَّبي ﷺ ، بل النقل المتواتر بحسنات هؤلاء السليمة عن المعارض ، أعظم من النقل المتواتر في مثل ذلك لعليّ .

وإن قال : بالقرآن الدال على إيمان عليّ .

قيل له : القرآن إنما دل بأسمائه عامة ، كقوله : ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الفتح : ١٨] ونحو ذلك،وأنت تخرج من ذلك أكابر الصحابة،فإخراج واحد أسهل.

وإن قال : بالأحاديث الدالة على فضائله ، أو نزول القرآن فيه .

قيل : أحاديث أولئك أكثر وأصح ، وقد قدحت فيهم .

وقيل له : تلك الأحاديث التي في فضائل عليّ، إنما رواها الصحابة الذين قدحت فيهم ، فإن كان القدح صحيحًا بطل النقل ، وإن كان النقل صحيحًا بطل القدح .

أما قوله : « المخالفة تنافي المودة » فجوابه من ثلاثة أوجه :

الأول : لا يلزم من المخالفة نفي المودة ، لأن من أوجب على غيره شيئًا ، لم يوجبه الله عليه ، وإن خالفه فلا يكون محبًا له ، وإذن فلا يكون مؤمن محبًا لمؤمن حتى يعتقد وجوب طاعته ، وهذا معلوم الفساد وظاهر البطلان .

الثاني : أن يقال : المخالفة تقدح في المودة إذا أمر بطاعته أو لم يؤمر ، والثاني منتف ضرورة ، وأما الأول فإننا نعلم أن عليًا لم يأمر الناس بطاعته في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان .

الثالث : يقال : هذا بعينه يقال في حق أبي بكر وعمر وعثمان ، فإن مودتهم ومحبتهم موالاتهم واجبة كما تقدم ، ومخالفتهم تقدح في ذلك . أ هـ(١) .

[٥] قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ .

[البقرة : ٢٠٧] .

قال الثعلبي : إن رسول الله ﷺ لما أراد الهجرة ، خلف عليّ بن أبي طالب لقضاء ديونه ورد الودائع التي كانت عنده ، وأمره ليلة خرج إلى الغار ، وقد أحاط المشركون بالدار ، أن ينام على فراشه ، فقال له : يا عليّ اتشح ببردي الحضرمي الأخضر ، ونم على فراشي ، فإنه لا يخلص إليك منهم مكروه إن شاء الله تعالى ، ففعل ذلك ، فأوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل أني قد آخيت بينكما ، وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر ، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ؟ ، فاختار كلاهما الحياة ، فأوحى الله إليهما : ألا كنتما مثل علي بن أبي طالب ، آخيت بنيه وبين محمد عليه

---

(١) من « منهاج السُنَّة النبوية » لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ، تحقيق الدكتور : محمد رشاد سالم - رحمه الله - بتلخيص .

الصلاة والسلام ، فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة ؟ ، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه ، فنزلا فكان جبريل عند رأسه ، وميكائيل عند رجليه ، فقال جبريل : بخ بخ من مثلك يا ابن أبي طالب ، يباهي الله بك الملائكة ؟ ، فأنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ وهو متوجه إلى المدينة في شأن عليّ : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ** ﴾ .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إنما نزلت في عليّ لما هرب النَّبي ﷺ من المشركين إلى الغار ، وهذه فضيلة لم تحصل لغيره تدل على أفضلية عليّ على جميع الصحابة ، فيكون هو الإمام .

الجواب من وجوه :

أحدهما : المطالبة بصحة هذا النقل ، ومجرد نقل الثعلبي وأمثاله لذلك ، بل روايتهم ليس بحجة باتفاق طوائف أهل السُّنَّة والشيعة ، لأن هذا مرسل متأخر ، ولم يذكر إسناده ، وفي نقله من هذا الجنس للإسرائيليات والإسلاميات أمور يعلم أنها باطلة ، وإن كان هو لم يتعمد الكذب .

ثانيها : أن هذا الذي نقله من هذا الوجه كذب باتفاق أهل العلم بالحديث والسيرة ، والمرجع في هذا الباب .

ثالثها : أن النَّبي ﷺ لما هاجر هو وأبو بكر إلى المدينة ، لم يكن للقوم غرض في طلب عليّ ، وإنما كان مطلوبهم النَّبي ﷺ وأبا بكر ، وجعلوا في كل واحد منهما ديته لما جاء به ، كما ثبت ذلك في الصحيح الذي لا يستريب أهل العلم في صحته ، وترك عليًّا في فراشه ليظنوا أن النَّبي ﷺ في البيت فلا يطلبوه ، فلما أصبحوا وجدوا عليًّا فظهرت خيبتهم ، ولم يؤذوا عليًّا ، بل سألوه عن النَّبي ﷺ فأخبرهم أنه لا علم له به ، ولم يكن هناك خوف على عليّ من أحد ، وإنما كان الخوف على النَّبي ﷺ وصديقه ، ولو كان لهم في علي غرض ، لتعرضوا له لما وجدوه ، فلما لم يتعرضوا له ، دل على أنهم لا غرض لهم فيه ، فأي فداء هنا بالنفس ؟ .

والذي كان يفديه بنفسه بلا ريب، ويقصد أن يدفع بنفسه عنه ويكون الضرر به

دونه ، هو أبو بكر ، كان يذكر الطلبة فيكون خلفه ، ويذكر الرصد فيكون أمامه ، وكان يذهب فيكشف له الخبر ، وإذا كان هناك ما يخاف ، أحب أن يكون به لا بالنَّبي ﷺ .

وغير واحد من الصحابة قد فداه بنفسه في مواطن الحروب ، فمنهم من قتل بين يديه ، ومنهم من شُلَّت يده كطلحة بن عبد الله ، وهذا واجب على المؤمنين كلهم ، فلو قدر أنه كان هناك فداء بالنفس ، ولكان هذا من الفضائل المشتركة بينه وبين غيره من الصحابة ، فكيف إذا لم يكن هناك خوفٌ على عليٍّ ؟ .

[٦] قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) ﴾ . [الرحمن : ١٩] .

من تفسير الثعلبي وطريق أبي نعيم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩)** ﴾ قال : عليّ وفاطمة ﴿ **بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠)** ﴾ النَّبي ﷺ وآله ﴿ **يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢)** ﴾ الحسن والحسين ، ولم يحصل لغيره من الصحابة هذه الفضيلة فيكون أولى بالإمامة .

والجواب :

إن هذا وأمثاله إنما يقوله من لا يعقل ما يقول ، وهذا بالهذيان أشبه منه بتفسير القرآن ، وهو من جنس تفسير الملاحدة والقرامطة الباطنية للقرآن ، بل هو شر من كثير منه ، والتفسير بمثل هذا طريق للملاحدة على القرآن والطعن فيه ، بل تفسير القرآن بمثل هذا من أعظم القدح فيه والطعن فيه .

والجهَّال المنتسبين إلى السُّنَّة تفاسير في الأربعة ، وهي وإن كانت باطلة فهي أمثل من هذا ، كقولهم : ﴿ **الصَّابِرِينَ** ﴾ : محمد ، ﴿ **وَالصَّادِقِينَ** ﴾ ، أبو بكر ، ﴿ **وَالْقَانِتِينَ** ﴾ عمر ، ﴿ **وَالْمُنفِقِينَ** ﴾ : عثمان ، ﴿ **وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)** ﴾ : عليّ . [آل عمران : ١٧] .

وكقولهم : ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ** ﴾ : أبو بكر ، ﴿ **أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ** ﴾ : عمر، ﴿ **رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ : عثمان ، ﴿ **تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا** ﴾ : عليّ .

وكقولهم : ﴿ وَالتِّينِ ﴾: أبو بكر، ﴿ وَالزَّيْتُونِ ﴾ : عمر، ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ۝ ﴾ : عثمان ، ﴿ الْبَلَدِ الأَمِينِ ۝ ﴾ : عليّ .

وكقولهم : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ : أبو بكر ، ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ : عمر ، ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ : عثمان ، ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ : عليّ .

فهذه التفاسير من جنس « تلك » التفاسير ، وهي أمثل من تفاسير بعض الشيعة كقولهم : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ : عليّ ، وكقولهم : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝ ﴾: إنه علي بن أبي طالب ، ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ : بنو أمية ، وأمثال هذا الكلام الذي لا يقوله من يرجو لله وقار ، ولا يقوله من يؤمن بالله وكتابه ، وكذلك قول القائل : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ ﴾ : علي وفاطمة ، ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ۝ ﴾ : النَّبي ﷺ ، ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ۝ ﴾ : الحسين والحسين ، وكل من له أدنى علم وعقل ، يعلم بالأضطرار بطلان هذا التفسير ، وأن ابن عباس لم يقل هذا .

والثعلبي شحن تفسيره بمثل هذه الروايات السقيمة ، وذكر هذه الرواية بإسناد رواته مجهولون لا يعرفون ، عن سفيان الثوري وهو كذب على سفيان ، **ومما يبين كذب هذه الرواية وخطأ هذا التفسير عدة وجوه :**

أحدها : أن هذا في سورة الرحمن ، وهي مكية بإجماع المسلمين ، والحسن والحسين إنما وُلدَا بالمدينة .

الثاني : أن تسمية هذين بحرين، وهذا لؤلؤًا، وهذا مرجانًا وجعل النكاح مرجًا ، أمر لا تحتمله لغة العرب بوجه ، لا حقيقية ولا مجازًا ، بل كما أنه كذب على الله ، وعلى القرآن فهو كذب على اللغة .

الثالث : أن الله ذكر أنه مرج البحرين في آية أخرى ، فقال في الفرقان : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ [الفرقان : ٥٣] .

فلو أريد بذلك علي وفاطمة لكن ذلك ذمًا لأحدهما ، وهذا باطل بإجماع أهل

السُّنَّة والشيعة .

الرابع : أنه قال : ﴿ **بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠** ﴾ فلو أريد بذلك علي وفاطمة ، لكان البرزخ الذي هو النَّبي ﷺ ـ بزعمهم ـ أو غيره ، هو المانع لأحدهما أن يبغي على الآخر ، وهذا بالذم أشبه منه بالمدح .

والتفسير الصحيح : مرج البحرين ، أي أرسل ، والبحران هنا بحر فارس وبحر الروم ، بينهما برزخ : منهم من فسره بالجزائر ، ولكن اكتشف الآن أن هناك برزخًا لا يرى ، ولكن يحصل عدم الاختلاط .

وهنا مناظرة لطيفة ، احتج شيعي على سُنِّي بهذه الآية على خلافة عليّ رضي الله عنه وتقديمه على الخلفاء الثلاثة ، قائلاً : إن البحرين هنا عليّ وفاطمة ﴿ **يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ۝٢٢** ﴾ هما : الحسن والحسين ، فأجابة السُّنِّي : بينهما برزخ لا يبغيان ، أي حاجز ، فلم يحصل التقارب بين عليّ وفاطمة لوجود البرزخ ، وعليه فلم يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، فانبهر الشيعي وألقم الحجر .

[٧] قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾[المائدة : ٦٧] .

اتفقوا على نزولها في عليّ ، وروى أبو نُعيم الحافظ من الجمهور بإسناده عن عطية قال : نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ في عليّ بن أبي طالب ، ومن تفسير الثعلبي قال : معناه : بلِّغ ما أُنزل إليك من ربك في فضل عليّ ، فلما نزلت هذه الآية ، أخذ رسول الله ﷺ بيد علي فقال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، والنَّبي ﷺ مولى أبي بكر وعمر وباقي الصحابة بالإجماع ، فيكون عليّ مولاهم فيكون هو الإمام .

والجواب من وجوه :

الوجه الأول : أن هذا أعظم كذبًا وفرية من الأول ، وقوله : « اتفقوا على نزولها في علي » أعظم كذبًا مما قاله في تلك الآية ، فلم يقل لا هذا ولا ذلك أحد من العلماء الذين يدرون ما يقولون ، وأما ما يرويه أبو نُعيم في « الحلية » أو في فضائل الخلفاء والنقاش والثعلبي والواحدي ونحوهم في التفسير ، فقد اتفق أهل المعرفة

بالحديث على أن فيما يروونه كثيراً من الكذب الموضوع ، واتفقوا على أن هذا الحديث المذكور الذي رواه الثعلبي في تفسيره ، هو من الموضوع للأدلة العديدة التي لا يتسع المجال لذكرها [١] ، وليس « الثعلبي » من أهل العلم بالحديث .

الوجه الثاني : أن يقال : أنتم ادّعيتم أنكم أثبتم إمامته بالقرآن ، والقرآن ليس في ظاهره ما يدل على ذلك أصلاً ، فإنه قال : ﴿ **بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ** ﴾ ، وهذا اللفظ عام في جميع ما أُنزل إليه من ربه ، لا يدل على شيء معين .

فدعوى المدعي أن إمامة عليّ هي مما بلغها ، أو مما أمر بتبليغها ، لا تثبت بمجرد القرآن ، فإن القرآن ليس فيه دلالة على شيء معين ، فإن ثبت ذلك بالنقل كان ذلك إثباتًا بالخبر لا بالقرآن ، فمن ادعى أن القرآن يدل على أن إمامة عليّ مما أُمِرَ بتبليغه ، فقد افترى على القرآن ، فالقرآن لا يدل على ذلك عمومًا ولا خصوصًا .

الوجه الثالث : أن يقال : هذه الآية مع ما عُلم من أحوال النَّبي ﷺ تدل على نقيض ما ذكروه ، وهو أن الله لم ينزلها عليه ، ولم يأمره بها ، فإنها لو كانت مما أمره

---

(١) **وقد اخترت دليلين فقط ليتضح الكلام :**

الأول : المنقولات فيها كثير من الصدق وكثير من الكذب ، والمرجع في التميز بين هذا وهذا إلى أهل علم الحديث ، كما نرجع إلى النحاة في الفرق بين نحو العرب ونحو غير العرب ، ونرجع إلى علماء اللغة فيما هو من اللغة وما ليس من اللغة ، وكذلك علماء الشعر والطب وغير ذلك ، فلكل علم رجال يعرفون به ، والعلماء بالحديث أجل هؤلاء قدرًا ، وأعظمهم صدقًا ، وأعلاهم منزلة ، وأكثر دينًا ، وهم من أعظم الناس صدقًا وأمانة ، وعلمًا وخبرة ، فيما يذكرونه من الجرح والتعديل ، مثل مالك ، وشُعبة ، وسفيان ، ويحيى بن سعد ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وابن المبارك ، ووكيع ، والشافعي ، وإسحاق بن راهويه ، وأبي عبيد ، وابن معين ، وابن المديني ، والبخاري ، ومسلم ، وأبي داود ، وغيرهم .

والثاني : إن كان المخالف يقبل كل ما رواه هؤلاء وأمثالهم في كتبهم ، فقد رووا أشياء كثيرة تناقض مذهبهم، وإن كان يرد الجميع، بطل احتجاجه بمجرد عزوه الحديث « بدون المذهب » إليهم ، وإن قيل : أقبل ما يوافق مذهبي ، وأراد ما يخالفه ، أمكن منازعه أن يقول له مثل هذا ، وكلاهما باطل ، لا يجوز أن يحتج على صحة مذهب بمثل هذا ، فإنه يقال : إن كنت إنما عرفت صحة هذا الحديث بدون المذهب ،فاذكر ما يدل على صحته ، وإن كنت عرفت صحته لأنه يوافق المذهب ، امتنع تصحيح الحديث بالمذهب ، لأنه يكون حينئذٍ صحة المذهب موقوفة على صحة الحديث ، وصحة الحديث موقوفة على صحة المذهب ، فيلزم الدور الممتنع .

الله بتبليغه ، لبلَّغه ، فإنه لا يعصي الله في ذلك ، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها : من زعم أن محمداً كتم شيئًا من الوحي فقد كذب ، والله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾[المائدة : ٦٧] .

لكن أهل العلم يعلمون بالاضطرار أن النَّبي ﷺ لم يبلِّغ شيئًا من إمامة عليّ ، ولهم على هذا طرق كثيرة يثبتون بها هذا العلم .

■ **منها** : أن هذا مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله ، فلو كان له أصل ، لنُقل كما نقل أمثاله من حديثه ، لا سيما مع كثرة ما ينقل في فضائل عليّ من الكذب الذي لا أصل له ، فكيف لا يُنقل الحق « الصدق » الذي قد بُلِّغ للناس ؟! ، ولأن النَّبي ﷺ أمر أُمَّته بتبليغ ما سمعوا منه ، فلا يجوز عليهم كتمان ما أمرهم الله بتبليغه .

■ **ومنها** : أن النَّبي ﷺ لما مات وطلب بعض الأنصار أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير ، فأُنكر ذلك عليه ، وقالوا : الإمارة لا تكون إلا في قريش ، وروى الصحابة في « مواطن » متفرقة الأحاديث عن النَّبي ﷺ في أن الإمامة في قريش ، ولم يروِ واحد منهم، لا في ذلك المجلس ولا في غيره ، ما يدل على إمامة عليّ ، وبايع المسلمون أبا بكر ، وكان أكثر بني عبد مناف من بني أُميَّة وبني هاشم وغيرهم ، لهم ميل قوي إلى عليّ بن أبي طالب يختارون ولايته ، ولم يذكر أحد منهم هذا النص ، وهكذا أجري الأمر في عهد عمر وعثمان ، وفي عهده أيضًا لما صارت له ولاية ، لم يذكر هو ولا أحد من أهل بيته ، ولا من الصحابة المعروفين هذا النص ، وإنما ظهر هذا النص بعد ذلك ، وعليه فقد ظهر بطلان احتجاج الشيعة بالآية المذكورة على تقديم خلافة عليّ . أ هـ[1] .

بعض أحاديث أوردوها تأييداً لدعواهم ومن أشهرها ما يلي :

[١] حديث غدير خم وهو من أقوى سلاحهم، إذ يحسبونه نصًا قطعيًا حاصله : أن بريدة بن الحصيب الأسلمي روى أنه ﷺ بغدير خم حين رجوعه من حجة الوداع ،

(١) من منهاج السُّنَّة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ باختصار وتصرف في بعض المواضع .

أخذ بيد عليّ مخاطبًا جماعة المسلمين ومنوهًا بمقام أمير المؤمنين قائلاً : يا معشر المسلمين ألست أولى بكم من أنفسكم ، قالوا : بلى ، قال : من كنت مولاه فعليّ مولاه ، اللهم والِ من ولاه وعاد من عاداه ، قالوا : في تقرير الاستدلال : إن المولى بمعنى الأولى بالتصرف ، وذلك عين الإمامة .

والجواب :

أولاً : أن الحديث لم يقع اتفاق على صحته ، بل من المحدثين من طعن فيه ، والبخاري ضعَّفه وناهيك به ، وحسَّنه أحمد بن حنبل ، وعلى تسليم صحته أو حسنه ، فليس فيه أدنى مستمسك يتمسك به ، ويتبين من سببه معناه بأجلى من النهار ، وذلك أن الأمير في سفر اليمن كان معه ثلة من الصحابة كبريدة الأسلمي ، وخالد بن الوليد وغيرهما ، اشتكوا بعدما أتوا من سفرهم من الأمير ، فتكلم النَّبي في حقه هكذا مبينًا أن محبته واجبة ، وأنه لا ينبغي أن يعادي أو يشتكي منه ، فأنَّى يفهم الإنسان الخلافة من هذا ، وهل هذا إلا كقول القائل : السماء بمعنى الأرض ، والبحر بمعني الجبل .

ثانيًا : أهل العربية قاطبة ينكرون ثبوت ورود المولى بمعنى الأولى ، بل قالوا لم يجيء قط المفعل بمعنى أفعل ، ولهذا خطئوا أبا زيد اللغوي بتجويز هذا تمسكًا وبيان لحاصل المعنى ، يعني النار مقركم والموضع اللائق بكم .

ثالثًا : لو سلمنا وهيهات أنه بمعني الأولى ، فلا يلزم أن يكون بمعنى المتصرف ، وفي أي لغة يقال هذا ؟، بل يكون المراد أولى بالمحبة وأولى بالتعظيم، اقرأ قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ** ﴾ [آل عمران : ٦٨] ، هل أتباع إبراهيم يكونون أولى بالتصرف في جنابه الأعظم ؟ .

رابعًا : هذه الكلمة وردت في غير موضع ، بحيث لا يتناسب أن يكون بمعنى التصرف ، كقوله تعالى : ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ** ﴾ [الأحزاب : ٦] .

إن الكلام هنا مسوق لنفي نسب الأدعياء ممن يثبتونه ، وبيان أن النسب زيد بن

حارثة لا ينبغي أن يقال له : زيد بن محمد ، والأقرباء في النسب أحق وأولى من غيرهم ، ولا دخل هنا لمعني الأولى بالتصرف في المقصود ، ومما يبين عدم المدعى ، بأن اللازم بل الصريح في هذا الحديث اجتماع الولايتين في زمان واحد ، إذ لم يقع التقييد بلفظ بعدي ، وإذا فسر بالتصرف دل على أن عليًّا شريك للنَّبي في التصرف في عهده ، وبطلانه معلوم بالضرورة ، فدل على أن المراد وجوب محبته ، إذ لا محذور في اجتماع محبتين ، والمحذور حاصل في اجتماع شركة التصرف ، فثبت انهيار هذا البناء بما أتينا عليه من قواعده .

وقوله : اللهم والِ من والاه . . . إلخ ، لا ريب أنه كذب ، وفي بعض الروايات : وانصر من نصره كذلك ، والواقع لا يؤيده في حروب عليّ مع معاوية إذ لم ينتصر ، بل كان النصر حليفًا لمعاوية في الآخر .

خامسًا : أن يقال : إن لم يكن النَّبي ﷺ قاله فلا كلام ، وإن كان قاله فلم يرد به قطعًا الخلافة بعده ، إذ ليس في اللفظ ما يدل عليه ، ومثل هذا الأمر العظيم يجب أن يبلغ بلاغًا مبينًا ، وليس في الكلام ما يدل دلالة بينة على أن المراد به الخلافة ، وذلك أن المولى كالولي ، والله تعالى قال : ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [المائدة : ٥٥] ، وقال : ﴿ **وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ** ﴾ [التحريم : ٤] ، فبيَّن أن الرسول ولي المؤمنين ، وأنهم مواليه أيضًا ، كما بيَّن أن الله ولي المؤمنين ، وأنهم أولياءه ، وأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض .

فالموالاة ضد المعاداة ، وهي تثبت من الطرفين ، وإن كان أحد المواليين أعظم قدرًا ، وولايته إحسان وتفضل ، وولاية الآخر طاعة وعبادة ، كما أن الله يحب المؤمنين ، والمؤمنين يحبونه ، فإن الموالاة ضد المعاداة والمحاربة والمخادعة ، والكفار لا يحبون الله ورسوله ، ويحادُّون الله ورسوله ويعادونه .

سادسًا : في هذا الحديث إثبات إيمان عليّ في الباطن ، والشهادة له بأنه يستحق الموالاة باطنًا وظاهرًا ، وذلك يرد ما يقول فيه أعداؤه من الخوارج والنواصب ، لكن ليس فيه أنه ليس للمؤمنين مولى غيره ، فكيف ورسول الله ﷺ له موالي، وهم صالحوا

المؤمنين ، فعليّ أيضًا له موالى بطريق الأولى والأحرى ، وهم المؤمنون الذين يتولونه .

وقد قال النَّبي ﷺ : « **إن أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقريشًا والأنصار ليس لهم مولى دون الله ورسوله** » ، وجعلهم موالي رسول الله ﷺ ، كما جعل صالح المؤمنين مواليه ، والله ورسوله مولاهم .

وفي الجملة فرق بين الولي والمولى ونحو ذلك وبين الوالي ، فباب الولاية ـ التي هي ضد العداوة ـ شيء وباب الولاية ـ التي هي الإمارة ـ شيء .

والحديث إنما هو في الأول دون الثانية ، والنَّبي ﷺ لم يقل : من كنت واليه فعلي واليه ، وإنما اللفظ : من كنت مولاه فعلي مولاه .

وأما كون المولى بمعنى الوالي ، فهذا باطل ، فإن الولاية تثبت من الطرفين ، فإن المؤمنين أولياء الله ، وهو مولاهم .

وأما كونه أولى بهم من أنفسهم ، فلا يثبت إلا من طريقه ﷺ ، وكونه أولى بكل مؤمن من نفسه من خصائص نبوته ، ولو قدر أنه نص على خليفة من بعده ، لم يكن ذلك موجبًا أن يكون أولى بكل مؤمن من نفسه ، كما أنه لا يكون أزواجه أمهاتهم ، ولو أريد هذا المعنى لقال : من كنت أولى به من نفسه فعليّ أولى به من نفسه ، وهذا لم يقله ، ولم ينقله أحد ومعناه : باطل قطعًا ، لأن كون النَّبي ﷺ أولى بكل مؤمن من نفسه ، أمر ثابت في حياته ومماته ، وخلافة عليّ ـ لو قدر وجودها ـ لم تكن إلا بعد موته ﷺ لم تكن في حياته ﷺ ، فلا يجوز أن يكون عليّ خليفة في زمن ﷺ ، فلا يكون حينئذٍ أولى بكل مؤمن من نفسه ، بل ولا يكون مولى أحد من المؤمنين ، إذا أريد به الخلافة [١] .

سابعًا : لفظ « المولى » يطلق على العبد والسيد وعلى المعتق وعلى الزعيم وعلى الناصر وعلى الأولى، فليست بصريحة كما تدعيه الشيعة في خلافة عليّ ، وأما الزيادة فهي كوفية [٢]، ولا ريب أنها كذب على رسول الله ﷺ، لأن الحق لا يدور مع أحد معين بعد رسول الله ﷺ ، حيث ما دار لا مع أبي بكر ولا عمر ولا عثمان ولا

---

(١) أ . هـ . من « منهاج السُّنَّة النبوية باختصار .

(٢) نسبة إلى أهل الكوفة .

عليّ ﷺ ، لأنه لو كان كذلك لكان بمنزلة النَّبي ﷺ يجب اتباعه في كل ما يقول ، ومعلوم أن عليًّا رضي الله عنه كان ينازعه أصحابه وأتباعه في مسائل كثيرة ولا يرجعون فيها إلى قوله بل فيها مسائل كثيرة وجد فيها .

[٢] روى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب أنه ﷺ لما استخلف عليّ بن أبي طالب في غزوة تبوك على النساء والصبيان، قال عليّ يا رسول الله أتخلفني في النساء والصبيان ، فقال النَّبي له : « **أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي** » ، استدلوا على خلافته أن المنزلة اسم جنس مضاف إلى العَلَمِ ، فيعلم جميع المنازل لصحة الاستثناء ، وإذا استثنى مرتبة النبوة ثبت للأمير جميع المنازل الثابتة لهارون ، ومن جملتها صحة الإمامة وافتراض الطاعة أيضًا لو عاش هارون بعد موسى .

والجواب :

أولاً : إن هؤلاء من فرط جهلهم وشغفهم بالمخالفة ، تارة يأتون بأكاذيب يدعمون بها حججهم ، وتارة بصحيح غايته أن يدل على منقبة وفضيلة عليّ ، وقد اتصف غيره بمثلها أو بأفضل ، واختصاص شخص بفضيلة أو خصلة حميدة لا يدل على خلافة أو إمارة ، فإن صح هذا صح لغيرهم ، إذ يقول اتصف فلان بكذا أو كذا ، واتصف فلان بكذا وكذا من محاسن الصفات وجميل الخصال ، فتكون له الخلافة ، وما أدري لماذا لا تأتي آية وحديث مقبول يصرح فيه تصريحًا لا يقبل الجدل والريب ، بأن عليّ بن أبي طالب خليفة أو إمام بعد رسول الله ﷺ ، حتى يستريح هؤلاء من هذه التكلفات والمخالفات وجر الدلائل بحسب زعمهم بالسلاسل لتلك الادعاءات ، ومن كان يمنع الرسول من هذا البيان الواضح ، وقد علمهم كل ما يحتاجون إليه من آداب الخلاء ؟ ، وأي حاجة إلى اللجوء إلى أمثال هذه الاحتجاجات الواهية ، وكيف لا يدل الأُمة على خلافة على التي هي عندهم من أهم الأمور ، ويحيلهم على مثل هذه الحجج ، ويذرهم يتكلفون ويقطعون المسافات الشاسعة لتقريب مُدَّعاهم ؟ ، ليس هذا من البيان والرحمة الموصوف بها نبينا من شيء .

ثانيًا : دعوى العموم في العلم المضاف غير مسلم بها ، بل الأصوليون على خلافها ، ويكشف ذلك أن هارون كان أسن من موسى وأفصح منه لسانًا ، وكان يخلفه في حياته وكان نبيًا ، وكان موسى شد عضده به ، فهل كانت هذه المنازل لعليّ بن أبي طالب ؟ ، والجواب لا شك بالسلب .

ثالثًا : أن النَّبي ﷺ استخلف قبل هذه المرة وبعدها أناسًا آخرين كما استخلف ابن أم مكتوم ، واستخلف بشر بن المنذر ، وفي غزوة تبوك لم يأذن لأحد في التخلف وهي آخر مغازيه ، فلم يتخلف عنه إلا النساء والصبيان ، أو من كان معذوراً ، فجعل عليًّا عليهم ، فجاء عليّ باكيًا ، وقائلاً : أتخلفني مع النساء والصبيان ؟ ، وقيل : إن بعض المنافقين طعن فيه ، وقال : إنما خلفه لأنه يبغضه ، فبيَّن له النَّبي ﷺ أني أستخلفتك لأمانتك عندي ، وإن الاستخلاف ليس بنقص ولا غض ، فإن موسى استخلف هارون على قومه ، فكيف يكون نقصًا ، والتشبيه لا يقتضي المساواة في كل شيء يبين هذا ما ثبت في الصحيحين ، لما استشار النَّبي أبا بكر وعمر ، مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم إذ قال : ﴿ **فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [إبراهيم : ٣٦] ... إلخ ، وفيه شبه أبا بكر بإبراهيم وعيسى ، وعمر بنوح وموسى ، ولم يكن القصد أن الشيخين مثل تلك الرسل في كل شيء ، لكن في ما دل عليه السياق من القوة في الله ، واللين في الله ، وكذلك هنا أنه هو بمنزلة هارون ما دل عليه السياق ، وهو استخلافه في مغيبه ، كما استخلف موسى هارون ، وهذا الاستخلاف ليس من خصائص عليّ (١) .

---

(١) ويؤيد هذا أن هارون ما كان خليفة لموسى بعده ، وإنما استخلفه في حياته عندما توجه إلى الطور ، وإنما استخلفه موسى لعسكر كان مع هارون وذهب موسى وحده ، فأما استخلاف النَّبي ﷺ ، فجميع العساكر كان معه ، فثبت أن التشبيه لا يقتضي المساواة في كل شيء ، كذلك استخلافه لا يقتضي أن يكون خليفة بعد موته .

ويقول الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : وهذا لا يوجب فضلاً عن من سواه ،واستحقاق الإمامة بعده عليه السلام ، لأن هارون لم يأل أمر بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام ، وإنما ولي الأمر بعد موسى عليه السلام يوشع بن نون فتى موسي وصاحبه الذي سافر معه في طلب الخضر ، إلى أن قال : وقد استخلف عليه السلام قبل تبوك وبعد تبوكٍ على المدينة في أسفاره رجالاً سوى عليّ رضي الله عنه ، فصح أن هذا الاستخلاف لا يوجب لعلي فضلاً على غيره ولا ولاية الأمر بعد ، كما لا يوجب ذلك لغيره من المستخلفين . الفصل٤ / ٩٤–٩٥ .

رابعًا : أن قوله أما ترضى . . . إلخ ، صريح وبيان واضح على أنه يسترضيه ويطيِّب قلبه ، لما توهم من وهن الاستخلاف ونقص درجته ، لأن في هذه المرة لم يبق غير النساء والصبيان غير الاستخلافات السابقة ، فأين هذا من دعوى الخلافة المطلقة ، ولو كان كما يقولون : فَلِمَ بعد رجوع النَّبي من تبوك جعل أبا بكر أميرًا على الحج؟، ولِمَ أردف عليًّا ؟، فقال أمير أم مأمور؟، قال : بل مأمور ، فكان أبو بكر له الولاية عليه وعلى من معه وعلى الموسم ، وعليّ يصلي خلفه، وينادي مع الناس بالموسم ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عُريان، وإنما أردفه لينبذ العهد إلى العرب، فإنه كان من عاداتهم أن لا يعقد للعفو ولا لينبذها إلا السيد المطاع أو رجل من أهل بيته .

خامسًا : نقول : إن جنحو لتأييد مدعاهم بهذا الاستخلاف ، فيرد عليهم بأن النَّبي ﷺ قد استخلف غيره قبل هذه المرة وبعدها ، فإذا لقائل أن يقول : لأولئك الخلافة بعين الحجة التي احتجت بها الإمامية .

وإن ركنوا إلى التشبيه قلنا : قد شبه غيره كأبي بكر وعمر بالرسل ، فما كان جوابًا لهم ، فهو جواب لنا ، وإن استندوا على ما ورد في حقه من أنه يحب الله ورسوله ، وأن الله ورسوله يحبانه ، وما ورد فيه من المناقب والفضائل قلنا : قد ورد لغيره مثل هذا وأفضل .

الخلاصة :

إن الحديث فيه بيان لمنقبة جليلة اتصف بها عليّ من كونه مُحبًّا لله ورسوله باطنًا وظاهرًا ، أمينًا لا ثقًا للخلافة يستطيع أن يقوم بأعبائها ، ونحن قائلون بذلك ، وخاضعون لما هنالك،وليس فيه تخصيص زمن وتصريح بأنه الخليفة من بعده متصلاً ، حتى يستطيع أن ينقض ما أسسه أهل السُّنَّة والجماعة .

وبالجملة ففضائل أبي بكر تفوق العد والحصر ، وشهرته طبقت السهل والوعر ، قضى على حروب الردة قضاء مبرمًا ، كان النصر حليفة وفتح قسمًا من العراق .

وفاة أبي بكر رضي الله عنه :

في مساء (٢١ جمادي الآخرة سنة ١٣ هـ ، وسنة ٦٣٤م) ، اختاره الله لجواره رحمه الله تعالى ، وجزاه أفضل الجزاء ، ودفن في حجرة عائشة بجوار رسول الله ﷺ ، ومدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر وعشر ليال .

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بني عدي بن كعب ، ولد لثلاث عشرة سنة خلت من ميلاد رسول الله ﷺ ، تربى على الشهامة والنجدة والجرأة وقول الحق لا يرى فيه هوادة ، فلما تشرف رسول الله ﷺ بالرسالة ، كانت سنّه سبعًا وعشرين سنة ، ولما دعي إلى الإسلام لم يكن في بداءة أمره معتقداً بصحة الرسالة وبقي متردداً ، بل حارب الإسلام حربًا شديداً ، حتى كان ينال المسلمون منه أذى كثيراً ، وفي السنة السادسة من البعثة، اقتنع بصحة الإسلام ، فأعلن إسلامه ، فكانت به للمسلمين قوة ، وذهب إلى البيت الحرام ، فأعلن لقريش تصديقه بالدين الإسلامي .

فضائله في القرآن :

قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤)** ﴾ [الأنفال : ٦٤] ، قالوا : نزلت في عمر رضي الله عنه .

بعض الأحاديث الواردة في فضله رضي الله عنه :

[١] ورد في الصحيح عن النَّبي ﷺ : « **أن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه** » .

[٢] وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لقد كان في من كان قبلكم من الأُمم مُحَدَّثُون** - أي مُلهمون - **فإن يكن في أُمَّتي أحد فإنه عمر** » .

[٣] وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **يا ابن الخطاب ، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًّا إلا سلك فجًّا غير فجَّك** » .

[٤] وصح عن النَّبي ﷺ : « **اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر** » .

خلافته رضي الله عنه :

لما مرض أبو بكر وأحسن بدنو أجله ، رأى مصلحة المسلمين في أن ينتخب خليفتهم قبل موته ، وذلك ما يعبر عنه بولاية العهد ، وكان كثيرون يرون أنفسهم

أهلاً للخلافة ، فرأى أن عمر أفضلهم وأجدرهم بالخلافة ، فعهد إليه الأمر ، وذلك يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من جمادي الآخرة (سنة ١٣هـ) .

قام في خلافته بجلائل الأعمال من نشر الإسلام ، وجهاد الأعداء ، وفتح الممالك وبث العدالة والمساواة ، ونصرة الضعيف ، وسد عوز المحتاج ، مما لم يختلف فيه اثنان، وغني عن الشاهد والبرهان ، وقد امتلأت من أخباره بطون الأسفار ، وجرت مجرى الليل والنهار .

فتوحاته رضي الله عنه :

أكمل فتح العراق والشام ، وفتح مصر والأردن وفلسطين وفارس وغيرها .

أولياته : وهي كثيرة منها ما يلي :

[١] أول من كتب التاريخ من الهجرة .

[٢] أول من اتخذ بيت المال .

[٣] أول من عسَّى بالليل .

[٤] أول من استعمل البريد لنقل الرسائل .

[٥] أول من اتخذ الدِّرة .

[٦] أول من استقضى القضاء في الأمصار .

[٧] أول من مصر الأمصار .

أخلاقه رضي الله عنه :

كان من أفذاذ الرجال ، ومن الأعلام الذين تفتخر بحياتهم الأُمم ، ويقتدي بسيرتهم أرباب الهمم ، فالجد والصبر والثبات والجلد والقوة والحزم والعدل والتقوى والتواضع والرفق والحلم والبصيرة والرأي كلها أخلاق قل أن تجتمع في عدد عديد من الرجال ، وقد اجتمعت في عمر ابن الخطاب .

وصف صعصعة بن صوحان لمعاوية : « كان عالمًا برعيته ، عادلاً في قضيته ، عاريًا من الكِبْر ، قبُولاً للعذر ، سهل الحجاب ، مصون الباب ، متحريًّا للصواب ، رفيقًا بالضعيف ، غير مُحاب للقريب ، ولا جاف للغريب » .

مطاعن الشيعة في عمر رضي الله عنه ودحضها :

[١] روى أصحاب الصحاح من مسند ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال في مرض موته : « **ائتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتابًا بألا تضلوا به من بعدي** » ، فقال عمر : إن الرجل ليهجر حسبنا كتاب الله ، فكثر اللغط ، فقال رسول الله ﷺ : « **أخرجوا عني ، ما ينبغي التنازع لدي** » ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله ﷺ .

وقال عمر رضي الله عنه لما مات رسول الله ﷺ ، : ما مات محمد ، ولا يموت حتى يقطع أيدي رجال وأرجلهم ، فلما نهاه أبو بكر وتلا عليه ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)** ﴾ [الزمر : ٣٠] ، وقوله : ﴿ **أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ** ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ، قال : كأني ما سمعت هذه الآية .

والجواب أن يُقال :

أما عمر فقد ثبت من علمه وفضله ما لم يثبت لأحد غير أبي بكر ، ففي صحيح مسلم عن عائشة عن النَّبي ﷺ أنه كان يقول : « **قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أُمَّتي أحد فعمر** » ، قال ابن وهب : تفسير محدثون : مُلهمون .

وروى البخاري عن أبي هريرة عن النَّبي رضي الله عنه قال : « **أنه كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون ، وأنه وإن كان في أُمَّتي هذه منهم ، فإنه عمر بن الخطاب** » .

وفي لفظ البخاري : « **لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن في أُمتي منهم أحد فعمر** » .

وفي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النَّبي ﷺ قال : « **بينما أنا نائم ، إذ رأيت قدحًا أتيت به فيه لبن فشربت منه ، حتى إني لأرى الري يخرج من أظفاري ، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب** » ، قالوا : فما أولته يا رسول الله ؟، قال : « **العلم** » .

وأما قصة الكتاب الذي كان رسول الله ﷺ يريد أن يكتبه فقد جاء مبينًا كما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ في مرضه : « **ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب كتابًا ، فإني أخاف أن يتمنَّى متمن ، ويقول قائل : أنا أولى ، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر** » .

وفي صحيح البخاري عن القاسم بن محمد قال : قالت عائشة ﵂: وارأساه ، فقال رسول الله ﷺ : « **لو كان وأنا حي ، فأستغفر لكِ وأدعو لكِ** » ، قالت عائشة ﵂ : واثكلاه ، والله إني لأظنك تحب موتي ، فلو كان ذلك لظللت آخر يومك معرسًا ببعض أزوجك ، فقال رسول الله ﷺ : «**بل أنا وارأساه ، لقد هممت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه ، فأعهد أن يقول القائلون ، أو يتمنَّى المتمنون ، ويأبى الله ويأبى المؤمنون** » .

وأما عمر فاشتبه عليه ، هل كان قول النَّبي ﷺ من شدة المرض ، أو كان من أقواله المعروفة ، والمرض جائز على الأنبياء ، ولهذا قال : ما له أهجر ، فشك في ذلك، ولم يجزم بأنه هجر ، والشك جائز على عمر ، فإنه لا معصوم إلا النَّبي ﷺ ، لا سيما وقد شك بشبهة ، فإن النَّبي ﷺ كان مريضًا ، لم يدر كلامه أكان من وهج المرض كما يعرض للمريض ، أو كان من كلامه المعروف الذي يجب قبوله ، ولذلك ظن أنه لم يمت حتى تبين أنه قد مات ، والنَّبي ﷺ قد عزم على أن الكتاب لا يرفع الشك ، فلم يبق فيه فائدة ، وعلم أن الله يجمعهم على ما عزم عليه كما قال : ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر .

وقول ابن عباس ﵄ **:** إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب الكتاب ، يقتضي أن هذا الحائل كان رزية ، وهو رزية ، في حق من شك في خلافة الصدِّيق ، أو اشتبه عليه الأمر ، فإنه لو كان هناك كتاب لزال هذا الشك ، فأما من علم أن خلافته حق ، فلا رزية في حقه ولله الحمد ، ومن توهم أن هذا الكتاب كان بخلافة عليّ ، فهو ضال باتفاق عامة الناس من علماء السُّنَّة والشيعة ، أما أهل السُّنَّة فمتفقون على تفضيل أبي بكر وتقديمه ، وأما الشيعة القائلون : إن عليًا كان هو المستحق للإمامة فيقولون : إنه قد نص على إمامته قبل ذلك نصًا جليًا ظاهرًا معروفًا ، فحينئذ لم يكن يحتاج إلى كتاب [١] .

[٢] إن عمر[٢] أحدث في الدين ما لم يكن منه ، كصلاة التراويح ، وإقامتها بالجماعة ، فإنها بدعة كما اعترف هو بذلك ، وكل بدعة ضلالة ، وقد روى عن النَّبي

(١) ، (٢) من كتاب مختصر التحفة الإثني عشرية .

ﷺ : « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد** » .

والجواب :

أنه قد ثبت عند أهل السُّنَّة بأحاديث مشهورة متواترة ، أنه ﷺ صلى التراويح بالجماعة مع الصحابة ثلاث ليال من رمضان جماعة ولم يخرج في الليلة الرابعة وقال : « **إني خشيت أن تُفرض عليكم** » ، فلما زال هذا المحذور بعد وفاته ﷺ أحيا عمر هذه السُّنَّة السنية ، وقد ثبت في أصول الفريقين أن « الحكم إذا كان معللاً بعلة في نص الشارع ، يرتفع ذلك الحكم إذا زالت العلة » ، واعتراف عمر بكونها بدعة حيث قال : « نعمت البدعة هي » ، فمراده أن المواظبة عليها بالجماعة شيء حديث لم يكن في عهد النَّبي ﷺ ، وما ثبت في زمن الخلفاء الراشدين والأئمة المطهرين مما لم يكن في زمنه ﷺ لا يسمى بدعة ، والحديث مخصوص بإحداث ما لم يكن له أصل في الشرع ، ومعلوم أن الشيعة لم يعتقدوا بدعية صلاة الشكر يوم قتل عمر رضي الله عنه ، وهو اليوم التاسع من ربيع الأول ، وتعظيم النيروز ، وتحليل فروج الجواري ، وحرمان بعض الأولاد من عض التركة ، إلي غير ذلك من الأمور التي لم تكن في زمنه ﷺ ، بناءً على زعمهم أن الأئمة أحدثوها .

أما أن لا يعتقد أهل السُّنَّة بدعية ما أحدثه عمر ، فلأنه من الخلفاء الراشدين ، والخلفاء الراشدون أُمرنا بالاقتداء بهم ، حيث قال رسول الله ﷺ : « **وإن من يعش منكم بعدي ، فسيرى اختلافًا كثيراً ،فعليكم بسُّنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين من بعدي ، عَضُّوا عليها بالنواجذ** » .

[٣] إن عمر (١) قصد إحراق بيت سيدة النساء وضربها على جنبها الشريف بقبضة سيفه ، حتى وضعت حملها بسبب ذلك .

والجواب :

إن هذه القصة محض هذيان وزور من القول وبُهتان ، ولذا قد أنكر صحتها أكثر الإمامية ، وأن روايتها عندهم غير صحيحة ولا مرضية ، مع أن فعْلَ عمر هذا لو فرض وقوعه ، فهو أقل مما فعله الأمير رضي الله عنه مع أمِّ المؤمنين عائشة الصدِّيقة رضي الله عنها ، مع أنه لم

(١) من كتاب مختصر التحفة الإثنى عشرية .

يلحقه طعن من ذلك عند الفريقين ، بناءً على حفظ الانتظام في أمور الدنيا والدين .

وعين الرضا من كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدي المساويا

[٤] إن عمر رضي الله عنه أنكر موت الرسول ﷺ ، وحلف أنه ﷺ لم يمت ، حتى قرأ أبو بكر قوله : ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ** ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر : ٣٠] .

والجواب :

إن ذلك من شدة دهشته بموت الرسول ﷺ ، وكمال محبته له ﷺ ، حتى لم يبق له في ذلك الحين شعور بشيء ، وكثيراً ما يحصل الذهول بسبب تفاقم المصائب وتراكم الشدائد ، لأن النسيان والذهول من اللوازم البشرية .

[٥] إن عمر لم يعط أهل البيت سهمهم من الخُمس الثابت بقوله تعالى : ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ** ﴾ [الأنفال : ٤١] ، فقد خالف حكم الله تعالى .

والجواب :

إن فعل عمر رضي الله عنه موافق لفعل النَّبي ﷺ وتحقيقه : إن أبا بكر وعمر كانا يخرجان سهم ذوي القربى من الخُمس ، ويعطيانه لفقرائهم ومساكينهم ، كما كان ذلك في زمن النَّبي ﷺ ، وعليه الحنفية وجمع كثير من الإمامية ، وذهب الشافعية إلى أن لهم خُمس الخُمس، يستوي فيه غنيهم وفقيرهم، ويقسم بينهم للذَّكر مِثْلُ حظ الأُنثيين ، ويكون بين بني هاشم والمطلب دون غيرهم ، والأمير أيضاً عمل كعمل عمر ، فقد روى الطحاوي والدارقطني عن محمد بن إسحاق أنه قال : سألت أبا جعفر محمد بن الحسين : أن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب لما ولي أمر الناس ، كيف كان يصنع في سهم ذوي القربى ؟ ، فقال : سلك به والله مسلك أبي بكر وعمر (١) .

وفاته رضي الله عنه :

ما كان يظن أن تنتهي حياة ذلك العادل بضربة خنجر ، ولكن ذلك كان حتى يعلم الناس أنه ليس في مكنة إنسان أن يرضي الخلق كافة ، فإن عمر رضي الله عنه مع عدالته

---

(١) المصدر السابق .

الواسعة ، جاء أبو لؤلؤة ، وكان من سبايا فارس ، وكان غلامًا للمغيرة بن شعبة ، يقول : إن خراج سيده عليه كثير ، قال : وكم ، قال : درهمان، قال : ما صناعتك ؟ ، قال : جار ، نقاش ، حداد ، قال : ما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال ، فحنق عليه ، ولما كان عمر داخلاً في صلاة الصبح ، دخل أبو لؤلؤة في يده خنجر لها رأسان نصابه في وسطه ، فضربه بها ست ضربات ، فخر ساقطًا ، فصلى عبد الرحمن ابن عوف بالناس بأمره ، ثم دعي له طبيب ، فلم يجد للقضاء حيلة .

اغتياله مؤامرة دبرها موالي الفُرس :

وفي الحقيقة لم يكن اغتياله إلا مؤامرة دبرها موالي الفُرس ، حينما شعروا بأن عمر قد دمر بلادهم ، وأسر ذرارهم ، وسبى نساءهم ، وكانوا كلما رأوا الأطفال من بني جنسهم يمشون في شوارع المدينة ينظرون إليهم تملؤهم الحسرة عليهم ، وكان أبو لؤلؤة فيروز المجوسي مولى المغيرة بن شعبة من أكثر الموالي حقدًا على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حتى أنه كان إذا مر به الأطفال من أبناء بلده « نهاوند » يمسح رؤوسهم بيده ويبكي ويقول : إن العرب أكلت كبدي .

وبعد التحري الدقيق ثبت أن المؤامرة مكونة من ثلاث :

الهرمزان ، وجفينة ، وأبو لؤلؤة فيروز المجوسي ، وذلك أن عبد الرحمن بن أبي بكر قال : مررت على أبي لؤلؤة قاتل عمر ومعه جفينة والهرمزان وهم يتناجون ، فلما باغتهم ، فاروا، فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصابه في وسطه ، فانظروا ما الخنجر الذي قُتِلَ به عمر ، فوجدوه الخنجر الذي نعته عبد الرحمن .

وكذلك عبد الرحمن بن عوف لما رأى الخنجر الذي قُتِلَ به عمر ، قال : رأيت هذا أمس مع الهرمزان وجفينة ، فقلت : ما تصنعان بهذه السكين ؟ ، فقالا : نقطع بها اللحم ، فإنا لا نمس اللحم .

عندئذ تأكد الأمر لدى المسلمين، ولم يعهد هناك ما يريبهم في أنها مؤامرة دبرت بين هؤلاء الثلاثة : الهرمزان وجفينة وأبي لؤلؤة .

وذلك لأن شهادة عدلين من كبار الصحابة لا يمكن للإنسان أن يصرف النظر عنها

دون أن يكون هناك أدلة قاطعة مبرئة للمتهمين ، والحق أن لكل منهم قصة تدينه وتضعه في قفص الإتهام حتى تثبت براءته .

فأما الهرمزان : فهو رجل شديد التعصب ضد العرب، وقد عاهده المسلمون مرات، وفي كل مرة كان ينقض العهد عندما تسنح له سانحة ، ولم يدخل في الإسلام إلا حينما رأى السيف فوق هامته .

وأما جفينة : فكان رجلاً نصرانيًا ، وكان صديقًا لسعد بن أبي وقاص ، أقدمه المدينة لما كان يستملحه من حديثه، وكان جفينة يعلّم الكتاب بالمدينة ، ورجل يعيش في المدينة بين المسلمين، ويخالط كبار الصحابة،ثم يظل متمسكًا بدينه الباطل،ولا يرى الحق الذي ظهر لكل ذي عينين،لايستبعد أن يشترك في هذه المؤامرة، بل يستطيع الإنسان أن يقطع بذلك ، فهو عدو للإسلام ، ويغيظه كل تفوق للمسلمين .

وأما أبو لؤلؤة : فهو الذي كان يبكي حنينًا لأسرى نهاوند ، وهو الذي هدد عمر حينما قال له : لأصنعن لك رحى يتحدث بها الناس .

فالهرمزان إذًا رجل موتور في دينه وملكه ، وجفينة رجل على غير دين الإسلام ، يخفي في نفسه من الحقد ما يدفعه للاشتراك في المؤامرة ، وأبو لؤلؤة أسير ذليل ، يرى أن المسلمين سلبوه حريته وإنسانيته ، وثالوث في هذا الوضع لا يستطيع أحد أن يقول ببراءته من تلك المؤامرة الدنيئة ، التي لا يقصد بها عمر في ذاته ، ولكنه يقصد كخليفة للمسلمين ، رفع راية الإسلام ، وأذل أعداء الدين (١) .

وأما اتهام كعب الأحبار بأن له ضلعًا في المؤامرة ، لأنه أخبر عمر قبل موته بثلاثة أيام ، وأنه كلما مضى يوم ، يأتي ويقول : مضي يوم وبقي يومان ، ولما مضى يومان ، قال : لم يبق إلا اليوم ، حتى طعن عمر ، فأتاه بعد الطعن وقال له : لقد أخبرتك ، لم يثبت الاتهام ، لأنه لم يثبت عن كعب أنه قال لعمر : كذا وكذا ، ولهذا أعرض عن هذه الحكاية كثير من المؤرخين .

---

(١) من « جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين » د . محمد السيد الوكيل بتصرف وتلخيص وإضافة (ص ٢٨٢ ، ٢٨٦) .

كانت وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حدثًا جللاً أصيب به المسلمون ، وكان وقعه أليمًا ، فقد كان اغتياله فجيعه ألمت بهم ، فقد مات - رحمه الله - والمسلمون في أمس الحاجة إليه إمامًا عادلاً ، وخليفة ملهمًا ، وقائدًا شجاعًا ، يقودهم من نصر إلى نصر بعقله المدبر ، ويحل مشكلاهم بعبقريته الفذة ، ويسوي بينهم في المغرم والمغنم .

اختاره مولاه لجواره ليلة الأربعاء لثلاث ليالٍ بقين من ذي الحجة (سنة ٣٢ هـ) ، ودفن في حجرة عائشة مع صاحبيه، مدة خلافته عشر سنوات وستة أشهر وأربع أيام ، سنه كصاحبه (٦٣ سنة) .



عثمان بن عفان رضي الله عنه

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أُمية بن عبد الشمس بن عبد مناف الأموي القرشي ، وُلِدَ في السنة الخامسة من ميلاد رسول الله ﷺ ، وشبَّ على الأخلاق الكريمة والسيرة الحسنة ، مملوء من الحياء والفقه والزهد ، كان من السابقين الأولين ، زوَّجه ﷺ بابنتيه ، وحضر المشاهد كلها ، ولم يتخلف إلا في بدر لتمريض رقيه ، وبشَّره النَّبي بالجنة .

فضائله رضي الله عنه من القرآن :

قال تعالى : ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٩)** ﴾ [الزمر : ٩] ، قالوا : نزلت في عثمان رضي الله عنه .

بعض الأحاديث الواردة في فضله رضي الله عنه :

[١] أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أن النَّبي جمع ثيابه حين دخل عثمان وقال : «**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة** » .

[٢] وقال رسول الله ﷺ : « **من جهز جيش العسرة فله الجنة** » .

[٣] وقال : « **إن الله أوحى إليّ أن أزوِّج كريمتي من عثمان بن عفان** » .

[أخرجه الترمذي والحاكم وصححه] (١) .

[٤] عن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان إلى النَّبي بألف دينار حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره ، فجعل رسول الله ﷺ يقبلها ويقول : « **ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم ، ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم** » .

---

(١) وأخرجه الخطيب عن ابن عباس وابن عساكر عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، ولهذا الحديث شواهد منها أخرج الطبراني في الكبير والأوسط عن أم عياش أن رسول الله ﷺ قال : « **ما زوَّجت عثمان بأم كلثوم إلا بوحي من السماء** » ، قال النور الهيثمي : إسناده حسن لما تقدمه من الشواهد مثل حديث ابن عباس وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وما أخرجه ابن ماجه ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **يا عثمان ، هذا جبريل يخبرني أن الله قد زوَّجك أم كلثوم بمثل صداق رقية وعلى مثل صحبتها** » .

[٥] وورد : « **لكل نبي رفيق في الجنة ، ورفيقي فيها عثمان** » .

[٦] أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن عائشة أن النَّبي ﷺ قال لعثمان : « **يا عثمان إن الله مقمَّصك قميصًا ، فإن أرادك المنافقون على خلعه ، فلا تخلعه حتى تلقاني** » .

[٧] وأخرج البخاري عن أبي عبد الرحمن السلمي أن عثمان حين حوصر أشرف عليهم فقال : أنشدكم بالله ولا أنشد إلا أصحاب النَّبي ﷺ ، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : « **من جهز جيش العسرة فله الجنة** » ، فجهزتهم ، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال :«**من حفر بئر رومة فله الجنة**» فحفرتها ، فصدَّقوه بما قال .

[٨] وعن أبي موسي أنه كن مع النَّبي ﷺ في حائط من حيطان المدينة ، فجاء رجل يستفتح ، فقال النَّبي ﷺ : « **افتح له وبشِّره بالجنة** » ، ففتحت فإذا أبو بكر ، فبشرته بالجنة ، ثم استفتح رجل آخر فقال : « **افتح له وبشِّره بالجنة** » ، فإذا عمر ، ففتحت له وبشرته بالجنَّة ، ثم استفتح رجل آخر وكان متكئًا فجلس ، فقال : « **افتح له وبشِّره بالجنة على بلوى تُصيبه أو تكون** » ، فإذا عثمان ففتحت له وبشرته بالجنة ، فأخبرته بالذي قال ، فقال : الله المستعان (١) .

[٩] وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : ارتج أُحد وعليه النَّبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان ، فقال النَّبي ﷺ : « **اسكن أُحد ، فما عليك إلا نبي وصدِّيق وشهيدان** » [رواه أحمد] (٢) .

خلافته رضي الله عنه :

لما أحس عمر رضي الله عنه بدنو أجله ، طلب إليه أن يعهد إلى خليفة من بعده ، فتردد ، وقال : أن أستخلف ، فقد استخلف من هو خير مني « يريد أبا بكر » ، وأن أترك ، فقد ترك من هو خير مني « يريد رسول الله ﷺ » ، لوما كرر عليه القول : رأى أن

---

(١) الحديث أخرجه الباري في فضائل عثمان .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في فضائل الصحابة عن أنس رضي الله عنه في أماكن عدة ، ومسلم في فضائل الصحابة ، والترمذي في المناقب وأبو داود والنسائي ، وابن ماجه في المقدمة وأحمل .

أجدر الموجودين بالخلافة الذين قال رسول الله ﷺ أنهم من أهل الجنة : « **عليّ ، وعثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله** » .

فلما دفن عمر ، جمع المقداد أهل الشورى ، وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : أيكم يخرج نفسه منها ولا يتقلدها على أن يوليها أفضلكم ، فلم يجبه أحد ، قال : فأنا أنخلع منها ، قال عثمان : فأنا أول راض ، ثم تتابع القوم على الرضا ، وبذلك صار الأمر في عنق عبد الرحمن بن عوف ، فدار لياليه يلقى أصحاب رسول الله ﷺ ، ومن وافى في المدينة من أمراء الأجناد ، وأشرف الناس يشاورهم ، فوجد ميلهم إلى عثمان بن عفان ، كما أرسل لكل واحد من أهل الشورى على حده وتحدث معه ، ولما صلوا الصبح جمع رجال الشورى ، وبعث إلى من حضر من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار والأمراء حتى ارتج المسجد بأهله ، ودعا عليًّا ، فقال : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسُنَّة رسوله وسُنَّة الخليفتين من بعده ، قال : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ، ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي ، فقال : نعم ، فبايعه عبد الرحمن بالخلافة ، ولما رأى ذلك عليّ تأخر وهو يقول : سيبلغ الكتاب أجله ، ثم أقبل الناس يبايعون عثمان ، ورجع عليّ يشق الناس حتى بايع عثمان ، وكانت بيعة عثمان يوم الإثنين لليلة بقيت من ذي الحجة (سنة ٢٣هـ) .

مآثره وأولياته :

[١] أسلم قديمًا وهو ممن دعاه الصدِّيق إلى الإسلام .

[٢] هاجر الهجرتين إلى الحبشة الأولى ، والثانية إلى المدينة .

[٣] تزوج رقية بنت رسول الله ﷺ ، وماتت عنده في ليالي غزوة بدر ، تأخر عنها لتمريضها بإذن رسول الله ﷺ ، فضرب له بسهمه وأجره ، فهو معدود من البدريين بذلك ، وجاء البشير بنصر المسلمين يوم دفنوها بالمدينة ، ثم زوَّجه رسول الله ﷺ أختها أم كلثوم ، وتوفيت عنده سنة تسع من الهجرة ، قال العلماء : ولا يعرف أحد تزوج بنتي نبي غيره ، ولذا سمي ذي النورين ، فهو من السابقين الأولين وأول المهاجرين .

[٤] أحد العشرة المشهود لهم بالجنة .

[٥] أحد الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ .

[٦] أحد الصحابة الذين جمعوا القرآن ، ومر أن الصدِّيق جمعه أيضًا ، وإنما تميز عثمان بجمعه في المصحف على ترتيبه المعروف اليوم .

[٧] استخلفه رسول الله ﷺ على المدينة في غزوة ذات الرقاع وإلى غطفان .

[٨] كان أول الناس إسلامًا بعد أبي بكر وعليّ وزيد بن حارثة وكان ذا جمال مفرط .

[٩] وبايع عنه رسول الله ﷺ بشمال يديه في قصة الحديبية ، عندما بايعته الصحابة على مناجزة قريش .

[١٠] جهّز جيش العسرة .

[١١] اتصف بالحياء الكامل حتى استحت منه الملائكة .

[١٢] فتح الله على يديه في خلافته الفتوحات الكثيرة .

[١٣] أنشأ أسطولاً للغزاة عن طريق البحر .

[١٤] أول من أقطع القطائع ، وأول من حمى الحمى ، وأول من أمر بالأذان الأول في الجمعة ، وأول من رزق المؤذنين .

أخلاقه رضي الله عنه :

كان لين الجانب ، رؤوف القلب ، محسنًا إلى الرعية ، عادلاً فيما بينهم ، كريمًا ، عفيفًا ، سخيًا ، شفوقًا ، زاهدًا ، نائلاً رضاء الرسول ﷺ ، وثناء الأمة .

مقتله رضي الله عنه :

اجتمعت أوباش من مختلف الأقطار، ثائرين عليه بدعاية خبيثة، أسسها عبد الله ابن سبأ ، ذلك اليهودي الذي أظهر الإسلام نفاقًا ليضل الناس ، وشايعه من الفرس وغيرهم من الناقمين على الإسلام ، لما زلزل عروش ملوكهم ، وقضى على كثير من آرائهم ومعتقداتهم ، وطلبوا منه أن يتخلى عن الخلافة ، وزعموا أن لديهم من المطاعن والانتقادات التي تسوغ لهم خلعه أو قتله ، فرد اعتراضاتهم بأوضح برهان ، مما شهد له الأصحاب معترفين بذلك ، وبرأ نفسه عما ألصقوه به من المفتريات ، فلم

يرجعوا لقوله ، ولم يقبلوا كلامه ، وأخيرًا حاصروه في بيته ، ومنعوا عنه الماء ، فاستأذنه الأصحاب الحاضرون ليدافعوا عنه فلم يجب ، فتمكن أولئك الثائرون ، وتسوروا عليه الجدار ، ودخلوا عليه وزوجته نائلة كانت معه ، فقتلوه وهو يتلو القرآن الشريف ، ودام الحصار أربعين يومًا ، وقيل ثمانين يومًا .

مدة خلافته رضي الله عنه :

ومدة خلافته إحدى عشر سنة وأحد عشر شهرًا ، وثلاثة عشر يومًا ، وكان مقتله (سنة٣٥ هـ) لثمان عشر خلت من ذي الحجة،وقيل يوم التروية، عمره (٨٢ سنة) ، وقيل (٨٨ سنة) ، وقيل (٩٠ سنة) ، وصلى عليه الزبير ، وقيل جُبير بن مُطعم ونفر قليل ، ودُفِنَ بالبقيع رضي الله عنه .

مطاعن الشيعة وأجوبتها :

[١] قالوا : اعتدى بتولية الوليد بن عقبة ، وأنه سكر فصلى بهم الفجر أربع ركعات ، ثم التفت فقال أزِيدكُم ؟ (١) .

---

(١) والصحيح أن الوليد براء من هذه الجريمة النكراء ، وأنه مكذوب عليه فيها ، روى الطبري : أن الوليد قدم الكوفة وكان أحب الناس في الناس وأرفقهم بهم ، فكان ذلك خمس سنين ، وليس على داره باب ، ثم إن شبابًا من شباب أهل الكوفة لقيوا عليّ بن الحيسمان الخزامي فقتلوه ، وأحاط بهم الناس وأخذوهم ، وكان فيهم زهير بن جندب ، ومورع بن أبي مورع الأسدي ، وشبيل بن أبي الأزدي في عدة ، فشهد عليهم أبو شريح الخزاعي ، وهو من أصحاب رسول الله ﷺ وابنه ، وكانا جارين لابن الحيسمان ، فكتب فيهم الوليد إلى عثمان ، فكتب إليه عثمان في قتلهم ، فقتلهم الوليد ، ثم إن الوليد أتاه صديق له نصراني ، يدعى أبا زبيد ، كان الوليد قد انتصر له في بني تغلب حينما كان على الجزيرة من قبل عمر بن الخطّاب ، وكان أبو زبيد نازلاً في بني تغلب ، وهم أخواله فاضطهدوه ، فأخذ له الوليد بحقه ، فشكرها له أبو زبيد ، وانقطع إليه ، فلما ولي الوليد الكوفة أتاه أبو زبيد مسلمًا معظمًا على مثل ما كان يأتيه في الجزيرة والمدينة ، فلم يزل به الوليد يدعوه إلى الإسلام حتى أسلم وحسُن إسلامه ، فكان من خاصته ، وكان أبو زبيد عربيًا شاعرًا ، فأتى آت أبا شبيل وأبا مورع وجندبا ـ وهم يحقدون على الوليد منذ قتل أبناءهم ، ويضعون له العيون ـ فقال لهم : هل لكم في الوليد يشارب أبا زبيد ؟ ، فثاروا في ذلك فقالوا لأناس من وجوه أهل الكوفة : هذا أميركم وأبو زبيد خيرته ، وهما عاكفان على الخمر ، فقاموا معهم ، ومنزل الوليد في الرحبة مع عمارة بن عقبة ، وليس عليه باب ، فاقتحموا عليه من المسجد وبابه إلى المسجد ، فلم يفجأ الوليد إلا بهم ، فنحى شيئًا فأدخله تحت السرير ، فأدخل بعضهم يده فأخرجه، لا يؤامره ، فإذا طبق عليه تفاريق عنب ، وإنما نحاه استحياء أن يروا طبقًا عليه ليس إلا تفاريق =

الجواب :

أنه قد ولى رسول الله بعض الناس على الصدقة ، ففسق فأنزل الله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)** ﴾ [الحجرات : ٦] ، فليس يلحق عثمان إلا ما لحق رسول الله ، وولى عليّ المختار بن أبي عبيد المدائن فأتاه بصرة ، فقال : هذه من أجور المومسات ، فقال علي : قاتله الله ، لو شق عن قلبه لوجد فيه حب اللات والعزى .

وللإمام أن يولي من يراه لائقًا ، وما يدريه ماذا يكون في المستقبل ، ولما تحقق لديه فسقه وجوره عزله ، كما عزل الوليد ، هذا ما قاله كثيرون من المؤرخين ، والصحيح أنه لم يثبت ما نُسب إلى الوليد ، ولكن هذه دعايات السبئيين والناقمين على الصحابة .

تنبيه : ابتلاء الوليد بالأعداء منذ عصر صاحب الرسالة :

كما أحب أن أبيِّن أن الوليد بن عقبة ابتلي بأعداء منذ عصر صاحب الرسالة ، حتى أن كثيرًا من المفسرين ذكر تحت قوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)** ﴾ أن الوليد أرسله النَّبي ﷺ إلى بني المصطلق ليأخذ منهم الزكوات ، فلما ذهب إليهم رجع إلى

عنب ، فقاموا ، فخرجوا على الناس ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، وسمع الناس بذلك فأقبلوا عليهم يسبونهم ويطعنونهم ، فستر عليهم الوليد ذلك وطواه عن عثمان ، ولم يدخل بين الناس في ذلك بشيء ، وكره أن يفسد بينهم ، فسكت عن ذلك وصبر .

وفي رواية أخرى: إن جندبًا ورهطًا معه جاءوا إلى ابن مسعود، فقالوا: الوليد يعتكف على الخمر، وأذاعوا ذلك حتى على ألسن الناس ، فقال ابن مسعود : من استتر عنا بشيء لم نتتبع عورته ، ولم نهتك ستره ، فأرسل الوليد إلى ابن مسعود فعاتبه على ذلك ، وقال : أيرضى من مثلك أن يجيب قومًا موتورين بما أجبت علي؟ ، أي شيء أستتر به ؟ ، إنما يقال هذا للمريب .

ثم إن شبيل وأبا مورع سرقا خاتم الوليد ، فقدما به علي عثمان في نفر ممن يعرف عثمان ممن قد عزل الوليد من الأعمال ، فقالوا له : فقال لهم : من يشهد ؟ ، قالوا : أبو شبيل وأبو مورع وغيرهما ، فقال عثمان : كيف رأيتمان ؟ ، قال : كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر ، قال عثمان : ما يقيء الخمر إلا شاربها ، فبعث إليه ، فلما دخل على عثمان رآهما ، ثم حلف الوليد لعثمان وأخبره خبرهم ، فقال عثمان: نقيم الحدود ويبوء شاهدا الزور بالنار، فاصبر يا أخي.

أ . هـ . من الخليفة المفترى عليه ، عثمان بن عفان ، للشيخ : محمد صادق عرجون (ص ٧٨) .

النَّبي وزعم أنهم امتنعوا وأرادوا قتله ، والحال لم يكن الأمر كما زعم الوليد ، بل تلقوه بالتكريم تعظيمًا لأمر رسول الله ﷺ ، وحدَّثه الشيطان أنهم يريدون قتله من أجل أنه كان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فلما قال : أرادوا قتلي ، غضب النَّبي وأراد أن يغزوهم ، فبلغ القوم رجوع الوليد فأتوا النَّبي ، وقالوا : يا رسول الله سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي له ما قبلناه من حق الله ، فبدا له الرجوع ، فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاءه منك لغضب غضبته علينا ، وإنا نعوذ بالله من غضب الله ، ومن غضب رسوله ، فأرسل إليهم خالد بن الوليد وأخذ الزكوات .

وهذه القصة لا أساس لها من الصحة ، بل إن المرسل إليهم كان رجلاً غير الوليد ابن عقبة ، وكان الوليد إذ ذاك صغيراً .

[٢] قالوا : أدخل الحكم بن مروان المدينة ، وكان الرسول له نافيًا .

الجواب :

نفاه الرسول لحبه المنافقين وتهييجه الفتن بين المسلمين ، وبعد وفاته ﷺ زال الكفر والنفاق ، فلم يبق محذور .

وأما إرجاعه وعدم إرجاع الشيخين إياه ، لما حصل عندهما من ظن بقائه على ما كان عليه ، على أن عثمان أجابهم : أني كنت أخذت الإذن من رسول الله ﷺ في مرض موته ، وأيضًا قد ثبت أن الحكم تاب في آخر عمر ، ومن تاب تاب الله عليه .

فأهل البدع ومبغضو أصحاب الرسول ﷺ ولا سيما عثمان بن عفان،أشاعوا في الناس هذه الفرية وتناقلها كثير من المؤرخين والكتَّاب،ولم يحققوا الموضوع كما ينبغي .

[٣] وهب لأهل بيته وأقاربه شيئًا كثيراً من المال ، وصرف من بيت المال مصارف كثيرة في غير محلها .

الجواب :

على فرض التسليم أنه كان من الأغنياء المتمولين ، وأنه أعطى من كيسه لا من بيت المال ، على أن العصر لا يخلو من جهال يقولون ما لا يعلمون ، فقد قسم رسول الله ﷺ فقال له رجل : هذه قسمة ما أُريد بها وجه الله .

وقال رضي الله عنه للصحابة الذين ألحوا عليه في قتل رؤساء زعموا أنهم يذاكرونها ليوجبوها عليَّ عند من لا يعلم : إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم ، إلا أنهم زعموا أنهم يذاكرونها ليوجبوها عليَّ عند من لا يعلم .

قالوا : أتم الصلاة في السفر ، وكانت لا تتم ، ألا وأني قدمت بلداً فيه أهلي ، فأتممت لهذين الأمرين ، أو كذلك ؟ ، قالوا : اللهم نعم .

وقالوا : وحميت الحمى،أما الحمى فإن عمر حمى الحمى لما زاد من إبل الصدقة، وما لي من بعير غير راحلتي، وما لي ثاغية ولا راغية ، وإني قد وليت وإني أكثر العرب بعيراً وشاة ، فمالي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي أو كذلك ؟ ، قالوا : نعم .

وقالوا : كان القرآن كتباً فتركتها إلا واحداً ، وإن القرآن واحد جاء من عند واحد، وإنما أنا في ذلك تابع لهؤلاء أو كذلك ؟ ، قالوا : اللهم نعم ، وسألوه أن يقتلهم .

وقالوا : إني رددت الحكم ، وقد سيره رسول الله ﷺ ، والحكم مكي سيره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف ، ثم رده رسول الله ﷺ ، فرسول الله سيره ورسول الله رده ، أو كذلك ؟ ، قالوا : اللهم نعم .

وقالوا : استعملت الأحداث ، ولم أستعمل إلا مجتمعاً محتملاً مرضياً ، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم ، وقد ولى من قبلي أحدث منهم ، وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ أشد مما قيل لي في استعمال أسامة ، أكذلك؟، قالوا : اللهم نعم ، يعيبون للناس ما لا يفسرون .

وقالوا : إني أعطيت ابن أبي سرح ما أفاء الله عليه ، وإني إنما نفلته خُمس ما أفاء الله عليه من الخُمس وكان مئة ألف، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك ، فرددته عليهم ، وليس ذلك لهم ، أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

وقالوا : أحب أهل بيته وأعطاهم ، فأما حبِّي ، فإنه لم يمل علي جور ، بل أحمل الحقوق عليهم ، وأما إعطاؤهم فإن ما أعطيهم من مالي ، ولا أستحل أموال المسلمين

لنفسي ، ولا لأحد من الناس ، ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول الله وأبي بكر وعمر ، وأنا اليوم شحيح حريص ، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي ، وفني عمري وودعت الذي لي في أهلي ، قال الملحدون ما قالوا ؟ ، وأبي المسلمون إلا قتلهم ، وأبيت إلا تركهم . أ هـ(١) .

[٤] أبطل سُنة القصر في الصلوات في السفر :

الجواب :

ترك القصر اجتهاداً منه ، إذ سمع أن الناس افتتنوا بالقصر، وفعلوا ذلك في منازلهم ، فرأى أن السُّنَّة ربما أدت إلى إسقاط الفريضة ،فتركها خوف الذريعة مع أن الجماعة من العلماء قالوا : إن المسافر مُخير بين القصر والإتمام ، واختلف في ذلك الصحابة رضي الله عنهم .

[٥] ضربه لعمار حتى فتق أمعاءه، ولابن مسعود حتى كسر أضلاعه ومنعه عطاءه:

الجواب :

وأما ضربه لابن مسعود ومنعه عطاءه ، فزور ، وضربه لعمار إفك مثله ، ولو فتق أمعاءه ما عاش أبداً .

وقد اعتذر عن ذلك العلماء بوجوه لا ينبغي أن يشتغل بها ، لأنها مبنية على باطل ، ولا يبنى حق على باطل ، ولا نذهب الزمان في مماشاة الجهال ، فإن ذلك لا آخر له .

[٦] أجلى أبا ذر إلى الربذة :

الجواب :

أما نفيه أبا ذر إلى الربذة فلم يفعل ، كان أبو ذر زاهداً وكان يقرع عمال عثمان ، ويتلو عليهم ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾[التوبة : ٣٤] ، ويراهم يتسعون في المراكب والملابس حيث وجدوا ،

(١) من « السبئيون » (ص ٢١ ، ٢٢) .

فينكر ذلك عليهم ، ويريد تفريق جميع ذلك من بين أيديهم ، وهو غير لازم ، قال ابن عمر وغيره من الصحابة : إن ما أديت زكاته فليس بكنز ، فوقع بين أبي ذر ومعاوية كلام بالشام ، فخرج إلي المدينة فاجتمع إليه الناس ، فجعل يسلك تلك الطرق فقال له عثمان : « لو اعتزلت » معناه : أنك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس ، فإن للخلطة شروطًا وللعزلة مثلها ، ومن كان على طريقة أبي ذر ، فحاله يقتضي أن ينفرد بنفسه ، أو يخالط ويسلم لكل أحد حاله ، مما ليس بحرام في الشريعة ، فخرج إلى الربذة زاهداً فاضلاً ، وترك فضلاء وكل على خير وبركة وفضل ، وحال أبي ذر فضل لا تمكن لجميع الخلق ، فلو كانوا عليها لهلكوا ، فسبحان مرتب المنازل .

ومن العجيب أن يؤخذ عليه في أمر فعله عمر ، فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سجن ابن مسعود في نفر من الصحابة سنة بالمدينة حتى استشهد ، فأطلقهم عثمان ، وكان سجنهم لأن القوم أكثروا الحديث عن رسول الله ﷺ .

ووقع بين أبي ذر ومعاوية كلام ، وكان أبو ذر يطلق من الكلام مالم يكن يقوله في زمان عمر ، فأعلم معاوية بذلك عثمان ، وخشي من العامة أن تثور منهم فتنة ، فإن أبا ذر كان يحملهم على التزهد وأمور لا يحتملها الناس كلهم ، وإنما هي مخصوصة ببعضهم ، فكتب إليه عثمان ـ كما قدمنا ـ أن يقدم المدينة ، فلما قدم اجتمع إليه الناس ، فقال لعثمان : أريد الربذة ، فقال له : افعل ، فاعتزل ، ولم يكن يصلح له إلا ذلك لطريقته .

نبذة مختصر عن عبد الله بن سبأ

ولما كان محرك الفتنة على سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، تلك الفتنة الظالمة التي أدت إلى قتله شهيداً هو عبد الله بن سبأ ، فإتمامًا للفائدة ، وتنويرًا لأذهان القراء ، أذكر كلامًا عن ابن سبأ ، وما قيل فيه ، وهاك بيانه :

يقول شيخ المؤرخين الإمام الطبري (٣١٠هـ) :

كان عبد الله بن سبأ يهوديًا من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، فأسلم زمن عثمان ثم تنقل في بلدان المسلمين ، يحاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أهل الشام ، فأخرجوه حتى استقر في مصر ، فاعتمر فيها ، فقال لهم فيما يقول : فعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمداً يرجع ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ** ﴾ [القصص : ٨٥] ، فمحمد أحق بالرجوع من عيسى ، فقبل ذلك عنه ، ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها [١] .

يقول البغدادي (٤٢٩هـ) :

كان ابن السوداء في الأصل يهوديًا من أهل الحيرة ، فأظهر إسلامه ، وأراد أن يكون له عند أهل الكوفة سوق ورياسة ، فذكر لهم أنه وجد في التوراة أن لكل نبي وصيًا ، وأن عليًّا وصي محمد ، وأنه خير الأوصياء ، كما أن محمداً خير الأنبياء ، فلما سمع ذلك منه شعية عليّ ، قالوا لعلي : إنه من مجيبك ؟ ، فرفع على قدره ، وأجلسه تحت درجة منبره ، ثم بلغه عنه غلوه فيه ، فهم أن يقتله ، فنهاه ابن عباس وقال : إن قتلته اختلف عليك أصحابك ، وأنت عازم على العود إلى قتال أهل الشام ، وتحتاج إلى مداراة أصحابك ، فلما خشى الفتنة التي خافها ابن عباس ، نفاه إلى المدائن ، فافتتن به الرعاع بعد قتل علي . أ هـ[٢] .

---

(١) انظر بقية الكلام في تاريخ الطبري (٣ / ٣٧٨-٣٧٩) مطبعة الاستقامة ، القاهرة ١٩٣٩م ، « السبئيون » (ص ١٣) .

(٢) من « السبئيون منهجًا وغاية » د . حمدي عبد العال .

ويقول المقريزي (٨٤٨هـ) :

مبينًا لنا الاسم الكامل لابن سبأ : وقام في زمانه ـ أي زمن علي بن أبي طالب ـ عبد الله بن وهب بن سبأ المعروف بابن السوداء السبئي ، وأحدث القول بوصية رسول الله لعلي بالإمامة من بعد بالنص ، وأحدث القول برجعة عليّ والنَّبي وأنه حي ، وأن فيه الجزء الإلهي ، ومن ابن سبأ تشعبت أصناف الغلاة من الرافضة . أ هـ[١] .

أما ابن حزم (٤٥٦هـ) فيوضح لنا سبب نفي عليّ له إلى المدائن ، وأنه صاحب أول بدعة في الإسلام فيقول :

عبد الله بن سبأ الحميري ، الذي قال لعلي : أنت أنت ، يعني أنت الإله ، فنفاه إلى المدائن ، كان يهوديًا فأسلم ، وكان في اليهودية يقول في يوشع بن نون وصي موسى ، مثل ما قال في عليّ ، وهو أول من أظهر القول بإمامة عليّ ، ومنه تشعبت أصناف الغلاة ، وزعم أن عليًّا حي لم يُقتل ، وفيه الجزء الإلهي ، وهو الذي يجيء في السحاب ، والرعد صوته ، والبرق سوطه ، وأنه سينزل بعد ذلك إلى الأرض ، فيملأ الأرض عدلاً ، كما مُلِئت جوراً ، وهو أول من قال بالتوقف والغيبة والرجعة ، وقال بتناسخ الجزء الإلهي في الأئمة بعد علي . أ هـ[٢] .

---

(١) ، (٢) من « السبئيون منهجًا وغاية » د . حمدي عبد العال .

فصل
في إثبات وجود عبد الله بن سبأ للرد على من أنكره

اتفق المحدثون وأهل الجرح والتعديل والمؤرخون وأصحاب كتب الفرِق والنِّحل والطبقات والأدب والكتب الخاصة في بعض فنون العلم ، على وجود شخصية خبيثة يهودية ، وهي شخصية عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء ، الذي قام بدور خطير ، وبذر الشر المستطير بين المنافقين والشعوبيين ، ومن في نفسه أهواء وأغراض .

ولم ينكر من له حظ من علم وذرة من عقل وجود ابن سبأ إلا في العصر الحاضر من هذا القرن والقرن المنصرم ، وهم نفر قليل ما بين مستشرق حاقد ، ومتابع لهم ، ومسلم جاهل ، أو منكر مكابر من بعض الشيعة اليوم ومن المستشرقين الذين أنكروه د. برنارد لويس ، وفريد لاندر ، ومن أتباع المستشرقين د. طه حسين ، ود. محمد كامل حسين ، ود. حامد حنفي داود .

ومن الشيعة : محمد جواد مغنية ، ومرتضي العسكري ، ود. علي الوردي .

ومن العجائب : ما ذهب إليه علي الوردي ، أن عبد الله بن سبأ هو نفسه عمار ابن ياسر ، وكتب الجرح والتعديل والرجال الموثقة عند الشيعة ترد على هذا القول ، وذلك أن كتبهم ذكرت ترجمة عمار بن ياسر في أصحاب الإمام عليّ رضي الله عنه والرواة عنه، وتعد من الأركان الأربعة ، وهم زيادة على عمار ، حذيفة بن اليمان ، وسلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري .

كما ذكرت ترجمة ابن سبأ ، وتذكر اللعنة عليه ، وذكرت كتب الشيعة ـ وأعني الكثير منها ـ ابن سبأ وقبحت أقواله .

ومن تلك الكتب :

[١] كتاب المقالات والفرق ، لسعد بن عبد الله الأشعري القمي المتوفى (سنة ٣٠١هـ) ، وهو مطبوع في طهران (سنة ١٩٦٣م) .

[٢] رجال الطوسي لشيخ الطائفة أبي جعفر بن الحسن الطوسي المتوفى (سنة ٤٦٠هـ) ، الأولى في النجف (١٣٨١هـ / ١٩٦١م) نشر محمد كاظم الكتبي .

[٣] روضات الجنات لمحمد باقر الخوانساري المتوفى (سنة ١٣١٥هـ) ، ط إبراهيم (١٣٠٧هـ) .

[٤] قاموس الرجال لمحمد تقي التستري ، منشورات مركز نشر الكتاب طهران (١٣٨٢هـ) . أ هـ(١) .

وهناك كتب عديدة أخرى وكلها تثبت وجود عبد الله بن سبأ ، وأنه أول من قال بوصية رسول الله ﷺ على عليٍّ ، وأنه خليفته على أمته ، وأول من أظهر البراء من أعداء عليّ بزعمه ، وأول من قال لعليّ : أنت أنت ، يعني أنت رب العالمين ، ومن أجل ادعاء الألوهية في علي نفاه إلى المدائن كما سبق ذكره ، فلا يغتر القاريء بإنكار هؤلاء لابن سبأ ، لأنه من قبيل إنكار الشمس في رائعة النهار ، وقد كتبت في هذا العصر كتب عديدة في عبد الله بن سبأ ، فلا مجال لإنكار وجوده ، بعدما أثبته أهل المِلل والنِّحل والمؤرخون وأهل الحديث .

وأما طه حسين وأمثاله فلا عجب ، فإن طه حسين أنكر الشعر الجاهلي ، وبعض الأحكام الشرعية ، ومواقف بعض علماء مصر المحققين مع طه حسين معروفة .

قال شيخنا الشيخ أحمد نور بن عبد الله في كتابه المواهب الإلهية في الفرق الإسلامية ـ رحمه الله ـ :

قال إمامهم عبيد بن سبأ ... أنت الإله لعلي فأبى
قالوا عليّ لم يمت وما قُتِلَ ... بل القتيل من بشكله شكل
يحل في السحاب رعد صوته ... والبرق في أنوراه وسوطه
ثم عليّ بعد هذا ينزل ... في الأرض يرفع جورها ويعدل

---

(١) من كتاب ابن سبأ حقيقة لا خيال ، للدكتور / سعدي الهاشمي

عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه

هو الخليفة الراشد علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ، ابن عم رسول الله ﷺ ، وُلِدَ قبل الهجرة بواحد وعشرين عامًا ، وأدركته البعثة وهو مراهق ، فاعتنق الإسلام بدون تلكؤ ، وكان من السابقين ، وامتاز بالشرف العظيم ، وذلك ببياته ليلة الهجرة مكانه ﷺ ، كيلا يتنبه له المترصدون .

وزوّجه النّبي ﷺ بفاطمة بعد الهجرة ، وحضر المشاهد كلها ما عدا تبوك ، ومناقبه كثيرة وفضائله شهيرة .

بعض الأحاديث الواردة في حقه رضي الله عنه :

[١] أخرج الشيخان أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : « **لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويُحبه الله ورسوله** » ، فبات الناس يلوكون ويتحدثون ليلتهم أيهم يعطاها،فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ ، وكلهم يرجون أن يعطاها ، فقال : « **أين عليّ بن أبي طالب ؟**» ، فقيل يشتكي عينيه ، قال:« **فأرسلوا إليه ، فأت به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ ، حتى لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية** » .

[٢] أخرج مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ** ﴾ [آل عمران : ٦١] دعا رسول الله ﷺ عليًّا وفاطمة وحُسنًا وحُسينًا فقال : « **اللهم هؤلاء أهلي** » .

[٣] وحديث : « **أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي** » .

وهناك أحاديث أخرى وأكثرها غير صحيح كحديث :

« أنا مدينة العلم »، وحديث لسليمان :سل النَّبي ﷺ من وصيه ؟، وأنه سأله ، وأجابه من كل وصي موسى ؟ ، فقال : يوشع بن نون ، فقال : فإن وصيي ووارثي يقضي ديني وينجز موعدي علي بن أبي طالب .

وحديث : « من أحب عليًّا أعطاه الله بكل عرق من بدنه مدينة في الجنة » إلي غير ذلك من الأحاديث المكذوبة التي وضعها المغرضون لأغراضهم الخاصة ، وترويجها لمذاهبهم الباطلة ، وعَليٌّ أجل قدرًا وأرفع ذكرًا من أن يحتاج لإثبات فضله ومناقبه بتلك الموضوعات الواهية، بعد ما كان من السابقين ومن المجاهدين للكفار والمشركين ، وقد بشره النَّبي بالجنة كسائر العشرة المبشرة رضي الله عنه وأرضاه .

خلافته رضي الله عنه :

لم تكن الظروف التي حصل فيها انتخاب عليّ مشابهة لما كان عليه الحال في انتخاب من قبله لما عرفت مما تقدم ، حيث كانت الحالة عند ابتداء البيعة للخلفاء الثلاثة هادئة ، يسود الجميع السلم والسكينة ، وأتوا إليها بقائد الرغبة وسائق المحبة والصلاة ، وكان المهاجرون والأنصار وسائر الصحابة حاضرين إذ ذاك ، أما عند الانتخاب لهذا الخليفة الأجل فلم يكن كذلك ، لما كان من جماعة المحاصرين لعثمان الناقمين عليه ، الذين قضوا عليه ظلمًا وجوراً ، وكانوا من مختلف الأمصار ، وكانت نار الثورة قد اندلع لسانها ، وساد الناس الاضطراب والقلق ، فإنهم بعد فعلتهم الشنيعة طلبوا عليًّا للخلافة ، فامتنع قليلاً ثم أجاب لما رأى من تمكن الفتنة والثورة ، وحبًّا في السلم وحقنًا للدماء ، كما أنه لم يكن إذ ذاك من هو جدير وأليق بالخلافة منه ، وكان أول من بايعه هؤلاء الثوار وفي مقدمتهم الأشتر النخعي ، أما أصحاب الرسول ﷺ فكثير منهم كان خارج المدينة،منهم المرابطون على الثغور ومنهم العمال، ومن كان مقيمًا منهم من بايع عليًّا ، ومنهم من تخلف عن البيعة كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وأبي سعيد الخدري ، والنعمان بن بشير ، ومنهم من ذهب إلى الشام ، فقد بان أنه لم تكن الحالة كحالة السابقين ، ولم يحصل الاتفاق على بيعته ، كما حصل لأولئك الراشدين ، وتاريخ خلافته هو تاريخ قتل عثمان وقد مضى .

أيامه وحروبه رضي الله عنه :

لم يهنأ له بال ، ولم يسد الحالة السكون ، حيث أنه من ابتداء البيعة اشتعلت نيران الثورة والفتن الداخلية ، ومضت أيامه وهو يخوض في غمرات تلك الحروب ، ولم يتمكن لغزو الكفار وفتح أقطار جديدة ، وفي سنة أربعين عدا عليه في شهر

رمضان من تلك السنة خارجي اسمه عبد الرحمن بن مُلجم ، فضربه بخنجره وهو يريد صلاة الصبح ، انتقاماً من الإمام الأجل لما أوقع بهم في النهروان ، وعاش يومين ، وفي (١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ) فاضت روحه الشريفة بالكوفة .

مدة خلافته رضي الله عنه :

مدة خلافته أربع سنين وتسعة أشهر ، وجعل الخلافة لابنه الحسن أكبر أولاده ، واستمر ستة أشهر ، ولما رأى تفرق الكلمة ومناوءة معاوية بن أبي سفيان ، وعدم إخلاص جنوده ، وعدم امتثالهم له كمال الامتثال ، رغب حبًا لحقن دماء المسلمين ، واجتماعًا لكلمة الموجودين ، ومطابقة لما أخبر به سيد المرسلين من قوله ﷺ : « **إن ابني هذا** ـ مشير إلى الحسن ـ **سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين** » رغب في التنازل ، وبلَّغَ معاوية بشروط مقررة في كتب التاريخ ، فقبل معاوية تلك الشروط بكل انشراح ، ونزل هذا عن الخلافة ، وسلمها معاوية ، وتم الاتفاق وذلك في سنة (٤١هـ) .

تنبيه مهم :

حيث أن أهل السُّنَّة والجماعة كلهم يثنون على أصحاب رسول الله ﷺ ، ويحبونهم كما يحبون أهل البيت النبوي الشريف ، ويترضون عن الجميع ، ولا يطلقون ألسنتهم في الوقيعة بهم من أجل ما شجر بينهم ، ولا يستقرؤون بعض الهفوات التي صدرت من بعضهم بحسن قصد أو بتأويل ، فمن أجل ذلك لما اخترعت الشيعة مثالب لأبي بكر وعمر وعثمان ، ووافقتهم الخوارج في بعض المثالب المخترعة لعثمان ومعاوية وعمرو بن العاص وحاضري وقعة الجمل وصفين ، لم يشأ أهل السُّنَّة والجماعة أن يخترعوا مثالب لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ومعاوية وسائر من طعنوا فيهم ، ويقولون : كانوا هم السبب في سفك دماء المسلمين في وقعة الجمل وصفين حبًا للرياسة والإمارة ، ولا كما قالت المعتزلة : لا تقبل شهادة أهل الجمل وصفين ولو على قليل من البقل ، لأن إحداهما فاسق بلا شك إن لم يكن كافراً ، بل يكفون ألسنتهم ويقولون :

وما جرى بين الأصحاب نسكت عنه وأجر الاجتهاد نثبت

لأن الله تعالى أثنى عليهم في عدة آيات ، كما أثنى عليهم رسول الله ﷺ في كثير من الأحاديث ، وهنا يظهر للعاقل المنصف فضلاً عن المؤمن المسلم ، إنصاف أهل السُّنَّة ، ورجحان عقلهم ، ومتانة ديانتهم ، حيث أنهم وقفوا موقف الحياد ، وأثنوا على الجميع ، ولم يتورطوا في المثالب والمطاعن ، ويخالفوا كتاب الله وسُنَّة نبيهم انتصاراً للعقيدة والمذهب ، فالحمد لله على دين الإسلام ، كما أحمده مرة أخرى على عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة ، فيا لها من نعمة كبيرة ، أوزعنا الله شكر نعمه ، وثبتنا على الدين القويم ، والطريق المستقيم ، آمين يارب العالمين .



الباقون من أهل الفضل

أهل بدر العظمى :

ومن بعد أولئك في الفضل أهل بدر العظمى وهي البطشة الكبرى ، وقعت يوم الجمعة لسبعة عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة ، وعددهم ثلاثة مئة وثلاث عشر ، كان النصر في جانب المسلمين .

[١] جاء عن النَّبي ﷺ في فضلهم ، كما أخرجه أحمد بسند صحيح على شرط مسلم ، عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لن يدخل النار رجل شهد بدراً والحديبية** » .

[٢] روى أبو داود وابن ماجه والطبراني بسند جيد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **اطلع الله على أهل البدر ، فقال : اعلموا ما شئتم فقد غفرت لكم** » .

ولا إشكال في الحديث بأنه قد يُفهم من هذا الأمر الإباحة ، والدفع بأنه إخبار عن الماضي ، أي كل عمل كان لكم فهو مغفور، كما أُجيب أيضًا : بأنهم غير مؤاخذين بما يصدر منهم ، ومتأهلون لغفران الذنوب اللاحقة بعد هذه الوقعة ، لما حصل لهم من المواقف العظيمة ، والقتال المستميت ، وبيع نفوسهم في سبيل كلمة الدين .

أهل بيعة الرضوان :

يلي أولئك أهل بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وذلك كان في سنة ست هجرية، خرج ﷺ يريد مكة معتمراً ، لا يريد حربًا ، وساق معه الهدي ، وكان قد أراه الله في منامه أنه هو وأصحابه يدخلون المسجد الحرام آمنين ، فسار بهم حتى بلغ الحديبية ، وكانت قريش قد سمعت بمسيرة رسول الله ﷺ إلى مكة ، فتأهبوا للذود عنها ، وأرسلوا من يكشف الحقيقة ، فرجعت إليهم الرسل بأنه لا يريد حربًا ، وإنما جاء حاجًا معتمراً ،دعا رسول الله ﷺ بعد ذلك عمر ليرسله إلى قريش ليبلغهم ما جاء من أجله، فقال : إني أخاف قريشًا على نفسي ، وليس بمكة من بني عدي أحد يمنعني ،

وقد عرفت قريش عدواني لها وغلظتي عليها ، وأشار بإرسال عثمان رضي الله عنه فأرسله ، واحتبست قريش عندها عثمان ، فشاع بين المسلمين أنه قُتِلَ، فقال ﷺ : « **لا نبرح** »، ثم دعا أصحابه إلى البيعة ، فاندفعوا مهطعين مُلبين ، وبايعوه تحت الشجرة من شجر الطلح ، ثم تبين بطلان تلك الإشاعة .

ثناء النبي ﷺ عليهم :

[١] قال النَّبي ﷺ في حقهم كما في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ : « **لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة** » .

[٢] وفي صحيح مسلم عن جابر أن غلامًا قال : حاطب في النار ، فقال رسول الله ﷺ : « **كذبت ، إنه شهد بدراً والحديبية** » .

يليهم في الفضل باقي العشرة :

[١] أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب :

إسلامه وثباته رضي الله عنه في الدفاع عن رسول الله ﷺ :

أمه : الصعبة بنت الحضرمي ، أخت العلاء ، أسلمت وأسلم طلحة قديمًا ، وبعثه رسول الله ﷺ مع سعيد بن زيد قبل خروجه إلى بدر يتحسسان خبر العير ، فمرت بهما فبلغ رسول الله ﷺ الخبر فخرج ، ورجعا يريدان المدينة ، ولم يعلما بخروج النَّبي ﷺ ، فقدما في اليوم الذي لاقى فيه رسول الله ﷺ المشركين ، فخرجا يعترضان رسول الله ﷺ فلقياه منصرفًا من بدر ،فضرب لهما بسهامها وأجرهما ، فكانا كمن شهدها ، شهد طلحة أُحداً ، وثبت يومئذٍ مع رسول الله ﷺ ووقاه ، فشُلت أصبعاه وجرح يومئذٍ أربعًا وعشرين جراحة ، ويقال : كانت فيه خمس وسبعون بين طعنة وضربة ورمية ، وسماه رسول الله ﷺ يوم أُحد « طلحة الخير » ، ويوم غزوة ذات العشيرة [١] ، « طلحة الفياض » ، ويوم حنين « طلحة الجود » [٢] .

ولا يخفى أن طلحة أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام في أوله ومنذ أعلن إسلامه

---

(١) الغزوة الثالثة للنَّبي ﷺ ، وادع فيها بني مدلج وبني ضمرة .

(٢) الحديث أخرجه الطبراني ، قال الهيثمي : فيه من لم أعرفهم ، وفيه سليمان بن أيوب الطلحي وثق وضعيف .

ظل وافيًا لعهده لا يغدر ولا يخون حتى لقى ربه ، إنه أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، كما أخبرنا الفاروق عمر رضي الله عنه .

وإسلامه على يد أبي بكر رضي الله عنه وهو ابن عمه ، وأبو بكر الرجل المبارك السبَّاق إلى الخيرات رضي الله عنهما ، وظل طلحة رضي الله عنه بعد إسلامه إلى جانب رسول الله ﷺ ، يأتمر بأمره ، ويهتدي بهديه .

إن سيرة طلحة نفحة من نفحات تاريخنا العظيم، المليء بمواطن القدوة ، ومواقف الأُسوة ، فما أجدرنا بأن نستلهم من ماضينا لحاضرنا ، وأن نمضي على طريق سلفنا الصالح ، فنؤمن كما آمنوا ، ونصدق كما صدقوا ، ونجاهد كما جاهدوا ، فلا يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله : ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)** ﴾ [ق : ٣٧] .

صاحب الرأي :

كان طلحة شجاعًا مقدامًا ، له رأيه حتى في جاهليته ، فبينما هو في سوق بُصرى ، إذ سمع راهبًا يسأل عن أحد من أهل الحرم ، تقدم إليه طلحة ، فراح الراهب يسأله عن ظهور « أحمد بن عبد الله بن عبد المطلب » ، حيث حل موعد ظهوره .

فلما عاد أخذ يسأل عنه حتى التقى بأبي بكر ، فأسلم على يديه بعد عثمان بن عفان ، فكان أحد الثمانية السابقين ، وهم : أبو بكر ، وعثمان ، وطلحة ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وزيد بن حارثة بعد عليّ وخديجة .

وتمر الأيام فإذا هو من المهاجرين الأولين الذين خاضوا المعارك مع رسول الله ﷺ عدا غزوة بدر ، فقد كان مكلفًا من قِبل الرسول ﷺ للقيام بمهمة تأمينية ، فقد كلفه الرسول ﷺ أن يتحسَّس أمرَ العير تجاه « الحوراء » .

يوم هجرته رضي الله عنه :

هاجر الرسول ﷺ ومعه أبو بكر، وهاجرت « رقية »ابنته ﷺ مع زوجها عثمان ، ولم تهاجر ابنته زينب ،حيث بقيت مع زوجها « أبو العاص بن الربيع »، أما « فاطمة » و « أم كلثوم » فقد كانتا في انتظار من يرافقهما إلى المدينة لتصلا إليها في أمان الله ! .

ويتاح لطلحة بن عبيد الله أن ينال شرف مرافقة الأسرة الشريفة مع حاديها وحارسها ، فلقد أُسند إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد حراسة القافلة ، فقد صادف موعد هجرته تحرك القافلة التي ضمت ابنتي النَّبي ﷺ « فاطمة وأم كلثوم » ومعهم زوج الرسول ﷺ أم المؤمنين « سودة بنت زمعة » « وأم أيمن » رضي الله عنهم أجمعين .

فيا له من شرف عظيم كُتِبَ لطلحة أن يناله ، وكيف لا وقد وهب طلحة نفسه لله ولرسوله ﷺ ؟! .

ذكر جملة من مناقبه رضي الله عنه :

[١] عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **يومئذٍ** ـ يعني يوم أُحد ـ **أوجب طلحة حين صنع برسول الله ما صنع** » ، يعني حين برك له طلحة ، فصعد رسول الله ﷺ على ظهره . [رواه الإمام أحمد] (١) .

[٢] وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان أبو بكر رضي الله عنه إذا ذُكِرَ يوم أُحد قال : « ذاك كله يوم طلحة » .

[٣] قال أبو بكر : كنت أول من جاء يوم أُحد ، فقال لي رسول الله ﷺ ولأبي عبيدة بن الجراح ، « **عليكما** » يريد طلحة وقد نزف ، فأصلحنا من شأن النَّبي ﷺ ، ثم أتينا طلحة في بعض تلك الحفار ، فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر ، بين طعنة وضربه ورمية ، وإذا قد قُطِعت إصبعه ، فأصلحنا من شأنه .

[٤] وعن قيس قال : رأيت طلحة يده شلا ، وقى بها رسول الله ﷺ يوم أُحد . [انفرد بإخراجه البخاري] (٢) .

[٥] وعن سعدي بنت عوف قالت : دخل عليّ طلحة ورأيته مغمومًا ، فقلت : ما شأنك ؟ ، فقال : المال عندي قد كثُر وقد كربني ، فقالت : وما عليك؟ اقسمه ، فقسمه حتى ما بقي منه درهم .

قال طلحة بن يحيى : فسألت خازن طلحة ، كم كان المال ؟ ، فقال :

---

(١) الحديث صحيح أخرجه الترمذي عن الزبير بن العوام في مناقب طلحة ، والحاكم في المستدرك وصححه ، وسكت عنه الذهبي .

(٢) الحديث أخرجه الباري في مناقب طلحة وفي غزوة أُحد ، وقيس هو قيس بن أبي حازم .

أربعمائة ألف [١] .

[٦] وعن الحسن قال : باع طلحة أرضًا له بسبعمائه ألف، فبات ذلك المال عنده ليلة، فبات أرقًا من مخافة ذلك المال ، فلما أصبح فرَّقه كله .[رواه الإمام أحمد] .

[٧] وعن سعدي بنت عوف ، امرأة طلحة بن عبيد الله قالت : لقد تصدَّق طلحة يومًا بمئة ألف ، ثم حبسه عن الرواح إلى المسجد أن جمعت له بين طرفي ثوبه .

وفاته رضي الله عنه :

قُتِلَ يوم الجم ، وكان يوم الخميس لعشرة خلون من جمادي الآخرة سنة ست وثلاثين ، ويُقال سهمًا غربًا [٢] ، أتاه فوقع في حلقه ، فقال : بسم الله ، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا .

[٢] أبو عبد الله الزبير بن العوام رضي الله عنه :

ابن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ، أمه صفية بنت عبد المطلب ، عمة رسول الله ﷺ ، وأسلمت وأسلم الزبير قديمًا وهو ابن ثمان سنين ، وقيل ابن ست عشرة سنة ، فعذبه عمه بالدخان لكي يترك الإسلام فلم يفعل ، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين جميعًا ، ولم يتخلف عن غزاة غزاها رسول الله ﷺ ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة .

وهو أول من سلَّ سيفًا في سبيل الله، وكان عليه يوم بدر ريطة صفراء معتجرًا [٣] بها ، وكان على الميمنة ، فنزلت الملائكة على سيماه [٤] ، وثبت رسول الله ﷺ يوم أُحد ، وبايعه على الموت .

ذكر جملة من مناقبه رضي الله عنه :

[١] عن أبي الأسود قال : أسلم الزبير بن العوام وهو ابن ثمان سنين ، وهاجر وهو ابن ثماني عشر سنة ، وكان عم الزبير يعلق الزبير في حصير ، ويدخن عليه

---

(١) الخبر أخرجه الطبراني ورجاله ثقات .
(٢) لا يعرف راميه .
(٣) اعتجر العمامة : لفها على رأسه .
(٤) السيما ، والسيماء : العلامة ، أي نزلت الملائكة وعليها عمائم صفر أيضًا كالزبير .

بالنار وهو يقول : ارجع إلى الكفر ، فيقول الزبير : لا أكفر أبداً .

[٢] وعن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل ، قال : كان إسلام الزبير بعد إسلام أبي بكر ، كان رابعًا أو خامسًا .

[٣] وعن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : جمع لي رسول الله ﷺ أبويه يوم أُحد .

[٤] وعن عبد الله بن الزبير قال : لما كان يوم الخندق كنت أنا وعمر بن أبي سلمة في الأطم [١] الذي فيه نساء رسول الله ﷺ ، أطم حسان،وكان يرفعني وأرفعه، فإذا رفعني عرفت أبي حين يمر إلى بني قريظة ، وكان يقاتل مع رسول الله ﷺ يوم الخندق ، فقال : من يأتي بني قريظة فيقاتلهم ، فقلت له حين رجع : يا أبت : إن كنت لأعرفك حين تمر ذاهبًا إلى بني قريظة فقال : يا بني أما والله إن كان رسول الله ﷺ ليجمع لي أبويه جميعًا يتفداني بهما ويقول : « **فداك أبي وأمي** » [أخرجاه في الصحيحين] [٢] .

[٥] وعن عمر بن مصعب بن الزبير قال : قاتل الزبير مع رسول الله ﷺ وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، فكان يحمل على القوم ، ويقول له : « **هاهنا بأبي أنت وأمي ، هاهنا بأبي أنت وأمي** » [أخرجه البغوي في معجمه وصاحب الصفوة ، ولم يقل بأبي وأُمي] .

[٦] وعن نهيك [٣] قال : كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة لا يدخل بيت ماله منهم درهم، يقول: يتصدق بها ، وفي رواية أخرى: « فكان يقسمه كل ليلة ، ثم يقوم إلى منزله ليس معه منه شيء .

[٧] وعن جويرية رضي الله عنها قالت : « باع الزبير رضي الله عنه داراً له بتسعمائة ألف ، قال : فقيل له : يا أبا عبد الله غُبنت ، قال : لا والله ، لتعلمن أني لم أغبن وهي في سبيل الله » .

---

(١) بناء مرتفع كالحصن .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في فضائل الزبير ، وأخرجه أيضًا الترمذي في مناقب الزبير برقم (٣٧٤٤) ، وابن ماجه في المقدمة برقم ١٢٦) .

(٣) الدارقطني : عن الأوزاعي عن نهيك .

[٨] وعن عليّ بن زيد قال : « أخبرني من رأى الزبير ، وإن في صدره مثل العيون ، من الطعن والرمي » .

[٩] وعن قيس بن أبي حازم عن الزبير بن العوام قال : « من استطاع منكم أن يكون له جنى من عمل صالح فليفعل » .

ذكر مقتله رضي الله عنه :

قُتِل الزبير رضي الله عنه يوم الجمل وهو ابن خمس وسبعين ، ويُقال ستين ، ويقال بضع وخمسين ، قتله ابن جرموز .

عن زر قال : « استأذن ابن جرموز على عليّ وأنا عنده ، فقال عليّ : « بشر قاتل ابن صفية بالنار ، ثم قال عليّ : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لكل نبي حواري ، وحواريي الزبير** » [١] .

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال : « جعل الزبير يوم الجمل يوصيني بدينه ويقول : إن عجزت عن شيء منه فاستعن عليه بمولاي ، قال : فوالله ما دريت ما أراد ، حتى قلت : يا أبت من مولاك ؟ ، قال : الله ، قال : ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت : يا مولى الزبير اقض عنه ، فيقضيه ، وإنما دينه الذي كان عليه ، أن الرجل كان يأتيه بالمال فيستودعه إياه فيقول الزبير : لا ولكنه سلف [٢] ، فإني أخشى عليه الضيعة ، قال : فحسب ما عليه من الدين فوجدته ألفي ألف ومئتي ألف ، فقُتِلَ ولم يدع ديناراً ولا درهمًا ، إلا أرضين فبعتهما ، يعني وقضيت الدين ، فقال بنو الزبير : اقسم بيننا ميراثنا ، فقلت : والله لا أقسم بينكم حتى أنادي بالموسم أربع سنين ، ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه ، فجعل كل سنة ينادي بالموسم ، فلما مضى أربع سنين قسَّمَ بينهم » .

وكان للزبير رضي الله عنه أربع نسوة ، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومئتا ألف ، فجميع ماله خمسون ألف ألف ومئتا ألفا . انفرد بإخراج هذا الحديث البخاري ـ رحمه الله ـ .

---

(١) الحديث صحيح تقدم في ذكر جملة من مناقب الزبير رضي الله عنه .
(٢) أي : القرض .

[٣] أبو محمد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : (١)

ابن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ، كان اسمه في الجاهلية عبد عمرو ، وقيل عبد الحارث ، وقيل عبد الكعبة ، فسماه رسول الله ﷺ : عبد الرحمن ، أمه الشفاء بنت عوف ، أسلمت وهاجرت رضي الله عنها .

ذكر جملة من مناقبه رضي الله عنه :

[١] أسلم عبد الرحمن قديمًا قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم ، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين، وشهد المشاهد كلها ، وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحد، وصلى رسول الله ﷺ خلفه في غزوة تبوك ، ذهب للطهارة فجاء وعبد الرحمن قد صلى بهم ركعة ، فصلى خلفه وأتم الذي فاته ، وقال : « **ما قُبِضَ نبي حتى يصلي خلف رجل صالح من أمته** » ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة .

[٢] وعن أبي سلمة (٢)، عن أبيه أنه كان مع النَّبي ﷺ في سفر ، فذهب النَّبي ﷺ فأدركهم وقت الصلاة ، فأقاموا الصلاة فتقدمهم عبد الرحمن ، فجاء النَّبي ﷺ فصلى مع الناس خلفه ركعة فلما سلم قال : « أصبتم أو أحسنتم » (٣) .

[٣] وعن أم بكر (٤) بنت المسور بن مخرمة عن أبيها قال : باع عبد الرحمن بن عوف أرضًا له من عثمان بأربعين ألف دينار ، فقسم ذلك المال في بني زهرة وفقراء المسلمين وأمهات المؤمنين ، وبعث إلى عائشة معي بمال من ذلك المال ، فقالت عائشة رضي الله عنها : أما سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لن يحنو عليكنَّ بعدي إلا الصالحون** (٥) ، **سقى الله ابن عوف من سلسبيل الجنة** » .

[٤] وعن الزهري قال : تصدق عبد الرحمن بن عوف على عهد رسول الله ﷺ بشطر

---

(١) الحلية (١/ ٩٨ – ١٠٠) .

(٢) قط : عن عبد الله بن الوليد أنه سمع أبا سلمة يحدث .

(٣) خبر اقتداء الرسول به ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة عبد الرحمن بن عوف ، وابن حجر في الإصابة وقال : أخرجه خليفة من حديث المغيرة بن شعبة .

(٤) قط : عن عبد الله بن جعفر المخرمي ، قال : « حدثتني عمتي أم بكر » .

(٥) الحديث صحيح : أخرجه الإمام أحمد في المسند (٦/ ١٠٤ و١٣٥) بلفظ : « **إلا الصابرون** » ، وفي الترمذي بعدي ، « **ولن يصبر عليكن إلا الصابرون** » .

ماله أربعة آلاف ، ثم تصدَّق بأربعين ألفًا ، ثم تصدَّق بأربعين ألفًا ، ثم تصدَّق بأربعين ألف دينار ، ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله ، ثم حمل على ألف وخمسمائة راحلة في سبيله تعالى ، وكان عامة ماله من التجارة .

[٥] قال أبو عمر : وقد روي أنه أعتق في يوم واحد ثلاثين عبداً .

[٦] وعن سعد بن إبراهيم عن أبيه أن عبد الرحمن بن عوف أتى بطعام وكان صائمًا فقال : قُتِلَ مصعب بن عمير وهو خير منِّي ، فكُفن في بردة ، إن غطي رأسه بدت رجلاه ، وإن غطي رجلاه بدا رأسه ، وأراه قال : وقُتِلَ حمزة وهو خير منِّي ، يعني فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة ، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجلت لنا ، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام . [انفرد بإخراجه البخاري - رحمه الله -] .

[٧] وعن سعيد بن حسين قال : « كان عبد الرحمن بن عوف لا يُعرف من بين عبيده » .

[٨] وعن أيوب عن محمد : أن عبد الرحمن بن عوف توفي وكان فيما ترك ، ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت (١) أيدي الرجال منه ، وترك أربع نسوة ، فأخرجت إمرأة من ثمنها بثلاثين ألفًا (٢) .

ذكر وفاته رضي الله عنه :

توفي عبد الرحمن بن عوف سنة اثنتين وثلاثين ، ودُفِنَ بالبقيع ، وهو ابن اثنتين وسبعين ، ويُقال خمس وسبعين ، وصلى عليه عثمان رضي الله عنه ، وكان أوصى بذلك .

وروى ابن النجار في كتاب أخبار المدينة بسنده عن عبد الرحمن بن حميد عن أبيه قال : أرسلت عائشة رضي الله عنها إلى عبد الرحمن بن عوف حين نزل به الموت ، أن هلم إلى رسول الله ﷺ وإلى أخويك ، فقال : ما كنت مضيقًا عليك بيتك ، وإني كنت عاهدت ابن مظعون : أيّنا مات دُفِنَ إلى جنب صاحبه ، فيكون على هذا قبر عثمان بن مظعون وقبر عبد الرحمن بن عوف متجاورين .

(١) ثخن جلدها وظهر بها البثور .
(٢) قط « بثمانين » وكذا في طبقات ابن سعد .

ذكر ما رُوي عنه عند الموت :

قال أبو عمر : لما حضرته الوفاة بكى بكاءً شديدًا ، فسئل عن بكائه فقال : إن مصعب بن عمير كان خيرًا منّي ، توفي على عهد رسول الله ﷺ ولم يكن له ما يُكفن فيه ، وإن حمزة بن عبد المطلب كان خيرًا منّي ، توفي على عهد رسول الله ﷺ ولم يجد له كفنًا ، وإني أخشى أن أكون ممن عجلت له طيباته في حياته الدنيا ، وأخاف أن أُحبس عن أصحابي لكثرة مالي . أ هـ[(١)] .

[٤] أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص [(٢)] :

واسمه مالك بن وهيب [(٣)] بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة ، وأمه حمنة .

أسلم قديمًا وهو ابن سبع عشرة سنة ، وقال : كنت ثالثًا في الإسلام ، وأنا أول من رمى بسهم في سبيل الله ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وولي الولايات من قِبل عمر وعثمان رضي الله عنهما ، وهو أحد أصحاب الشورى .

ذكر جملة من مناقبه رضي الله عنه :

[١] عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال : قال سعد : ما أسلم أحد إلا في اليوم [(٤)] الذي أسلمت فيه ، ولقد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام .

[٢] وعن عليّ رضي الله عنه قال : ما سمعت رسول الله ﷺ يفدي أحدًا بأبويه إلا سعد بن مالك ، فإني سمعته يقول له في يوم أُحد : « **إرم سعد ، فداك أبي وأمي** » [أخرجها في الصحيحين] [(٥)] .

[٣] عن هاشم بن هاشم الزهري قال : سمعت سعيد بن المسيب يقول : سمعت

---

(١) أ . هـ . من الرياض النظرة ملخصًا .

(٢) الحلية (١/٩٢-٩٥) .

(٣) أي : اسم أبي وقاص ، والد سعد .

(٤) في هامش المطبوع : « كذا في الأصلين الصواب : إلا في اليوم ... إلخ ، كما في صحيح البخاري وغيره » .

(٥) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد وفي المغازي ، غزوة أُحد ، ومسلم في فضائل سعد بن أبي وقاص والترمذي برقم (٢٣٥٤) وازد « **إرم أيها الغلام الحزور** » والحزور : ولد الأسد .

سعد بن أبي وقاص يقول : نثر لي رسول الله ﷺ كنانته [١] يوم أُحد وقال : «إرم فداك أبي وأُمّي » .

[٤] وعن قيس قال : سمعت سعد بن مالك رضي الله عنه يقول : إني لأول العرب رمي بسهم في سبيل الله عز وجل ، ولقد رأيتنا نغزو مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام نأكله إلا ورق الحبلة وهذا السمر [٢] ،حتى إن أحدنا ليضع كما تضع الشاة ، ماله خلط ، ثم أصبحت بنو أسد يُعَزِّرُوني على الدنيا ، لقد خِبْتُ إذن وضل عملي [٣] .

[٥] وعن عبد الله بن عمر عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم ، عن رسول الله ﷺ أنه مسح على الخفين ، وأن عبد الله بن عمر سأل عمر عن ذلك ، فقال : نعم ، إذا حدثك سعد عن رسول الله ﷺ فلا تسأل عنه غيره [٤] .

[٦] وعن جابر بن عبد الله قال : أقبل سعد ورسول الله ﷺ فقال : « هذا خالي ، فَلْيُرِني المرء خاله » [٥] .

[٧] وعن قيس بن أبي حازم ، عن سعد قال : قال لي النَّبي ﷺ : « **اللهم سدد رميته ، وأجب دعوته** » [٦] .

[٨] وعن طارق ـ يعني ابن شهاب ـ قال : كان بين خالد وسعد كلام ، فذهب رجل يقع في خالد عند سعد ، فقال : مه ، إن ما بيننا لم يبلغ ديننا .

ذكر وفاته رضي الله عنه :

مات سعد في قصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة ، فحمل على رقاب

(١) استخرج ما فيها من السهام .

(٢) الحبلة : ثمر يشبه اللوبياء، وقيل : هو ثمر العيضاة ، والسمر : ضرب من شجر الطالح ، والواحدة : سمرة .

(٣) الخبر : أخرجه البخاري في فضائل سعد باختلاف يسير .

(٤) الخبر : أخرجه البخاري في المسح على الخفين .

(٥) الحديث حسن ، أخرجه الترمذي في فضائل سعد برقم (٣٧٥٣) .

(٦) الحديث لم أجده بهذا اللفظ ، ودعاء النَّبي ﷺ لسعد باستجابة الدعوة ثابت صحيح ، أخرجه الترمذي في مناقب سعد بلفظ : « **اللهم استجب لسعد إذا دعاك** » ، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٩٩) وغيرها .

الرجال إلى المدينة ، وصلى عليه مروان بن الحكم ، وهو يومئذ والي المدينة ، ثم صلى عليه أزواج النَّبي ﷺ في حجرهن ، ودُفِنَ بالبقيع ، وكان أوصى أن يكفن في جبة صوف له ، كان لقي المشركين فيها يوم بدر ، فكفن فيها ، وذلك في سنة خمس وخمسين ، ويقال : سنة خمسين ، وابن بضع وسبعين ، ويقال : اثنتين وثمانين .

وعن مالك بن أنس أنه سمع غير واحد يقول : إن سعد بن أبي وقاص مات بالعقيق ، فحُمِل إلى المدينة ودُفِنَ بها .

ذكر اختصاصه بموافقته تمني رسول الله ﷺ رجلاً صالحًا يحرسه عند قدومه المدينة وقد أرق ليلة :

[١] عن عائشة رضي الله عنها قالت : أرق رسول الله ﷺ ذات ليلة ، فقال : ليت رجلاً صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة ، فقالت : فسمعنا صوت السلاح ، فقال رسول الله ﷺ : من هذا ؟ ، قال : سعد بن أبي وقاص يا رسول الله ، جئت أحرسك ، قالت عائشة : فنام رسول الله ﷺ حتى سمعنا غطيطه .

[٢] وعنها رضي الله عنها قالت : سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة ، فقال : «**ليت رجلاً صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة** » ، قالت : فبينما نحن كذلك ، إذ سمعنا خشخشة السلاح ، فقال : « **من هذا ؟** » ، قال : سعد بن أبي وقاص ، قال : « **ما جاء بك ؟** » قال : وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه ، فدعا له رسول الله ﷺ . [أخرجه مسلم والترمذي] .

ذكر اختصاصه برؤية جبريل وميكائيل عن يمين النبي ﷺ ويساره يوم أحد :

عن سعد قال رضي الله عنه **:** رأيت عن يمين النَّبي ﷺ وعن شماله يوم أُحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال ، ما رأيتهما قبل ولا بعد ، يعني : جبريل وميكائيل . [أخرجاه وأبو حاتم] .

ذكر اختصاصه بآيات نزلت فيه رضي الله عنه **:**

ومنها : عن سعد أنه قال : نزلت فيّ آيات من القرآن ، قال : حلفت أم سعد لا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه ، ولا تأكل ولا تشرب ، قال : قالت : زَعمت أن الله

أوصاك بوالديك فأنا أمك ، وأنا آمرك بهذا ، قال : فمكثت ثلاثًا حتى غشي عليها من الجهد ، فقام ابن له يقال له عمارة ، فسقاها فجعلت تدعو على سعد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(١٥)** ﴾ [لقمان : ١٥] .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النَّبي ﷺ قال : « **أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة** » ، فدخل سعد ابن أبي وقاص . [أخرجه أحمد] .

في ذكر نبذ من فضائله رضي الله عنه :

قال أبو عمر وغيره : شهد سعد بدراً والحديبية والمشاهد كلها ، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة أهل الشورى الذين أخبر عمر أن رسول الله ﷺ توفي وهو عنهم راض، وأحدمن كان على حراء حين تحركت بهم الصخرة ، فقال ﷺ : « **اثبت حراء ، فما عليك إلا نبي وصدِّيق وشهيد** »، فكانت شهادة من النَّبي ﷺ بالشهادة .

[٥] أبو الأعور سعيد بن زيد [١] :

ابن عمرو بن نفيل بن العزى بن رباح [٢] ، بن عبد الله بن زراح بن عدي بن كعب بن لؤي ، أمه فاطمة بنت بعجة بن أمية ، أسلم قديمًا قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ما خلا بدراً ، فإنه لم يحضرها للسبب الذي ذكرناه في ترجمة طلحة [٣] .

ذكر جملة من مناقبه رضي الله عنه :

[١] عن عبد الله بن مظالم قال : أخذ بيدي سعيد بن زيد فقال : قال رسول الله ﷺ : « **أثبت حراء ، فإنه ليس عليك إلا نبي أو صدِّيق أو شهيد** » ، قال : قلت :

---

(١) الحلية (١/ ٩٥ – ٩٧) .
(٢) في بعض المصادر : رياح .
(٣) وهو أنهما خرجا يتحسسان أخبار التجارة ، ثم عادا إلى المدينة وكان الرسول ﷺ قد خرج منها إلى بدر دون أن يعلما .

من هم ؟ ، فقال رسول الله ﷺ : « **وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ ، والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن مالك** » ، ثم سكت ، قال : قلت : ومن العاشر؟ ، قال : أنا . [رواه الإمام حمد] (١) .

[٢] وعن عبد الرحمن بن الأخنس قال : قال سعيد بن زيد : أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **رسول الله في الجنة ، وأبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعليّ في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعبد الرحمن في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير في الجنة ، وسعد في الجنة** » ، ثم قال :إن شئتم أخبرتكم بالعاشر ، ثم ذكر نفسه [رواه الإمام أحمد] (٢) .

ذكر أنه ذو دعوة مجابة :

عن سعيد بن زيد ، أن أروى خاصمته في بعض داره فقال : دعوها وإياه ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من أخذ شبراً من الأرض بغير حق ، طوقه في سبع أرضين يوم القيامة** » ، اللهم إن كنت كاذبة فأعم بصرها ، واجعل قبرها في دارها ، قال محمد بن زيد : فرأيتها عمياء تلتمس الجدر ، وتقول : أصابتني دعوة سعيد بن زيد ، فبينما هي تمشي في الدار ، إذ مرت على بئر في الدار ، فوقعت فيها فكانت قبرها ، [أخرجه مسلم] ، وأخرجه أبو عمر وقال : اللهم إن كانت كاذبة فلا تمتها حتى تعمي بصرها وتجعل قبرها في بئر .

ذكر وفاته رضي الله عنه :

عن نافع أن سعيد بن زيد مات بالعقيق ، وحمل إلى المدينة فدُفِنَ بها ، وقال ابن سعد : وقال عبد الملك بن زيد : مات بالعقيق فحمل إلى المدينة ، ونزل في حفرته سعد وابن عمر ، وذلك في سنة خمسين أو إحدى وخمسين ، وكان يوم مات ابن بضع وسبعين سنة . والله أعلم .

---

(١) الحديث أخرجه أيضاً البخاري في الجهاد وفي التمني ، ومسلم في فضل سعد ، والترمذي برقم (٣٧٥٨) ، وأبو داود في السُّنَّة وابن ماجه في المقدمة .

(٢) الحديث حسن ، أخرجه أيضاً الترمذي في مناقب سعيد بن زيد برقم (٣٧٥٨) .

[٦] أمين الأمة أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح رضي الله عنه :

اعتنق الإسلام بقائد الحب والإخلاص مع عثمان بن مظعون ، وهاجر الهجرة الثانية ، وحضر المشاهد كلها مع النَّبي ﷺ وثبت يوم أُحد .

ذكر جملة من مناقبه رضي الله عنه :

[١] نزع الحلقتين اللتين دخلتا في وجه رسول الله ﷺ يوم أُحد بفيه ، فوقعت ثنيتاه ، فكان أحسن الناس هتمًا .

[٢] قال النَّبي ﷺ في فضله كما في صحيح مسلم « **إن لكل أُمة أمينًا ، وأن أميننا أيتها الأُمَّة أبو عبيدة بن الجراح** » [أخرجه البخاري ومسلم ، وأخرجه الترمذي وأبو حاتم بلفظهما : « **لكل أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة** » .

[٣] كان قويًا في دينه ، صادقًا في صحبته ، متفانيًا في حب نبيه ﷺ ، حتى سماه رسول الله ﷺ أمين هذه الأمة ، كما مر .

[٤] كان ملازمًا لرسول الله ﷺ شديد التمسك بأوامره ، حريصًا على رضاه فتخلق بأخلاقه ووقف على حقيقة دينه ، فكان من التقوى والرفق والزهد والتمسك بالإسلام والحنو على المسلمين على جانب عظيم ، ولو كان حيًا عند موت عمر لجعله الخليفة من بعده ، ولم يحتج إلى مشورة أحد .

[٥] تسلم قيادة الجيوش من أبي بكر متوجهًا إلى الشام، وهناك وقعت له وقعات مشهورة ، ومواقف مشكورة ، كان النصر حليفًا له ، والتوفيق مقارنًا له .

ثناء أبي بكر وعمر وغيرهما عليه رضي الله عنهم :

[١] عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لأصحابه : تمنوا ، فقال رجل : أتمنى لو أن لي هذه الدار مملوءة ذهبًا أنفقه في سبيل الله عزَّ وجلَّ ، ثم قال : تمنوا فقال رجل : أتمنى لو أن لي هذه الدار مملوءة لؤلؤًا وزبرجدًا ، أو جوهرًا أنفقه في سبيل الله عزَّ وجلَّ وأتصدق به ، ثم قال : تمنوا ، فقالوا : ما ندري يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح . [أخرجه صاحب الصفوة] .

[٢] وعن هشام بن عروة عن أبيه ، قال : لما قدم عمر الشام تلقاه الناس وعظماء أهل الأرض، فقال عمر: أين أخي؟ ، قالوا : من ؟ ، قال: أبو عبيدة ، قالوا : الآن يأتيك ، فلما أتاه نزل فاعتنقه ، ثم دخل عليه بيته ، فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه ورحله ، فقال له عمر : ألا اتخذت ما اتخذ أصحابك ؟ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا يبلغني المقيل [رواه الإمام أحمد] .

في ذكر نبذ من فضائله رضي الله عنه :

[١] شهد أبو عبيدة مع النَّبي ﷺ بدراً وهو ابن إحدى وأربعين سنة وما بعدها من المشاهد كلها ، وشهد بيعة الرضوان ، وثبت مع يوم أُحد ، وقتل أباه يوم بدر كافراً ، فأنزل الله جلَّ وعلا : ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ** ﴾ [المجادلة : ٢٢] ، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وكان رضي الله عنه يسير في العسكر ويقول : ألا رب مبيض لثيابه ومدنس لدينه ، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مُهين ، بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحادثات ، فلو أن أحدكم عمل في السيئات ما بينه وبين السماء ، ثم عمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتى تقهرها .

[٢] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **نعم الرجل أبو بكر ، نعم الرجل عمر ، نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح** » [أخرجه الترمذي ، وقال : حديث حسن] .

وفاته رضي الله عنه :

توفي أبو عبيدة في طاعون عمواس بالأردن ، وقبر ببيسان ، وصلى عليه معاذ بن جبل، وذلك في سنة ثماني عشرة من خلافة عمر، وهو ابن ثمان وخمسين سنة (١) .

---

(١) أ . هـ . من الرياض النضرة في مناقب العشرة للمحب الطبري .

فصل
في شروط الإمامة

فرض محتم على الأنام — نصب إمام لا على العلام
وجوبه بالشرع لا بالعقل — مخالفًا أهل المرا والجهل
وشرطه البلوغ مع إسلام — وكونه منفذ الأحكام
ومن قريش كونه وذكر — حرية العلق أيضًا ذكروا
طاعته واجبة على الورى — ما لم يكن بمنكر فلتحذرا
وليس بالفسق الذي منه جرى — منعزلاً خلاف قاض حررا
كلا ولا نرى الخروج أبدًا . — إلا بكفر بأن منه وبدا

الإمامة في اللغة : مصدر من الفعل ، تقول : أمّهم ويؤمهم وهو إمام، والإمام كل من إئتُمَّ به ، رئيس أو غيره .

وفي الإصطلاح: الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا به .

فالإمام والخليفة وأمير المؤمنين ، ألفاظ مترادفة ومؤدية إلى معنى واحد .

قال النووي ـ رحمه الله ـ :

يجوز أن يقال للإمام : الخليفة ، والإمام ، وأمير المؤمنين [١] .

الإمام من فروض الكفاية الواجب على المسلمين القيام بها ، وهي من الأمور المهمة التي لا غنى عنها لكل أمة ، وفي كل زمان ، ولهذا اهتمت الصحابة ﷺ بهذه المسألة ، وجعلوها من أهم الواجبات ، حيث اشتغلوا بها عن دفن الرسول ﷺ .

ومشروعيتها من الضروريات ، لأن بالإمام تكون إقامة الحدود ، وسد الثغور ، وتجهيز الجيوش لغزو الكفار وحماية الدين والمسلمين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وغير ذلك مما فيه إعزاز الدين والمؤمنين وكل ذلك واجب ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فوجوب نصب الإمام واجب .

ووجوبها عن طريق الشرع ، كما اتفق على ذلك أهل السُّنَّة والجماعة ، وأكثر

(١) روضة الطالبين للنووي (جـ ١) .

المعتزلة ، وهي توجب على العباد نصب الإمام .

قال في الجوهرة :

وواجب نص إمام عادل بالشرع فاعلم لا بحكم العقل

وقالت الشيعة :

نصب الإمام واجب على الله .

وهاك الأدلة من القرآن والسنة والإجماع :

أولاً : القرآن :

[١] فقد قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾[النساء : ٥٩] .

قال الطبري ـ رحمه الله ـ : أولى الأقوال في ذلك بالصواب ، قول من قال : هم الأمراء والولاة فيما كان لله طاعة وللمسلمين مصلحة .

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : الظاهر والله أعلم أن الآية عامة في جميع أولي الأمر من الأمراء والعلماء .

وجه الاستدلال من هذه الآية :

إن الله أوجب على المسلمين طاعة أولي الأمر منهم وهم الأئمة ، والأمر بالطاعة دليل على وجوب نصب ولي الأمر ، لأن الله لا يأمر بطاعة من لا وجود له ، ولا يفرض طاعة من وجوده مندوب ، فالأمر بطاعته يقتضي الأمر بإيجاده ، فدل على أن إيجاد إمام للمسلمين واجب عليهم .

[٢] ومن الأدلة قول الله مخاطبًا لرسول الله ﷺ : ﴿ **فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ** ﴾[المائدة : ٤٨] .

فهذا الأمر من الله لرسوله بأن يحكم بين المسلمين بما أنزل الله أي بشرعه ، وخطاب الرسول ﷺ خطاب لأمته ، ما لم يرد دليل يخصصه به ، وهنا لم يرد دليل على التخصيص ، فيكون خطابًا للمسلمين جميعًا ، بإقامة الحكم بما أنزل الله إلى يوم القيامة ، ولا يعني إقامة الحكم والسلطان إلا إقامة الإمامة ، لأن ذلك من وظائفها ، ولا

يمكن القيام به على الوجه الأكمل إلا عن طريقها ، فتكون جميع الآيات الآمرة بالحكم بما أنزل الله دليلاً على وجوب نصب إمام يتولى ذلك .

[٣] جميع آيات الحدود والقصاص ونحوها من الأحكام وآيات وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونحوها من الآيات ، لا ريب أنه يلزم القيام بها وجود الإمام .

ثانيًا : الأدلة من السُنة القولية :

وردت أحاديث كثيرة من النَّبي ﷺ فيها دلالة على وجوب نصب الإمام ومنها :

[١] ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النَّبي ﷺ : « **من مات وليس في عنقه بيعة ، مات ميتة الجاهلية** » [رواه مسلم] .

وهذا واضح الدلالة على وجوب نصب الإمام ، لأنه إذا كانت البيعة واجبة في عنق المسلم ، والبيعة لا تكون إلا لإمام ، فنصب الإمام واجب .

[٢] ومنها الحديث المشهور عن العرباض بن سارية رضي الله عنه ، عن النَّبي ﷺ الذي جاء فيه : « **إن من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة** » . [رواه الترمذي وقال : حسن صحيح ، وأبو داود وابن ماجه ، والإمام أحمد] .

[٣] وقد ثبت ثبوتًا لا يرقى إليك شك ، أن الصحابة رضي الله عنهم بايعوا أبا بكر بالخلافة بعد أن انتقل النَّبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ثم استخلف أبو بكر عمر رضي الله عنهما ، ثم استخلف عمر رضي الله عنه أحد الستة الذين اختاروا عثمان رضي الله عنه ، ثم بعد استشهاده بايعوا عليًّا بالخلافة .

فهذه سُنَّتهم رضي الله عنهم في الخلافة ، وعدم التهاون في منصبها ، فوجب الاقتداء بهم في ذلك بأمر النَّبي ﷺ إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على وجوب طاعة الحكام فيما لا معصية فيه .

ثالثًا : الإجماع :

ومن أهم الأدلة الدالة على وجوب الإمامة ، الإجماع على ذلك من قبل الأمة ،

وأول ذلك إجماع الصحابة رضي الله عنهم على تعيين خليفة للنبي ﷺ بعد وفاته ، بل حتى قبل دفنه وتجهيزه ﷺ .

وهل وجوب الإمامة فرض عين أو فرض كفاية ؟ :

قال الماوردي - رحمه الله - :

فإذا ثبت وجوبها بالأدلة السابقة ، ففرضها على الكفاية كالجهاد وطلب العلم ، فإذا قام بها من هو من أهلها ، سقط الوجوب .

وقال النووي - رحمه الله - :

هذا إذا كان الدافع له الحرص على مصلحة المسلمين ، وإلا فإن من شروط الإمامة أن لا يطلبها لنفسه .

على الخلق لا على الملك العلام من طريق السمع لا بالعقل

خلافًا لبعض المعتزلة والشيعة ، وقد سبق بيان ذلك .

وتثبت الخلافة أو الإمامة إما باجتماع أهل الحل والعقد ؛ كاجتماع الصحابة رضوان الله عليهم على الصدِّيق رضي الله عنه ، وهذا ما يسمى بالانتخاب ، أو بعهد من الإمام على استخلاف واحد بعينه ، كما فعل أبو بكر مع عمر رضي الله عنهما ، أو بقهر الأمة بسيفه حتى يذعنوا له ويدعونه إمامًا ، كما هو مذهب أهل السُّنَّة والجماعة ، أن الإمامة تصح أن تعقد لمن غلب الناس .

قال إمام أحمد في رواية عبدوس بن مالك العطار : ومن غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين ، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر ، أن يبيت ولا يراه إمامًا .

وهكذا روي عن الإمام مالك والشافعي بما معنى ذلك .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - :

فمتى صار قادراً على سياستهم ، إما بطاعتهم أو بقهره ، فهو ذو سلطان مُطاع ، إذا أمر بطاعة الله ، لأن عدم طاعة المتغلب ، تتسبب منه فتن وقتل وسفك دماء وضياع أموال ، فدفعًا لهذه النتائج الضارة ،وجبت طاعته لئلا يحدث شيء من ذلك .

شروط الإمامة :

وللإمام شروط يجب أن يتصف بها كما قلنا في النظم : وشروطه البلوغ مع الإسلام ... إلخ :

[١] البلوغ :

لأن الصبي لا يستطيع إدارة شئونه ، فضلاً عن غيره ، ومثله المجنون .

[٢] الإسلام :

لأن الكافر ليس له ولاية على المسلمين كما قال الله تعالى : ﴿ **وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً** ﴾[النساء : ١٥١] ، وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ﴾[المائدة : ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾[النساء : ٥٩] .

ومعلوم أن الكافر لا تجب طاعته في شيء أبدًا ، بل تجب محاربته ومقاتلته بنص القرآن ، كما قال تعالى : ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)** ﴾[التوبة : ٢٩] .

[٣] كونه منفذاً للأحكام :

أي قادراً على تفيذ الحكم ، كإقامة الحدود ، وإيصال الحق إلى مستحقه ، وكف ظلم المعتدي .

[٤] كونه قرشياً :

لما ورد في الحديث الشريف : «**الأئمة من قريش** »[رواه الإمام أحمد وأبو يعلي في مسنديهما .

وروى الإمام أحمد أنه ﷺ قال : « **الخلافة في قريش** » .

وروى الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ولفظه : « **الملك من قريش**» .

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله

ﷺ : « **الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم ، وكافرهم تبع لكافرهم** » .

ومنها الحديث المتفق على صحته عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان** » .

وفي مسند الإمام أحمد ، أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لما ذهبا إلى سقيفة بني ساعدة لاختيار خليفة رسول الله ﷺ ، تكلم أبو بكر رضي الله عنه ولم يترك شيئًا أُنزل في الأنصار وذكره رسول الله ﷺ من شأنهم إلا وذكره ، ثم قال : ولقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال : « **لو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصار واديًا ، سلكت وادي الأنصار** » ، ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال : وأنت قاعد : « **قريش ولاة هذا الأمر** » ، فبر الناس تبع لبرهم ، وفاجرهم تبع لفاجرهم ، فقال سعد : صدقت نحن الوزراء وأنتم الأمراء . [رواه أحمد في مسنده بإسناد مرسل حسن] .

وعليه فإن جماهير علماء المسلمين ذهبوا إلى اشتراط القرشية في الإمامة ، وحكي الإجماع عليه من قبل الصحابة والتابعين ، وبه قال الأئمة الأربعة ، ولا يشترط كونه أفضل الأمة ، ولا كونه هاشميًا خلافًا للشيعة .

[٥] يكون ذَكَرًا :

ولا خلاف في ذلك بين العلماء ،وعده ابن حزم من المسائل المجمع عليها ، ويدل على اشتراط الذكورة، ما ثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث أبي بكرة رضي الله عنه ، أن النَّبي ﷺ لما بلغه أن فارسًا ملكوا ابنة كسرى ، قال : « **لن يُفلح قوم ولو أمرهم امرأة** » .

وقد ورد [١] في القرآن الكريم كثير من الآيات الدالة على تقديم الرجال على النساء ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾ [النساء : ٣٤] .

وأخبر النَّبي ﷺ بأن النِّساء ناقصات عقل ودين [٢] ، والإمامة تحتاج إلى كمال

---

(١) بدء الكلام من الإمامة العظمى .

(٢) إشارة إلى حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى =

الرأي ، وتمام العقل والفطنة ، لذلك لا تقبل شهادتها إلا إذا كان معها رجل ، وقد نبَّه الله على ضلالهن ونسيانهن بقوله تعالى : ﴿ **أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ** ﴾[البقرة : ٢٨٢] .

كما أن إمامة المسلمين تقتضي الدخول في المحافل ، ومخالطة الرجال وقيادة الجيوش ونحو ذلك ، وهذا محظور على النساء شرعًا بقوله تعالى : ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ** ﴾[الأحزاب : ٣٣] ، وغيرها .

يقول الغزالي ـ رحمه الله ـ : الرابع الذكورية فلا تنعقد الإمامة لامرأة وإن اتصفت بجميع خلال الكمال وصفات الاستقلال، وكيف تترشح امرأة لمنصب الإمامة وليس لها منصب القضاء ولا منصب الشهادة في أكثر الحكومات . أ هـ(١) .

وقال البغوي ـ رحمه الله ـ : اتفقوا على أن المرأة لا تصلح أن تكون إمامًا ولا قاضيًا ، لأن الإمام يحتاج إلى الخروج لإقامة أمر الجهاد ، والقيام بأمور المسلمين، والقاضي يحتاج إلى البروز لفصل الخصومات ، والمرأة عورة لا تصلح للبروز ، وتعجز لضعفها عن القيام بأكثر الأمور ، ولأن المرأة ناقصة والإمامة والقضاء من كمال الولايات ، فلا يصلح لها إلا الكامل من الرجال . أ هـ(٢) .

والواقع يشهد لذلك ، فالناس بتجاربهم يعرفون أنه لا يصلح للإمامة إلا الرجال، وإن صار منهن في منصب رئاسة الدولة ، فإنما كان نادراً ولظروف استثنائية ، وكذلك طبيعة المرأة النفسية والجسمية لا تتلاءم أبداً مع هذا المنصب ، فكما هو معروف أن طبيعة المرأة يلاحظ عليها إرهاف العاطفة وسرعة الانفعال وشدة الحزن ، وقد خُلقت

المصلى ، فمر على النساء ، فقال : يا معشر النساء ، « **تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار** » ، فقلن : وبما يا رسول الله ؟ ، قال : « **تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن** » ، وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ ، قال : « **أليس شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل ؟** » ، قل : بلى : « **فذلك من نقصان عقلها ، أليس إذا حاضت ولم تصل ولم تصم ؟** » ، قلن : بلى ، قال : « **فذلك من نقصان دينها** » .
الحديث رواه البخاري في كتاب الحيض ، ترك الحائض الصلاة والصوم ، وروى مسلم نحوه عن ابن عمر ، ورواه الترمذي في الإيمان ، وأبو داود في السُّنَّة ، وابن ماجه في الفتن وغيرهم .

(١) فضائح الباطنية (ص ١٨٠) .

(٢) شرح السُّنَّة للبغوي (١٠/ ٧٧) .

هذه الصفات في المرأة لتستطيع بها أن تؤدي وظيفتها الأولى وهي الأمومة والحضانة ، وإذا كانت هذه الصفات لازمة في مضمار الأمومة والحضانة ، فقد تكون ضارة في مضمار القيادة والرئاسة ، أما الرجل فلا يندفع في الغالب ـ مع عواطفه ووجدانه ـ كما تندفع المرأة ، بل يغلب عليه الإدراك والفكر والتروي وهما قوام المسؤولية والقيادة .

لذلك فإن الله سبحانه وتعالى شرع للرجل ما يلائم بنيته الجسمية والنفسية كالجهاد والقيادة ونحو ذلك ، وشرع للمرأة ما يلائم تكوينها أيضًا من تربية وحضانة وأعمال أخرى تلائمها (١) .

[٦] الحرية :

لأن الرقيق بجميع أنواعه عليه الولاية ، فلا يكون واليًا على غيره ، فضلاً عن عامة المسلمين .

وحديث « **عليكم بالسمع والطاعة ،وإن تأمر عليكم عبد حبشي** »، فهو على الفرض والتقدير ،أي أن الخضوع والامتثال واجب لمن كان ذا أمر ، وإن لم يكن حرًا ، أو محمولاً على الولاية الجزئية كأمير سرية .

[٧] أن يكون لديه حصيلة علمية كافية لتدبير الأمور على وجهها الأكمل :

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في قوله عن سليمان عليه السلام ﴿ **وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ** ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص : ٢٠] .

وقال عن يوسف عليه السلام : ﴿ **اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴿٥٥﴾ ﴾ . [يوسف : ٥٥] .

وقد فضل الله الذين يعلمون على الذين لا يعلمون في آيات كثيرة ، قال تعالى : ﴿ **هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر : ٩] ، فإذا قلنا باشتراط العلم ، فهل يشترط أن يكون بلغ مرتبة الاجتهاد ؟ .

﴿ أ ﴾ نعم ، قال الجمهور بذلك :

[١] **قال الشاطبي ـ رحمه الله ـ :** إن العلماء نقلوا الاتفاق على أن الإمامة الكبرى لا تنعقد إلا لمن نال رتبة الاجتهاد والفتوى في علوم الشرع .

---

(١) بتلخيص من الإمامة العظمى عند أهل السُّنَّة والجماعة ، عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي .

[٢] استدلوا أيضًا بالقياس، حيث قاسوا منصب الإمامة العظمى من منصب القضاء ، قال الباقلاني : لأن القاضي الذي يكون من قبله يفتقر إلى ذلك فالإمام أولى .

[٣] أما ابن خلدون فقد استدل على اشتراط الاجتهاد بقوله : لأن التقليد نقص ، والإمامة تستدعي الكمال في الأوصاف والأحوال ، وقال : لأنه إنما يكون منفذًا لأحكام الله إذا كان عالمًا بها ، وما لم يعلمها لا يصح تقديمه لها .

﴿ ب ﴾ ومن العلماء من لم يشترط الاجتهاد في الإمام :

قال الشهرستاني ـ رحمه الله ـ : وقالت جماعة من أهل السُّنَّة ذلك ، حتى جوزوا أن يكون الإمام غير مجتهد ولا خبير بمواقع الاجتهاد ، ولكن يجب أن يكون معه من يكون من أهل الاجتهاد فيراجعه في الأحكام ، ويستفتيه في الحلال والحرام ، ويجب أن يكون في الجملة ذا رأي متين وبصر في الحوادث نافذ .

والخلاصة :

إن هذه المسائل من المسائل الاجتهادية ، لأنه لم يرد نص صريح فيها ، وإنما مرجع ذلك إلى الضرورة والحاجة والمصلحة ، فإذا وجد مجتهد تتوفر فيه بقية الشروط الضرورية والمنصوص عليها فهو المطلوب ، وإن تعذر وجوده فلا تترك مصالح المسلمين تتعطل ويدب فيهم الفساد ، بسبب عدم وجود المجتهد الذي تتوفر فيه شروط الإمام ، والله أعلم .

[٨] العدالة :

ومن الأدلة على اشتراط هذا الشرط ما يلي :

﴿ أ ﴾ ما ورد في قصة إبراهيم عليه السلام حينما قال له ربه : ﴿ **قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

عن مجاهد أنه أراد أن الظالم لا يكون إمامًا .

وقال الفخر الرازي : احتج الجمهور على أن الفاسق لا يصلح أن تعقد له الإمامة بهذه الآية ﴿ **لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ ووجه الاستدلال بها ما يلي :

ما بيَّنا أن قوله : ﴿ **لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ ،جواب لقوله : ﴿ **وَمِن ذُرِّيَّتِي** ﴾ ،

طلب للإمامة التي ذكرها الله تعالى ، فوجب أن يكون المراد بهذا العهد هو الإمامة ، ليكون الجواب مطابقًا للسؤال، فتصير الآية كأنه تعالى قال : لا ينال الإمامة الظالمون ، وكل عاص فإنه ظالم لنفسه ، فكانت الآية دالة على ما قلنا .

﴿ب﴾ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ .

[الحجرات : ٦] .

فالله سبحانه وتعالى أمر هذه الآية بالتبين عند قول الفاسق ولا يجوز أن يكون الحاكم من مَن لا يقبل قوله ، ويجب التبين عند حكمه ، ولأن الفاسق لا يجوز أن يكون شاهداً ، فلئن لا يكون قاضيًا أولى ، ولئن لا يكون حاكمًا للمسلمين أولى .

﴿جـ﴾ واستدل على ذلك أيضًا : بأن المقصد الأساسي من نصب الخليفة هو رفع ظلم الظالم ، لا تسليط الظالم على الناس ، والظالم يختل به أمر الدين والدنيا ، فكيف يصلح للولاية وما الولاية إلا لدفع شره .

قال الجويني : والأب الفاسق على فرط حدبه وإشفاق على ولده ، لا يعتمد في مال ولده ، فكيف يؤتمن في الإمامة العظمى فاسق لا يتقي الله ؟ ، ومن لم يقاوم هواه ونفسه الأمارة بالسوء ، ولم ينهض رأيه بسياسة نفسه ، فأني يصلح خطة الإسلام .

أما إذا تعذر واضطرب الأمة إلى ولاية الفاسق ، جاز ذلك .

ولذا قال ابن عبد السلام : لو تعذرت العدالة في الأئمة ، قدمنا أقلهم فسقًا .

قال الأذرعي : وهو متعين إذ لا سبيل إلى جعل الناس فوضى .



فصل

في وجوب السمع والطاعة للإمام

قوله : طاعته واجبة على الورى :

أي يجب على كل فرد من أفراد الأمة الخضوع والإذعان والطاعة ، والامتثال للإمام ، وقد دل على ذلك الكتاب والسُّنَّة .

أدلة وجوبها من الكتاب :

قوله الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩)** ﴾ [النساء : ٥٩] .

أما السُّنَّة :

فالأحاديث كثيرة في وجوب السمع والطاعة للأئمة في غير معصية :

﴿ **أ** ﴾ ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصى أميري فقد عصاني** » [متفق عليه] . إلا إذا أمر بالمعصية فلا سمع ولا طاعة ، كما ورد لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

﴿ **ب** ﴾ ومنها ما رواه البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي ، كان رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله** » .

﴿ **جـ** ﴾ ومنها ما رواه البخاري ومسلم والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها** » ، قالوا : يا رسول الله كيف تأمر من أدرك ذلك منا ؟ ، قال : « **تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم** » .

﴿ **د** ﴾ ومنها ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال :

بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العُسر واليُسر ، والمنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا ، وعلى ألا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم .

وفي رواية لمسلم : إلا أن تروا كفراً بواحًا عندكم من الله فيه برهان .

﴿ هـ ﴾ وقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال : «**ثلاثة لا يُكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم ، رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل ، ورجل بايع رجلاً بسلعة بعد العصر ، فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه وهو غير ذلك ، ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا ، فإن أعطاه منها وفي ، وإن لم يعطه لم يف** » .

والطاعة دعامة من دعائم الحكم في الإسلام ، وقاعدة من قواعد نظامه السياسي، وهي من الأمور الضرورية لتمكين الإمام من القيام بواجبه الملقى على عاتقه، وضرورية أيضًا لتمكين الدولة من تنفيذ أهدافها وتحقيق أغراضها ، ورضى الله عن عمر بن الخطاب حيث يقول: لا إسلام بلا جماعة، ولا جماعة بلا أمير، ولا أمير بلا طاعة (١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

فطاعة الله ورسوله ﷺ واجبة على كل أحد ، وطاعة ولاة الأمور واجبة لأمر الله بطاعتهم ، من أطاع الله ورسوله بطاعة ولاة الأمر فأجره على الله ، ومن كان لا يطيعهم إلا لما يأخذه من الولاية والمال ، فإن أعطوه أطاعهم ، وإن منعوه عصاهم فما له في الآخرة من خلاق (٢) .

وحاصل ذلك أن الإمام أو الخليفة أو السلطان أو الحاكم أو الأمير أو الملك أو الرئيس ، لأن كل هذه الألفاظ مترادفة كما سبق بيانها ، ما دام قائمًا بفروض الله التي كلف الله بها عباده من حيث نفسه وخاصته ، كما هو قائم في الرعية بشريعة الله ، منفذاً للعدل غير مُحاب لقريب وشريف أو وزير أو غني ، لا يرتكب شيئًا مما يؤدي إلى الكفر أو إلى الفسق ، فمثل هذه الخليفة أو الحاكم تجب طاعته ، ولا يجوز الخروج

---

(١) الإمامة العظمى .

(٢) فتاوى شيخ الإسلام .

عن طاعته حتى لو أخطأ في بعض المسائل ، لأن ابن آدم لا يسلم من الخطأ ، كل ابن آدم خطأ ، وخير الخطّائين التوابون .

هل الفسق موجب لعزل الإمام أم لا ؟ ، وأقوال العلماء فيه :

[١] القول الأول : صرح في النظم ، أن الفسق ليس موجبًا لعزله عن الإمامة ، أو كونه ينعزل تلقائيًا .

وهذا قول جمهور أهل السُّنَّة ، قال القاضي عياض : وقال جمهور أهل السُّنَّة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين ، لا ينعزل بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق ، ولا يخلع ولا يجوز الخروج عليه بذلك ، بل يجب وعظه وتخويفه .

وقال النووي ـ رحمه الله : إن الإمام لا نعزل بالفسق على الصحيح .

وقال أبو يعلى في المعتمد : ذكر شيخنا أبو عبد الله في كتابه عن أصحابنا ،أنه لا ينخلع بذلك، أي بفسق الأفعال كأخذ الأموال وضرب الأبشار، ولا يجب الخروج عليه ، بل يجب وعظه وتخويفه، وترك طاعته في شيء مما يدعو إليه من معاصي الله تعالى .

وذهب في كتابه «الأحكام السلطانية»: إلى أن الفسق لا يمنع من استدامة الإمامة سواء كان متعلقًا بأفعال الجوارح ، وهو ارتكاب المحظورات ، وإقدامه على المنكرات اتباعًا لشهوة ، أو كان متعلقًا بالاعتقاد ، وهو المتأول لشبهة تعرض يذهب فيها إلى خلاف الحق ، ثم استدل على ما ذهب إليه بكلام الإمام أحمد في المنع من الخروج على الأئمة، لما في ذلك من إحياء الفتنة ،وبالأحاديث الآمرة بالصبر على جور الأئمة.

وذهبت طائفة من أهل السُّنّة :

إن الإمام ينعزل بالفسق ، ونسب القرطبي هذا للجمهور ، وأنه تنفسخ إمامته ، ويخلع بالفسق الظاهر المعلوم، ونسب هذا القول للشافعي في القديم ، وهو المشهور عن أبي حنيفة ، كما أنه مذهب المعتزلة والخوارج.

وحجتهم : أن المتفق عليه بين العلماء أن الإمامة لاتنعقد لفاسق ابتداء ، وهكذا لو طرأ عليه الفسق بعد أن كان عادلاً .

[٢] القول الثاني : أنه مكلف بإقامة الحدود واستيفاء الحقوق ، وحفظ أموال الأيتام والمجانين ، والنظر في أمورهم ، وما فيه من الفسق ، خصوصاً إذا كان فسقه فسق الجوارح ، كانغماسه في الشهوات المحرمة ، وارتكابه المحظورات ، وإقدامه على المنكرات ، فهذا النوع من الفسق يقعده عن القيام بما أنيط به من الأمور والنهوض بها .

[٣] وهناك قول ثالث يقول بالتفصيل :

قال هؤلاء في تفصيلهم : إن كان الفسق من باب الشهوات وفسق الجوارح ، فهذا كما يمنع من انعقاد الإمامة ومن استدامتها ، فكذلك إذا طرأ على من انعقدت إمامته خارج منها ، أما إذا كان الفسق من حيث الاعتقاد والتأويل بشبهة ، ففي هذا أيضًا خلاف .

فمنهم من قال : يمنع من انعقاد الإمامة له ، ويخرج بحدوثه منها .

وقال كثير من علماء البصيرة : لا يمنع من انعقاد الإمامة ولا يخرج منها ، كما لا يمنع من ولاية القضاء وجواز الشهادة . أ هـ .

والصواب ما قلناه أولاً : من أنه لا ينعزل بالفسق مطلقًا ، سواء كان فسقه فسق الجوارح أو الاعتقاد ، لأن المأمون والمعتصم من خلفاء بني العباس دانوا بخلق القرآن ، وسجنوا الإمام أحمد وضربوه ليقول بخلق القرآن فأبى ، ومع ذلك لم يكفرهم ودعاهم بأمير المؤمنين ولم يقل بعزلهم ، وهذا الخلاف الذي ذكرناه من حيث الفسق .

ولكن ينعزل الإمام ولا تكون له ولاية على مسلم إذا ما أتى بما يلي :

[١] الكفر والردة بعد الإسلام :

قال الله تعالى : ﴿ **وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً** ﴾ [النساء : ١٤١] ، أي : سبيل أعظم من سبيل الإمامة ؟ .

وفي الحديث الذي رواه عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : « **بايعنا** - أي رسول الله ﷺ - **على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحًا عندكم من الله فيه برهان** » [متفق عليه] .

فظاهر الحديث : أن من طرأ عليه الكفر فإنه يجب عزله ، وهذا أهون ما يجب على الأمة نحوه ، إذ الواجب أن يقاتل ويُباح دمه بسبب ردته ، امتثالاً لقوله ﷺ في الحديث الذي رواه ابن عباس : « **من بدَّل دينه فاقتلوه** » (١) .

وقد سبق عند ذكر الشروط ، أن الكافر لا ولاية له علي مسلم بحال ، وهذا السبب في عزل الإمام محل اتفاق بين العلماء ، ومجمع عليه عندهم .

قال أبو يعلى ـ رحمه الله ـ :

إن حدث منه ما يقدح في دينه، نظرت فإن كفر بعد إيمانه فقد خرج عن الإمامة، وهذا لا إشكال فيه ، لأنه قد خرج عن الملة ووجب قتله .

وقال القاضي عياض ـ رحمه الله ـ :

أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر ، وعلى أنه لو طرأ عليه كفر وتغيير للشرع أو بدعة ، خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته ، ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب إمام عادل إن أمكنهم ذلك ، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة ، وجب عليهم القيام بخلع الكافر .

وقال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ :

إنه يرى الإمام ينعزل بالكفر إجماعًا ، فيجب على كل مسلم القيام في ذلك ، فمن قوي على ذلك فله الثواب ، ومن داهن فعليه الإثم ، ومن عجز وجبت عليه الهجرة من تلك الأرض .

وقال السفاقسي : أجمعوا على أن الخليفة إذا دعا إلى كفر أو بدعة يشار عليه .

[٢] ترك الصلاة والدعوة إليها :

كما أ من الأسباب الموجبة لعزل الإمام ترك الصلاة والدعوة إليها ، إما جحودًا فهذا كفر ويدخل في السبب الآنف الذكر ، وإما تهاونًا وكسلاً ، فعلى رأي بعض العلماء أنها معصية وكبيرة من الكبائر ، وعلي الرأي الآخر أنه كفر .

وهناك أحاديث صحيحة تشهد لهذا الرأي ، منها قوله ﷺ : « **العهد الذي**

---

(١) رواه البخاري ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والنسائي ، وأحمد .

بيننا وبيهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر »[١] ، وغيره من الأحاديث ، وليس هذا محل بحث لهذه المسألة .

فعلى أي الحالين يجب عزل الإمام الذي يترك الصلاة عملاً بالأحاديث الواردة في ذلك ، والتي نهت عن منابذة الأئمة الجورة ، ونقض بيعتهم ، وعن مقاتلتهم بشرط إقامتهم الصلاة .

ومنها الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : إن رسول الله ﷺ قال : « **إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون ، فمن كره فقد برىء ، ومن أنكر فقد سلم ، ولكن من رضي تابع** » ، قالوا : أفلا نقاتلهم ؟ ، قال : « **ما صلوا** » ، [رواه مسلم][٢] .

وهذا الحديث فيه التصريح بمقاتلة الأمراء الذين لا يصلون ومعلوم أن المقاتلة هي آخر وسيلة من وسائل العزل ، وقد ذكر القاضي عياض إجماع العلماء على عزل الإمام « لو ترك إقامة الصلاة والدعوة إليها » .

[٣] ترك الحكم بما أنزل الله :

ويشترط للسمع والطاعة أن يقود الإمام رعيته بكتاب الله ، أما إذا لم يحكم فيها شرع الله ، فهذا لا سمع له ولا طاعة ، وهذا يقتضي عزله ، وهذا من صور الحكم بغير ما أنزل الله المفسقة ، أما المكفِّرة فهي توجب عزله ولو بالمقاتلة .

---

(١) رواه الترمذي .

(٢) في كتاب الإمارة ، وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع .

فصل

في كرامات الأولياء

وكل ما في الخوارق أتى
من يد ظاهر الصلاح يافتي

وتارك الشرك بذي الآلاء
متبع السُنَّة الغراء

فذي كرامة نقول
دلّ عليها العقل والمنقول

الكرامة : هي أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة ، تظهر على يد مؤمن تقي ، وأحسن تعريف للولي ما ذكره الله في كتابه ﴿ **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣)** ﴾[يونس : ٦٢] .

فشرط أولاً : الإيمان ، فمن لم يكن مؤمنًا ، لا يمكن أن يكون وليًا ، وكذلك من عزم الإيمان والإسلام ، وأتى بالشرك فلا يكون وليًّا وإن أتى بالخوارق ، ومن الشرك الاستغاثة بالأنبياء والأولياء وطلب الشفاعة منهم ، والنذور إليهم والطواف بقبورهم.

الشرط الثاني : التقوى وهي الائتمار بالمأمورات ، والانتهاء عن المنهيات ، فقولنا : وتارك الشرك يشير إلى قوله تعالى : ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ لأن ضد الإيمان الكفر والشرك .

والشرط الثالث : يشير إلى قوله ﴿ **وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾ ، فمن لم يكن متقيًا ، بأن أخل بشيء من المأمورات ، أو اقترف شيئًا من المنهيات ، ولم يتب ، فليس بولي وإن أتى بخوارق، لأن الخوارق لا تدل على الولاية ، ولأن الخوارق تأتي بها السحرة والكهان وأهل الشعوذة والجن ، وغير ذلك مما هو معروف عند الأمم ، فمنهم من يدخل النار إما بدهن بدنهم أو بعزيمة من العزائم الشيطانية ، فيتمثل الجني بصورته فيراه الناس أنه دخل النار ،أو يطير به في الهواء ، أو يخبره ببعض المغيبات ، وكثيراً ما تصنع الجن الخوارق لشخص لأجل أمور محظورة، مثل قتل نفس، وإمراضها بغير حق، ومنع شخص من الوطء .

ومن شاهد ما يأتي به بعض الكفار من الهند وأوروبا وإيران وسائر أرجاء العالم من الناس يخبرون بالمغيبات ، وآخرين يأتون بالخوارق ، يعلم علمًا قطعيًا أن مجرد إتيان الخوارق لا يدل على الصلاح والولاية ، ولمعرفة الحق من الباطل والصالح من الطالح ، والفاسق من المؤمن ، توزن أعمال المسلم بميزان الكتاب والسُّنَّة ، فمن كان عاملاً بهما ، فهو الولي والسعيد والصالح ، وإلا فلا .

إذا علمت هذا ، تعلم بطلان دعوى كثيرين من المتصوفة وأهل الطرائق والمريدين وأمثال هؤلاء ، الذين يقل فيهم من يعرف الله حق معرفته ، أو يوحده توحيد العبادة والأسماء والصفات ، مع ذلك يأتي بالشركيات كالاستغاثة بالصالحين ، والصلاة حول ضرائح الميتين ، والاعتقاد بعلم الغيب والنفع والضر في الأموات المقبورين ، ومع هذه المخزيات يزعمون أنهم من الصالحين ومن الأولياء المكرمين ، ويبجلون أنفسهم لدى العوام وأشباه الأنعام ، ويقولون : إننا نقدر أن نفعل كذا وعندنا معرفة الغيب ونحو ذلك من الدعاوى الباطلة ، يرهبون بها الجاهلين ، وهي في الحقيقة دجل وحيل لسلب أموال العباد ، وعدم التقيد بالمأمورات الشرعية ، بدعوى المكاشفات والعلوم الباطنية ، ولدى العامة وأشباههم من أدعياء العلم اعتقادات سخيفة لا توافق الشرع ولا العقل في كثير ممن منحوهم لقب الولاية ، من مثل دعواهم بأنهم يعلمون الغيب ، ويقضون حاجات السائلين ، ويكشفون كرب المكروبين ، ويملكون التصرف في شؤون العالم ، ويرددون حكايات في ذلك ، وأنهم معصومون عن المعصية ، وكلها عن الحق بمعزل ، ولا شك أنها أكاذيب روَّجها دعاة السوء وسماسرة الضلالة من سدنة القبور ، الذين يروجون أمثال هذه الأباطيل لتكثر النذور والقرابين فتمتلىء جيوبهم وخزائنهم بما يقدمه لهم السفهاء والبله والمفتونون .

أدلة ثبوت الكرامة نقلاً وعقلاً :

يحتج القائلون بثبوت الكرامة ـ وهم جمهور أهل السُّنَّة ـ بأمور نقلية ثبت بعضها من القرآن ، وبعضها بالأخبار الكثيرة التي تفيد بمجموعها التواتر المعنوي ، وإن كان في جزئياتها آحاد .

الأول : ما قصّه الله علينا من خبر أهل الكهف ، ونومهم في تلك المدة الطويلة

وهم أحياء ، ولم يكونوا أنبياء ولا سحرة ولا مشعوذين ، بل كانوا مؤمنين صالحين كما أخبر الله عنهم ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾[الكهف : ١٣] .

الثاني : ما أخبر الله تعالى عن مريم ، بأنه أنبتها نباتًا حسنًا وكفلها زكريا ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾[آل عمران : ٣٧] ، يعني : فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، وقصة آصف حيث أتى بعرش بلقيس قبل أن يرتد طرف سليمان عليه السلام من مسافة بعيدة من سبأ إلى الشام .

وعن الصحابة كثرت الروايات المفيدة لما قلنا : كقصة عمر وسارية وشرب خالد بن الوليد السم ، ومشي العلاء بن الحضرمي على الماء ، ودخول أبي مسلم في النار ، كما نقل أضعاف ذلك عن التابعين والعلماء الصالحين ، مما ذاع واشتهر وضاقت عن إحصائه الدفاتر ، وشهدت بوجوده الأكابر والأصاغر ، والعقل لا ينكر ذلك لأن الله تعالى يخص ما شاء بما شاء ، ويمتنع أن نكذب برواية عدد يؤمن من تواطئهم على الكذب ، لا سيما إذا كانوا معروفين بالديانة والصلاح ، ولأنها بقدرة الله أكرم بها من أراد من عباده الصالحين لحكم محمود : إما ليزدادوا إيمانًا ، أو لينجيه من مهلكته ، أو ليكون سببًا في هداية قوم ، أو لحاجة واضطرار أو نحو ذلك .

وكرامة الأولياء فرع عن معجزات الأنبياء لأنها تدل على صحة نبوة المتبوع ، وينبغي أن يعلم أن كرامات الأولياء دون معجزات الأنبياء ، فانشقاق القمر ، والإتيان بالقرآن ، وانقلاب العصا حية ، وخروج الدابة من صخرة ، والخلق من الطين كهيئة الطير ، ونحو ذلك لا يكون مثله للأولياء .

ذكر ذلك في كتاب النبوات قائلاً ما معناه :

إن للأنبياء آيات كباراً وصغاراً، ومثل الكبار بما ذكرناه آنفًا ، وقال باختصاصهم بها مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) ﴾[النجم : ١٨] ، وبقوله : ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) ﴾[النازعات : ٢٠] ، والآيات الصغرى تكون للأنبياء والصالحين مثل تكثير الطعام ، ولكن ما للأنبياء من هذا النوع أعلى مما للصالحين ، فتكثير الطعام وإن وجد لغير واحد من الصالحين ، لكن لم يكن كما كان

للنَّبي من إطعامه الجيش من شيء يسير ، ودخول أبي مسلم الخولاني في النار وصارت بردًا وسلامًا ، ولكنها لم تكن كنار إبراهيم في عظمتها .

تقسيم العلماء الخوارق ستة أقسام :

وبهذا تعلم ضعف ما اشتهر عن كثير من المنتسبين إلى العلم والمؤلفين قولهم : ما صح أن يكون معجزة لنبي ، صح أن يكون كرامة لولي ، وما أدري أي اختصاص يبقى بعد هذا لمحمد وموسى وعيسى عليهم السلام ؟ .

وقسم العلماء الخوارق إلى ستة أقسام :

[١] المعجزة وتقدم في هذا الجزء من الكتاب .

[٢] الخارق المتقدم للنبوة ويسمى بالإرهاص ، كقصة أصحاب الفيل ، وتظليل الغمام للرسول ﷺ .

[٣] الكرامة .

[٤] الاستدراج وهو الخارق الظاهر على يد فاسق وذي دجل ، وإن كان على وفق مراده .

[٥] الإهانة والاحتقار إن كان بعكس مراده ، كما فعل مسيلمة الكذاب من تفله في بئر عذبة ليزداد ماؤها حلاوة ، فصار ملحًا أجاجًا .

[٦] المعونة كما يظهر على يد بعض عوام المسلمين وضعفاء أهل الدين ، وتخليصًا لهم من المحن والمكاره .

باب في السمعيات

وكل ما قد جاء في القرآن أو قد أتى في سُنَّة العدنان
على الورى يحتم القبول لو عجزت عن ذلك العقول
مثل علامات القيامة التي جاءت بها الأخبار فاجزم وأثبت
خروج دجال على الغبراء نزول عيسى ما من الخضراء
خروج يأجوج ومأجوج كذا هدم لكعبة فهذا يحتذى
ثم طلوع الشمس من مغربها وذات أجياد كذا فانتبها

مرادنا بالسمعيات : ما ثبت بالأدلة النقلية ، لأن ما كان دليله من العقل يسمى بالعقليات وإن وافق النقل ، وما كان طريقه الكتاب والسُّنَّة يسمى بالسمعيات ، وليس في بعضه للعقل مجال .

قولنا : وكل ما قد جاد في القرآن . . . إلخ .

معناه : أن الواجب يقضي علينا في هذا الباب، وهو ما يتعلق بالأمور الأخروية ، وعلامات الساعة أن نصدق بما ورد عن الله ورسوله ، وإن عجزت عقولنا عن إدراك ذلك ، لأن الأنبياء عليهم السلام لا يأتون بما تحكم عليه العقول بالاستحالة ، بل إن ما تدرك وإما أن تحير ، ولا يقبل قول بعض الجاهلين أو الملحدين في هذا الباب ، بأن هذا لا يقبله العقل ، لأن ما سماه عقلاً ليس بعقل صحيح ، وإنما وهم وخيال وعقائد أهل الضلال ، وإلا فالعقل الصحيح لا يخالف النقل الصحيح .

وإنما قلنا أن الواجب يقضي علينا في هذا الباب ، أن نصدق بما ورد عن الله والصحيح عن رسوله ، لأنه كما لا يخفى أن أركان الإيمان ستة : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقضاء والقدر [1] .

---

(١) تكلمت عن خمسة منهم في الجزء الأول وبقى الكلام على واحد من الستة ، وهو الإيمان باليوم الآخر ، وسيمر بالقاريء إن شاء الله الشرح الوافي له .

اليوم الآخر :

فاليوم الآخر هو يوم القيامة ، يوم يبعث الله العباد من قبورهم ، ويجمع فيه الأولين والآخرين للحساب والثواب والعقاب ، وبما أن القيامة من الأمور الغيبية التي قد لا يصدقها العقل السقيم ، وقعت فيه المعركة بين الرسل وبين أُممهم ، ولا سيما مشركي العرب ، ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه من ذكر اليوم الآخر ، وزيف شبه المشركين على إنكارهم البعث وإحياء الله الموتى ، قال الله تعالى :

أولاً : في إثبات اليوم الآخر : ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وقوله تعالى : ﴿ **ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ [الطلاق : ٢] .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)** ﴾ . [البقرة : ٦٢] .

وثانياً : في بيان دحض وتفنيد شبه المشركين ، حينما جاء أبي بن خلف بعظم بال يُفتته بيده ، وقال : يا محمد أتقول : إن الله يُحيي مثل هذا ؟ ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)** ﴾ [(١)] . [يس : ٧٨ - ٨٢] .

---

(١) يعني : أن الذي خلقها أول مرة من العدم لقادر على أن يُحييها بعد الموت ، لأنه عالم بجميع أجزائها المفتتة ، وأوصالها المفككة ، وقادر على أن يجمعها وينفخ فيها الروح ، ثم أقام الدليل بقوله : ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)** ﴾ ، يعني : أن الذي أخرج النار من الشجر الأخضر لقادر على أن يبعث الإنسان بعد الموت حيًّا ، أو المراد بذلك شجر المرخ والعفار ، ينبت في أرض الحجاز ، فيأتي من أراد قدح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما ، وروى هذا عن ابن عباس .
ففي المثل : لكل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) ﴾ [الصافات : ١٥ - ١٩] .

وقال تعالى : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) ﴾ [التغابن : ٧] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) ﴾ [يونس : ٣٤] .

ثم أقام الدليل الثاني : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) ﴾ يقول الله تعالى مخبرًا منبهًا على عن قدرته العظمية في خلق السموات السبع ، بما فيها من الكواكب السيَّارة والسموات والأرضين السبع ، وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار ، وما بين ذلك، ومرشدًا إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة ، كقوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] ، وقال عز وجل ههنا : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ أي : مثل البشر ، فيعيدهم كما بدأهم .

قال ابن جرير : وهذه الآية الكريمة كقوله عز وجل : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) ﴾ [الأحقاف : ٣٢] ، وقال : ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ أي : إنما يأمر بالشيء أمرًا واحدًا ال يحتاج إلى تكرار أو تأكيد .

إذا ما أراد الله أمرًا فإنما يقول له كن قولة فيكون

وقوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾ أي : تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم الذي بيده مقاليد السموات والأرض ، وإليه يُرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر ، وإليه ترجع العباد يوم المعاد ، فيجازي كل عامل بعمله ، وهو العادل المنعم المتفضل .

ومعنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ [الملك : ١] ، فالملك والملكوت واحد في المعنى كرحمة ورحموت ، ورهبة ورهبوت ، وجبر وجبروت ، ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد ، والملكوت هو عالم الأرواح ، والصحيح الأول ، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم أ . هـ .

سبق أن قلنا أن البعث من الأمور الغيبية التي قد لا يصدقها العقل السقيم ، ولهذا وقعت الخصومة بين الرسل والمشركين ولا سيما مشركي قريش ، وليعلم أن منكري البعث طوائف ، منها : من يجمع بين إنكار الخالق وإنكار البعث وهم الدهرية سالفًا والشيوعية في عصرنا ، ومنها من يؤمن بربوبية الله وينكر البعث ، وهذا حال أكثر المشركين ، والمؤمنون من جميع الأديان يؤمنون بالله وبالبعث ، ولهذا أكثر الله من ذكر اليوم الآخر والحساب والجزاء ، وفي كثير من الآيات يقيم الله تعالى عن المنكرين حججًا عقلية ومشاهدة ، بحيث إذا تأملها ذو العقل الصحيح لا يجد لإنكاره مساغًا وموئلاً ، فمن تلك الآيات قوله تعالى : ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ** ﴾ .

ومنها قوله تعالى في سورة الحج : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦)** ﴾ [الحج : ٥ ، ٦] .

شبهات منكري البعث والرد عليها :

[١] إن الإنسان يولد نتيجة التزاوج بين الذكر والأنثى، ويموت لمرض أو قتل أو لانهيار بعد أن يصل إلى الشيخوخة، فأي شيء يكون نتيجة لإحيائه بعد الموت ؟.

والجواب :

إن هذا القول يدلنا أن صاحبه لا يعترف بالله العظيم ، وبأنه مخلوق لله تعالى ، وهنا أمران : إما أن نقول له : هل أنت تعترف بالله ، وبأنه الخالق الرازق المحيي المميت؟، فإن قال : لا أعترف فتُقام عليه الأدلة والبراهين على وجود الله [١] ، وأنه الخالق لجميع الكائنات ، لا خالق غيره ولا رب سواه ، ولا يعجزه شيء ، وهو على كل شيء قدير .

وإن قال : إني أعترف بالله ، ولكني أستبعد الميت الذي تمزقت أوصاله ، وتفتت

---

(١) وقد سبق كثير منها في الجزء السابق .

عظامه ، وأصبحت ترابًا ، أن يرجع حيًّا كما كان ؟ .

فالجواب أن يقال :

تقرر في بداهة العقول أن الإعادة من الابتداء أهون من الابتداء ، فالذي خلقه أولاً من ماءٍ مهين ، وحفظه في قرار مكين ، ونقله في طور إلى طور حتى جعله بشرًا سويًا ، وأفاض عليه من العلم والعقل والحواس عالمًا أو شاعرًا أو فيلسوفًا أو ملكًا إلخ ، الصفات الحسنة والسيئة ، لقادر أن يُحييه بعد أن أماته ، لأننا نعترف بالله وبقدرته ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس : ٨٢] .

وكون الإنسان يولد ثم يموت لمرض أو قتل أو انهيار جسمه ، « فأي [١] دليل في هذا على أن الإنسان إذا مات فات ؟! ، إن الدعوى لا تصلح أساسًا للاستدلال ، فإذا قلت : بلغ فلان من العمر عشرين سنة ، لأن عمره عشرون سنة ، كان قولك هذا نوعًا من الهراء والهذيان ، وقد رد القرآن على هؤلاء وأحزابهم بقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية : ٢٤] .

[٢] ومن شبههم : أن الجسم بعد أن تأكله الديدان ، ولا يبقى منه إلا عظام نخرة يعود ثانية : : إن هذا لشيء عجاب ! ومن شاهد أو سمع أن ميتًا عاد إلى الحياة بعد أن أصابه البلى ، وذهب في التراب ؟ .

فالجواب :

نحن لا نجد سببًا لهذه الاستبعاد سوى قياس فعل الله على فعل البشر ، فإذا عجزنا عن إحياء الموتى ، أيجب أن يعجز الله عنه أيضًا ! تعالت قدرته : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس : ٨٢] .

لقد استبعد هؤلاء البعث ، وأنه مخالف للمعتاد والمألوف ، وبديهة أن الاستبعاد لا يصلح دليلاً للنفي ولا للإثبات ، فبالأمس القريب كنا نرى أشياء مستحيلة الوقوع ، ثم أصبحت واقعة كالهاتف والرائي « التلفزيون » ، وما أشبه ذلك ، وقد أشار سبحانه إلى استبعاد المنكرين في مواضع عدة منها قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا

(١) بدء الكلام من الآخرة والعقل ، محمد جواد مغنية بتصرف .

عظامًا ورُفَاتًا أئنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ﴾ [الإسراء : ٤٩] ، ورد عليهم في آيات منها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُضْغَةٍ ﴾ [الحج : ٥] .

خاطب الله سبحانه المرتابين بهذا الأسلوب البعيد عن الاستعلاء ،القريب من القلب، فبعد أن سألهم: هل داخلهم الشك؟، لفت نظرهم إلى آيات الله التي يشاهدونها في غيرهم وفي أنفسهم، وإلى إنشائهم وابتداء خلقهم ، وكيف أوجدهم من العدم، وانتهى بهم إلى نتيجة لا يسعهم إلا التسليم بها ،والإذعان من العدم، وهي أن من يقدر على إيجاد المعدوم،فهو على إعادة الموجود أقدر، وإن صح التعبير (١) ابتدأ معهم من الشك والتساؤل ، وانتهى بهم إلى اليقين والاطمئنان (٢) . أ هـ .

---

(١) لا يوجد بالنسبة إلى الله شيء أسهل أو أصعب من شيء ، فخلق الذرة وخلق الكون سواء لديه تعالى .

(٢) من الآخرة والعقل .

فصل

في علامات الساعة (١)

ويعبر الكثيرون بأشراط الساعة

والشرط بالتحريك هو: العلامة ، وجمعه أشراط .

أما الساعة في اللغة : فهي جزء من أجزاء الليل والنهار،جمعها ساعات وسواع .

الساعة ويعني بها : القيامة ، مما اختص الله بعلمها ، وقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية معلنة بأنها مما استأثر الله بعلمها ، فلم يطلع عليها لا ملك مقرب ولا نبي مرسل بمعنى : متى تكون ؟ ، وفي أي سنة ، وفي أي وقت؟ .

فمن الآيات قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)** ﴾ [لقمان : ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا** ﴾ [الأحزاب : ٦٣] .

وحيث خفي علم تعيينها فقد بان علي لسان نبيه ﷺ وفي كتابه المجيد أماراتها الدالة عليها .

وقد قسموا الأمارات إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ظهر وانقضى وهي الأمارات البعيدة :

- **منها : بعثة النبي ﷺ :**

أخبر ﷺ أن بعثته دليل على قرب قيام الساعة ، وأنه نبي الساعة ، وقد ورد عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **بُعثت أنا والساعة كهاتين ، وضم السبابة والوسطى** » [أخرجه مسلم في كتاب الفتن] فهو النَّبي الأخير فلا يؤذيه نبي آخر ، وإنما تليه القيامة كما تلي السبابة الوسطى ، وليس بينهما أصبع آخر .

---

(١) من أشراط الساعة ، للشيخ / يوسف بن عبد الله الوابل .

■ **ومنها : موت النبي ﷺ :**

ففي الحديث عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أعدد ستاً بين يدي الساعة : موتي** » [الحديث أخرجه البخاري في كتاب الجزية والموادعة] .

فقد كان موت النَّبي ﷺ من أعظم المصائب التي وقعت على المسلمين ، فقد أظلمت الدنيا في عيون الصحابة رضي الله عنهم عندما مات عليه الصلاة والسلام .

قال أنس بن مالك رضي الله عنه **:** لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء ، وما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي وأنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا (١) .

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ : يريد أنهم وجودها تغيرت عما عهدوه في حياته من الألفة والصفاء والرقة ، لفقدان ما كان يمدهم به من التعليم والتأديب (٢) .

فبموته ﷺ انقطع الوحي من السماء ، كما في جواب أم أيمن لأبي بكر وعمر رضي الله عنهم ، عندما زارها بعد موت النَّبي ﷺ ، فلما انتهيا إليها بكت ، فقالا لها : ما يبكيك ؟ ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ، فقالت : ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ ، ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء ، فهيجتهما على البكاء ، فجعلا يبكيان معاً (٣) .

■ **ومنها : مقتل عثمان بن عفان** رضي الله عنه **:**

لقد كان ظهور الفتن في عهد الصحابة رضي الله عنهم بعد مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فإنه كان باباً مغلقاً دون الفتن ، فلما قُتِلَ رضي الله عنه ظهرت الفتن العظيمة ، وظهر دعاتها ممن لم يتمكن الإيمان من قلبه ، وممن كان من المنافقين الذي يظهرون للناس الخير ، ويبطنون الشر والكيد لهذا الدين .

ففي الصحيحين عن حذيفة رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة ؟ ، فقال حذيفة : أنا أحفظ كما قال ، قال : هات ،

---

(١) جامع الترمذي .
(٢) فتح الباري .
(٣) صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة .

إنك لجريء ، قال رسول الله ﷺ : « **فتنة الرجل في أهله وماله وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** » ، قال : ليس هذه ولكن التي تموج كموج البحر ، قال : يا أمير المؤمنين ، لا بأس عليك منها ، إن بينك وبينها باباً مُغلقاً ، قال : يفتح الباب أو يُكسر ، قال : لا ، بل يُكسر ، قال : ذلك أحرى أن لا يُغلق ، قلنا : علِمَ الباب ، قال : نعم كما أن دون غدٍ الليلة أني حدثته حديثاً بالأغاليط ، فهبنا أن نسأله ، وأمرنا مسروقاً فسأله فقال : من الباب ؟ ، قال : عمر .

وكل ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ ، فقد قُتلَ عمر ، وكُسرَ الباب ، وظهرت الفتن ، ووقع البلاء ، فكان أول فتنة ظهرت هي قتل الخليفة الراشد ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه على يد طائفة من دعاة الشر ، الذين تألبوا عليه في العراق ومصر، ودخلوا المدينة وقتلوه وهو في داره رضي الله عنه .

وقد ذكر النَّبي ﷺ لعثمان رضي الله عنه أنه سيُصيبه بلاء ، ولهذا صبر ونهى الصحابة عن قتال الخارجين عليه ، كي لا يُراق دم من أجله رضي الله عنه .

ففي الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : خرج النَّبي ﷺ إلى حائط من حوائط المدينة ، فذكر الحديث إلى أن قال : فجاء عثمان فقلت : كما أنت حتى أستأذن لك ، فقال النَّبي ﷺ : « **إئذن له وبشِّره بالجنَّة معها بلاء يُصيبه** » .

وخص النَّبي ﷺ عثمان بذكر البلاء مع أن عمر قُتلَ أيضًا ، لكون عمر لم يُمتحن بمثل ما امتحن به عثمان ، من تسلط القوم الذين أرادوا منه أن ينخلع من الإمامة بسبب ما نسبوه إليه من الجور والظلم بعد إقناعه لهم ورده عليهم .

وبمقتل عثمان رضي الله عنه انقسم المسلمون ، ووقع القتال بين الصحابة ، وانتشرت الفتن والأهواء وكثر الاختلاف ، وتشعبت الآراء ، ودارت المعارك الطاحنة في عهد الصحابة رضي الله عنهم ، وكان النَّبي ﷺ يعلم ما سيقع من الفتن في زمنهم ، فإنه أشرف على آطام المدينة فقال : « **هل ترون ما أرى ؟** » ، قالوا : لا ، قال : « **فإني أرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر** » .

قال النووي ـ رحمه الله ـ :

والتشبيه بمواقع القطر في الكثرة والعموم ، أي : أنها كثيرة تعم الناس لا تختص

بها طائفة ، وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بينهم كوقعة الجمل وصفين والحرة ، ومقتل عثمان والحسين رضي الله عنهما وغير ذلك ، وفيه معجزة ظاهرة له ﷺ .

■ ومنها : فتح بيت المقدس :

قد جاء في حديث عوف بن مالك رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أعدد ستًا بين يدي الساعة** » ، فذكر منها فتح البيت المقدس .

ففي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه تم فتح بيت المقدس (سنة ١٦هـ) ، وقد ذهب عمر رضي الله عنه بنفسه ، وصالح أهلها وفتحها وطهرها من اليهود والنصارى ، وبنى فيها مسجداً في قبلة بيت المقدس .

■ ومنها : طاعون عمواس : (١)

جاء في حديث عوف بن مالك السابق « **أعدد ستًا بين يدي الساعة ، فذكر منها .. ثم مُوْتان (٢) يأخذ فيكم كقُعاص (٣) الغنم** » .

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ :

إن هذه الآية ظهرت في طاعون عموس في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد فتح بيت المقدس (سنة ١٨ هـ) على المشهور الذي عليه الجمهور .

■ ومنها : استفاضة المال والاستغناء عن الصدقة :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال فيفيض ، حتى يهم رب المال من يقبله منه صدقة ،ويدعى إليه الرجل فيقول : لا إرب لي فيه** » .

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليأتين على الناس زمانٌ يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب ، ثم لا يجد أحداً يأخذها منه » ، وقد تحق ذلك في خلافة عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ كان الرجل يخرج بزكاته فلا يجد من يقبلها ، وسيكثر أيضًا في آخر الزمان عند نزول عيسى عليه السلام .

---

(١) وهي بلدة في فلسطين على بعد ٦ أميال من الرملة على طريق البيت المقدس .

(٢) هو : الموت الكثير والوقوع .

(٣) قعاص بالضم ويقال فيه عُقاس ، داء يأخذ الدواب فيسيل من أنوفها شيء فتموت فجأة .

■ **ومنها : وقعة الجمل وصفين :**

بعدما قُتلَ عثمان رضي الله عنه ظلمًا وعدوانًا ، وبويع عليّ رضي الله عنه بالخلافة ، وقد قيل أن طلحة والزبير كانا ممن بايعا عليًّا ، ثم ذهبا إلى مكة للعمرة ، فلقيتهما عائشة رضي الله عنها ، وجرى بينهم في مقتل عثمان رضي الله عنه حديث توجهوا إلى البصرة ، وطلبوا من عليّ أن يُسلِّم لهم قتلة عثمان ، فلم يجبهم لأنه كان ينتظر من أولياء عثمان رضي الله عنه أن يتحاكموا إليه ، فإذا ثبت على أحد بعينه أنه ممن قتل عثمان رضي الله عنه اقتص منه ، فاختلفوا بسبب ذلك ، وخشي من نسب إليهم القتل وهم الخارجون على عثمان ، وداخلوا جيش عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن يصطلح عليّ رضي الله عنه مع عائشة رضي الله عنها والزبير وطلحة ، وتكون الدائرة عليهم بالقصاص ، فأنشبوا الحرب بين الطائفتين .

وكانت الطائفتان على وشك السَلم فتركوا القتال ، وفي الليلة التي كان في صباحها الصلح ، بادروا جيش الزبير وطلحة بالهجوم وهم نيام ، فسألوا من أثار هذه الحرب ؟ ، فقالوا : جيش عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وفعلوا في جيش عليّ ما فعلوا في جيش طلحة والزبير رضي الله عنهما ، ومن أجل ذلك وقع القتال بين الطرفين ، وكل طائفة تعتقد أنها تدافع عن نفسها .

ومن هنا يتبين أن خروج عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم لم يكن بقصد الخلافة لهما ، وليس بقصد القتال ، ولكن لأخذ الثأر من قتلة عثمان رضي الله عنه بطريقة الصلح ، وقد اجتهدت رضي الله عنها وطلحة والزبير رضي الله عنهما في خروجهم ، وظنوا أن فيه مصلحة للمسلمين ، ثم تبين لهم فيما بعد أن ترك الخروج كان أولى وعامة السابقين ندموا على ما دخلوا فيه من القتال ، فندم عليّ وطلحة والزبير رضي الله عنهم أجمعين .

وأما موقعة صفين (١) :

فوقعت بين طائفة عليّ ومن معه، وبين طائفة معاوية ومن معه بصفين سنة ٣٦هـ ، وكان بين الفريقين أكثر من سبعين زحفًا ، قتل فيها نحو سبعين ألفًا من الفريقين ، وما حصل من قتال بين عليّ ومعاوية لم يكن يريده وحد منهما ، بل كان في الجيشين من أهل الأهواء متغلبون يحرضون على القتال ، الأمر الذي أدى إلى نشوب تلك المعارك

(١) موضع على شاطيء الفرات من الجانب الغربي .

الطاحنة ، وخروج الأمر من يد عليّ ومعاوية رضي الله عنهما [١] .

■ **ومنها : ظهور نار الحجاز :**

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز ، تضيء أعناق الإبل ببصرى** » [٢] .

وقد ظهرت هذه النار في منتصف القرن السابع الهجري في (عام ٦٥٤هـ) ، وكانت ناراً عظيمة أفاض العلماء ممن عاصر ظهورها ومن بعدهم في وصفها .

قال النووي ـ رحمه الله ـ :

خرجت في زماننا نار بالمدينة (سنة ٦٥٤ هـ) ، وكانت نار عظيمة جداً من جنب المدينة الشرقي وراء الحرة، تواتر العلم بها عند جميع أهل الشام وسائر البلدان ، وأخبرني من حضرها من أهل المدينة .

ونقل ابن كثير أن غير واحد من الأعراب ممن كان بحاضرة بصرى شاهدوا أعناق الإبل في ضوء هذه النار التي ظهرت من أرض الحجاز ، وذكر القرطبي ظهور هذه النار وأفاض في وصفها في كتابه التذكرة ، فذكر أنها رؤيت من مكة ومن جبال بصرى .

وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ :

والذي ظهر لي أن النار المذكورة، هي التي ظهرت بنواحي المدينة كما فهمه القرطبي وغيره ، وهذه النار ليست هي النار التي تخرج في آخر الزمان تحشر الناس إلى محشرهم كما سيأتي في الكلام عليها في الأشراط الكبرى .

القسم الثاني : الأمارات المتوسطة من العلامات الصغرى :

وهي علامات كثيرة بدأ ظهور كثير منها، ولا زالت تكثر، ومن تلك العلامات :

■ **منها : كثرة الجهل بالعلوم الدينية وقلة العلم بها :**

[١] عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن من أشراط الساعة : أن يُرفع العلم ، ويُثبت الجهل ، ويشرب الخمر ، ويظهر الزنا** » [٣] .

---

(١) من أشراط الساعة .

(٢) بصرى : مدينة معروفة بالشام ، ويقال له : حوران وبينها وبين دمشق مراحل .

(٣) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، وكذا الإمام أحمد في المسند .

[٢] من أشراط الساعة : « **أن يقل العلم ، ويظهر الجهل ، ويظهر الزنا ، وتكثر النساء ، ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد** » (١) .

[٣] وعن عبد الله بن مسعود وأبي موسى رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « **إن بين يدي الساعة لأيامًا ينزل فيها الجهل ، ويُرفع فيها العلم ، ويُكثر الهَرْجُ والمَرْجُ** ـ القتل ـ » (٢) ، كما ترى الحروب المدمرة التي تسيل فيها أنهار الدماء كالحرب بين العراق وإيران ، وفي لبنان وفي أفغانستان ، وفي الفلبين ، وفي الحبشة وإريتريا ، وفي غير ذلك من الحروب التي لا تخفى .

نعم قد ظهر مصداق هذه الأحاديث في زماننا ما عدا خصلتين وهما : ذهاب الرجال ، وكثرة النساء .

فأما العلم الموروث عن النَّبي ﷺ وأصحابه وتابعيهم وأئمة العلم والهدى من بعدهم فقد هجره الأكثرية ، وقل الراغبون فيه والمعتنون به ، وقد انصرفت همم الأكثرين إلى الصحف والمجلات وما شاكل ذلك ، مما كثير منه مشتمل على الجهل الصرف الذي قد ظهر في زماننا وثبت فيه، وبث في مشارق الأرض ومغاربها .

والعلم المقصود في الحديث هو العلم الشرعي، وليس المقصود بقبضه وموته انتزاعه من قلوب الرجال، وإنما المراد هو قبض العلماء فلا يبقي إلا الجهال،والدليل على ذلك حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : « **إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبْقِ**

---

(١) رواه البخاري في صحيحه وأحمد في المسند .

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما والإمام أحمد في المسند ، صحيح الجامع الصغير رقم (٢٠٤٧) .

ومن قلة العلم : قصر تحريم الربا على ما كان بين غني وفقير ، أما ربا المصارف فقد أحلها بعضهم بدعوى أن المصرف غني وليس فقيرًا ، كما أباح بعضهم لمن يريد إيجاد مشروع كالزراعة والصناعة أن يعطى الربا ، بدعوى أن هذه المشروعات من أسباب رقي الوطن ، وأن هذا من ربا الاستثمار وليس من ربا الاستغلال ، لأن الاستغلال ما يأخذه الغني من الفقير ، أما ما يأخذ الأغنياء من المصارف ، أو الذين يريدون إيجاد المشروعات فليس بمحرم .

وكذلك ما يسمونها في هذا العصر بشهادات الاستثمار، وهي التي تنقسم إلى أنواع [أ،ب،جـ] ، وكذلك السندات بفوائد ـ وليس هنا محل لشرحهما ـ فقد أباحها بعض من ينتسب إلى العلم ، ورغم أن هذا هو الربا المحرم .

عالمًا ، اتخذ الناس رؤساء جهالاً ، فسئلوا ، فأفتوا بغير علم فضلُّوا وأضلوا » (١) ، وقبض العلم ليس شرطًا بقبض القرآن كما يفهم بعض الناس، وقد قال بعض الأنصار : وكيف يقبض وقد قرأنا القرآن ، وأقرأناه نساءنا وأبناءنا ؟ ، فقال ﷺ : « **ثكلتك أمك ، إن كنت لأحسبك لَمِنْ أفقه أهل المدينة ، أو ليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى ؟ ، فماذا تغني عنهم ؟** » فمجرد بقاء الكتاب في المكتبات لا يوجد بقاء العلم ، يقول الحسن البصري : العلم علمان : علم في القلب ، وعلم على اللسان ، فعلم القلب هو العلم النافع ، وعلم اللسان حجة الله على عباده .

وأما الخمر فقد فشا شربها وبيعها وابتياعها في كثير من البلاد ، وقد سموها بغير اسمها ، لكي يستحلوا شربها وبيعها وأكل ثمنها ، فسموها مشروبات روحية (٢) .

وكذلك الزنا ، فقد جعل له أسواق معروفة في كثير من البلاد التي ينتسب أهلها إلى الإسلام (٣) .

---

(١) رواه البخاري ومسلم في « صحيحيهما » ، وأحمد في المسند ، والترمذي وابن ماجه صحيح الجامع الصغير رقم (١٨٥٠) . صدق رسول الله ﷺ ، ظهر في زماننا من أباح السفور وبعض أنواع الربا .

(٢) حتى آل الأمر أن كثيرين من المنتسبين إلى الإسلام ، وفي كثير من البلدان الإسلامية ، إذا أقاموا حفلات بمناسبات عديدة كالأعياد المحدثة وأتوا بموائد ، فمن العناصر المهمة في تلك الحفلات والموائد أمران : اختلاط الرجال بالنساء ، وشرب الخمور ، بل وكثير من الحكومات الإسلامية تعطي رخصًا لمن يريد أن يشرب الخمر ، واعتذر بعضهم إذا قيل له في ذلك : إننا نعطي الرخصة لغير المسلمين ونعطي للسواح الأجانب ، فما أدري من أين أخذوا هذه الفتوى ؟ ، علمًا بأن الخمر محرمة ، وكل محرم لا يجوز للمسلم أن يستعمله ، أو يساعد المستعمل كنقله من مكان إلى مكان ، مثل أن يستأجر لنقل الخمر أو الخنزير ، أو يؤجر حانوته لذينك الأمرين ، أو لأحدهما ، لأنه من باب المعاونة على الإثم والعدوان ، وإعطاء الرخصة أكبر عون ومساعدة لشارب الخمر .

(٣) أما فشو الزنا كما قال المؤلف : بل لا يزال في ازدياد بالإضافة إلى اللواط والعياذ بالله ، وقد أقرت بعض الحكومات التي ينتمي أهلها للإسلام تقليدًا للغربيين بيوت الدعارة ، وإعطاء الداعرات الرخص ، وتوظيف حراس من الشرطة على بيوتهن ، وتخصيص بعض الأطباء للكشف عليهن ، وإعطائهن الأدوية والحقن ، وفرض ضريبة على كل واحدة منهن للدولة .

فهل يا ترى يعتقد مسلم حرمة الزنا ويساعد الزناة بفتح أبواب الدعارة وتسهيل السُّبل إليها ؟ ، لا يعمل هذا العمل الفاجر إلا من لا يعتقد أن الزنا حرام ، وأن الوسائل التي تفضي إليه حرام ، أو أنه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

■ **ومنها : يأتي على الناس زمان القابض على دينه كالقابض على الجمر :**

[١] عن عتبة بن غزوات أخي بني مازن بن صعصعة وكان من الصحابة ، أن رسول الله ﷺ قال : « **إن من ورائكم أياماً ، الصبر للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم** » ،قالوا : يا نبي الله أو منهم؟ ،قال : « **بل منكم** » (١) .

[٢] وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه ، كالقابض على الجمر** » (٢) .

[٣] وعن أُسيد بن حضير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إنكم ستلقون بعدي أثرة ، فاصبروا حتى تلقوني غداً على الحوض** » (٣) .

[٤] وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن من ورائكم زمان صبر ، وللمتمسك فيه أجر خمسين شهيداً منكم** » (٤) .

■ **ومنها : اتباع سُنن الأمم الماضية :**

[١] ومن الفتن العظيمة اتباع سُنن اليهود والنصارى وتقليدهم ، فقد قلد بعض المسلمين الكفار ، وتشبهوا بهم ، وتخلقوا بأخلاقهم ، وأعجبوا بهم ، وهذا مصداق ما أخبر به النَّبي ﷺ أنه قال : « **لا تقوم الساعة حتى تأخذ أُمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع** » ، فقيل : يا رسول الله : كفارس والروم ؟ قال : « **ومَنْ الناس إلا أولئك ؟** » [رواه البخاري] .

[٢] **وفي رواية عن أبي سعيد :** قلنا يا رسول الله، اليهود والنصارى؟، قال : «**فمن**» .
[رواه البخاري ومسلم] .

[٣] **قال ابن بطال :** أعلم ﷺ أنه أُمته ستتبع المحدثات من الأمور والبدع والأهواء ، كما وقع للأمم قبلهم ، وقد أنذر في أحاديث كثيرة بأن الآخر شر ، والساعة لا تقوم إلا على شرار الناس ، وأن الدين إنما يبقى قائماً عند خاصة من الناس .

---

(١) أخرجه ابن نصر في « السُّنَّة » وله شواهد عند الطبراني والترمذي (٢/١٧٧) وأبو داود (٤٣٤١) وابن ماجه (٤٠١٤) ، وهو صحيح ، تخريج السلسلة الصحيحة رقم (٤٩٤) .
(٢) رواه الترمذي (٢/٤٤) وهو صحيح ، تخريج السلسلة الصحيحة رقم (٩٥٧) .
(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي ، صحيح الجامع رقم (٢٣٠٥) .
(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبري وهو صحيح ، صحيح الجامع رقم (٢٢٣٠) .

وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ :

وقد وقع معظم ما أنذر به ﷺ ، وسيقع بقية ذلك ، وفي هذا الزمن كثر من المسلمين من يتشبه بالكفار من شرقيين وغربيين ، فتشبه رجالنا برجالهم ، ونساؤنا بنسائهم ، وافتتنوا بهم ، حتى أدى الأمر ببعض الناس أن خرجوا عن الإسلام ، واعتقدوا أنه لا يتم لهم تقدم وحضارة إلا بنبذ كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ ، ومن عرف الإسلام الصحيح عرف ما وصل إليه المسلمون في القرون الأخيرة من بُعد عن تعاليم الإسلام وانحراف عن عقيدته ، فلم يبق عند بعضهم من الإسلام إلا اسمه ، فقد حكَّموا قوانين الكفار ، وابتعدوا عن شريعة الله ، وليس هناك أبلغ مما وصف به النَّبي ﷺ المسلمين في أتباعهم ومحاكاتهم للكفار، فقال : « **شبّراً بشبر ، وذراعًا بذراع ، حتى لو دخلوا جُحر ضب ، تبعتموهم** » [١] .

هذا قول الحافظ ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ في القرن التاسع ، فكيف لو رأى القرن الرابع عشر ، وهذا القرن الخامس عشر الذي نحن فيه ، حيث فشا التشبه بالكفرة في لباسهم وعاداتهم وأعراسهم ، حتى آل الأمر أن يعلق بعض الشباب سلسلة ذهب في عنقة تقليداً لشباب النصارى ، ويضع في يديه خاتم ذهب ، ويفتخر بشر الخمر ، وحلق اللحى والتكلم بكلام الغربيين ، والسير على منهاجهم ، فمن يتأمل أحوال الكثيرين في زماننا ، ويتأمل الحديث الوارد فيرى أن الحديث ينطبق عليهم تمام الانطباق ، كما أن حديث : « **يوشك أن تداعى عليكم الأُمم ، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها** » ، قالوا : أمن قِلة بنا يا رسول الله ؟ ، قال : « **أنتم كثيرون ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل** » .

الأمة الإسلامية اليوم تبلغ ألف مليون، وقيل ثمانمائة مليون نسمة، وإسرائيل تبلغ أربعة ملايين ، وقد أحاطت بها دول العرب كإحاطة الهالة بالقمر ، وبالرغم من كل ذلك فهي الفائقة تهددهم بتهديدات شديدة، فلا شك أن هذين الحديثين من جملة معجزاته ﷺ، يحث أخبر بوقوع ما جاء في هذين الحديثين، فقد وقع كما أخبرﷺ .

---

(١) **قال النووي ـ رحمه الله ـ** : « والمراد بالشبر والذراع وجحر الضب التمثيل بشدة الموافقة لهم ، والمراد الموافقة في المعاصي والمخالفات لا في الكفر ، وفي هذه معجزة ظاهرة لرسول ا لله ﷺ ، فقد وقع ما أخبر به ﷺ » .

■ **ومنها : ظهور مدعي النّبوة :**

ومن العلامات التي ظهرت : خروج الكذَّابين الذين يدعون النبوة وهم قريب من ثلاثين كذَّابًا، وقد خرج بعضهم في الزمن النبوي ،وفي عهد الصحابة ﷺ ، ولا يزالون يظهرون،وليس التحديد في الأحاديث مرادًا به كل من ادعى النبوة مطلقًا، فإنهم كثيرون لا يحصون، وإنما المراد من قامت له شوكة وكثر أتباعه، واشتهر بين الناس(١) .

[١] ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال : «**لا تقوم الساعة حتى يُبعث دجالون كذَّابون ، قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله**» (٢) .

[٢] وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أُمَّتي بالمشركين ، وحتى يعبدوا الأوثان ، وأنه سيكون في أُمَّتي ثلاثون كذَّابون ، كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النَّبيين ، لا نبي بعدي** » (٣) .

والأحاديث في ظهور الدجاجلة كثيرة ، وفي بعضها وقع أنهم ثلاثون بالجزم كما في حديث ثوبان ، وفي بعضها أنهم قريب من الثلاثين كما في حديث الصحيحين ، ولعل رواية ثوبان على طريقة جبر الكسر (٤) .

وممن ظهر من هؤلاء الثلاثين :

مُسيلمة الكذاب ، فادعى النبوة في آخر زمن النَّبي ﷺ ، وكاتبه رسول الله ﷺ وسمَّاه مُسيلمة الكذاب ، وقد كَثُر أتباعه ، وعظم شره على المسلمين ، حتى قضى عليه الصحابة في عهد أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه في معركة اليمامة المشهورة ، وظهر كذلك الأسود العَنْسي في اليمن، وادعى النبوة، فقتله الصحابة قبل موت النَّبي ﷺ ، وظهرت سجاح ، وادعت النبوة وتزوجها مُسيلمة ، ثم لما قُتِلَ رجعت إلى الإسلام .

---

(١) انظر : فتح الباري (٦ /٦١٧) .

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب المناقب باب علامات النبوة (٦ /٦١٦) ، وصحيح مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة (١٨ /٤٥) .

(٣) سُنن أبي داود مع عون المعبود (١١ /٣٢٤) ، والترمذي مع تحفة الأحوذي (٦ /٤٦٦) ، وقال : هذا حديث صحيح ، وقال الألباني ـ رحمه الله ـ : انظر صحيح الجامع الصغير (٦ /١٧٤ح ٧٢٩٥) .

(٤) انظر فتح الباري (١٢ /٨٧) .

وظهر غيرها كطليحة بن خويلد الأسدي ، ولكنه رجع إلى الإسلام ، والحارث الكذَّاب خرج في خلافة عبد الملك بن مروان ، وفي القرن الثالث عشر ظهر علي محمد الباب في شيراز ، وادعى المهدوية ، ثم ادعى النبوة وأبطل الجهاد ، واخترع له شرعة جديدة ، وحكم عليه علماء الشيعة بالارتداد فقُتل (سنة ١٢٦٥هـ) ، ثم ظهر من بعده تلميذه وخليفته الميراز حسين بن علي ، ولما هلك خلفه ابنه عباس عبد البهاء ، ومن شريعة الباب والبهاء إلغاء الصلوات الخمس وصلاة الجماعة ، وقرر أن الطُّهر من الجنابة غير واجب ، والقِبلة هي البيت الذي وُلِدَ فيه بشيراز ، وشهرهم تسعة عشر يومًا ، وسنتهم تسعة عشر شهرًا ، وأبطل الجهاد ، إلى اخترع تلك السخافات التي أوحاها إليه الشيطان .

ثم جاء من بعده الميرزا غلام أحمد القادياني[١] في الهند ، وقبل سنوات جاء رجل من لندن ، وزعم أنه نبي فنفي من البلاد، وظهر رجل أمريكي ادعى النبوة في المكسيك، وآمن به عدد كبير من الأمريكان أغلبهم من الزنوج ، كما ظهر رجل مصري عام (١٤١٠هـ) في الإسكندرية في مصر وادعى النبوة .

فإخباره ﷺ بخروج هؤلاء المتنبئين الكذَّابين ، يكون من معجزاته ﷺ .

والحاصل أن العلامات الصغرى كثيرة ، ولو ذهبنا نستقصي كل علامة من العلامات كما ذكرها بعض أهل العلم ، لتطلب منا مجلداً ضخمًا ، فمن أراد الزيادة فعليه بالكتب المؤلفة في هذا الشأن وأكثرهم جمعًا إتحاف الجماعة[٢] .

القسم الثالث : العلامات الكبرى التي تعقبها الساعة :

وهي التي أشار إليها في النظم :

خروج دجَّال على الغبراء ... نزول عيسى ما من الخضراء

العلامة الأولى :

من العلامات الكبرى خروج الدجال : وما أدراك ما الدجال ؟ ، منبع الكفر

---

(١) قاديان : إحدى مدن مقاطعة بنجاب الهندية ، وقد ولد في سنة (١٨٤٠م) ، وفي سنة (١٩٠١م) أعلن الميرزا أنه النَّبي والرسول ، وأنه يوحى إليه ، وهلك في سنة (١٩٠٨م) .

(٢) إتحاف الجماعة في أشراط الساعة للتويجري .

والضلال ، داعية من دعاة الكفر يكون خروجه من علامات الساعة الكبرى ، جاء في صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه : « **يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة** » .

إنكار القادياني خروج الدجال ونزول المسيح وتأثر بعض المسلمين بقوله :

ليعلم القراء أن الدجال الذي أخبر عنه النَّبي ﷺ بأنه سيخرج في آخر الزمان ، وذكره من علامات الساعة الكبرى ، وبالرغم من كثرة الأحاديث الواردة عن النَّبي ﷺ التي بلغت مبلغ التواتر المعنوي ، بحيث يحصل من تلك الأحاديث علم قطعي ، فإن المتنبيء الكذَّاب ميرزا غلام أحمد القادياني أنكر خروج الدجال .

كما أنكر نزول المسيح عليه السلام ، لأن الأحاديث تذكر أن المسيح عيسى عليه السلام بعد نزوله من السماء يقتل الدجال بباب لد « وهي قرية بفلسطين » .

ولكن العجب ممن يزعم أنه من علماء المسلمين ، ويبدي حرصه على الدين ، وينكر خروج الدجال ونزول المسيح عليه السلام ، وها أنذا أذكر بعض الأحاديث الواردة في الدجال ، ثم أذكر المسيح بعد .

وهذه بعض الأحاديث الواردة في خروج الدجال وأوصافه :

[١] عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ ذكر الدجال بين ظهراني الناس فقال : « **إن الله تعالى ليس بأعور ، ألا وأن المسيح الدجال أعور العين اليمني ، كأن عينه عنبة طافئة** »[١] . [رواه البخاري ومسلم وأحمد] .

[٢] وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**الدجال أعور العين اليسرى ، جفال**[٢] **الشعر ، معه جنة ونار ، فناره جنة ، وجنته نار** » [رواه مسلم] .

[٣] وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النَّبي ﷺ قال : « **لما أُسري بي رأيت الدَّجال في صورته رؤيا عين ليس رؤيا منام ، فسئل عنه فقال : أقمر**[٣]**، هجانًا**[٤] ،

---

(١) بالهمزة ، التي ذهب ضوؤها ، وطافية بدون همزة معناها مرتفعة وفيها ضوء .
(٢) أي : كثير الشعر .
(٣) شديد البياض .
(٤) بكسر الهاء وتخفيف الجيم : أبيض ضخم .

فَيلمانياً (١) ، **إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دري ، كأن شعره أغصان شجرة** »[رواه أحمد] .

[٤] وعن سعد بن مالك عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « **إنه لم يكن نبي إلا وصف الدَّجَّال لأمته ، ولأصفنّه صفة لم يصفها أحد كان قبلي ، إنه أعور ، وإن الله عز وجل ليس بأعور** »[رواه أحمد في المسند] .

[٥] وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤها كل مؤمن كاتب وغير كاتب** »[رواه مسلم وابن ماجه عن أبي أمامة بهذا اللفظ] .

[٦] وعن عمرو بن ثابت الأنصاري قال : أخبرني بعض أصحاب النَّبي ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال يوم حذر الناس الدجال : « **أنه مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه من كره عمله ،أو يقرؤه كل مؤمن ، وقال : تعلمون أنه لن يرى أحد منكم ربه عز وجل حتى يموت** »[رواه مسلم] .

[٧] وعن أنس رضي الله عنه أن النَّبي ﷺ قال : « **ما بعث نبي إلا قد أنذر أُمَّته الدَّجَّال الأعور الكذَّاب ، ألا وإنه أعور، وأن ربكم تعالى ليس بأعور ، وأن بين عينيه مكتوب كافر** » ، **وفي رواية** : « **يقرؤه كل مسلم** »[رواه أبو داود] .

[٨] وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « **إني حدثتكم عن الدَّجَّال حتى خشيت ألا تعقلوا أن مسيح الدَّجَّال رجل قصير أفجع**(٢) **جعد**(٣) **أعور مطموس العين ليس بناتئة** (٤) **ولا حجراء ، فإن ألبس عليكم ، فاعلموا أن ربكم ليس بأعور** »[رواه أبو داود] .

[٩] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**إن مسيح الضلالة أعور العين، أجلى الجبهة ، عريض النحر فيه دفأ ، كأنه قطن بن العزى** » فقال قطن : هل يضرني شبهه ؟ ، قال : « **لا ، أنت مسلم وهو امرؤ كافر** »[رواه أحمد] .

---

(١) فتح الفاء : عظيم الجثة .

(٢) **أفجع** : أي متباعد الساقين .

(٣) **جعد** : أي شعره متكسر من الجعودة كالماء والرمل إذا ضربته الريح .

(٤) **بناتئة** : أي ظاهرة .

[١٠] وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الدَّجَّال خارج من خلة بين الشام والعراق ، فعاث يمينًا وعاث شمالاً ، يا عباد الله فاثبتوا** » [رواه مسلم وابن ماجه] .

[١١] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل : الدَّجَّال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها** » [رواه الترمذي وصححه] .

[١٢] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **بادروا بالأعمال ستًا ، وذكر منها الدَّجَّال ، وطلوع الشمس من مغربها** » .

حرص النبي ﷺ على تحذير أمته من الدّجال :

أكثر النَّبي ﷺ التحذير من فتنة الدجال الكبري ، حتى أنه علَّم أُمَّته الاستعاذة منه في التشهد الأخير في الصلوات الخمس وغيرها .

وهاك أيها القاريء بعض الأحاديث في الاستعاذة من فتنة الدجال :

[١] عن محمد بن أبي عائشة أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ : «**إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير ، فليتعوذ بالله من أربع ، من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر المسيح الدَّجَّال** » [رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه والدارمي ، وأبو بكر الآجري في كتاب الشريعة] .

[٢] ورواه البخاري ومسلم وأبو داود الطيالسي والنسائي وأبو بكر الآجري من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من النار ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، وأعوذ بك من شر المسيح الدجال** » [هذا لفظ النسائي] .

خروج الدجال مما ينبغي أن يعتقده المسلم :

ولكون خروج الدجال مما ينبغي أن يعتقد المسلم ليحذر من شره إن أدركه ، ومن العقائد الثابتة للمسلمين ، أكثر الرسول ﷺ من بيان خروجه والتحذير منه ، حتى

بلغت الأحاديث الواردة عنه ﷺ مبلغ التواتر المعنوي ، ولم يكتف ﷺ بمجرد إخباره بخروجه والتحذير منه ، حتى أمر المسلمين أن يتعوذوا من شره في الصلوات الخمس المفروضة ، حتى بوب علماء الحديث في كتبهم الحديثية « باب الاستعاذة من فتنة الدجال » ، كما في صحيح مسلم وسُنن أبي داود وصحيح البخاري ، فكما يتعوذ من عذاب القبر وفتنة المحيا والممات ، يتعوذ من شر المسيح الدجال ، فخصه بذكره مع أنه مندرج تحت فتنة المحيا والممات .

تنبيه مهم :

أول خروجه يدعي الإيمان والصلاح ، وإذا قبل قوله ، واتبع على ذلك ، ادعى الألوهية فيقول : أنا الله مكتوب بين عينيه كافر ، فلا يخفى على مسلم ، فيفارقه كل أحد من الخلق في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وابتداء خروجه من نواحي خُراسان ، وقيل يهودية أصبهان ، وأكثر أتباعه من اليهود ، ويبث رسله في الآفاق للدعوة ، ويأتي بخوارق شيطانية ليفتن الناس عن دينهم حتى يقول للسماء : أمطري فتُمطر ، ويقول للشخص : إن كنت تريد أباك أو من تريده من الأموات فأحضره الآن حيًّا ، فتأتي الشياطين متشكلة بشكل ذلك الميت،فيظن من أراد الله فتنته صدقه في دعواه ، وبالجملة فإنه فتنة عظيمة ، ففي الحديث : « **ما كانت ولا تكون فتنة حتى تقوم الساعة أعظم من فتنة الدَّجَّال ، ما من نبي إلا وحذر قومه الدَّجَّال** » [الحديث رواه الحاكم عن جابر مرفوعًا] ، ولا يستطيع دخول مكة والمدينة وبيت المقدس، ويقتله عيسى عليه السلام بباب اللد بلدة قريبة من فلسطين على مقدار فرسخ من جهة الشمال ، ومدة مكثه في الأرض أربعين يومًا ، يوم كَسَنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، والبقية كسائر الأيام .

العلامة الثانية : المهدي المنتظر :

كثرت الأحاديث الواردة في المهدي بالغة نحواً من خمسين حديثًا ، وكثرت التأليف في شأنه، واختلفت مذاهب العلماء ،هل خروج المهدي ثابت أو غير ثابت؟، فمنهم من ضعفَّها كلها وأنكر خروجه ، ومنهم من أثبتها وقال : فيها الصحيح والحسن والضعيف .

وقد ذكر الحافظ ابن القيم ـ رحمه الله ـ ما نصه :

وسُئلت عن حديث لا مهدي إلا عيسي بن مريم ،فكيف يأتلف هذا مع أحاديث المهدي وخروجه ؟ ، وما وجه الجمع بينهما ؟ ، وهل في المهدي أحاديث أم لا ؟ .

قال رحمه الله : فأما حديث : لا مهدي إلا عيسى بن مريم » فرواه ابن ماجه في سُننه ، ثم ساق السند من رواية يونس بن عبد الأعلى عن الشافعي ، عن محمد بن خالد الجَنَدي ، إلى أن وصل السند عن أنس ابن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبي ﷺ وهو مما تفرد به محمد بن خالد ، وساق بعض الروايات في ذلك وضعف هذا الحديث .

قال : محمد بن خالد غير معروف عند أهل الصناعة من أهل العلم ، ثم ذكر حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبي ﷺ : « **لو لم يبق من الدنيا إلا يوم ، طوَّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً مني ، أو من أهل بيتي ، يواطيء اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً ، كما مُلئت ظُلمًا وجوراً** » . [رواه أبو داود والترمذي ، وقال : هذا حديث حسن صحيح] .

قال : وفي الباب عن عليّ وأبي سعيد وأم سلمة وأبي هريرة ، ثم روى حديث أبي هريرة وقال : حسن صحيح . أ هـ .

قال الحافظ : وفي الباب عن حذيفة بن اليمان وأبي أُمامة الباهلي ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وثوبان وأنس بن مالك وجابر وابن عباس وغيرهم ، وساق الحافظ أحاديث عديدة في شأن خروج المهدي ، وحسَّنها .

قال الحارث بن أبي أسامة في مسنده : حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، حدثنا إبراهيم بن عقيل ، عن أبيه ، عن وهب بن منبه ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « **ينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم المهدي : تعال صلِّ بنا ، فيقول : لا ، إن بعضهم أمير بعض ، تكرمة الله لهذه الأمة** » [وهذا إسناد جيد] .

وهذه الأحاديث أربع أقسام : صحاح ، وحسان ، وغرائب ، وموضوعة ، وقد اختلف الناس في المهدي على أربعة أقوال :

أحدها : أنه المسيح ابن مريم ، وهو المهدي على الحقيقة ، واحتج أصحاب هذا

بحديث محمد بن خالد الجندي المتقدم ، وقد بيَّنا حاله وأنه لا يصح ولو صح لم يكن فيه حجة ، لأن عيسى أعظم مهدي بين يدي رسول الله ﷺ وبين يدي الساعة .

القول الثاني : أنه المهدي الذي ولي من بني العباس ، وقد انتهى زمانه ، وساق أحاديث عديدة وكلها غير صحيحة .

القول الثالث : أنه رجل من أهل بيت النَّبي ﷺ ، من ولد الحسن بن عليّ ، يخرج في آخر الزمان ، وقد امتلأت الأرض جوراً وظلمًا ، فيملأها قسطًا وعدلاً ، وأكثر الأحاديث على هذا تدل ، وفي كونه من ولد الحسن سر لطيف ، وهو أن الحسن رضي الله عنه ترك الخلافة لله ، فجعل الله من ولده من يقوم بالخلافة الحق ، المتضمن للعدل الذي يملأ الأرض، وهذه سُنَّة الله في عباده ، أنه من ترك لأجله شيئًا أعطاه الله ، أو أعطى ذريته أفضل منه ، وهذا بخلاف الحسين رضي الله عنه ، فإنه حرص عليها ، وقاتل عليها ، فلم يظفر بها ، والله أعلم .

وأما الرافضة الإمامية : فلهم قول رابع : وهو أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر، ومن ولد الحسين بن عليّ ، لا من ولد الحسن ، الحاضر في الأمصار، الغائب عن الأبصار [١] .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في منهاج السُّنَّة ، والذهبي في المنتقى ، بأن الأحاديث التي يحتج بها على خروج المهدي ، أحاديث صحيحة ، رواها أبو داود والترمذي وأحمد وغيرهم من حديث ابن مسعود وغيره . أ هـ .

فمقصود الشيخ ـ رحمه الله ـ أن الأحاديث التي تصح في خروجه المهدي ، هي التي يعتد بها لا أن جميع أحاديث المهدي صحيحة .

ويعجبني ما قاله العلامة سيد سابق في كتابه العقائد الإسلامية في شأن المهدي:

قال : وخلاصة القول في الإمام المهدي ، أنه سيظهر في آخر الزمان ، وأنه اسمه محمد بن عبد الله أو أحمد بن عبد الله [٢] ، وأنه من بيت رسول الله ﷺ من ولد

(١) باختصار من المنار المنيف في الصحيح والضعيف للعلامة ابن القيم ، من (ص ١٤٧ إلى ١٥٢) .
(٢) رواه أبو داود والترمذي .

فاطمة [١] ، وأنه يقيم شريعة الإسلام ، ويحيي ما ندثر من سُنَّة رسول الله ، وأن الإسلام تعلو كلمته في عهده ، حتى يلقى بجرَّانه [٢] إلى الأرض .

ثم ذكر بعض صفات المهدي إلى أن قال :

هذه هي خلاصة الروايات التي تحدثت عن المهدي ، ورويت في شأنه ، وهي في جملتها لا تخرج عن كونها إخباراً عن ظهور رجل من المصلحين في آخر الزمان ، يرفع لواء الحق ، ويعلي كلمة الله ، ويمكِّن للإسلام ، ويكون طليعة للخير العام الذي يأتي بعده ، كما كان يوحنا قبل ولادة عيسى عليه السلام .

على أثر ذلك يخرج الدَّجَّال اليهودي ، كمظهر من مظاهر الفتنة الكبرى ، ليقاوم هذه النهضة الإسلامية، محاولاً فتنة الناس عن دينهم، بما أعطي من علم وبراعة وقوة ، فيبطل الله أمره بما يحدثه من آيات أكبر من فتنته ، بإنزال عيسى عليه السلام ليكون قوة للحق الذي يمثله المهدي حينئذ ، ويتعاون كل من عيسى والمهدي ومن ورائهما كتائب الإسلام على قتله ، وإحباط أمره . أ هـ [٣] .

العلامة الثلاثة : من العلامات الكبرى نزول المسيح عليه السلام :

لا يخفى أن حياة المسيح عليه السلام ورفعه إلى السماء حيًّا ، ونزوله إلى الأرض ، وحُكْمُهُ بشريعة الإسلام بعد نزوله ، مما وجب على المسلمين اعتقاده ، وقد ذكر العلماء في التفاسير وفي الأحاديث وفي بعض كتب التوحيد وفي الكتب التي أُلفت في أشراط الساعة، وأن نزوله من علامات الساعة الكبرى بعد خروج الدجال ، وأنه يقتل الدجال، وذلك استدلالاً بالآيات التي سوف أذكرها للقراء وكلام المفسرين عليها ، وبالأحاديث الواردة التي تواترت التواتر المعنوي، حتي ألف غير واحد كتبًا ورسائل في إثبات حياته ونزوله،الأمر الذي يوجب على المسلم أن يستيقن بلا ريب يعتريه بعد أن يقرأ ويسمع تلك الآيات والأحاديث، أن حياة المسيح ثابتة ، ونزوله ثابت ، والاعتقاد بهما واجب ، فلا ينبغي لمسلم بعد أن يقف على تلك الآيات

---

(١) رواه أبو داود والحاكم .

(٢) يقر أمره ويستقر .

(٣) العقائد الإسلامية (ص ٢٥١) .

والأحاديث الوافرة وكلام العلماء ، أن يقابلها بالرفض وعدم الانقياد بشبه واهية ، وآراء غير سديدة .

وإلى القارئ من القرآن ومن الأحاديث في إثبات حياة المسيح عليه السلام ، ورفعه إلى السماء ونزوله :

قال الله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) ﴾
[النساء : ١٥٥ - ١٥٩] .

قال المفسرون في التفسير :

إن المعنى : إذا نزل المسيح لأن الضمائر كلها من قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ ﴾ ، الآيات راجعة إلى عيسى عليه السلام

وهذا التفسير يروى عن أبي هريرة وابن عباس وقتادة وابن زيد وهو المتعين الذي لا يجوز غيره لوجوه :

الأول : أنه تفسير أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم ، وهما صحابيان جليلان ، شاهدا التنزيل ، وعرفا معانيه بسليقتهما العربية وتلقيهما عن الرسول ﷺ .

الثاني : أنه موافق للأحاديث المتواترة التي أخبرت بنزول عيسى ودعوته إلى الإسلام « وإيمان اليهود والنصارى به » [١] ، ولذا كان أبو هريرة رضي الله عنه حين يروي

---

(١) أما إيمان اليهود فإنهم كانوا كافرين به ، وفي ذلك الوقت يؤمنون به إيمانًا صحيحًا ، وأما النصارى وإن كانوا يؤمنون بعيسى ، ولكن إيمانهم مشوب بالوثنية والإشراك بالله ، إذ لا يعتقدون أنه عبد الله ورسوله كما يعتقده المسلمون ، بل يعتقدون ربوبيته ، وبعضهم يقول : ثالث ثلاثة ، وبعضهم يقول : ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فإذا نزل عيسى من السماء تؤمن النصارى إيماناً صحيحاً كإيمان المسلمين .

حديث النزول يتلو عقبه هذه الآية ، للإشارة إلى أن الحدث يفسر الآية ، ويعين المراد منها ، فهما متطابقان متوافقان .

الثالث : أن المتحدث عنه في الآيات قبل هذه الآية هو عيسى عليه السلام ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ** ﴾ ، تجد الكلام مسوقًا لتبرئة عيسى عليه السلام مما رمي به ، فوجب أن تكون الضمائر كلها راجعة إليه أخذاً بدلالة السياق وعملاً بما توجبه قواعد اللغة العربية التي بها نزل القرآن العظيم ، ولا يجوز العدول عن ذلك إلا لمقتضى يقتضيه ، ولا مقتضى هنا البتة ، ولذا قال الإمام ابن حيان في البحر المحيط ما نصه : والظاهر أن الضميرين في ﴿ **بِهِ** ﴾ وفي ﴿ **مَوْتِهِ** ﴾ عائدان على عيسى عليه السلام وهو سياق الكلام ، والمعنى : من أهل الكتاب الذين يكونون في زمانه نزوله ، روي أنه ينزل من السماء في آخر الزمان ، فلا يبقى أحدمن أهل الكتاب إلا ليؤمنن به حتى تكون الملة واحدة وهي ملة الإسلام ، قاله ابن عباس والحسن وأبو مالك .

فإن قيل : إن الضمير في ﴿ **بِهِ** ﴾ عائد على عيسى ، وفي ﴿ **مَوْتِهِ** ﴾ عائد على الكتابي ، وأن المعنى لا يموت الكتابي حتى يؤمن بعيسى ، وذلك عند المعاينة قبيل زهوق الروح ، **ولصاحب هذا القول شبهتان :**

الأول : أن هذا التفسير نقل عن ابن عباس .

والثانية : قراءة أُبيّ : ﴿ **وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ** ﴾ بضم النون .

فالجواب عن الشبهة الأولى :

أنه لم يصح عن ابن عباس ما ذكر، بل الذي صح واستفاض عنه ما ذكرناه سابقًا ، عنه وعن أبي هريرة وعن الحسن وغيرهم ، بل الضميرين راجعان لعيسى ، كما يلزم على هذا القول تشتيت الضمائر باختلاف مرجعها ، وأقل ما يقال في هذا أنه خلاف الظاهر ، لا داعي إلى ارتكابه .

والجواب على الشبهة الثانية :

أن قراءة أبي قراءة شاذة لا يجوز الاستدلال بها ، كما لا تجوز تلاوتها بناء على ما صححه إمام الحرمين ، وأبو نصر القشيري وابن الحاجب ، وقال النووي : إنه مذهب الشافعي ، بأنها نقلت آحادًا ، فيما تتوفر الدواعي على نقله تواترًا ، ولأنها قد تكون مذهبًا لصاحبها كقراءة ابن مسعود ، فإن كثيرًا منها تفسيرات بحسب اجتهاده ، ومن أجاز الاجتهاد بالقراءة الشاذة ، أجراها مجرى خبر الآحاد عليه ، وقد دلت الأحاديث المتواترة على تعيين المراد [١] من الآية ، وبينته بيانًا شافيًا ، فلا حاجة بعده إلى شواذ القراءات والروايات ، بل لا يجوز ذلك جزمًا ، ولذا رد ابن جرير وابن كثير كل قول قيل في الآية غير القول الأول [٢] .



(١) يقصد بتعيين المراد أن الأحاديث الكثيرة المتواترة التي صرحت بنزول المسيح من السماء ، وأنه تصير الملل كلها ملة واحدة ، وكلهم يؤمنون بعيسى عليه السلام قبل أن يموت ويُدفن في المدينة ، من هنا اتضح معنى قبل موته ، والله أعلم بالصواب .

(٢) أ . هـ . من القاديانية ودعايتها الضالة ، والرد عليها للمؤلف .

رُفِعَ المسيح إلى السماء حيًا وهو عقيدة المسلمين
شبهة للقادياني

الجواب عما يتشبث به القادياني ومن قلده ، بأن عيسى قد مات ولم يرفع حيًا إلى السماء ، بشبهة أن الله تعالى يقول : ﴿ **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ [آل عمران : ٥٥] .

[١] قال الحافظ العلامة ابن جرير ـ رحمه الله ـ :

اختلف أهل التأويل في معنى الوفاة التي ذكرها الله في هذه الآية :

الأول : قال بعضهم: هي وفاة نوم ، كأن معنى الكلام على مذهبهم بأني منيمك ورافعك في نومك ، ثم ذكر عن الربيع والحسن ما يؤيد ذلك .

الثاني : وقال آخرون: معنى ذلك أني قابضك من الأرض،فرافعك إليَّ،ورافعك من بين المشركين وأهل الكفر بك ثم أوردوا بعد ذلك آثاراً كثيرة في تأييد هذا القول .

والثالث : ذكر عن وهب بن منبه [١] اليماني : توفى الله عيسى ثلاث ساعات بالنهار حتى رفعه إليه .

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا قول من قال :

معنى ذلك إني قابضك من الأرض ورافعك إليَّ ، لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال : ينزل عيسى بن مريم فيقتل الدجَّال ، ثم يمكث في الأرض مدة ، ثم ذكر بعض الأحاديث الواردة في نزوله عليه السلام وقتله الدَّجَّال ، وأنه يمكث في الأرض

---

(١) وهب بن منبه من أحبار اليهود وأسلم، وكثير من أهل العلم يطعن فيه وفي كعب الأحبار، ويقول: قد دس هذان الرجلان من الإسرائيليات الشيء الكثير ، وقولهم : إنه مات ثلاث ساعات هو من الإسرائيليات التي لا يصح لها سند ، وقد رد هذا القول الحافظ بن جرير وغيره من المفسرين ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ **قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢)** ﴾ [غافر : ١١ ، ١٢] ، ويلزم على قول وهب بن منبه والنصارى القائلين بموته سبع ساعات أن يلزم عن قولهما : أن الله أمات عيسى ثلاث موتات ، وهذا باطل ، وقد جاء الأحاديث الصحيحة برد هذا القول وأنه رُفِعَ حيًّا ولم يمته .

أربعين سنة ، ثم يتوفاه الله ويصلي عليه المسلمون ، ثم ذكر الحافظ رحمه الله مفنداً قول من قال : إن عيسى أماته الله ثلاث ساعات حتى رفعه ، وزعمت النصارى سبع ساعات ثم أحياه الله .

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ :

ومعلوم أنه لو كان قد أماته الله ، لم يكن بالذي يميته مرة أخرى فيجمع عليه ميتتين ، لأن الله عز وجل أخبر عباده أنه يخلقهم ثم يميتهم ثم يحييهم ، كما قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠)** ﴾[الروم : ٤٠] .

[٢] قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ تحت قوله تعالى : ﴿ **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾[آل عمران : ٥٥] .

اختلف المفسرون في قوله : ﴿ **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ** ﴾ ، وقد ذكر الحافظ ابن كثير هنا بعض الأقوال التي ذكرها الحافظ ابن جرير ، إلى أن قال : وقال الأكثرون : المراد بالوفاة هنا النوم كما قال تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ** ﴾[الأنعام : ٦٠] ، وقال تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا** ﴾[الزمر : ٤٢] ، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم : « **الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا** » ، وقال تعالى : ﴿ **وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)** ﴾[النساء : ١٥٦ – ١٥٩] .

والضمير في قوله : ﴿ **قَبْلَ مَوْتِهِ** ﴾ عائد على عيسى عليه السلام أي : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى ، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم ، لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنا عبد الله ابن أبي جعفر عن أبيه حدثنا الربيع عن أنس عن الحسن أنه قال في قوله تعالى : ﴿ **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ** ﴾ ، يعني وفاة المنام ، رفعه الله في منامه ، قال الحسن : قال رسول الله ﷺ لليهود : إن عيسى لم يمت ، وأنه راجع إليكم قبل يوم القيامة ، وقوله تعالى : ﴿ **وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ أي : برفعي إياك إلى السماء . أ هـ .

[٣] قال العلامة القرطبي ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى : ﴿ **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ [آل عمران : ٥٥]

وقال جماعة من أهل المعاني منهم الضحاك والفراء في قوله تعالى : ﴿ **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ** ﴾ على التقديم والتأخير ، لأن الواو لا توجب الرتبة ، والمعنى : إني رافعك إليّ ومُطهرك من الذين كفروا ، ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء ، كقوله تعالى : ﴿ **وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى** (١٢٩) ﴾ [طه : ١٢٩] ، والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً .

قال الشاعر :

ألا يا نخلة من ذات عرق عليك ورحمة الله السلام

أي : عليك السلام ورحمة الله .

وقال الحسن وابن جريج : معنى متوفيك قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت ، مثل توفيت مالي من فلان ، أي : قبضته .

وقال وهب بن منبه : توفى الله عيسى عليه السلام ثلاث ساعات من نهار ، ثم رفعه إلى السماء ، وهذا فيه بُعد ، فإنه صح في الأخبار عن النَّبي ﷺ نزوله وقتله الدجال على ما بيناه في كتاب التذكرة وفي هذا الكتاب حسب ما تقدم ويأتي .

وقال ابن زيد : متوفيك قابضك ، ومتوفيك ورافعك واحد ولم يمت بعد ، وروى ابن طلحة عن ابن عباس معنى متوفيك مميتك .

قال الربيع بن أنس : وهي وفاة نوم ، قال الله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم**

بِاللَّيْلِ ﴾ أي : ينيمكم ، لأن النوم أخو الموت ، كما قال ﷺ لما سُئل : « **أفي الجنة نوم ؟** ، **قال : لا ، النوم أخو الموت ، والجنة لا موت فيها** » [أخرجه الدارقطني] .

والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم ، كما قال الحسن وابن زيد ، وهو اختيار الطبري ، وهو الصحيح عن ابن عباس وقاله الضحاك . أ هـ .

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ** (٤٦) ﴾ [آل عمران : ٤٦] ، الكهل بين حال الغلومة وحال الشيخوخة ، يقول : يكلم الناس في المهد آية ، ويكلمهم كهلاً بالوحي والرسالة ، وقال أبو العباس : كلهم من المهد حتى برأ أمه ، فقال : ﴿ **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا** (٣٠) ﴾ [مريم : ٣٠] .

وأما كلامه وهو كهل، فإذا أنزله الله تعالى من السماء أنزله على صورة ابن ثلاث وثلاثين سنة وهو الكهل ، فيقول لهم : ﴿ **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ** ﴾ كما قال في المهد ، فهاتان آيتان وحجتان ، قال المهدوي : وفائدةالآية أنه أعلمهم أن عيسى عليه السلام يكلمهم في المهد ، ويعيش إلى أن يكلمهم كهلاً . أ هـ[١] .

وسائر التفاسير من أهل السُّنَّة والشيعة والإباضية على هذا المنوال ، والقرآن الكريم صرَّح بنفي ما ادعته اليهود من كونهم قتلوا عيسى ، فقال تعالى : ﴿ **وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا** (١٥٧) **بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** (١٥٨) ﴾ [النساء : ١٥٧ - ١٥٨] .

فالقرآن الكريم يصرِّح تصريحًا قاطعًا لكل شك وريب ، أن المسيح لم يُصلب بل رُفِعَ ، والرفع بالجسد والروح ، أما خرافة رفع الروح لا تروج إلا على جاهل ، لأن أرواح جميع المؤمنين ولا سيما الأنبياء والمرسلين مرفوعة إلى حيث شاء ، وقياسهم على إدريس لا يصح ، لأن ظروف عيسى المحيطة به ، والأحوال التي جرت عليه ، تبين بيانًا واضحًا أن الرفع حقيقي وليس معنويًا .

---

(١) من الجامع لأحكام القرآن (جـ ٣) .

بعض الأحاديث في إثبات حياة المسيح عليه السلام ورفعه إلى السماء ونزوله :

[١] عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال ، حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها** » ،ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه : **واقرأوا إن شئتم** : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ [النساء : ١٥٩] [رواه البخاري ومسلم] .

[٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **كيف إذا نزل ابن مريم فيكم ، وإمامكم منكم** » [رواه البخاري ومسلم] .

وفي لفظه لمسلم : « **فأمّكم** » ، وفي لفظة أخرى : « **فأمّكم منكم** » ، وأخرجه أحمد في مسنده ولفظه : « **وكيف بكم إذا نزل . . .** » .

وذكره البيهقي في كتاب الأسماء والصفات ، وعزاه للبخاري ومسلم ، ولفظه : « **إذا نزل ابن مريم من السماء فيكم ، وإمامكم منكم** » .

[٣] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **والذي نفسي بيده : ليهلن**(١) **ابن مريم بفج الروحاء حاجًا أو معتمراً ، أو ليثنيهما** (٢) » [رواه مسلم] .

[٤] عن حذيفة بن أُسيد الغفاري رضي الله عنه قال : اطلع النَّبي ﷺ علينا ، ونحن نتذاكر فقال : « **ما تذاكرون ؟** » ، قالوا : نذكر الساعة ، قال : « **إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات** (٣) ، **فذكر الدُّخان ، والدَّجَّال ، والدَّابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى ابن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ،**

---

(١) ليهلن : ليرفعن صوته بالتلبية .
(٢) ليثنيهما : ليجمعن بين الحج والعمرة .
(٣) علامات .

وآخر ذلك : **نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم »** .

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه] .

[٥] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « **ليس بيني وبينه نبي ، يعني عيسى ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض** [١] **بين ممصرتين ، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ، فيقاتل الناس على الإسلام ، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك المسيحُ الدَّجَّال ، فيمكث في الأرض أربعين سنة ، ثم يتوفى ، فيصلي عليه المسلمون** » [رواه أبو داود واللفظ له، وابن أبي شيبة، وأحمد في مسنده ، وابن حبان في صحيحه ، وابن جرير كما في الدر المنثور ، وصححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري : من نزول عيسى عليه السلام] .

[٦] عن مجمع بن جارية الأنصاري رضي الله عنه يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **يقتل ابن مريم الدَّجَّال بباب لد** [٢] » ، [رواه الترمذي وقال : هذا حديث صحيح ، ورواه أحمد في مسنده بأربعة طرق ، وفي بعض طرقه : « **إلى جانب باب لد** »] .

العلامة الرابعة : خروج يأجوج ومأجوج :

وأشها إليها بقوله :

خروج يأجوج ومأجوج كذا هدم لكعبة فهذا يحتذى

يأجوج ومأجوج بالهمز والتخفيف ، سموا بذلك لكثرتهم وشدتهم ، وهم من ولد يافث بن نوح ، وخروجهم ثابت بالكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمة .

أما الكتاب :

فقال الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنبياء : ٩٦] .

---

(١) أي : هو معتدل القامة ، وهو إلى الطول أقرب ، ولونه أقرب إلى الحمرة والبياض .

(٢) بلدة في فلسطين قريبة من بيت المقدس .

وأما السنة :

[١] ثبت في الصحيحين عن أُم حبيبة بنت أبي سفيان،عن زينب بنت جحش رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ دخل عليها يومًا فزعًا يقول : « **لا إله إلا الله ، ويلٌ للعرب من شر اقترب ، فُتح اليوم من رَدْمِ يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها** » ، قالت زينب بنت جحش : فقالت يا رسول الله : أفنهلك وفينا الصالحون ؟ ، قال : « **نعم ، إذا كثُرَ الخَبَثْ** » .

[٢] جاء في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه وفيه : إذا أوحى الله إلى عيسى أني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحد بقتالهم ، فَحَرِّزْ عبادي إلى الطُّورِ ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ، ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء ، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مئة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب إلى الله عيسى وأصحابه ، فيرسل الله عليهم النغف (١) في رقابهم فيصبحون فرسى (٢) كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل الله طيرًا كأعناق البُخت (٣) فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله .

رواه مسلم وزاد في رواية بعد قوله : لقد كان بهذه مرة ماء ، ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر (٤) وهو جبل بيت المقدس فيقولون : لقد قتلنا من في الأرض ، هل فلنقاتل من في السماء ، فيرمون بنشابهم إلى السماء ، فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دمًا .

[٣] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ فذكر الحديث وفيه : « **ويخرجون عن الناس**

---

(١) النغف بالتحريك ، دود يكون في أنوف الإبل والغنم ، واحدتها نغفة .
(٢) فرسى : أي قتلى ، الواحد : فريس ، من فرس الذئب الشاة ، وافترسها إذا قتلها .
(٣) البخت : هي جمال طوال الأعناق وهي لفظة معربة واحدتها بختية للأنثى ، وبختي للذكر .
(٤) جبل الخمر : جبل بيت المقدس ، والخمر ، الشجر الملتف الذي يستتر من فيه .

فيستقون المياه ، ويفر الناس منهم ، فيرمون سهامهم في السماء ، فترجع مخضبة بالدماء فيقولون : قهرنا أهل الأرض ، وغلبنا من في السماء قوة وعلواً ، قال : فيبعث الله عز وجل عليهم نغفًا في أقفائهم ، قال : فيهلكهم ، والذي نفس محمد بيده ، إن دواب الأرض لتسمن وتبطر وتشكر شكراً [(١)] ، وتسكر سكراً [(٢)] من لحومهم [(٣)] » .

والذي يتحصل من الأحاديث : أنهم أُمَّتان ، أو أُمة واحدة عظيمة كثيرة لا تحصر حتى يكون رأس بخُراسان ورأس بالشام ، لا يستطيع أحد قتالهم وحربهم ، يعيثون في الأرض فساداً ، ويأكلون مادب ودرج ، وخروجهم في زمن المسيح لهذا يجتمع المؤمنون مع عيسى في الطور بوحي من الله تعالى ، ويشتد عليهم الغلاء والقحط ، فعند ذلك يتضرعون إلى الله في إهلاكهم، فيرسل الله تعالى عليهم دوداً في أعناقهم ، وهو دود يكون في أنوف الإبل والغنم ، فيصبحون موتى ، فيرسل الله طيراً كأعناق البُخت ، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطراً فيغسل الأرض حتى تكون كالمرآة ، وتكثر حينئذ البركات حتى تأكل العصابة من الرمانة ، واللقحة من الإبل تكفي الجمع من الناس ، والله أعلم بما هناك .

العلامة الخامسة : هدم الكعبة المشرفة :

ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة ، منها : ما أخرج البخاري ومسلم والنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ أنه قال : « **يخرب الكعبة ذو السويقتين**

---

(١) تشكر شكرًا : يُقال الشاة بالكسر تشكر شكرًا بالتحريك إذا سمنت وامتلأ ضرعها لبنًا ، والمعنى أن دواب الأرض تسمن وتمتليء شحمًا .

(٢) تسكر سكرًا : السكر : الخمر ويطلق السكر على الغضب والامتلاء .

(٣) سُنن الترمذي ـ أبواب التفسير ـ سورة الكهف (٨ / ٥٩٧-٥٩٩) ، قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، وسُنن ابن ماجه ، كتاب الفتن (٢ / ١٣٦٤ - ١٣٦٥ ، جـ ٤٠٨) ت. الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي .

ورواه الحاكم في المستدرك (٤ / ٤٨٨) ، وقال فيه : حديث صحيح على شرط الصحيحين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وقال الحافظ في الفتح (١٣ / ١٠٩) : رجاله رجال الصحيح إلا أن قتادة مدلس ، ولكن جاء في رواية ابن ماجه أن قتادة صرح بالسماع من شيخه أبي رافع ، وصححه أيضًا الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢ / ٢٦٤ - ٢٦٥ ، جـ ٢٢٧٣) .

من الحبشة » .

وفي لفظ : « **ذو السويقتين من الحبشة يخرب بيت الله** » .

والظاهر أن الهدم يكون بعد هلاك يأجوج ومأجوج ، وموت عيسى وهبوب الريح الذي يموت بها من في قلبه ذرة إيمان .

وبعضهم يقول : بعد جميع الآيات ، وبعضهم يقول : بعد خروج الدابة .

فإن قلت : تسلط هذا العدو الخبيث على هدم بيت الله المعظم ينافي قوله تعالى : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا** ﴾ [العنكبوت : ٦٧] ، ﴿ **وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [الحج : ٢٥] ، وقد حماه سبحانه من أصحاب الفيل وجيرانه حينئذ كفار مشركون ، فكيف يسلط عليه الحبشة وهو قبلة المسلمين وهم جيرانه ؟ .

فالجواب :

ما ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري ، وهو أن يُقال : قد أشار النَّبي ﷺ للجواب في الحديث بقوله: ولن يستحل هذا البيت إلا أهله ،ففي زمن الفيل ما كانوا قد استحلوه فمنعه منهم ، وأما الحبشة فلا يهدمونه إلا بعد استحلال أهله مراراً ، وقد استحله جيش يزيد بن معاوية بأمره ، ثم الحجاج زمن عبد الملك ابن مروان بأمره ، فسلط الله عليه القرامطة فقتلوا من المسلمين في المطاف ما لا يُحصى ، وقلعوا الحجر ونقلوه لبلادهم، فلما وقع استحلاله من أهله مراراً،مكن غيرهم من ذلك عقوبة لهم ، على أنه ليس في الآية استمرار الأمن المذكور فيه . أ هـ .

العلامة السادسة : الدخان :

قال في النظم :

وبعد فاعلم آية الدخان كما أتى عن النَّبي العدناني

أشار بذلك إلى آية الدخان وثبوتها من السُّنَّة أظهر من القرآن :

[١] فقد أخرج مسلم من حديث حذيفة بن أسيد ، قال : طلع علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر ، فقال : « **ما تذاكرون ؟** » ، قالوا : الساعة يا رسول الله ، قال :

« **إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات** » ، فذكر منها الدخان .

[٢] وفي حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : « **إن من أشراط الساعة الدخان يملأ ما بين المشرق والمغرب ، يمكث في الأرض أربعين يوماً ، فأما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام ، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران ، يخرج الدخان من فيه ومنخريه وعينيه وأذنيه ودبره** » [رواه الطبراني] . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

وأما الاستدلال بالآية الكريمة ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠)** ﴾ [الدخان : ١] ، فقد أتى عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما دعا قريشاً فكذبوه واستعصوا عليه فقال : اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأخذتهم سنة حصت كل شيء ، حتى هلكوا فيها وأكلوا الجلود والميتة من الجوع ، وينظر أحدهم إلى السماء فيري كهيئة الدخان ، فأتاه أبو سفيان فقال : يا محمد ، إنك جئت تأمر بطاعة الله ، وبصلة الرحم ، وإن قومك هلكوا ، فادع الله لهم ، قال الله : ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢)** ﴾ [الدخان : ١٠ - ١٢] .

قال عبد الله : أفيكشف عذاب الآخرة ؟ ، ويؤيده أن البطشة الكبرى هي وقعة بدر، وساق الآيات يدل على ذلك وصرفه الآية إلى الدخان الذي يكون في آخر الزمان، يوجب تفكيك أي القرآن ، وليس يحسن ذلك .

وخلاصة الكلام في الدخان : أن يُقال : هل وقعت هذه العلامة أم ستقع ؟ .

للعلماء قولان :

[١] قال ابن مسعود رضي الله عنه وتبعه جماعة من السلف : إن هذه العلامة قد وقعت كما سلف الكلام عنها .

[٢] إن الدخان من الآيات المنتظرة التي لم يجيء بعد ، وهذه قرب قيام الساعة وإلى هذا القول ذهب ابن عباس وبعض الصحابة والتابعين ، لما سلف من الأحاديث بالإضافة إلى ما روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« **بادروا بالأعمال ستًا : الدَّجَّال والدُّخان** » الحديث .

وظاهر الأحاديث تدل على أن الدخان من الآيات المنتظرة ، مع أنه نص القرآن ، قال تعالى : ﴿ **رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ** ⦗١٢⦘ ﴾ وهذا واضح يراه كل أحد .

وذلك لأمرين :

الأول : على أن ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه إنما خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد .

الثاني : أن ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه فإن ذلك من كلامه ، والمرفوع مقدم على كل موقوف .

ولا يمتنع إذا ظهرت هذه العلامة أن يقولوا : ﴿ **رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ** ⦗١٢⦘ ﴾ ، فيكشف عنهم ، ثم يعودون ، وهذا قرب القيامة ، على أن بعض العلماء ذهب إلى الجمع بين هذه الآثار بأنهما دخانان ، ظهر أحدهما ، وبقيت الأخرى ، وهي التي ستقع في آخر الزمان ، فأما التي ظهرت فهي ما كانت تراه قريش كهيئة الدخان ، وهذا الدخان غير الدخان الحقيقي الذي يكون عند ظهور الآيات التي هي من أشراط الساعة .

قال القرطبي : « قال مجاهد ، كان ابن مسعود يقول : هما دخانان ، قد مضى أحدهما ، والذي بقي يملأ ما بين السماء والأرض ، ولا يجد المؤمن منه إلا كالزكمة ، وأما الكافر فتثقب مسامعه » .

وقال ابن جرير : « وبعد فإنه غير منكر أن يكون أجل بالكفار الذين توعدهم بهذا الوعيد ما توعدهم ، ويكون محلاً فيما يستأنف بعد بآخرين دخانًا على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ عندنا كذلك ، لأن الأخبار عن رسول الله ﷺ قد تظاهرت بأن ذلك كائن ، فإنه قد كان ما روي عنه عبد الله بن مسعود ، فكلا الخبرين الذين رويا عن رسول الله ﷺ صحيح » (١) .

(١) أ . هـ . ملخصًا من أشراط الساعة ليوسف بن عبد الله الوابل .

العلامة السابعة : طلوع الشمس من المغرب :

كما قال في النظم : « ثم طلوع الشمس من مغربها » .

من الآيات العظام والأشراط الجسام طلوع الشمس من المغرب ، وذلك ثابت بالسُّنَّة الصحيحة والأخبار الصريحة ، وأشار إليها الكتاب المجيد : ﴿ **يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا** ﴾ . [الأنعام : ١٥٨] .

وإليك بعض الأحاديث الواردة :

[١] أخرج مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : حفظت من رسول الله ﷺ أن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحىً ، وأيتهما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على أثرها قريبًا .

[٢] ما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون ، فذاك حين : ﴿ **لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا** ﴾ .

[٣] وصح عن النَّبي ﷺ : « **لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها** » .

ومعنى الحديث : أن الكافر لا تُقبل توبته وإسلامه إذ ذاك ، كما أن المسلم العاصي ، إذا لم يتب قبل ذلك فحينئذ لا تُقبل توبته ، وأما إيمانه السابق فمقبول ، كما تُقبل التوبة من معصية حدثت بعد طلوع الشمس أو ممن ولد بعد ذلك ، فإن توبته وإيمانه مقبولان،والضابط أن كل بر محدث يكون السبب في إحداثه رؤية الآية ، ولم يسبق من صاحبه مثله لا ينفع سواء كان من الأصول أو الفروع ، وكل بر ليس كذلك لكونه صاحبه كان عاملاً به قبل رؤية الآية ينفع ، والعلة من عدم قبول إسلام الكافر وتوبة العاصي ، ذلك لأن طلوع الشمس من مغربها آية عظيمة يراها كل من كان في ذلك الزمان ، فتنكشف لهم الحقائق ، ويشاهدون من الأهوال ما يلوي

أعناقهم إلى الإقرار والتصديق بالله وآياته ، وحكمهم في ذلك حكم من عاين بأس الله تعالى كما قال عز وجل : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾[غافر : ٨٤ ، ٨٥] .

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ :

« **قال العلماء :** لا ينفع نفسًا إيمانها عند طلوع الشمس من مغربها ، لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كل شهوة من شهوات النفس ، وتفتر كل قوة من قوى البدن ، فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدنو القيامة ، في حال من حضره الموت في انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم ، وبطلانه من أبدانهم ، فمن تاب في مثل هذه الحال لم تُقبل توبته ، كما لا تُقبل توبة من حضره الموت » .

وإلى القارىء الكريم زيادة الإيضاح والبيان في قبول التوبة وعدمه كما ذكره العلامة السفاريني :

قبول التوبة وعدم قبولها بعد طلوع الشمس من مغربها ، وأما من تحقق اتصافه بالإيمان الشرعي من قبل ذلك الوقت ، واستمر إيمانه إلى طلوع الشمس من مغربها ، فهو لا يخلو إما أن يكون مؤمنًا مقيمًا على المعاصي لم يكسب في إيمانه خيرًا ، أو مؤمنًا مخلطًا أو مؤمنًا تائبًا عن المعاصي ، كاسبًا في إيمانه خيرًا ما استطاع :

فالأول: ينفعه الإيمان السابق المجرد عن الأعمال لأصل النجاة،فلا يخلد في النار، وإن دخلها بذنوبه ، فالإيمان السابق ينفعه ، وينفعه الإيمان يومئذ أيضًا لأنه نور على نور ، ولكن لا تنفعه التوبة عن المعاصي ، ولا يقبل منه حسنة يعملها بعد ذلك .

والثاني : ينفعه إيمانه السابق لأصل نجاته ، وينفعه ما قدمه من الحسنات لدرجاته وينفعه إيمان يومئذ أيضًا لما مر ، ولكن لا تنفعه توبة حينئذ من التخليط ولا حسنة يعملها بعد ذلك ما لم يكن عملها من قبل ، واستمر على عملها من نحو صلاة وقراءة وذكر يعمله .

والثالث : ينفعه إيمانه السابق لأصل نجاته ، وتنفعه أعماله السابقة الصالحة

لدرجاته ، وينفعه إيمانه ذلك اليوم أيضاً ، وينفعه ما يعمله بعد ذلك من الحسنات التي سبق منه أمثالها [١] .

العلامة الثامنة : خروج الدابة :

كما أشار في النظم « وذات أجياد كذا فانتبها » أجياد اسم أرض بمكة ، ويقال له جياد ، وخروج الدابة ثابت بالكتاب والسُّنَّة ، قال الله تعالى : ﴿ **وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ** (٨٢) ﴾ . [النمل : ٨٢] .

وأمَّا السُّنَّة فكثيرة ومنها :

[١] ما سبق في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص المخرج من صحيح مسلم .

[٢] وأخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ : « **تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان وعصا موسى ، فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتخطم أنف الكافر بالخاتم ، حتى أن أهل الخوان ليجتمعون فيقول هذا : يا مؤمن ، ويقول هذا : يا كافر** » .

[٣] وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **بادروا بالأعمال ستًا ، طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، والدخان ، وخاصة أحدكم ، وأمر العامة** » . رواه الإمام مسلم .

وزاد أحمد في رواية له : وكان قتادة يقول : « إذا قال وأمر العامة ، قال : أي أمر الساعة » .

[٤] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت في إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها ، والدَّجَّال ، ودابَّة الأرض** » . [رواه مسلم والترمذي وابن جرير ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح] ، وقد رواه الإمام أحمد وقال فيه : « والدخان» بدلاً من « الدَّجَّال » .

---

(١) أ . هـ . من لوامع الأنوار البهية .

قال العلماء :

تخرج الدابة من مكة ، إما من صدع الصفا أو من المروة ، أو من شِعب أجياد ، ولهذا سميت بذات أجياد ، وهناك أقاويل أخر ، وفي حديث حذيفة ، طولها ستون ذراعًا ، لا يدركها طالب ، ولا يفوتها هارب ، وللقراء قراءتان في الآية ، قرأ الكوفيون ﴿ **أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ** ﴾ بفتح الهمزة على أنه حكاية معنى قولها أو حكايتها لقول الله ، ويؤيدهما ما ورد من أنها تنادي بأعلى صوتها ﴿ **أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ** ﴾ وقرأ الآخر بالكسر على أنه استئناف علة لخروجها أو علة لتكلمها أي : إنما أخرجناها لأن الناس كانوا ، أو إنما تكلمهم لأن الناس بآياتنا لا يوقنون .

ومعنى وقوع القول : ما وُعِدُوا من البعث والعذاب ، وعن ابن مسعود : إذا مات العلماء وذهب العلم ، ورفع القرآن ، أخرجنا لهم دابة من الأرض ، وخروجها بعد طلوع الشمس من يومها أو قريبًا منها .

شبهة لأهل البدع والرد عليها :

وأما قول بعض أهل البدع من أهل عصرنا : أن تكليم الدابة للناس بلسان الحال لا بلسان المقال ، وإن من معاني التكليم التجريح ، ومعنى تُكَلِّمُهُم تُكْلِمُهُمْ ، أي : تجرحهم من الجرح ، فلعل المراد إذًا بالدابة هي تلك الجراثيم الخطيرة التي تفتك بالإنسان وجسمه ، وصحته وزروعه ومواشيه .

فالجواب :

أولاً : إن هذه معارضة لأحاديث رسول الله ﷺ ، فقد وردت عدة أحاديث في خروج الدابة ، منها الصحيح ومنها الحسن ومنها الضعيف ، فعلى قول هذا يلزم تكذيب تلك الأحاديث ، بل وتكذيب النَّبي ﷺ .

ثانيًا : إن الجراثيم موجودة من أول الدنيا ، ومنتشرة في جميع أرجاء الأرض ، وأما الدابة فإنما تخرج في آخر الزمان .

ثالثًا : إن الجراثيم أنواع لا تُحصى ، وأما دابة الأرض فإنما هي دابة واحدة ، كما يدل على ذلك ظاهر القرآن والأحاديث الصحيحة .

رابعًا : إن دابة الأرض التي أخبر الله بخروجها ، ليست من الدواب التي يعرفها الناس ولا من الجراثيم ، وإنما هي خلق عظيم هائل من خوارق العادات ، كما جاء بيان ذلك في بعض الأحاديث [١] .

العلامة التاسعة : وحشر نار في الصحيح المعتمد :

﴿ أ ﴾ روى حذيفة بن أسيد أنه ﷺ قال : « **لن تقوم الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر : الدُّخان ، والدَّجَّال ، والدَّابَّة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم** » .

﴿ب﴾ وفي حديث ابن عمر ﷺ عند الحاكم مرفوعًا : تبعث على أهل المشرق نار ، فتحشرهم إلى المغرب، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا » .

﴿جـ﴾ في بعض الروايات : تخرج من قعر عدن وفي بعضها من اليمن ، وفي بعضها من برهوت، وفي بعض الأحاديث تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، ولا تنافي في تلك الروايات ، لأن عدن من اليمن ، وبرهوت من عدن ، وأرض الشام التي هي أرض المحشر تكون بالنسبة إلى اليمن في المغرب ، وهذا الحشر قبل يوم القيامة في الدنيا ، فإذا أراد الله انقراض الدنيا وتمام لياليها وقربت النفخة ،خرجت نار من قعر عدن ، تسوق الناس إلى المحشر وهي آخر الآيات .

تنبيه :

في الحديث المار عن حذيفة ثلاث خسوفات ، خسف بالمشرق ... إلخ ، قال في الإشاعة في خلافة المطيع في (سنة ٣٤٦هـ) وقع بالرّي ونواحيها زلازل عظيمة ، وخسف ببلاد طالقان ، ولم يفلت من أهلها إلا نحو ثلاثين نفسًا ، وخُسِف بمئة وخمسين قرية من قرى الرّي ، وخسف بالمغرب ،قال في (سنة ٢٠٨هـ) خسفت ثلاثة عشر قرية بالمغرب ، وفي سنة (٨٣٤ هـ) في شعبان وقعت زلزلة بغرناطة

---

(١) أ . هـ . ملخصًا من إتحاف الجماعة .

وخسف بعدة أماكن ، ولم يذكر الخسف بالجزيرة ، ويحتمل وقوعه ولم يصل إليه النقل ، أو لم يقع وقد سمعت من بعض المشايخ أن في السنين الأخيرة وقع خسف في بعض صحاري نجد ، والله أعلم .

العلامة العاشرة : رفع القرآن وفناء الأخيار :

بعد ذلك الإنتشار العظيم للإسلام الذي يعم المشارق والمغارب ، يضعف الإسلام مرة أخرى ، ويترعرع الشر ، ويرفع هذا الدين العظيم ، ويرفع القرآن ، ويذهب العلم ويُقبض الله من كان في نفسه بقية من إيمان ، فلا يبق بعد ذلك إلا شرار الخلق ، وعليهم تقوم الساعة .

[١] أخرج ابن ماجه والحاكم عن حذيفة بن اليمان ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **يُدرس الإسلام كما يُدرس وَشْيُ الثوب ، حتى لا يدري ما صيام ، ولا صلاة ، ولا نُسك ، ولا صدقة ، ويسري على كتاب الله في ليلة ، فلا يبقى في الأرض منه آية ، وتبقى طوائف من الناس : الشيخ الكبير ، والعجوز يقولون : أدركنا آباءنا على هذه الكلمة « لا إله إلا الله » فنحن نقولها** » (١) .

[٢] وهذه البقية الباقية التي لا تعرف من الإسلام إلا كلمة التوحيد تفني وتبيد ، ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق** » (٢) .

[٣] وفي حديث آخر بيَّن لنا الرسول ﷺ ، كيف تذهب بقية الصالحين في آخر الزمان ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبي ﷺ قال : « **إن الله يبعث ريحًا من اليمن ، ألين من الحرير ، فلا تدع أحدًا في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته** » ، وفي رواية : « **مثقال ذرة** » (٣) .

[٤] وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **لا تقوم الساعة حتى لا يقال في**

---

(١) قال الحاكم فيه : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وقال البوصيري : إسناده صحيح ، رجاله ثقات : انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني ، حديث رقم (٨٧) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الفتن ، باب قرب الساعة (٤ / ٢٢٦٨) ، حديث رقم (٢٩٤٩) .

(٣) رواه مسلم في صحيحه ، حديث رقم (٧٩١٥) ، وانظر جامع الأصول (١٠ / ٤١٠) .

الأرض : الله الله » . أ هـ [١] .

قال الشيخ العلامة السفاريني ـ رحمه الله ـ :

« تتمة » ثبت بالسُّنَّة الصحيح أن أهل الأرض يكفرون ويعبدون الأوثان ، وأنه لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس ، فقد أخرج الإمام أحمد ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **تجيء بعد موت عيسى عليه السلام ريح باردة من قبل الشام ، فلا تبقى على وجه الأرض أحدًا في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلت عليه حتى تقبضه ، فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون مُنكرًا ، فيتمثل لهم الشيطان ، فيقولون : ما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، فيعبدونها وهم في ذلك دارٌ رزقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ في الصور** » [٢] .

توضيحان مهمان :

﴿ **أ** ﴾ أخرج الإمام أحمد ومسلم أيضًا والترمذي من حديث النواس ابن سمعان : «**فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبة ، فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر** ـ أي يتسافدون تسافد الحمر (جمع حمار) ـ **فعليهم تقوم الساعة** » .

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا عند الحاكم : « **إن الله يبعث ريحًا من اليمن ألين من الحرير ، فلا تدع أحدًا في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته ، وقد جاءت رواية بأن الريح تأتي من قِبل الشام** » ، وهنا أنها من قِبل اليمن .

والجواب : أنهما ريحان شامية ويمانية .

﴿ **ب** ﴾ وأخرج الإمام أحمد بسند قوي عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا : « **لا تقوم الساعة حتى لا يُقال في الأرض لا إله إلا الله** » ، ورواه مسلم بلفظ : « **حتى لا يُقال في الأرض : الله الله** » ، فإن قيل : كيف هذا مع ما صح عنه ﷺ من قوله : « **لا تزال طائفة من أُمَّتي ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة حتى يأتي أمر الله** » ؟ .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، مشكاة المصابيح (٣ / ٥٠) ، حديث رقم (٥٥١٦) .
(٢) من اليوم الآخر ، الشيخ عمر الأشقر .

فالجواب :

هذا غير مصادم للحديث ، لأن معناه أنهم لا يزالون على الحق حتى تأتيهم هذه الريح اللّيِّنة قرب القيامة ، وعند تظاهر أشراطها ، فأطلق فيه بقاءهم إلى قيام الساعة ، مريداً أشراطها ودنوها المتناهي في القرب ، ومثله قول بعضهم : أمر الله هو هبوب تلك الريح الآتي بعد وقوع الآيات العظام التي يعقبها قيام الساعة ، ولا يتخلف عنها إلا شيء يسير ، وليس فيهم يعني من يبقى بعد هبوب الريح مؤمن وعليهم تقوم الساعة ، وعلى هذا فأخر الآيات المؤْذِنَة بقيام الساعة ، هبوب تلك الريح كما في القناعة للحافظ السخاوي [١] .

وحيث أنهيت الكلام عن علامات الساعة ، فأشرع الآن في بيان اليوم الآخر .

وحيث أن الموت هو الواسطة بين الدنيا والأخرى ، فقد ابتدأت في بيانه .

وبيان ما يجب أن يؤمن به المسلم في اليوم الآخر :

[١] المـــــوت .

[٢] والبرزخ[٢] .

[٣] عذاب وضغطة القبر وظلمته .

[٤] سؤال المنكرين .

فمما يجب علينا الإيمان به : الموت ، وهو مفارقة الروح للجسد وملك الموت الموكل يقبض روح كل ذي روح من الثقلين وأرواح الملائكة والبهائم والطيور ولو بعوضة ، ولملك الموت أعوان تقبض الأرواح ، لهذا وردت آية تسند إليه التوفي كقوله : ﴿ **قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ** ﴾ [السجدة : ١١] ، لكونه المباشر لنزعها بعد ما نزعتها الأعوان من العصب والعروق ، ولهذا أُسند إليهم التوفي

---

(١) أ . هـ . من لوامع الأنوار البهية .

(٢) البرزخ من كلام العرب ، الحاجز بين الشيئين كما قال الله تعالى : ﴿ **وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا** ﴾ أي حاجزاً [الفرقان : ٥٣] .

والبرزخ في الشريعة : الدار التي تعقب الموت إلى البعث ، قال تعالى : ﴿ **وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ [المؤمنون : ١٠٠] .

في قوله تعالى : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام : ٦١] ، وأما إسناد التوفي إليه تعالى في قوله : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : ٤٢] ، فلأنه الخالق لذلك ، وبهذا يجمع بين الآيات .

وللموت أجل محدّد ، فلا يتأخر المرء عمّا قُدِّر له من الأجل ولا يتقدم ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) ﴾ [النحل : ٦١] ، والموت حتمٌ لازم لكل حي من المخلوقات ، كما قال الله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ، ولو نجا أحد من الموت لنجا منه سيد الأنبياء والمرسلين ﷺ ، فقد قال الله مخاطبًا له : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) ﴾ [الزمر : ٣٠] .

ومما يجب الإيمان به : سؤال الملكين منكر ونكير للميت بعد الدفن :

وقد ورد ذلك في عدة أحاديث يبلغ مجموعها مبلغ التواتر المعنوي ، منها في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ،إنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ، لمحمد ﷺ ؟ ، فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقول : انظر إلى مقعدك من النار ، فقد أبدلك الله مقعداً من الجنة ، فيراهما جميعًا يعني المقعدين ، وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ ، فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال : لا دريت ولا تليت ، فيُضرب بمطراق من حديد ضربة ، فيصيح صيحة يسمعه من يليه من غير الثقلين** » .

واستنبط العلماء من قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] ، مستدلين بما أخرج الشيخان من حديث البراء بن عازب عن النَّبي ﷺ : أن هذه الآية نزلت في عذاب القبر ، وزاد مسلم : « **يُقال له من ربك ؟ ، فيقول : ربي الله ، ونبيي محمد** » ، فذلك قوله :

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ وسيما بمنكر ونكير ، لأن خلقهما لا يشبه خلق الآدميين ولا خلق الملائكة ولا خلق البهائم ، ولا خلق الهوام ، بل هما خلق بديع ليس في خلقهما إنس للناظرين .

واختلف : هل السؤال مخصوص بهذا الأمة أم بسائر الأمم ؟ .

فالصحيح أنه ليس مخصوصًا بهذه الأمة ، رجَّح هذا ابن القيم والحافظ عبد الحق والقرطبي .

والظاهر أن كل نبي مع أُمَّته (١) كذلك ، يعني يسأل عنه كنبيّنا مع أُمَّته ، وأنهم يعذبون في قبورهم بعد السؤال لهم وإقامة الحجة عليهم، كما يعذبون في الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجة، وحياته في القبر حياة برزخية ليست كحياتنا، بل أمر متوسط كتوسط النوم بين الموت والحياة ، ويُرد إليه من الحواس والعقل ما يتوقف عليه فهم الخطاب ويتأتى معه رد الجواب ، ويستثني من هذا السؤال الأنبياء والملائكة والشهداء والأطفال ، ولا يُستثنى الجن لأنهم يُسألون ومُكلفون في الجملة .

ومما يجب الإيمان به عذاب القبر :

أجمع عليه علماؤنا ، مؤيدين قولهم بآيات من القرآن ، وبأحاديث عديدة :

- **من القرآن :**

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) ﴾ [الأنعام : ٩٣] .

وهذا الخطاب عند الموت ، وأخبرت الملائكة وهم الغاية في الصدق والصلاح ،

---

(١) فإن قيل : إذا قال اليهودي : آمنت بالله ، ومن نبيك ؟ ، قال : موسى ، ومثل ذلك المسيحي بالنسبة لعيسى عليه السلام ، هل ينجوان من العذاب ؟ .

الجواب :

إن كان اليهود قال ذلك قبل أن يبعث الله عيسى فقدينجو ، وإن كان المسيحي قال ذلك قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ فقد ينجو .

أما بعد إرسال عيسى بالنسبة لليهودي ، وإرسال النَّبي محمد ﷺ عليه بالنسبة لليهودي والمسيحي ، فلا يمكنهم الإجابة الصحيحة ، بل يقولون : لا ندري ، بهذا يزول الإشكال .

بأن اليوم يُجزون عذاب الهون ، ولو تأخر إلى انقضاء الدنيا لما صح ما قالوا ، فدلَّ على أن هذا العذاب واقع في البرزخ ، وقال الله تعالى : ﴿ **وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)** ﴾[غافر : ٤٥] ، فذكر عذاب الدارين ، عذاب البرزخ ، وهو في قوله غدوًا وعشيًا .

والعذاب الأكبر في جهنم ، وهو المذكور في قوله تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)** ﴾[غافر : ٤٦] ، وقال الله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ** ﴾[الطور : ٤٧] ، وهذا يحتمل أن يُراد بهذا العذاب القتل في الدنيا ، لكن دلالة الآية على عذاب البرزخ أظهر،لأن كثيرًا من أولئك المشركين المعاندين المعنيين بقوله تعالى : ﴿ **فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥)** ﴾ [الطور : ٤٥] أي : ماتوا ولم يُعذبوا في الدنيا بالقتل ، أو تقولة الآية : نعم القتل وعذاب البرزخ ، وكلاهما دون الآخرة .

■ ومن السُّنَّة :

﴿ **أ** ﴾ أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « **اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر** » .

﴿ **ب** ﴾ وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النَّبي ﷺ أنه كان يعلمهم هذا الدعاء ، كما يعلمهم السورة من القرآن : « **اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدَّجال** » .

﴿ **جـ** ﴾ وقد ثبت في الصحيحين أن عائشة رضي الله عنها سألت النَّبي ﷺ عن عذاب القبر ، فقال : « **نعم عذاب القبر حق** » [1] .

---

(١) سبب سؤال عائشة رضي الله عنها للنَّبي ﷺ : أن يهودية دخلت عليها ، فذكرت عذاب القبر، فقالت لها : أعاذك الله من عذاب القبر ، فسألت عائشة رضي الله عنها الرسول ﷺ عن عذاب القبر ، فقال : « **نعم ، عذاب القبر حق** » .

قالت عائشة رضي الله عنها : فما رأيت رسول الله ﷺ بعد أن صلى إلا أن تعوذ من عذاب القبر، زاد غندر : « **عذاب القبر حق** »[رواه البخاري] .

﴿ هـ ﴾ وعن عليّ رضي الله عنه : ما زلنا في شك من عذاب القبر حتى نزلت : ﴿ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ②** ﴾[التكاثر : ١ ، ٢] [(١)] .

ومما يجب الإيمان به : ضغطة القبر وظُلمته :

﴿ **أ** ﴾ عن حذيفة قال : كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة ، فلما انتهينا إلى القبر ، قعد على شفيره فجعل يردد بصره فيه ثم قال : « **يُضغط فيه المؤمن ضغطة تزول منها حمائله** » أي : عواتقه وأضلاعه وصدره ، ولما دُفنَ سعد بن معاذ رضي الله عنه والنَّبي ﷺ قاعد على قبره قال : «**لو نجا من ضغطة القبر أحد لنجا سعد ابن معاذ ، ولقد ضمه ضمة لقد أرخي عنه** »[رواه سعيد بن منصور والحكيم والترمذي والطبراني والبيهقي] .

﴿ **ب** ﴾ وأخرج النسائي والبيهقي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : « **هذا الذي تحرك له العرش ، وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألفًا من الملائكة ، لقد ضم ضمة ، ثم فرّج عنه**» يعني : سعد بن معاذ [(٢)] .

قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ : « تحرك له العرش فرحًا بروحه » .

[أخرجه البيهقي في الدلائل] .

وقيل :

ومـا اهتـز عـرش الله من أجل هالك ۞ سـمـعنا به إلا لسـعـد أبي عـمـرو

وقولنا : عذاب القبر ، وسؤال الملكين للميت بعد الدفن ، والضغطة والنعيم، أغلبي وإلا فالغريق ، والحريق ، ومن أكلته الدواب ، والمصلوب ، وبالجملة كل من مات ينال نصيبه ، إما من العذاب أو النعيم ، وكذلك السؤال والضغطة .

= وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت على عجوزان من عجز يهود المدينة ، فقالتا : إن أهل القبور يُعذبون في قبورهم ، قالت : فكذبتهما ، ولم أنعم أن أصدقهما « أي لم تطب نفسي أن أصدقهما » فخرجتا ، ودخل رسول الله ﷺ ، فقالت له : يا رسول الله ! إن عجوزين من عجز يهود المدينة دخلتا علي ، فزعمتا أن أهل القبور يُعذبون في قبورهم ، فقال : « **صدقتا ، إنهم يعذبون عذابًا تسمعه البهائم** » ، قالت : فما رأيته بعد في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر .

(١) ، (٢) من لوامع الأنوار باختصار .

وإن قال قائل : كيف يمكن سؤال الملكين لجميع الموتى في الأماكن المختلفة ؟ .

قلنا : أحوال البرزخ والدار الآخرة ليست كحياة الدنيا المعهودة وأعمالنا ، وإن عظم خلق الملكين والقوة الموهوبة لهما ، لا يبعد أن يخاطبا الخلق في المرة الواحدة مخاطبة واحدة ، بحيث يخيل لكل ميت أنه المسؤول .

فإن لم يتضح للقراء هذا الجواب ، فهاكم الجواب بهذا المثال الملموس الواقع المشاهد وهو : الرائي « التلفزيون » ، فيرى المشاهدون الذي يلقي محاضرة أو حديثًا أو يفسر أو ينشر الأخبار ،وكل مشاهد في أي بلد من البلدان التي يصل إليها البث ، يرى كل ذلك في آن واحد . فسبحان الذي أظهر لنا صدق هذا الدين بالدلائل النقلية والعقلية والحسية .

ومن عظيم قدرة الله ،أن جعل الله هذه الاختراعات في الصناعات العديدة والاختراعات العجيبة، تخدم الشريعة الغراء ، وتنمي العقائد الصحيحة ،ولا تنافي الشرع الشريف في شيء،عند من لديه إلمام بالعلم الشرعي، وذوق صحيح وعقل سليم .

وهل عذاب القبر على الروح والبدن، أو على البدن فقط ، أو على الروح فقط؟.

الصحيح على الروح ، والبدن تبع لها ، لأن الدور ثلاثة :

[١] دار الدنيا : العذاب والنعيم على البدن ، والروح تبع لها .

[٢] وفي البرزخ بالعكس .

[٣] وفي الآخرة على البدن والروح معًا .

شبهة للمُلحدين المنكرين عذاب القبر وردها :

وهنا يسأل كثير من الملحدين والزنادقة المكذبين (١) المنكرين لعذاب القبر

---

(١) قال العلامة السفاريني : الحق عند أهل السُّنَّة ، أن عذاب القبر على النفس والبدن .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ : العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعًا باتفاق أهل السُّنَّة والجماعة ، تُنعم النفس وتُعذب منفردة عن البدن ، وتنعم وتعذب متصلة بالبدن ، والبدن متصل بها ، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين ، كما يكون على الروح منفردة عن البدن .

وقد ذكر العلامة السفاريني ـ رحمه الله ـ عدة أقوال في هذا الموضوع ، ناقلاً عن شيخ الإسلام أحمد بن تيمية والحافظ ابن القيم ـ رحمهما الله ـ ثم قال : فإذا علمت هذه الأقوال وعرفت =

بطلانها ، فاعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها ، أن الإنسان إذا مات يكون في نعيم أو عذاب ، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه ، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة ، وأنها تتصل بالبدن أحيانًا ، فيحصل له معها النعيم والعذاب ، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد ، وقاموا من قبورهم إلى رب العباد . أ . هـ .من « لوامع الأنوار البهية » .

تنبيه أول :

من المفيد أن تعلم أن إعادة الروح إلى الجسد في البرزخ ليس على الوجه المعهود في الدنيا ، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا ، فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق ، متغايرة الأحكام :

أحدها : تعلقها به في بطن الأم جنينًا .

الثاني : تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض .

الثالث : تعلقها به في حال النوم ، فلها به تعلق من وجه ، ومفارقة من وجه .

الرابع : تعلقها به في البرزخ ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه ، فإنها لم تفارقه فراقًا كليًّا بحيث لا يبقى لها إليه التفات البتة ، فإنه ورد ردها إليه وقت سلام المسلم ، وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه ، وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة .

الخامس : تعلقها به يوم بعث الأجساد ، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه،إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتًا ولا نومًا ولا فسادًا ،فالنوم أخو الموت ، فتأمل هذا يزح عنك إشكالات كثيرة . أ . هـ . شرح العقيدة الطحاوية (ص ٤٥١) .

تنبيه آخر :

قد ذكرت غير مرة أن حياة البرزخ ليست كحياة الدنيا عندما يسأله الملكان أو عندما يرد السلام ، كما ورد في بعض الأحاديث ، فكيفية حياة البرزخ حتى بالنسبة للأنبياء ، والشهداء ليست معلومة للبشر ، وإنما هو من علم الغيب .

ومن هنا تعلم أن لا مستمسك للقبوريين الخرافيين الذين يستغيثون بالأنبياء والأولياء ، ويطلبون منهم كشف الكربات والمضرات وسؤالهم لما ينفعهم من رزق أو ولد ، أو أي مطلب من مطالب الدنيا من جلب نفع أو دفع ضر ، مستمسكين بأنهم أحياء في قبورهم .

فقد اتضح من الأحاديث وأقوال العلماء المحققين ، أن تلك الحياة ليست كحياتنا ، فلا تؤهلهم لما يطلب منهم ، بل لا يجوز نداء من لا يسمعك في مثل هذه المطالب إن كان بعيدًا عنك وإن كان حيًّا ، فكيف بمن مات ؟ ، وما هو الموت إلا مفارقة الروح للبدن ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ** ﴿٢٢﴾ ﴾[فاطر : ٢٢] ، أما خطاب النَّبي ﷺ للمشركين الذين قُتلوا في بدر وألقاهم في القليب : « **هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا ، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًا** » ، وقوله ﷺ لما سئل عن ذلك : « **ما أنتم بأسمع منهم بما أقول** » أو كما قال ؟ .

فالجواب :

إن تكليم الرسول لهم وسماعهم لكلامه معجزة خاصة بالرسول ﷺ ، كما سمع ﷺ المعذبين من قبرهما ، فلا يقاس على الرسول ﷺ وسائر الأنبياء غيرهم باتفاق أهل العلم ، والله أعلم بالصواب .

و

نعيمه ، قائلين : شاهدنا أمواتًا ولم نرهم معذبين بنيران أو حيات أو عقارب ، كما نرى المصلوب المدة الطويلة لا يُسأل ولا يُجيب ولا يتحرك ولا يُعذب بنار ، ووضعنا على صدر الميت زئبقًا ، وكشفنا عنه بعد مدة فوجدناه بحاله ، فلو أُقْعِدَ كما تقولون وسُئِلَ وعُذِّبَ أو نُعِمَ ، لما شاهدناه بحاله ؟ ، وكيف يمكن الخطاب مع من افترسته السباع ونهشته الطيور ، وصار في أجواف الأسود وبطون الطيور والحيتان ؟ .

والجواب من وجوه :

الأول : قلنا إن الأنبياء لا تأتي بما يأباه العقل ، ويجب علينا تصديقهم ، لأن من صفاتهم الصدق والعصمة عن كل ذنب،وأعظم الذنب الكذب على الله، وهم مبرؤون عن ذلك .

الثاني : إن أحوال البرزخ ودار الآخرة ، ليستا كحالتهما المعهودة في الدنيا .

الثالث : إن النار التي في القبر ليست من نار الدنيا ، وإنما هي من نار الآخرة ، فهي وإن كانت أشد من نار الدنيا ، إلا أن شدتها على من هي له وعليه ، دون من مسها من أهل الدنيا ، بل قد يكون الرجلان في قبر واحد ، وهذا في نعيم ، وهذا في عذاب أليم ، وقدرة الرب أعظم .

الرابع : يُنَظَّرُ بحالة النائم ، يكون في نعيم وسرور، وربما يأكل ويشرب ويضحك ، أو في عذاب وحزن وبكاء ، والجالسون حوله لا يشعرون بذلك ، وهذا مشاهد واقع بكثرة ، لا يمكن أن يتسرب إليه إنكار ، وهذا في الحياة الدنيا فكيف في البرزخ ؟ .

الخامس : ألا ترى أن الله تعالى يحدث في هذه الدار ما هو أعجب ، أما كان جبريل يأتي إلى الرسول ﷺ ، فيكلمه بكلام يسمعه ، ومن كان جالسًا إلى جنب النَّبي ﷺ لا يراه ، ولله في حجب هذه الأمور عن أعيننا حكمة ، لأن قوانا مخلوقة بخلق لا يمكن أن يثبت لمشاهدة تلك الآيات والأمور الخارقات ، كما أن المطلوب منا الإيمان بالغيب ، وهو ما لم يكن مكشوفًا لنا .

كما جاءت الآيات بالثناء والمدح للمؤمنين بالغيب ، كما في أول سورة البقرة :

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾
[البقرة : ١- ٥] .

شبهة أخرى لمنكري عذاب القبر :

فإن قيل : سلمنا أن النعيم والعذاب بالنسبة للقبر قد يكون كما قلتم معشر أهل السُّنَّة والجماعة ، أنهما لا يحس بهما حتى ولو كان أحد نائمًا بجنب الميت، لكن كيف يكون النعيم،والعذاب بالنار أو الحيَّات والعقارب، وقد افترسته وأكلته السباع، وهو الآن مفتت في جوف الحيوان المفترس ، فلو عذب لاحترق جوف الحيوان المفترس ؟ .

فالجواب :

قلنا أولاً : أن الأنبياء لا تأتي بما يخالف العقول ، بل بما تصدقه العقول أو تحير فيه .

إن من عرف الله وعظمته وقدرته ، وخلقه الإنسان الأول من تراب وذريته من ماء مهين ، وخلق هذه الكائنات العظمى ، وليس لقدرته حد محدود ﴿ **إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ۝٨٢ ﴾ [يس : ٨٢] .

إذا عرف ذلك لا يستبعد التعذيب والتنعيم لمن أكلته سباع البر أو حيتان البحر، لأنه قد يعذب أو ينعم ولا يحس الحيوان المفترس بذلك .

وثانيًا : فإن عالم البرزخ وعالم الآخرة ليس من جنس المعهود في هذا العالم ، والله سبحانه وتعالى إنما أشهد عباده هذه الدار وما كان فيها ومنها ، وأما ما كان من أمر الآخرة ، فالبرزخ أول منازل الآخرة ، وقد أسبل عليه الغطاء ، ليكون الإقرار به والإيمان سببًا لسعادة المسلم ، ولو كشف عنه الغطاء ، لكان مشاهداً عيانًا ، وفاتته نتيجة الإيمان بالغيب ، وما يترتب على ذلك من الثواب .

وبعد أن تكلمت عن العناصر الأربعة الأول ، فأشرع في الخامس .

[٥] ومما يجب الإيمان به : نفخ الصور :

وقد فسره رسول الله ﷺ لما سأله أعرابي قائلاً : ما الصور ؟ ، قال : « **قرن يُنفخ فيه** » [قال الترمذي : حديث حسن] .

قيل : فيه ثقوب عدد أرواح الخلائق ، والنفخ في الصور ثابت في كتاب الله المجيد ، وأحاديث النَّبي الكريم ، كما ستمر بك الآيات .

اعلم أن النفخ في الصور ثلاث نفخات :

النفخة الأولى : نفخة الفزع :

وهي التي يتغير بها هذا العالم ويفسد نظامه ، وهي المشار إليها في قوله تعالى : ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الزمر : ٦٨] ، والاستثناء لمن ثبَّت الله قلبه من الملائكة وجبرائيل وإسرافيل وملك الموت ، وعند ذلك يفزع أهل السماء والأرض إلا من شاء الله لشدة ما يقع من هول تلك النفخة ، فيسيِّر الله الجبال فتمر مر السحاب فتكون سرابًا ، وترتج الأرض بأهلها رجًا ، وتكون كالسفينة الموقرة في البحر ، تضربها الأمواج ، يقول الله تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝** ﴾ [النازعات : ٦ ، ٧] ، فتذهل المراضع ، وتشيب الولدان ، وتنشق السماء ، وتنتثر النجوم ، وتنكسف الشمس ، وينخسف القمر ، وتتصدع الأرض ، وتفزع الإنس إلى الجن ، والجن إلى الإنس ، وتختلط الدواب والطير والوحوش بعضها في بعض ، فذلك قوله الله تعالى : ﴿ **وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝** ﴾ [التكوير : ٥ ، ٦] ، أي : اختلطت الوحوش ، وأهملت العشار .

النفخة الثانية : نفخة الصعق :

قال الله تعالى : ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الزمر : ٦٨] ، والصعق هنا الموت ، وبهذه النفخة يهلك كل حي إلا من شاء الله ، وهم حملة العرش وجبريل وميكائيل وإسرافيل .

جاء في الحديث : « ثم يأمر الله إسرافيل ، فينفخ نفخة الصعق ، فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، فيقول الله وهو أعلم : فمن بقي ؟ ، فيقول : أي رب ، بقيت أنت الحي القيوم الذي لا يموت ، وبقيت حملة العرش ، وبقي جبريل وميكائيل ، وبقيت أنا ، فيقول الله : فليمت جبريل وميكائيل ، فيموتا ، ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار فيقول : قد مات جبريل وميكائيل ، فيقول الله : فليمت حملة العرش ، فيموتوا ، ويأمر الله العرش أن يقبض الصور من إسرافيل، ثم يقول : ليمت إسرافيل فيموت، ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار ، فيقول : قد مات حملة العرش ، فيقول تعالى وهو أعلم : فمن بقي ؟ ، فيقول : بقيت أنت الحي القيوم الذي لا يموت ، وبقيت أنا ، فيقول تعالى : أنت خلق من خلقي ، خلقتك لما رأيت ، فمت ، فيموت، فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار ، طوى السماء والأرض كطي السجل للكُتب، وقال : أنا الجبَّار ، لمن الملك اليوم ؟ ثلاث مرات ، فلم يجبه أحد ، ثم يقول لنفسه : لله الواحد القهار... » . [الحديث] .

ثم بعد ذلك يُرسل الله مطرًا على الأرض كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه « فينزل عليها أربعين يومًا حتى يكون فوقهم اثنا عشر ذراعًا ، فيأمر الله الأجساد أن تنبت كنبات البقل ، حتى إذا تكاملت أجسادهم كما كانت ، قال الله : ليحيى حملة العرش ، ليحيى جبرائيل ، وإسرافيل ، وميكائيل وعزرائيل ، ثم يأمر الله إسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه ، ثم يدعو الأرواح ، فيؤتى بها تتوهج أرواح المؤمنين نورًا ، والأخرى ظلمة فيقبضها جميعًا ثم يلقيها في الصور، ثم يأمره أن ينفخ نفخة البعث ، فتخرج الأرواح كلها كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض ، ثم يقول الله : وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها ، فتدخل الأرواح من الخياشيم ، ثم تمشي مشي السم في اللديغ ، ثم تشقق الأرض عنهم سراعًا ، فأنا أول من تنشق عنه الأرض، فتُخرجون منها إلى ربكم تنسلون».

وهذه النفخة الثالثة : (١)

وإليها أشار القرآن الكريم كما في قول الله تعالى : ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ** ﴿٥١﴾ ﴾[يس : ٥١] .

وقوله الله تعالى : ﴿ **ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ** ﴾[الزمر : ٦٨] ، هذه هي نفخة البعث والنشور .

وأخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما بين النفختين أربعون** » ، قيل : أربعون يومًا ؟ ، قال أبو هريرة : أبيت ، قال : أربعون شهرًا ؟ ، قال : أبيت ، قال : أربعون سنة ، قال : أبيت ، ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد ، وهو عجب الذنب ، منه يركب الخلق يوم القيامة .

وفي رواية لمسلم :« **إن في الإنسان عظمًا لا تأكله الأرض أبدًا ، فيه يركب**

---

(١) وما ذكرناه من أن ثلاث نفخات تنفخ في الصُور ، هو ما قاله كثير من العلماء ، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن العربي وابن كثير والسفاريني ، وحجتهم ما سبق بيانها من عدد النفخات مستدلين بالآيات السالفة الذكر .

ورجح بعض العلماء ومنهم القرطبي والحافظ ابن حجر العسقلاني أنها نفختان :

الأولى : يحصل بها الصعق .

والثانية : يحصل بها البعث .

قال الله تعالى : ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ** ﴿٦٨﴾ ﴾[الزمر: ٦٨] ، وقد سمى القرآن النفخة الأولى بالراجفة والثانية بالرادفة ، قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ** ﴿٦﴾ **تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ** ﴿٧﴾ ﴾[النازعات : ٦ ، ٧].

وفي موضع آخر : سمى الأولى بالصيحة ، وفي الثاني بالنفخ في الصور ، قال تعالى : ﴿ **مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ** ﴿٤٩﴾ **فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ** ﴿٥٠﴾ ﴾ .

[يس : ٤٩ ، ٥٠] .

وقد جاءت الأحاديث النبوية مصرحة بالنفختين ، ففي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا : ما بين النفختين أربعون ، قالوا : يا أبا هريرة : أربعون يومًا ؟ ، قال : أبيت ، قالوا : أربعون شهرًا ؟ ، قال: أبيت ؟ ، قالوا : أربعون عامًا ؟ ، قال : أبيت . الحديث (●) .

(●) **وقول أبي هريرة رضي الله عنه « أبيت » فيه ثلاث تأويلات :**

أولها : امتنعت من بيان ذلك لكم ، وقيل : أبيت أسأل النبي ﷺ عن ذلك ، وقيل : نسيت ، وقيل : إن سر ذلك لا يعلمه إلا الله ، لأنه من أسرار الربوبية .

الخلق يوم القيامة » ، قالوا : أ عظيم يا رسول الله ؟ ، قال : « **عجب الذنب** » .

رواه الإمام مالك وأبو داود والنسائي باختصار ، قال : « **كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب ، منه خُلق وفيه يركب** » .

قال الحافظ المنذري كغيره : عجب الذنب بفتح العين المهملة وإسكان الجيم بعدها باء موحدة أو ميم ، وهو العظم الحديد الذي يكون في أسفل الصلب ، وأصل الذنب من ذوات الأربع .

قال ابن رسلان :

والجسم يبلى غير عجب الذنب — وما شهيد باليًا ولا نبي

وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **أنا سيد ولد آدم ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مُشفع** » .

وفي صحيح البخاري : « **أنا أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة ، فإذا بموسى** عليه السلام **متعلق بالعرش ، فلا أدري أكذلك كان أم بعد النفخة** » .

وفي بعض لفظ البخاري : « **فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور** » .

[٦] ثم الحشر :

وهو عبادة عن سوقهم بعد إخراجهم من قبورهم جميعًا إلى الموقف ، وهو الموضع الذي يقفون فيه من الأرض المقدسة المبدلة ، التي لم يعص الله عليها لفصل القضاء بينهم ، ولا فرق بين من يجازي كالإنس والجن ، ومن لا يجازي كالحيوان على ما ذهب إليه المحققون :

ثم الوقوف للحساب قد أتى — والصحف والميزان أيضًا ثبتا

اشتمل البيت على أربع مسائل :

[١] الوقوف . [٢] الحساب .

[٣] أخذ الصحف . [٤] الميزان .

وقدم الحساب على الصحف مراعاة لاستقامة الوزن ، وإلا فالصحف مقدمة على

الحساب ، لأنها من الوسائل ، والوسائل حقها التقدم على المقاصد ، وما اشتمل عليه البيت من هذه المسائل ، يجب على المكلف اعتقادها ، لما ثبت من الكتاب والسُّنَّة وإجماع أهل الحق .

المسألة الأولى : المراد من يوم الوقوف هو يوم القيامة لقيام الناس من قبورهم ، وقيامهم بين يدي خالقهم ، وقيام الحجة لهم عليهم ، وهو يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، من الإنس والجن والدواب والطير وغيرها ، قال الله تعالى : ﴿ **لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ** ﴾[النساء : ٨٧] ، وقال : ﴿ **يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا** ⑱ ﴾[النبأ : ١٨] .

ولذلك اليوم أهوال عظيمة ، وشدائد جسيمة ، تذيب الأكباد وتشيب الأولاد ، أخرج الشيخان عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا ، « **يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا ، ويجلمهم حتى يبلغ آذانهم** » . وفي بعض ألفاظ الحديث « **سبعين باعًا** » .

وأخرج مسلم عن المقداد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إذا كان يوم القيامة ، أدنيت الشمس من العباد ، حتى تكون قدر ميل أو ميلين فتصهرهم الشمس ، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم ، منهم من يأخذه إلى عُقبيه ، ومنهم من يأخذه إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجامًا** » .

واختلفوا كم مدة القيام والوقوف ؟ ، قيل : مئة سنة ، وقيل ثلاثمائة ، وقيل : سبعين ، وقيل : ألف سنة ، والأسلم الوقوف وتسليم الأمر لله لتعارض الروايات .

ومنهم من قال : يختلف باختلاف أحوال الناس ، فيطول على الكفار ، ويتوسط على الفساق ، ويخف على الطائعين ، كما في صحيح ابن حبان عن أبي سعيد الخدري ﷺ : « **والذي نفسي بيده ، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة** » .

المسألة الثانية : أخذ الصحف بالشمال واليمين ثابت بالكتاب والسُّنَّة والإجماع .

والمراد بالصحف : الكتب التي كتبتها الملائكة ، وسطرت ما عمل كل إنسان

من قول أو فعل ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) ﴾ [التكوير : ١٠] ، أي التي فيها أعمال بني آدم ، نشرت للحساب إلزامًا للعباد ، ورفعًا للجدل والعناد ، قال الله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) ﴾ [الإسراء : ١٣] .

وظواهر الآيات والأحاديث شاهدة بعمومه لجميع الأمم، إلا الأنبياء والملائكة لعصمتهم،ومن يدخل الجنة بغير حساب،وقد ورد أن الريح تطير الصحف من خزانة تحت العرش،فلا تخطيء صحيفة عنق صاحبها،وورد أن كل أحد يدعي فيعطى كتابه .

وجمع بينهما بأن الريح تطيرها أولاً ، ثم تأخذها الملائكة من أعناقهم وتعطيها لهم في أيديهم ، فالمؤمن المطيع يأخذ كتابه بيمينه ، والكافر يأخذه بشماله ، تلوى يده خلف ظهره ، ثم يعطى كتابه ، أو تنزع من صدره إلى خلف ظهره ، والمؤمن العاصي بشماله بأمامه ، وقال الماوردي : يأخذه بيمينه .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) ﴾ [الانشقاق : ٧ – ١٢] .

وهل القراءة حقيقية ولو كان أميًا ، أو مجاز عن علم كل أحد بما له أو عليه ؟ ، والظاهر الأول، فالمؤمن كتابه أبيض بكتابة بيضاء فيقرأه فيبيِّض وجهه، والكافر عكسه.

[٧] الحساب :

معناه اصطلاحًا : توقيف الله الناس على أعمالهم ، خيرًا كانت أو شرًا ، قولاً كانت أو فعلاً ، تفصيلاً لجميع جزئيات الأعمال .

وقد ثبت بالكتاب والسنّة وإجماع أهل الحق :

قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ .

[المجادلة : ٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ .

[الحجر : ٩٢] .

وقال تعالى في حق أعدائه : ﴿ **أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** ﴾ .
[الرعد : ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ **أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ** ﴾ [الرعد : ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)** ﴾ [الحاقة : ١٥ – ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)** ﴾ [الكهف : ٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٨١)** ﴾ [البقرة : ٢٨١] .

[١] **فقيل** : المراد به أن يخلق الله في قلوبهم علومًا ضرورية بمقادير أعمالهم من الثواب والعقاب .

[٢] **وقيل** : أن يوقف الله عباده بين يديه ، ويؤتيهم كتب أعمالهم ، فيها سيئاتهم وحسناتهم ، فيقول : « **هذه سيئاتكم قد تجاوزت عنها ، وهذه حسناتكم قد ضاعفتها لكم** » .

[٣] وهو الراجح إن شاء الله تعالى أن يكلم الله عباده في شأن أعمالهم ، وكيفية ما لها من الثواب ، وما عليها من العقاب .

وقد أتت من الأحاديث طائفة تؤيد هذا الأخير :

▪ **منها** : ما أخرج الترمذي أن رسول الله ﷺ قال : « **لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع ، عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ما عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه** » .

وروى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن النَّبي ﷺ قال : « **ليس أحد**

يُحاسب يوم القيامة إلا هلك » ، فقلت : يا رسول الله : أليس قد قال الله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨)** ﴾ [الانشقاق : ٧ ، ٨] ، فقال رسول الله ﷺ : « **إنما ذلك العرض ، وليس أحدٌ يناقش الحساب يوم القيامة إلا عُذِّبَ** » (١) .

وكيفيات الحساب مختلفة وأحواله متباينة :

فمنه العسير ، ومنه اليسير ، ومنه التوبيخ والتبكيت ، ومنه الفضل والصفح .

والصحيح : أن السؤال والحساب عن جميع الأقوال والأفعال ، لا عن الكفر والإيمان فقط ، ويعم جميع الثقلين ، حتى الأنبياء والمرسلين لقول الله تعالى : ﴿ **فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦)** ﴾ [الأعراف : ٦] ، إلا أن حساب الأنبياء ليس على سبيل المناقشة ، وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته لكونهم معدومي الحسنات ، ولكن تعد أعمالهم وتحصى ، فيوقفون عليها ويقررون بها .

وقد ثبت في عدة أخبار أن طائفة من أُمَّة محمد ﷺ يدخلون الجنة بلا حساب ، قال بعض العماء : وكذلك أطفال المؤمنين ، وعموم الآيات الكريمة مخصوص بأحاديث من يدخل الجنة بغير حساب .



فصل
في الكرام الكاتبين

قد وُكِّل الإله ذو الإنعام ... اثنين حافظين للأنام
فيكتبان كل فعل قد صدر ... كما أتى في قول خالق البشر

مما يجب الإيمان به : الاعتقاد بملائكة موكلين بالعبد ، يكتبون كل ما يصدر من العبد من خير أو شر أو غيرهما ، قولاً كان أو عملاً أو اعتقاداً في كل حال وعلى كل حال .

قال مجاهد : حتى أنينه في مرضه ، واستدل لذلك بقوله : ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)** ﴾ [الإنفطار : ١٠ - ١٢] ، وفي آية أخرى : ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)** ﴾ [ق : ١٨] ، أي : حافظ وحاضر ، لا كما قد يتوهم من أحدهما رقيب والآخر عتيد .

واختلف في عدد الكاتبين ، فقيل : أربعة ، اثنان بالليل، واثنان بالنهار، وقيل: خمسة ، واحد لا يفارق في ليل ونهار ، والمشهور أنهما اثنان ، وهو الظاهر من لفظ القرآن ، والمراد بالجمع في قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠)** ﴾ ما فوق الواحد ، ومما وقع فيه الخلاف، هل الكافر عليه حفظة ؟ ، الصحيح : نعم ، لأن قوله تعالى : ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)** ﴾ نكرة في سياق النفي وهي للعموم ، وحينئذٍ يدخل العبد الكافر ، لأنه تضبط عليه وأنفاسه ، وهو الجاري على القول بتكليفهم بفروع الشريعة ، وهو معتمد الثلاثة خلافًا لأبي حنيفة ، والصحيح : كتب حسنات الصبي، ولا يكتب عليه : يكون عليه حفظة بخلاف المجنون ، لأن لا يكتب له ولا عليه .

وهل هناك حفظة على الجن والملائكة ؟ ، قال الباجوري : نقلاً عن اللقاني ، وقد تردد الجزولي في الجن والملائكة أعليهم حفظة أم لا ؟ .

ثم جزم بأن الجن عليهم حفظة ، واستبعد القول في ذلك في الملائكة ، وهل المراد بالحافظين هم الكاتبون ، أو الحافظون للعبد من المضار ؟ ، الراجح أن هناك حفظة يحفظون العبد من المضار سوى الموكلين بالكتابة ، قال الله تعالى : ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾[الرعد : ١١] من المضار، ويراقبون أحواله من أجل أمر الله ، فإذا جاء القدر خلوا عنه ، وقيل : من بمعنى الباء أي بأمر الله ، ومعنى معقبات : ملائكة بعد ملائكة ، حفظة بالليل تعقب بعد حفظة النهار ، حفظة النهار تعقب بعد حفظة الليل، وعدد الحفظة قيل: عشرة بالليل وعشرة بالنهار، واحد عن يمينه وواحد عن شماله ، اثنان بين يديه ومن خلفه ، واثنان على جبينه ، وآخر قابض على ناصيته ، فإن تواضع رفعه ، وإن تكبر وضعه ، واثنان على شفتيه ليس يحفظان عليه إلا الصلاة على محمد ، والعاشر يحرسه من الحية أن تدخل فاه إذا نام .

وهؤلاء الحفظة لا يفارقون العبد أبداً بخلاف الكتبة ، فإنهم يفارقون العبد عند قضاء حاجة الإنسان ، وعند الجماع ، وعند الغُسل ، ولا يمنع ذلك من كتب ما يصدر منه ، لأن الله يجعل لهم علامة على ذلك كما في الاعتقاد .

وفي غير الأحوال الثلاثة لا يفارقونه ، ولو كان بيته فيه جرس أو كلب أو صورة ، وحديث : « **لا تدخل الملائكة بيتًا فيه جرس أو كلب** » ، المراد : ملائكة الرحمة .

ولقائل أن يقول : ما الفائدة من كتب الملكين ، مع أن الله عليم بكل شيء ؟ ، وجوابه : فعل ذلك إقامة للعدل ، وترغيبًا في الحسنات ، وترهيبًا عن السيئات ، وأن العبد إذا علم بهذا ، أستحى وترك المعصية .

والكتب حقيق بآلة وقرطاس ومداد يعلمه الله حملاً للنصوص على ظواهرها ، وفي بعض الأحاديث أن لسانه قلمهما ، وريقه مدادهما [١] .

واختلف في محلهما من الشخص ، ناجذاه أي : آخر أضراسه الأيمن والأيسر ، وقيل : عاتقاه ، وقيل : ذقنه ، والأسلم الوقف .

---

(١) والتفويض أولى .

[٨] الميزان :هو ثابت بالكتاب والسُّنة والإجماع :

قال الله تعالى : ﴿ **وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم** ﴾ [الأعراف : ٩] .

وقال تعالى : ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)** ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

قال العلماء : إذا انقضى الحساب ، كان بعده وزن الأعمال ، لأن الوزن للجزاء ، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة ، لأن المحاسبة لتقرير الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها، ونؤمن بالميزان ، وله لسان وكفتان ، وهو ميزان واحد على الأشهر لجميع الأُمم ولجميع الأعمال ، كفتاه كأطباق السموات والأرض ، وقيل : لكل أُمَّة ميزان ، وقيل : لكل واحد من المكلفين ميزان .

وهل توزن نفس الأعمال ؟ :

فتصور الأعمال الصالحة بصورة حسنة ، ثم تطرح في كفة النور وهي اليمنى المعدَّة للحسنات ، وتصور الأعمال السيئة بصورة قبيحة ، ثم تطرح في كفة المظلمة ، وهي الشمال المعدة للسيئات .

أم يوزن العبد مع عمله ؟ :

الراجح الأول : وصححه ابن عبد البر والقرطبي ، وذهب إليه جمهور من المفسرين ، ويؤيده حديث البطاقة والسجلات ، حيث ينشر له تسع وتسعون سجلاً، ولا ينكر شيئًا مما حرر ، ثم لا يأتي بعذر أو حسنة فتخرج بطاقة فيها الشهادتان ، فتوضع الجسلات في كفة والبطاقة في كفة ، فتطيش السجلات ، وتثقل البطاقة ، وكيفية الوزن في الآخر كما في الدنيا ، وقيل بالعكس ، أي : ما ثقل ارتفع ، وما خف وزن .

وقد وردت عدة أحاديث في ثبوت الميزان :

■ **منها :** ما أخرجه الحاكم وصححه من حديث سلمان الفارسي عن النَّبي ﷺ ، أنه قال :« **يوضع الميزان يوم القيامة ، فلو وزن فيه السموات والأرض لوسعهن ،**

فتقول الملائكة : يارب لمن يزن هذا ؟ ، فيقول : لمن شئت من خلقي ، فتقول الملائكة : ما عبدناك حق عبادتك » .

فإن قيل : ما الحكمة من الوزن مع علمه تعالى بكل شيء ؟ .

فالجواب :

الحكمة في ذلك تعرِّيف الله عباده ، ما لهم عنده من الجزاء من خير أو شر .

وقال الشيخ مرعي : بل الحكمة ، إظهار العدل وبيان الفضل حيث أنه يزن مثاقيل الذر ، من خير أو شر ﴿ **وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء : ٤٠] .

الصراط :

كـذا الصـراط ثم الحـوض ... فكوثر شفَّاعة للمقتفي

اشتمل على مسائل : أولها : الصراط ، فيقرأ بالصاد والسين والزاي ، وهو جسر ممدود على متن جهنم ، يرده الأولون والآخرون ، حتى الكفار ، حتى النَّبيين والصدِّيقين ، ومن يدخل الجنة بغير حساب ، وهو ثابت بالأحاديث ، واتفقت عليه كلمة أهل السُّنَّة :

فمن الأحايث :

﴿ أ ﴾ ما أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري ، قال : « **بلغني أن الجسر أرق من الشعر ، وأحد من السيف** » .

﴿ب﴾ وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « **لجهنم جسر أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، عليه كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله ، والناس عليه كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل ، والركاب والملائكة يقولون : ربي سلم ، فناج مُسَّلم ، ومخدوش ، ومكور في النَّار على وجهه** » .

ونازع القرافي والعز بن عبد السلام في كونه أرق من الشعر ، وأحد من السيف ، محتجًا بأن لم يره في الروايات الصحيحة .

وقال : على فرض الصحة وهو محمول على غير ظاهره ، بأن يؤول بأنه كناية عن شدة الأمر .

قال القرافي : والصحيح أنه عريض وفيه طريقان ، يمنى ويسري ، فأهل السعادة يُسلك بهم ذات اليمين ، وأهل الشقاوة ذات الشمال ، وفيه طاقات كل طاقة تنفذ إلى طبقة من جهنم .

وقال بعض المعتزلة : المراد بالصراط طريق الجنة وطريق النَّار ، وهو قريب من كلام القرافي .

[٩] الحوض :

يجب على المكلف اعتقاده لثبوته بالسُّنَّة المتواترة من رواية بضعة وخمسين صحابيًا ، منهم الخلفاء الأربعة الراشدون ، وحفَّاظ الصحابة المكثرون .

﴿ أ ﴾ **منها :** ما رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **إن قدر حوضي كما بين أيلة إلى صنعاء من اليمن ، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء** » .

﴿ب﴾ وأخرج الشيخان وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : « **حوضي مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، من شرب منه لا يظمأ أبدًا** » .

﴿ جـ﴾ وفي رواية : « **حوضي مسيرة شهر ، وزواياه سواء ، وماؤه أبيض من الورق** » ، وهل قبل الصراط أو بعده ؟ ، الراجح أنه قبله .

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ : والمعنى يقتضي تقديم الحوض على الصراط ، فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشى ، فناسب تقديمه .

قال بعضهم : ويحتمل أن يقدم الشرب من الحوض قبل الصراط لقوم ، وبعده لآخرين، بحسب ما عليهم من الذنوب ،حتى يهذبوا منها على الصراط ، يرده المؤمنون، ويذاد عنه المرتدون ، والظلمة المسرفون ، والمعلنون بكبائر الذنوب المستخفون ، وأهل الضلال والبدع الممقوتون .

﴿ د ﴾ وثبت ذلك بروايات كثيرة : منها ما رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن النَّبي ﷺ قال : « **فوالله ليقتطعن دوني رجال ، فلأقولن أي رب منِّي ومن أُمَّتي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوه بعدك ، ما زالوا يرجعون على أعقابهم** » . الصحيح أن لكل نبي حوضًا ، حوض نبينا ﷺ أعظمها وأحلاها وأكثرها واردًا .

قيل : هو الكوثر بعينه ، والراجح أنه غير الكوثر ، إلا أنه يستمد من الكوثر ، كما أتى في بعض الروايات ، أنه يشخب فيه ميزابان من الكوثر ومعنى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ① ﴾ [الكوثر : ١] ، هو الكوثر في الجنة .

﴿ هـ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « **هل تدرون ما الكوثر** » ؟، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « **هو نهر أعطانيه ربي في الجنة ، عليه خير كثير ، ترد عليه أُمَّتي يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب** » .

﴿ و ﴾ وفي صحيح البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « **بينا أسير في الجنة ، إذ أنا بنهر حافتاه اللؤلؤ المجوف ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ ، قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ، فضرب الملك بيده ، فإذا طينه مسك أذفر** » .

[١٠] الشفاعة :

للنبي ﷺ شفاعات عديدة :

الأولى : الشفاعة العظمى ، وهي المخصوصة به ﷺ ، وهي متفق عليها ، وهي المقام المحمود ، وقد وردت عدة أحاديث في هذه الشفاعة وغيرها ، وهذه الشفاعة هي المرادة بقوله ﷺ : « **لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، إني اختبأت دعوتي شفاعةً لأُمَّتي** » .

وهي لجميع الأُمم من هل الموقف ، وتكون لأجل حسابهم ، وإراحتهم من الموقف، وفصل القضاء بينهم ، لأن من شدة هول الموقف ، وطول القيام ، يتمنون الانصراف من موقفهم ولو إلى النار .

وتلخيصها اختصاراً :

إن الناس لما ينالهم من النصب والأهوال الشديدة ، يلهم الله المؤمنين بأن يقولوا : لو استشفعنا ربنا حتى يريحنا ، فيقول بعضهم لبعض : أبوكم آدم أجدر بهذا ، فيأتون إليه ، فيأمرهم بالذهاب إلى نوح ، ونوح إلى إبراهيم ، وإبراهيم إلى موسى ، وموسى إلى عيسى ، وعيسى إلى محمد ﷺ ، فيأتون إليه فيقولون : أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر ، فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ، فيسجد تحت العرش ويلهمه الله من محامده وحُسن الثناء عليه ، ما لم يمنحه أحداً قبله ، فيقال : « **يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تُشَفَّع** » ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ** ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

الثانية : شفاعته في قوم مستحقي النار أن لا يدخلوها .

الثالثة : فيمن دخل النار أن يخرج منها .

وخالفت المعتزلة والخوارج في هذين ، وهم محجوجون بالأحاديث الصحيحة الكثيرة ، ومنها حديث أنس ، أخرجه أبو داودو الترمذي والحاكم والبيهقي ، وقالوا : حديث صحيح « **شفاعتي لأهل الكبائر من أُمَّتي** » [١] .

وأخرج البخاري عن عمران بن حصين عن النَّبي ﷺ : « **يُخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ ويدخلون الجنة ويسمون الجهنَّميين** » .

الرابعة : شفاعته في رفع درجات أهل الجنة فوق ما تقتضيه أعمالهم .

الخامسة : شفاعته في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب ،ويشهد لهذا النوع حديث عكاشة بن محصن ، حين دعا له الرسول ﷺ أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب .

السادسة : شفاعته في تخفيف العذاب ، كشفاعته في عمه أبي طالب لتخفيف عذابه .

السابعة : شفاعته أن يأذن الله لجميع المؤمنين في دخول الجنة ، وقد صح في مسلم : « **أنا أول شفيع في الجنة** » .

---

(١) الحديث ضعيف ، تراجع السلسلة الضعيفة للعلامة الألباني - رحمه الله - .

كـمـا لغـيـره مـن الأبـرار غـيـر الـذي خـصص بالمختـار

معناه :

يشفع غير نبينا من المرسلين والأنبياء والملائكة والعلماء والأولياء والصحابة والشهداء ، لثبوت الأخبار ، وترادف الآثار وهو جائز غير مستحيل ، ومما ورد قول النَّبي ﷺ : « **أنا أول شافع وأول مُشفع** » .

وأخرج ابن ماجه والبيهقي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ : « **يشفع يوم القيامة الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء** » .

وفي الصحيح من حديث أبي سعيد مرفوعًا : قال : « **فيقول الله : شفعت الملائكة ، وشفع النَّبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار ، فيخرج منها قوم لم يعملوا خيرًا قط** » .

شبهة لمنكري الشفاعة وردها :

وتمسك منكرو الشفاعة من المعتزلة والخوارج بقول الله تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ** ﴾ [البقرة : ٤٨] ، وقول الله تعالى : ﴿ **مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ** ﴾ [غافر : ١٨] .

فإذا قال قائل : كيف يخرج قوم من النار بشفاعة رسول الله ﷺ ويدخلون الجنة ويقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢)** ﴾ [آل عمران : ١٩٢] ، وقول الله تعالى : ﴿ **وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ** ﴾ [الأنبياء : ٢٨] ، ومن أخزاه الله لا يرتضيه ، ومن ارتضاه لا يخزيه .

والجواب :

[١] إن الذي أُنزلت عليه هذه الآيات الكريمات التي أوردتموها ، هو الذي نقل عنه نقلاً متواترًا معنويًا في شفاعاته ، وشفاعة غيره من الأنبياء والمرسلين ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشر : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ **وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ** ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

والحكمة هي السُّنَّة على تفسير بعضهم ، وقال ﷺ : « **أوتيت القرآن ومثله معه** » .

والوحي قسمان :

الأول : دوِّن باللفظ والمعنى الذي نقله جبريل عن الله العظيم إلى النَّبي ﷺ ، وهو القرآن .

والآخر : أوحى إليه معناه ، وعبَّر عنه المصطفى ﷺ بلفظه ، وهو الحديث .

ويجب علينا أن نؤمن بالوحيين ، ولا نضرب بعضه ببعض ، ولا نقول : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، والسُّنَّة تُفسر القرآن ، وهذا معروف عند جميع العلماء .

[٢] إن الآيات التي فيها نفي الشفاعة مخصوصة بالكفار ، لأن الظالمين على الإطلاق هم الكفار ، ويؤيد هذا سياق الخطاب مع الكفار .

[٣] إن النفي مُنصب على الشفاعة المعروفة عندهم بدون إذن من المشفوع عنده .

ونحن نقول : إنها تكون بإذن الله تعالى لقوله تعالى : ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إلاَّ بِإِذْنِه** ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

وأما قوله تعالى : ﴿ **إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ** ﴾ أي : من تُدخله مُخلداً ، فقد أهلكته وأبعدته ، وإن سلم أنها في عصاة الموحدين ، فخزيهم استحياؤهم من دخول النار مع الكفار ، لكنهم يخرجون بشفاعة النَّبي الكريم .

تنبيه :

قد تعلق قوم من الجهال والمتصوفة وبعض المتفقهة المنتسبين إلى العلم بحديث الشفاعة العظمى ، من أن الأنبياء تفزع إليهم الأُمم ، ويكون المرجع الأخير سيد الثقلين .

شبهة للقبوريين ودحضها :

واستدلوا من ذلك على جواز الاستغاثة والتوسل بالأنبياء والصالحين ، فأخذوا ينزلون حاجاتهم ورغباتهم إلى المقبورين ، ويصرفون لهم الأموال الطائلة ، ويقربون القرابين بدعوى محبة الصالحين ، والتوسل بأولئك المتقين .

لهذا ترى كثيراً من الناس إذا وقعوا في شدة من الشدائد ، أو تعلقت أنفسهم برغبة من الرغبات ، ويهتفون بأسماء يظنون أن أصحابها قادرون على إنقاذهم مما هم فيه من شدة وبلاء ، أو إظفارهم بما تطمح إليه قلوبهم ، فيقولون : يا بدوي ، يا جيلاني ، يا رفاعي ، يا حسين بن عليّ ، زاعمين أن هؤلاء الصالحين لهم عند الله شرف عظيم ، ومكانة عالية،فنحن نستغيث بهم أو نتوسل بهم ليشفعوا لنا عند الله ، مؤيدين زعمهم الباطل بما مر ، ويمثل حديث فاطمة بنت أسد أن النَّبي ﷺ حين دفنها قال : اغفر لأمي فاطمة بنت أسد بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي ، وبأحاديث أخر ، وبحكايات وبعض آيات لا تدل على المطلوب .

والجواب :

قد ذكرنا سابقًا أن الله تعالى أرسل الرسل لمحو الوثنية ، وتشييد صرح التوحيد .

ومعنى التوحيد : إفراده بالعبادة ، والعبادة تشمل الحب والبُغض والرغبة والرهبة والحلف والنذر والاستغاثة والنحر والصلاة والطواف ونحو ذلك ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** (١٨) ﴾ [الجن : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [النحل: ٣٦] .

فإنزال الرغبة والرهبة والاستغاثة بغير الله تعالى ، يكون شركًا أكبر ، والقرآن والسُّنَّة مملوءان من النهي عن دعوة الأموات ، والانقطاع إليهم ، ومنها قول الله تعالى : ﴿ **وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ** (١٠٦) ﴾ [يونس : ١٠٦] ، وقوله الله تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ** (٥) **وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ** (٦) ﴾ [الأحقاف : ٥] .

جواب حديث الشفاعة :

والجواب على حديث الشفاعة أن نقول :

[١] استشفاع الأمم بالمرسلين في حالة حياة أكمل من حياتنا هذه ، ولا نزاع في جواز التشفع ، والاستغاثة بالحي فيما يمكنه .

[٢] إن هذا في الآخرة ، ولا يصح أن نلحق شؤون الآخرة بالأولى ، فإن لكل أحكامًا تغاير أحكام الأخرى، فهنا يقبل الله من العبد الإيمان والتوبة، وهناك لا يقبل ، وقياس الدنيا على الآخرة من أفسد الأقيسة ، وعلى التنزيل ، فما فيه إلا الاستشفاع ، فأين فيه الاستغاثة .

جواب حديث فاطمة بنت أسد :

وحديث فاطمة بنت أسد ليس بصحيح ، فإن فيه روح بن صالح المصري ، وهو ضعيف ، وغاية ما فيه إن صح سؤال بحق الأنبياء، وهو يرجع لصفة من صفاته تعالى ، إذ من حق السائلين إجابة الله ، وإعطائه سؤالهم ، وهما صفتان له تعالى ، فحق الخلق قد يكون صفة من صفات الله ، قال تعالى : ﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الروم : ٤٧] ، وليس في الحديث سؤال المخلوقين والاستغاثة بالمقبورين .

جواب من جواز الاستغاثة بالأنبياء بشبهة أنهم أحياء في قبورهم :

ودعوى الأنبياء أحياء في قبورهم والشهداء ، وبناءً على هذا يجوز الاستغاثة بهم لكونهم أحياء يشعرون ؟ .

فالجواب :

إن الحياة البرزخية لها شأن غير الحياة الأخروية والدنيوية ، والأرواح حية حياة برخزية ، وإن لم تكن أرواح الأنبياء والشهداء والصالحين ، لأنها لا تخلو من نعيم أو عذاب أليم ، ولو جاز ما قالوا ، لجاز دعوة الملائكة والجان والحور في الجنان ، ولجازت الاستغاثة بهم ، وطلب الشفاعة منهم ، فإن حياة الملائكة والجن ولا سيما المؤمنين وحياة الحور المخلوقة في الجنان ، لا تقل عن حياة الأموات الروحية البرزخية ، بل لا ريب أن الملائكة والجن أحياء حياة حقيقية ، وأقدر على الاستجابة من الأموات ، وأجدر بالسماع والإعطاء والنفع والضر ، إن كان الأموات قادرين على شيء من ذلك .

فإن جوزوا ذلك ، فيلزمهم تجويز هذا ، وإذا جوزوا هذا وهذا ، فنعلم بالضرورة أنهم من الحمق بمكان قصي ، ومن الجنون والجهالة بأعلى درجة .

[٣] ولو جاز دعوة من كان في البرزخ حيًا ، لجاز دعوة جميع الميتين المؤمنين

المتقين ، والفاسقين ، والكافرين ، لأن أرواحهم حية ، وهذا لا يقوله مجنون فضلاً عن عاقل .

وإذًا ما معنى الآيات الناصة على أن غيره تعالى لا يدعى ولا يُسْأَلُ مثل قول الله تعالى : ﴿ **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (١٤)** ﴾ [الرعد : ١٤] ، وقول الله تعالى : ﴿ **قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ** ﴾ [الزمر : ٣٨] . وأمثال هذه الآيات كثيرة لا تُعد ولا تُحصر .

[٤] ولو صح ما قالوا لاستغاثة الصحابة بالنَّبي ﷺ لكونه حيًّا ، وقد أُصيبوا بمشاكل ومصاعب ، ولم يأتوه يسألوه ، أو يستغيثوا به ، أو ينادوه لكشف الضراء والبأساء ، كما لم يفعله أحد من التابعين وأعيان الملة ، وقد أُصيب الكثير منهم بمصائب وشدائد .

والقول بأن هذا الآيات واردة في قوم كفار ؟ .

فالجواب :

أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وبالجملة فهنا مسألتان :

الأولى : الاستغاثة : كان يقول المسلم : يا فلان أنقذني ، أو ادفع عني ، أو اعطني ، أو ارزقني ، ينادي ميتًا أو غائبًا من مكان بعيد ، فهذا شرك أكبر ، ومعلوم من الدين بالضرورة أنه لم يفعله الرسول ﷺ ولا الصحابة ولا التابعون لهم بإحسان ﷺ أجمعين ، ولا جوزه أحد من العلماء المقتدى بهم ، مثل أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وابن المبارك وسفيان الثوري ، وابن عُيينة ونظرائهم .

ودعاء الخلق وسؤالهم الحاجات ليست من دين الإسلام ، بل هي الوثنية بعينها ، مصبوبة في قوالب تعظيم الأنبياء والصالحين ، ولم يأت في آية ولا في حديث صحيح أو حسن ، ما يُفهم منه الجواز ، بل الآيات والأحاديث تقضي بهدمه وبكفر فاعله .

الثانية : التوسل : كان يقول : بحق فلان أو بجاه فلان ؟ .

والجواب :

إن هذا التوسل من المبتدعات ، لم يأت من القرآن ولا من السُّنَّة الصحيحة ما يؤيده ، وما يروى من مثل توسل آدم بالنَّبي ﷺ ، وحديث فاطمة بنت أسد ، وحديث الأعمى ، لا يخلوا من ضعف أو وضع .

وما كان الصحابة تفعل هذا التوسل، وإنما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه ﷺ ، يطلبون منه أن يدعو لهم ، ويؤمِّنون على دعائه ، ولم يأت هذا التوسع المبتدع عن الصحابة ، ولا عن التابعين ، ولا عن أحد من الأئمة المعتبرين ، ولكن وجد هذا لدي الجهال وأهل الطرائق وأدعياء العلم ، حتى أن كثيراً من كتب في استحبابه مؤلفات ، بل قالوا بلا حياء وخجل : إن مانعي التوسل مبتدعون ، وللسُّنَّة مجانبون ، ولم يأتِ المجيزون للتوسل بحديث صحيح أو حسن يؤيدهم .

وأما التوسل المشروع : فهو بالأعمال الصالحة ، وبالقرآن ، والإيمان ، وبدعاء الصالحين ، بأن تطلب من أحيائهم أن يدعو لك .

تصفح القرآن الكريم في دعاء الأنبياء إلى ربهم ، تجد أنهم لم يتوسلوا بمخلوق أبدًا ، لا برسول ولا بملك ، قال الله تعالى يحكي عن آدم وزوجه لما ندما على ما فعلا ﴿ **قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** (٢٣) ﴾ . [الأعراف : ٢٣] .

وقال تعالى ﴿ **قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي** (٢٥) **وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي** (٢٦) **وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي** (٢٧) **يَفْقَهُوا قَوْلِي** (٢٨) ﴾ [طه : ٢٥] .

وقال تعالى ﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** (٨٣) ﴾ [الأنبياء : ٨٣] .

وهكذا غيرهم عليهم السلام ، وكذلك أهل الصخرة التي انطبقت عليهم وهم في الغار لم يتوسلوا إلا بصالح الأعمال ، وفي هذه المسائل مؤلفات وردود ، فليراجعها من يريدها ، ولا نطيل بذكرها رومًا للاختصار .

وقد أكثر الخرافيون والقبوريون من التوسلات والاستغاثات بالقبور المزعومة أنها قبور الأولياء والصالحين ، وطلبوا منهم ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى ، كالشفاء من المرض ، وإعطائهم الولد ، أو دفع الظالمين ، أو غفران الذنوب من رب العالمين ، بأن يدعو لهم بذلك المقبور من الصالحين بزعمهم ، وصرفوا لهم من النذور والذبح على القبور ما هو مذكور ومشهور .

ورحم الله تعالى الشيخ أحمد بن محمد العبادي اليمني ، حيث قال في منظومته هداية المريد :

فـمـا لَكُم يا مـعـشـرَ الجُـهَّـال ... تدعُـونَ غـيـر الله ذي الجـلال
في جـلْب نفع أو لِدفع ضُـرٍّ ... أَوْ بُرء سـقـم وارتـفـاع شـرٍّ
مَنْ ليس يُغْني نفسه مِنْ ضُـرِّها ... ولم يُطِقْ إِنْقاذها مِنْ فَـقْـرِها
وتسْـألون العـونَ والأمـداد ... والهـدي والإسـعـاد والإرشـادا
وتسـتـمـدون من الأمـوات ... تيسير عسر وقضا الحاجات
ألم تعـوا أن الدعـاء عـبـادة ... لا يمتـري فـيـه ذوو الشـهـادة
فـمن دعـا غـيـر الإله أحـدا ... يمنحـه الخـيـر ويكفـيـه الردى
فـإنه لمن دعـاه عـابـد ... سـواء الجـاهل والمعـانـد
وفي ثبـوت النهي في الكتـاب ... ذلائل لمبـتـغي الصـواب
يكفـيك أن الله قـال ادعـوني ... كـمثل ما قد قال فاعبدوني [1]
وفي الحـديث عن رسـول الله ... إذا استعنت فاستعن بالله
وإن سـألت فـاسـأل الله ولا ... تسـأل سـواه أحـداً من الملا [2]

---

(١) الإشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر : ٦٠] ، وقوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴿٦٠﴾ **وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ** ﴿٦١﴾ ﴾ [يس : ٦١] .

(٢) حديث ابن عباس ، وهو الذي فيه : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » ، وكيف يجوز لمن يقول : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴿٥﴾ ﴾ ويكرر ذلك في صلاته اليومية سبع عشرة مرة ، أن يعبد غير الله ، أو يستعين بغيره ؟ ، وعند أهل البيان أن تقديم المفعول يقتضي الحصر كما في الآية ، أي لا نعبد غيرك ، ولا نستعين بسواك .

لأن من تدعـوه غـيـر قـادر من غـائـب أو سـاكني المقـابـر
وقـال طه خـيـر كل العـالم مخ العبادات الدعـاء فـاعلم [١]

[١١] الجنة والنار :

كـذاك نار جنة قـد وجـدا فلتـعـتـقـد لا تفنيـان أبداً

بعد أن أنهيت الكلام عن الشفاعة وأقسامها ، أشرع مبيناً في :

مسألة مصير الخلق في الدار الآخرة :

ذكر الله اللطيف الخبير مصيرهم في قوله تعالى : ﴿ **فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ** ﴾ [الشورى : ٧] ، وتطابقت الشرائع السماوية والكتب الإلهية بأن مصير أهل السعادة إلى الجنان ، وأهل الشقاوة إلى النيران ، واتفق أهل السُّنَّة والجماعة على وجود الجنة والنار ، حتى ظهرت فرقة المعتزلة ، وزعمت أنهما سيكونان فيما يأتي ، لأن وجودهما قبل الجزاء عبث .

وعززت أهل السُّنَّة عقيدتها بآيات من القرآن وبأحاديث صحيحة :

■ **فمن القرآن في وصف الجنة :** قال تعالى : ﴿ **أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٣٣] ، ﴿ **أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ** ﴾ [الحديد : ٢١] ،وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥)** ﴾ [النجم : ١٣ – ١٥] ، ولقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى ، ورأى عندها جنة المأوى.

■ **وقال تعالى عن النار :** ﴿ **إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢)** ﴾ [النبأ : ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ **أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ .
[البقرة : ٢٤ – آل عمران ١٣١] .

■ **ومن السُّنَّة :** في صحيح مسلم من حديث أنس رضي الله عنه : « **وأيم الله الذي نفسي بيده ، لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً ، وبكيتم كثيراً** » ، قالوا : وما رأيت يا رسول الله ؟ ، قال : « **رأيت الجنَّة والنَّار** » .

---

(١) حديث : « **الدعاء مخ العبادة** » حديث ضعيف، راجع السلسلة الضعيفة للألباني ـ رحمه الله ـ.

وثبت في الصحيحين : أن النَّبي ﷺ رأى الجنة في صلاة الكسوف ، حتى هم أن يتناول عنقوداً من عنبها ، ورأى النار فلم ير منظر أفظع من ذلك ، إلى غير ذلك من الأحاديث التي تربو على الحصر (١) .

وقولنا في النظم : فلتعتقد لا تفنيان أبداً ، يعني : يجب عليك أن تعتقد ببقائهما ، وعدم فنائها .

أما أبدية الجنة : فقد اتفق عليه أهل الحق ، وهم معلوم بالاضطرار من القرآن والسُّنَّة وأخبار الأنبياء ، وإليك بعض آيات تؤيد ما قلنا :

قال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ** (١٠٨) ﴾ [هود : ١٠٨] .

ومعنى الاستثناء في قوله : ﴿ **إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ** ﴾ ، راجع إلى العصاة الخارجين من النار ، أي : إلا ما شاء مدة مكثهم في النار قبل دخول الجنة ، وبعضهم قال : معناه أنهم مع كونهم في الجنة ، منعمين بالخلود الدائم ، لكنهم تحت مشيئة الله ، فلو شاء لأخرجهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ **فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ** ﴾ [الشورى : ٢٤] .

ونظائر هذا مما يبرهن وينبيء عباده ، أن الأمور كلها بمشيئة الله تعالى ، وقيل : إلا مدة مقامهم في البرزخ والموقف ، وهناك أقوال أخر تركناها (٢) .

ولنرجع لما نحن بصدده فنقول : قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ** (٥٤) ﴾ [ص : ٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ** ﴾ [الحجر : ٤٨] .

والأدلة من السُّنَّة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة :

■ **منها :** قوله ﷺ : « **من يدخل الجنَّة يُنعْم ولا ييأس ، ويُخلد فلا يموت** » .

وقد أتت رواية صحيحة بذبح الموت بين الجنة والنار على صورة كبش ، ثم النداء : يا أهل الجنَّة خلود فلا موت ، ويا أهل النَّار خلود فلا موت ، وأما أبدية النَّار

(١) **انظر** : حادي الأرواح للحافظ ابن القيم ، فإنه مخصوص في الجنة وما ورد في شأنها .
(٢) **انظر** : شرح الطحاوية والسفاريني وكتب التفسير ، كابن كثير والخازن وغيرهما .

فهو مذهب جمهور الصحابة والتابعين والعلماء والمشهورين من مؤسسي المذاهب وأتباعهم ، وهناك قول بأن الله يفنيها ، ولها أمد تنتهي إليه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - :

قد نقل هذا عن طائفة من الصحابة والتابعين ، فهذان قولان :

فقد نسب الكثيرون إلى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الحراني ، وإلى تلميذه المحقق الحافظ ابن القيم ، أنهما يقولان بفناء النَّار ، ولكن الصحيح الذي ظهر من كلام شيخ الإسلام في عدة مواضع أنه يقول بأبدية النَّار وليس بفنائها .

وأما الحافظ ابن القيم - رحمه الله - فله كلام كثير في حادي الأرواح ، وفي الصواعق المرسلة ، وقد يورد الأدلة من الطرفين بأسلوبه العجيب ، وعباراته الآخاذة ، ويشم منه أنه يميل إلى القول بفناء النار ، ولكن عند التحقيق يظهر أنه لا يقول بفناء النار كلها ، إنما يقول بفناء الطبقة التي يعذب عصاة المسلمين فيها ، فإنه لا يبقى في جهنم من عصاة الموحدين أحد ، فإنهم إذا عذبوا بقدر جرائمهم ، أخرجوا من النار فأدخلوا الجنة ، وبعد أن يخرجوا من النار تكون معطلة ، كما ذكر في الوابل الصيب . أ هـ . من كشف الأستار ، ملخصًا .

والثالث : قول جهم بن صفوان أن الجنَّة والنار تفنيان .

والرابع : نقلوا عن ابن عربي ناسبين إلى فصوصه : بأن أهل النار يعذبون مدة ، ثم تنقلب نارية ، فيتلذذون بها لموافقتها لطبائعهم ، ولا يشك ذو عقل في بطلان هذا القول ، وتصور كاف في بطلانه ، وبقيت أقوال تركناها للاختصار .

كالعرش ثم الكرسي ثم القلم والروح واللوح مع العجب اعلم

لما ذكر أبدية الجنَّة والنَّار ، وعدم فنائهما ، ذكر أن العرش ، وما عطف عليه كالجنَّة والنَّار في عدم الفنار ، وإن كانت مخلوقة .

وأما قوله تعالى : ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ** ﴾ [القصص : ٨٨] ، فهو من قبيل العام المخصوص ، لأن هذه الثمانية خصت بأدلة أخر ، وقال بعضهم : لا تخصيص ، ولكن معنى : هالك ، قبل للهلاك ، وهذه الأشياء غير قابلة للهلاك .

خاتمة نسأل الله حُسنها :

إلى هنا انتهيت من كتابي [**العقائد السلفية بأدلتها النقلية والعقلية**] ، وبه تم الكتاب ، هذا وقد تم تنقيح وتصحيح الكتاب في اليوم (الثامن والعشرين من ذي الحجة عام ١٤١١هـ الموافق التاسع والعشرين من يونيو ١٩٩٢م) .

والحمد لله الذي منَّ عليَّ بإتمامه ، وأسأل الله العظيم أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به عباده المؤمنين ، وأن يُثيبني ويجعله في ميزن حسناتي يوم القيامة ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)** ﴾ [الشعراء : ٨٨ ، ٨٩] ، كما أسأله تعالى أن يتقبل منا الأعمال والأقوال ، وأن يجنبنا طرق أهل البدع والضلال ﴿ **وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [يونس : ١٠] ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

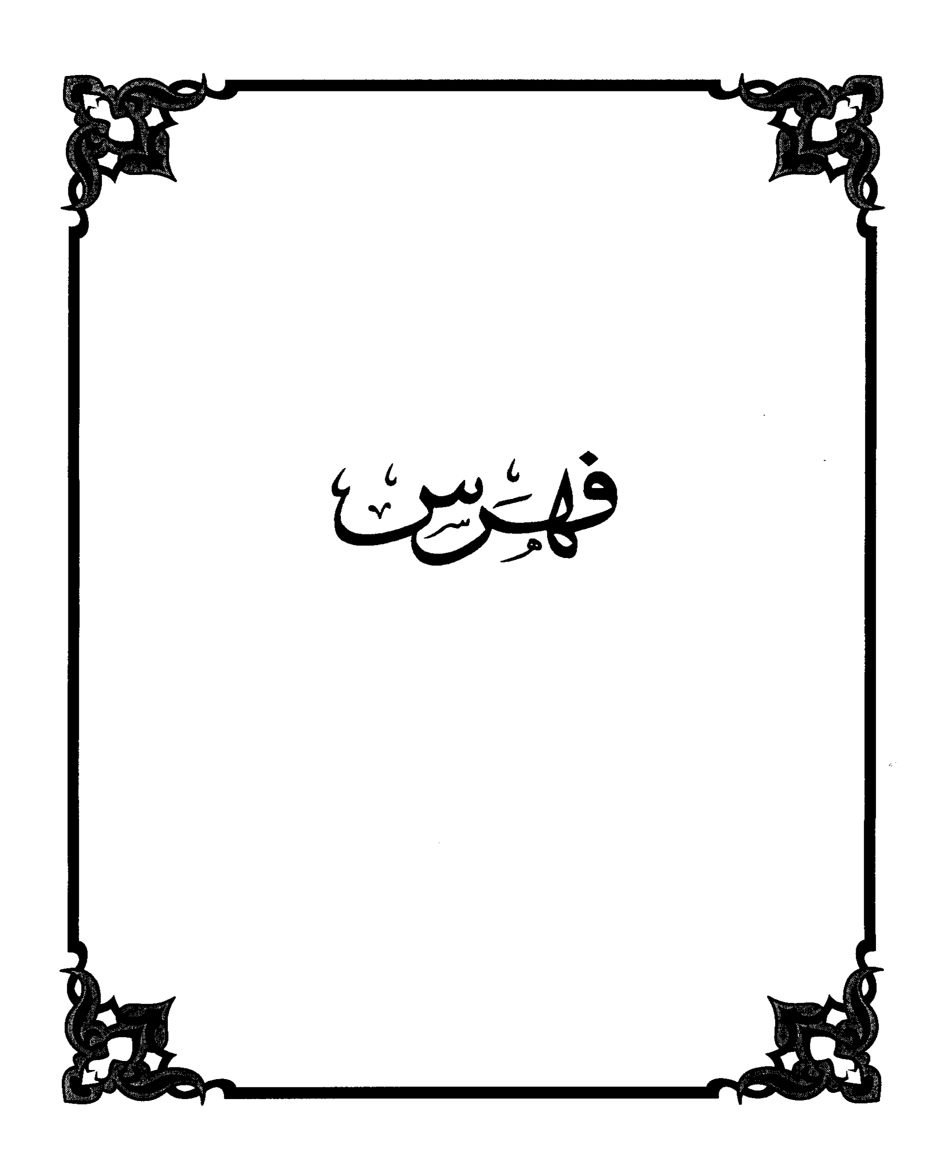
تأليف فضيلة الشيخ

أحمد بن حجر آل بوطامي البنعلي

رئيس قضاة المحاكم الشرعية بدولة قطر رحمه الله

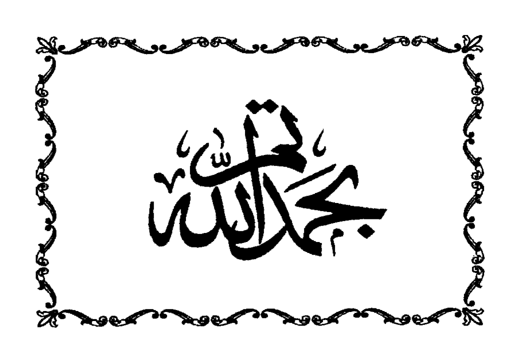
الدوحة في ١٤٢١/١٢/٢٨هـ

الموافق لـ ١٩٩٢/٦/٢٩م


فهرس

فهرس

رقم الصفحة



تحذير المسلمين عن الابتداع والبدع في الدين

تأليف فضيلة الشيخ

أحمد بن حجر آل بوطامي الشافعي السلفي

رحمه الله

خرج أحاديثه وعلق عليه

ياسر بن محمد بن عريف آل أبو ميز